ρ I

الرسول ρ

"سترى في هذا البحث ، بالدليل والبرهان أن محمداً رسول الله حقاً ، وأن محمداً أعظم الناس في كل شيء ، وأن الذين يتخذون غيره قدوة حمقى وناقصون.."

سعيد حوّى

مقدمة

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة الأصول الثلاثة "الرسول ρ" ، وقد استهدفت فيه مــع أخويه في السلسلة ما كنت قد ذكرته في مقدمة السلسلة ، وقد حاولت أن أعرض أدلة رســالة رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وهو موضوع قد كتبت فيه مئات الألوف من الصفحات قــديماً وحديثاً ، ومع ذلك فقد بقيت المكتبة الإسلامية المعاصرة فارغة من كتاب جامع يتحدث عــن مجموع القضايا الكبرى التي تعتبر أعلاماً على رسالته عليه الصلاة والسلام ، وإذا وجد شيء من ذلك في القديم فقد فاته ما قدمته معطيات عصرنا ، وإذا وجد شيء من ذلك حديثاً فقد كان في جانب دون أن يستوعب . فهناك من أبْرَزَ صفاته عليه الصلاة والسلم كعلم من أعلام نبوته ، وهناك من تحدث عن المعجزة القرآنية أو المعجزات ، وهناك من تحدث عــن البــشارات ، وهناك من تحدث عن النبوءات ، هناك من تحدث عن الآثار ، وهناك من جمع بين أكثر مــن جانب وذلك باختصار ، فكان لا بد من كتاب يسد هذه الثغرة ، وقد حاولت ذلك في هذا الكتاب مستفيداً من جهد الكاتبين في هذه الموضوعات.

وقد جعلت هذا الكتاب في مدخل وخمسة أبواب:

ذكرت في المدخل حاجة الناس إلى الرسل عليه الصلاة والسلام ، والمعالم التي جعلها الله علامة يُعرفون بها ، وأن هذه العلامات لا تظهر في رسول الله كما تظهر في محمد ρ .
وكان الباب الأول في صفاته وكمالاته التي لا يلحقه بمجموعها لاحق ، والتي لا تتأتى علـــى هذا الكمال والجمال والجلال والشمول إلاّ من رسول .

وكان الباب الثاني في معجزاته ؛ المعجزة القرآنية والمعجزات الأخرى .

وكان الباب الثالث في نبوءاته التي كان في تحققها علامة صدق على أنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

وكان الباب الرابع في ثمراته التي تشهد أنها ثمرات بنبوة ورسالة .

وكان الباب الخامس في بشارات الرسل السابقين عليه ρ ، وانطباق هــذه البــشارات عليه .

فجاء الكتاب جامعاً مختصراً شاملاً يعمق بإذن الله في قلب المؤمن – هـو والكتـاب الذي قبله – معاني الشهادتين " أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله " وهي كلمتا الإسلام ومفتاح الدخول إلى الجنة .

ولقد أزال الكتاب كثيراً من الشبه والإشكالات وصحح كثيراً من المفاهيم وقضى على أوهام ، فهناك مَن أبرز شخصية الرسول ρ على أنها عبقرية فذة وكمال هائل قاطعاً ذلك عـن الوحي والرسالة ، فأثبتنا في هذا الكتاب أنه أكمل خلق الله وهو محـل الاصـطفاء مـن الله ، وإنما كان أكمل خلق الله بما آتاه الله من الاستعداد وبما أوحاه إليه من الرسالة ووفّقه إليه مـن كمال الأعمال وجمال الأخلاق . وهناك من حاول أن ينفي معجزاته مما سوى القرآن أو ينفي الإعجاز من القرآن وهناك من حاول أن يجعل المعجزة هي الأصل فـي حياتـه ρ معطـلاً ابتلاءه في عالم الأسباب فجاء الكتاب مصححاً لهذا كله ، وهناك من الكـافرين مـن حـاول التشكيك في أفعاله وثمراته فنفى أن تكون ثمار نبوة فجاء هذا الكتاب مصححاً ومسدّداً ومفنّداً.

فاجتمع بذلك في الكتاب ما يحتاجه كل مسلم ؛ إنْ لمعرفة رسول الله ρ أو لمعرفة أدلة رسالته أو لمعرفة الشبه المعاصرة الرد عليها أو لمعرفة ما يحتج بـه وهـو يـدعو إلـى الله وينصر رسوله أو لمعرفة ما يزداد به توقيراً وتعظيماً لرسول الله ρ ، ولقـد طالـب الله كـل مؤمن أن يؤمن برسول الله ρ وينصره ويوقره : { إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}. (الفتح : 8 ، 9)

ونسأل الله أن يجعل في هذا الكتاب من النفع العام والخاص ما يجعلنا قـائمين بحـق رسول الله ρ ونسأله أن يتقبل ويغفر الزلل .

مدخل

من بين المخلوقات الحسية التي تعد بالبلايين يظهر هذا الإنسان بشكل متميز جداً ، وتميزه عن بقية المخلوقات يجعله عالَماً وحده ، تنطوي فيه العوالم ويبقى بعد ذلك بقية من التفرد .

ونواحي هذا التفرد في الإنسان كثيرة نشير إلى بعضها :

1 – في خلقته : قال تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ فِيۤ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }[1] فما من شيء في الإنسان إلا وقد ركب وصور على أحسن مثال وأجمله وأعدله وأكمله ، قارن بين الإنسان وبين أي مخلوق آخر من حيث الخلقة تجد تشابهاً في ما لا بد منه للحي كحي ، ثم ترى بعد ذلك أوجه التمايز . يد الإنسان تمتاز على أي مخلوق آخر ، ولولا هذا لما كانت حضارات ، وقامة الإنسان وانتصاب جسمه لا يشبه فيه غيره ، وبشرة الإنسان وأعضاؤه كل ذلك فيه تميز ، وهو في الإنسان أكمل وأعدل وأجمل من الظفر إلى الشعر إلى الأنف إلى الأذن إلى الوجه إلى القدم إلى أي شيء .

2 – في علمه : قال تعالى : { وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْمَآءَ كُلَّهَا }[2] وقال : {عَلَّمَ ٱلإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[3] فالإنسان أعطي ملكة التعلم بشكل لا مثيل له عند غيره . فالمادة لا تعقل أصلاً ، وكذلك النبات ، وعلم الحيوان محصور ضمن حدود طعامه وشرابه وسفاده ، والخطر الذي يتهدده ، ولا يتعلم شيئاً إلا بصعوبة . أما الإنسان فيعقل ذاته ، ويعقل غيره ، ويركب ويحلل ، يعرف الأشياء ، ولماذا وجدت ، وكيف يستفاد منها ، ويعرف القوانين التي تربط بين الأشياء أو التي تخضع لها الأشياء ، وآثار علم الإنسان واضحة جلية وتميز الإنسان في ذلك واضح جلي .

3 – في إرادته: قال تعالى : {إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}[4] إن العلم شيء سلبي ، والذي يجعله إيجابياً هو الإرادة ، وكلما كانت الإحاطة في موضوع أتم كان مجال الاختيار أوسع ، ولما كان الإنسان أكثر علماً فهو أوسع إرادة ، ومجال الإرادات أمامه أكثر وهو

---

[1] التين : 4 .
[2] البقرة : 21 .
[3] العلق : 5 .
[4] الإنسان : 2 .

بالتالي يملك أكبر قدر من الإرادة . ولذلك تراه يستطيع أن يتصرف أمام الحادث الواحد بأكثر من أسلوب ، فإذا ظلم قد يعفو أو ينتقم ، وقد يكظم غيظه أو يظهره ، وقد يؤخر الانتقام لتسنح له الفرصة وقد يجبن ، وقد يترفع وقد يسف ، وقد يرد بالمثل وقد يطغى وقد وقد ... مواقف كثيرة أمام الحادث الواحد ، أما الحيوان فله تصرف واحد أمام الحادث الواحد على ضآلة عدد مواقفه ومحدوديتها ... وهكذا فتميز الإنسان في صفة الإرادة واضح جلي .

4 – في مكانته وإمكاناته : إن مكانة الإنسان في الوجود هي السيادة ، وذلك أن كل شيء مسخر له : {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً}[1] . {أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ}[2] . {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ ٱلأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[3] وإمكانيات الإنسان تبلغ أن تستفيد من طاقات هذا الكون . فقدرة الإنسان هائلة يكفي لمعرفة تميزها على سبيل المثال أن نذكر أن كل الحيوانات لا تستطيع أن تصنع فأساً بينما صنع الإنسان الأقمار الصناعية والقنابل الذرية .

5 – في ملكة البيان عنده : قال تعالى : {ٱلرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ * خَلَقَ ٱلإِنسَانَ * عَلَّمَهُ ٱلبَيَانَ}[4] إن الحيوانات كلها لا تخرج من أفواهها إلا أصواتاً مبهمة ، أما الإنسان فإنه يستطيع أن يخرج هذه الأصوات وزيادة على ذلك فإنه يستطيع أن يخرج سبعاً وعشرين حرفاً تتركب منها مليارات الكلمات في كل لغات العالم يتكلم بها الإنسان . فيسخر ويضحك ويبكي ويفسد ويصلح ويشعر أو ينثر ويبين عن خلجات الخاطر وإشراقة الوجدان ، وقوانين الكون والسماء والأرض ويغني وينشد ، إن تميز الإنسان في ملكة البيان من أبرز خصائصه .

6 – في عقله وإدراكه وخياله وتصوره : إن الحيوان يشترك مع الإنسان في حواسه ولكن يمتاز عنه إدراكاً وتصوراً وخيالاً بشكل أرقى وأعلى . فالإنسان والحيوان يشاهدان زرقة البحر ولكن شتان بين النظرتين . فزرقة البحر ألهم بسببها الإنسان شعراً ونثراً وعلماً ومتعة وتأملات وإشارات وأشياء كثيرة ، وتضع السم للذبابة في ماء السكر فتأكل منه وتموت وتأتي الأخرى والأخرى ويمتن جميعاً ولا يخطر لواحدة منهن أن تتعظ ، ترى كم إنساناً يأكل من طعام مات منه غيره ورآه ؟..

---

[1] البقرة : 39 .
[2] لقمان : 30 .
[3] هود : 61 .
[4] الرحمن : (1 – 4)

7 – في استعداده الأخلاقي : هناك أخلاق عالية وأخلاق سافلة ، أخلاق راقية وأخلاق منحطة ، أخلاق فاضلة وأخلاق مرذولة ، والإنسان عنده استعداد لأن يتدنى فيكن أخبث الموجودات أو يَتَعَلَّى فيكون مثال طهر . وعنده استعداد ليكون في أحد حيزي الخير أو الشر أو يخلط بين الجانبين على حين الحيوان يبقى ذا خلق واحد في الغالب ، فالغل والحقد والحسد والغش الكبر والرياء والغضب والطمع والبذخ والبطر والفخر والخيلاء والصلف والمداهنة والعجب والمكر والخيانة والمخادعة والقوة والفظاظة والجفاء والطيش وقلة الحياء وقلة الرحمة ، ثم تأتي أضداد هذه المعاني كلها وأمثال هذه وهذه كثير ، كل ذلك مما يمكن أن يتخلق به الإنسان ومن ثم كان استعداد الإنسان الأخلاقي سمة بارزة تميزه عن أي مخلوق آخر .

والسؤال الآن هو : ماذا يترتب على الإنسان نتيجة لهذا التفرد ؟

إن القاعدة : "على قدر ما تعطى تطالب ضمن استطاعتك" هي قاعدة هذا الموضوع ، فإن الله جلت حكمته الذي سخر الكون للإنسان قد رتب على ذلك أن جعل الإنسان هو المسؤول الوحيد أمامه من هذه المخلوقات المرئية كلها فقال : {أَيَحْسَبُ ٱلإِنسَانُ أن يُتْرَكَ سُدًى}[1] وقال : {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ}[2] وقال : {إِنَّا عَرَضْنَا ٱلأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}[3] فالله عز وجل جعل الإنسان بهذا التفرد خليفة في الأرض فقال : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرْضِ خَلِيفَةً}[4] وقال : {وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ ٱلأَرْضِ}[5] والاستخلاف يعني ما يلي :

1. إن المستخلف في الملك ليس مالكاً أصيلاً .
2. أن عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا حسب أمره هو .
3. ألا يشق عصا الطاعة ويتعدى الحدود المقررة له .
4. أن يفعل ما يريد المستخلف لا ما يريده هو .

---

[1] القيامة : 36 .
[2] المؤمنون : 15 .
[3] الأحزاب : 72 .
[4] البقرة: 30 .
[5] الأنعام : 165 .

وهذا كله يعني أن الإنسان ليس حراً بل هو عبد الله الذي أقامه هذا المقام في الوجود قال تعالى : {وَمَا خَلَقْتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون}[1] فسيادة الإنسان على الكون تأتي في مقابل عبوديته لله . وما لم يعط الإنسان عبوديته لله يكون قد أقام نفسه مقام الجماد والنبات والحيوان غير المسؤولين . لذلك نرى القرآن عقد ألح على عدم إنسانية من لا يلتزم بطاعة الله فقال تعالى : {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ}[2] وقال : {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}[3] وقال : {إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[4] وقال : {إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَاب عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلبُكْمُ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ }[5] وقال : {لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰئِكَ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ}[6] وقال : {وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}[7] وقال : {مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً}[8] وقال : {كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث}[9] . إن القيام بأمر الله هو وحده الذي يطلق طاقات الإنسان كلها في طريقها الصاعد نحو الكمال ، وترك أمر الله يعني إطلاق الطاقات نحو الحيوانية الحرة .

* * * * *

ولا يقوم الإنسان بأمر الله إلا إذا عرفه حق معرفته وعرف ما يأمر به ، ولا يتم للإنسان هذا إلا بمعرفة الرسول الذي يصطفيه الله للقيام بهذه المهمة ، ذلك أن الله لم تقتض حكمته أن يتصل بكل إنسان على حدة ليبلغه أمره ، بل اقتضت حكمته أن يصطفي من الناس رسولاً يقوم بهذا نيابة عنه {ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاس}[10] وفي ذلك حكم منها:

---

[1] الذاريات : 56 .
[2] المنافقون : 4 .
[3] البقرة : 74 .
[4] الأنفال : 55 .
[5] الأنفال : 22 ، 23 .
[6] الأعراف : 179 .
[7] محمد : 12 .
[8] الجمعة : 5 .
[9] الأعراف : 176 .
[10] الحج : 75 .

1. إن الاتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة واستعداد عظيم , ولم يعط كل إنسان مثل هذا {ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[1] إذ أن حكمة الله اقتضت ألا تجعل الناس درجة واحدة لأنـه لا تستقيم الحياة البشرية بذلك . فمن للمهن ، ومن للحرف ، ومن لقضاء حاجات الناس ، ومـن للخدمة ، ومن للسيادة ومن للتبعية ، إذا كان الناس على نسق واحد ، قـال تعـالى : {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً}[2] وكانسجام مع هـذا القـانون العـام اصطفى الله بشراً ليكونوا رسلاً ، وقال – عز من قائـل : {وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ...}[3] .

2. إن امتحان الإنسان واختباره هدف أساسي من أهداف التكليـف {ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}[4] وامتحان الإنسان بالإنسان هدف آخر {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً}[5] ، {وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولوۤاْ أَهَـٰؤُلاۤءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّاكِرِينَ}[6] وانسجاماً مع هذا جرت سنة الله أن يختـار إنـساناً رسـولاً ليبتلي الآخرين به . إنه الاختبار العظيم الذي من نجح فيه تخلص من رجس الحسد ، وشـهوة الاستعلاء ، وتمحص خالصاً للحق محباً له . ولأهمية ذلك نلاحظ أنه حتى الرسـل امتحنـوا بهذا المعنى {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّيْنَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوۤاْ أَقْرَرْنَا}[7] .

3. ومن أهم ما امتحن به الإنسان تكليفه بالإيمان بالغيب الذي قام الدليل على صدق المُخْبِر به وهذا لا يتم إلا إذا كان بين الله وخلقه واسطة هو الرسول ، هـذا مـع ملاحظـة أن الرسـل ممتحنون بشيء من هذا {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ}[8] {قَالَ رَبِّ أَرِنِيۤ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي}[9] وإذن كانت حكمة الله

---

[1] الأنعام : 124 .
[2] الزخرف : 32 .
[3] الزخرف : 31 ، 32 .
[4] الملك : 2 .
[5] الفرقان : 20 .
[6] الأنعام : 53 .
[7] آل عمران : 81 .
[8] الشورى : 51 .
[9] الأعراف : 143 .

أن يصطفي رسلاً من البشر يعرفهم على ذاته ويعرفهم على ما يريد منهم ومن خلقه ، ويأمرهم أن يعرفوا الناس عليه وعلى تكاليفه ؛ لتتحقق بذلك إنسانيتهم ، ولتتطهر بذلك أنفسهم ، وليعيشوا محققين ما من أجله خلقوا .

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشري ، لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله ، ويقومون بأضخم مهمة في الوجود وهي مهمة إرشاد الإنسان إلى طريقه الصحيح ، أي إلى الكمال ، بتخليصه من أدران نفسه وكل مؤثر حيواني أو مادي أو غريب عن فطرتها ، حتى تصبح ربانية {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}[1] {كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}[2] {لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً}[3]

* * * * *

وبعد : كيف نعرف نحن بقية البشر رسل الله ؟ إن معرفة الرسول واتباعه يترتب عليها هدايتي واستحقاقي ثواب الله ، بينما جهلي وكفري به حال وجوده ودعوته لي يترتب عليها بقائي على ضلالي واستحقاقي عذاب الله في الدنيا والآخرة ، لذلك كان مهماً جداً أن أعرف كيف أهتدي إلى الرسول ، وبدون معرفة هذا قد يلتبس علي الأمر فأعتبر غير الرسول رسولاً فأضل أو أجهل الرسول فأعذب {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً}[4] .

لذلك فقد جعل الله للرسل علامات يعرفون بها . هذه العلامات هي :

1- الصفات الشخصية لصاحب الرسالة : فليس من المعقول أن يكون الرسول كذاباً إذ أن الكذاب لا يصدق في الأمور العادية فضلاً عن مثل هذه القضية الكبرى ، فالأخلاقية العالمية سمة لا بد منها لإنسان مرسل من عند الله ليطهر البشر من كل شر ويدلهم على كل خير .

---

[1] آل عمران : 79 .
[2] البقرة : 151 .
[3] النساء : 172 .
[4] الإسراء : 15 .

فإذا ما كان شريراً تظهر عليه صفات الأشرار فأنى يجعله الله محل رسالته ، كما أنه ليس من المعقول أن يكون أبلها أو غير ذكي إذ المغفل أو عادي الذكاء لا يسلم له النـــاس عقــولهم ولا يستطيع هو أن يقنع هذه العقول ، ومهمة الرسول لا تقوم إلا إذا كان أكبر الناس عقلاً وفطنــة كي يستطيع إقامة الحجة على الناس ، كما أنه ليس من المعقول أن يدعو الرسول إلى شــيء ويكون سلوكه مخالفاً لما إليه يدعو . فهو يدعو إلى طاعة الله فليس من المعقول أن يعــصيه ، ويدعو إلى ترك معصيته فلا يعقل ألا يطيعه ، فينبغي إذن أن يكون مظهــراً كــاملاً للطاعــة وترك المعصية . كما أنه ليس من المعقول أن يرسل رسولاً ولا تكون عنــده إمكانيــة تبليــغ الرسالة المكلف بها إلى أصحابها . وبدون هذا لا تقوم الحجة على الناس وهــذا يحتــاج إلــى شخصية فذة عظيمة . إذ دعوة الرسل ليس كغيرها من الدعوات التي ترضي شهوات البشر ، بل هي دعوة مهمتها كبح جماح النفس البشرية ، وعلى هذا فأمــام عمليــة التبليــغ عقبــات ومخاطر وصعوبات واضطهاد لا يصبر عليها إلا صادق مع الله . ثم الرسول هو قدوة البــشر في طريقهم إلى الله ،فلا بد أن يكون أرقى البشر في كل جانب من جوانب الحياة وعنده دائمــاً الحل الأمثل للبشر.

2- **المعجزات** : والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله علــى يــد الرســول أو النبي . وهي علامة على الرسالة لأنها تخرج عن عالم الأسباب كلها ، بحيث يعجز الإنــسان كإنسان أن يأتي بها وذلك أن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين الكون ، وقــدرة الله وحــدها هي المطلقة ، فكون الرسول تظهر معه آثار القدرة المطلقة فذلك دليل على أن له صلة مع الله . ويخلط الناس عادة بين المعجزة التي هي علامة رسالة الرسول وبين السحر وآثار الرياضة الروحية . والذي نحب أن نقرره هنا هو أن السحر والشعوذة نوعان من العلوم التي تخــضع لقوانين هذا الكون وإن كانا مجهولين إلا للقليل من الناس ولكن أي إنسان تعلم علــم الــسحر يستطيع أن يفعل ما يفعله الساحر وكذلك فيما يتعلق بآثار الرياضة الروحية ، فلعــالم الــروح قوانينه التي من اكتشفها قد تظهر معه بعض آثارها ولكنها ما خرجت عن كونها من الأســباب العادية إذ أن أي إنسان يستطيع أن يفعل ما يفعله الرائضون إذا سلك نفــس طــريقهم . أمــا المعجزة فلا علاقة لها بعالم الأسباب أصلاً ، فليست كأثر عن علم أو تجربة أو قانون ، إذ أن من شروط المعجزة ألا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بها .

إن المعجزة تكون بقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون . إن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأبرص ، وقد يشفى البرص على يد طبيب ولكن الفارق بين الحالتين أن ذلك بقدرة الله

وهذا بمعرفة القوانين التي بثها الله بالكون . إن الإنسان يستطيع بذكائه وإمكانياته أن يستخرج الماء من أعماق الأرض أو أن يركب بالسوائل المعروفة من الأوكسجين والهيدروجين مـــاء ، ولكن الفارق بين الماء المستخرج والمصنوع ، وبين الماء الذي خرج بضرب عصا موسى أو نبع حيث وضع محمد ρ أصابعه كالفارق بين صنع الله وصنع وربط القانون بالقانون ، وهكذا استطاع الإنسان أن يجاوز سطح الأرض ، ويسير في الفضاء ، ولكن الفارق بين هـــذا وبـــين عروج محمد رسول الله ρ إلى السماء كالفارق بني كل ما صنع الله وصنع المخلوق ، العروج كان بكلمة الله ، وصعود الإنسان إلى هذا الفضاء كان بالارتقاء بالأسباب . فـــالمعجزة إذن لا دخل لأي سبب كوني فيها سواء كان روحيّاً أو ماديّاً أو أي شيء آخر . ومن هنا كانـــت ذات دلالة كاملة على أن صاحبها رسول الله .

3- **النبوءات** : النبوءة هي الإخبار عن المستقبل ، وكون وقوعها دليلاً على صحة دعـــوى الرسالة يعود إلى أن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضي ومحجوب عن المستقبل ، والله وحده ذو العلم المحيط بكل زمان ومكان ، وما كان ويكون ، فكون الرسول يخبـــر عمـــا سيكون ويقع كما أخبر ، فذلك دليل على أن له صلة بالله ، وكما أن المعجزة تخرج عن عـــالم الأسباب لتصلح دليلاً ، فكذلك هنا ، والمقصود بالإخبار عن الغيب ما ليس له علاقـــة بنتـــائج تترتب على مقدمات ، أو توقعات دلت عليها طوالع ، فهذا يستطيعه كثير من الناس بما أوتـــوا من حكمة وحنكة وخبرة ومعرفة وتجربة .

4- **الثمرات** : إن ثمرات الرسول تدل عليه ابتداءً من انسجام دعوته مع قواعد الفطرة ، إلى الأخلاقية العظيمة التي تظهر على أتباعه ، كأن يحكم الحق القوة ، ويظهر الوفاء على الغـــدر وإن كان في الغدر منفعة ، وكأن تصبح نفس الإنسان منضبطة انـــضباطاً كـــاملاً بـــالخير ، فيؤدي الحقوق ويقيم الواجبات ويعيش لله وبالله عادلاً في دنياه حريصاً على آخرته ، تفجـــرت طاقاته كلها ، وسارت في طريقها الصحيح ، فنمت ملكاته العليا وانضبطت ملكاته الدنيا جميعاً . إن ثمرات دعوة الرسول تختلف اختلافاً جوهرياً عن ثمرات أي دعوة أخرى حتـــى لتكـــاد الفطرة تحس بحدسها إذا رأت ثمرات النبوة أن سبب هذه الثمرات لا بد أن يكون وراءه عناية ربانية خاصة ..

5- **البشارات** : إن الرسل كلهم رسل الله الواحد الأحد ، وقد يأمر الله الرســـول الـــسابق أن يبشر برسول لاحق فتكون نبوءة للأول وتمهيداً للثاني . وليس هذا شرطاً في كل رسالة ولكنه

متوقع وجوده ومتأكد حصوله ، وقد يذكر في البشارات اسم الرسول اللاحق أو صفاته أو كليهما والبشارة يستأنس بها إذ وجدت بقية العلامات .

* * * * *

قدمنا هذا الكلام بين يدي الأبواب الخمسة التي لها علاقة بهذه القضايا الخمس والتي نتحدث فيها عن رسالة النبي العربي محمد ρ وثبوتها . هذه الرسالة التي ختم الله بها النبوة {وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ}[1] ونسخ بها كل شريعة سابقة ، وكلف الإنسانية كلها بها ، بحيث لا يستحق أحد رحمته إلا إذا التزم بها ، ومن لم يلتزم بها استحق عذابه . وتم بها انتقال الرسالة من طور القومية إلى طور الإنسانية الشاملة ، إذ أن رسل الله قبل محمد ρ كانوا يبعث الواحد منهم إلى قومه خاصة وبعث محمد ρ إلى الناس عامة ، فأصبحت الإنسانية كلها ببعثته ملزمة بشريعة واحدة هي شريعته ، وليس أمام أحد من البشر خيار سوى سلوك الطريق الذي هدى إليه ، وإلا فإنه يكون من الضالين . ولما كانت هذه الرسالة لها مثل هذه الأهمية . جعل الله عز وجل فيها ومعها واضحات الأدلة ومشرقات البراهين الكثير الكبير بحيث لا يبقى معه حجة لمحاج أو شبهة لأحد .

هذه الأبواب الخمسة ستجد إن شاء الله في كل واحد منها ما يؤكد لك هذا المعنى بشكله الكامل بحيث لا تشك معه أن محمداً رسول الله وأنه لا عذر لأحد كفر به أو أعرض عن شريعته بعد أن بلغته دعوته .

وسنعرض الأبواب الخمسة على الترتيب التالي :

الباب الأول : الصفات .

الباب الثاني : المعجزات .

الباب الثالث : النبوءات .

الباب الرابع : الثمرات .

الباب الخامس : البشارات .

---

[1] الأحزاب : 40 .

وبذلك ينتهي المبحث الثاني من مباحث سلسلة الأصول الثلاثة ليبدأ المبحـــث الثالـــث وهو الإسلام دين الله وشريعته التي بلغنا إياها رسوله ρ . وبذلك نكون قد عرفنا المكلِّف وهو الله في المبحث الأول . والتكليف وهو الإسلام في المبحث الثالث ، ومبلِّغ التكليف والقدوة فيه وهو الرسول في المبحث الثاني ، وهو هذا فإلى الباب الأول من هذا المبحث .

* * *

الباب الأول

الصفات

الصّفات

بدأنا بهذا الباب بقصد التعريف على جوانب في شخصية الرسول ρ كي يكون بمثابة مفتاح للأبواب الأخرى وقد سرنا فيه على الترتيب التالي :

1 – مقدمة : نستعرض فيها صفات الرسول الجسمية ليتضح أن تركيبه الجسمي متناسب مع الرسالة التي كلف بها .

2 – الفصل الأول : ويبحث في الصفات الأساسية للرسل وكيف كان للرسول ρ منها أعلى ما يتصور في حق بشر .

3 – الفصل الثاني : ويبحث في كون الرسول ρ هو القدوة العليا للبشر في كل جانب من جوانب الحياة ، لأنه كان في كل جانب في الذروة العليا من الكمال .

وجعلنا المقدمة تحت عنوان : تكوين الرسول الجسمي .
وجعلنا الفصل الأول تحت عنوان : الصفات الأساسية .
وجعلنا الفصل الثاني تحت عنوان : القدوة العليا .

ونأمل ألا ننتهي من هذا الباب إلا وقد اتضح لطالب الحق أن محمداً رسول الله حقّاً ρ .

* * *

المقدمة

تكوينُ الرسول ρ الجِسمي

إن أول ما يقع بصر الإنسان على رسول الله ρ يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيـل له ، ومظهر يوحي بثقة مطلقة لا حد لها ، وهذا ما انعقد عليه إجماع من شاهدوه عليه الصلاة والسلام :

أخرج الدارمي والبيهقي عن جابر بن سمرة قال : "رأيت النبي ρ في ليلة أضحيان – أي : مقمرة مسفرة – فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو كان أحسن في عيني من القمر " .

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال : " ما رأيت شيئاً أحسن من رسـول الله ρ كأنَّ الشمس تجري في وجه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه منه كأن الأرض تطوى لـه إنا لنجهد وإنه غير مكترث " .

وأخرج الشيخان عن البراء قال : " كان رسول الله ρ بعيد ما بـين المنكبـين ، يبلـغ شعره شحمة أذنيه ، ما رأيت شيئاً أحسن منه " .

وأخرج مسلم عن جاب ربن سمرة في وصف وجه رسول الله ρ قـال : " بـل مثـل الشمس والقمر مستديراً " .

وأخرج الشيخان عن البراء قال : " كان رسول الله ρ أحسن الناس وجهـاً وأحـسنهم خلقاً ، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير " .

وأخرج مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له صف لنا رسول الله ρ قال : " كـان أبـيض مليح الوجه " .

وأخرج الدارمي والبيقهي والطبراني وأبو نعيم عن أبي عبيدة قال : قلت للربيع بنـت معوذ : صفي لي رسول الله ρ قالت : " لو رأيته قلت الشمس طالعة " .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال : " كان رسول الله ρ ضخم القدمين حسن الوجه لم أر بعده مثله " .

وأخرج أبو موسى المديني في كتاب الصحابة عن أمد بن أبد الحضرمي قال : " رأيت رسول الله ρ فما رأيت قبله ولا بعده مثله " .

وأخرج الدارمي عن ابن عمر قال : " ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أضوأ من رسول الله ρ " .

وأخرج أحمد والبيهقي عن محرش الكعبي قال : " اعتمر النبي ρ من الجعرانة ليلاً فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة " .

ومن شعر عمه أبي طالب فيه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد والبيهقي عن علي قال : " كان النبي ρ ليس بالذاهب طولاً ، وفوق الربعة إذا جاء مع القوم غمرهم ، أبيض ضخم الهامة – أي : الرأس – أغر أبلج أهدب الأشفار – أي : طويل شعر العين أسوده – كأن العرق في وجهه اللؤلؤ ، لم أر قبله ولا بعده مثله " .

ومن وصف هند بن أبي هالة له : " كان رسول الله ρ فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ... عظيم الهامة ، رجل الشعر ... أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ في غير قَرَن ، بينهما عرق يدره الغضب (الحاجب الأزج المقوس الطويل الوافر الشعر) أقنى العرنين (العرنين الأنف أو ما صلب منه والقنا طول الأنف ودقة أرنبته واحد يداب وسطه) له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم (الأشم الطويل قصبة الأنف) كث اللحية ، أدعج (الدعج شدة سواد العين) سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب ، مفلج الأسنان (أي لأسنانه رونق وغير متراكبة) دقيق المسربة (أي خفيف شعر ما فوق السرة) كأن عنقه جيد دمية في صفاء ، معتدل الخلق ، بادن متماسك سواء البطن والصدر ، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ... أنور المتجرد ، طويل الزندين ، رحب الراحة ... شثن الكفين والقدمين ، سابل الأطراف (أي طويل الأصابع) خمصان الأخمصين .. ذَريع المشية

إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء ... " .

وكان إذا مس أحداً أحس بطمأنينة عجيبة وروح عجيب :

وأخرج أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : " اشتكيت بمكة فدخل علي رسول اللهρ يعودني ، فوضع يده على جبتهي فمسح وجهي وصدري وبطني ، فما زلت يخيل إلي أني أجد يده على كبدي حتى الساعة " .

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : " مسح رسول الله خدي فوجدت ليده برداً وريحاناً كأنما أخرجهما من جونة عطار " . وأخرج الشيخان عن أنس قال : " ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ρ ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ρ " .

وكان منظره يوحي لمن يراه بأنه أمام نبي :

أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال : " لما قدم النبي ρ المدينة جئته لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب " .

وعن أبي رمثة التميمي قال : " أتيت النبي ρ ومعي ابن لي فأُريته فلما رأيته قلت هذا نبي الله " .

ويقول عبد الله بن رواحة في وصفه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكان منظره ينبيك بالخبر

هذه بعض آثار مما ورد وصف تكوينه الجسمي نقلناها بين يدي صفاته وكمالاته الخُلقية العظيمة لتتضح لك شخصيّته من جميع جوانبها عليه الصلاة والسلام .

* * *

الفصل الأول

الصِّفات الأسَاسية

إنه لا بد لكل رسولٍ لله أن يكون متصفاً بصفات أساسية أربع حتى يكون أهلاً للرسالة . هذه الصفات الأربع هي :

1 – الصدق المطلق الذي لا ينقض في كل حال ، بحيث لو امتحن كل قول له لكـان مطابقاً للواقع إذا وعد أو عاهد أو جَدَّ أو داعب أو أخبر أو تنبأ . وإذا انتقضت هذه الصفة أيَّ نقضٍ ، فإن دعوى الرسالة تنتقض من أساسها ؛ لأن الناس لا يثقون برسـول غيـر صـادق والرسول الصادق لا تجد في جزء من أجزاء كلامه شيئاً من الباطل في أي حال من الأحوال.

2 – الالتزام الكامل بما يدعو إليه نيابة عن الله ؛ إذ مهمة الرسول تبليـغ النـاس مـا كلفهم به الله ، فإذا لم يقم الرسول نفسه بهذه التكاليف دلّ ذل على عدم تفاعلـه مـع التكليـف وهذا دليل كذبه في دعوى الرسالة ؛ إذ الرسول الذي يتصل به الله أعر فبجلال الله وبالتالي لا يعصي له أمراً ؛ لأن عصيان أمر الله خيانة ، وغير الأمناء ليسوا أهلاً لحمل رسالة الله .

3 – التبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة ، وعدم المبالاة معه بـسخط النـاس أو تعذيبهم أو إيذائهم أو كيدهم أو مؤامراتهم أو إرجافهم ، والاسـتقامة علـى أمـر الله وعـدم الانحراف عنه ، مهما كانت المغريات والاستمرار على ذلـك ؛ إذ بـدون التبليـغ لا تظهـر الرسالة ، وبدون الاستمرار عليه والصبر لا تستقر ، والخضوع لضغط النـاس أو لإغـرائهم دليل كذب دعوى البلاغ عن الله . إذ لا يبلغ رسالة الله إلا من رغب بالله عن غيـره ، وكـان الله وحده هو العظيم عنده ، ولا يبالي بغير رضاه .

4 – العقل العظيم إذ لا يسلم الناس ولا يتبعون إنساناً إلا إذا كـان أرجحهـم عقـلاً ؛ ليطمئنوا إلى أنه لا يسير بهم في الطريق الخطأ كما أنه بدون العقل العظيم لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع الآخرين بالحق الذي معه ، وخاصّة أصحاب المـدارك الواسـعة والعقـول الكبيرة ، ولا يستطيع أن يرد هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحرفين والمنتفعين بـالانحراف

. فلا بد أن يكون الرسول أذكى الخلق وأفطنهم وأعقلهم وأحكمهم وأكملهم مدارك كي تقوم به الحجة .

فإذا اجتمعت هذه الصفات الأربع لإنسان يذكر أنه رسول الله مع بقية العلامات التي يعرف بها الرسول دون وجود مانع يحيل الدعوى ، كان ذلك برهاناً ودليلاً على صحة الدعوى ؛ إذ لا يوجد مبرر لتكذيب الصادق ، ولا يوجد تعليل لحرارة الالتزام غير التسليم ، وعدم الانصراف عن التبليغ مع توافر الانصراف لا تعلل إلا بالإخلاص للدعوة وصاحبها ، ودعوة حجتها معها ، وصاحبها قادر على إقامة الحجة في أي جانب من جوانبها فيها دليل حقيتها .

وسنرى في هذا الفصل أن الرسول ρ كان المثل الأعلى في كل صفة من هذه الصفات بحيث لا تستطيع أن تدرس واحدة منها عنده إلا وستلم أن صاحبها رسول الله حقّاً . وسندرس هذه الصفات على الترتيب المذكور هنا فنبدأ بصفة الصدق عنده ρ .

* * *

1 – صدقه عليه الصلاة والسلام

وطريقتنا في استعراض هذه الصفة أن نأتي بالشهادات عليها وهذه الشهادات ثلاث :

أ – شهادة الخصوم .

ب – شهادة الأتباع .

ج – شهادة الواقع . وشهادة الواقع تتمثل في أربع : في الإخبار ، وفي الوعد والعهد ، وفي المزح والمداعبة ، وفي النبوءات .

أ. شهادة الخصوم :

وشهادة الخصوم في هذا الباب لها وزنها الكبير ، إذ تدلك على مبلغ الثقة التي كان يتمتع بها رسول الله ρ عند الجميع ، ولكن بعض الناس استغرب واستكبر فأنكر دون ووجود مبرر لهذا الإنكار وهذه نصوص تؤكد لك هذا الذي قلناه :

أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال : " إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ρ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ρ ، فقال رسول الله ρ لأبي جهل : يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله ورسوله ، أدعوك إلى الله . فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منتهٍ عن سبَ آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلَّغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلَّغت ، فوالله لو أني أعلم أن ما تقو لحق لاتبعتك . فانصرف رسول الله ρ ، وأقبل عليَّ فقال : والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء . أن بني قصي قالوا : فينا الحجابة . قلنا : نعم . ثم قالوا : فينا السقاية . قلنا : نعم . ثم قالوا : فينا الندوة . فقلنا : نعم . ثم قالوا : فينا اللواء . فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا ، حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي . والله لا أفعل " وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه .

وأخرج الترمذي عن علي : " أن أبا جهل قال للنبي ρ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به . فأنزل الله تعالى : {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ}[1] " .

---

[1] الأنعام : 33 .

وأخرج ابن عساكر عن معاوية – رضي الله عنه – قال : " خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هنداً ، وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لي ، غذ سمعنا رسـول الله ρ ، فقال أبو سيفان : انزل يا معاوية حتى يركب محمد . فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله ρ ، فسار أمامنا هنيهة ، ثم التفت إلينا فقال : يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنـت عتبـة ! والله لتموتن ثم لتبعثنَّ ثم ليدخلنَّ المحسنُ الجنة والمسيء النار ، وأنا أقول لكم بحق ، وإنكـم لأول من أُنذرتم ثم قرأ رسول الله ρ {حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ...}... حتى بلـغ {قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ}[1] فقال له أبو سفيان : أفرغت يا محمد ؟ قال : نعـم . ونـزل رسـول الله ρ عـن الحمارة وركبتها ، وأقبلت هند على أبي سفيان : ألهذا الساحر أنزلت ابني ؟ قال : لا والله مـا هو بساحر ولا كذاب " وأخرجه الطبراني أيضاً .

وروى البخاري ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل – كما حدّث بها أبو سـفيان ابـن عباس – ومنها سؤال هرقل لأبي سفيان : " قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول مـا قال . قلت : لا " وفي آخر القصة يقول هرقل لأبي سفيان : " وسألتك هل كنت تتهمونه قبـل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليدعَ الكذب على الناسِ ويكذبَ على الله تعالى " .

وأخرج الشيخان الترمذي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قـال : " لمـا نزلـت {وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ}[2] صعد رسول الله ρ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يـا بنـي عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريـد أن تغيـر عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال : فإني نذير لكم بـين يـدي عذاب شديد . قال أبو لهب : تبّا لك يا محمد ألهذا جمعتنا فنزلت : {تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ}[3].

من هذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد ρ كانت متوافرة ولـم يكـن هـذا الموضوع فيه شك أبداً وهذا الذي يعلّل لنا :

1- ظاهرة الإيمان به من قِبل من حاربوه واحداً فواحداً طوعاً لا إكراهاً أمثال خالد بـن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب ... لذلك لأنهم ما كانوا يشكون فـي أن

---

[1] فصلت : 1 – 11 .

[2] الشعراء : 214 .

[3] المسد : 1 .

محمداً صادق ، ولكن فاجأهم بشيء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فأنكروه ، حتى إذا ذهب هول المفاجأة وحكّموا عقولهم التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد ρ فتولد عن ذلك إيمان .

2- ظاهرة الإخلاص له بعد الإيمان . فبعضهم لم يؤمن إلا آخراً بعد أن غلب كبقايا قريش فإنهم أخيراً غلبوا للإسلام ، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات ، حتى إذا دخلوا فيه تسليماً للأمر الواقع وإذا بهم مخلصون لرسول الله ρ كأتم ما يكون الإخلاص ، ومتفانون في الإسلام بعد أن زالت عن أعينهم غشاوات ، من بعدها تبينوا أن محمداً هو الأخ الكريم والابن الكريم فكانت معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساساً لإخلاصهم في طريقهم الجديد الذي ساروا فيه بعد ذلك فرحين .

وبعد فهذه شهادة خصوم ، بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة ، وبعضهم مات على كفره ولكن الجميع حتى في أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمداً ρ صادق.

* * * * *

ب – شهادة الأتباع :

ونقدم لشهادة الأتباع بما يلي :

1- أن رسول الله ρ كان دائم الخلطة لأصحابه في طعامهم وشرابهم وسفرهم وصلاتهم ومجالسهم ، وهو عليه الصلاة والسلام كان يحب البساطة والصراحة ويكره التكلف ، وبعض الصحابة خالط الرسول ρ قبل النبوة وبعدها عشرات السنين.

2- وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أغراراً ولا مغفلين ولا منعزلين عن العالم ، بل بعضهم من مكة التي كان العرب يقصدونها سنوياً للحج ، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة ، عدا عن صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن ومع الشام حيث مراكز الحضارة . وبعض أصحابه من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود وما ينشأ عن ذلك من تفتح ذهني .

كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا في حياة الرسول ρ وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولاً وأكثرهم دهاءً وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم ، بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم في فتح أعظم الدول المتحضرة وقتذاك وإدارتها وكسب مودة شعوبها ودمجهم في الأمة الإسلامية .

فإذا ما اجتمعت هذه الناحيتان : الخلطة الدائمة ، وذكاء المخالطين ، فإن أمر الكاذب يفتضح ، وأمر الصادق يتضح .

والظاهرة الواضحة في حياة الصحابة أنهم كلما ازدادوا برسول الله ρ خلطة ازدادوا به إيماناً وتصديقاً ، بل أكثرهم اختلاطاً به أكثرهم إيماناً به وطاعة له ، وقد بلغ منهم درجة انه أصبح الموت من أجل ما يريد الرسول ρ أحب إليهم من الحياة ، وإنفاق المال أحب إليهم من إمساكه ، والطاعة أحب إليهم من المعصية ، ودين الرسول ρ أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن . وكل هذا من مظاهر التصديق الكامل إذ لولا التصديق لما كان شيء من هذا . فقد قتل منهم الابن أباه ، وأراد الأب قتل ابنه ، فعلام يفعلون هذا ؟! لولا أن إيمانهم برسول الله ρ وتصديقهم به وصل إلى ذروة الذرى . وهذه أمثلة كل منهما يعتبر أثراً من آثار التصديق الكامل ودليلاً عليه نذكرها بلا تعليق ، وفي كل منها شهادة من صاحبها بعد تجربة على أن محمداً ρ صادق لا شَك في ذلك :

1- أخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " لمّا اجتمع أصحاب النبي ρ – وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً – أَلَحَّ أبو بكر على رسول الله ρ في الظهور فقال : يا أبا بكر إنا قليل . فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ρ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ρ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ρ . وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه .

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي

بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ؟ ، فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت بـه ألحت عليه وجعل يقول ؛ ما فعل رسول الله ρ ؟ فقالت : والله مالي علم بصاحبك . فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ، قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دِنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لكَ منهم . قال : فما فعل رسول الله ρ ؟ قالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا شيء عليك منها . قالت : سالم صالح . قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم . قال : فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ρ ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِجْل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ρ . قال : فأكب عليه رسول الله ρ فقبله وأكب عليه المسلمون ، ورق له رسول الله ρ رقة شديدة . فقال أبو بكر : بأبي وأمي يا رسول الله ، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها ، عسى الله أن يستنقذها بك من النار . قال : فدعا لها رسول الله ρ ودعاها إلى الله فأسلمت " .

2- وأخرج ابن إسحاق عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : " لما أسلم عمر – رضي الله عنه – قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحي ، فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل – وأنا غلام أعقل كل ما رأيت – حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ρ ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته أنا ، حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش – وهم في أنديتهم حول الكعبة – ألا إن ابن الخطاب قد صبأ . قال يقول عمر من خلفه : كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال : وطلح[1] فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا

[1] طلح : تعب وأعيا .

ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فبينما هم علـــى ذلـــك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال : مـــا شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمه ، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريـــدون ؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجـــل . قـــال : فـــوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه . قال فقلت لأبي – بعد أن هاجر إلى المدينـــة –: يـــا أبت ! من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونـــك ؟ قـــال : ذاك – أي بني –العاص بن وائل السهمي " . وهذا إسناد جيد قـــوي – كـــذا فـــي البداية .

3- وأخرج البخاري في التاريخ عن مسعود بن خراش – رضي الله عنه – قـــال : " بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون فتى شاباً موثقـــاً بيـــده في عنقه . قلت : ما شأنه ؟ قالوا : هذا طلحة بن عبيد الله صبأ . وامـــرأة وراءه تدمدم وتسبه . قلت : من هذه ؟ قالوا : الصعبة بنت الحضرمي أمه " .

4- وأخرج البيهقي وابن سعد والحارث ابن المنذر وابن عساكر وابن أبي حاتم عـــن سعيد بن المسيب – رضي الله عنه – : " أن صهيباً – رضي الله عنـــه – أقبـــل مهاجراً نحو النبي ρ فتبعه نفر من قريش مشركون ، فنزل فانتشل كنانته فقـــال : قد علمتم يا معشر قريش أني أرماكم رجلاً بسهر ، وايم الله لا تصلون إلي حتـــى أرميكم بكل سهم في كنانتي ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه . ثم شأنكم بعد ذلك وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وتخلوا سبيلي .. قالوا : نعم . فتعاهدوا على ذلك فدلهم ، فأنزل الله على رسوله القرآن {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْـــسَهُ ٱبْتِغَـــآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ}[1] حتى فرغ من الآية . فلما رأى النبي ρ صهيباً قال : ربح البيع يا أبا يحيى ربح البيع يا أبا يحيى ! وقرأ عليه القرآن " .

5- وأخرج الحاكم عن سليمان بن بلال – رضي الله عنه – : " أن رسول الله ρ لمـــا خرج إلى بدر أراد سعد بن خثيمة وأبوه جميعاً الخروج معه ، فذكر ذلك للنبي ρ فأمر أن يخرج أحدهما فاستهما . فقال خثيمة بن الحارث لابنه سعد – رضـــي الله عنهما – : إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم فأقم مع نسائك . فقال سعد : لو كان غيـــر

[1] البقرة : 207 .

الجنة لآثرتك به إني أرجو الشهادة في وجهي هذا ، فاستهما ، فخرج سهم سـعد ، فخرج مع رسول الله ρ إلى بدر . فقتله عمرو ابن عبد ود " وأخرجه أيضاً ابـن المبارك عن سليمان وموسى بن عقبة عن الزهري ، كما في الإصابة .

6- وأخرج الطبراني عن ابن عمر " أن عمر – رضي الله عنه – قال يوم أحد لأخيه : خذ درعي يا أخي ! قال : أريد من الشهادة مثل الذي تريد ، فتركاها جميعـاً " قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح .

7- وأخرج ابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار قال : " انتهى أنس بن النضر – عم أنس بن مالك – إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار – رضي الله عنهم – وقد ألقوا ما بأيديهم . فاقل : فما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ρ ، ثم استقبل القوم ، فقاتـل حتى قُتل " .

8- وأخرج الحاكم عن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – قال : " بعثني رسـول الله ρ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع – رضي الله عنه – وقال لي : إن رأيتـه فأقرئـه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ρ : كيف تجـدك ؟ قـال : فجعلـت أطوف بين القتلى ، فأصبته وهو في آخر رمق ، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم . فقلت له : يا سعد ، إن رسـول الله ρ يقـرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ قال : على رسـول الله الـسلام ، وعليك السلام ، قل له : يا رسول الله أجدني أجد ريـح الجنـة ، وقـل لقـومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله ρ وفيكم شفر يطـرف . قال : وفاضت نفسه – رحمه الله – " قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح . ثم أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة حدثه عن أبيه أن رسول الله ρ قال : " مـن ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع – رضي الله عنه – فذكر الحديث بنحـو منـه . وقال : فقال سعد : أخبر رسول الله ρ أني من الأموات ، وأقرئه السلام وقل له : يقول سعد : جزاك الله عنا ، وعن جميع الأمة خيراً " .

9- وأخرج البيهقي عن مالك بن عمير رضي الله عنه وكان قد أدرك الجاهلية .، قال : " جاء رجل إلى النبي ρ فقال : إني لقيت العدو ولقيت أبي فيهم ، فسمعت لـــك منه مقالة قبيحة فلم أصبر حتى طعنته بالرمح – أو حتى قتلته – ، فـسكت عنـــه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم جاء آخر فقال : إنـــي لقيــت أبـــي فتركتـــه وأحببت أن يليه غيري ، فسكت " . قال البيهقي وهذا مرسل جيد .

10- وأخرج البزار عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " مر رســـول الله ρ بعبد الله بن أبي وهو في ظل أطم فقال : غبّر علينا ابن أبي كبشة . فقال ابنه عبد الله بن عبد الله – رضي الله عنه – : يا رسول الله والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه ! فقال : لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته " . قال الهيثمـــي رواه البـــزار ورجاله ثقات .

11- وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن عمـــر بـــن الخطاب – رضي الله عنه – قال لسعيد بن العاص – رضي الله عنه – وقربه : " إني أراك تظن أني قتلت أباك ، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحـــث الثور بورقه ، فحدت عنه وقصد له ابن عمه علي فقتله " . كذا في البداية ، وزاد في الاستيعاب والإصابة : " فقال له سعيد بن العاص : لو قتلته لكنت على الحـــق وكان على الباطل . فأعجبه قوله " .

12- وأخرج ابن سعد عن الزهري قال : " لما قدم أبو سفيان بن الحر بالمدينة جاء إلى رسول الله ρ وهو يريد غزو مكة فكلّمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلـــم يقبـــل رسول الله ρ فقام فدخل على ابنته أم حبيبة – رضي الله عنهـــا – . فلمـــا ذهـــب ليجلس على فراش النبي ρ طوته دون . فقال : يا بنية ! أرغبت بهـــذا الفـــراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ρ وأنت امرؤ نجس مـــشرك . فقال : يا بنية ! لقد أصابك بعدي شر " . وذكر ابن إسحاق نحوه بلا إسناد ، كمـــا في البداية وزاد : " فلم أحب أن تجلس على فراشه " .

13- وأخرج الطبراني عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : " لما كان يـــوم أحد حاص أهل المدينة حيصة . وقالوا : قُتل محمد حتى كثرت الـــصوارخ فـــي

ناحية المدينة . فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها – أي قتلى – لا أدري أيهم استقبلت به أولاً . كلما مــرت علــى أحــدهم قالت: من هذا ؟ قالوا : أبوك ، أخوك ، زوجك ، ابنك ، تقول : ما فعــل رســول الله ρ ؟ يقولون : أمامك حتى دفعت إلى رسول الله ρ فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا أبالي إذ سلمتَ من عطب " .

هذه نصوص تبين لك مدى الإيمان برسول الله ρ عند أتباعه المخالطين له ، مما يدلك على أن تصديقهم لرسول الله ρ بلغ حداً لا مثيل له .

* * * * *

ج – وأخيراً شهادة الواقع:

إن شهادة الواقع أعلى الشهادات لأن الإنسان يصل بواسطتها إلــى اليقــين الــذي لا يخالطه شك فليقم الإنسان بإجراء اختبار كامل لكل ما ورد عن الرسول ρ من قول أو فعــل . فإذا ما وجد أن كل قول وفعل مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار لا يخرج عن الحق والصدق . لم يبق أمام الإنسان إلا طريق واحد هو الإيمان والتصديق . وسنرى في البــاب الثــاني أن الاختبار الكامل للقرآن يجعلك – على مثل الشمس وضوحاً – أن القرآن كله حق وصدق وأنه من عند الله ، وسنرى في الباب الثالث – إن شاء الله – أن الاختبار الكامل لنبوءاته يدلك على أن المستقبل كان كشفاً لها وتوكيداً . أما هنا فسننقل نماذج من مزاحه ومداعباته لنرى أنهــا لا تخرج عن الحق والصدق ، ونماذج عن وعوده وعهوده وصدقه فيها ، ونماذج مــن أحاديثــه التي يستطيع الإنسان أن يعرف صدقها بالاختبار ، لنرى العجب في مطابقة ما عرفه إنــسان عصرنا بعد التجربة ، لما نطقت به شفتا رسول الله ρ من عصور ، وســنختم هــذه الفقــرة بالتذكير بأن المصدر الوحيد الذي نستطيع أن نأخذ عنه العلم بالغيبيات بثقة هو رسول الله ρ ، وكلامه حجة على غيره فيه ، مع مناقشة بعض القضايا التي لها علاقة بهــذا الأمــر ونبــدأ باستعراض ما ذكرنا :

1- نماذج من صدقه ρ في مزاحه ومداعباته :

إن الناس عادة لا يلتزمون الصدق في المزاح ، ولكن رسـول الله ρ داعـب صـادقاً ومازح صادقاً وألزم أمته الصدق في كل حال .

أخرج أحمد عن أنس بن مالك : " أن رجلاً أتى النبي فاستحمله ، فقال رسول الله ρ : إنا حاملوك على ولد ناقة ، فقال يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة ؟ فقال رسول الله ρ : وهـل تلد الإبل إلا النوق ؟ " رواه أبو داود والترمذي .

وقال زيد بن أسلم : " إن امرأة يقال لها أم أيمن جـاءت إلـى النبـي ρ فقالـت : إن زوجي يدعوك ، قال : ومن هو ؟ أهو الذي بعينه بياض ؟ قالت : والله ما بعينه بياض . فقال : بل إن بعينه بياضاً . فقالت : لا والله . فقال : ما من أحدٍ إلا وبعينـه بيـاض "[1] هـو أراد البياض المحيط بالحدقة وهي فهمت البياض على الحدقة الذي يكون به الرجل أعورَ .

وأخرج أحمد عن أنس : " أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكـان يهـدي النبي الهدية من البادية فيجهزه النبي إذا أراد أن يخرج . فقال رسول الله ρ : إن زاهراً باديتنا ونحن حاضره ، وكان رسول الله يحبه وكان رجلاً دميماً . فأتاه رسول الله ρ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل ، فقال : أرسلني من هذا ؟ فالتفت فعرف النبي ρ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي حين عرفه وجعل رسول الله يقول : من يشتري العبـد ؟ فقال يا رسول الله إذن والله تجدني كاسداً ، فقال رسول الله : لكن عند الله لـست بكاسـد . أو قال لكن عند الله غالٍ " . رواته ثقات . فأنت ترى من سياق الحديث أنه عنى بالعبد عبـد الله وكلنا عبد الله .

وأخرج الترمذي في الشمائل عن الحسن قال : " أتت عجوزٌ النبـي ρ فقالـت : يـا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة : فقال : يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجـوز ، فولـت تبكي فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقـول : {إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً} " .

وأخرج الترمذي في الشمائل عن أنس قال : " قال لي رسول الله : يـا ذا الأذنـين " . قال أبو أسامة يعني يمازحه ، وكل إنسان له أذنان .

---

[1] أخرج أبو داود والترمذي عن أنس نحوه . أما هذ فقد ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين .

فأنت ترى من هذه الأمثلة أنه داعب ومازح دون أن يخرج عن الحق والصدق ، ولكنه استعمل هذا الصدق استعمالاً لطيفاً ، على غير المتعارف . ففهم المخاطب فهماً كانت فيه نكتة وهكذا كانت مداعباته كلها حقاً .

أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : " قالوا : يا رسول الله ! إنك تداعبنا ، قال : إني لا أقول إلا حقّاً " . إنها نبوة صدق وما كان للنبوة أن يكون للباطل عندها أو معها نصيب .

* * * * *

2- نماذج من صدقه ρ في وعوده وعهوده :

أخرج أبو داود عن عبد الله بن أبي الخنساء قال : " بايعت النبي ρ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك . فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال : يا فتى لقد شققت عَلَيَّ ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك " .

وأخرج ابن حبان والحاكم : " كان ρ جالساً يقسم غنائم هوزان بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لي عندك موعداً يا رسول الله . قال : صدقت فاحتكم ما شئت . قال : أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها . قال : هي لك وقال : احتكمت يسيراً ... "

وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى في قضية إسلامه عندما كان مشركاً تولى مطالبة الرسول ρ بالجلاء عن مكة في عمرة القضاء بعد انقضاء مدة الثلاثة أيام المتفق عليها يقول حويطب : " ولما قدم رسول الله ρ لعمرة القضاء وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو فقلنا : قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا فصاح يا بلال لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا " .

وهذه فقرأت من كتاب (بطل الأبطال) يحلل فيها صاحبه بعض مواقف الوفاء بالعهد والوعد التي وقفها رسول الله ρ يقول : " قبل سنة من هدنة الحديبية كانت قريش تحاصر المدينة وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والأعراب فنقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ρ . واشتد بذلك الكرب وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً ، ولكن الله نصر عبده ، وأعزه وألقى الرعب في قلوب المشركين ، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان جيش الإسلام بقيادة رسول الله يزحف إلى مكة ، فنزل الحديبية وبعثت قريش رسلها إلى محمد ρ .

وهو ذا عروة بن مسعود الثقفي رسولها يعود إليها يصف حال محمد ρ وجنده بهــذه العبارة :

" إني قد جئت كسرى في ملكه ، قيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله مــا رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه " . كان محمد في منعة وقوة ولكنه كان يعلــن أنه لا يريد الحرب ، ويقول : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الــرحم إلا أعطيتهم إياها . فلما جاءه سهيل بن عمرو مفوضاً من قريش لعقد الهدنة يرجــع بهــا محمــد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن وهو أن محمداً يــسلم إلى قريش من لجأ إليه من المسلمين بغير إذن وليه ولا يطلب تسليم من لجأ إلى قــريش مــن أتباعه ...

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد ρ حتى إن عمر – رضي الله عنه – كان يذهب تارة إلى أبي بكر وتارة أخرى إلى الرسول ρ ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألــست رسول الله !!.. فعلام نعط الدنية في ديننا ؟ فيقول الرسول : أنا عبد الله ورسوله لــن أخــالف أمره ولن يضيعني ، ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله . فقبول المسلمين هذا الشرط هــو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سره ، وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم ، وبينما هم على هذه المضاضة وقد فرغ الرسول ρ من الجدل مع مفوض قريش سهيل بن عمرو ، ولم يكتــب العقد ولم يمض ، جاءهم أبو جندل مستصرخاً يرسف في قيوده وأبو جندل هذا هو ابن ســهيل بن عمرو نفسه ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال : يا محمد قد لجت القــضية بيني وبينك – أي فرغنا من المناقشة – قبل أن يأتيك هذا . قال النبــي ρ : صــدقت ، وأبــو جندل ينادي يا معشر المسلمين ! أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ تصوروا ذلكم المقام مقام محمد ρ وهو الشجاع الذي حدثتكم عن شجاعته المنقطعة النظير ، وهــو القــوي الــذي خرج من المدينة زاحفاً بجيش . سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له تصوروه وهو يــرى أقرب أصحابه (في حالة تذمر) ثم تصوروا لاجئاً يرسف في القيود ، وهو من أبناء الأعــزة في قريش ، يرسف فيها (اتباعاً) لمحمد ودين محمد ، ثم انظروا إليه لا يحتــال ولا يتــردد ولما يكتب ولما يمض ، يقول لسهيل : صدقت لقد لجت القضية ، ويرد صــاحبه باكيــاً إلــى أعدائه تصوروا كل ذلك ، ثم ليكتب إليَّ من يشاء بمثل واحد في تاريخ البشر كله كهذا المثــل يضربه محمد في رعاية الكلمة التي قالها ولما تكتب ولما تمض .

ويقول صاحب الكتاب ذاكراً مثلاً آخر :

ثم انظروا إلى وفائه للمشركين أيضاً : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل في عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل في عقد قريش وعهدها . فدخلت خزاعة على شركها في عهد محمد فلما نقضت قريش عهدها معه ونصرت حليفتها بكراً عليها . ذهب عمرو بن سالم الخزاعي يطالب (رسول الله ρ) بالعهد ويطلب (منه) نصر حلفائه فوقف على رسول الله وهو في المسجد ينشده ويقول :

يا رب إني ناشد محمداً　　حلف أبينا وأبيه الأتلدا

فانصر هداك الله نصرا اعتدا　　وادع عباد الله يأتوا مددا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا　　إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين سبباً في تجهيز أضخم جيش عرفته الجزيرة والسير لنصرة الحليف وكان من آثار ذلك فتح مكة كما هو معروف هذه أمثلة سقناها من وفاء (رسول الله ρ) لأعداء الملة وقد عاهدهم ... أو قبل محالفتهم على غيرهم "[1] .

هذه نماذج من صدقه في وعده وعهده وسواها كثير فما حدث أن وعد رسول الله ، أو عاهد فأخلف أو غدر . روى البخاري أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد : هل يغدر ؟ فأجاب أبو سفيان : لا . فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر " .

إن الغدر نوع من أنواع الكذب والخلف بالوعد كذب . والرسول ρ منزه عن ذلك ، ومن النماذج القليلة التي ذكرناها ترى أنه ما أحد من البشر غير الرسل وصل إلى ما وصل إليه الرسول ρ في الوفاء لشرف الكلمة ، إلا إذا كان تلميذاً من تلامذته ، يقتدي به . لقد كانت كلمة الرسول ρ هي الضمان الذي ما بعده ضمان ، حتى أن ألد خصومه وأعرقهم في دعواته كان لا يتردد إذا تأكد أن محمداً أمنه أن يلقي بنفسه في أحضان المسلمين ، ثقة منه أن كلمة

---

[1] بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام .

محمد ضمان لا يعدله ضمان . ومن تتبع حوادث السيرة وجد الأمثلة الكثيرة على هذا ، إنهـا صفة الصدق عن الأنبياء لا تتخلف .

3- نماذج من حديثه ρ الذي صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات :

أ) – قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء " .

إن هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاهما لم تكونا معروفتين قديماً . أولاهمـا أن الـذباب ناقل داء وهذا شيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع ، فالذباب ناقل جراثيم ممتـاز . والثانيـة وهي التي يجهلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كـذلك ، وهـذا تحقيق كتبه " الدكتور عز الدين جوالة " حول هذا الموضوع ننقل منه ما يلزمنا هنا يقول :

قبل الخوض في هذا الموضوع لنتذكر ما يلي :

1- من المعروف منذ القديم أن بعض المؤذيات قد يكون في سمها نفع ودواء ، فقـد يجتمع الضدان في حيوان واحد ، فالعقرب في إبرتها سم ناقع ، وقد يداوى سمها بجزء منها ، وفي ذلك يقول العلماء : " وقد وجدنا لكون أحد جناحي الذباب داء والآخر شـفاء ودواء فيمـا أقامه الله من عجائب خلقه وبدائع فطرته شواهد ونظائر ، منها النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ويكمن في إبرتها السم الناقع ، والعقرب تهيج الداء بإبرتها ويتداوى من ذلك بجرمها " .

2- وفي الطب يحضر لقاح من ذبيب الأفاعي والحشرات الـسامة يحقـن بـه لـديغ العقرب أو لديغ الأفعى ، بل وينفع في تخفيف آلام السرطان أيضاً .

3- إن الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأساً على عقب ، فالبنسلين استخرج من العف ، والستربتو مايسين من تـراب المقـابر .. إلـخ أو بمعنى أدق من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر . أما والحالة كذلك ، فهل يمتنـع عقـلاً ونظرياً أن يكون في الذباب هذه الحشرة القذرة ، والتي تنقل القذر طفيلي أو جرثوم يخـرج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذي تحمله .

4- من المعروف في فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفاناً (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان إذا دخل بدن الحيوان كَوَّنَ البدن أجساماً ضد هذا الذيفان ، لها قدرة على تخريب الذيفان والتهام الجراثيم ، تسمى بمبيدات الجراثيم .

فهل يستبعد القول بأن الذباب تلتهم الجراثيم فيما تلتهم ، فيكون في جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم والتي مر ذكرها ، ولها القدرة على الفتك بالجراثيم الممرضة التي ينقلها الذباب إلى الطعام أو الشراب ، فإذا وقعت في الطعام فما علينا إلا أن نغمس الذبابة فيه فتخرج تلك الأجسام الضدية فتبيد الجراثيم التي تنقلها وتقضي على الأمراض التي تحملها.

وبعد كلام للدكتور عز الدين ، يستمر فينقل تحقيقاً للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين في إثبات ما في الحديث ، ننقل بعضاً منه ، يقولان :

ما تقوله المراجع العلمية :

في 1871 وجد الأستاذ الألماني " بريفلد " من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلي من جنس الفطريات سماها " امبوزاموسكي " وهو طفيلي يعايش الذبابة على الدوام ، وبالتدقيق فيه وجده من نوع الفطور التي تسمى " انتوموفترالي " تنتمي إلى أهم فصيلة في الفطور الأشنية ، وهي المسَّاه بالفطور الشنية المرتبطة أو المتحدة ، وهو من النوع الثاني للفطر المسمّى الفطور الأشنية الطفيلية ، وهذا الطفيلي يقضي حياته في الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتي ذكرها . ثم لا تلبث هذه الخلايا المستدير أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة .

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلي لهذا الفطر ، وفي هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية ، فيزداد الضغط الداخلي للخلية من جراء ذلك ، حتى إذا وصل الضغط إلى قوة معينة لا تحتملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور إلى خارجها بقوة دفع شديدة ، تدفع البذور إلى مسافة 2 سم خارج الخلية ، على هيئة رشاش مصحوباً بالسائل الخلوي .

وعلى هذا إذا أمعنا النظر في ذبابة ميتة ومتروكة على الزجاج نشاهد :

أ – مجالاً من بذر هذا الفطر حول الذبابة المذكورة .

ب – ويشاهد حول القسم الثالث والأخير من الذباب على بطنها وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة ، التي خرجت منها البذور ، وقد برز منها رؤوس الخلايا المستطيلة التي مر ذكرها . وقد جاءت مكتشفات العلماء الحديثة مؤيدة ما ذهب إليه " بريفلد " ومبينة خصائص عجيبة لهذا الفطر الذي يعيش في بطن الذبابة منها :

1- في عام 1945 أعلن أكبر أستاذ في علم الفطريات وهو " لانجيرون " أن هذا الفطر الذي يعيش دوماً في بطن الذبابة على شكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة (أنزيم) قوية تحلل وتذيب من أجزاء الحشرة الحاملة للمرض .

2- في عام 1947 – 1950 تمكن العالمان الإنجليزيان " آرنشتين وكوك " والعالم السويسري " روليوس " من عزل مادة سموها " جافاسين " استخرجوها من فصيلة الفطور التي تعيش في الذباب وتبين لهم أن هذه المادة مضادة للحيوية تقتل جراثيم مختلفة من بينها جراثيم غرام السالبة والموجبة والديزانتريا والتيفوئيد .

3- وفي عام 1948 تمكن " بريان وكورتيس وهيمنغ وجيفيرس وماكجوان " من بريطانيا من عزل مادة مضادة للحيوية أسموها " كلوتيزين " وقد عزلوها عن فطريات تنتمي إلى نفس فصيلة الفطريات التي تعيش في الذباب وتؤثر في جراثيم غرام السالبة كالتيفوئيد والديزينطريا .

4- وفي عام 1949 تمكن عالمان إنجليزيان هما " كومسي وفارمر " وعلماء آخرون من سويسرا هم " جرمان وروث واثلنجر وبلاتنز " من عزل مادة مضادة للحيوية أيضاً أسموها " انياتين " عزلوها من فطر ينتمي إلى فصيلة الفطر الذي يعيش في الذباب وتؤثر بقوة على جراثيم غرام موجب وسالب وعلى بعض فطريات أخرى كالزحار والتيفوئيد والكوليرا .

5- وفي عام 1947 عزل " موفيتش " مواد مضادة للحيوية من مزرعة للفطريات الموجودة على نفس جسم الذبابة ، فوجدها ذات مفعول قوي على الجراثيم السالبة لصيغة غرام . كالزحار والتيفوئيد وما يشابهها ووجدها ذات مفعول قوي على الجراثيم المسببة

لأمراض الحميات ذات الحضانة القصيرة المدة . وأن غراماً واحداً من هذه المادة يمكنـــه أن يحفظ أكثر من 1000 لتر من اللبن المتلوث بالجراثيم المذكورة .

والخلاصة يستدل من كل ما سبق أنه :

1- يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة والبراز وما شابه ذلك ، فيحمل بأرجلـــه أو يمج كثيراً من الجراثيم المرضية الخطرة .

2- يقع الذباب على الأكل فيلمس بأرجله الملوثة للمرض هذا الطعام ، أو هذا الشراب ، فيلوثه بما يحمل من سم ناقع ، أو يتبرز عليه فيخرج مع ونيمهـــا تلـــك الجـــراثيم الدقيقـــة الممرضة .

3- فإذا حملت الذبابة من الطعام ، وألقيت خارجه دون غمس ، بقيت هـــذه الجـــراثيم في مكان سقوط الذباب ، فإذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعاً ، دخلت فيـــه الجـــراثيم ، فـــإذا وجدت أسباباً مساعدة تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض ، فلا يشعر إلا وهـــو فريـــسة للحمى طريحاً للفراش .

4- أما إذا غمست الذبابة كلها ، أو مقلت في الطعام فماذا يحدث؟ إذا غمست الذبابـــة أحدثت هذه الحركة ضغطاً داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة فزاد توتر البـــروز والسائل داخلها زيادة تؤدي إلى انفجار الخلايا ، وخروج الأنزيمات الحالة لجـــراثيم المـــرض والقاتلة له ، فتقع على الجراثيم التي تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ، ويـــصبح الطعـــام طاهراً من الجراثيم المرضية .

5- وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً للحديث النبوي المؤكد لضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذي يكافح ما تحمله من داء .

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه ρ .

فقد أثبت العلم الحديث أن الذباب ينقل الجراثيم والأقذار بأرجله من النفايات والكنـــف والمزابل إلى الأطعمة والأشربة ، وإلى فتحات الوجه والتنفس فيسبب الأمراض المعدية مـــن

تيفوئيد وسل وكوليرا وغيرها ، وهذا ما أخبر عنه المصطفى ρ من أن بأحد جناحي الذبابة الداء .

والداء يجب الوقاية منه والبعد عنه ، ولا يكون لك إلا بمكافحة الذباب وإبادته والاحتراس منه .

ويقرر العلم الحديث أيضاً كما رأينا أن في الذباب طفيليّاً له ذيفان يبيد الجراثيم ويفتك بها بشدة ، وأن هذا الذيفان لا ينفصل عن جرثومة إلا بعد وصول توتره إلى درجة معينة ، يكفي لبلوغه الضغط عليه بغمسه ولو في الشراب أو الطعام . وهذا ما ورد في الحديث عنه ρ ، {وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ} .(النجم : 3 ، 4)

* * * * *

ب)– عن عائشة أن فاطمة بنت أبي حبيش سألت النبي ρ فقالت : إني أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ فقال : " لا إن ذلك دم عرق ، ولكن دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها ثم اغتسلي " .

المسألة هنا كما يلي : للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من رحمها كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الأنثى بماء الذكر والدم الذي يخرج منها في هذه الحالة يسمى دم حيض وهذه امرأة يخرج منها الدم دائماً وكانت تتصور أن الدم كله حيض ولكن الرسول أفهمها أن هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق .

فماذا يقول العلماء المختصون المعاصرون ؟

يقولون : إن الدم الوحيد الذي يخرج من الرحم – عادة – هو دم الحيض والنفاس أما الدم الآخر فمرجعه إلى نزيف يحدث في بعض الأغشية مما لا علاقة له بدم الحيض ، فهل كان حديث أهل الاختصاص في عصرنا إلا مصدقاً لما قاله عليه السلام من عصور لم يكن فيها معروفاً ؟ .

* * * * *

ج)- روى مسلم عن طارق الجعفي أنه سأل النبي ρ عن الخمر فنهاه عنـــه فقـــال : إنما أصنعها للدواء فقال : " إنه ليس بدواء ولكنه داء " .

إن هذا الحديث يذكر أن الخمرة من أسباب المرض وليست من أسباب الشفاء . فمـــاذا يقول الأطباء في عصرنا ؟ ننقل للجواب على هذا مـــا ذكـــره صـــاحب كتـــاب روح الـــدين الإسلامي في هذا الموضوع ، وقد نقل هو قسماً من بحثه عن الإسلام والطب الحديث يقول :

" الخمر أساسها مادة الكحول بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة جداً فـــي جسم الإنسان في عملية هضم المواد السكرية ... ولها فوائد طبياً ولكن يظهر أن هذه الفوائـــد قاصرة على هذا القدر البسيط جداً (والحديث لم يذكر أن ما يجري داخل الجسم مـــن عمليـــة التخمر فيه ضرر ولكن الكلام فيما نخمره ثم نشربه) فإن زاد عـــن ذلـــك أحـــدث ضـــرراً خصوصاً إذا كان التعاطي لمدة طويلة ، فإنه يحدث التهاباً مزمناً في الأعصاب وفي الكلـــى ، وتصلباً في الشرايين وتحجراً في الكبد ، وضعفاً في القلب . وربَّ سائلٍ يقول : لـــم لا يؤخـــذ منه مقدار بسيط ؟ (ولا يسأل هذا السؤال إلا إنسان يجهل أن الجسم متى اعتاد على الكحـــول طلبه وغلب عليه ، فلم يعد يستطيع الصبر عنه) والجواب أن الكحول يختلـــف عـــن أغلـــب المواد في أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفاً في قـــوة الإرادة والحكـــم ، وتـــزداد بـــه الانفعالات النفسية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصاً آخر ، وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية ، ومع علمه بضرر الزيادة في حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه ، وهو تحت تأثير البسيط منه وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعـــاش ولكـــن ضـــعف الإرادة المتولدة منه يجعل الشخص عبداً لعادة شرب الخمر .

وإن تأثير الخمر يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول إلى الـــدم للـــشخص البالغ ، وهذا القدر يوجد في كأس واحدة من الويسكي أو الكونياك ، وقد لا يصل الشخص إلى درجة السكر ، ولكن على كل حال له أثر ملموس في حالة الشخص الجسمية والعقليـــة ، وإذا فحص الشخص في هذه الحالة ، نجد أن درجة إدراكه وتقديره قد تغيرت فعلاً ، فهو مـــثلاً إذا كتب على الآلة الكاتبة زادت أخطاؤه عن المعتاد ، وإذا قاد سيارة لم يتبـــع بالـــضبط قـــوانين المرور . وقد ثبت من الإحصائيات أن أكثر ن 13 في المائة مـــن حـــوادث المـــرور ســـببها الخمر.

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شيئاً من الارتفاع في ضغط الدم ، وهذا الارتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ولكن الضرر يتضاعف إذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه ، ثم إذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لأن تحدث هيجاناً يزيد في الضغط لدرجة ينفجر معها شريان في المخ ، يسبب شللاً قد ينجو منه الشخص جزئياً أو لا ينجو كلية ، إذ من المعلوم أن الشخص الذي ضغطه الدموي مرتفع يجب أن يلتزم الهدوء في حياته ، لأن أي هيجان يزيد في ارتفاع الضغط يعرضه لانفجار شرياني ، والسكران لا يمكنه أن يضبط عواطفه ، وبالتالي لا يمكنه أن يضمن لنفسه هذا الهدوء .

والخمر تحدث عند غير المتعوّد عليها احتقاناً في المعدة ، قد يسبب غثياناً أو قيئاً ، وإذا كانت الجرعة كبيرة سببت التهاباً في المعدة وعسر هضم يمتد إلى بضعة أيام .

ويرى بعض الأطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جداً ، فهي ضارة بالخميرات في طول القناة الهضمية ، وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيراً طبيعياً . والخمر لها تأثير في الوراثة ، فقد شوهد أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحي الجسم ، ضعفاء البنية ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام ودافع إلى الشر . وأن من يبحث في كتب الطب يتولاه العجب عندما يقرأ مسببات الأمراض المختلفة . إذ يجد للخمر نصيب الأسد في ذلك .

لقد أصبحت فكرة التداوي بالخمر محض خرافة وتأكد كونها داء بعشرات الطرق ، وأقل ما فيها ما ذكره "بتنام " في كتابه أصول الشرائع : النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله وفي الأقاليم الجنوبية يجعله كالمجنون "[1] .

ولعله وضح بعد هذا كيف أن كلمة الرسول ρ لا ينقصها شيء ، لأنها محض الحق الذي لا تزيده الأيام إلا تثبيتاً وتأكيداً .

* * * * *

د)– عن جابر قال : قال رسول الله ρ " إن لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله " رواه مسلم ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ρ : " ما أنزل الله من داء

---

[1] روح الدين الإسلامي لعفيف الدين طيّارة .

إلا أنزل له دواء " رواه البخاري . وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ρ : " إن الله تعالى أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ، ولا تداووا بحرام " .
أخرجه أبو داود .

هذه الأحاديث تلح أن لكل داء دواء ، فماذا قال الواقع ؟

لقد قال الواقع ولا يزال يقول كل يوم إن ذلك حق لا مرية فيه ، ففي كل يوم يكــشف أهل الاختصاص دواء لداء لم يكن له دواء معروف . ولعلك تلاحظ أن العلماء مقبلون علـــى محاولة اكتشاف دواء كل داء بروح الواثق أنه لا بد أن يكون لكل داء دواء وإن جهلوه الآن ، فهم لا بد واجدوه . فأخذت هذه القضية مأخذ البديهية في أذهانهم ، وفي ذلك كله تجد كيف أن كلمة رسول الله ρ لا تنتقض بل هي الصدق كل الصدق .

* * * * *

هــ)- مما قرره علماء الظواهر الطبيعية في عصرنا أن ما ينزل سنوياً من الأمطار في العالم لا يتغير مقداره بتاتاً ، فلا يزيد ولا ينقص ولو مقداراً بسيطاً ، وعللوا ذلك بأن مـــا تقدمه الشمس من الحرارة نسبته ثابتة . والعوامل الأخرى التي تشارك فـــي وجـــود ظـــاهرة المطر تبقى ثابتة ونسبة الأمطار بالتالي لا تتغير بتاتاً في كل عام ، وأما ما نـــراه مـــن كـــون المطر ينزل في منطقة واحدة بنسب مختلفة خلال سنين ، فهذا لا يؤثر على جوهر القــضية ، لأنه ينقص في مكان على حساب زيادته في مكان آخر ، فالنسبة بالنسبة للعالم كله واحدة وإن اختلفت بالنسبة لكل منطقة على حدة .

وانظر بعد هذا الذي قدمناه إلى هذا الأثر تجد أن علماء عصرنا ما – زادوا – علـــى أن أكدوا مضمونه ليكون جزءاً من شهادة الواقع على صدق الرسول ρ والأثر هو : " ما عام بأمطر من عام "[1] .

* * * * *

---

[1] تفسير ابن كثير سورة الفرقان .

و)- روى أبو داو والترمذي عن ابن عباس حديث دخوله وخالد بن الوليد مع رسول الله على ميمونة . ومن الحديث قال : قال ρ : " من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه لـيس شـيء يجزي من الطعام والشراب إلا اللبن " .

إن هذه الحقيقة التي أشار إليها الحديث هي كون الحليب هو الغذاء الكامل وأي غـذاء آخر يبقى فيه نقص كغذاء منفرد ، أصبحت الآن تجدها في أي كتاب عن علم التغذية يـصدر الآن ، وذلك بعد أن تقدمت وسائل التحليل والتجريب ، وتقدمت العلوم ، فكانت حـصيلة مـا وصل إليه إنسان عصرنا متناسقةً تماماً مع ما أشار إليه الرسول ρ في الحديث بشكل واضـح ، وهذه الحقيقة على بساطتها تدلك أن الكلمة النبوية حق وصدق لا يزيدها مـرور الأيـام إلا ثباتاً .

* * * * *

ز)- نشر الدكتور " جراد فنتسر " في مجلة كوسموس الألمانية مقالاً تحت عنـوان : الأخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب والاقتراب منه جاء فيه :

" إن ازدياد شغف الناس بالكلاب في هذا العهد الأخير ، يضطرنا إلى لفـت الأنظـار للأخطار التي تنجم عن ذلك وخاصة إذا دفع اقتناؤها إلى مداعبتها وتقبيلهـا ، والـسماح لهـا بلحس الأيدي وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها ، فكل ما ذكره مع نبـوّه عـن الـذوق السليم ، ومنافاته للآداب ، لا يتفق وقوانين الصحة فإن الأخطار التي تهـدد صـحة الإنـسان وحياته بسبب هذا التسامح لا يستهان بها ، فإن الكلاب تصاب بدودة شـريطية تتعـداها إلـى الإنسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل إلى حد العدوان على حياته " .

وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجماً تسلم من الإصابة بهذه الديدان الشريطية .

وقد رؤي في إقليم فريزلند بهولندة حيث تستخدم الكلاب في الجر . أن فيكل مائة منها 12 إصابة . ووجد في اسلانده شخص مصاب بهذه الآفة في كل 43 شخصاً مـن أهاليهـا .

وشوهد أن هذه النسبة تزيد في استراليا إذ ثبت وجود شخص في كل 39 شخصاً من سكانها مصاباً بها . وثبت كذلك أنها كانت سبباً مباشر للكثير من الأمراض في الأقطار الأخرى .

ثم يقول : " ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب ، وتعويد الأطفال التوقّي منها . فلا تترك تلعق أيديهم ولا يجوز إبقاء الكلاب بمحال نزهة الأطفال ، وميادين رياضتهم ، ويجب أن لا تطعم الكلاب في الأواني المعدّة لأكل الناس وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والأسواق العامة أو المطاعم . على وجه عام يجب إبعادها عن كل ما له صلة بمأكل الإنسان ومشربه " .

وإن من كشوفات عصرنا استخراج كثير من مبيدات الجراثيم من التراب وخاصة تراب المقابر ، لأنه أكثر من غيره تلوثاً فمثلاً الستربتومايسين والتتراسكلين والنيوماسين ، وكلها من مبيدات الجراثيم ، استفيد من التراب في استخراجها لوجود ذيفان في جراثيمه يقضي على أنواع من الجراثيم الأخرى .

ضع ما مر كله في ذهنك واقرأ هذا الحديث :

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ρ قال : " طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه كلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب " . إنك ترى أن كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق ما دلنا عليه الحديث .

* * * * *

4- وأخيراً : فإنه ما من كلمة قالها رسول الله ρ إلا والحق والصدق مضمونها . ولكن كلام رسول الله ρ ينقسم إلى قسمين :

1- ما له علاقة بالغيب .
2- ما له علاقة بالمشهود المحسوس .

فالنوع الثاني فقط هو الذي يستطيع الإنسان أن يختبره فإذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الأول ، هذا مع أنّ الله عز وجل علامات أخرى تدلّ على صدقه ρ في أمر

الغيب ، هي المعجزات والنبوءات . فرسولٌ ثبت صدقه في كل شيء مع هـذه المؤيـدات لا يبقى مجال أما الإنسان إلا التسليم له .

ونحب أن نذكر هنا بعض الملاحظات المهمة بمناسبة كلامنا عن صفة الصدق عنـده عليه الصلاة والسلام :

الملاحظة الأولى : إن معرفة صحة الحديث ، وتأكد ثبوته عن رسول الله ρ . ينبغـي أن يسبق دراسة المضمون . لأن كثيراً من الكلام دُسَّ عليه ، وقـد قـام العلمـاء بتمحـيص الصحيح من كل ما روي عنه الصلاة والسلام ، فلا بد من الرجوع إلى ما أثبتوه أولاً ، ليكون تحليل المضمون قائماً على أساس سليم ، وينبغي أن يتوافر هذا في كل دراسـة لهـا علاقـة برسول الله ρ .

الملاحظة الثانية : إن بعض الألفاظ في اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية إلـى مدلولات شرعية ، فصارت تطلق على كلا المدلولين وقد تستعمل في القـرآن وفـي حـديث الرسول تارة بالاستعمال الأول ، وتارة بالاستعمال الجديد ، فلا بدل لـدارس الـنص مـن أن يتأكد من نوعية استعمال اللفظ في النص الذي يدرسه . فمثلاً كلمة " السماء " ذكرت أحياناً في القرآن للدلالة على المعنى اللغوي وهو كل ما علا . وذكرت أحياناً للدلالة على السماء التـي هي سكن الملائكة وفيها من عالم الغيب فلا بد لدارس نص فيه مثل هذا أن يعـرف بواسـطة القرائن المقصود الحقيقي من اللفظ في هذا المحل . وقد أخطأ كثيرون فـي فهـم النـصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهي ليست كذلك ، وأنكـروا قضايا هي من باب الحقائق ، وهم في كلا الحالتين متوهمون ، وجعلوا توهمهم من الإسـلام ، فحمّلوا الإسلام ما ليس منه جهلاً .

الملاحظة الثالثة : إن بعض الأمور تكون نتيجة لعوامل كثيرة ، كل عامل مـن هـذه العوامل يكون سبباً من عدة أسباب مؤثرة فيه ، وفي هذه الحال لو ذكر إنسان سبباً فقـط ولـم يذكر الآخر لا يعني هذا أنه ينفي البقية . فمثلاً قد يكون الكسل نتيجة لاجتماع الحر والتعـب والضجر والعادة والملل ، وقد تجتمع هذه الأسباب كلها عند إنسان ، فلو قلت لهذا الإنـسان : الحر جعلك تكسل لا يعني هذا أنني أنفي الأسباب الأخرى لكسله ، وهناك كثير مـن القـضايا ربطها الله – عز وجل – بأسباب حسية وأسباب غيبية ، كالموت مثلاً فإن له سبباً حسياً هـو المرض ، وآخر غيبياً هو قبض الروح من قِبَلَ الملك الموكل بذلك ، وأمور كثيرة مـن هـذا

النوع ، والقرآن والحديث قد يتحدثان في موقف عن السبب الحسي لقضية ، وقد يتحدثان في موقف آخر عن السبب الغيبي لها ، ولا يعني أن ذكر أحدهما في موطن نفي للثاني .

ومن هنا نجد أن كثيرين من الناس يتوهمون في فهم بعض النصوص ، فتراهم إذا قرءوا نصّاً يتحدث عن السبب الغيبي فقط لقضية لها سبب حسي كذلك ، إنهم ينفون السبب الحسي أو العكس في القضايا المقابلة ، وذلك جهل عظيم يقابله جهل الذين يثبتون السبب الحسي فقط ، ولا يثبتون معه السبب الغيبي الذي أخبرنا به الرسول الصادق ρ . إن القوارع والجوائح والمصائب التي تصيب بني البشر لها أسبابها العادية ، ولا يتنافى هذا مع كونها بقدرة الله وإرادته انتقاماً من الناس بما صنعوا وتذكيراً لهم حتى يرجعوا . قال تعالى : {وَلاَ يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ}[1] .

الملاحظة الرابعة : تمتلئ كتب التصوف الإسلامي بالحديث عن انكشاف بعض عوالم الغيب لأناس ، ويقول بعض السائرين إلى الله : إن أي إنسان يفعل ما يفعلون يصل مثل الذي يصلون إليه من مثل هذه المشاهدات التي تزيد في يقين الإنسان ، ويلاحظ أن بعض الذين يقولون مثل هذا الكلام ناسٌ مُجْمَعٌ على توثيقهم وصدقهم ، وهذا لا شك من جملة المؤكدات لصدق رسالة الرسول ρ ، ولكنا نحب هنا أن نذكر بعض الضوابط لنعرف حدود ما يمكننا قبوله من هذا الكلام فنقول :

1- إنّ إمكانية رؤية بعض عوالم الغيب ضمن شروط معينة جائزة . أشار إليها الرسول ρ ووقعت لبعض الصحابة ، فقد روى أحمد قول رسول الله ρ لأصحابه وهو يسمع عذاب القبر : " لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع " . وقد روى مسلم قول رسول الله ρ لأبي بكر وحنظلة : " والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، ساعة وساعة ، ساعة وساعة " . وأخرج البخاري عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت الفرس ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريباً منها فانصرف فأخّره ، ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فلما أصبح حدث النبي ρ فقال : وتدري ما ذاك ؟ قال : لا . قال : " تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس لا تتوارى منهم " . وأخرج

[1] الرعد : 31 .

الشيخان والترمذي عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ρ فذكر له فقال : " تلك السكينة تنزلت للقرآن " .

2- لكننا لا نستطيع قبول كلام يدعي صاحبه أنه من مثل هذا إلا بشروط منها :

أ- أن يكون ممن تقبل شهادته ، فالفاسق والمبتدع والضال وجميع هؤلاء لا تقبل شهادتهم وكلامهم في مثل هذه القضايا .

ب- وأن يكون هذا الاطلاع كأثر من آثار التزامه بشريعة الله ، وسنة رسول الله ρ ، فلا نقبل كلام إنسان ادعى أنه شاهد من مثل هذا باتباعه طريقاً لم يشرعه لنا رسول الله ρ ، لأنه بعمله فسق والفاسق لا شهادة له .

ج- وأن يكون ما اطلع عليه من عالم الغيب متفقاً مع أن ما أخبر عنه رسول الله ρ ، لأن رسول الله هو الذي لا يمكن أن يكون في كلامه خطأ ، ولأن الله جعله الحجة على الناس في كل شيء ، فلا تقبل كلام إنسان ينقضه نص .

د- وألا يكون مدعاه أنه شاهد شيئاً تستحيل مشاهدته شرعاً في قوانين كوننا الحالية ، أو يرتب على مشاهدته تشريعات محدثة .

فمن توافرت فيه هذه الشروط وأخبرنا أنه قد حدث له من هذه الكشوفات ، فلا علينا لو قبلنا كلامه إذ لا مبرر لتكذيبه ، ولم يعرف عنه إلا الصدق ، ولعل الفارق بين العقل الخرافي العقل العلمي هو التثبت لا الإنكار دون مبرر ، فهذا نوع من المرض العقلي يشبه المرض الآخر .

الملاحظة الخامسة : إن هناك ظواهر غيبية كثيرة تحتاج إلى تحليل ووضع لها في محلها الصحيح :

1- ظاهرة الأحلام .
2- ظاهرة التنويم المغناطيسي .

3- ظاهرة تحضير الأرواح .
4- ظاهرة الاتصال بعالم الجن .
5- ظاهرة التلبائي .

هذه الظواهر وكل منها يدعم قضية الإيمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا ، بصرف النظر عن تعليل هذه الظواهر ، إلا أنها جميعاً تشير إلى قضية واحدة هي وجود عالم غيبي كما أخبر الرسل ، تمثل هذه الظواهر جزءاً منه .

فانكشاف شيء من المستقبل البعيد للإنسان وهو في حالة النوم , ووقوعه في كثير من الأحيان حرفياً دون أن يكون في بعض الحالات تفكير مسبق عنه ، دليل على وجود علم محيط بالمستقبل ، هو غيب بالنسبة لنا .

وظاهرة التنويم المغناطيسي تدل بشكل لا يقبل الجدل ، على وجود الروح وعلى أن لها قوانينها وعالمها الخاص ، فالإنسان في حالة النوم المغناطيسي ، تكون حواسه كلها معطرة ، وحتى الأفعال الانعكاسية تكون في حالة شلل تام ، حتى لو وخزت النائم بإبرة فإنه لا يظهر عليه أي شعور ، ومع ذلك فإنك تسأله عن أشياء بعيدة عنه ، فيحدثك عنها وكأنها لا يراها وهو لا يعرفها في حالة اليقظة ، ولا يستطيع لو كان مستيقظاً أن يجيب على أي سؤال مما أجاب عليه وهو نائم ، فإذا استيقظ من هذا النوع من النوم فإنه لا يتذكر شيئاً مما سئل عنه وأجاب . وهذه نقول عجيبة سجلت في حالات التنويم المغناطيسي :

نقل " بيو " في كتابه : " المخاطبات على التنويم المغناطيسي " هذه المحاورة بين منوَّم ومنوَّمة كما نقلها " شارول " قالت المنوَّمة : هل تسمع ما يأمرني به ؟ فقال الدكتور : من هو الذي يأمرك ؟ فقالت هي : ألست تسمعه ؟ فقال : كلا لم أسمع شيئاً ولم أر أحداً . فقالت : حقيقة لأنك نائم وأنا يقظى . فقال لها الدكتور : كيف ذلك أتدّعين أني نائم وأنت يقظى ، مع أنك تحت تأثير إرادتي في الحالة المغناطيسية ، إنك تتوهمين أنك يقظى لكونك تكلميني ، وإنك متمتع بنوع من الإرادة ، ولكنك في الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحي جفنيك . فقالت : إني أكرر لك القول بأنك أنت النائم وأنا بالعكس اليقظى تماماً على مثل الحالة التي سنكون عليها جميعاً في يوم ما لأفسر لك ذلك . إن كل الذي تستطيع أن تراه أنت ليس إلا أشكالاً غليظة مادية ، فلا يمكن أن تميز إلا أشكالها الظاهرة ، ولكن جمالها الحقيقي محجوب عنك تماماً ، أما أنا في حالة وقوف وظائفي أعضائي الآن وفي حالة حرية روحي من علائقها الاعتيادية ،

فإني أرى ما هو مستور عنك وأسمع ما لا يمكنك سماعه ، وأفهم كل ما هو غير مفهوم لديك. إلى أن قالت : وإني بمجرد الإرادة أستطيع أن أسمع الأصوات البعيدة عني ولو كان بيني وبينها مائة فرسخ . وبالاختصار فإني لا أحتاج أن تأتي الأشياء إليّ أنا بل أذهب إليها حيثما كانت ، وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم بها عليها أي إنسان آخر لا يكون في الحالة التي أنا عليها .

ونقل " أكزاكوف " في كتابه : " المذهب الروحي وفن استحضار الأرواح " ما يلي :

" إن زوجة الإنجليزي الشهير " دومرجان " معتادة على تنويم امرأة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب إلى المحل الذي تعينه لها ، فقالت لها يوماً وهي تحت تأثير النوم المغناطيسي : إذهبي إلى منزلي القديم فقالت المنوَّمة : قد فعلت وطرقت الباب بشدة ، قالت زوجة دومرجان : فذهبت في اليوم التالي لأتأكد من صدقها ، وسألت عما حصل في تلك اللحظة فأجابني السكان بأنهم سمعوا طرقاً شديداً على الباب ، فذهبوا إليه فلم يجدوا أحداً فعلموا أن ذلك فعل الأشقياء من الأطفال .

وينقل أكزاكوف كذلك حادثة أخرى لها علاقة بظاهرة تحضير الأرواح ، هي أنه كان يحضر روحاً مع ثلة من إخوانه ، وكانت الواسطة امرأة شهيرة هي مدام " دسبرانس " فشاهد أن الروح تجسدت من نصفها الأعلى وأن الواسطة التي هي المرأة قد فقدت أطرافها السفلى تماماً . وقد فحصوا ذلك بأيديهم وأعينهم وهم في غاية الدهشة ، فلم يجدوا لأطرافها أثراً ثم لما ذهبت الروح عادت إليها أطرافها ، وقد شاهد مثل هذه الحادثة التي فيها يفنى جسد الواسطة كله أو بعضه علماء آخرون " .

وظاهرة تحضير الأرواح كظاهرة التنويم المغناطيسي أصبحت منتشرة في كل مكان في العالم ، وهي تدل بمجملها على وجود عالم الغيب ، إذ الأرواح التي تحضر قسم منها يذكر أنه أرواح بشر ، وأخرى تذكر أنها أرواح جن ، وهي كما رأيت في بعض مظاهرها أن بعض الأجسام لا ترى مع وجودها إذا كانت في حالة روحية معينة .

وأما ظاهرة التلبائي[1] وهي الظاهرة التي تحدث لبعض الناس ، إذ يشاهدون حــوادث بعيدة جداً بشكل خارق ، فهي كذلك تدل على أن في الإنسان شيئاً غير الجسد ، وأما ظــاهرة الاتصال بالجن وهي ظاهرة موجودة بشكل واضح في بعــض المنــاطق ولهــا خصائــصها الغريبة. فهي تؤكد بشكل ما وجود عالم الجن والشياطين الذي أخبــر عنــه الرســل . هــذه الظواهر كلها تشير وتؤكد أن هناك عالم غيب ، ولكن هذه الظواهر كلها لا يــصح أن تكــون وسيلة من وسائل المعرفة وطريقاً من طرق الهداية ، إذ ما من واحدة منها فيها ضمانة علــى أنها طريق سليم للمعرفة ، إذ يختلط بها الكذب بالصدق ، والحق بالباطــل ، وروح الــشيطان بروح الإنسان ، وليست هناك مسؤولية محددة ، كما أن للدجل في كثير من أحوالها نــصيباً . لذلك يبقى أمام الإنسان طريق وحيد مأمون لمعرفة عالم الغيب ، هو طريق الرســول المؤيــد بالمعجزة من عالم الغيب ، وهي شهادة ضمان كاملة على الحق ، عدا عن كون البلاغ يأتينــا عن مصدر ثقة مسؤول مشاهد لنا معروف ، مادام الرسول وحده هو المصدر الوحيد للمعرفة في موضوع عالم الغيب ، فينبغي أن يعرض استخدام هذه القضايا على هديه ، ليعرف حكــم الجواز أو عدمه . كما ينبغي أن يعرض ما يأتينا منها على هديه ليعرف وجه الحق فيــه ، ولا يصح أبداً أن نعتبر أمثال هذه الطرق وسيلة من وسائل المعرفة الجازمة أو طريقاً من طــرق الهداية المستقلة .

الملاحظة السادسة : إن سبب التزامنا الكامل بقول الرسول ρ كمقياس وحيد للحــق ، وهو أنه وحده الذي كلفنا الله – عز وجل – باتباعه وتصديقه ، وألزمنا ذلك وأقام علينا الحجة فيه بالعلامات الكثيرة التي جعلها مؤيدة له ، وشاهد صدق على رسالته ، فكان هذا ضماناً لنــا بأنه على الحق والصدق اللَّذَيْن لا شبهة فيهما ، لأن الله وحده هو المحيط علماً بكــل شــيء ، والمنزه عن كل خطأ ، وهذا رسوله ρ الذي ينطق بأمره ووحيه ، فهو كذلك منه عن الخطــأ والباطل برعاية الله وتعليمه ، وهذه شهادة الواقع تثبت أن الحق كل الحق في كل كلمة قالهــا رسول الله ρ .

ذكرنا هذه الملاحظات الستة في معرض الحديث عن صفة الصدق عند رســول الله ρ لأن الذي يصرف بعض الناس عن الإيمان شبهة لها علاقة بواحدة مــن هــذه الملاحظــات ، كمثل ذلك الذي يستبعد وجود عالم غيبي ، أو كذلك الذي أشكل عليه نص ، إمــا لأن الــنص

---

[1] انظر مادتي " نوم " ج10 ص 412 و " روح " ج 4 ص 369 في دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي .

غير صحيح النسبة لرسول الله . أو لعدم حمل الحديث على المعنى المراد . أو لقصور الاطلاع وهكذا ...

وعلى كل فإن كل ما كتبناه هنا عن صفة الصدق لرسول الله هو مقدمة البرهان عليها . وإلا فإن هذا البحث بأبوابه الخمسة برهان عليها وتأكيد لمضمونها بالشكل الذي يثلج القلب بإذن الله ببرد اليقين .

والآن ننتقل لاستعراض الصفة الأساسية الثانية للرسل وحظه الأكمل منها عليه الصلاة والسلام .

*   *   *

2 – التزامه الكامل ρ بتطبيق ما يدعو إليه

شهدت البشرية في تاريخها الطويل انفصالاً بين المثل والواقع ، بين المقال والفعال ، بين الدعوى والحقيقة ، وكان دائماً المثال والمقال والدعوى ، أكبر من الواقع والفعال والحقيقة ، وهذا شيء يعرفه من له أدنى معرفة بالتاريخ والحياة ، غير أن هذه الظاهرة تكاد تكون مفقودة في واقع أتباع الرسل المخلصين ، فمن باب أولى أن تكون مفقودة في حياة الرسل الذين تجد واقعهم أعظم من كل تصور نظري ، فهم وحدهم الذين دعوا الإنسانية إلى أعظم قمم السمو ، ومثلوا هم بسلوكهم العملي هذه الذروة بشكل رائع مدهش عجيب ، وهذا بحد ذاته من أدلة صدقهم . إذ الالتزام بالسمو لا تطيقه النفس البشرية عادة ما لم تتهذب هذه النفس بدافع الخضوع لأمر الله بعد الإيمان به ، ومعرفة أمره ، ويستطيع الإنسان أن يعرف هذا بالتجربة ، إذا شاهد أحوال الكافرين ، فمثلاً قد يحاول كافر أن يقلد مسلماً في صلاته متظاهراً بالإيمان ، فإذا ما راقبت مثل هذا وجدته عملياً لا يبقى على حالة واحدة من التطبيق ، كما أن تطبيقه يكون بسيطاً جداً ، ثمّ هو إن كان بحيث لا يراه الناس فإنه لا يفعل شيئاً أصلاً ، فعندما ترى الرسل في عبادتهم العجيبة الكثيرة لله ، مع قيامهم بأمر الله كما كلفهم على ما في ذلك من مشقة أو جهد ، دون تكلف بل بكامل الرضا والسعادة ، فذلك لا شك دليل صدق لا يدحض .

ولما كان الكلام هنا خاصاً عن محمد رسول الله ρ ، وظهور هذا في حياته العملية على أعلى ما يخطر بقلب بشر ، رأينا أن نختار بعضاً من الأوامر والنواهي القرآنية التي وجهها الله لرسوله في قضايا متعددة ، لنرى كيف كان قيام رسول الله بها دليلاً كاملاً على أنه رسول الله ρ ، وحرصنا على أن تكون الأوامر التي ندرسها مختلفة الجوانب لنرى كيف كان يقيم رسول الله ρ كل أمْر أُمِرَ به بشكل كامل . بحيث لا يكون تنفيذه لأمر مضيعاً لأمر آخر ، كما نرى عند بعض الناس ، إذ نراهم مقبلين على تنفيذ أمر الله في العبادة مثلاً ، مفرطين في بقية أوامر الله وتكاليفه ، لكن رسول الله ρ كان يقوم بكل أمر بما لا يسبق إليه ، مع إحاطته وعدم تفريطه بأي جانب من جوانب الإسلام الذي كلف به ، وأمر أن يدعو إليه ، حتى إنّ الدارس المنصف لحياته في هذا الجانب لا يتمالك إلا أن يشهد أنه رسول الله حقاً . يقول الجلندي ملك عُمان لما بلغه أن رسول الله يدعوه إلى الإسلام : (والله لقد دلني على هذا النبي الأمي : أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وإنه يغلب فلا يبطر ويُغْلَبُ فلا يضجر ، ويفي بالعهد وينجز الموعود ، وأشهد أنه نبي) .

والتكاليف التي اخترناها لرؤية تطبيقه العملي لها هي ما يلي :

أ- قوله تعالى : {بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ}[1] .

ب- قوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ}[2] . {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا}[3] .

ج- قوله تعالى : {وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}[4] .

د- قوله تعالى : {يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ}[5] .

هـ- قوله تعالى : {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ}[6] . {كُونُواْ قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ}[7] .

فلنر نماذج من تطبيقه لكل أمرٍ من الأوامر الآنفة الذكر ، مع ملاحظة أن كل أمر من أوامر الله له كان يقوم به على مثل هذا ، بحيث لا تجد أمراً من أوامر الله إلا وله من تنفيذه أعلى حظ يتصوره بشر ، لأنه أعظم إنسان مثّل العبودية لله على الأرض .

أ – نماذج من تنفيذه للأمر الأول {بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ} :

أخرج الشيخان عن عائشة قالت : " كان النبي يقوم من الليل (أي مصلياً لله) حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكورا ؟! " .

وذكر المغيرة عن رسول ρ مثل هذا .

---

[1] الزمر : 66 .
[2] البقرة : 219 .
[3] طه : 131 .
[4] الحجر : 88 .
[5] التوبة : 73 .
[6] المائدة : 49 .
[7] النساء : 135 .

وأخرج البخاري عن عائشة " أن رسول الله ρ كان يصلي إحدى عشرة ركعة (أي في الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه ، ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر ، ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة " .

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : " صليت مع النبي ρ ليلة فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء ، قيل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه " .

وأخرج مسلم عن حذيفة قال : " صليت مع النبي ρ ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلي بها ركعة (أي بالبقرة) فمضى فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها (وهذه السور تعدل سدس القرآن) يقرأ مسترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح ، وإذا مر بتعوذ تعوّذ ، ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربي العظيم ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال : سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال : سبحان ربي الأعلى ، فكان سجوده قريباً من قيامه".

وروى مسلم عن عائشة قالت : " كان رسول الله ρ إذا فاتته الصلاة (أي قيام الليل) من وجع أو غيره صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة " .

وأخرج مالك والترمذي وأبو داود عن عائشة قالت : " فقدته ρ من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو ساجد يقول : اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " .

وأخرج البخاري عن أنس قال : " كان رسول الله ρ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته " .

وروى الترمذي عن عائشة قالت : " كان رسول الله ρ يتحرى صوم الاثنين والخميس " .

وروى النسائي عن ابن عباس قال : " كان رسول الله ρ لا يفطر البيض في حضر ولا سفر " .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال : " كان رسول الله ρ يعتكف العشر الأواخر من رمضان " .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : " كان رسول الله ρ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله ، وأيقظ أهله ، وجدَّ وشدَّ المئزر " .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : " لم يكن النبي ρ يصوم من شهر أكثر من شعبان ، فإنه كان يصوم شعبان كله وفي رواية : كان يصوم شعبان إلا قليلاً " .

وعن ابن مسعود قال : " قال لي رسول الله ρ : اقرأ عَلَيَّ القرآن . فقلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : إني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية : {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ شَهِيداً} فقال : حسبك فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان " (أي يبكي) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود ومالك .

وروى مسلم عن عائشة قالت : " كان رسول الله ρ يذكر الله على كل أحيانه " .

وروى أبو داود والترمذي بإسناد حسن صحيح عن ابن عمر قال : كنا نعدل لرسول الله ρ في المجلس الواحد مائة مرة : رب اغفر لي وتب عَلَيَّ إنك أنت التواب الرحيم " .

وروى مسلم عن الأغر المزني أن رسول الله ρ قال : " إنه ليران على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة " .

وقال الحسن بن علي : " سألت أبي عن دخول رسول الله ρ (أي إلى بيته) فقال : كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك ، وكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءاً لله وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه ، ثم جزَّأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة بالخاصة " أخرجه الطبراني في الكبير .

وهذه نماذج متممة من مناجاته لله وذكره له في بعض أحواله :

عن جويرية – زوج النبي ρ أن رسول الله خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح . وهي في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقال : ما زلت على الحال التي فارقتك عليها قالت : نعم ، قال : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : " سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته "[1].

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا كبر للصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ ، فقلت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي ، سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : أقول " اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد " أخرجه الخمسة إلا الترمذي وهذا لفظ الشيخين .

زاد أبو داو والنسائي في أوله : " اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب " .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ يقول في سجوده : اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله ، أوله وآخره ، سره وعلانيته "[2] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " كان رسول الله ρ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن "[3] (أي يطبق ما جاء في القرآن من أمر الله) .

وفي أخرى لمسلم وأبي داود والنسائي : كان يقول في ركوعه وسجوده " سبوح قدوس رب الملائكة والروح " .

وعن جابر – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا ركع قال : اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربي خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي وعظامي لله رب العالمين " . أخرجه النسائي .

---

[1] أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ، ومسلم بلفظه .

[2] أخرجه مسلم وأبو داود .

[3] أخرجه مسلم .

وعن ابن أبي أوفى – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا رفع ظهره مـن الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض ومـلء ما شئت من شيء بعد " أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ρ يقول بين السجدتين : اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني " أخرجه أبو داو والترمذي واللفظ له .

وعن علي – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا سجد قـال : اللهـم لـك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لي ما قـدمت ومـا أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنـت المقـدم وأنـت المؤخر ، لا إله إلا أنت "[1] .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ρ يقول بعد التـشهد : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الـدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات "[2] .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " سمعت رسول الله ρ ليلة حين فرغ من صلاته يقول : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري ، وتلـم بهـا شعثي وترد بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وتـرد بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء . اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفـر ، ورحمـة أنال بها شرف كرامتك لي في الدنيا والآخرة . اللهم إني أنزل بك حاجتي ، وإن قصر رأيـي وضعف عملي وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور كما تجبر بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور . اللهـم مـا قصر عنه رأيي ، ولم تبلغه مسألتي ولم تبلغه نيتي من خير وعدته أحداً من خلقـك أو خيـرٍ أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإني راغب إليك فيه وأسألك برحمتك يا رب العالمين .

---

[1] أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

[2] أخرجه الستة إلا البخاري .

اللهم يا ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلـــود مع المقربين الشهود ، الركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنك تفعـــل مـــا تريد . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين ، سلماً لأوليائك حربـــاً لأعـــدائك ، نحب من أحبك ، ونعادي بعداوتك من خالفك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهـــذا الجهـــد وعليك التكلان . اللهم اعل نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً من بين يدي ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتـــي ، ونـــوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بشري ، ونوراً فـــي لحمـــي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في مخي ، ونوراً في عظامي ، اللهم أعظم لي نوراً ، وأعطني نـــوراً ، واجعل لي نوراً ، سبحان الذي تعطف العز وقال به ، سبحان الذي لبس المجد وتكرم بـــه ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي المجد والكرم ، سبحان ذي الجلال والإكرام "[1] .

وعن ثوبان – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا سلم يستغفر ثلاثاً ويقول : " اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام "[2] .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ρ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمـــد أنـــت نـــور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت مالك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولـــك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حـــق ، والنبيون حق ، ومحمد ρ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قـــدمت ، ومـــا أخـــرت ، ومـــا أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت "[3] .

عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : " كان رســـول الله ρ يقـــول إذا أمـــسى : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمـــد ، وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك مـــن شر هذه الليلة وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر . رب أعـــوذ بـــك مـــن

---

[1] أخرجه الترمذي .

[2] أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

[3] أخرجه الستة .

عذاب في النار ، وعذاب في القبر . وإذا أصبح قال ذلك : أصبحنا وأصبح الملك لله والحمــد لله .. "[1] .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا أوى إلى فراشـــه قـــال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا فكم من لا كافي له ولا مؤوي "[2] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " كان رسول الله ρ إذا أخذ مــضجعه نفــث في يديه وقرأ المعوذتين ، وقل هو الله أحد ، ويمسح بهما وجهه وجسده ، يفعل ذلــك ثــلاث مرات فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به "[3] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " كان رسول الله ρ إذا استيقظ من الليل قال : لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً . ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب "[4] .

وعن علي – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ يقول عند مضجعه : اللهــم إني أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامات من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهــم أنــت تكشف المغرم والمأثم ، اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد . سبحانك اللهم وبحمدك "[5] .

عن أم سلمة – رضي الله عنها – قالت : " كان رسول الله ρ إذا خرج من بيته قـــال : بسم الله توكلت على الله . اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نــضل ، أو نظلــم أو نظلــم ، أو نجهل أو يجهل علينا "[6] .

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : " قلَّما كان رسول الله ρ يقوم من مجلــسه حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول بــه بيننــا وبــين

---

[1] أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود .

[2] أخرجه الترمذي .

[3] أخرجه الستة إلا النسائي .

[4] أخرجه أبو داو والنسائي .

[5] أخرجه أبو داود .

[6] أخرجه أصحاب السنن .

معاصي ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكثر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا "[1] .

وعن مالك : " أنه بلغه أن رسول الله ρ إذا وضع رجله في الغرز وهو يريد السفر يقول : بسم الله اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم ازو لنا الأرض وهون علينا السفر ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ومن سوء المنظر في المال والأهل "[2] .

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ρ إذا قفل من السفر يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ، ثم يقول : لا إله غلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون ، عابدون ساجدون ، لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده "[3] .

وعن عبد الله الخطمي – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا ودّع أحداً قال : أستودع الله دينكم وأمانتكم ، وخواتيم أعمالكم " .

وله في أخرى عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : " أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك "[4] .

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ρ إذا أقبل الليل عليه في السفر قال : يا أرض ربي وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما خلق فيك وشر

---

[1] أخرجه الترمذي .

[2] أخرجه مسلم وأبو داود .

[3] أخرجه الستة إلا النسائي .

[4] للترمذي وأبي داود .

ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلــد ، ووالــد وما ولد "[1] .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ρ يقول عند الكــرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب الــسماوات والأرض ورب العرش الكريم "[2] . وعن أنس – رضي الله عنه – قال : " كان رســول الله ρ إذا كربه أمر يقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث . وقال : ألظوا بياذا الجلال والإكرام "[3].

عن الخدري – رضي الله عنه – قال : " كان النبي ρ إذا استجد ثوباً قال : اللهم لــك الحمد أنت كسوتني هذا ويسميه ، أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر مــا صنع له "[4] .

وعن أبي سعيد – رضي الله عنه – قال : " كان النبي ρ إذا أكــل أو شــرب قــال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين "[5] .

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا دخــل الخــلاء لقــضاء الحاجة يقول : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث "[6] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " كان النبي ρ إذا خرج من الخــلاء قــال : غفرانك "[7] .

عن فاطمة بنت الحسين بن علي ، عن جدتها فاطمة الكبرى – رضــي الله عنهــا – قالت : " كان رسول الله ρ إذا دخل المسجد صلى على محمد ρ وقال : رب اغفر لي ذنــوبي

---

[1] أخرجه أبو داود .

[2] أخرجه الشيخان .

[3] أخرجه الترمذي .

[4] أخرجه الترمذي وأبو داود .

[5] أخرجه الترمذي وأبو داود .

[6] أخرجه الستة إلا الموطأ .

[7] أخرجه الترمذي وأبو داود .

، وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى على محمد ρ وقال : رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك "[1] .

عن طلحة بن عبيد الله – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا رأى الهلال قال : اللهم أهله علينا باليمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربي وربك الله "[2] .

وعن قتادة – رضي الله عنه – قال : " أنه بلغه أن النبي ρ كان إذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد ثلاث مرات ، آمنت بالذي خلقك ثلاث مرات ، ثم يقول : الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا "[3] .

عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك "[4] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " كان رسول الله ρ إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به "[5] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ يقول في دعائه : اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحةً لي من كل شر "[6] .

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : " كان أكثر دعاء النبي ρ اللهم آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار "[7] .

---

[1] أخرجه أبو داود .
[2] أخرجه الترمذي .
[3] أخرجه أبو داود .
[4] أخرجه الترمذي .
[5] أخرجه الشيخان والترمذي .
[6] أخرجه مسلم .
[7] أخرجه الشيخان وأبو داود .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : " كان النبي ρ يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات "[1] .

وعن أنس أيضاً – رضي الله عنه ، قال : " كان النبي ρ يقول : اللهم إني أعوذ بك من الجذام والبرص والجنون ومن سيء الأسقام "[2] .

وعن ابن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ρ يقول : اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع "[3] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – رفعه : " كان رسول الله ρ يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق "[4] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " كان رسول الله ρ يكثر أن يقول قبل موته : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، فقلت له في ذلك ، فقال : أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه . فقد رأيتها : {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[5] " .

* * * * *

هذه نماذج من عبادته ρ لله شكراً ، وهذا كله ولم نذكر إقامته للصلوات الخمس ولا لرواتبها ، ولم نتعرض لكل ما اثر عنه من عبادة لله جل جلاله ، فهل بلغ أحد في عبادة الله

---

[1] أخرجه الستة إلا مالكاً .
[2] أخرجه أبو داود والنسائي .
[3] أخرجه الترمذي والنسائي .
[4] أخرجه أبو داود والنسائي .
[5] أخرجه مسلم .

وشكره ما بلغه رسول الله ؟ وهل يستطيع أحد أن يتصور أن هذا ممكن الوقـوع والحـصول بهذا الكمال والجلال ، وبهذه الكثرة والسعة وبهذا الانسجام التوافق ، مع هذه المعرفة العظيمة لله وكمالاته . لولا أن محمداً رسول الله يقوم بأمره كأعظم ما يقوم به أحد ؟

* * * * *

ب – نماذج من تنفيذه لأمر الله في المثال الثاني : {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ} ، ولنهي الله {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} .

روى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ρ قال : " اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة " .

وروى البخاري عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال : " كنت أمشي مع النبي ρ في حرة المدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر ! قلت : لبيك يا رسول الله . قال : ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي علي ثالثةٌ وعندي منه دينارٌ – إلا شيئاً أرصُدُه لدَيْنٍ – إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ؛ عن يمينه وعن شماله ومن خلفه " .

وروى مسلم عن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – قال : " ذكر عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله ρ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه " الدقل : رديء التمر .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " توفي رسول الله ρ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي " .

وروى البخاري عن عمر بن الحارث أخي جويرية بنت الحارس أم المؤمنين – رضي الله عنهما – قال : " ما ترك رسول الله ρ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة " .

وروى ابن جابر عن جابر – رضي الله عنه – : " أن رجلاً أتى النبي ρ فسأله فأعطاه ، ثم أتاه آخر فسأله فوعده ، فقام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقال : يا

رسول الله ! سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فوعــدت ، فكــأن رســول الله ρ كرهها ، فقام عبد الله بن حذافة السهمي – رضي الله عنه – فقال : أنفق يــا رســول الله ولا تخش من ذي العرش إقلالاً ، فقال : بذلك أمرت " كذا في الكنز ج 3 ص 311 .

وأخرج البزار بإسناد حسن والطبراني عن ابن مسعود – رضي الله عنــه – قــال : " دخل النبي ρ على بلال – رضي الله عنه – وعنده صبر من تمر فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لأضيافك قال : ما تخشى أن يكون لك دخان في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً " . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ج1 ص 149 عــن عبــد الله نحــوه ، ورواه أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة – رضي الله عنه – بنحوه بإسناد حسن وكما فــي الترغيب ج 2 ص 174 .

وأخرج أبو يعلى عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : " أهديت للنبي ρ ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائراً . فلما كان من الغد أتته بها فقال رسول الله ρ ألم أنهك أن ترفعــي شيئاً لغد ، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد " قال الهيثمي ج10 ص241 ورجاله ثقات .

وأخرج الطبراني في الكبير – ورواته ثقات محتج بهم في الصحيح – عن سهل بــن سعد – رضي الله عنه – قال : " كانت عند رسول الله ρ سبعة دنانير وضعها عند عائــشة – رضي الله عنها – فلما كان في مرضه قال : يا عائشة ابعثي بالذهب على علي ، ثــم أغمــي عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً ، كل ذلك يغمى علــى رســول الله ρ ويــشغل عائشة – رضي الله عنها – ما به ، فبعث إلى علي فتصدق بها . وأمسى رســول الله ρ فــي حديد الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة – رضي الله عنها – بمصباح لها إلــى امــرأة مــن نسائها فقالت : أهدي لنا في مصباحنا السمن فإن رسول الله ρ أمسى فــي حديــد المــوت " . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه . كذا في الترغيب ج2 ص 178 .

وعن أحمد عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " أمرني رسول الله ρ أن أتــصدق بذهب كان عنده في مرضه . قالت : فأفاق ، قال : ما فعلت ؟ قلت : شغلني ما رأيت منــك . قال : فهلم بها . قال : فجاءت بها إليه سبعة أو تسعة – أبو حازم يشك – دنانير . فقال حــين جاءت بها : ما ظن محمد لو لقي الله وهذه عنده وما تنفي هذه من محمد ρ لو لقــي الله هــذه عنده " . قال الهيثمي (ج10 ص240) : رواه أحمــد بأســانيده ، ورجــال أحــدها رجــال الصحيح.

أخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " حدثني عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : دخلت على رسول الله ρ وهو على حصير . قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وقرظ في ناحية الغرفة ، وإذا إهاب معلق ، فابتدرت عيناي فقال : ما يبكي يا ابن الخطاب فقال : يا نبي الله ، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك . قال : يا ابن الخطاب . أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا " . قرظ : ما يدبغ به . إهاب : جلد . ابتدرت : بكت .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض " وفي رواية : " ما شبع آل محمد ρ منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعاً حتى قبض " متفق عليه .

وعن عروة عن عائشة – رضي الله عنها – أنها كانت تقول : " والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال – ثلاثة أهلة في شهرين – وما أوقد في أبيت رسول الله ρ نار . قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ρ جيران من الأنصار ، وكنت لهم منائح وكانوا يرسلون إلى رسول الله ρ من ألبانها فيسقيناه " متفق عليه . منائح : جمع منيحة وهي ناقة يعيرها صاحبها إنساناً ليشرب لبنها ويعيدها .

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : " لم يأكل النبي ρ على خوان حتى مات ، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات " . أخرجه البخاري . الخوان : ما يؤكل عليه .

وعن خالد بن عمر العدوي قال : " خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ρ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها ، واتزر سعد بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً " رواه مسلم .

وعن جابر – رضي الله عنه – قال : " ما سئل رسول الله ρ شيئاً قط فقال لا " متفــق عليه .

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : " ما سئل رسول الله ρ على الإســلام شــيئاً إلا أعطاه ، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أســلموا فــإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبــث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها " رواه مسلم .

وعن عمر – رضي الله عنه – قال : " قسم رسول الله ρ قسماً فقلت : يا رســول الله لغير هؤلاء كانوا أحق به منهم ؟ فقال : إنهم خيرونــي أن يــسألوني بــالفحش فــأعطيهم أو يبخلوني ولست بباخل " . أخرجه مسلم .

وعن جبير بن مطعم – رضي الله عنه – أنه قال : بينما هو يسير مع النبي ρ مَقْفَلَــهُ من حنين فعلقه الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ρ فقال : " أعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجــدوني بخــيلاً ولا كذاباً ولا جباناً " . رواه البخاري . مقفله : حالة رجوعه . السمرة : شجرة ، والعضاه : شجر له شوك .

وأخرج أحمد عن جابر – رضي الله عنه – قال : " أقبل أبو بكر – رضي الله عنه – يستأذن على رسول الله ρ والناس ببابه جلوس والنبي ρ جالس فلم يؤذن له ثم أقبــل عمــر – رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر فــدخلا ، والنبــي ρ جــالس وحوله نساؤه وهو ρ ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ρ لعله يضحك . فقــال عمــر : يــا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها فــضحك النبــي ρ حتى بدت نواجذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة . فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقــام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ρ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ρ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ρ بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال : إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويــك ، قالــت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : {يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ}[1] – الآية . قالت عائشة : أفيك أســتأمر

---

[1] الأحزاب : 28 – 29 .

أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله ، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقـال ρ إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً ، لا تسألني امرأة منهن عمـا اختـرت إلا أخبرتها " . أخرجه مسلم والنسائي ، وعند ابن أبي حاتم عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " قالت عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه فقال ρ إني ذاكـر لـك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك ، قالت : وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت ثم قال : إن الله تبارك وتعالى قال : {يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ} – الآيتين . قالت عائشة : فقلت : أفي هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الاخرة . ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة " وأخرجه البخاري ومسلم عن عائشة مثله .

* * * * *

هذه الأمثلة على الزهد والإنفاق وتحمل خشونة الحياة والإقبال على الله طلباً لمرضاته ، وحرصاً على نيل ثوابه في اليوم الآخر ، وهي قليل من كثير ، تبين كيف قام رسـول الله ρ بأمر الله حق القيام بحيث لا يسبق ولا يلحق ، غذ لو رجعت إلى الأمرين اللذين ذكرنا الأمثلة على تطبيقهما . فإنك لا تستطيع أن تجد أبلغ من هذا في تنفيذ أمر الله وإنه لمجافاة لكل واقـع بشري وتنكب عن كل حقائق النفس البشرية ، أن تتصور أن مثل هذا التطبيق والتنفيذ ، بهـذا الشكل ، لمثل هذه الأوامر ، يمكن أن يكون ، لولا أن صاحبه رسول الله حقاً . صغرت لديـه الدنيا بما فيها وهان لديه المال بكل أنواعه لمعرفته بأن الله أعظم من كل شيء ويهـون فـي سبيله كل شيء .

* * * * *

ج– نماذج من تنفيذه ρ للأمر الثالث : {وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} :

عاتب الله رسوله ρ لأنه أتاه مرة مؤمن مسلم وهو يعرض دعوة الإسلام على زعـيم من زعماء المشركين فلم يقبل على المسلم تقول عائشة : " أنزلت {عَبَسَ وَتَوَلَّى} فـي ابـن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله ρ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله ρ رجـل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ρ يُعْرِضُ عنه ويقبل على الآخر ويقول : أتـرى بمـا أقول بأساً ؟ فيقول : لا . ففي هذا أنزلت " أخرجه مالك والترمذي .

وآيات العتاب هي : {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَآءَهُ ٱلأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * ... } .

فكيف كان رسول الله ρ بعد هذا العتاب وبعد ذلك الأمر في علاقته بالمؤمنين عوامهم وخواصهم ؟

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن أنس – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله ρ من أشد الناس لطفاً ، والله ! ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه ، وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزعها منه " .

وعند يعقوب بن سفيان – عن أنس رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا صافح الرجل لا ينزع يده ، وإن استقبل بوجه لا يصرفه عنه ، حتى يكون الرجل ينصرف عنه , ولا يرى مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له " . ورواه الترمذي وابن ماجه ، كما في البداية ج 6 ص 39 .

وعند أبي داود عنه قال : " ما رأيت رجلاً قط التقم أذن النبي ρ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه ، وما رأيت رسول الله ρ آخذاً بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده " .

تفرد به أبو داو كذا في البداية ح 6 ص 39 .

وأخرج البزار عن أبي هريرة – رضي الله عنه – " أن أعرابياً جاء إلى النبي ρ يستعينه في شيء – قال عكرمة رضي الله عنه : أراه قال في دم –: فأعطاه رسول الله ρ شيئاً ثم قال : أحسنت إليك ، قال الأعرابي : لا ولا أجملت ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه ، فأشار رسول الله ρ إليهم أن كفوا ، فلما قام رسول الله ρ وبلغ منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال : إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت ، فزاده رسول الله ρ شيئاً وقال : أحسنت إليك ، فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ! قال النبي ρ

إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم ! فقال : نعم ، فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ρ : إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي ، كذا يا أعرابي ، فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ! فقال النبي ρ إن مثلي ومثل هذا الأعرابي ، كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها ! فتوجه بها وأخذ من قشام الأرض ووعاها حتى جاءت واستجاب وشد عليها رحلها ، وإني لو أطعتكم حيث قال ، ما قال لدخل النار " .

وأخرج الطبراني عن أبي غالب قال : " قلت لأبي أمامة – رضي الله عنه – حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ρ قال : كان حديث رسول الله ρ القرآن ، يكثر الذكر ، ويقصر الخطبة ويطيل الصلاة ، ولا يأنف ولا يستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته " . وإسناده حسن ، كما قال الهيمثي في (ج9 ص20) وأخرجه البيهقي والنسائي عن عبد الله بن أبي أوفى – رضي الله عنه – نحوه كما في البداية ج6 ص45 .

وأخرج الترمذي في الشمائل (ص 25) عن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه عَلَيَّ حتى ظننت أني خير القوم فقلت : يا رسول الله ! أنا خير أو أبو بكر – رضي الله عنه – . فقال : أبو بكر . فقلت : يا رسول الله ! أنا خير أم عمر – رضي الله عنه – فقال : عمر . فقلت : أنا خير أم عثمان – رضي الله عنه – فقال : عثمان فلما سألت رسول الله ρ فصدقني فلوددت أني لم أكن سألته " . وأخرجه الطبراني عنه ونحوه ، وإسناده حسن كما قال الهيثمي ج9 ص15 وقال في الصحيح : بعضه بغير سياقه .

وعند البزار والطبراني عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : " أن رسول الله ρ لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله ، ولم يكن يرى ركبتيه أو ركبته خارجاً عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه " . وإسناد الطبراني حسن .

وعند أحمد عن أنس – رضي الله عنه – قال : " إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ρ فما نزع بمن يدها حتى تذهب به حيث شاءت " رواه

ابن ماجه . وعند أحمد عنه قال : " إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيـد رسـول الله ρ فتنطلق به في حاجتها " . رواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه معلقاً كما في البداية ج6 ص 39 ، وروى مسلم في صحيحه ج2 ص256 عن أنس " أن امرأة كان في عقلها شـيء فقالت : يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال : يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك ! فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها " . وأخرجه أبو نعيم فـي دلائل النبوة ص 57 عن أنس مثله .

وأخرج مسلم (ج2 ص253) عن أنس – رضي الله عنه – قال : " لما قدم رسول الله ρ المدينة أخذ أبو طلحة – رضي الله عنه – بيدي فانطلق بي إلى رسـول الله ρ فقـال : يـا رسول الله ! إن أنساً غلام كيس فليخدمك قال : فخدمته في السفر والحضر ، والله ما قال لـي لشيء صنعته : لم صنعت هذا هكذا ولا لشيء لم أصنعه : لم لم تصنع هذا هكـذا ؟ وعنـده أيضاً عن أنس قال : كان رسول الله ρ من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجـة فقلـت : والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ρ فخرجت حتى أمر على الـصبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول الله ρ قد قبض بقفاي من ورائي ! قال : فنظرت إليه وهـو يضحك فقال : يا أنس اذهب حيث أمرتك ! قال : قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله ! قال أنـس : والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته : لم فعلت كذا وكذا ؟ ولشيء تركته : هلا فعلت كذا وكذا وعنده أيضاً عنه قال : خدمت رسول الله ρ عشر سنين ، والله ما قال لـي أفاً قط ، ولا قال لي لشيء : لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا ؟ " .

وعند أبي نعيم في الدلائل صفحة 57 عن أنس – رضي الله عنه – قـال : " خـدمت رسول الله ρ سنين فما سبني سبة قط ولا ضربني ضربة ولا انتهرني ولا عبس فـي وجهـي ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال : دعوه ! فلـو قدر شيء لكان " .

وأخرج البزار عن جابر – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ إذا أتاه الوحي أو وعظ قلت : نذير قوم أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيت أطلق الناس وجهاً وأكثرهـا ضحكاً وأحسنهم بشراً " . قال الهيثمي ج9 ص17 : إسناده حسن .

وأخرج البيهقي وابن النجار عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " جاءت عجـوز إلى النبي ρ فقال لها : من أنت ؟ قالت : جثامة المزنية قال : بل أنت حنانة المزنيـة ، كيـف

أنتم ، كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله . فلما خرجت قلت : يا رسول الله ! تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! فقال : يا عائشة ! هذه كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان " .

وأخرج البخاري في الأدب ص 188 عن أبي الطفيل – رضي الله عنه – قال : " رأيت النبي ρ يقسم لحماً بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير فأتته امرأة فبسط لها ردائه . قلت من هذه ؟ قال : أمه التي أرضعته " .

وروى الطبراني عن الحسن بن علي – رضي الله عنهما – وقد سأل أباه عن بعض صفات رسول الله ρ فكان من سؤاله وجواب علي – رضي الله عنه – ما يلي :

قال الحسن : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟ فقال : " كان رسول الله ρ يخزن لسانه إلا مما يعينهم ويؤلفهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه (يجعله ضعيفاً واهياً بالمنع والزجر عنه) معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه ، الذي يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة " .

قال : فسألته عن مجلسه كيف كان ؟ فقال : " كان رسول الله ρ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو لميسور من القول . قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا له أبناء عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن (تعاب) فيه الحرم ، ولا تثنى فلتاته (أي لا تشاع زلاته وهفواته والمراد لا فلتات في مجلسه) متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب " .

قال : فسألته عن سيرته في جلسائه فقال : " كان رسول الله ρ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ (أي سيء الخلق) ، ولا غليظ ، ولا سخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يوئس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا تكلم سكتوا وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستحلبونه في المنطق (وفي الكنز : ليستجلبونهم) ، ويقول : إذا رأيتم صاحب حاجة فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء أو قيام " .

* * * * *

هذه أمثلة من مواقفه ρ مع المؤمنين ، وتواضعه وخفض جناحه لهم ، ارجع بعد دراستها إلى الآية التي أمرته بذلك فهل تراه إلا قائماً بها حقاً ، وهل ترى إنساناً يبلغ عشر ما بلغه محمد ρ من المجد ويبقى يعامل المستضعفين والكبار والصغار والرؤساء الأتباع هذه المعاملة على سواء ؟ وهل هذا وضع طبيعي للنفس البشرية لولا أن الله هذبها وكانت مؤمنة بالله فعلاً متصلة به حقيقة طائعة له طاعة فناء ؟ اللهم ما كان هذا ليكون لولا أن محمداً عبدك ورسولك .

* * * * *

د – نماذج من تنفيذه ρ للأمر الرابع : {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ} :

إن خلق الرحمة عند رسول الله ρ لا يدانيه فيه أحد من خلق الله . أخرج الشيخان عن أنس أن نبي الله قال : " إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من وجد أمه من بكائه " . ووسعت رحمته الناس حتى قال الله تعالى له : {فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً}[1] وقد ظهرت هذه السجية على

---

[1] الكهف : 5 .

طبيعتها يوم فتح مكة ؛ إذ عفا عن أهلها بعد أن فعلوا فيه ما فعلوا . كما ظهرت على ســجيتها بعد انتهاء غزوة بدر وأسر الأسرى ، ولم يكن نزل عليه من أمر الله في القضية شيء ، وإنما هو الاجتهاد الذي أذن فيه لرسول الله ρ في هذه القضايا ، وكان أمام الرسول اقتراحــان فــي شأن الأسرى : اقتراح أبي بكر واقتراح عمر ، وكان اقتراح أبي بكر أخــذ الفــداء وإطــلاق السراح ، وكان اقتراح عمر القتل حتى يعلم الله أنه ليس في قلوب المسلمين رحمة بالكافرين ، وأخذ رسول الله ρ برأي أبي بكر لأنه أقرب لطبعه ، وهو الذي لاقى من قومه ما لاقى ، ثــم إن الله عاتبه في هذه القضية على اللين ، وليس من إثم ولكن الله يريد أن يأخذ رسوله بــالحزم فقال له : {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلأَرْضِ}[1] ثم نزلت أوامر الله تطالب رسول الله ρ بالجهاد والشدة الغلظة على الكافرين ، فأصبحت ترى رســول الله ρ بعــد هــذه الرحمة الكبيرة والصبر الطويل والتحمل الكثير والمسالمة الدائمة ؛ المقاتل الشديد والمنفذ الذي جعل طاعة الله فوق كل عواطفه ، بل حتى عواطفه هي تنفيذ لأمر الله , واســتعراض بــسيط لحياته الحربية عليه الصلاة والسلام يرينا أن هذا النوع من القتال الذي خاضه عليه الــصلاة والسلام ما كان ليكون من صنع بشر ، لولا أن هذا الإنسان ينفذ أمر الله ، معتمداً عليه ، فإنــه ما من مقدمة في حياة الرسول ρ تشير إلى مثل هذه النتائج ، لولا أن المسألة ربانية الطريــق بدءاً وختاماً ، أسلوباً وتنفيذاً . ربٌ يأمر وعبد رسول ينفذ .

يؤمر ألا يخشى شيئاً فلا يخاف إلا الله ، ويؤمر بأن يتوكل على الله ويعتمد عليه وحده ، فيدخل أي معركة بما يتوفر له من قوة دون خوف من أي حشد يقابله ، ويؤمر بــألا يكــون في قلبه رحمة بالكافرين فيضربهم حتى يستأصلهم ، ويؤمر بمتابعة القتال فيقاتل ولما يــسترح ، ويؤمر بالعمل المتواصل حتى يخضع أعداء الله فلا يكاد ينتهي من تهيئــة غــزوة إلا إلــى غيرها ، ومن إخضاع منطقة إلا إلى منطقة أخرى . وهكذا حتى يضع أتباعه علــى الطريــق لإخضاع العالم بعده لسلطان الله .

كان عدد أصحابه يوم بدر ثلاث مائة وخمسة عشر رجلاً ، وعدد المشركين حــوالي ثلاثة أضعاف تفوقهم بالعدة ، ويدخل الرسول ρ المعركة وينتصر فيها ولا يعتمد إلا على الله.

روى مسلم وأبو داو والترمذي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " خرج رسول الله ρ قبل بدر فلما كان بحَرَّة الوبر أدركه رجل قد كان يذكر منــه جــرأة ونجــدة ، ففــرح

---

[1] الأنفال : 67 .

أصحاب رسول الله ρ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ρ : جئت لأتبعك وأصيب معك ، فقال ρ : تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا . قال : فارجع فلن أستعين بمشرك . قالت : ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل فقال : كما قال أول مرة . فقال له ρ كما قال أول مرة ، قال فارجع فلن أستعين بمشرك . ثم رجع فأدركه بالبيداء . فقال له كما قال أول مرة . وقال : هل تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم . قال : فانطلق . فانطلق معه " .

وروى مسلم عن أبي الطفيل – رضي الله عنه – قال : قال حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – : " ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي الحسيل ، فأخذنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمداً ، فقلنا : ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه أن لا نقاتل معه ، فلما أتينا المدينة ذكر ذلك له ρ فقال : انصرفا نفي لهم ونستعين بالله تعالى عليهم " .

وأخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس – رضي الله عنه – قال : " كان رسول الله ρ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس من قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ρ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة – رضي الله عنه – عري في عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ، قال : وجدناه بحراً أو إنه لبحر ، وكان فرساً يبطئ " . وأخرج البخاري عن أبي إسحاق : سمع البراء بن عازب – رضي الله عنه – وسأله رجل من قيس أفررتم عن رسول الله يوم حنين فقال : " لكن رسول الله ρ لم يفرر " .

والمعروف أن رسول الله ρ ثبت في حنين في عشرة من أصحابه ، أدار بهم المعركة التي فر فيها أثنا عشر ألفاً ثم كان النصر بعد الهزيمة . وفي غزوة أحد كان المشركون أضعاف المسلمين ودخل الرسول ρ المعركة , وأفشل المعركة بعض المتسرعين الذين لم يلتزموا خطة رسول الله ρ وأصيب المسلمون يومها إصابات كثيرة وانفصل الجيشان ورجع كل إلى بلده ، ولكن رسول الله ρ ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر من دخل المعركة بالجهاز السريع فخرجوا بجراحهم وآلامهم ، وساروا وراء قريش ، فبلغ قريشاً الخبر ففرت وتحولت الهزيمة إلى انتصار ، وأكثر من هذا أنه قطع على قريش خط الرجعة إذ فكروا وهم عائدون أن يرجعوا إلى المدينة ليدخلوها فاتحين مستأصلين لجذور الإسلام . مع ملاحظة أن رسول الله بقي يقاتل يوم أحد حتى كف المشركون أنفسهم عن القتال ولم يفر رسول الله ρ أبداً .

وفي غزوة الأحزاب تجمعت الجزيرة العربية كلها لحرب رسول الله ρ ، ونقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله ρ ، وأصبح المسلمون في وضع لا يطيقه أحد من البشر ، يتهددهم الخطر من جوانب لا تعد ، وثبت رسول الله ρ حتى انسحبت الأحزاب ، ولم يتمهل رسول الله ρ بعد انسحابهم حتى سار إلى قريظة لتأديب هؤلاء الناكثين للعهد فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم بالجاهلية فأخذ سعد العهد عليهم وعلى رسول الله ρ بأن يلتزموا حكمه فأعطوه ، فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم ، فقتل رسول الله ρ منهم في يوم واحد أربعمائة رجل صبراً . وهاجم الدولة الرومانية وهي يومها من هي وقوته لم تبلغ إلا قليلاً مما فتح لأصحابه بعد ذلك أن يدخلوا معاركهم مع الدولة الرومانية والدولة الفارسية بآن واحد على قلة في العدة العدد وانتصروا بتلك الشعلة التي أشعلها فيهم الله على يد رسوله ρ ، ويكفي أن تعلم أن رسول الله ρ غزا بنفسه – كما يروي مسلم – تسع عشرة غزوة ، هذا عدا عن السرايا والبعوث الحربية التي كان يرسلها . هذا مع أن بقاءه في المدينة كان مدته عشر سنوات فقط .

والحديث عن غزواته طويل جداً نجده مفصلاً في كتب السيرة. ويكفي أن نذكر أن من آثارها أن وحّد الجزيرة العربية كلها ، بيمنها وحجازها ونجدها وسواحلها ، حتى لم يبق فيها شبر لم يخضع لسلطان الله ، وفتح لأتباعه طريق العمل العالمي . من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا .ونحن هنا لا نريد التفصيل وإنما نريد فقط إبراز ما به يظهر التطبيق الكامل لما أمر به رسول الله ρ وهو بالتالي ما دعا إليه فكان في كل شيء لا تخالف أعماله دعوته .

هـ – نماذج من تطبيقه ρ للأوامر في المثال الخامس : {كُونُواْ قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ} . {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ} .

أخرج البخاري عن عروة : أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ρ في غزوة الفتح ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه قال عروة : " فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله وقال : أتكلمني في حد من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله . فلما كان العشي قام رسول الله ρ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنما هلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد

. والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، ثم أمر رسول الله ρ بتلك المرأة فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت ، قالت عائشة : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله " .

وأخرج أبو داود عن العرباض بن سارية السلمي قال :

" نزلنا مع رسول الله ρ قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين ، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً ، فأقبل إلى النبي فقال : يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله ρ وقال : يا ابن عوف اركب فرسك ، ثم ناد أن الجنة لا تحل إلا لمؤمن ، وأن اجتمعوا للصلاة . فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قام فقال : أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن ، إلا إني والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر ، وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إذا أعطوا الذي عليهم " .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي أنه " كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال : يا محمد ! إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها ، قال: أعطه حقه . قال : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها . قال : أعطه حقه . قال : والذي نفسي بيده ما أقدر عليها . قد أخبر أنك تبعثنا إلى خبير فأرجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فأقضيه ، قال: أعطه حقه . وكان رسول الله ρ إذا قال ثلاثاً لم يراجع . فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة ، فنزع عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتر مني هذه البردة ، فباعها منه بأربعة دراهم ، فمرت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ؟ فأخبرها ، فقالت : ها دونك هذا البرد لبرد عليها طرحته عليه " وأخرجه أحمد أيضاً .

وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد قال : " جاء أعرابي إلى النبي ρ يتقاضاه ديناً كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أحرج عليك إلا قضيتني ، فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك تدري من تكلم ؟ فقال : إني أطلب حقي ، فقال النبي ρ : هلا مع صاحب الحق كنتم ، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فاقترضه فقضى الأعرابي وأطعمه فقال : أوفيت أوفى الله لك فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حق غير متعتع .

وأخرج أبو داود عن أسيد بن حضير : " أن رجلاً من الأنصار كان فيه مزاح ، فبينما هو يحدث القوم ويضحكهم إذ طعنه النبي ρ في خاصرته بعود كان في يده فقال : اصبرني يا رسول الله (أي مكني من نفسك لأقتص منك) قال : اصطبر فقال : إن عليك قميصاً وليس علي قميص ، فرفع النبي ρ قميصه فاحتضنه وجعل يقبل كشحه (الكشح ما وفق شد الإزار من جانب البطن) وقال : إنما أردت هذا يا رسول الله " .

أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام بإسناد رجاله ثقات قال :

" لما أراد الله هدي زيد بن سعنة ، قال زيد بن سعنة : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه ؛ يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، قال زيد بن سعنة : فخرج رسول الله ρ يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي فقال : يا رسول الله ! لي نفر في قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً ، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث ، فأنا أخشى عليهم يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تغيثهم به فعلت ، فنظر إلى رجل بجانبه أراه علياً فقال : يا رسول الله ما بقي منه شيء ، قال زيد ابن سعنة : فدنوت إليه فقلت يا محمد هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً في حائط بني فلان إلى أجل معلوم ، إلى أجل كذا وكذا ، قال : لا تسمي حائط : بني فلان ، قلت : نعم فبايعني ، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا فأعطاها الرجل ، وقال : اعدل عليهم وأغثهم ، قال زيد بن سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ρ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا إلى الجدار ليجلس إليه ، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ قلت له : يا محمد ألا تقضيني حقي ، فوالله ما علمتم بني عبد المطلب إلا مطلاً ، ولقد كان بمخالطتكم علم . ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم رماني ببصره فقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله ρ ما أسمع ؟ وتصنع به ما أرى ؟ فوالذي نفسي بيده لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ρ ينظر إلي في سكون وتؤدة ، فقال : يا عمر أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا ؛ أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن ابتاعه ، اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعاً من تمر مكان مارعته . قال زيد : فذهب بي عمر فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر . فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ؟ قال

: أمرني رسول الله ρ أن أزيدك مكان مارعتك ، وقال : وتعرفني يا عمر ؟ قال : لا . قلت : أنا زيد بن سعنة . قال : الحبر . قلت : الحبر . قال فما دعاك إلى أن فعلت برسـول الله مـا فعلت ؟ وقلت له ما قلت ، قلت : يا عمر ! لم يكن من علامات النبوة شيئاً إلا وقد عرفت فـي وجه رسول الله ρ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه ؛ يسبق حلمه جهلـه ولا تزيـده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، وقد اختبرتهما ، أشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبياً ، وأشهدك أن شطر مالي – فإني أكثرها مالاً – صدقة على أمة محمـد ρ ، قال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم ، قلت أو على بعضهم . فرجع عمر وزيـد إلـى رسول الله ρ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وآمـن بـه وصدقه وبايعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر – رحـم الله زيداً " .

من هذه الآثار يتبين كيف قام رسول الله ρ بالقسط ، وأقامـه علـى نفـسه وأتباعـه وأصحابه بلا محاباة ولا مداراة ولا مداهنة ، فكان في القمة التي لا يرقى إليها راق في تنفيـذ أمر الله وتطبيقه .

* * * * *

هذه نماذج رأينا فيها تنفيذاً لخمسة أوامر قام بها رسول الله ρ بالشكل الـذي لا يبقـى معه مزيد لمستزيد ، وهذا الذي رأيناه هنا هو الذي نراه في كل أمْرٍ أمَرَ الله به عباده ، حتـى إن عائشة لما وصفت خلق رسول الله ρ قالت : " كان خلقه القرآن "[1] وهذا واقع لا يعرفه حق المعرفة إلا من درس القرآن ودرس معه سيرة رسول الله تفصيلاً ، فإنه يرى بوضوح أنه مـا من أمر وجهه الله لخلقه إلا وكان رسول الله أعظم الخلق تنفيذاً له وتطبيقاً ، بلا تفريط في أمر من أوامر الله ، وأي أمرٍ من أوامر الله درست تنفيذ رسول الله ρ له دلك هذا التنفيذ علـى أن محمداً رسول الله ، وقد رأيت في الأمثلة الماضية هذه النماذج العالية من الالتزام الرائع الـذي يجعلك كل موقف من مواقفه تستبعد وقوعه من غير رسول ، أو تابع رسول يقتدي به ، وهذه الصفة التي مرت معنا هي التي يسميها علماء المسلمين الأمانة ، إذ الأمانة عندهم تعني القيـام بما كلف الله به عباده أخذاً من قولـه : {إِنَّا عَرَضْنَا ٱلأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ

---

[1] رواه مسلم .

فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}[1] فالأمانة هي التكليـــف ، وحملها هو إقامة ما كلف الله به عباده , والرسل هم قدوة البشر في القيام بأمر الله ، فلا بد أن يكونوا أكثر الخلق أمانة أي التزاماً صادقاً بما يدعون الخلق إليه نيابة عن الله ، ووجود هـــذا الالتزام بما يدعو إليه الخلق من فضائل هو رسول الله رب العالمين .

والآن وقد وضح أن لرسول الله ρ الحظ الأعلى من الصفة الثانيـــة التـــي ينبغـــي أن يتصف بها كل من كان رسولاً لله حقاً ، فلننتقل إلى الصفة الأساسية الثالثة لكل رسول وهـــي تبليغ دعوة الله مهما كانت الظروف ، لنرى كذلك أن لرسول الله ρ الحظ الأعلى منها ، ونرى في كل موقف من مواقفه فيها ما يثبت أنه رسول الله حقاً .

---

[1] الأحزاب : 73 .

3 – تبليغه ρ دعوة الله وقيامه بذلك قياماً كاملاً

لقد سل رسول الله ρ كل طريق سليم لتبليغ دعوة الله على الوجــه الأكمــل ، وســلك الناس في المقابل كل طريق يخطر بالبال ليثنوه عن القيام بأمر الله فلم يفعل :

اتصل بالأفراد اتصالاً شخصياً ، وعرض نفسه على قبائل العرب ، ورحل من أجــل تبليغ الدعوة ، وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم ، وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الــدعوة ، واستقدم الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين ، وراسل الأمراء والملوك داعياً لهــم إلــى الله ولكف أصحابه أن يتعلَّموا ويعلِّموا ، وأمر جنده ألا يحاربوا قبل أن يدعوا إلى الإســلام ، ثــمّ حمّل جميع المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العالم دعوة الله ؛ حتى لا يبقى أحد من البشر إلا وقد بُلِّغَ ، وقامت عليه الحجة ، وفي المقابل ما ترك الآخرون طريقاً إلا ســلكوه لإنهــاء الــدعوة والداعية .

سلكوا طريق الإيذاء له ولأتباعه ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الإغــراء ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الضغط العائلي ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الاستهزاء والإعراض والسخرية والاتهامات ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا معــه طريق المقاطعة الشاملة له ولمن أزره ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وقــرروا قتلــه وملاحقتــه ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وطال الزمن والمستجيبون قليلون ، والجميــع يحــاولون إيئاســه واستمر ، ثم حاربوه ليستأصلوا دعوته ويستأصلوه وصبر واستمر رغم هذا كله ، ثم انتــصر وانتصر دينه ولا زال ينتصر ويتقدم رغم الأوضاع السياسية السيئة للمــسلمين ، وكــل ذلــك ببركات الداعية المبلغ الأول .

وقبل أن نستعرض نماذج عن هذا كله . نحب أن نكرر التذكير بشيء حتى لا يلهينــا العرض عن الغاية .

هذا الشيء هو : أن إثباتنا هذه الصفات لرسول الله ρ وبرهاننا على ذلك ، إنمــا هــو من أجل الوصول إلى برد اليقين بالإيمان به ، وابتاعه عن ثقة بأن ما أخبر به حق مطلق فمن عرفته بالصدق طوال حياته وتأكدت من تحريه له تطمئن إذا أخبرك عن شــيء . والرســول

كذلك ، وقيام الرسول بتكاليف دعوته على ما فيها من مخالفة لهوى النفس ومن جهد ونـــصب دون انتظار مكافأة دنيوية ، دليل آخر على رسالته إذ غير هذا الطريق لطالب غير الله أسهل.

وأما عملية التبليغ فليست هي عند الرسل كبقية عمليات التبليغ الأخرى التي يقوم بهـــا بقية البشر في الدعوة لفكرة ما ، ومن ثم كانت عملية التبليغ عند الرسل دليلاً على صدقهم في كونهم مرسلين من عند الله .

إن غير الرسل يدعون الناس إلى شيء تألفه نفوسهم وتهواه ، أي إنهم يـــأتون النـــاس من قبل ما يشتهون فلا يعانون شيئاً ولا يحتاجون إلى تضحية ، وأحيانـــاً يـــضحون ولكـــن لا ينتظرون كسباً مادياً أكثر من تضحيتهم ، وتراهم دائماً يلاحظون السلام إلا إذا أتاهم مـــا لـــم يكن بالحسبان ، وترى الحياة عزيزة جداً عليهم ، وما أسهل ما ينسون دعوتهم إذا يئسوا مـــن الكسب أو النصر . ونحن لا نعني بالطبع هنا أتباع الرسل إذ هؤلاء يعملون بـــروح الاقتـــداء بالرسل فعندهم من حرارة إخلاصهم .

إن حماية النفس مقدمة عند أصحاب الدعوات الباطلة على التبليغ ولكن التبليـــغ عنـــد الرسل لدعوة الحق مقدم على كل شيء .

إن الرسل يبلغون الناس رسالة الله التي فيها ضبط نفوس البشر حتـــى تـــستقيم علـــى السنن الصحيح للحياة ، وهم بهذا يدخلون في صراع مع أهواء البشر ، ولكل إنسان هـــوى ، فهم يدخلون في صراع مع الناس جميعاً . والصعوبة التي يعانونها من أعدائهم يعانون قريبـــاً منها في تربية أتباعهم والارتفاع بهم ، إذ البشر هم البشر على كل حال ، وتجاوز الرســـول ρ لهذه العقبات كلها ، وثباته على دعوة الحق بلا مداراة ولا مواربة ، بـــل والمطالبـــة للـــنفس البشرية بواجباتها كاملة ، والصبر على ذلك ، وتحمل كل شيء في هذا السبيل مرضـــاة لله ، كل هذا دليل على حرارة الصدق والإخلاص للدعوة ولله المكلف بها .وسنرى في كل نمـــوذج نقدمه عن عملية التبليغ عند رسول الله ρ وما رافقه شاهد صدق على هذا الذي قدمناه .

وسنقدم نوعين من النماذج :

1- نماذج عن مواقف الكافرين منه ليثنوه عن الاستمرار بالتبليغ .
2- نماذج عن الطرق التي سلكها للقيام بعملية التبليغ .

نماذج النوع الأول :

أ- إيذاؤه وصبره على ذلك :

1- أخرج الطبراني عن الحارث بن الحارث : " قال : قلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم . قال : فنزلنا فإذا رسول الله ρ يدعو إلى توحيد الله عز وجل والإيمان ، وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه ، أقبلت امرأة قد بدا نحرها ، تحمل قدحاً ومنديلاً فتناوله منها فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال : يا بنية خمري عليك نحرك ، ولا تخافي على أبيك . قلنا من هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته . رضي الله عنها " .

وعنده أيضاً عن منبت الأزدي قال : " رأيت رسول الله ρ في الجاهلية وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . فمنهم من تفل في وجهه ومنهم من حثا عليه التراب ومنهم من سبه حتى انتصف النهار . فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال : يا بنية لا تخشي على أبيك غيلة ولا ذلة . فقلت : من هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله ρ وهي جارية وضيئة " .

2- وأخرج البيهقي عن عبد الله بن جعفر – رضي الله عنهما – قال : " لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ρ سفيهٌ من سفهاء قريش فألقى عليه تراباً فرجع إلى بيته ، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي فجعل يقول : أي بنية ! لا تبكي فإن الله مانع أباك " .

3- وعن ابن أبي شيبة عن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال : " ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ρ إلا يوماً ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله ρ يصلي عند المقام . فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطاً ، وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر – رضي الله عنه – يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله ρ من ورائه ، ويقول : { أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ} . ثم انصرفوا عن النبي ρ ، فقام رسول الله ρ فصلى . فلما قضى صلاته مر بهم – وهم جلوس في ظل

الكعبة – فقال : يا معشر قريش ! أما والذي نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح وأشار بيده إلى حلقه . فقال أبو جهل : ما كنت جهولاً . فقال له رسول الله ρ : أنت منهم " .

4- وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال : " قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً من رسول الله ρ فيما كانت تظهر من عداوته . قال : حضرتهم – وقد اجتمع أشرافهم في الحج – فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا وسب آلهتنا . لقد صبرنا منه على أمر عظيم – أو كما قالوا – قال : فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ρ فأقبل يمشي حتى استقبل الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت . فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول . (غمزوه : أي أشاروا مسيئين إليه) قال : فعرت ذلك في وجهه ثم مضى . فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى . فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال : أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده ! لقد جئتكم بالذبح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وقيعة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشداً ، فوالله ما كنت جهولاً . فانصرف رسول الله ρ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر – وأنا معهم – فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ρ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأطافوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، قال فيقول رسول الله ρ : نعم ، أنا الذي أقول ذلك . قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه وقام أبو بكر رضي الله عنه دونه يقول وهو يبكي : { أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ؟ } ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط " .

5- وأخرج البزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : " بينا رسول الله ρ في المسجد وأبو جهل بن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة وهم في الحجر ورسول الله ρ يصلي فلما سجد أطال السجود . فقال أبو جهل : أيكم يأتي جزور بني فلان فيأتينا بفرثها فنكفئه على محمد ρ ، فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي معيط فأتى به فألقاه على كتفيه ورسول الله ρ ساجد . قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندي منعة تمنعني فأنا أذهب ، إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله ρ فأقبلت حتى ألقت عن عاتقه ثم استقبلت قريشاً تسبهم فلم يرجعوا إليها شيئاً ، ورفع رسول الله ρ رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود . فلما قضى ρ صلاته قال :

اللهم عليك بقريش – ثلاثاً – عليك بعتبة وعقبة وأبي جهل وشيبة . ثم خرج من المسجد فلقيه أبو البختري بسوط يتخصر به ، فلما رأى النبي ρ أنكر وجهه فقال : مالك ؟ فقال النبـــي ρ : خل عني . قال : علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك ؟ فلقد أصابك شيء . فلمـــا علـــم النبي ρ أنه غير مخل عنه أخبره فقال : إن أبا جهل أمر فطرح علي فرث فقال أبو البختـــري : هلم إلى المسجد فأتى النبي ρ وأبو البختري فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البختري إلـــى أبـــي جهل فقال : يا أبا الحكم أنت الذي أمرت بمحمد فطرح عليه الفرث ؟ قال : نعم : قال : فرفع السوط فضرب به رأسه . قال : فثار الرجال بعضها على بعض . قال : وصاح أبـــو جهـــل ويحكم هي له ، إنما أراد محمد ρ أن يلقي العداوة بيننا وينجو هو وأصحابه " .

6- وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة ص 103 : عن عروة بن الزبير – رضـــي الله عنهما – قال : " ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ρ شدة ، فعمد إلى ثقيـــف يرجو أن يؤووه وينصروه ، فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم إخوة ؛ عبد ياليل بن عمرو ، وخبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم البلاء وما انتهـــك قومه منه فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط ؟ وقال آخـــر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً لئن كنت رسولاً لأنت أعظم شـــرفاً وحقـــاً مـــن أن أكلمك . قال الآخر : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟

وأفضوا ذلك في ثقيف الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزؤون برسول الله ρ وقعدوا لـــه صفين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يـــضعها إلا رضـــخوها بالحجارة وهم في ذلك يستهزؤون ويسخرون . فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان الـــدماء عمد إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظل حبلة من الكرم فجلس في أصلها مكروباً موجعاً تـــسيل قدماه الدماء ، فإذا في الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما أبصرها كـــره أن يأتيهمـــا لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله وبه الذي به ، فأرسلا إليه غلامهما عداســـاً بعنـــب وهـــو نصراني من أهل نينوى .

فلما أتاه وضع العنب بين يديه فقال رسول الله ρ : " بسم الله " فعجب عداس ، فقال له رسول الله ρ : من أي أرض أنت يا عداس ؟ قال أنا من أهل نينوى . فقال النبـــي ρ : مـــن أهل مدينة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس : وما يدريك من يونس بن متى ؟

فأخبره رسول الله ρ من شأن يونس ما عرف ، وكان رسول الله ρ لا يحقر أحداً يبلغه رسالات الله تعالى .

قال : يا رسول الله أخبرني خبر يونس بن متى ، فلما أخبره رسول الله ρ من شأن يونس بن متى ما أوحي إليه من شأنه ، خر ساجداً لرسول الله ρ ثم جعل يقبل قدميه وهما تسيلان الدماء .

فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا . فلما أتاهما قالا له : ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت هذا بأحد منا .

قال : هذا رجل صالح حدثني عن أشياء عرفتها من شأن رسول بعثه الله تعالى إلينا يدعى يونس بن متى ، فأخبرني أنه رسول الله ، فضحكا وقالا : لا يفتنك عن نصرانيتك ، إنه رجل يخدع ، ثم رجع رسول الله ρ إلى مكة " .

وذكر في البداية (ج3 ص 136) عن موسى بن عقبة : " وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء . وفيما ذكر ابن إسحاق : فقام رسول الله ρ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقد قال لهم – فيما ذكر لي –: إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي ، وكره رسول الله ρ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه . فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف " .

من هذه القصص قصص الإيذاء الرهيب نعرف ما لاقى وهو الشريف الهاشمي ذو النفس الحساسة ، ابن الأشراف ومع ذلك تحمّل واستمرّ وليس بيده ألا يستمر ، وكما أوذي هو أوذي أتباعه كذلك وقتل بعضهم ... ومع ذلك صبروا وثبّتهم على الصبر ، وهذا شيء يجرح الضمير أن يرى الإنسان الناس يعذّبون بسبب دعوته ، لولا أن ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه ، وأن الإنسان ليس مخيراً في سلوكه بل هو الذي لا بد منه للقيام بحق الله وإنها لرسالة الله .

* * * * *

ب – محاولة إغرائه ورفضه ρ لذلك :

قال ابن إسحاق ؛ وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي ، قال " حدِّثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ρ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ρ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد . قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ρ فقال : يا ابن أخي : إنك منا حيث قد علمت ، من السطة في العشيرة (السطة : الشرف) والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ρ قل يا أبا الوليد ، أسمع ، قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ، وإن كان الذي يأتيك رئياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له : حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ρ يستمع منه ، قال :

أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ،

قال : فاسمع مني .

قال : أفعل ..

فقال : بسم الله الرحمن الرحيم {حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيۤ أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} .

ثم مضى رسول الله ρ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليها ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ρ إلى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنت أسعد الناس به ، قالوا : سَحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم " .

وقال ابن إسحاق : " اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث (بن كلدة) أخو بني عبد الدار ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، أو من اجتمع منهم ، قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه :

عن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم .

فجاءهم رسول الله ρ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك . وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين , وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة

، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك – أو كما قالوا له – فإن كنت إنما جئت بهـذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الـذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ، وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً – فربما كان ذلك ، بـذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيه .

فقال لهم رسول الله ρ ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أمـوالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرنـي أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئـتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتـى يحكـم الله بينـي وبينكم ، أو كما قال ρ . قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل من شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشيد عيشاً منا ، فـسل لنـا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فـيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثـك رسـولاً كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئـتكم مـن الله بمـا بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فـي الـدنيا والآخـرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يـصدقك بمـا تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بهـذا عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعـرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال لهم رسول الله ρ : ما أنا بفاعـل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً – أو كمـا قال – فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصـبر لأمـر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً ، كما زعمت إن شاء ربك فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

قال : فقال رسول الله ρ : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل ، قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله , وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ρ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم – وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل – أو كما قال له – فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ρ وانصرف رسول الله ρ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه " .

قارن بين الصورتين : اضطهاد بدون حدود ، وإغراء إلى هذا المستوى ، ولا خيار . خذ ما تريد واترك ما أنت عليه أو تضطهد هذا الاضطهاد المر . ومحمد ρ في الحالتين هو هو لا الاضطهاد يؤثر في صده عن عملية التبليغ ولا الإغراء يثنيه . وفي موقفه في كلا الحالتين شهادة على أنه رسول الله حقاً وأنه صاحب دعوة هداية أولاً وآخراً .

* * * * *

ج – محاولتهم أن يضغطوا عليه ρ عائلياً :

أخرج الطبراني في الأوسط والكبير عن عقيل بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : " جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا وفي نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل ، فقال لي : يا عقيل ! التمس لي ابن عمك ، فأخرجته من كبس (أي بيت صغير) من أكباس أبي طالب . فأقبل يمشي معي يطلب الفيء يمشي فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى إلى أبي طالب . فقال له أبو طالب ، يا ابن أخي ! والله ما علمت إن كنت لي لمطاعاً ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم تسمعهم ما يؤذيهم ، فإن رأيت أن تكف عنهم . فحلق ببصره إلى السماء فقال : والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار . فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخي قط ، ارجعوا راشدين " .

قال الهيثمي (ج6 ص14) : رواه الطبراني وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح ، انتهى . وأخرجه البخاري في التاريخ بنحوه كما في البداية (ج3 ص42) .

وعند البيهقي : " أن أبا طالب قال له ρ : يا ابن أخي ! إن قومك قد جاءوني وقالوا كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أ"يق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فظن رسول الله ρ أن قد بدا لعمله فيه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه . فقال رسول الله ρ : يا عم ! لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه ، ثم استعبر رسول الله ρ فبكى . فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ برسول الله ρ : يا ابن أخي ، فأقبل عليه فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً " . كذا في البداية (ج3 ص42) .

والذي يعرف عادة العرب في احترام الأكابر منهم وطاعتهم لأمرائهم ومشايخ بيوتهم يدرك مدى الأثر النفسي الكبير الذي يحدثه تدخل أبي طالب شيخ بني هاشم نتيجة ضغط قومه عليه . ومحمد ρ الحيي الخجول المهذب ما كان ليخالف أمر عمه ورغبته لو كانت المسألة

مسألة شخصية ولكن الأمر أكبر من ذلك . إنه أمر الله الذي هو أكبر من كل عرف ومن كل اعتبار ومن كل ضغط . وفي ذلك شهادة كاملة لمن عرف عادات القبائل العربية على أن محمداً رسول الله ρ .

* * * * *

د- سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والإعراض والاتهامات :

من سيرة ابن هشام ننقل هذه المقاطع :

" ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فل وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ؛ رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق (النخلة) وإن فرعاه لجناة – قال ابن هشام ، ويقال لغدق (الغدق : الماء الكثير) وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

– وقال ابن إسحاق :

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ρ ومن أسلم معــه منهم ، فأغروا برسول الله ρ سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالــشعر والــسحر والكهانــة والجنون ، ورسول الله ρ مظهر لأمر الله لا يستخفي به ، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

– وقال ابن إسحاق :

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله ρ وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ρ مجلساً فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمــم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منــه ، فهلم إلي ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثــم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني .

وقال :

فلما جاءهم رسول الله ρ بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حــدث ، وموقــع نبوته فيما جاءهم من علم الغيوب ، حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم لــه بيــنهم وبين اتّباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما هم عليه مــن الكفــر ، فقال قائلهم : {لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[1] أي اجعلوه لغواً باطلاً واتخذوه هزواً ، لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصتموه يوماً غلبكم .

– وقال : فقال أبو جهل يوماً وهو يهزأ برسول الله ρ وما جاء به مــن الحــق : يــا معشر قريش ! يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبــسونكم فيهــا تــسعة عشرة ، وأنتم أكثر الناس أعداداً ، وكثرة ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله : {وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ}[2] ... إلى آخر القصة .

---

[1] فصلت : 26 .
[2] المدثر : 31 .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا إذا جهر رسول الله ρ بالقرآن وهو يصلي فيتفرقون عنه ، ويأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ρ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي ، استرق السمع دونهم ، فَرَقاً منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم ، فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله ρ صوته ، فظن الذي يستمع أنهم يستمعون شيئاً من قراءته وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له ليستمع منه " .

تصور حرب الدعاية الفظيعة التي لجأوا إليها ، وهم قريش موطن ثقة العرب ، والذين تأتيهم العرب سنوياً للحج ، فهم يشوهون اسمه عاماً بعد عام ، ويحاولون أن يحاربوه بكل سلاح من أسلحة القول ، والعربي لا تسمح نفسه أبداً أن يقف موقف المتهم ، ومع ذلك بقي رسول الله ρ صابراً على هذه الحرب الدعائية الفظيعة ، هذه المدة الطويلة ، ثلاثة عشر عاماً ، وما وَنَى وما كَلَّ ، وهو يقوم بعملية التبليغ المستقيمة النظيفة .

إن استمرار الداعية في مثل هذا الجو المحموم ، دليل على صدقه فيما يدعو إليه ، وإلا فكيف نعلل استمرار رجل في دعوة يلاقي ما لاقى ، مع العرض عليه كل متاع الدنيا ، ثم لا يرضى إلا بحمل الناس على دعوته . إن هذا لا يُعلّل إلا بصدقه في دعوته ، وأنه يبلغها مأموراً من الله عز وجل ، وقد وضح له أن النكوص عن طريقه وراءه ما وراء الذي يَعصِي أمر الله من عقاب الله .

* * * * *

هـ – استعمال سلاح المقاطعة :

قال ابن إسحاق : " فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ρ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ρ وأصحابه وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة

، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً علـــى أنفـــسهم ، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بـــن قصي – قال ابن هشام : ويقال النضر بن الحارث – فدعا عليه رســـول الله ρ فـــشل بعـــض أصابعه " .

وقال ابن إسحاق : " فلما فعلت قريش انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلـــى أبـــي طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه وخرج من بني هاشم أبـــو لهـــب عبد العزي بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم " .

وقال ابن إسحاق : " وحدثني حسين بن عبد الله : أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بـــن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشاً ، فقال : يا بنت عتبة هل نصرت اللات والعـــزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟ قالت : نعم فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة " .

– وأخرج أبو نعيم في الحلية ج1 ص93 عن سعد – رضي الله عنه – قـــال : " كنـــا قوماً يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ρ وشدته ، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذل ومَرَنَّا عليه وصبرنا له ، ولقد رأيتني مع رسول الله ρ بمكة خرجت من الليل أبول . وإذا أنا أســـمع بقعقعة شيء تحت بولي فإذا قطعة جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتهـــا فوضـــعتها بـــين حجرين ثم استففتها وشرب عليها الماء فقويت عليها ثلاثاً " .

هذه المقاطعة التي كانت من آثارها ما رأيت استمرت ثلاث سنين متواليات . لا بيـــع ولا شراء ولا زواج ولا إزواج ولا طعام ولا شراب .

يقول السهيلي : " كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليـــشتري شيئاً من الطعام قوتاً لعياله ، فيقول أبو لهب : فيقول : يا معشر التجار غالوا علـــى أصـــحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً ، حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون مـــن الجوع ، وليس في يده شيء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشـــتروا من الطعام واللباس " .

ثلاث سنوات متواليات والمسلمون وأقارب رسول الله ρ من المشركين أنفسهم ممن يحمونه عصبية بني هاشم وبني المطلب على هذه الحال . ورسول الله ρ صابر وهو يرى هذه المناظر المؤلمة . زوجه خديجة الطاعنة في السن ، عمه أبو طالب الطاعن في السن ، أسرته أقاربه يعانون هذه الحياة المجهدة ، ومع ذلك ما فكر لحظة في إيقاف عملية التبليغ والجهر بالدعوة ، وليس هناك ظاهرياً بارقة أمل ، فالجزيرة العربية كلها مجمعة على الوقوف ضده مع قريش ، ومع ذل بقي مستمراً لا لقاء ولا مداهنة ولا تنازل ولا أي شيء آخر . فمن يستطيع أن يتحمل هذا لولا إيمان بالله وثقة به صدق بوعده ووعيده ، واتصال بالله كامل يستسلم صاحبه لأمر الله فيه . إنها صفات الأنبياء ولا يمكن أن تعلل إلا بأن صاحبها رسول الله حقاً ...

* * * * *

و – محاولتهم قتله ρ :

– قال ابن إسحاق :

" ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ρ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : – فيما بلغني – يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرَّق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل . فقال : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم , وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبداً . قال : فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك – أو كما قال – فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضاً " .

وقال ابن إسحاق :

" فلما قام عنهم رسول الله ρ قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر ما أطيق حمله – أو كما قال – فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد " .

وقال ابن إسحاق :

" وكان إسلام عمر – فيما بلغني – أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر , وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه ، من بني عدي بن كعب قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ρ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ρ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين – رضي الله عنهم – ممن كان أقام مع رسول الله ρ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذي فرق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه " .

وقال ابن إسحاق : " من خبر اجتماع الملأ من قريش وتشاورهم في أمر رسول الله ρ فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . قال فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم مع هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من

وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبتوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره ، فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، وإذا غاب عنا وفرغنا منه ، أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا برأي ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه . ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا .

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه لرأياً ، ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً (الشريف في قومه) فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم (العقل : الدية) قال : فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له " .

هذه نماذج من قرارات القوم بشأن اغتيال الرسول ρ . وإذن فالفترة التي قضاها رسول الله ρ في مكة لم تكن فترة أمن من كل الجوانب . ومع هذه التهديدات المتواصلة وهذا الجو الذي يحطم الأعصاب . نجد رسول الله ρ ما انقطع فترة عن القيام بعملية التبليغ والجهر بها ، ومجابهة الناس بما يدعو له ، إن هذا كله ليس عادياً في بيئة عربية وعلى النفسية العربية لولا أن المسألة مسألة وحي من الله وأمر .

* * * * *

ز – ملاحقة خطواته ρ ومحاولة إيئاسه منهم :

أخرج ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد – رضي الله عنه – قال : " إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ρ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . قال : وخلفه رجل أحول وضيء غديرتان عليه حلة عدنية . فإذا فرغ رسول الله ρ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بني فلان ! إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا عنه .

قال : فقلت لأبي يا أبت .. من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب " .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : " لقد كان رسول الله ρ يخرج في المواسم فيدعو القبائل ، ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبل القبائل يعود إليهم سنة بعد سنة حتى إن القبائل منهم من قال : ما آن لك أن تيأس منا ؟ " .

لقد بقي مستمراً في عملية التبليغ على وتيرة واحدة وبدأب متواصل ، رغم هذه الظروف غير المواتية ، والتي تجعل الإنسان العادي ييأس أو يفتر . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، فلولا أنه رسول الله حقاً يقوم بهذا كله إيماناً بالله وتنفيذاً لأمره وتصديقاً بوعده وخوفاً من وعيده لما أمكنه الاستمرار وتجاوز شيء من هذا .

ونكتفي بهذه الأمثلة على تخطيه العقبات أمام البلاغ ؛ لننتقل إلى عرض نماذج من عمله الدائب المستمر الشامل في تبليغ دعوة الله ، أي إلى :

* * *

نماذج النوع الثاني : الطرق التي سلكها ρ لإيصال دعوة الله إلى الناس .

أ- دعوته ρ الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم :

أخرج أحمد عن ابن عباس قال : " لما أنزل الله {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ}[1] أتى النبي ρ الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله : يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني كعب أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم . قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله {تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}[2] .

ب – ذهابه ρ إلى أماكن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله :

أخرج أحمد عن رجل من بني مالك بن كنانة قال : " رأيت رسول الله ρ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول : " يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا " قال وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول لا يغوينكم هذا عن دينكم فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى وما يتلفت إليه رسول الله " .

وأخرج أحمد عن ربيعة بن عباد من بني الديل وكان جاهلياً فأسلم قال : " رأيت رسول الله في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : " يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا " والناس يجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب " .

وأخرج البخاري في التاريخ وأبو زرعة والبغوي وابن أبي عاصم والطبراني عن الحارث ابن الحارث الغامدي قال :

---

[1] الشعراء : 214 .

[2] المسد : 1 .

" قلت لأبي ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء اجتمعوا على صابئ لهم قال : فتشرفت فإذا برسول الله يدعو الناس إلى توحيد الله وهم يردون عليه الحديث " .

وأخرج الطبراني عن مدرك قال : حججت مع أبي فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة فقلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟ قال : هذا الصابئ ، فإذا رسول الله ρ يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا " قال الهيثمي (ج6 ص21) ورجاله ثقات .

وأخرج ابن إسحاق عن الزهري : " أنه عليه الصلاة والسلام أتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مليح فدعاهم إلى الله – عز وجل – وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه " .

وعن محمد بن عبد الرحمن بن حصين : " أنه (أي رسول الله) أتى كلباً في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول : يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم " .

وفي البداية عن عبد الله بن كعب بن مالك : " أن رسول الله أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم " .

وعن ابن إسحاق عن الزهري : " أنه (أي رسول الله) أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ؛ فأبوا عليه . فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم . فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذناباها من مطلب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط ، وإنها الحق فأين رأيكم كان عنكم ؟ " .

وأخرج الحافظ أبو نعيم عن العباس – رضي الله عنه – قال : " قال لي رسول الله ρ : لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجي إلى السوق غداً حتى نقر في منازل قبائل الناس وكانت مجمع العرب . قال فقلت : هذه كندة ولفها وهي أفضل من يحج البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل بني عامر بن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال فبدأ بكندة فأتاهم فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من أهل اليمن . قال : من أي اليمن ؟ قالوا : من كندة . قال : من أي كندة ؟ قالوا : من بني عمرو بن معاوية ، قال : فهل لكم إلى خير ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : تشهدون أن لا إله إلا الله ، وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله . قال عبد الله بن الأجلح : وحدثني أبي عن أشياخ قومه أن كندة قالت له : إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول الله ρ : إن الملك لله يجعله حيث يشاء . فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئتنا به " .

وقال الكلبي : " فقالوا أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا وننابذ العرب . الحق بقومك فلا حاجة لنا بذلك . فانصرف من عنده فأتى بكر بن وائل فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من بكر بن وائل . فقال : من أي بكر بن وائل ؟ قالوا : من بني قيس بن ثعلبة . قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم . قال : فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم ، وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدوه ثلاثاً وثلاثين ، وتكبروه أربعاً وثلاثين . قالوا : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله . ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبي : وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس : لا تقبلوا قوله ، ثم مر أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا في الذروة منا فعن أي شأنه تسألون ؟ فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا : زعم أنه رسول الله . قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولاً فإنه مجنون يهذي من أم رأسه . قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكره " .

ج) رحلته ρ من أجل التبليغ :

أخرج الطبراني عن عبد الله بن جعفر قال : " لما توفي أبو طالب خرج النبي إلى الطائف ماشياً على قدميه يدعوه إلى الإسلام فلم يجيبوه فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم تكن غضبان

علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي . أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

د) تكليفه ρ من أسلم تبليغ من لم يسلم :

أخرج ابن أبي عاصم عن الأحنف بن قيس قال : " بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي فقال : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى ، قال : أتذكر إذ بعثني رسول الله إلى قومك فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه فقلت أنت : إنك لتدعونا إلى خير وتأمر به ، وإنه ليدعو إلى الخير . فبلغ ذلك النبي فقال : اللهم اغفر للأحنف " .

وأخرج الدارقطني عن ابن عمر قال : " دعا النبي ρ عبد الرحمن بن عوف فقال : تجهز فإني باعثك في سرية – فذكر الحديث – وفيه : فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل فلما دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً ، وكان رأسهم فكتب عبد الرحمن – مع رجل من جهينة يقال له رافع بن مكيث – إلى النبي يخبره فكتب إليه النبي أن تزوج ابنة الأصبغ فتزوجها وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن " .

وأخرج ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن التيمي قال : " بعث رسول الله عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الإسلام ، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بني بلي ، فبعثه رسول الله إليهم يتألفهم بذلك " .

وأخرج البيهقي عن البراء " أن رسول الله ρ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام . قال البراء : فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه . ثم إن رسول الله ρ بعث علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وأمره أن يقفل خالداً إلا رجلاً كان ممن مع خالد ، فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه . قال البراء : فكنت فيمن عقب مع علي . فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم . فصلى بنا علي صفاً صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ρ فأسلمت

همدان جميعاً ، فكتب علي إلى رسول الله ρ بإسلامهم . فلما قرأ رسول الله ρ الكتـــاب خــر ساجداً ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان !!! السلام على همدان " .

أخرج أبو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير – رضي الله عنه – " أن الأنــصار لما سمعوا من رسول الله ρ قوله وأيقنوا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته فصدقوه وآمنــوا بــه – كانوا من أسباب الخير وواعدوه الموسم من العام المقبل فرجعوا إلى قــومهم – بعثــوا إلـــى رسول الله ρ أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فيدعو الناس إلى كتاب الله فإنه أدنى أن يتبع فبعــث إليهم رسول الله ρ مصعب بن عمير – رضي الله عنه – أخا بني عبد الدار ، فنزل بني غــنم على أسعد بن زرارة يحدثهم ويقص عليهم القرآن فلم يزل مصعب عند سعد بن معــاذ يــدعو ويهدي الله على يديه حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها نــاس لا محالــة ، وأســلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم . ورجع مصعب بن عمير إلى رســول الله ρ وكان يدعى المقرئ " .

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة ... عن رسول الله ρ قال : " ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يــأمرونهم ولا ينهــونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قــوم جيــرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظــون ، أو لأعاجلنهم العقوبة " .

ثم نزل فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين ، هم قوم فقهــاء ولهــم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب . فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ρ وقــالوا : يــا رسول الله ! ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشر فما بالنا فقال : " ليعلمن قوم جيرانهم وليعظــنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فــي الدنيا " فقالوا : يا رسول الله ! أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً ، فقالوا : أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله ρ هذه الآية : {لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيۤ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ}[1] .

[1] المائدة 78 ، 79 .

و) إرساله ρ الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء :

أخرج البيهقي عن ابن إسحاق قال : بعث رسول الله ρ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، السلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى " .

وأخرج البخاري عن ابن عباس حديث أبي سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله إليه وهذا نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ! سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين ، {قُلْ يأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[1] .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق نص رسالة رسول الله ρ إلى كسرى وهي : " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ! سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإن تسلم تسلم وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك " .

وأخرج البيهقي نص رسالة الرسول ρ إلى أهل نجران وهي :

[1] آل عمران :

" بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران ! سلم أنتم فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد ! فإني أدعــوكم إلـــى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوك إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام " .

وقد أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسائل مشابهة إلى المقــوقس وإلـــى ملـــك اليمامة وإلى المنذر بن ساوة عظيم البحرين وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني وإلى الحارث بن عبد كلال الحميري وإلى ملكي عمان ابني الجلندي وغيرهم .

* * *

هذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله ρ تعطيك صورة مبسطة عن قيامه بتبليـــغ أمر الله ودينه وشريعته ، واستفياء هذا الموضوع حقه يحتاج إلى مجلد ضخم على الأقــل . إذ إن رسول الله خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفــوّت فرصـــة يستطيع بها أن يبلغ ، بالاتصال الشخصي والعرض الجماعي ، وفي السفر والحضر وبنفـــسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمته جميعاً بأن أوجب عليهم الـــبلاغ أنـــه عليه الصلاة والسلام لم يمت إلا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمـــر الله ، وأكبـــر الـــدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين إلا وكان أكثـــر العالم المعروف وقتذاك قد بلغته الدعوة ، فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عناداً ، وما من إنسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبليغ المنقطع النظيـــر يمكن أن يكون إلا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة والداعية ، وما كان الداعية ليعطـــي هـــذا الحماس لأتباعه ، لو لم يكن هو في أعلى حالات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسؤولية أمام الله .

إن تاريخ العام كله لا يقص علينا ، أن أحداً استوعبت دعوته من قبل الآخـــرين فـــي حياته كما حدث لرسول الله ρ الذي لم يمت إلا وعشرات الآلاف من أتباعـــه يحفظـــون مـــن الكتاب المنزل عليه الكثير ، ومن أحاديثه وتعاليمه الكثير الكبير ، ثم حفظت نصوص تعاليمـــه حرفياً لكل الأجيال الآتية من بعد . لأنها كلها مكلفة باتباعه ومحاسبة أمام الله إن لم تتبعه بعـــد البلاغ . أما من لم تبلغه دعوته فقد اقتضت رحمة الله ألا يعتبر مسؤولاً ، وكلن عملياً – وذلك كله من آثار قيام الرسول ρ بواجب التبليغ – لم يبق أحد منذ زمن بعيد إلا في النادر لم تبلغـــه

دعوة رسول الله ، وأنت ترى الآن الدعاة إلى الله على صراط رسول الله منتشرين في العـــالم كله ، لقد قام رسول الله بعملية التبليغ حق القيام ، وكما رأيت فإن كل موقف من مواقفه فيهـــا ما يجعلك على برد اليقين ، بأن هذه المواقف ما كانت لتكون ، لـــولا أن رســـول الله محمـــداً صادق في دعوى الرسالة عن الله .

فإلى الصفة الأساسية الرابعة للتبليغ وجوهر الرسالة عـــن الله وهـــي العقـــل العظـــيم والفطانة لترى أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحظ الأعلى منها :

* * *

4 – عقله العظيم وفطانته عليه الصلاة والسلام

1- إن الصفة الرابعة للرسل عليهم الصلاة والسلام هي الفطانة وهي الصفة الملازمة للتبليغ . إذ الرسول معرّض وهو يقوم بعملية التبليغ لمناقشات لخصوم أو لتساؤلات الأتباع أو لاعتراضات المشككين وانتقاداتهم ، فلا بد أن يكون لديه من الذكاء وقوة البيان وحدة العارضة ما يستطيع به أن يدحض شبه الآخرين فلا تقوم لهم حجة ، إذ لو قامت لهم حجة لما كان لـــه عليهم سلطان وذلك مقتضى قوله تعالى : {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ}[1] .

وهذا لا يتم إلا بأن تكون دعوة الرسول حقاً كلها ، إذ غير الحــق لا تكــون حجتــه واضحة ، والباطل دائماً حجته داحضه ، ولا يتم كذلك إلا بعقل يستطيع إحكــام الحجــة فــي العرض . فكم من حق لم يجد عقلاً فضاع ، ولا يتم هذا كله إلا بفصاحة وبيان يمكــن بهمــا عرض الحجة بالشكل الأكمل ، ولا يتأتى هذا إلا لأعلم الناس وأذكى الناس وأفصح الناس .

فالناس يتفاوتون علماً ويختلفون اختصاصاً . فمنهم رجل الدين , ومــنهم الــسياسي ، ومنهم الاقتصادي ، ومنهم الطبيب ، ومنهم رجل الحكمة ومنهم ومنهم . وكل واحد من هؤلاء ينبغي أن تقام عليه الحجة فما لم يكن الرسول أعلم الخلق لا يستطيع إقامة الحجة .

والناس يتفاوتون ذكاء وقوة حجة وعارضة ، والرسول مهمته أن يقيم الحجة على كل البشر فما لم يكن أذكى البشر فإنه لا يستطيع أن يفعل .

وإنسان يحتاج إلى هذا كله لا بد له من لسان مبين , وفصاحة عظيمــة ، حتــى قــال موسى يوم كلفه الله بالوحي : {رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيۤ أَمْرِي * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي}[2] .

وباجتماع هذه الجوانب كلها تتحقق صفة الفطانة عند الرســول وتــدل بــذلك علــى صاحبها أنه رسول الله حقاً مع استكمال بقية الشروط .

---

[1] النساء : 165 .

[2] طه : 25 – 28 .

فالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والحجة الكاملة البينة الخاصة فيه .

والعرض السليم الكامل الأداء .

وإلزام الخصوم العجز عن أن يكون لهم موقف حق إلا بالمتابعة .

كل هذا لا يتأتى إلا لدعوة الله المحيط علماً بكل شيء ، ولرسوله الذي يختاره أهلاً لحمل دعوته {ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ}[1] {ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[2] .

* * *

2- وباستعراضنا لهذه الجوانب عند رسول الله محمد ρ نجد أن له من كل شيء ذروته ، فمن حيث إن دعوته كلها حق فذلك لا مرية فيه وتحقيق ذلك في كل بحوث هذا الكتاب .

ومن حيث الفصاحة فهو أفصح العرب على الإطلاق وأبينهم لغة ونطقاً وأداء .

ومن حيث إقامة الحجة فإنك لا تجد إنساناً يستطيع إقامة الحجة المقنعة على كل إنسان حسب مستواه العقلي بكل بساطة كما كان يفعل رسول الله ρ ، وبهذا تأتّى له أن يقيم الحجة على الناس بدينه كله ، عقيدة وعبادات وسلوكاً ومنهاج حياة ، هذا مع توفيق الله له ، وحكمته – جل جلاله – في أن جعل القرآن الكريم قد فصّل كل شيء ، وحاجّ كل إنسان فحجّه ، فكان القرآن مع حديث رسول الله ρ الصحيح كما فحصه علماء الحديث – وهما محفوظان – حجة الله على البشر في كل جيل إلى قيام الساعة .

---

[1] الحج : 75 .

[2] الأنعام : 124 .

*   *   *

3- ولتوضيح ظهور هذه الجوانب عند رسول الله ρ . سنختار نماذج مـن مناقـشاته يقيم بها الحجة على آخرين ومن خطبه أو كتبه يدعو بها إلى شيء من شريعته ومـن كَلِمِـهِ المعلل بالحكمة في الأمر أو النهي أو الخير مما يدلك على مدى ملكة الإقناع التي وهبهـا الله لرسوله حتى جعله أكمل الخلق في كل الخلق :

أخرج عبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن سعيد بن أبي راشد قـال : رأيـت التنـوخي رسول هرقل إلى رسول الله ρ بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفنـاء أو قـرب ، فقلت ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ρ ورسالة رسول الله ρ إلى هرقل ؟ قـال : بلى ... وذكر الحديث ومن جملته :

" فانطلقت بكتابه (أي كتاب هرقل) حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بـين أصـحابه على الماء . فقلت : أين صاحبكُم ؟ قيل : هاهو ذا . فأقبلت أمشي حتى جلـست بـين يديـه فناولته كتابي فوضعه في حجره ثم قال : ممن أنت ؟ قلت : أنا أحد تنوخ . فقال : هل لك في الحنيفية ملة إبراهيم ؟ قلت : إن رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إلـيهم . قال : {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ}[1] .

إلى أن قال : ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت : من صاحب كتابكم الـذي يقرأ لكم ؟ قالوا : معاوية ، فإذا في كتاب صاحبي يدعوني إلـى جنـة عرضـها الـسماوات والأرض أعدت للمتقين ، فأين النار ؟ فقال رسول الله ρ : سبحان الله فأين الليـل إذا ذهـب النهار " .

قال الهيثمي : رجال أبي يعلى ثقات ورجال عبد الله بن أحمد كذلك .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين قـال : " حدثني أبي عن أبيه عن جده أن قريشاً جاءت إلى الحصين – وكانت تعظمه – فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبـي ρ

---

[1] القصص : 56 .

فقالوا : أوسعوا للشيخ . وعمران وأصحابه متوافرون . فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك . إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينة وخيراً ؟ فقال : يا حصين إن أبي وأباك في النار ، يا حصين كم تعبد من إله ؟ قال سبعاً في الأرض وواحداً في السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذي في السماء . قال : فإذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذي في السماء . قال : فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟ قال : لا واحدة من هاتين ، قال : وعلمت أني لم أكلم مثله .

قال : يا حصين أسلم تسلم .

قال : إني لي قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

قال : قل اللهم أستهديك لأرشد أمري ، وزدني علماً ينفعني .

فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم . فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه . فلما رأى ذلك النبي ρ بكى وقال :

بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة . فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رأته قرش فقالوا : صبأ ، وتفرقوا عنه " كذا في الإصابة ج1 ص337 .

أخرج أحمد عن أبي تميمة الهجيمي عن رجل من قومه " أنه أتى رسول الله ρ أو قال : شهدت رسول الله ρ وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله أو قال أنت محمد ؟ فقال : نعم . قال : ما تدعو ؟ قال : أدعو الله عز وجل وحده ؛ مَنْ إذا كان لك ضر فدعوته كشفه عنك ، ومن إذا أصابك عام فدعوته أنبت لك ، ومن إذا كنت في أرض قفر فأضللت فدعوته رد عليك.

فأسلم الرجل ثم قال : أوصني يا رسول الله ، فقال : لا تسب شيئاً . أو قال أحداً – شك الحكم – قال : فما سببت بعيراً ولا شاة منذ أوصاني رسول الله ρ .

أخرج أحمد عن عدي بن حاتم قال : " لما بلغني خروج رسول الله ρ كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم – وفي رواية : حتى قدمت على قيصر – قال : فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه . قال : قلت : والله لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرني وإن كان صادقاً علمت ، قال : فقدمت فأتيته . فلما قدمت قال الناس : عدي بن حاتم ، فدخلت على رسول الله ρ فقال لي : يا عدي بن حاتم أسلم تسلم – ثلاثاً – . قال : قلت : إني على دين . قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت تعلم بديني مني ؟ قال : نعم ، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ قلت : بلى ، قال : هذا لا يحل لك في دينك ، قال : نعم ، فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب . أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها . قال : فوالذي نفسي بيده ليمتن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد . وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، قال : قلت كنوز ابن هرمز ؟ قال : نعم ، كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد.

قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تأتي من لحيرة تطوف بالبيت في غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ρ قد قالها " . كذا في البداية ج5 ص66 وأخرجه البغوي أيضاً في مجمعه بمعناه ، كما في الإصابة .

وأخرج أحمد عن عدي بن حاتم قال : " جاءت خيل رسول الله ρ وأنا بعقرب فأخذوا عمتي وناساً فلما أتوا بهم رسول الله ρ قال : نصفوا له . قالت : يا رسول الله بان الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة ؛ فَمُنَّ عليَّ ، منَّ الله عليك . فقال : ومن وافدك ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : الذي فر من الله ورسوله ؟ قالت : فمنَّ عليَّ ، فلما رجع ورجل إلى جنبه – نرى أنه عليٌّ – قال : سليه حملاناً ، قال : فسألته فأمر لها . قال عدي : فأتتني فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها وقالت : إيته راغباً أو راهباً ، فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه ، قال : فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان – أو صبي – فذكر قربهم منه ، فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر . فقال له : يا عدي بن حاتم! ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : لا إله إلا الله ، مَنْ إله إلا الله ؟ ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : الله أكبر . فهل شيء أكبر من الله عز وجل ؟ فأسلمت فرأيت وجهه قد استبشر " .

أخرج أبو يعلى ، عن حرب بن سريج قال : حدثني رجل من بلعدوية ، قال : حدثني جدي قال : " انطلقت إلى المدينة فنزلت عند الوادي ، فإذا رجلان بينهما عنزة واحدة ، وإذا

المشتري يقول للبائع : أحسن مبايعتي ، قال : فقلت في نفسي هذا الهاشمي الذي قـل أضـل الناس ، أهو هو ؟ قال : فنظرت فإذا رجل حسن الجسم ، عظيم الجبهة ، دقيق الأنف ، دقيـق الحاجبين . وإذا من ثغره نحره إلى سرته مثل الخيط الأسود شعر أسود ، وإذا هو بين طمرين . قال : فدنا منا فقال : السلام عليكم ، فرددنا عليه ، فلم ألبث أن دعا المـشتري فقـال : يـا رسول الله قل له يحسن مبايعتي ، فمد يده وقال أموالكم تملكون ، إني أرجو أن ألقى الله عـز وجل يوم القيامة لا يطلبني أحد منكم بشيء ظلمته في مال ولا في دم وعـرضٍ إلا بحقـه ، رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل الأخذ ، سهل العطاء ، سهل القـضاء ، سـهل التقاضي ثم مضى .

فقلت : والله لأقصن هذا فإنه حسن القول ، فتبعته فقلت : يا محمد فالتفت إلي بجميعه فقال : ما تشاء ؟

قلت : أنت الذي أضللت الناس وأهلكتهم وصددتهم عما كان يعبد آباؤهم .

قال : ذاك الله .

قال : ما تدعو إليه ؟

قال : أدعو عباد الله إلى الله .

قال : فقلت : ما تقول ؟

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وتؤمن بما أنزلـه علـي وتكفـر باللات والعزى وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة .

قال : قلت : وما الزكاة ؟

قال : يرد غنينا على فقيرنا .

قال : قلت : نعم الشيء تدعو إليه .

قال : فلقد كان وما في الأرض أحد يتنفس أبغض إلي منه ، فما برح حتى كان أحب إلي من ولدي ووالدين ومن الناس أجمعين .

قال : فقلت : قد عرفت ، قال : قد عرفت ؟

قلت : نعم .

قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وتؤمن بما أنزل علي ، قال : قلت : نعم يا رسول الله ، إني أرد ماءً عليه كثير من الناس فأدعوهم إلى ما دعوتني إليه فإني أرجو أن يتبعوك . قال : نعم فادعهم ، فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم فمسح رسول الله ρ رأسه " .

وذكر البخاري وأبو داود وأتم ما ذَكَرَا رزين مساجلة جرت بني المسلمين وأبي سفيان بعد موقعة أحد – وقد أصيب المسلمون – فنادى أبو سفيان جماعة من المسلمين وهذا نص الحادثة كما رووها : " فأشرف أبو سفيان (أي على المكان الذي كانوا فيه) فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : (أي الرسول وكان معهم) لا تجيبوه . فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : إن هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا : فلم يملك عمر – رضي الله عنه – نفسه . فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يحزنك . قال أبو سفيان : أُعْلُ هبل . فقال ρ أجيبوه . فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله أعلى وأجل . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال ρ : أجيبوه . قالوا ما نقول ؟ قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم والحرب سجال ، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . قال ρ : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار " أخرجه البخاري وأبو داود إلى قوله " لم تسؤني " وأخرج باقيه رزين .

وعن ابن إسحاق من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : " لما أصاب رسول الله ρ الغنائم يوم حنين – وقسم للمتألفين من قريش (أي حديثو العهد بالإسلام ليمكن الإسلام في قلوبهم) وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار منهم شيء قليل ولا كثير – وجد (أي تغيرت قلوبهم) هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله

رسول الله ρ قومه . فمشى سعد بن عبادة – رضي الله عنه – إلى رسـول لله ρ فقـال : يـا رسول الله ! إن هذا الحي من الأنصار ، قد وجدوا عليك في أنفسهم . فقال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ، ولم يكن فيهم ذلـك شـيء . فقـال رسول الله ρ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي .

قال : فقال رسول الله ρ فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . فإذا اجتمعوا فـأعلمني . فخرج سعد فصرخ فيهم ، فجمعهم في تلك الحظيرة . فجاء رجل من المهـاجرين فـأذن لـه فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم – حتى إذا لم يبق من الأنصار إلا اجتمع له . أتاه فقـال : يـا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم فخرج رسـول الله ρ فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ! ألـم آتكـم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة (أي فقراء) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قـالوا : بلى . ثم قال رسول الله ρ : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ قالوا : وما نقول يا رسـول الله ! وبماذا نجيبك ؟ المنُّ لله ولرسوله . قال : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم ؛ جئتنا طريـداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفاً فآمناك ، ومخذولاً فنصرناك . فقالوا : المنُّ لله ولرسـوله . فقال رسول الله ρ : أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة (أي في شـيء تافـه إذ اللعاعة نبت ناعم لا يعمر طويلاً) من الدنيا ؟ تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتم إلى ما قـسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون – يا معشر الأنصار – أن يذهب الناس إلى رحـالهم بالـشاة والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سـلكوا شـعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً مـن الأنـصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . قال : فبكى القوم حتـى أخـضلوا لحاهم (أي بلوها بدموعهم) وقالوا : رضينا بالله ربّاً ورسوله قسماً ثم انصرف . وتفرقـوا " وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتـب مـن هـذا الوجه وهو صحيح .

وأخرج مالك عن عطاء بن يسار : " أن رجلاً سأل رسول الله ρ فقال : أستأذن علـى أمي ؟ فقال : نعم . فقال الرجل : إني معها في البيت . فقال : استأذن عليهـا . فقـال : إنـي خادمها ؟ فقال رسول الله : استأذن عليها ، أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن عليها " .

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة – رضي الله عنه – : " أن فتى شاباً أتى النبي ρ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه . فقال : أدْنُ فدنا منه قريباً . قال : اجلس فجلس قال ρ : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال ρ : أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله ، يا رسول الله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال ρ أفتحبه لأختك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك . قال ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال ρ : أفتحبه لعمتك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال ρ : أفتحبه لخالتك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداءك . فقال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم ، قال : فوضع يده ρ عليه ثم قال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه قال : فلم يكن – بعد – ذلك الفتى يلتفت إلى شيء " .

ومن نقاشه مع وفد نصارى نجران كما ترويه كتب السيرة في أمر عيسى هذا المقطع :

" قالوا : من أبوه (أي عيسى يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله – تعالى الله– عن ذلك علواً كبيراً –) .

وقد رد القرآن عليهم بقوله : {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[1] .

ورد عليهم رسول الله ρ بما يلي :

قال : ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟

---

[1] آل عمران : 59 .

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلِّم ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذّي كما يغذّى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

ويوم الحديبية وقد حميت قريش للحرب وهو لا يريده قال كلمة أحاطت بجوانب الموضوع الذي يجعل قريشاً لا تريد إلا ما أراد قال :

" يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافــرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة " . تنفرد السالفة : يعني الموت .

* * * * *

هذه نماذج على مناقشاته التي يقيم بها الحجــة علــى ألآخــرين بالبــساطة المقنعــة والفصاحة الآسرة .

وسنرى نماذج على حدة ذكائه الهائل في تصريف الأمور وتدبيرها في الفصل الثــاني من هذا الباب .

أما هنا فنريد أن نتمم ببيان فصاحته التي لا مثيل لها وهي السمة المرافقة التي لا بــد منها في إقامة الحجة ونضرب على ذلك أمثلة من خطبه وكتبه وكلمه الذي كان كله بليغاً .

* * * * *

في حجة الوداع خطب رسول الله ρ في الناس خطبة طويلة ، وكان الذي يبلغها عنــه ربيعة بن أمية ، وهذا جزء منها ترى فيه نماذج الكلم الذي فعل فعله في القلوب بما لم يفعلــه كلام آخر :

" قال رسول الله ρ لربيعة : قل يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أي شــهر هذا ؟ فقال ربيعة . فصاح الناس : الشهر الحرام . فقال رسول الله : قل لهم إن الله قد حــرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا .

ثم قال : قل يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أي بلد هذا ؟ فيقــول ربيعــة فيصيح الناس : البلد الحرام فيقول عليه الصلاة والسلام : قل لهم إن الله حرم عليكم دمــاءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا .

ثم يأمره : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أي يوم هذا ؟ فيقــول لهــم فيصيحون : يوم الحج الأكبر . فيقول قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا " .

ذكره ابن هشام وهو بمعناه عند البخاري ومسلم .

ومن كلمة له عليه الصلاة والسلام : " أمرني ربي بتــسع : خــشية الله فــي الــسر والعلانية وكلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني وأعطي من حرمني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ونظــري عبرة ، وآمر بالمعروف " لرزين ، والجمل الستة الأولى لها طرق وشواهد تحسنها .

* * * * *

ومن وصاياه ρ :

" يا غلام ! احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك – أو قال : أمامــك – تعــرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة . إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله تعــالى ؛ فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم يقدروا على ذلك ، ولــو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم يقدروا على ذلك . جفــت الأقــلام وطويت الصحف ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مــع الكــرب ، وأن مع العسر يسراً ولن يغلب عسر يسرين " . صحيح ، أخرجه أحمد والترمذي مع اختلاف فــي اللفظ .

* * * * *

ومن خطبة طويلة له عليه الصلاة والسلام حفظ منها أبو سعيد الخدري ما يلي :

" إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون ، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء " .

" ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه " .

" ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لواؤه عند استه " .

" ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء والسريع الغضب سريع الفيء ، البطيء الغضب بطيء الفيء ، فتلك بتلك . ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سيء القضاء حسن الطلب ، ومنهم حسن الطلب حسن القضاء ، فتلك بتلك ألا وإن منهم السيء القضاء سيء الطب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطب ، وشرهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسن بشيء من ذلك فليلصق بالأرض " . أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن .

* * * * *

- عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – :

قال : " كنت مع رسول الله ρ في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير . فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . فقال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه . تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان , وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على باب من أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين . ثم تلى : {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ} . إلى قوله

: {جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[1] ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : كف عليك هذا ، وأشار إلى لسانه ، قلت : يا رسول الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم – أو قال : على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم "[2] .

عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال :

" قال رسول الله ρ : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله . فأما الثلاثة الذي يحبهم الله : فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه ، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه ، وقوماً ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا ، فقام يتملقني ويتلو آياتي ، ورجل كان في سرية فلقي العدو فانهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له . وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله : فالشيخ الزاني ، والفقير المختال ، والغني الظلوم "[3] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " قال رسول الله ρ يقول الله – عز وجل – يوم القيامة : يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدني ، فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده . يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمني . قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : إن عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه ، أما علمت لو إنك أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقني . قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إن عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي "[4] .

* * * * *

---

[1] السجدة : 16 ، 17 .

[2] أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وهو صحيح بطرقه .

[3] أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم ورمز لصحته السيوطي .

[4] أخرجه مسلم .

والسر في فصاحته ρ أنه يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ وتحيط كل إحاطة ، وتصل إلى أدق القضايا ، ويتفاوت الناس في الأخذ منها على مقدار ما أوتوا من حكمة وعلم وذكاء وفهم . وقد عبر هو عليه الصلاة والسلام عن سر فصاحته فقال : أوتيت جوامع الكلم . وانظر عبارته هذه ، تر معناها أنه ليعبر عن المعاني العظيمة الكثيرة الكبير بكلمة مختصرة سهلة ، ولكنها لا تدرك معانيها لما أحاطت به ، وهذه قضية يعرفها كل من اطلع على أحاديث عليه الصلاة والسلام ، التي بلغت عشرات الآلاف ، والمحفوظة في كتب الحديث المعتمدة المنقحة الصحيحة . وخذ أي حديث من أحاديثه وأي كلمة من كلامه تجد هذا واضحاً بالشكل الذي لا يلحق به إنسان إلا في نوادر الحالات ، ولكن كلام رسول الله ρ كله من هذا النوع ومن ثم كان أفصح العرب على الإطلاق .

وقد ضرب العقاد أمثلة على هذا الذي قلناه وحللها فأتى بالجيد ، نجتذيء منه بمثال يقول : " ومن أمثلته (أي الكلام الجامع للمعاني الكبار في الكلمات القصار عند رسول الله) علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله ρ : " كما تكونوا يول عليكم " . فأي قاعدة من القواعد الأصيلة في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات ؟ ؟

ينطوي فيها أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل ، أو عذر بالإكراه ، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه .

وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة . فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ، ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوي فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأحرى ألا يغير الوالي قوماً حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

وينطوي فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث .

وينطوي فيها أن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال ، وذلك هو الإبلاغ الذي ينفذ فيه وجهاته كل نفاذ " .

ويختم العقاد كلامه في هذا الموضوع بقوله :

" وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخـــلاق والاجتمـــاع ممـــا لا يتناولـــه الإحصاء ، في هذا المقام . كان محمد ρ فصيح اللغة ، فيصح اللسان ، فصيح الداء ، وكـــان بليغاً مبلغاً على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرســـلين ، بل قدوة المرسلين " .

وحسبك هذه الشهادة من العقاد شيخ أدباء العرب في القرن العشرين .

* * * * *

وبهذا نرجو أن تكون قد اتضحت لك صفة الفطانة عند رسول الله ρ في بيان الحـــق ، وإقامة الحجة فيه ، ونصاعة البيان في عرضه ، وكمال الأداء في إيصاله . وستتضح لك هذه الصفة أكثر في الفصل الثاني ، حيث الكلام عن السياسي الأول ، والمحارب الأول ، والمعلـــم الأول عليه الصلاة والسلام ، ولعل الفصل الثاني سيكون أكثره مـــشيراً إلـــى عظمـــة عبـــده وفطانته ρ فلنقتصر هنا على ما قدمناه .

* * * * *

وبهذا نختم الفصل الأول من هذا الباب وقد رأيت فيه أن رسول الله ρ له من الصفات الأساسية للرسل كمالها وتمامها وأن ذلك دليل على أنه رسول الله حقاً ، خلقه الله على أكمـــل الأحوال وأرفع المقامات ووفقه لأعظم الأعمال ، مما ينوء بحمله كل الرجال مجتمعين . فسار في طريق لم تضطرب بدايته فيه ، ولم تتحول مسيرته عنه . حتى وصل إلـــى نهايتـــه علـــى استقامة من أول الشوط إليها ، كل خطوة بعد التي تليها ، بناء يتكامل يوماً فيوماً حتى تـــم ، لا نقص فيه ولا عوج ، ولا ينقض منه شيء أبداً ، وما كان ذلك ليكون لولا أن الله المحيط علماً بكل شيء هو الذي يسدّد رسوله ρ ويرعاه ويسيّره حتى كان ما كان .

* * *

الفصل الثاني

القُدوَة العليَا

وفي الفصل الأول رأينا أن لرسول الله ρ من الصفات الأساسية للرسل الحظ الأعلى. وسنرى في هذا الفصل أن جوانب شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام متعددة تعدداً يجعله منفرداً عن الرسل بميزات ، إن شاركوه في بعضها فلم يشاركوه في الكل . فشخصية الرسول تمثلت فيها كل جوانب الحياة ، وما كل رسول كان له مثل هذا . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان أباً وما كل رسول كان أباً ، وكان زوجاً وما كل رسول تزوج ، وكان رئيس دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة ، وكان القائد الأعلى لجيش الإسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب . وبعث للإنسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها في كل جوانب حياتها العقدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولم يبعث رسول قط إلى الإنسانية عامة غيره وكان المستشار والقاضي والمربي والمعلم والمهذب والعابد والزاهد والصابر والرحيم ... إلى آخر صفاته – عليه الصلاة والسلام – التي استوعبت كل جوانب الحياة ، فكان بذلك بين الرسل الرسول المفرد العلم الممتاز {تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}[1] وإنما كان ذلك لأن الله جلت حكمته جعل الإسلام المنزل على محمد ρ نظاماً شاملاً لجوانب حياة البشر كلها ، وجعل حياة رسوله نموذجاً لدينه كله في كل جوانبه ، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين ، مرة بالبيان النظري ومرة بالبيان العملي ، وشيء آخر هو أن البشر فيهم الأب والابن والزوج . وفيهم السياسي والاقتصادي ورجل الشورى ، وفيهم المحارب والمسالم ، وفيهم المبتلى والمعافى ، وفيهم الراعي والرعية ، وفيهم العامل والتاجر ، فالحياة البشرية متعددة الجوانب , وكل إنسان يعيش حياة تختلف في بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين ، وقد فرض الله على البشر على اختلاف مستوياتهم ، أن يكون الرسول قدوتهم في كل شيء ، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمواقف هذا التعدد ، لا يكون قدوة لكل البشر في كل شيء .

---

[1] البقرة : 253 .

وقد يعجب إنسان أن تكون حياة رسول الله ρ من الخصب بحيث تستوعب كل جوانب حياة البشر . فتكون قدوة لهم في هذا كله ، ولكنه الواقع الذي تشهد له كل الدراسات النظرية والعلمية .

فمثلاً من الناحية النظرية : ادرس مواقف الصبر عنده فإنك تجدها وقد استوعبت كل موقف يحتاج الناس به الصبر . لقد أقام الله رسوله مقام المخرج من وطنه ، ومقام من مات له أولاد وأولاد وأولاد ، ومن ماتت له زوجة وعم وأبناء عم بعضهم قتلى . ومقام من فشل أصحابه في معركة كان يديرها هو ، ومقام من أوذي واستهزئ به ، ومقام من شمت فيه ومن اتهم في عرض أ؛ب الخلق إليه ، ومقام من مرض وجرح ، ومقام من جاع وعطش وخاف وغير ذلك من المقامات التي يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الإنسان مصيبةً إلا ويرى رسول الله ρ قد أصيب بمثلها ، وكان له موقف مثالي منها ، فيقف مثله إن كان مؤمناً.

ومن الناحية العملية : فإن تاريخ الأمة الإسلامية ما خلا في عصر من عصوره ، من ملايين من أفراد هذه الأمة مختلفي المدارك ، ومختلفي المستويات . ومختلفي الاختصاصات ومختلفي المشارب ، منهم الغني والفقير والقائدة والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم ، كل منهم متمسك بحبل الاقتداء برسول الله في الصغيرة والكبيرة . حتى أنك لتجد النماذج المتباينة من هؤلاء وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله فيما يسير عليه ، وكل ذلك في الواقع ناتج عن الخصب في حياة الرسول التي استوعبت أحوال البشر جميعاً .

والرسول عليه الصلاة والسلام في كل موقف من هذه المواقف ، وفي كل حال من الأحوال ، وفي كل جانب من الجوانب ، كان المثل الأعلى للبشر والقدوة العليا لهم . إذ إليه يرجع الكمال في كل شيء ، ومنه يعرف الكمال في كل شيء ، وهذا هو الجانب الذي سنعرض له في هذا الفصل ليتضح لنا أنه لا كمال لأي إنسان مهما كان في أي حالة . إلا باتباعه والاقتداء به والتأسي به ، وإن الله لم يعط من الكمال لإنسان ما أعطاه محمداً ، ولم يجتمع في إنسان من الكمالات ما اجتمع في شخصه العظيم ، وذلك آية لله على أن هذا الإنسان رسوله ؛ إذ ما كان ليجتمع لإنسان منبت عن الله وكمالاته ، وإحاطة علمه وتوفيقه .

وطبعاً نحن لا نستطيع – وخاصة في مثل هذا الفصل القصير المخصص لهذا البحث – أن نحيط بجوانب شخصية الرسول – عليه الصلاة والسلام – مع الإشارة إلى الكمال عنده في كلٍّ . فذلك شيء يستنفد جهد الباحثين الكثير ولا يحاط به . وإنما سنكتب هنا أربع فقرات

فقط وباختصار . حول أربعة جوانب من حياته عليه الصلاة والسلام ونرى فيها ما قدمناه واضحاً وهو مقصود هذا الفصل .

هذه الفقرات هي :

الفقرة الأولى : الأخلاقي الأول

الفقرة الثانية : رجل الأسرة الأول أباً وزوجاً

الفقرة الثالثة : المعلم والمربي الأول

الفقرة الرابعة : رجل الدولة الأول سياسيّاً وعسكريّاً .

واخترنا هذه الجوانب لأن المعروف عند الناس أن كمال الإنسان في جانب من هذه الجوانب يكون على حساب تفريطه في بقية الجوانب ، وكلامنا في غير المقتدين بالرسل من أتباعهم ، فاجتماع الكمال لرسول الله ρ في هذه الجوانب كلها دليل على صحة ما قلناه . ولنبدأ باستعراض الفقرة الأولى .

* * *

1- الأخلاقي الأول

{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}[1]

إن أبرز سمة في شخصية الرسول ρ المتعددة الجوانب أخلاقياته التي لا مثيل لهـــا ، فلو أجمعت أنك جمعت كل خلق عظيم في العالم ، وكل تصرف أخلاقي سليم تصرفه في يوم من الأيام إنسان ، فإن ما تجده في حياة رسول الله ρ يربو على هذا كله مجتمعاً . مع انعـــدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته عليه الصلاة والسلام ، مما لا تستطيع معه أن تجـــد فـــي حياته كلها تصرفاً يمكن أن ترى أعظم منه . وكان أصحابه – رضي الله عنهم – يعرفون منه هذا ، ويتصرفون على أساسه معه ، فكثيراً ما كانوا يوقفون ناساً مواقف سنّ الأنبياء السابقون فيها سنناً فكان يفعل ما فعلوا ، ويعرف الصحابة ماذا سيفعل ، إذ أنهم يعرفون عنـــه أنـــه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفاً أو مسلكاً .

في الطريق إلى فتح مكة لقي الرسول ρ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبـــد الله بن أبي أمية ، وهما ابن عمه وابن عمته ، وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة ، فـــأعرض عنهما فأشار علي بن أبي طالب على ابن عمه قائلاً : " ائته من قبل وجهه وقل له مـــا قـــال إخوة يوسف : {تَٱللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ}[2] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ρ : {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ}[3] .

فانظر ذلك الذي لا يرضى أن يسبقه أحد في موقف من مواقف مكارم الأخـــلاق . إن أخلاق الرسول ρ هي ميزة شخصيته الكبرى ، حتى أنه ليحدد مهمة رسالته بقولـــه : " إنمـــا بعثت لأتمم صالح الأخلاق "[4] والواقع أنك لا تستطيع أن تأخذ صـــورة كاملـــة عـــن أخـــلاق الرسول ρ ، إلا إذا فهمت القرآن والسنة ، وكل ما له علاقة بسيرة رسول الله ρ . إذ أخلاقـــه كما وصفته سيدتنا عائشة – رضي الله عنها – هي القرآن ، إذ قالت : " كان خلقه القرآن "[5] .

---

[1] القلم : 4 .

[2] يوسف : 91 .

[3] يوسف : 92 .

[4] أخرجه ابن سعد والبخاري والحاكم والبيهقي ورمز لصحته السيوطي .

[5] أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود .

وقد رأيت بشكل عملي في بحث الأمانة من الفصل الأول أن كل آية من القرآن كـــان ρ المظهر العملي لها ، إذ استعرضنا هناك عدداً من الآيات والأمثلة التطبيقية على ذلك .

إلا أننا نريد بهذا البحث أن نأتيك ببعض أمهات الأخلاق ومظاهرها عند رسول الله ρ بالشكل الذي لا يرقى إليه أحد سابقاً أو لاحقاً .

ونختار من هذه الأخلاق أخلاق الصبر والرحمة والحلم والكرم والتواضع . فهذه مـــن أمهات الأخلاق التي تحمد إذا كانت في محلها ، وسنرى أن رسول الله ρ يضع كل شيء فـــي محله فإذا كان العفو غير محمود فلا عفو ، وإذا كانت الرحمة غير محمـــودة فـــلا رحمـــة ، وهكذا ، فرسول الله ρ هو الميزان الذي توزن بتصرفاته أخلاق البشر ويتحدد بهذه التصرفات حدود كل خلق فلا يطغى خلق على خلق .

أولاً : نماذج من صبره ρ :

1- مر معك في مبحث التبليغ صور من صـــبره ρ علـــى الاضـــطهاد والتعـــذيب ، والإيذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والإهانات المتوالية ، وكل هذا تحمله بصبر . فإذا ما علمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاماً ، أدركنا مقدار الصبر الذي تمتع بـــه رسول الله ρ . وليس هذا فحسب بل كل ما أصيب به هو أصيب به أتباعه والأذى الذي لحـــق به لحق بأقاربه وهو الشريف ، وكل هذا يجرح نفس الإنسان ، ويحطم أعصابه ، ومـــع ذلـــك فما أبه ρ لهذا كله ، بل تحمّله وتحمّل معه الاتهامات الباطلـــة بـــالجنون والكـــذب والـــسحر ...,....

والذي جرّب هذه القضايا كلها يعلم كم تحتاج إلى طاقة من الصبر لا تنفد . فـــإذا مـــا علمنا أن رسول الله ρ تحمل هذا كله ، وهو يقف من الناس موقـــف الهجـــوم علـــى باطلهـــا وموقف الدعوة إلى ما عنده . نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته .

2- فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر يمتحن فيه الصبر وهو موطن القتال ، رأينا كـــذلك عجباً . ولعل أبرز مواقفه الصابرة في الحرب والتي تتحطم فيها أقوى الأعصاب موقفاه يـــوم أحد ويوم الخندق ، يوم الهزيمة الذي بقي فيه ثابتاً ، ويوم الحصار الذي أخذ بالأنفاس وبقـــي فيه كله أمل وهاك وصفاً مختصراً لموقفه الصابر في اليومين .

روى مسلم : " أن رسول الله ρ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش " .

" واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي ρ فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفجر منه الدم ، وشاع أن محمداً قتل ، فتفرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل ، واختلط على الصحابة أحوالهم فما يدرون ما يفعلون " .

" وكان رسول الله ρ ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبي وقاص يقول : ارم فداك أبي وأمي ، وكان أبو طلحة الأنصاري رامياً ماهراً في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله ρ فكان إذا رفع رسول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه " .

في هذا اليوم الشديد إذ فرّ المسلمون فلم يبق مع رسول الله ρ إلا هذا العدد القليل ، بقي رسول الله ρ صابراً يدير المعركة التي طرفاها ثلاثة آلاف مقابل أفراد . ولم يهزم ولكنه أصر مع من معه على الاستبسال ، حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم .

فأي صبر هذا الصبر ؟

ولا ننسى أن نذكر أن شائعة قتل محمد ρ كانت قد راجت والرسول ρ نفسه منع مَنْ عرفه مِن تكذيبها ؛ حتى يثبط قريشاً عن المضي في المعركة ، فإذن هو صبر في أحرج المواقف لا يخرج صاحبه عن كامل التدبير .

ويوم الخندق وقد حوصرت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذي لم يعرف المسلمون فيه نوماً ولا راحة ، والأحزاب تمطرهم بوابل من الهجمات على الأمكنة الضعيفة ، وتحركات المسلمين متلاحقة من مكان إلى مكان خشية المباغتة وقد طالت الفترة وتعب المسلمون ، وكانوا كما وصفهم الله {إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلأَبْصَارُ

وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَاْ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً}[1]
في هذا الوضع المخيف يأتي الخبر الصاعق أن قريظة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح المسلمون جميعاً معرضين لقتل الأنفس وسبي الذرية ، فأي صبر يحتاجه القائد في تلك اللحظات في ذلك الموقف الذي يحطم الأعصاب .

لقد تقنع رسول الله ρ بثوبه واضطجع ومكث طويلاً حتى إذا هضم المسلمون خطورة موقفهم قام يبث الأمل ويشد العزائم ويرفع المعنويات وهو يقول : " أبشروا بفتح الله ونصره " .

إن خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذي يربو على الصبر .

3- فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التي يمتحن فيها الصبر ، وهو موطن موت الأولاد والأقارب والأصحاب وقلب رسول الله ρ هو القلب الرحيم ، نجد الصبر الذي يفيض العبرة بلا شكوى ولا ضجر ، وهذه أمثلة من مواقفه في هذه المواطن :

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال :

رأيت إبراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ρ فدمعت عينا رسول الله ρ فقال رسول الله : " تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون " .

وأخرج ابن سعد أيضاً عن مكحول قال :

دخل رسول الله ρ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – وإبراهيم يجود بنفسه فلما مات دمعت عينا رسول الله ρ فقال له عبد الرحمن : أي رسول الله ! هذا الذي تنهى الناس عنه متى يرك تبكي يبكوا ، قال : فلما شريت عنه عبرته قال : " إنما هذا رحم وإن من لا يرحم لا يُرحم ، إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه " .

---

[1] الأحزاب : 10 ، 11 .

ثم قال : " لولا أنه وعد جامع وسبيل مئتاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجـــداً غير هذا وإنا عليه لمحزونون . تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب ، وفـــضل رضاعه في الجنة " .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال :

" لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه ، لا تدري ما صنع ، فلقيت عليّاً والزبيـــر فقال علي للزبير : اذكر لأمك ، وقال الزبير لعلي : لا ، اذكر أنت لعمتك ، قالت : مـــا فعـــل حمزة ؟ فأرياها أنهما لا يدريان فجاءت النبي ρ فقال : إني أخاف على عقلها فوضع يده على صدرها ودعا فاسترجعت وبكت ، ثم جاء فقام عليه وقد مثّل به ، فقال : لولا جـــزع النـــساء لتركته حتى يحصل من حواصل الطير وبطون السباع ، ثم أمر بالقتلى فجعل يصلي علـــيهم ، فيضع تسعة وحمزة فيكبر عليهم تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ، ثم يؤتوا بتـــسعة فيكبـــر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ، ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات حتى فرغ منهم " .

وأخرج الطيالسي وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو عوانة وابن حبان عـــن أسامة ابن زيد – رضي الله عنه – قال :

" كنا عند النبي ρ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيّاً لها في المـــوت . فقال للرسول : ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مـــسمى فلتصبر ولتحتسب . فعاد الرسول فقال : إنها قد أقسمت لتأتينها ، فقام النبي ρ وقام معه ســـعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم فرفع إلى رسول الله ρ الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شن ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا يا رســـول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده إنما يرحم الله من عباده الرحماء " .

4- فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التي يمتحن بها الصبر وهـــو الـــصبر على المرض والجوع والفقر . نجد دائماً القمة التي لا يرقى إليها الراقون .

أخرج أحمد والطبراني وهذه رواية الطبراني :

" أن فاطمة ناولت النبي ρ كسرة من خبز الشعير ، فقال : ما هذه ؟ قالــت : قــرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتينك بهذه الكسرة ، فقال لها : هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام " .

وأخرج ابن سعد والبيهقي عن ابن البحير :

" أصاب النبي ρ جوع يوماً فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ، ثــم قــال : ألا ربّ نفسٍ طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ، ألا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهــين , ألا ربّ مهين لنفسه وهو لها مكرم " وحسّنه السيوطي .

وأخرج مسلم والترمذي عن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – قال :

" ألستم في طعام وشراب ما شئتم ؟ لقد رأيت نبيكم ρ وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه (الدقل : أردأ التمر) " وفي رواية لمسلم عن النعمان – رضي الله عنه – قال : ذكر عمر – رضي الله عنه – ما أصاب الناس من الدنيا ، فقال : لقد رأيت رسول الله ρ يظل اليوم يلتــوي ما يجد من الدقل ما يملأ بطنه " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية والخطيب وابن عساكر ، وابن النجار عن أبي هريــرة – رضي الله عنه – قال :

" دخلت على النبي ρ وهو يصلي جالساً فقلت : يا رسول الله ! أراك تصلي جالساً فما أصابك ؟ قال : الجوع يا أبا هريرة . فبكيت . فقال : لا تبك يا أبا هريرة ، فإن شدة الحــساب يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا " .

وأخرج الطبراني وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال :

" خرج أبو بكر –رضي الله عنه– بالهاجرة إلى المسجد ، فسمع عمر رضي الله عنــه فقال : يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : ما أخرجني إلا ما أجد من حاق الجوع (أي شدة الجوع) قال : وأنا –والله– ما أخرجني غيره . فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رســول

الله ρ فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ قالا : والله ما أخرجنا إلا ما نجد في بطوننا من حـــاق الجوع . قال : وأنا – والذي نفسي بيده – ما أخرجني غيره . فقوما فانطلقوا " .

وأخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن أبي سعيد –رضي الله عنه–

" أنه دخل على رسول الله ρ وهو موعوك[1] ، عليه قطيفة فوضع يده فـــوق القطيفـــة فقال : ما أشد حماك يا رسول الله . قال : إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر . ثم قال : يا رسول الله ! من أشد الناس بلاء ؟ قال: الأنبياء . قال : ثم من ؟ قال : العلماء . قـــال : ثم من ؟ قال : الصالحون " .

وخرج البيهقي عن أبي عبيدة بن حذيفة – رضي الله عنه – عـــن عمتـــه فاطمـــة – رضي الله عنها – قالت :

" أتينا رسول الله ρ في نساء نعوده وقد حُمَّ ، فأمر بسِقاء فعلـــق علـــى شـــجرة ثـــم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحمى فقلت : يا رســـول الله ، لـــو دعوت الله أن يكشف عنك ، فقال : إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " .

فأنت ترى من هذه الأمثلة أنه ما من موطن من مواطن امتحان الصبر إلا امتحن فيـــه صبر رسول الله ρ وفي كل مرة نجد عنده الصبر الذي لا يخالطه هلع ، إنها أخلاق النبوة في أعلى كمالات البشر .

* * *

ثانياً : نماذج من رحمته ρ :

1– والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر ، تقسو قلوبهم وتجف دمـــوعهم ، ونادراً ما تجد الموغل في ذلك متصفاً بصفة الرحمة ، ولكن رسول الله ρ ومن اقتـــدى بـــه

[1] موعوك : محموم .

ليسوا من هذا الطراز ، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجـــدت ، ولكنهـــا صفات لا تطغى على خلق الرحمة أبداً ، بل كما أن هذه الصفات في كمالهـــا فكـــذلك خلـــق الرحمة عنده ρ في كماله ، وقد رأيته في فقرة سابقة كيف تفيض عينــــه ρ فـــي كثيـــر مـــن المواقف رحمة وشفقة ، وهو الصابر الذي ما عرف أكثر صبراً منه ، والمقاتل الذي ما عرف أكثر حنكة منه ، يفيض قلبه بالرحمة فيبكي وتدمع عيناه ، وقد يسمع صوت بكائه ؛ إنها نفـــس تجيش جيشاً ببحار الرحمة .

2- وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله ρ لا تفارقه رحمتـــه ، يُؤذى ويُضرب ويُضطهد فيقول : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " ويوم فتح مكـــة وقـــد فعلت به ما فعلت ، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال : " لما كان يوم الفتح ورســـول الله ρ بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية وإلى أبي سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام قـــال عمر : فقلت :

لقد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله ρ : مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته { لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين } .
قال : عمر فافتضحت حياء من رسول الله ρ كراهية أن يكون بدر مني ، وقد قال لهم رســـول الله ρ ما قال "[1] .

إن المواطن التي تُغلب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو الانتصار تبقـــى صفة الرحمة عند رسول الله ρ في محلها لا تطغى على غيرها ولا يطغى غيرها عليها .

وكانت رحمته تسع الناس جميعاً ويحس بها المستضعفون قبل الأقوياء ، يقول عبد الله بن عمرو : " دخل النبي ρ المسجد فجلس إلى الفقراء وبشرهم بالجنة وبـــدا علـــى وجـــوههم البشر فحزنت لأنني لم أكن منهم "[2] .

وجاء في صحيح البخاري : " أن النبي ρ ذكر ذات يوم رجلاً أسود فقال : مـــا فعـــل ذلك الإنسان ؟ قالوا : مات يا رسول الله ، قال : أفلا آذنتموني ؟ فقالوا : إنه كذا وكذا قـــصته فحقروا من شأنه ، قال : دلوني على قبره ، فأتى قبره فصلى عليه " .

---

[1] أخرجه ابن عساكر ، كذا في الكنز ج5 ص292 .

[2] أخرجه النسائي وأصله عند مسلم .

وقال معاوية بن سويد : " كنا بني مقرن على عهد رسول الله ρ لـيس لنـا خـادم إلا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ρ فقال : اعتقوها ، فقيل : ليس لهم خـادم غيرهـا ، فقال : فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها "[1] .

وأخرج الشيخان عن أنس –رضي الله عنه– أن نبي الله ρ قال : " إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من وجد أمه من بكائه ".

وبلغت رحمته الحيوان فكان أرحم الخلق به .

قال عبد الرحمن بن عبد الله : " كنا مع رسول الله في سفر فرأينا حمرة (طائر مثـل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول ρ قال : من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها "[2] .

ونهى أن يتخذ الحيوان هدفاً يرمى بالنبال ليتعلم فيه الرمي ، وأمر من يريد الـذبح أن يحد شفرته ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان ، إن رحمته بلغت كل شيء .

ولكنها الرحمة التي لا تجاوز حدها :

لما أسر أبا عزة الشاعر أو مرة استعطفه (أبو عزة) حتى أطلق سراحه على شـرط ألا يقف بعد اليوم ضده ، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله ρ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله ρ يقول : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ويـأمر بقتله . وهذا الذي سنه رسول الله ρ في هذه الحالة هو الذي أخذ به القانون الدولي في القـرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذي يطلق سراحه بشرط عدم الدخول في المعركة ضـد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل .

---

[1] أخرجه مسلم .

[2] أخرجه أبو داود وإسناد حسن .

إنها الرحمة التي تفيض حتى تكاد تقتل صاحبها أسى لما يرى من انـصراف الخلـق عن طريق الجنة إلى طريق النار . حتى يعاتب الله – عز وجل – صاحبَها : { فلعلـك بـاخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً }[1] .

إنها رحمة النبوة وإنها صفاتها .

*   *   *

ثالثاً : نماذج من حلمه ρ :

1– وله – صلى الله عليه وآله وسلم – من الحلم – كما له من كل خلـق – كمالـه . يغضب للحق إذا انتهكت حرماته وإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتى يهدم الباطل وينتهـي ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب ، أو مسيء إلى رسول الله ρ نفسه يمكن إصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن . تجد حلمه دائماً عجيباً يفوق الحـد الذي يتصوره الإنسان ، خاصة وأن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والإرهاب .

إذ لا يشك أحد أن رسول الله ρ لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلى تنفيذ أمره . بـل إن بعضهم لا يحتاجون إلى الأمر بقدر ما يحتاجون إلى الإذن . فلو أذن رسول الله ρ لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم . ولكن الرسول الحليم ρ كان يتحمل ويحلم حتى إنك لتراه الحلم مجسماً .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال :

" بينما نحن عند رسول الله ρ وهو يقسم قسماً إذا أتاه ذو الخويصرة – رجل من بنـي تميم – فقال : يا رسول الله ! اعدل ، فقال رسول الله ρ : ويلك من يعدل إن لم أعـدل ! لقـد خبت وخسرت ! إذا لم أعدل فمن يعدل ، فقال عمر بن الخطاب – رضـي الله عنـه – : يـا رسول الله ! ائذن لي فيه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ρ : دعه ... "

---

[1] الكهف : 5 .

ويوم حنين إذ قسم رسول الله ρ ما قسم ، قال رجل – كما يروي البخاري – : " والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فقلت : (أي عبد الله) : والله لأخبرن رسول الله ρ فأتيته فأخبرته فقال : من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر " .

وروى أحمد عن عائشة قالت : " ما ضرب رسول الله بيده خادماً له قط ، ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم . ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتي إليه حتى تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله " .

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك : " أن امرأة أتت رسول الله بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله فسألها عن ذلك قالت : أردت لأقتلك ، فقال : ما كان الله ليسلطك علي ، أو قال : على ذلك . قالوا : ألا تقتلها ؟ قال : لا ... "

وأخرج ابن جرير عن أنس – رضي الله عنه – قال : " دخل رسول الله ρ يوماً المسجد وعليه برد نجراني غليظ الصنعة ، فأتاه أعرابي من خلفه فأخذ بجانب ردائه حتى أثرت الصنعة في صفح عنق رسول الله ρ فقال : يا محمد ! أعطنا من مال الله الذي عندك ، فالتفت رسول الله فتبسم فقال : مروا له " .

وأخرج عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " كنا نقعد مع رسول الله ρ بالغدوات في المسجد ، فإذا قام إلى بيته لم نزل قياماً حتى يدخل بيته ، فقام يوماً فما بلغ وسط المجلس أدركه أعرابي فقال : يا محمد ! احملني على بعيرين فإنك لا تحملني من مالك ولا مال أبيك ، وجذب بردائه حتى أدركه فاحمرت رقبته فقال رسول الله ρ : لا وأستغفر الله لا أحملك حتى تقيدني قالها ثلاث مرات ثم دعا رجلاً فقال له : احمله على بعيرين . على بعير شعير وعلى بعير تمر " ورواه أحمد .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال :

" كانت امرأة ترافث الرجال (أي تكلمهم كلاماً بذيئاً) وكانت بذيئة فمرت بـــالنبي ρ وهو يأكل ثريداً على طربال فقالت : انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد .

فقال النبي : وأي عبد أعبد مني ؟

قالت : ويأكل ولا يطعمني .

قال : فكلي .

قالت : ناولني بيدك ، فناولنها .

فقالت : أطعمني مما في فيك ، فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتى ماتت " .

وأخرج أبو نعيم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " كـــان رســـول الله ρ مـــع أصحابه فصنعت له طعاماً وصنعت له حفصة طعاماً فسبقتني حفصة فقلت للجارية : انطلقـــي فاكفئي قصعتها ، فأهوت أن تضعها بين يدي النبي فكفأتها فانكفأت القصعة فانتشر الطعـــام ، فجمعها النبي وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا . ثم بعثت بقصعتي فدفعها النبـــي إلـــى حفصة فقال : خذوا ظرفاً مكان ظرفكم وكلوا ما فيها ، فما رأيته في وجه رسول الله ρ " .

وحلمه ρ أوسع من أن يحاط بجوانبه ، ولولا هذا الحلم ما استطاع أن يـــسوس شـــعباً كالعرب يأنف أن يطيع أو ينصاع أو يجرح ، وصدق الله العظـــيم إذ يقـــول : {وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ}[1]

* * *

رابعاً : نماذج من كرمه ρ :

إن الكرم في الإسلام طريق من طرق الجنة ، وإن البخل طريق النار . ولـــذلك فقـــد كان كرم رسول الله ρ لا يجارى . ولا يبارى . إن الله قد جعل خُمُس الغنائم إليـــه ، وكانـــت حصته – عليه الصلاة والسلام – من هذا الخمس الخمس . وقد غنم المسلمون غنـــائم كثيـــرة

---

[1] آل عمران : 159 .

ولو أراد رسول الله ρ أن يجمع مالاً لكان أكثر الخلق مالاً . إن خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان مائة من الجمال وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألفاً ومائتين من السبي . هذا الخمس كان لرسول الله ρ وقرباه منه خمساه فكم نتصور غنى الرسول ρ لو أراد أن يجمع مالاً من غزواته كلها من خيبر الغنية وقريظة وبني النضير ...

فإذا علمنا أن مقدار حق رسول الله ρ المعطى له من هذه الأموال مثل هذا وإذا عرفنا أنه كان بالإمكان استثماره وتنميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله ρ مات ودرعه مرهونة عند يهودي وأنه أمر أن يوزع ميراثه إن كان على المسلمين ، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شيء ، وأنه ما كان يلبس إلا الخشن ولا ينام إلا على القليل ، وأنه يجوع الأيام وأنه كان يخشى إذا بقي في بيته مال فلم يوزعه على الناس ، إذا عرفت هذا أدركت أي كرم كان عنده ρ وأي نفس طاهرة هذه النفس وأدركت أنها النبوة . وأن غير النبوة لا تجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة . إلا إذا كانت نفساً متأسية برسول الله ρ . وقد شهد على ذلك أقوى الناس شركاً وعناداً وبغضاً له ρ فأسلموا نتيجة ذلك ولعل في ما ذكرناه غنية عن ضرب الأمثلة ولكن في المزيد خيراً .

أخرج الشيخان عن ابن عبسا – رضي الله عنه – قال :

" كان رسول الله ρ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام . وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال : فلرسول الله ρ أجود بالخير من الريح المرسلة " .

وأخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال : " ما سئل رسول الله ρ شيئاً قط فقال : لا .. " .

وأخرج الطبراني عن الربيع بنت معوذ بن عفراء – رضي الله عنها – قالت : " بعثني معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه آخر من قثاء زغب إلى رسول الله ρ وكان النبي ρ ، يحب القثاء ، وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملأ يده منها فأعطانيها " .

وفي رواية : " فأعطاني ملء كفي حلياً أو ذهباً " ورواه أحمد بنحوه وزاد : " فقال : تحلي بهذا " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أم سنبلة – رضي الله عنها – " أنها أتــت النبــي ρ بهدية فأبى أزواجه أن يقبلنها ، فقلن : إنا لا نأخذ ، فأمرهن النبي ρ فأخذنها ثم أقطعها واديــاً .. "

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : " جاءت امرأة إلى رسول الله ببردة فقالــت : يا رسول الله جئتك أكسوك هذه ، فأخذها رسول الله وكان محتاجاً إليها فلبسها ، فرآها عليــه رجل من أصحابه ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه اكسنيها فقال : نعم . فلما قــام رســول الله لامه أصحابه وقالوا : ما أحسنت حين رأيت رسول الله أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياهــا وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه . قال : والله ما حملني على ذلك إلا رجوت بركتها حــين لبسها رسول الله لعلي أكفن فيها " .

وأخرج أحمد عن أنس : " أن رسول الله لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه ، قال : فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين ما شاء الصدقة ، قال : فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ! أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء ما يخشى الفاقة " .

وزاد في رواية : " فإن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ما يريد إلا الدنيا فما يمــسي حتى يكون دينه أحب إليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها " .

وأخرج ابن عساكر في قصة إسلام صفوان بن أمية عن عبد الله بن الزبير ما يلي :

" وخرج رسول الله قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليــه يــستعيره سلاحه فأعار سلاحه مائة درع بأداتها . فقال صفوان : طوعاً أو كرهاً . فقال رسول الله ρ : عارية رادة فأعاره . فأمر رسول الله ρ فحملها إلى حنين فشهد حنيناً والطائف ثم رجع رسول الله ρ إلى الجعرانة فبينما رسول الله يسير في الغنائم ينظر إليها – ومعه صفوان ابــن أميــة فجعل صفوان بن أمية ينظر إلى شعب ملاء نعماً وشاء ورعاء فأدام النظر إليه ورسول الله ρ يرمقه فقال : أبا وهب يعجبك هذا الشعب . قال : نعم . قال : هو لك وما فيه .

فقال صفوان عند ذلك : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأسلم مكانه " .

هذه نماذج من الكرم تضيع بجانبها كل قصص الكرم المعروفة المشهورة عند الناس . كرم يجعل صاحبه يعيش حياة الجهد والمشقة والفاقة ، حياة لا يطيقها أحد غيره هو وعيالـــه ، مع هذا الملك العريض الواسع ، والسلطان الكبير والواردات الكثيرة ، وزيادة على ذلك أنه لو أراد من أموال المسلمين شيئاً لخاصة نفسه لكان المسلمون في ذلك كراماً . وله الحق في ذلك أليس هو مدبر شؤونهم ومعلمهم ، ولكن هذا كله لم يحدث ، إنه كرم في النفس يمنع صـــاحبه عن التطلع إلى أموال الآخرين ، وكرم في النفس لا يقوم معه من ملك صاحبه شـــيء . إنهـــا أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة سليلة إبراهيم عليه السلام .

* * *

خامساً : نماذج من تواضعه وتياسره ρ :

ننقل هنا ما كتبه صاحب بطل الأبطال تحت هذا العنوان مكتفين به في هذا الباب مـــع حذف بعض جمل المقال يقول :

" صفة بينة لبطل الأبطال ρ كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة في طبعـــه الكريم تلك هي : التياسر والتواضع ، فيهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الإنسان يؤتاهـــا من صميم نفسه ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة ، كان محمـــد التياســـر نفسه يتمثل في الرجل الكامل ، وينبعث من أعماق قلبه ، فيبدد ما يتجمع حوله مـــن زخـــرف السيادة والملك وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يخدع به الناس من قول أو فعـــل ، كـــان محمد قريباً سهلاً هيناً يلقى أبعد الناس وأقربهم وأصحابه وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافراً ، فكانت أعماله تصدر طبيعية كل منها يدل على خلقه كما تدل الصورة على صاحبها واسمعوا إلى عدي بن حاتم ..

يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكاً في المدينة :

" دخلت على محمد وهو في المسجد فسلمت عليه فقال ك من الرجل ؟

فقلت : عدي بن حاتم ، فقام وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بي إليــه إذ لقيتــه امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلاً تكلمه في حاجتها ، قال فقلت : والله ما هذا بملك . قال : ثم مضى بي رسول الله حتى إذا دخل بي إلى بيته تناول وسادة مــن أدم محــشوة ليفــاً فقذفها إلي فقال : اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقــال : بــل أنــت . فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض ، قال : قلت : في نفسي : والله ما هــذا بــأمر ملك "[1] هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها ، يأتيه عدي وقد وقع في بعض أهله قبل ذلك أســرى لجيوشه يأتيه مغلوباً فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض ..

ثم انظروا إليه وقد مات ابنه إبراهيم ، فكسفت الشمس فقال الناس : " كسفت الــشمس لموت إبراهيم . فيقوم في المسجد : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكــسفان لمــوت أحد ولا حياته "[2] .

هذه هي النفس البريئة التي تعش الحق للحق . وتتعالى في تواضع عن استغلال وهــم من الأوهام .

انظروا كذلك كيف يستأذن على أحد أصحابه وكيف ينصرف ؟

يقول قيس بن سعد :

زارنا رسول الله ρ في منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد أبي رداً خفيــاً ، فقلت لأبي : ألا تأذن لرسول الله ، فقال : زده حتى يكثر علينا من السلام فقــال ρ : الــسلام عليكم ورحمة الله ، ثم رجع فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله ! إني كنت أســمع تــسليمك وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام ، فانصرف معه النبي ، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثــم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول : اللهــم اجعــل صــلواتك ورحمتك على آل سعد .

---

[1] ذكرها ابن هشام وأصل القصة عند الترمذي والبخاري .

[2] أخرجه البخاري ومسلم والنسائي .

فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً ، فقال سعد : يا قيس اصحب رسـول الله ، فصحبته فقال : اركب معي ، فأبيت فقال : إما أن تركب وإما أن تنصرف " .

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبارة المدينة تمر في غير حفـل ولا ظهور . يذهب إليه ماشياً ، ويعود على حمار يريد أن يردف عليـه رفيقـه . تلـك الـسجية الظاهرة لم تحل دون أن يكون محمد مطاعاً وطاعته قربة . فإن يحسب النـاس أن مظـاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال في تاريخ الدعوة الإسلامية (بل في كل تاريخ) ولم تكن دعوتـه قيساً إلى الركوب معه على الحمار أمراً غريباً ، بل كانت هذه عادته يـردف علـى حمـاره وبلغته وناقته ويعاقب مع رفاقه (المعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثاني أخرى) قال ابن عباس : إن النبي ρ لما قدم مكة استقبله أغيلمة بني عبد المطلب فحمل واحداً بين يديه وآخـر خلفه . وقال معاذ : كنت ردف رسول الله على حمار يقال له عفير ، وجاء إليه رجـل وهـو يمشي فقال : اركب ، وتأخر على حماره ، فقال محمد ρ : أنت أحق بصدر دابتك مني إلا أن تجعله لي . فقال الرجل : فإني جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف في الـسير ، فيزجي الضعيف (أي يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف ، ويدعو لهم .

كان مرة في سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاماً فقسم العمل بينهم ، فقـام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى ، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقـه . ولمـا وقف عليه أعرابي يرتجف خشية ، ذَكَّرَه أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . وخـرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ...

وكان محمد يكره الإطراء والألقاب : انطلق إليه وفد بني عامر ، فلما كانوا عنده قالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله ، فقالوا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طوْلاً ، فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان .

كان في تياسره جم التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بكله إلـى محدثه صغيراً كان أو كبيراً ، ويكون آخر من يسحب يده إذا صـافح ، وإذا تـصدق وضـع الصدقة في يد المسكين ، وإذا أقبل جلس حين ينتهي المجلس بأصحابه ، لم يكن يـأنف مـن عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، فكان يذهب إلى السوق ويحمل بـضاعته

ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يستكبر عن عمل الأجير والفاعل سواء كان في بناء مسجد المدينة أو في الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعاً في ملبسه وسكنه ، يلبس كعامة من حوله ويسكن ، وقد واتته الدولة والسلطان في صف من حجرات واطئة مبنية باللبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده ، ويخدم ونفسه ويعقل بعيره ، ويأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف والبائس .

كل هذا التواضع والتياسر الصادق من نفسه الطاهرة ، والذي هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيبته ولا محبته ، وقد قيل في وصفه : من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه . فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل ، لم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيراً ما بين لأصحابه كيف يتصرفون في حضرته وفي خطابه .

يقول .. وليم موير ... في وصف تواضعه وتياسره : " كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والإيثار والجود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله ، فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأناً ، ولا هدية مهما صغرت ، وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه بإقباله وإن كان حقيراً . وكان إذا لقي من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره . وكان مع المصاب والحزين شريكاً شديد العطف حسن المواساة وكان في أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير في راحة من حوله وهناءتهم " .

ولسنا في تاريخ محمد بحاجة على أحد ، فإن مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله وضوح حياته وجلاؤها من جميع نواحيها . وإنما سقنا عبارة " موير " هنا لشعورنا أنها صادرة عن إعجاب صادق . ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها ، لكان اليوم حياً بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التي طبعها على الوجوه بعمله وقوله لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها الطلاء ولا يحجبها رياء ولا ترى إلا على حالة واحدة في الليل والنهار وفي السر والعلانية وفي الشدة والرخاء وفي الضعف والقوة ، وفي السوق وهو في شبابه ، وفي الشيخوخة وهو على عرش النبوة والملك .

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها ، هي النفس التي اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية إلى الناس محببة إليهم في كل أطوار حياته . كان بطل الأبطال ρ المثل الأعلى الذي نحن اليوم أحوج ما نكون إليه في نطاق الأخوة الإسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أو حسب أو نسب وإنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي والناس من آدم وآدم من تراب "[1] اهـ.

وأخيراً وبعد أن ضربنا لك أمثلة على خمس من أمهات أخلاق رسول الله ρ وضح بما لا يقبل الشك أن العالم لم يعرف ارتفاعاً في الأخلاق في كلياتها وجزئياتها وأبعادها وشمولها كله كما عرفه في رسول الله ρ وكما شهد بذلك القرآن العظيم . وأن منتهى آمال الأخلاقيين أن يقلدوه في خلق واحد من أخلاقه وهم لا يرتقون بهذا الخلق إلا إلى بعض ما عنده ρ . وإن الناس جميعاً بكل ما أوتوا من أخلاق لو جمعت أخلاقهم الحميدة فإنهم لا يبلغون أن يحيطوا إلا بالأقل مما كان (عليه الصلاة والسلام) . هذا مع أن الناس لا تخلص أخلاقيتهم مما يعابون عليه بحق . أما رسول الله ρ فكان الأخلاق كلها محضاً . ليس فيها ما يخالط مما يلام عليه الإنسان ، إلا إذا كان اللائم أعمى البصيرة ، يرى الخير شراً والشر خيراً ، أو حاسداً أو متكبراً أعماه الحسد والكيد عن رؤية الحقيقة التي لا تغيب عن أحد . وإن أحد عرف الرسول ρ في زمانه من عدو أو صديق إلا وأسلم في ضميره أن الخلق المحمدي لا يرقى إليه مطعن ، وقد مر معك كثير من شهادة الأعداء وهم أعداء بذلك . وقديماً قال أحد آباء زوجاته المشركين وقد بلغته خطبته لبنته ، " هو الفحل لا يجدع أنفه " . وقال عكرمة بن أبي جهل بعد حربه الطويلة لرسول الله هو وأبوه في لحظة إسلامه :

" أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله وأنت أبر الناس وأصدق الناس وأوفى الناس ، قال عكرمة : أقول ذلك وإني لمطأطيء رأسي استحياء منه ... "

* * *

---

[1] بطل الأبطال ص 32 ، 33 .

2- رجل الأسرة الأول : أباً وزوجاً

(أ)

التعريف بأزواجه عليه الصلاة والسلام :

قال ابن هشام : وكُنَّ تسعاً : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وسودة بنت زمعة ابن قيس ، وزينب بنت جحش بن رئاب ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، فيما حدثني غير واحد من أهل العلم .

وكان جميع من تزوج رسول الله ρ ثلاث عشرة . خديجة بنت خويلد وهي أول من تزوج . زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ، ويقال أخوها عمرو بن خويلد ، وأصدقها رسول الله ρ عشرين بكرة فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم ، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم حليف بني عبد الدار ، فولدت له هند بن عمرو بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية . وتزوج رسول الله عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة وهي بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله بكراً غيرها . زوجه إياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم . وتزوج رسول الله سودة بنت زمعة .. زوجه إياها سليط بن عمرو ويقال : أبو حاطب بن عمرو .. وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم ، وكانت قبله عند السكران بن عرمو ..

وتزوج رسول الله زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية زوجه إياها أخوها أبو أحمد ابن جحش وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ففيها أنزل الله تبارك وتعالى {فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا}[1] . وتزوج رسول الله أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند ، زوجه إياها سلمة بن أبي سلمة ابنها وأصدقها رسول الله فراشاً حشوه ليف وقدحاً وصفحة ومجشة (أي رحى) وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله فولدت له سلمة وزينب ورقية .

---

[1] الأحزاب : 50 .

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب ، زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب ، وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي .

وتزوج رسول الله أم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان بن حرب زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة وأصدقها النجاشي عن رسول الله أربع مائة دينار وهو الذي كان خطبها على رسول الله وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش الأسدي .

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية كانت في سبايا المصطلق من خزاعة فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري فكاتبها على نفسها فأتت رسول الله تستعينه في كتابها ، فقال : هل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : أقضي عنك كتابتك وأتزوجك . فقالت : نعم فتزوجها ..

وتزوج رسول الله صفية بنت حيي بن أخطب سباها من خيبر فاصطفاها لنفسه وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم كان سويقاً وتمراً وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث بن حزن .. زوجه إياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها العباس عن رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى .. ويقال إنها التي وهبت نفسها للنبي وذلك أن خطبة النبي انتهت إليها وهي على بعيرها وفقالت : البعير وما عليه لله ولرسوله فأنزل الله تبارك وتعالى {وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أن يَسْتَنكِحَهَا}[1] ...

وتزوج رسول الله زينب بن خزيمة بنت الحارث ... وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم زوجه إياها قبيصة بن عمرو الهلالي وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها .

---

[1] الأحزاب : 50 .

فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسول الله إحدى عشرة فمات قبله منهن اثنتان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة . وتوفي عن تسع قد ذكرناهن في أول هذا الحديث .

واثنتان لم يدخل بهما أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بها بياضاً فمتعها وردها إلى أهلها . وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بكفر فلما قدمت على رسول الله استعاذت من رسول الله فقال رسول الله : منيع عائذ الله ، فردها إلى أهلها ، ويقال : إن التي استعاذت من رسول الله كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان ويقال : إن رسول الله دعاها فقالت : إنا قوم نؤتى ولا نأتي فردها رسول الله إلى أهلها .

القريشيات من أزواج النبي ست : خديجة .. وعائشة .. وحفصة .. وأم حبيبة .. وأم سلمة .. وسودة بنت زمعة .

والعربيات غيرهن ست : زينب بنت جحش .. بن أسد بن خزيمة ، وميمونة بنت الحارث بن هلال بن عامر ... بن صعصعة ... بن قيس بن عيلان ، وزينب بنت خزيمة ... بن هلال بن عامر بن صعصعة ...، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ، ثم المصطلقية ، وأسماء بنت النعمان الكندية ، وعمرة بنت يزيد الكلابية .

ومن غير العربيات : صفية بنت حيي أخطب من بني النضير .

* * *

(ب)

ويقول الكارون : إن هذا يخدش نبوة محمد ρ أن يكون له كل هذا العدد من الزوجات .

ونقول : إن الذين يقولون هذا الكلام أحد ثلاثة : إما إنسان له دين غير الإسلام ، وهذا إما أن يكون دينه يقود بتعدد الزوجات أو لا . أو إنسان لا يؤمن بدين .

أما الإنسان الذي لا يؤمن بدين فهذا لا يرى حرجاً أن يعاشر آلاف النساء عشرة الزوجات ، ولا يرى في ذلك بأساً ولا يتحرج أن يضاجع أي امرأة ولو كانت أخته ، ولو كانت زوجة صاحبه ، وما أكثر ما سمعنا بأمثال هذا عن هؤلاء . فلا محل لكلام هؤلاء ولا يُناقَشون أصلاً ، لأنه ليس لديهم مقاييس يمكن أن تكون معقولة يناقشهم الإنسان عليها .

وأما الذين لهم دين يقول بالتعدد المطلق فهؤلاء كذلك لا نقاش معهم إذ ما أبيح لهم كيف يحرمونه على غيرهم .

وأما الذين لهم دين يقول بعدم جواز التعدد كالنصارى الحاليين فإننا نقول لهم : إما أن عدم التعدد هو شريعة الله فهذا غير صحيح بدليل تاريخ الكنيسة عندكم ، وأما أن زواج الرسول ρ بهذا العدد من النساء يتنافى مع جلال النبوة . فإن الكتب التي بين أيديكم وتؤمنون بها وهي كتب العهد القديم ، تذكر أن من الأنبياء الذين تؤمنون بنبوتهم من تزوج بنساء أكثر بكثير من نساء سيدنا محمد عليه السلام . فلماذا تتناقضون ؟

غير محمد ρ من الأنبياء إذا تزوج أكثر منه فذلك لا يتنافى مع جلال النبوة أما هو فيتنافى ؟

إن هذا عمى عن الحقيقة وتجاهل لها ، فإن فرط الرجولة ليس عيباً في الرجل بل كمال فيه إذا بقيت ضمن الإطار الذي حدده الله .

إن الأنبياء منفذون لأوامر الله لا يخرجون عنها ، فإذا ما صحت نبوة نبي وتصرف ضمن أوامر الله فلا حرج عليه وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قصة زواج النبي ρ من زينب بنت جحش : {مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً}[1] .

* * *

(ج)

---

[1] الأحزاب : 38 .

إن ظاهرة الرسالة ظاهرة نادرة في التاريخ البشري وظهورها بمحمد ρ هو الظهور الأخير ؛ لذلك فقد خص الله رسوله ρ ببعض الأحكام ، وكل ماخص به ρ كان فيه نوع من التكليف أكبر ، ونوع من العبء أكبر ، وحتى هذه القضية قضية تعدد زوجاته ، كان غرمها أكبر من غنمها ، وعبؤها أكبر من سهولتها ، لما يترتب على ذلك من القيام بحقوق هذا العدد الكثير . وسياستهن وتدبير أمورهن من جهد ، مع كثرة أعباء الرسول ρ الأخرى من جهاد وتعليم وتدبير و ...

ولو تأمل الإنسان هذا الموضوع بعمق لوجد أنه دليل مستقل على النبوة والرسالة وذلك لما فيه من الحكم الكثيرة والمصالح المتعددة .

فلقد أحل الله لرسوله ρ أن يتزوج ما شاء بقوله :

{يأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ٱللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ ٱللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ}[1]

ثم أنزل بعد ذلك :

{لاَّ يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ... }[2]

إذن بعد أن تزوج ما تزوج منع من الزواج فلم يتزوج عد وجعل الله زوجاته أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد أن يتزوج منهن بعده ρ فما الحكمة في ذلك كله ؟

أولاً : إن رسول الله ρ تزوج الكبيرة والصغيرة والوسط ، والمرأة في كل طور من أطوارها لها مشاكلها . وسيرة الرسول ρ العملية وأجوبته الدائمة بما يتفق مع كل طور ، ونقل هذا كله إلى الأمة الإسلامية مما تقتضيه مهمة الرسالة التي جعلها الله عز وجل مبينة لكل شيء مما يلزم الإنسان .

---

[1] الأحزاب : 50 .

[2] الأحزاب : 52 .

ثانياً : إن المرأة في الإسلام مكلفة كالرجل ، ولها وضعها الخاص الذي تختلف فيه عن الرجل . ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل ما له علاقة بالمرأة إلى الأمة الإسلامية . بحيث يكون أمهات المؤمنين أسوة النساء في العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن .

ثالثاً : زواج الرسول ρ من هؤلاء النسوة الطاهرات وفيهن القرشية وغير القرشية وفيهن ذات الأصل اليهودي ، وفيهن من كان أبواها مهاجرين ، وفيهن من كان أبواها كافرين وقت زواجه منها ، ومنهن الصغيرة جداً ، ومنهن الكبيرة جداً يجعل المسلم لا يرى حرجاً في الزواج من أي امرأة أحلها الله له ما دامت متوافرة فيها شروط الحل . ولا يرى حرجاً في التعدد وهو كما سنرى في بعض الأحوال ضرورة لا بد منها .

رابعاً : والرسول ρ الذي افترض الله على المسلمين محبته ، قد استل بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لولا هذه الصلاة من القرابة .

خامساً : إن صلة الوصل بين رسول الله ρ ونساء الأمة هن زوجاته في الغالب وكثرة زوجاته يجعل دائرة اتصال المسلمات به ρ أكثر ، ويجعل إيصال الأحكام إلى النساء متيسراً ، فكل واحدة منهن يألفها بعض النساء بجامع القرابة أو السن . ولولا ذلك ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شئون النساء ولولا ذلك ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن رسول الله ρ من طرق زوجاته يتحدثن فيها عن آلاف الأمور كانت تبقى غامضة أو غير معروفة .

سادساً : والإسلام قد أتى بمفاهيم جديدة ومثل كاملة مما له علاقة بالمرأة وكان لا بد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان استيعابها واستمرارها وتأكيدها وهي قلب لمفاهيم سائدة ، وأوضاع فاسدة ، فكان هذا العدد من نساء النبي ρ يحقق هذه الحكمة .

سابعاً : ثم كان هذا الزواج حَلاً لا بد منه في بعض الحالات .

فأم سلمة المخزومية بنت سيد مخزوم المهاجرة إلى الحبـشة وإلـى المدينـة والتـي استشهد زوجها ، وليس لها أحد ، وهي بنت زاد الركب أبي أمية المخزومي ، وقد خطبها أبو بكر وعمر فرفضت . فهل تبقى وحدها أرملة وهي التي تحملت من أجل الإسلام ما تحملت ، إنه ليس هناك حل أبر وأكرم من ضم رسول الله ρ لها إلى نسائه وقد رضيت .

ورملة بنت أبي سفيان زعيم قريش بل العرب كلها ضد رسول الله ρ والتي أسـلمت وهجرت أباها وقومها وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها ثم تنصر زوجها وارتد ومات كـافراً ، هذه تترك لمن ؟ أليست مكافأتها في مكانتها أن تكون زوجة رسول الله ρ وكم سـيكون لهـذا أثره في نفس العدو الأكبر أبيها ؟

وزينب بنت جحش التي زوجها رسول الله ρ من متبناه زيد ولم تستقم حياتهمـا وأراد الله أن يهدم قاعدة التبني عند العرب التي لا تقوم على أساس معقول فهدمها بشكل جذري يوم أمر رسول الله ρ أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد .

وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها ، وقومها من أعز بيوت العرب عرضاً ، وقـد أسر رجال قومها ، وسبي نساؤهم ، فتزوجها رسول الله ρ فقال الناس : أصهار رسول الله ρ وأعتقوا كل من له علاقة بها .

وصفية بنت حيي كان أبوها ملك اليهود تقريباً وزوجها كذلك من ساداتهم وقـد هلـك أبوها وأخوها وزوجها وكان من سنته ρ الرحمة بعزيز قوم ذل فضمها إلى نسائه رحمة بها ، واستل ما بفؤادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة ، وبزواجه بعائشة وحفـصة وثـق الصلة بينه وبين أعظم رجلين بعده من أمته وهكذا ..

ثامناً : وفتح بهذا الزواج ρ لزعماء أمته أفقاً جديداً لا ينبغي أن يغيـب عـنهم أثنـاء العمل المتواصل . وهو تقوية الصلات مع الآخرين بواسطة الزواج . وتوهين حقد المغلـوبين بهذه الواسطة ، وقد رأينا المسلمين استفادوا من هذا الجانب استفادة كبيرة .

تاسعاً : ثم هو بهذا الزواج وبسلوكه العملي العادل يبين الطريق الـصحيح للـسلوك الذي ينبغي أن يسلكه من تعددت زوجاته ، بحيث لا تختل قيم الحياة ، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم ، ويعرف النساء على حقوقهن وحدود هذه الحقوق .

وبظهور هذه الحكم وواقعيتها نرى أن هذا الزواج أدل على النبوة . وسنرى هذا بشكل أوضح عندما ندرس سيرته معهن ρ .

* * *

(د)

رأينا أن كل امرأة تزوجها رسول الله ρ كان في زواجها مصلحة وحكمة وخلق عظيم وإنسانية عالية ، تلمح بها تصرفات النبوة ومثاليتها وأخلاقيتها ، وسنرى في هذه الفقرة ونحن نستعرض الخطوط العريضة لسيرته ρ معهن أن كل خط من هذه الخطوط دليل على النبوة وفيه أرقى أمثلة الأسوة .

" أول هذه الخطوط العدل في السكن والنفقة والكسوة والمبيت والزيارات والوقت . كان بينهن الجميلة جداً والكبيرة والشابة والعادية الجمال . وما كان يصرفه شيء من الميزات عن العدل ، لكل واحدة منهن ليلة ، وإذا زار إحداهن زارهن بعد ذلك جميعهن وحتى وهو في مرضه الأخير وهو أحوج إلى الاستقرار في بيت واحد لم يرض أن يستقر في بيت عائشة إلا بعد أن أذن له الجميع بذلك . ومع هذه الدقة في العدل كان يستغفر الله من عدم عدله في المحبة . إذ لا سلطان له على قلبه فيها ، بل السلطان لله فكان ρ يقول :

" اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك "[1] .

وكان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . قالت أم سلمة " لما تزوجني رسول الله ρ أقام عندي ثلاثاً وقال : إنه ليس بك هوان على أهلك . إن شئت سبعت لك وإن سبعت لك سبعت لنسائي "[2] .

وعن أنس : " من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً ثم قسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً ثم قسم "[3] .

---

[1] رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي .

[2] أخرجه مالك ومسلم وأبو داود والنسائي .

[3] أخرجه الستة إلا النسائي .

* وثاني هذه الخطوط : التكافؤ في الإنسانية . فمن سنن الإسلام أن المـــرأة كالرجـــل في الإنسان إلا أن زوجها رئيسها {وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}[1] وهذا شيء غير مألوف عند الغرب ولا في زمان نزول الإسلام ولكنه دين الله .

ومن أمثلة هذا التكافؤ في حياة الرسول ρ العملية ، أنه كان ينزل على مشورة بعـــض نسائه وأنه كان يسمح لهن بمناقشته ، وإذا تزوج امرأة فبرضاها .

يوم الحديبية أمر المسلمين أن يحلقوا وينحروا بعد الصلح ليتحللوا . فبقـــوا واجمـــين فدخل على زوجه أم سلمة وهو متأثر فسألته ، فأخبرها فقالت : يا رسول الله أتحـــب ذلـــك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحداً مـــنهم حتى فعل ذلك ، فلما رأى المسلمون ما صنع النبي ρ زاح عـــنهم الـــذهول فقـــاموا عجلـــين ينحرون هديهم ويحلق بعضهم بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل الآخر .. " راجع قصة ذلـــك فـــي صحيح البخاري .

وقال عمر : فتغضبت يوماً علي امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فالـــت : ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ρ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل قـــال فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ρ قالت : نعـــم . قلـــت : وتهجـــره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر[2] .

وقال أنس في الحديث عن صفية : " فكان ρ يحوي لها وراء بعباءة ثم يجلـــس عنـــد بعيره فيضع ركبته فتضع صفية – رضي الله عنها – رجلها على ركبته حتى تركب "[3] .

فإذا ما عرفت أنه في عصر الفروسية في أوروبا الذي يعتبر العصر الذهبي للمرأة ما كانت تجرؤ امرأة على أن تقدم مشورة لزوجها ، أدركت أن تصرف محمد رسول الله ρ ليس وليد بيئته ولا زمانه وإنما هو تصرف الأنبياء .

---

[1] البقرة : 128 .

[2] أخرجه الإمام أحمد .

[3] أخرجه الشيخان وأبو داود النسائي .

ينقل العقاد هذه الحادثة ويعلق عليها من كتاب لغربي يتحدث عن المرأة فـي عـصر الفروسية قال :

يروي (أي صاحب الكتاب) فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينها الملك بيبـين تسأله معونة أهل اللورين ، فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضباً ولطمها على أنفها بجمع يده . فسقطت منها أربع قطرات من الدم وصاحت تقول : شكراً لك ، إن أرضاك هذا فـأعطني من يدك لطمة أخرى حين تشاء .

ولم تكن هذه حادثة مفردة ، لأن الكلمات على هذا النحو كثيراً ما تتكرر كأنها صـيغة محفوظة ، وكأنما كانت تلك اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت في عهـد الفروسـية على أن تواجه زوجها بمشورة .

ولكن المظهر الأعظم من مظاهر هذا التكافؤ . أن رسول الله ρ ما كان يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته ، وأن يخدم نفسه ، بل إنه كان يقوم أحياناً بحاجة أهله ، وكان يقول :

" خدمتك زوجتك صدقة "[1] ، فقيام المرأة بشأن البيت ليس عاراً يترفع عنه الرجـل ، بل هو كمال يتطاول إليه الرجل ولا يأنف ، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله ρ .

والمرأة تحب من زوجها أن يكون جميلاً متجملاً ، وأن يقضي حقهـا الجنـسي ، وأن يكون لطيفاً معها مؤنساً لها ، وهذا كله خط آخر من خطوط معاملة الرسول (ρ) لأزواجه .

فقد كان أجمل الناس وكان مع هذا الجمال أنيقاً ، لا يطيق ما يتنافى مع هذه الأناقة مع بساطة المظهر وروي عنه قوله : اغسلوا ثيابكم وخذوا مـن شـعوركم واسـتاكوا وتزينـوا وتنظفوا فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم[2] . ويقول " فإذا جـامع أحـدكم أهله فليصدقها ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتهـا "[3] . وكان يفعل هذا كله وأكثر منه فقد ورد في وصفه إذا خلا مع أهله :

---

[1] للديلمي في مسند الفردوس وحسنه السيوطي .
[2] ابن عساكر عن علي بسند ضعيف .
[3] أخرجه أبو يعلى وعبد الرزاق في الجامع عن أنس .

" كان ألين الناس ضحاكاً بساماً "[1] .

" كان من أفكه الناس مع نسائه "[2] .

" كان رسول الله ρ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشر . قيل لأنس وكان يطيقه[3] ؟

قال : كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين في الجماع[4] .

وكان من آداب الإسلام أنه إذا كان للرجل زوجة أن يعفها . أي أن يجامعها حتى لا تشعر بحاجة إلى الرجال .

وجعل رسول الله ρ مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته إذ أنها الضعيفة تحت يده ، الدائمة العشرة لها ، فكان من كلامه " خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي "[5] وما ضرب امرأة قط وكان يؤنب من يضرب .

" أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره "[6] .

4- والخط العريض الرابع في معاملته لزوجاته حسن سياستهن وتأديبهن :

كن يغرن وكان يتحمل هذه الغيرة إلا أن تخرج عن الخط السوي فيؤدب .

تقول عائشة – رضي الله عنها – : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله ρ طعاماً وهو في بيتي ، فأخذني أفكل – أي قشعريرة – فارتعدت من شدة الغير فكسرت

---

[1] أخرجه الخرائطي والحاكم .

[2] أخرجه ابن عساكر عن أنس ضعيف الإسناد ومعناه صحيح .

[3] أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن عائشة – رضي الله عنها – ضعيف الإسناد ومعناه صحيح .

[4] راجع أحمد والسنن الأربعة والبيهقي والحديث صحيح .

[5] أخرجه الترمذي .

[6] للشيخين والترمذي .

الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال إناء مثل إنـــاء وطعـــام مثـــل طعام[1] .

وكان يداري قلوبهن حتى تصفوا . تقول صفية : وما كان أبغض إلي من رســـول الله ρ قتل أبي وزوجي فما زال يعتذر إلي وقال : يا صفية : إن أباك ألب علـــي العـــرب وفعـــل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي [2] .

وكن يأخذن حريتهن في الكلام فيسمع ويرد ويؤدب :

كان رسول الله ρ يحفظ لخديجة ذكراها بشكل منقطع النظير فهو آية الوفاء في دنيـــا المروءة وكان من وفائه لها أن يبر كل امرأة كانت لها صلة بخديجة وأنه كان يـــذكرها بكـــل خير حتى أن عائشة لم تغر من امرأة كما غارت من خديجة وهي متوفاة قالت له مرة :

خديجة خديجة لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة . فتركها فترة ثم عاد وأمها أم رومان عندها فقالت له أمها : يا رسول الله مالك ولعائشة : أنها حديثة السن وأنت أحـــق مـــن يتجاوز عنها فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها :

ألست القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة ؟[3]

وقالت له مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيراً منهـــا فأســـكتها قائلاً :

" والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حـــين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها "[4] .

---

[1] أخرجه أبو داود والنسائي .

[2] أخرجه الهيثمي ج9 ص251 ورجاله رجال الصحيح .

[3] أخرجه الشيخان .

[4] أخرج المحب الطبري في السمط الثمين

وقالت : دخل علي يوماً رسول الله ρ فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال يـــا حميـــراء كنت عند أم سلمة . قلت ما تشبع من أم سلمة فتبسم ثم قلت يا رسول الله ألا تخبرني عنك لـــو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى ؟ قال : التي لم ترع قلت فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيـــري فتبـــسم عليـــه السلام[1] .

وكن يمزحن فيشاركهن سرورهن .

أخرج أبو يعلى عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : أتيت النبـــي ρ بحريـــرة قـــد طبختها له فقلت لسودة – رضي الله عنها – والنبي ρ بيني وبينها : كلي فأبت فقلت لتأكلين أو لألطخن وجهك فأبت فوضعت يدي في الحريرة فطليت وجهها فضحك النبي ρ فوضع بيده لها وقال لها : الطخي وجهها فضحك النبي ρ لها .

وفي رواية فخفض لها ركبته لتستقيد مني فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهـــي ورسول الله ρ يضحك .

والخط العريض الخامس أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفعهن إلى أخلاق النبوة ولـــم يستطعن أن يحدن به عن طريقه ، وأعظم حادث يصور لنا هذا الوضع هو حادث تخييرهن إذ هن طلبن أن يوسع عليهن في المعيشة والنفقة ، فكانت سنة رسول الله ρ الإعراض عن الدنيا وطلب الآخرة ، وكانت النتيجة أن خيّرهن بين البقاء عنده ، والرضى عن هذه الحياة الهادفـــة إلى اليوم الآخر . أو الطلاق ، وأمرهن بيدهن ، وهذا غاية العدل وغاية الحزم .

وهذه هي القصة كما يرويها بعض الصحابة :

أخرج أحمد عن جابر – رضي الله عنه – قال :

أقبل أبو بكر – رضي الله عنه – يستأذن على رسول الله ρ والنـــاس ببابـــه جلـــوس والنبي ρ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر – رضي الله عنه – فاستأذن فلم يؤذن لـــه ثـــم أذن

---

[1] أخرجه البخاري .

لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي ρ جالس وحوله نساؤه وهو ρ ساكت فقال عمر لأكلمن النبـــي لعله يضحك فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفـــاً فوجـــأت عنقها ؛ فضحك النبي حتى بدت نواجذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة . فقام أبو بكـــر إلـــى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان :

تسألان النبي ρ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ρ فقلن ك والله لا نسأل رســـول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال : " إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك قالت وما هو ؟ قال فـــتلا عليهـــا {يأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً}[1] .

قالت : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله وأسألك أن لا تـــذكر لامـــرأة مـــن نسائك ما اخترت فقال ρ إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكني بعثني معلماً ميـــسراً لا تـــسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها .

وروى أحمد من حديث طويل عن ابن عباس عن عمر قال :

فقلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم فتغضبت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت :

ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ليراجعنه وتهجره إحداهن اليـــوم إلـــى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك مهن وخسر ، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغـــضب رسوله ، فإذا هي هلكت . فتبسم رسول الله فقلت يا رسول الله فدخلت على حفصة فقلـــت : لا يغرك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ρ منك فتبسم أخرى فقلت : أســـتأنس يا رسول الله ؟

قال : نعم .

---

[1] الأحزاب : 28 ، 29 .

فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهبة (جلوداً) ثلاثة فقلت : ادع يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا .

فقلت : استغفر لي يا رسول الله .

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل .

وفي كل ما نقلناه لك من هذه الخطو تجد الزوج المثالي والقدوة العليا في كل أمر . ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نذكر أن الرسول ρ الذي كان عنده هذا العدد من النساء ، والذي كان يقوم بواجبه تجاههن . والذي كان يعطيهن من ذاته ما رأينا . هو الذي كان يقوم بالأعباء الضخمة التي لم يتحمل مثلها رجل غيره . من عبادة إلى سياسة إلى قتال إلى تدبير أمر ، ومن عادة الناس أن يشغلهم شيء من هذا عن أهليهم ، ولكنه الكمال عند رسول الله ρ حيث تقوم الواجبات كلها ومع الواجبات غيرها ولا يؤثر القيام بإحداها على غيره من دلائل النبوة والرسالة .

وأخيراً :

يقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية .

قلنا : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب امرأة ، ويشعر متعتها : هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة

الجنسين ، والتقاء الذكر والأنثى ، فهي الغريزة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى .

أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء الملح في موسمه المعلوم فيطوي ألوفاً من الفراسخ ليصل إلى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟ أرأيت إلى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته إلى وطنه ؟ أرأيت إلى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟

أرأيت إلى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هي سنتها إن لم تكن هي سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه .

هذا هو سواء الفطرة لا مراء .

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططاً في طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطباع .

فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغيرة .؟

مَن من بناة التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية ، والدول الإسلامية ؟ ومن ذا الذي يقول إن هذا عمل رجل مشغول ؟

عمَّ شغلته المرأة ؟

ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد في مسعاه ؟؟

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها ويعطي المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ورسالة محمد إذن هي الرسالة التي يتلقاها أناس خلقوا للحياة ، ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها ، فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة ، فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور ، وأعجب شيء أن يقال عن النبي أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلِّق نساءه أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها .

* * *

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات .

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ، أما كان عليه يسيراً أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط في ميله إلى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟ لم يكلفه شيئاً من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نر هنا رجلاً تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورون . بل رأينا رجلاً يغلب تلك الملذات في طعامه ومعيشته وفي ميله إلى نسائه . فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد .

* * *

وهكذا نبحث عن الرجل الذي توهمه المشهورون من مؤرخي أوربا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم .

نرى رجلاً كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه ؟ .

ونرى رجلاً تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلين بها لعينيه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه ؟.

ونرى رجلاً آثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه .

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاماً مضحكاً مستغرباً لأفلحوا فيما قالوه ... أقبح فلاح .

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع . فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفاً من صباه إلى كهولته ، فلم يعرف أنه استلم للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما كان يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح ... بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة ... وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شائنيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذي كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة نبذ الشهوات ... كلا لم يقل أحد هذا قط من شائنيه وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله موضوع لجرى على لسان ألف قائل .

إلا أن المشهرين المتقوّلين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ، ولم يذكروا إلا شيئاً واحداً حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتوا على النبي ما طاب لهم أن يفتروه وذاك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات .

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق في غير مشقة عندهم ولا معابة .

ونسوا أنه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتصف في طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسيره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات .

ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في نحو الأربعين اكتفي بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين .

نسوا أنه اختار أحساباً في حاجة إلى التألف أو الرعاية ولم يختر جمالاً مطلوباً للمتاع .

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه ... ولو شاء لما كلفه إرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه .

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه الصلاة والسلام فلماذا نسوه ؟

نسوا لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

* * *

وبعد فهل رأيت زوجاً مثل محمد ρ بين الأزواج ؛ إنك لم تر وكذلك لن ترى مثله أباً بين الآباء :

أخرج مسلم عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال :

" ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ρ :

قال : كان إبراهيم (أي ابنه الصغير) مسترضعاً له في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه (أي البيت) ليدخن وكان ظئره قينا فيأخذه فيقبله ثم يرجع " .

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : رأيت الحسن والحسين رضي الله عنهما على عاتقي النبي ρ فقلت نعم الفرس تحتكما . فقال النبي ρ ونعم الفارسان هما " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال : خرج النبي ρ حامل الحسن – رضي الله عنه – على عاتقه فقال له رجل : يا غلام نعم المركب ركبت . فقال النبي ونعم الراكب هو .

وأخرج الطبراني عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ρ يصلي فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما قال : نعم المطية مطيتكما ".

وأخرج الطبراني عن جابر قال دخلت على النبي ρ وهو يمشى على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين (رضي الله عنهما) وهو يقول :

" نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما " .

وأخرج الطبراني عن جابر – رضي الله عنه – قال : " كنا مع رسول الله ρ فدعينا إلى طعام فإذا الحسين – رضي الله عنه – يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع النبي ρ أمام القوم ثم بسط يده فجعل حسين يفر ههنا وههنا فيضاحكه رسول الله ρ حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبله ثم قال : حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه . الحسن والحسين سبطان من الأسباط " .

أرأيت رسول الله ρ في جلاله العظيم كيف يعطي الأولاد حقهم وليس أولاده فقط بل كل الأولاد .

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن الحارث – رضي الله عنه – قال : كان رسـول الله ρ يصف عبد الله وعبيد الله وكثير بن عباس – رضي الله عنهم – ثم يقول : من سبق إلي فله كذا وكذا قال : فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزم " .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر – رضي الله عنه – قال : كان النبـي ρ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وإنه جاء من سفر فسيق بي إليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن أو الحسين – رضي الله عنه – فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة .

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن عبد الله بن جعفر قال : مر بي رسول الله ρ وأنا ألعـب مع الصبيان وحملني أنا وغلاماً من العباس – رضي الله عنه – على الدابة فكنا ثلاثة .

وأخرج ابن عساكر أيضاً : عنه قال : لو رأيتني وقثما وعبد الله ابني عباس – رضي الله عنهم – ونحن صبيان نلعب إذ مر رسول الله ρ على دابة فقال ؛ ارفعوا هذا إلي فجعلنـي أمامه وقال : ارفعوا هذا إلي فجعله وراءه وكان عبيد الله أحب إلى عباس من قثم فما اسـتحيا من عمه أن حمل قثما وتركه قال : ثم مسح على رأسي ثلاثاً كلما مسح قال : اللهـم اخلـف جعفراً في ولده " .

ولا تحسب أن هذا لإكرام للصبيان فقط بل للبنات والصبيان :

أخرج البخاري عن أبي قتادة قال خرج علينا النبي ρ وأمامه بنـت أبـي العـاص – رضي الله عنها – (أي بنت بنته) على عاتقه فصلى فإذا ركع وضع وإذا رفـع رفعهـا " . فهذه سيرته مع الأطفال ذكوراً وإناثاً .

أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد – رضي الله عنه – أن النبي ρ قبـل حـسناً – رضي الله عنه – فقال له الأقرع بن حابس لقد ولد لي عشر ما قبلت واحداً منهم فقال النبي ρ لا يرحم الله من لا يرحم الناس " .

وأخرج أبو يعلى عن أنس – رضي الله عنه – قال كان رسول الله يسجد فيجيء الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال : يا نبي الله أطلت السجود فيقول : ارتجلني ابن فكرهت أن أعجله " .

* * *

والشعب الذي كان يئد البنات ويرى أن موت البنات من المكرمات ، ولا يرى أحدهم البنت شيئاً ، ويستقبل ولادتها هذا الاستقبال السيء الذي وصفه القرآن {وَإِذَا بُشرَ أَحَدُهُمْ بِٱلأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي ٱلتُّرَابِ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ}[1] .

هذا الشعب هو الذي كان منه رسول الله ρ وكان يعامل بناته بما سنقصه عليك فهل تراها بعد ما تقرؤها أخلاقاً وليدة بيئتها ، أو أنها النبوة والتربية الإلهية لصاحبها ، وحاشا أن تكون إلا الثانية .

أخرج البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : ما رأيت أحداً من الناس كان أشبه بالنبي ρ كلاماً ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة – رضي الله عنها – قالت : وكان النبي ρ إذا رآها وقد أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه وكانت إذا أتاها النبي ρ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته . وإنها دخلت على النبي ρ في مرضه الذي قبض فيه فرحب بها وقبلها وأسر إليها فبكت ثم أسر إليها فضحكت " ولما سألتها عائشة عما أسر لها رفضت أن تجيبها حتى إذا قبض ρ قالت فاطمة " أسر إلي فقال : إني ميت فبكيت ثم أسر إليَّ فقال : إنك أول أهلي بي لحوقاً فسررت بذلك وأعجبني " .

وماتت فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة رسول الله ρ .

وأخرج الترمذي عن جميع بن عمير التيمي قال : " دخلت مع عمتي على عائشة – رضي الله عنها – فسئلت أي النساء كان أحب إلى رسول الله ρ ؟ قالت فاطمة : فقيل من الرجال ؟ قالت ك زوجها إن كان ما علمت صواماً قواماً " .

---

[1] النحل : 58 ، 59 .

وعن المسور بن مخرمة – رضي الله عنه – قال : " خطب علي بنت أبي جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأتت النبي ρ فقالت يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل فقام النبي ρ فتشهد وقال أما بعد فإني أنكحت أبي العاص بن الربيع فحدثني وصدقني وإن فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها والله لا تجتمع بنت رسول الله ρ وبنت عدو الله أبداً قال فترك علي الخطبة .

وفي رواية أخرى قال : " سمعت رسول الله ρ يقول وهو على المنبر : إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني يريبني ما يريبها ويؤذيني ما آذاها " أخرجه الخمسة إلا النسائي " .

أرأيت براً أبلغ بالبنات من هذا البر وما ذكرناه نموذج وإلا فأي بنت من بناته الأربع كانت تلاقي من العطف والبر ما تلاقيه فاطمة – رضي الله عنه – إنها كمال الأبوة في أكمل نبي .

* * *

ولكن الشيء الأدل في هذا الباب على أخلاق النبوة مع هذه المحبة أنه ما كان ليرضى لبنته أن تعيش إلا كما يعيش أكثر الناس فقراً . ذلك طابع الحياة التي يريدها رسول الله ρ لنفسه ولأهله ، لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، وحتى تتمحص أنفسهم لله واليوم الآخر . تأمل هذه الأمثلة وتذكر أن أحب الخلق إليه بشهادة عائشة هي فاطمة :

" أخرج البيهقي في الدلائل عن علي قال :

خطبت فاطمة إلى رسول الله فقالت مولاة لي : هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ρ ؟ قلت : لا . قالت : قد خطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله فيزوجك ؟ فقلت : وعندي شيء أتزوج به ؟ فقالت : إنك إن جئت رسول الله زوجك قال : فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ρ فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة فقال رسول الله ρ ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت فقال :

لعلك جئت تخطب فاطمة .

فقلت : نعم

فقال : وهل عندك من شيء تستحلها به ؟

فقلت : لا والله يا رسول الله

فقال : ما فعلت درع سلحتكها ؟ فوالذي نفس علي بيده إنها لحطمية ما قيمتها أربعة دراهم ، فقلت : عندي فقال : قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ρ .

وأخرج النسائي عن ثوبان :

..... فانتزعت فاطمة سلسلة في عنقها من ذهب فقالت : هذه أهداها إلي أبو حسن فدخل صلى الله عليه وسلم والسلسلة في يدها فقال : يا فاطمة ، أيسرك أن تقول الناس : ابنة رسول الله ρ في يدها سلسلة من نار ثم خرج فلم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبداً فأعتقته فحدث رسول الله بذلك فقال : الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار " .

وأخرج البخاري ومسلم : قال علي لابن أعبد ألا أحدثك عني وعن فاطمة ؟ قلت : بلى قال : إنها جرّت بالرحى حتى أثَّر في يدها واستقت بالقربة حتى أثرت في نحرها وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها (وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها) فأتى النبي ρ خدم فقلت لو أتيت أباك فسألته خادماً فأتته فوجدت عنده حداثاً فرجعت فأتاها من الغد فقال : ما كان حاجتك ؟ وسكتت فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله جرت بالرحى حتى أثرت في يدها وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ما هي فيه فقال : اتقي الله يا فاطمة وأدي فريضة ربك واعملي عمل أهلك وإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين واحمدي ثلاثاً وثلاثين وكبري أربعاً وثلاثين فتلك مائة فهي خير لك من خادم فقالت : رضيت عن الله وعن رسوله ولم يخدمها " .

إن كمال محمد ρ كزوج وكماله كأب . كماله في عدله وفي رحمته وفي لطفه وفي أنسه ، وفي رعايته وفي حسن سياسته وفي استقامته ، وفي حمل أزواجه وأولاده على طريقه . كل هذا شاهد صدق ودليل حق على أنه المثل الأعلى للإنسان في كل جانب من جوانب حياته ، وإنه القدوة العليا لكل إنسان في أي جزء من أجزاء تصرفاته .

وإليك الفقرة الثالثة :

3- المعلم والمربي الأول

لقد حدد رسول الله ρ مهمته بقوله : " إنما بعثت معلماً "[1] والقرآن الكريم ذكـر هـذه المهمة الأساسية لرسول الله ρ بصراحة فقال : {هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ}[2] فقد أحصت هذه الآية مـن مهمـات الرسـول التعليم والتربية . تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليهما ، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ρ مستغرقاً بهذا الجانب ؛ إذ أنه هو الجانب الذي ينبع عنه كل خيـر ، ولا يـستقيم أي جانب من جوانب الحياة سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو أخلاقياً إلا به ، ولا يؤتى الإنسان ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الإنسانية إلا من التفريط في العلم الصحيح ، والانحراف عنه إما إلى الجهل أو إلى ما يضر علمه ولا ينفع .

فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كل فرد مـن أفرادهـا واجبه ، تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة ، ولكل فرد من أفرادهـا سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد .

والظاهرة التي نجدها في تاريخ محمد ρ أن الرسول ρ بدأ تشكيل أمة جديدة لها كـل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية . بحيث ينبتُّ الفـرد فيها عن صلته بأي عالم غير عالم هذه الأمة من حيث العقيدة والسلوك ، فصهر أفـراد هـذه الأمة صهراً تاماً . ثم أطلق هذه الأمة في اتجاه وحيد حدّد فيه لكل فرد مهمته ، وبـراه علـى أدائها ، وحدّد للجميع المهمة الكبرى ، ورسم لهم الطريق ، موضِّحاً لهم كل شيء فـي كـل جانب ، وقادهم في هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضياً إلى ربه ، فانطلقوا بعده لا غيّـروا ولا بدّلوا فكان ما كان ولا زال . مما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذي كلّما تعثر أخـذت بيـده تعاليم محمد وتربيته فأنقذته وقذفت به إلى الأمام .

* * *

وبعد فإننا نقول : إن كمال المربي يظهر :

---

[1] أخرجه الإمام أحمد .

[2] سورة الجمعة : 2 .

1- في مقدار ما يستطيع أن ينقل نفس الإنسان وعقله من حالة دينا إلى حالـــة أعلـــى وكلما ترقى بالإنسان أكثر دلّ ذلك على كماله أكثر .

2- في سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم إلى كمالهم الإنساني ، فكلما كانـــت الدائرة أوسع كان أدل على الكمال .

3- ثم في صلاحية هذه التعاليم والتربية ، وحاجة الناس جميعاً إليها ، واستمرار إيتاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور ؛ بحيث لا يستغني البـــشر عنهـــا ، وبـــشهادة العـــدو والصديق والمؤمن والكافر ما بلغ أحد في تاريخ البشرية ما بلغه محمد ρ في هـــذه الجوانـــب كلها حتى قال موير : " لم يكن الإصلاح أعسر ولا أبعد منالاً منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحاً وإصلاحاً تم كالذي تركه عند وفاته " . وقالت دائرة المعارف البريطانية : " لقد صادف محمد النجاح الذي لم ينل مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة " . ويقول يـــوزورث سمث : " إن محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق "[1] . ويقول هيل : " عن جميـــع الدعوات الدينية قد تركت أثراً في تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تـــأثيراً عميقاً في حضارة عصرهم وأقوامهم ولكنا لا نعرف في تاريخ البشر أن دينـــا انتـــشر بهـــذه السرعة . وغيّر العالم بأثره المباشر ، كما فعل الإسلام ، ولا نعرف في التاريخ دعـــوة كـــان صاحبها سيّداً مالكاً لزمانه ولقومه كما كان محمد . لقد خرج أمة إلى الوجود ومكّن لعبادة الله في الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بـــين المؤمنين ، وأصّل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى " .

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد ρ وقد أعماهم حقد صليبي موروث فشهدوا ولم يؤمنوا . وما أغنانا عن شهادتهم ، وشهادة الواقع أمامنا على كل جانب من هذه الجوانـــب المذكورة آنفاً وهناك آثار تربيته ρ :

أصحاب الرسول ρ الذين شرفوا برؤيته والإيمان به عشرات الألـــوف ، مـــن هـــذه الألوف من رافقه كل فترة البعثة ، ومنهم من رآه مرة فسمع منه حديثاً . وإذا أنـــت أجريـــت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على محمد ρ وحياتهم بعده ؛ بين واقعهم قبل ذلك وواقعهم بعده ، بين أعمالهم وتصرفاتهم قبل وأعمالهم وتصرفاتهم بعد . بين أهدافهم الأولى وأهـــدافهم الثانية . وبين تصوراتهم عن الله والكون والإنسان أولاً وتصرفاتهم ثانياً ، إنك تخـــرج نتيجـــة

---

[1] بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ص1 .

المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التي نقل إليها رسول الله ρ هؤلاء من طــور إلى طور ، من حضيض إلى سمو لا يدانيه سمو آخر .

خذ مثلاً شخصية عمر بن الخطاب في الجاهلية تجده رجلاً قَبَلــي الفكــر والطبيعــة والعاطفة والتصور ، محدود الإدراك ، همه في لحياة : السكر واللهو والبطالة مع أصــدقائه . ولولا رسول الله ρ لعاش عمر ومات عمر وما أحس به أحد ولكنه ما إن يشرب كأس الإسلام من يد رسول الله حتى يصبح عمر المشرع العبقري الفذ ، ورجل الدولــة العظــيم الكبيــر ، ورمز العدل الذي لا يكون إلا معه مع الحزم والرحمة ، وسعة الأفق وصدق الإدراك وحــسن الفراس ...

عمر الذي أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها . ما كان ليكون شيئاً لولا أنه تربى فــي حجر رسول الله ρ فأخذ منه العلم والحكمة والتربية .

عبد الله بن مسعود راعي الإبل المحتقر المهان في قريش ، الذي ما كان ليعــرف إلا سيده ومن يستخدمه ، هذا الرجل النحيل القصير الحَمِش الساقين . ماذا يصبح بعد أن ربته يد النبوة ؟ يصبح الرجل الذي يعتبر مؤسسة أكبر مدرسة في الفقه الإسلامي والتي ينتسب إليهــا أبو حنيفة النعمان ، يصبح الرجل الذي يقول فيه عمر لأهل الكوفة ؛ لقد آثرتكم بعبد الله علــى نفسي .

إنك عندما تدرس شخصية الإنسان قبل اتصالها برسول الله وبعد اتصالها تجد أن كــل شيء فيها قد تغير وتجد كل طاقاتها وملكاتها قد انطلقت في الطريــق الــصحيح . الطاقــات الجسمية ، والطاقات العقلية ، والطاقات النفسية ، والطاقات الروحية ، والطاقات الوجدانيــة ، والمعنوية والأخلاقية . هذه الطاقات كلها انطلقت في إطارها الصحيح وطريقهــا المــستقيم ، بحيث لا يستطيع إنسان أن يقول إن طاقة ما معطلة عند أصحابها أو أنها تعمل عمــلاً غيــر صالح .

طاقة العمل : " إن الله يحب العبد المحترف "[1]

---

[1] أخرجه الحاكم والطبراني والبيهقي عن ابن عمر وضعفه السيوطي .

طاقة المشاركة في العمل العام : " إذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وتبعتم أذناب البقر وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تعودوا إلى دينكم"[1] .

الطاقة الجنسية : " تزوجوا الولود الودود " .[2]

الطاقة الجسمية : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .. "[3]

ملكة حسن الهندام : " فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في أعين الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش "[4] .

طاقة الفكر والعلم : " طلب العلم فريضة "[5] "تفكر ساعة خير من قيام ليلة "[6] .

إنك لا تجد طاقة من طاقات الإنسان إلا وقد أطلقها رسول الله ρ في طريقها الصحيح ، فأصبحت ترى من أصحابه العجب ، في تكامل شخصياتهم عباداً زهاداً شجعاناً محاربين عادلين رحماء إداريين سياسيين حكماء مربين . كل واحد منهم أمة ، وما أسهل عليه أن يقود أمة ، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميراً بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم في ما ولي من قيادات .

وإذا أردت أن ترى مقدار ما رفع رسول الله النفس البشرية فاقرأ هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة :

أخرج النسائي عن عائشة – رضي الله عنها – أن فتاة قالت – يعني للنبي ρ –: إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبي ρ إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها ، فقالت : يا رسول الله ! إني قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلّم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء " .

---

[1] أبوا داود وحسنه السيوطي .

[2] أخرجه أبو داو والنسائي .

[3] أخرجه مسلم .

[4] أخرجه أبو داود .

[5] أخرجه الطبراني وهو حديث حسن لغيره .

[6] أخرجه ابن سعد ج7 ص392 .

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعــرف حقهــا ، وتريــد أن تُعَــرِّف الأخريات عليه . وأصبحت تستطيع أن تشكو إذا هضم حقها ، وتجد من يسمع لهــا ويعطيهــا إياه ، متى كان ذلك لولا تربية الرسول ρ لهذه الأمة ؟

وأخرج الخمسة إلا مسلماً قصة الحب العجيبة تلك التي كانت عند العبد مغيث للعبــدة بريرة التي أصبحت بعد ذلك حرة وانفصم ما بينهما من نكاح وكانت لا تحبه وكان مولعاً بهــا يقول ابن عباس :

إن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث ، كأني أنظر إليه خلفها يطوف ودموعه تسيل على لحيته ، فقال رسول الله ρ للعباس : ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريــرة مغيثاً ؟ فقال لها رسول الله ρ : لو راجعته ؟ فقالت : يا رسول الله ! تأمرني ؟ قال : لا إنمــا أشفع قالت : لا حاجة لي فيه " .

أهناك أبلغ في التربية من هذا الذي وصلت إليه هذه الأمة لقد أصبح كــل فــرد فيهــا يعرف حقه وواجبه ويجادل فيه ويقف عنده .

أخرج الروياني وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعي – رضـــي الله عنه – قال :

كنا عند رسول الله ρ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقــال : ألا تبــايعون رســول الله ρ ؟ فرددها ثلاث مرات . فقدمنا فبايعنا رسول الله ρ ، فقلنا : يا رسول الله ! قد بايعناك فعلـــى أي شيء نبايعك ؟

فقال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، وأسر كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئاً . قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فمــا يقــول لأحــد يناوله إياه .

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : قال رســول الله ρ من يبايع ؟ فقال ثوبان – رضي الله عنه – مولى رسول الله ρ : بايعنا يا رسول الله ! قــال

: على أن لا تسأل أحداً شيئاً . فقال ثوبان : فما له يا رسول الله ؟ قال : الجنة . فبايعه ثوبـــان
.

قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه .

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أعطى النبي ρ حكيم بـــن حـــزام – رضي الله عنه – يوم حنين عطاء فاستقله فزاده فقال : يا رسول الله ! أي عطيتك خير ؟ قـــال : الأولى . فقال النبي ρ : يا حكيم بن حزام ! إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخـــذه بـــسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبـــارك لـــه فيـــه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، قال : ومنك يـــا رســـول الله ؟ قال : ومني ! قال : فوالذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً أبداً .

قال : فلم يقبل ديواناً ولا عطاء حتى مات .

قال : وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول : اللهم إني أشهدك على حكيم بن حزام أني أدعوه لحقه من هذا المال وهو يأبى ، فقال : إني والله مـــا أرزؤك ولا غيـــرك شيئاً . كذا في الكنز ج3 ص322 .

أرأيت هذه النقلة العظيمة من حالة إلى حالة أخرى : عزة نفس لا مثيل لهـــا ، ومـــاذا في طياتها من أبلغ ما تصل إليه التربية الاستقلالية التي لا يكون معهـــا معنـــى مـــن معـــاني الاتكال على الغير .

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال : أتى رجل النبي ρ ثائر الرأس واللحيـــة فأشـــار إليه ρ كأنه يأمره بإصلاح بشعره ففعل ثم رجع فقال ρ : " أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان " .

وأخرج مالك والنسائي عن أبي قتادة قال : قلت يا رسول الله ! إن لي جمة أفأرجلهـــا قال : نعم وأكرمها .

فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين من أجل قوله ρ نعم وأكرمها " .

أرأيت هذه التربية التي لا تدع جانباً من الجوانب إلا وتستوعبه دق أو كبر مما له علاقة بظاهر الإنسان وباطنه .

* * *

قال أبو داود :

" وغير رسول الله اسم العاصي وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسماه هشاماً وسمى حرباً سلماً وسمى المضطجع المنبعث وأرضاً تسمى عفرة سماها خضرة وشعب الضلالة سماها شعب الهدى وبني الزنية سماهم بني الرشدة وسمى بني مغوية بني رشد " .

أرأيت هذه اللفتات الجمالية التي يرى كل شيء في الأمة بها على نسق منسجم مع الدعوة والرسالة ، وهذه التربية التي وصلت إلى الأسماء .

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة ... عن رسول الله ρ قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة .

ثم نزل ، فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريون هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب ، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ρ وقالوا : يا رسول الله ! ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشر فما بالنا .

فقال : يعلِّمنَّ قوم جيرانهم وليعظنَّهم وليأمرنَّهم ولينهونَّهم وليتعلَّمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنَّهم العقوبة في الدنيا . فقالوا : يا رسول الله ! أنعظنَّ غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم ، فأعادوا قولهم : أنعظنَّ غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً . فقالوا : أمهلنا سنة ،

فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم . ثم قرأ رسول الله ρ هذه الآية : {لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ}[1] .

أرأيت أبلغ من هذه التربية التي تفترض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يـتعلم حتى تترقى الأمة كلها وهل رأيت نصاً قبل هذا النص في العالم يفرض التعليم ويجعله إلزامياً إجبارياً . ولعلك ستدهش إذا قرأت الكتاب الثالث من هذه السلسلة عندما ترى مزيداً عن النظام التعليمي في الإسلام ، عن كماله واستيعابه لكل حاجات الإنسان الروحية والمادية .

وأخرج الشيخان عن أنس قال : بينا نحن في المسجد مع رسول الله ρ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله : مه مه .. فقال رسول الله ρ : لا تزرموه (أي لا تقطعوا عليه بوله) دعوه ، فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله ρ دعاه فقال له :

إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن وأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه (أي صبه) .

ضربنا هذا المثال لنعرف مقدار الوعي الحضاري وقت ذاك عند العرب ، إذ ما من إنسان في العالم يبول في معبده ، ولكن العربي فعلها وكان موقف الرسول ρ منها موقف المربي الذي مهمته أن يجبر النقص إلى الكمال ، وكان من آثار ذلك ما عبّر عنه أحد قواد الفرس ؛ إذ رأى المسلمين يصلون صفاً منتظماً فقال :

أَكَلَ عمر كبدي إذ علّم هؤلاء مكارم الأخلاق . وما كان عمر هو الذي علّمهم مع فضله ولكن الذي علمهم وعلم عمر هو رسول الله ρ .

* * *

ولم تكن دائرة تربية الرسول ρ محدودة بل شملت كل الجزيرة العربية ، بترتيب وسائل هذه التربية ، فكان لا يكتفي من القبيلة بإسلامها حتى يأتيه وفدها ، وكان يبقى الوفد

---

[1] المائدة : 78 ، 79 .

عنده في المدينة أياماً تمتد كثيراً أحياناً . وخلال هذه الإقامة كان يصوغهم صياغة جديدة . سواء بتوجيهاته أو بالاقتداء . أو بأمر أصحابه أن يعلموهم . حتى إذا ما أذن لهم بالرحيل أمّر عليهم رجلاً منهم وأمرهم أن يقوموا بعملية التربية والتعليم نيابة عنه . وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه آحاداً أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية إلى كل مكان ، ليقوموا بدور المربي . فكان من آثار ذلك أنه خلال سنوات معدودة لا تتجاوز عشراً ، أصبحت الجزيرة العربية – وما أوسعها حتى لتكاد تكون قارة – واعية لدين الله ، مرباة مهذبة إلى حد كبير ، تغيرت مفاهيمها إلى أعلى ما يبلغ إنسان من تصورات ، بعد أن كانت في أدنى دركات الانحطاط الفكري حتى ليعبد أحدهم تمرات صباحاً ويأكلهن مساءً .

وكان القرآن حفظاً وفهماً وتطبيقاً وسلوكاً هو أداة هذه التربية العظيمة . وسترى في بحث المعجزة القرآنية أن هذا القرآن أحاط بكل شيء . وفتح آفاق النفوس والعقول على كل مشهد . فلم يعد به خافياً على أحد ما ينبغي أن يأخذ وأن يدع ، ولم يبق معه سؤال بلا جواب ، ولم تبق حجة لمنحرف إلا وقد دحضت فيه ، ولا شبهة على الإسلام وأهله إلا كشفت به ، ولا جانب من جوانب الحياة إلا وقد عرف الحق فيه منه .

والرسول ρ كان همه أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظاً وفهماً وتطبيقاً ، إذ على قدر ما يستوعبه أفراد الأمة على قدر ما ترتفع أنفسها ، ويسمو تفكيرها ، وتتفتح آفاق الحياة أمامها ، ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن فقال : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه "[1] .

وكان يختار للإمرة أكثر الناس أخذاً للقرآن حفظاً وفهماً وتطبيقاً . وربى أصحابه على ذلك ، فكانت سياسة الخلفاء بعده منصبة على أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجد فيه ، والحرص عليه ، حتى قال عمر لجيش من جيوشه وقد أرسله : " إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدويِّ النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث فتشغلوهم جَودوا القرآن وأقِّلوا الرواية عن رسول الله امضوا وأنا شريككم "[2] .

ولم تمض فترة إلا وأصبح القرآن على كل لسان ، وأصبح كثير من الناس وقد حفظوه كله ، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء لا مثيل له سواء في ذلك جوانب

---

[1] أخرجه البخاري .

[2] أخرجه الطبري ج5 ص19 .

العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الإدارة أو الأخلاق أو التشريع أو الحرب أو السلم أو العلـم أو العمل . فترة بسيطة من الزمان وإذا بالأمة الأمية لا يغلبها غالب فكراً أو حرباً أو حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله ρ ولا يمكن أن ينسب لسواه ، وحدث بذلك مرة واحدة في تاريخ البشر أن الإنسانية رأت أمة : الحق عندها يحكم القوة ، والزهد عندها ترافقه الشجاعة ، والعبادة عندها ترافقها الحكمة ، أمة ما رأت مثلها الدنيا لذلك فإنها ما كادت تتعرف عليها حتى دخلت في دينها .

أوليس عجيباً أن البلاد التي فتحها هؤلاء الذين رباهم رسول الله ρ قد دخل أهلها في الإسلام طوعاً لا كرهاً وأخلصوا للدين الجديد حتى فدوه بالأرواح والأموال والأولاد مع أن الإسلام أعطاهم حرية البقاء على دينهم الأول كل ذلك إنما كان كأثر من الإعجاب برجال لهم دين ليس مثله بين الأديان ولا يوجد مثلهم بين الرجال .

* * *

وسنروي الآن حادثات ثلاثاً عرف بها مقدار النضج الفكري الذي وصل إليه أصحاب رسول الله ρ حتى جابهوا كل الثقافات الأخرى غالبين ، وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه الأمة . أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبي بلتعة – رسول الله إلى المقوقس – مع المقوقس وثانيها خطاب العلاء الحضرمي للمنذر بن ساوى أمير البحرين التي كانت تشمل في الماضي الكويت الحالية والبحرين والأحساء وبأسمائها الجديدة وثالثها مناقشة المغير بن شعبة لكسرى ورستم وهذه هي مرتّبة :

أ– قال المقوقس لحاطب : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم[1] .

ب– وقال العلاء الحضرمي لأمير البحرين :

" يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ، ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون

---

[1] أخرجه البيهقي .

ما يتنزه عن أكله ، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة ... ولست بعديم عقــل ولا رأي فانظر :

هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ، ولمن لا يخون ألا تأمنــه ، ولمــن لا يخلف ألاَّ تثق به ، هذا هو النبي الأمي الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمــر بــه نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر" ذكره الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة ص390 .

وقد أسلم المنذر .

جـ- ولما أرسل سعد بن أبي وقاص إلى كسرى وفداً يدعونه إلى الإسلام كان مــن قصتهم :

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشــكالهم وأرديــتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم وخيولهم الــضعيفة وخبطهــا الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مــع كثــرة عددها وعددها ، ولما استأذنوا على الملك يزدجر أذن لهم وأجلسهم بين يديه ، وكان متكبــراً قليل الأدب – ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها وعن الأردية والنعال والسياط .

ثم كلما قالوا شيئاً من ذلك تفاءل فرد الله فأله على رأسه . ثم قال لهــم : مــا الــذي أقدمكم هذه البلاد ؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال له النعمان بن مقــرن – رضي الله عنه – :

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانــا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص ، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكــث . ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعاً علــى وجهــين مكره عليه فاغتبط ، وطائع إياه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنــا عليــه من العداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام . حسّن القبيح وقبح القبيح كله . فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهــون

من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة (المقاتلة) وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . وإن أتيتمونا بالجزي قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

قال فتكلم يزدجر فقال :

إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم ولا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عددهم كثر فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم فأسكت القوم .

فقام المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – فقال :

أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك . فجاوبني ، فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنال فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، وأن يبغي بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك . فبعث الله رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته خير بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو نفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد ، إلا ترب كان له هو الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله . فقال لنا : إن ربكم يقول : أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء وإليَّ يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي ، ولأحلكم داري دار السلام . فنشهد عليه

أنه جاء بالحق من عند الحق . وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما علـيكم ، ومـن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه ، فأنـا الحكـم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من نـاوأه ، فـاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجـو بنفـسك . فقـال يزدجـر : أتستقبلني بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت إلا من كلمني . ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به[1] .

* * *

عرضنا هنا جانباً من جوانب تربية الرسول ρ لهذه الأمة ، وسيمر معك جانب آخـر في فصل الثمرات ، وسيأتيك في الكتاب الثالث (عن الإسلام) الجوانب التفـصيلية لمنهـاج التربية والتعليم الذي شرعه رسول الله ρ للإنسانية ، وسترى أنه ما تـرك شـاردة ولا واردة مما يحتاجه البشر في أمر دين أو دنيا إلا وقد أحاط به ذلك المنهاج العظيم ، الذي جعل الأمة الإسلامية عندما كانت واعية له أرفع أمة في ميزان الحضارة ، وأخذت به أمم الغرب فكـان من آثاره ما هم عليه الآن ، وتخلت عنه الأمة الإسلامية فوصلت إلى ما هي عليه الآن .

ونظن أنّ فيما ذكرناه حتى الآن كفاية للإقناع بأن العالم ما شهد ولـن يـشهد مربيـاً كمحمد ρ . فعل ما فعل بإمكانياته المحدودة مادياً ، وبشعب أمي عملياً ، وخذ التـاريخ كلـه وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمة بهذه الفترة المحدودة ؛ وعلى قلة الإمكانات مـن الناحية النفسية والأخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية ، وإلى معشار معـشار ما نقل إليه رسول الله ρ أمته في سنوات معدودات ؟ اللهم لا .

* * *

[1] البداية ج7 ص41 .

ونريد أخيراً أن نقرر حقيقة هي : لئن شارك غير محمد ρ محمداً ρ في بعض جوانب ربى عليها رسول الله ρ البشر . فإن رسول الله ρ وحده هو الذي وضع النفس البشرية على الطريق الصحيح ، أما غيره فلئن أصلح جانباً فعلى حساب جوانب ويبقى ما أصلحه من النفس البشرية كلها حتى أعماق أعماقها ولهذا نقول :

إنه في الأصل لا يوجد مرب غير محمد ρ . فقولنا إنه المربي الأول وقدوة المربين لا يعني أننا أعطينا لغير من سلك طريقه صفة التربية ، حاشا ، وإنما هو لتقريب الأمور كي تتضح الحقائق وهذا بيان ما قلناه :

إن النفس البشرية كثيرة التعقيد كثيرة الشهوات فهي تحب المال والتملك وتود الحصول عليه من أقرب الطرق ، وتحب المتعة من تمتعها بالجمال إلى الخمرة إلى ما يلذ . وقد تصل الأمور ببعض الناس أنهم يتمتعون بمرأى الدماء . وما يمتع هذه النفس تود الوصول إليه مهما كان نوعه ، وبأي طريق ، والنفس تحب السيطرة وتحب التحكم بالآخرين ، والترأس عليهم والارتفاع عن غيرها ، وليس عند النفس مانع من استغلال الآخرين وبخسهم حقهم .

والنفس لا تألف النظام بل الفوضى ، والانفلات من كل تكليف ومن كل قيد .

والنفس حريصة على الحياة ، وتكره الموت حتى ولو كان الموت شيئاً ضرورياً ، ككونه لحرب لعادلة ، والنفس بشكل عام تود أن يؤدى لها حقها وتود أن تتهرب من واجبها .

وهذا الذي أجملناه بعض ما في النفس :

وأن تُعطى أنفس البشر كلها شهواتها فذلك مستحيل . إذ كل إنسان يحب الرئاسة فهل يمكن أن يكون الناس رؤساء ؟ وأجمل امرأة في العالم يتمناها زوجة كل إنسان فهل يمكن أن تكون زوجة لكل البشر ؟ .

لذلك فالبشر كلهم مجمعون على أنه لا بد من وضع حدود وقيود للنفس البشرية . تتمثل هذه الحدود والقيود بالآداب والأخلاق والعادات والقوانين ، وتربية الناس على ذلك .

والذي نراه أن بعض المربين ينجحون في جانب ، ويفشلون في جوانب ، نجد زعيمـــاً نجح في تربية قومه على التضحية ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على النظام ، ونجد آخــر نجح في تربية قومه على العمل ، ولكنك في المقابل تجد أنه نسي بقية جوانب النفس البشرية ، فلم يفعل لها شيئاً . هذه ناحية ، وناحية أخرى إن هؤلاء وإنْ نجحوا في هذا الجزء ، ولكن قد يكون هذا الشيء الذي نجحوا فيه غير موضوع في محله ، فالذي نجح في تعويد شعبه علــى الطاعة قد تكون طاعته فيما لا ينبغي ، والذي نجح في حمل قومه على التضحية فد يجعلهــم يضحون فيما لا يستحق التضحية ، ولكن الظاهرة التي نراها في تربية رسول الله ρ إنه ربــى كل جوانب النفس البشرية وهذبها وجعلها على الصراط الصحيح . فما ترى جانباً مــضيّعاً ، وما ترى تهذيباً في غير محله ، ولا ترى بعد ذلك للنفس المسلمة تصرفاً كان ينبغي ألا يكــون .

رباها على التضحية في محلها ، وعلى الفداء في محله ، وعلى النظام حيــث يحــسن النظام . وعلى الطاعة حيث تجمل الطاعة ، وعلى تحقيق المتعة حيث تكرم المتعة ، وعلــى التملك حيث يعدل التملك ، وعلى العبادة لله ، وحسن المعاملة للناس ، كل ذلك وأمثاله دون أن يطغى جانب على جانب ، أو ينسى جانب على حساب جانب ، أو تستعمل النفس فيما يقبح أن تكون فيه ، أو تنتقد عليه . وفي الكتاب الثالث / الإسلام / بيان هذا بما لا لبس فيه .

فمحمد ρ وحده هو مربي النفس البشرية ، وغيره لا يجوز أن يعطى هذه الــصفة إلا بالقدر الذي يتأسى فيه برسول الله ρ .

* * *

4- رجل الدولة الأول : سياسياً وعسكرياً

دمجنا العمل السياسي والعسكري في هذه الفقرة على اعتبار أن العمل العسكري أثــر عن العمل السياسي ومرتبط به ارتباطاً كاملاً لا ينفصل عنه ، وقد يكون ذروته فــي بعــض الحالات التي تكون فيها الحرب لا بد منها ، ثم إن الإمكانيات السياسية ، في إدارة الحروب لا تنفصل عن الإمكانيات العسكرية في الإدارة السياسية ، والرسول عليه الصلاة والسلام ، كــان قائد المسلمين سياسياً وعسكرياً ، وهو الذي سار بهم من نصر إلى نصر . حتى جعل مفــاتيح العالم في أيديهم مرات عديدة ولا زال باستطاعة المسلمين أن يسترجعوها إذا تتلمــذوا مــرة أخرى تلمذة كاملة على يديه عليه الصلاة والسلام .

على أنه وإن ارتبط العمل السياسي بالعمل العسكري . فإن لكل مجال كلام ينفرد به . لذلك فإننا سنقسم الكلام في هذه الفقرة إلى قسمين . الأول في الكلام عن الرسول عليه الصلاة واللام سياسياً . والثاني عسكرياً ، لنرى كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام في كُــلٍّ كــان في القمة التي لا يرقى إليها احد ، وهو الأمي الذي لا يعرف قراءة ولا كتابة ، مما يدل علــى أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنهاية .

أ : الرسول عليه الصلاة والسلام

القِيَادة السياسية العليَا

إن نجاح القيادة السياسية يتوقف على ما يلي :

1) على استيعاب هذه القيادة لدعوتها ، وثقتها بها وبأحقيتها ، وثقتهـــا بانتـــصارها . وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو إليه ، لتكون مواقفهما منسجمة مع هذه الـــدعوة ، فتكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة ، ولا تكون بيد أعداء الدعوة ســـلاحاً فعـــالاً بـــسبب التناقض ضد الدعوة نفسها .

2) وعلى قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغاً وإقناعاً .

3) وعلى قدرة القيادة في استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيماً وتيسيراً .

4) وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها .

5) وعلى قدرة القيادة أن تعرف إمكانية الأتباع ، وأن تستطيع الاســـتفادة مـــن كـــل إمكاناتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة . بحيث يأخذ كل منهم محله الصحيح .

6) وعلى قدرة القيادة على أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد .

7) وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة للواقـــع . فتـــضرب ضـــرباتها السيَاسية بشكل محكم .

8) وعلى قدرة هذه القيادة أن تصل إلى النصر والاستفادة منـــه ، وتطبيـــق مبـــادئ دعوتها تطبيقاً صحيحاً .

9) وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها إحكاماً بجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد .

وما عرف التاريخ إنساناً كمل في هذه الجوانب كلها إلى أعلى درجات الكمال غير محمد ρ . مع ملاحظة أن كمالاته هنا جانب من جوانب كمالاته المتعددة التي لا يحيط بها غير خالقها ، وأن كمالاته ونجاحه واستقامة خطواته وانتصاراته وتوفيق الله إياه كل ذلك دليل على أنه رسول الله الذي رباه فأحسن تربيته وأحاطه برعايته .

ولنبدأ باستعراض هذه الجوانب التسع في سيرة رسول الله العملية لنرى برهان كُلٍّ وكماله فيه مع ملاحظة أن خطتنا في هذه الأبحاث الاختصار والإشارة لا التفصيل .

* * *

1 – استيعابه ρ لدعوته نظرياً وعملياً وثقته بها وبانتصارها :

إذا كان هناك إنسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب ، ووثق بها وبمصيرها كل الثقة ، وعرف مضمونها كل المعرفة وعرف بداياتها ونهاياتها وأولها وآخرها ومقدماتها ونتائجها ، ولم يتزحزح عن جزء منها ، بل الخطوة الثانية تأتي مكملة للخطوة الأولى وممهدة للخطوة التالية ، فذلك هو محمد رسول الله ρ . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان واضحاً تماماً لديه أن منطلق دعوته هو أن الحاكم الحقيقي للبشر لا يجوز أن يكون غير الله ، وأن خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكميته شرك ، وأن التغيير الأساسي الذي ينبغي أن يتم في العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض ، إلى خضوع الكل لله الواحد الأحد ، وأن الأمة التي تحمل هذه القضية بكل متطلباتها هي التي سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية ولها قيادها . ومن هذه البداية وانسجاماً معها ، يقوم كل شيء في حياة البشرية ثانياً ، وحياة الأمة التي تحمله أولاً ، ولنر وضوح هذه الجوانب عنده ρ في بداية الأمر ونهايته .

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : " لما مشوا إلى أبي طالب وكلموه – وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم – فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت . وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك , وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له من

؛ ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه . فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقـال : يـا ابن أخي ! هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك قال : فقال رسول الله ρ : كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم . فقال أبـو جهـل : نعـم وأبيك وعشر كلمات . قال : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون مـن دونـه فـصفقوا بأيديهم " .

وروى ابن إسحاق عن الزهري في قصة عرض الرسول ρ دعوته على بني عـامر بن صعصعة ما يلي : " ثم قال له (أي بحيرة بن فراس) : أرأيت إن نحـن تابعنـاك علـى أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قـال (أي رسـول الله) : الأمر لله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ما أظهرك الله كـان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه " .

قال عدي بن حاتم : " بينما أنا عند رسول الله إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة .. ثم أتـاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها . فقال : إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبـة لا تخـاف أحداً إلا الله ... ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قـال : كسرى بن هرمز ، قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ... "[1]

وقد طالب المشركون رسول الله ρ أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا إليه ، وفي كل مرة كان يتنزل قرآن ويكون موقف رسول الله ρ الرفض ، ومـن هذه ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال : مر الملأ (أي السادة) من قريش على رسـول الله وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار – رضي الله عنهم – ونحوهم ونـاس مـن ضـعفاء المسلمين فقالوا (أي الملأ مخاطبين رسول الله) : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أفنحن نكـون تبعاً لهؤلاء ؟ أهؤلاء الذي منَّ الله عليهم ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طـردتهم اتبعنـاك قـال : فأنزل الله عز وجل :

---

[1] أخرجه أحمد .

{وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَىٰ رَبِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ من دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم من شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ من شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ}[1] .. وأخرجه أحمد والطبراني .

من هذه الأمثلة ترى بشكل واضح استيعاب رسول الله ρ لدعوته وثقته بها وبانتصارها ، وانسجام مواقفه معها ، ووضوح طريقه أمامه ، ومعرفته بنهايات ما يريد منها . فلم تضطرب بدايات مواقفه أبداً مع نهاياتها ، بل كل خطوة تأتي تكون مكملة لما قبلها ، وكل تشريع جديد يأتي متمماً لما قبله ، حتى كملت شريعة الله ، وتم دينه وهذا كله ما كان ليتم لولا أن محمداً رسول الله .

وهذا أول ما يلزم العمل السياسي العام ، تجده كأكمل ما يكون عند رسول الله ρ .

ويكفيك لتعرف معنى هذا الذي قدمناه ، أن تعلم أن الناس يعتبرون العمل السياسي الإسلامي عملاً مثالياً لا يستطيعه أي إنسان ، فإذا ما عرفنا بعد ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام استطاع أن يقود الناس بهذا الإسلام . فلا نجد موقفاً من مواقفه تناقض مع نصوص ومبادئ دعوته ، وعلمت أنه ما من زعيم سياسي ، إلا ويضطر للتناقض ، إما لاحقاً مع سابق ، أو دعوى مع عمل ، أو داخلياً مع خارجي ، أدركت مدى الكمال في القيادة المحمدية ، وخاصة إذا عرفت أنه لم يستطع أن يرتفع من حكام الأمة الإسلامية إلى القيادة بالإسلام الكامل بحق إلا أفراد منهم الخلفاء الراشدون الأربعة ، والثالث ثير عليه وقتل ظلماً ، والرابع خُرِجَ عليه وانتصر بعد ذلك خصمه السياسي . أما رسول الله ρ فقد ساس الناس بالإسلام ولم ينزل بالإسلام إلى مستوى الناس بل رفع الناس إلى مستواه . على وتيرة واحدة ونسق واحد ، في الفكر والعمل ، من بداية الدعوة حتى انتقاله ρ على العالم الآخر .

* * *

2 – استطاعته ρ الاستمرار بدعوته تبليغاً وإقناعاً :

إن هناك شيئين أساسيين في العادة . يجب أن يتفطن لهما قادة الحركات السياسية الفكرية الجديدة .

---

[1] الأنعام : 51 ، 52 .

أ – الحرص على استمرار عملية التبليغ والإقناع .

ب– البصر الحكيم بالموقف الذي يتخذ من الخصم .

إن أي دعوة من الدعوات إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع تجمد ، ثم تنحصر ثم تموت ، وأي دعوة من الدعوات لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم ، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول ، ولنضرب هذا مثالاً : إن الهنود عندما أرادوا تحرير بلادهم من الإنكليز ، اختاروا لنفسهم طريق اللاعنف في العمل . ومعناه عندهم أن لا يجابه الإنسان القوة الظالمة بالعنف بل يتحمل ظلمها بصبر حتى تتغير هي عواطفها ، وترتدع عن غيها ، وفائدة هذا الطريق أنه يكسب صاحبه عطف الناس وعطف الرأي العام خاصة عندما يكون على حق ، وقد نجح الهنود أخيراً في تحرير بلادهم ولم يكلفهم هذا الطريق ضحايا كثيرة . ولو أنهم سلكوا غير هذا الطريق لما استطاعوا وقتذاك أن يصمدوا أمام قوة بريطانيا فيكونوا قد خسروا كثيراً وفشلوا أخيراً .

وأنت عندما تدرس هذين الجانبين في العمل عند رسول الله ρ تجد أن رسول الله ρ قد نجح فيهما نجاحاً منقطع النظير ، فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه كما رأينا في الفصل السابق ، ورغم العداء العنيف الذي ووجه به ، ورغم كل شيء فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات ، ولعل أهم نقطة تلمحها بعد التوحيد أثناء عرض الرسول ρ دعوته على القبائل ، هو إلحاحه على حماية الدعوة ، واستمرارها وتأديتها ، ولقد تجاوز الرسول ρ ثلاثة عشر عاماً من المجابهة للمشركين ، دون انقطاع عن العمل ، مما يدل على مقدار نجاحه في هذا الموضوع .

وأما بالنسبة للأمر الثاني فأنت تلاحظ حكمة مواقفه تجاه العدو ، فهو في مكة ، يصبر ويأمر أتباعه بالصبر ، ولو فعل غير هذا لخسر أتباعه قتلاً ، ولشغل بذلك في قضايا الثأر ، ولما أمكنه أن يتابع عملية التبليغ ، وكسب بهذه الخطة كثيراً من القلوب .

فإذا ما انتقل إلى المدينة رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف الجديدة من معاهدة ، إلى سلام ، إلى حرب ، إلى ضربة هنا ووثبة هناك ، ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتاً على عملية تبليغ الحق وإقناع الناس به ، على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة .

وإذا أردت أن تقدر مقدار النجاح المحرز في هذا الطريق فانظر هذه المقارنة :

إن الحركة الشيوعية رغم وسائل القرن التاسع عشر في الدعاية وتفرغ أتباعها فإنها لم تستطع أن تحقق نصراً وتعمم إلا بعد سبعين عاماً من أول بيان أصدره زعيماها .

ولكن الذي حدث بالنسبة للدعوة الإسلامية أن رسول الله ρ عممها خلال ثلاث وعشرين عاماً التعميم الذي يرافقه الإقناع . ولهذا فإننا نقول مطمئنين : إنه لم توجد حركة سياسية تقوم على أساس عقدي ، نجحت كما نجحت دعوة رسول الله ρ وفي فترة قصيرة . وهذا كذلك يدلنا على أن الأمر أكبر من أن يكون – لولا التوفيق الإلهي – لهذا الرسول الأعظم الفذ على مدى التاريخ بين التاريخ .

* * *

3 – قدرته على استيعاب أتباعه تربية وتنظيماً وتسييراً ورعاية :

إن الدعوة العقدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاث :

1 – ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربي أتباعها تربية نموذجية ، بحيث يعطى أتابعها صورة حسنة عنها ، مما يؤدي إلى نفور الناس منها كأثر عن نفورهم من أصحابها . فيكون التابع حجة على الدعوة بدلاً من أن يكون حجة لها . وهذا يؤلب الرأي العام ضدها تأليباً خطيراً ويعطي الرأي العام حجة تلو الحجة عليها . وعلى العكس من ذلك إذا ما ربي أفرادها تربية نموذجية حية فإن الناس يؤمنون بهم قبل إيمانهم بدعوتهم ، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به ، وكم رجال ضربوا دعوتهم بسلوكهم مع أنهم يحملون دعوة عظيمة .

2 – أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر طاقاتهم في سبيلها . فأمثال هؤلاء يكونون في وضع مشلول ، فلا هم ضد الدعوة ولا هم يقدمون شيئاً لها ، وفي هذه الحالة تكون قيادة الدعوة وحدها متحملة كل مسؤولياتها ، والدعوة إذا كانت على امتداد دائم فإن هذه القيادة ستصبح في وضع لا يسمح لها أن تقوم بكل واجباتها ، وتكون المسألة هكذا ؛ داعية واحد ، ومدعوون كثيرون ، أما في الحالة الأخرى فإنك تجد العكس ، وذلك إذا

استطاعت قيادة الدعوة أن تسخر طاقات الأتباع لـصالح الـدعوة ، لأن المـسؤولية وقتـذاك يتحملها مجموع الأفراد ، فيكون كل فرد لينوب مناب القائد ، وكل فرد يـؤدي دوره . وفـي النهاية فمهما توسعت دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوة في تحملها .

3 – وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمـة ، والملاحظـة التامـة ، وعنـدما لا يوضعون فيما يحسن وضعهم به ، أو عندما يحسون بأنهم منـسيون ، أو عنـدما لا يعـرف الإنسان محله ومهمته المكلف بها كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع ويولد عندهم فتـوراً عـن الدعوة .

هذه النواحي الثلاث لا بد من تلافيها لأي دعوة تقوم على أساس مبدأ معـين وعـدم تلافيها يعطل سير الدعوة ويقتلها .

وأنت عندما تدرس حياة الرسول ρ وقيادته لأتباعه تجد تجنبه لهذه الجوانب ، ووجود ما يقابلها بشكل لا مثيل له . بحيث تستغرب بعد كيف انتصرت هذه الدعوة ، وهذه الجماعة ، وكيف توسعت على مر الأيام .

ففي الجانب الأول رأيت البحث السابق عـن تربيـة الرسـول ρ وكيـف أن الأمـة ألإسلامية كل قد وُسعت تربيةً ، وكيف ارتفع الأفراد من طور إلى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدى بها .

وفي الجانب الثاني ترى الحركية الدائمة التي كان يجعل أصحابه دائماً يعيشونها . فإذا أسلم رجل رباه التربية الإسلامية ثم كلفهُ أن يقوم بأعباء الدعوة في جهة من جهاتها ، أو يقوم بجزء من أعبائها ، وفي الجانب الثالث ترى دقة الرسول ρ في الرعاية والعناية والسهر علـى شؤون الأتباع بشكل عجيب ، ولعل هذا الجانب هو الأحق بالتمثيل هنا لأن الجانبين الآخـرين ممثل لهما في هذا المقام !!.

أخرج ابن إسحاق عن أم سلمة أنها قالت : لما ضاقت مكة ، وأوذي أصحاب رسـول الله وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلـك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره ، وممـا ينال أصحابه . فقال لهم رسول الله : " إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده

، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه " وقد وجههم مرتين إلى الحبشة . مـــرة فـــي السنة الخامسة . ومرة في السنة السابعة ، حيث كان المسلمون مقدمين على أعظـــم مراحـــل الاضطهاد ، مرحلة المقاطعة الشاملة .

وعندما قرر الرسول ρ الهجرة إلى المدينة ، وجه أتباعه كلهم قبله ، وبقي فـــي مكـــة حتى إذا لم يبق إلا من له عذر خرج مهاجراً . وأخرج أحمد عن شداد بن عبد الله قال : قـــال أبو أمامة : يا عمرو بن عبسة بأي شيء تدعي أنك ربع الإسلام ؟ قـــال : إنـــي كنـــت فـــي الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئاً ، ثم سمعت عن رجل يخبـــر أخبـــاراً بمكة ويحدث أحاديث ، فركبت راحلتي حتى قدمت مكة ، فإذا أنا برســـول الله مـــستخف وإذا قومه عليه جراء فتلطفت له فدخلت عليه فقلت : ما أنت ؟ قال : أنا نبي الله ، فقلت : وما نبي الله ؟ قال : رسول الله . قال : قلت الله أرسلك ؟ قال : نعم . قلت : بأي شيء أرسلك ؟ قال : بأن يوحد الله ولا يشرك به شيء وكسر الأوثان وصلة الرّحم . فقلت : من معك على هـــذا ؟ قال : حر وعبد / أو عبد وحر / وإذا معه أبو بكر بن أبي قحافة وبلال مولى أبي بكر . قلـــت : إني متبعك . قال : إنك لا تستطيع يومك هذا ، ولكن ارجع إلى أهلك . فإذا سمعت بـــي قـــد ظهرت فالحق بي . قال : فرجعت إلى أهلي وقد أسلمت . فخرج رســـول الله مهـــاجراً إلـــى المدينة ، فجعلت أتخبر الأخبار حتى جاء ركبه من يثرب . فقلت ما هذا المكي الذي أتـــاكم ؟ قالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك ، وحيل بينهم وبينه ، وتركنا الناس ســـراعاً . قـــال عمرو بن عبسة : فركبت راحلتي حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقلت : يا رســـول الله أتعرفني ؟ قال : نعم . ألست أنت الذي أتيتني بمكة ؟ قال : قلت بلى .

هذه ثلاثة أمثلة تدلك على مبلغ دقة الرسول ρ في توجيه أصحابه بالشكل الذي يحمون فيه ويأمنون ، وكيف أنه لا ينسى أحداً منهم ، بل يستوعبهم جميعاً برعايته ، وكيـــف يعـــدّهم للحظة المناسبة ، وكيف يسيّر كل واحد منهم بحكمة تناسب وضعه .

ولا ننتقل بك من هذا البحث حتى نضرب لك أمثلة أخرى على سهره ρ على حاجات أتباعه الشخصية وتأمينها لهم .

أخرج أحمد والبخاري عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقـــول : والله إن كنـــت لأعتمـــد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعـــدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا

ليستتبعني فلم يفعل ، فمر عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعـــل ، فمر أبو القاسم فعرف ما في وجهي وما في نفسي فقال : أبا هريرة ، قلت له : لبيك يا رسول الله . فقال : الْحقْ واستأذنت فأذن لي فوجدت لبناً في قدح قال : من أين لكم هذا اللبن فقالوا : أهداه لنا فلان – أو آل فلان – قال : أبا هر ! قلت : لبيك يا رسول الله . قال : انطلـــق إلـــى أهل الصفة فادعهم لي . قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهـــل ولا مـــال إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها ، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها ، قال : وأحزنني ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى به بقية يـــومي وليلتي ، وقلت : أنا الرسول ، فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم ، وقلت : ما يبقى لي مـــن هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال : أبا هر ! خذ فأعطهم . فأخذت القدح فجعلت أعطـــيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ، ودفعـــت إلـــى رسول الله فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر إليّ وتبسم وقـــال : أبا هر قلت : لبيك يا رسول الله . قال : بقيت أنا وأنت . فقلت : صدقت يا رسول الله . قال : فاقعد فاشرب . قال : فقعدت فشربت ثم قال لي : اشرب فشربت ، فما زال يقول لي اشـــرب فأشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له فيّ مسلكاً ، قال : ناولني القـــدح فـــرددت إليه القدح فشرب من الفضلة .

وأخرج أحمد عن ربيعة الأسلمي قال :

كنت أخدم النبي فقال لي : يا ربيعة ألا تزوج ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أريـــد أن أتزوج وما عندي ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلني عنك شيء فأعرض عني ، ثـــم قـــال لي الثانية : يا ربيعة ألا تزوج ؟ فقلت : ما أريد أن أتزوج ما عندي ما يقيم المرأة وما أحـــب أن يشغلني عنك شيء فأعرض عني ، ثم رجعت إلى نفسي فقلت : والله لرسول الله أعلم مني بما يصلحني في الدنيا والآخرة ، والله لئن قال لي ألا تزوج ، لأقولن : نعم يـــا رســـول الله . مرني بما شئت . فقال لي : يا ربيعة ألا تزوج ؟ فقلت : بلى مرني بما شئت . قال : انطلـــق إلى آل فلان حي من ألأنصار كان فيهم تراخ عن رسول الله ρ فقل لهـــم : إن رســـول الله ρ أرسلني إليكم يأمرني أن تزوجوني فلانة لامرأة منهم ، فذهبت إليهم فقلت لهم : إن رسول الله ρ أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني ، فقالوا : مرحباً برسول الله وبرســـول رســـول الله ρ ، والله لا يرجع رسول رسول الله ρ إلا بحاجته . فزوجوني وألطفوني ومـــا ســـألوني البينـــة .

فرجعت إلى رسول الله ρ حزيناً . فقلت : يا رسـول الله ! أتيـت قومـاً كرامـاً فزوجـوني وألطفوني وما سألوني البينة وليس عندي صداق .

فقال رسول الله ρ : يا بريدة الأسلمي اجمعوا له وزن نواة من ذهب . قال : فجمعـوا لي وزن نواة من ذهب ، فأخذت ما جمعوا لي فأتيت النبي ρ قال اذهب بهذا إليهم فقل لهـم : هذا صداقها . فأتيتهم فقلت : هذا صداقها ، فقبلوه ورضوه وقالوا : كثير طيـب ، قـال : ثـم رجعت إلى رسول الله ρ حزيناً فقال : يا ربيعة ما لك حزيناً ؟ فقلت : يا رسول الله ما رأيـت قوماً أكرم منهم ورضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا : كثير طيب ، وليس عندي ما أولم . فقـال : يا بريدة اجمعوا له شاة . قال : فجمعوا له كبشاً عظيماً سميناً ، فقال رسول الله ρ : اذهـب إلى عائشة – رضي الله عنها – فقل لها : فلتبعث بالمكتل الذي فيه الطعـام . قـال : فأتيتهـا فقلت لها ما أمرني به رسول الله ρ فقالت هذا المكتل في سبع آصع شعير ، لا والله لا والله : إن أصبح لنا طعام غيره فخذه . قال : فأخذته فأتيت به النبي ρ وأخبرته بما قالـت عائـشة ، قال : اذهب بهذا إليهم فقل لهم ليصبح هذا عندكم خبزاً وهذا طبيخاً ، فقـالوا : أمـا الخبـز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا أنتم ، فأخذنا الكبش أنا وأناس مـن أسـلم فـذبحناه وسـلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولمت ودعوت النبي ρ .

وأخرج أحمد عن أبي برزة الأسلمي – رضي الله عنه – أن جليبيباً كان امرأً يـدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي :

لا تدخلن عليكم جليبيباً ، إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن .

قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيّم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ρ فيها حاجة أم لا . فقال النبي ρ لرجل من الأنصار : زوجني ابنتك ! قال : نعم وكرامة يـا رسـول الله ونعمة عين ! قال : إني لست أريدها لنفسي ، قال فلمن يا رسول الله ؟ قال : لجليبيب ، قـال : أشاور أمها ، فقال : إن رسول الله ρ يخطب ابنتك ، قالت : نعم ونعمة عين ، قـال : إنـه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب ، قالت : لجليبيب ، أنيه لجليبيب أنيه ، لا لعمر الله لا نزوجه ! فلما أن أراد ليقوم ليأتي النبي ρ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية : مـن خطبنـي إليكم ؟ فأخبرتها أمها . فقالت : أتردون على رسول الله ρ أمره ! ادفعـوني إليـه فإنـه لـن يضيعني ! فانطلق أبوها إلى رسول الله ρ فأخبره ، فقال : شأنك بها ، فزوجها جليبيباً ، قال : فخرج رسول الله ρ في غزاة له ، قال : فلما أفاء الله الله عز وجل عليه قال : هل تفقدون من

أحد ؟ قالوا : لا . قال : لكني أفقد جليبيباً ، قال : فاطلبوه . فوجدوه إلى جنب سبعة قتلهم ثـم قتلوه فقالوا : يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه ، فأتاه النبي ρ فقال : قتـل سبعة ثم قتلوه . هذا مني وأنا منه – مرتين أو ثلاثاً . ثم وضعه رسول الله ρ علـى سـاعديه وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبي ρ ثم وضعه في قبره ، لم يذكر أنه غسله ، قال ثابـت فما كان في الأنصار أيم أنفق منها " .

ولعل في هذه الأمثلة كفاية على إبراز مقدار رعايته ρ لأتباعه واستيعابهم فـي كـل الجوانب .

*   *   *

4 – الثقة التي كان يتمتع بها ρ عند أتباعه :

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جداً عند أصحاب الفكر السياسي ؛ لذلك تـرى في أنظمة الحكم الديمقراطية أن الحكومة تبقى حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التي تعرفها ببعض الوسائل ، وقديماً قال كونفوشيوس حكيم الصين : إن الحكومة ينبغي أن توفر لـشعبها الثقة بها والحماية له بتوفير أسباب القوة والطعام والشراب وما يلزم . قالوا : فإن لم تـستطع أن تؤمن هذه الأشياء الثلاثة قال : تتخلى عن تأمين الطعام والشراب ، قالوا : فإن لم تـستطع تأمين الاثنتين الأخريتين قال : تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تفرط في الثقة " .

وهذا شيء معقول إذ ما دام الناس واثقـين بحكـومتهم ومتعـاونين معهـا ، فـإنهم يستطيعون بالتالي أن يسدوا النواقص ، أما إذا فقدت الثقة ، فقد تلاشى كل شـيء ، وفقـدت الأمة قوتها وحمايتها وهذا شيء مجرب ، إن فقدان الثقة يشل العمل السياسي ويميـت حركـة الأمة ويضعف روحها المعنوية ، ويضرب اقتصادها وبالتالي يهوي بها .

لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد السياسي للأمة ثقة الأمة به ومحبتها لـه ، فـإن هذا إذا وجد يعوض كل النواقص وكل الفراغات ، فإذا ما وضح هذا بشكل عام نقول :

إن تاريخ العالم كله لا يعرف مثلاً واحداً يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول ρ به .

إن ثقة الناس بالقائد الرسول ، كانت ثقة غير متناهية ، يكفي لإدراكها أن ترى بعــضاً من مواقف الصحابة في أدق وأصعب وأحرج الأحوال :

في يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول ρ والوفد الثاني للأنصار كان من أمرهم مــا ذكره ابن هاشم :

قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري : يا معشر الخزرج ! هل تــدرون عــلام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من النــاس . فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ؟ فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافوه بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأمــوال وقتل الأشراف ... "

وقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله وإن بيننا وبين الناس حبــالاً (أي أحلافــاً وعهوداً) فلعلنا نقطعها ثم ترجع إلى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس . فضحك رسول الله ρ من قوله وقال : الدم الدم ، الهدم الهدم ، وفي رواية : بل الدم الدم والهدم الهــدم . أنــا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال يا قوم هذا رسول الله ρ أشهد أنــه لــصادق وأنــه اليوم في حرم الله وأمنه وبين ظهري قومه وعشيرته ، فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة ، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في ســبيل الله وذهــاب الأمــوال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله حقاً ، وإن خفتم خذلاناً فمن الآن . فقالوا عند ذلك : قبلنــا عن الله وعن رسوله ما أعطيانا ، وقد أعطينا من أنفسنا الذي سألتنا يا رسول الله ، فخل بيننــا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه ، فقال أبو الهيثم : أنا أول من بايع .

وأخرج أحمد من حديث بيعة العقبة :

فقلنا (أي الأنصار) : يا رسول الله علام نبايعك ؟ قــال : تبــايعوني علــى الــسمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنــصروني فتمنعــوني إذا

قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة . فقمنا إليـه وأخـذ بيـده أسعد بن زرارة – رضي الله عنه – وهو أصغرهم فقال : رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نـضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافـة وقتـل خياركم وتعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإمـا أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله قالوا : أمط عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً " .

من هذه النصوص يشعر الإنسان بمقدار الثقة التي كانت تملأ قلوب هذا الرعيل الأول مع معرفتهم بما سيترتب على هذه البيعة من آثار مخيفة .

ومن مواقف مقدمات معركة بدر كما أخرجها ابن إسحاق في سيرة ابن هشام .

قال رسول الله ρ مخاطباً أصحابه : ما ترون في قتال القوم ؟ فقام المقداد بن عمـرو فقال : إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى – عليه السلام – اذهب أنـت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

تكلم آخرون ثم قال سعد بن عبادة : إيانا يريد رسول الله ρ والذي نفـسي بيـده لـو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بر الغماد لفعلنا .

وقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله

قال : أجل

قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطينـاك علـى ذلـك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالـذي بعثك بالحق لو استرضعت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحـد ، ومـا نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إن لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك ما تقـر بـه عينك فسر على بركة الله .

هذه المواقف ، وكل حياة الرسول ρ مع أصحابه مواقف من هذا النوع تـدلك علـى مقدار الثقة التي كانت لرسول الله في قلوب أصحابه .

والحقيقة أن شخصية الرسول ρ كانت من الأسر والقوة والنفوذ ، بحيث لا يملك مـن يخالطها إلا أن يذوب فيها ، إلا إذا كانت شخصيته معقدة ، ولعل في قصة مـولاه زيـد بـن حارثة ما يؤكد هذا المعنى . إذ يأتي أبو زيد وأعمامه ليشتروه ويرجعوا به إلـى أهلـه حـراً ولكن زيداً يختار صحبة محمد مع العبودية والغربة . على فراقه مع الحرية ولقـاء الأهـل ، وهذه ظاهرة عجيبة أن يصارح زيد أهله بهذا . وهو ليس صغير السن بل كان وقتذاك ناضج الفكر ، فكافأه محمد ρ (كان ذلك قبل النبوة) أن حرره وتبناه .

ويكفينا ما ذكرناه في هذا الباب . فالسيرة وحياة الصحابة كلها شواهد علـى أن الثقـة التي تمتع بها رسول الله ρ بين أتباعه لم يعرف العالم لها مثيلاً .

* * *

5 – استطاعة القائد الاستفادة من كل إمكانيات الأتباع العقلية والجسمية أثناء الحركـة ، مع المعرفة الدقيقة بإمكانية كل منهم ووضعه في محله :

إن عبقرية القيادة لا تظهر في شيء ظهورها في معرفة الرجال ، ووضع كـل فـي محله ، واستخراج طاقات العقول بالشورى ، واستخلاص الرأي الصحيح ، وفي كل من هذين كان الرسول ρ الأسوة العليا للبشر .

إن الشورى في فن السياسة عملية تستجمع فيها طاقات العقـول كلهـا لاسـتخلاص الرأي الصالح ، ويتحمل فيها كل فرد مسؤولية القرار النهائي ، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة . فيندفع نحو المراد بقوة ، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة . ويبقى الإنسان فيها علـى صلة بمشاكل أمته وجماعته ، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بـين المـسلمين ، حتـى يتحمل كل فرد من المسلمين المسؤولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملاً .

والظاهرة التي نراها في حياة الرسول ρ كقائد . حبه للشورى ، وحرصـه عليهـا ، ومحاولته توسيع دائرتها ، واستخلاصه الرأي الأخير في النهاية :

قبيل غزوة بدر استشار الناس فأشار المهاجرون ، فلم يكتف ، ثم استشار الناس فأشار الخزرج والأوس ثم اتخذ قراره الأخير في الحرب حتى يمحو أي تردد عن أي نفس .

ولما عسكر المسلمون يوم بدر في أدنى ماء جاء الحباب بن منذر إلى رسول الله ρ فقال : أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي ماء من القوم فنعسكر فيه ثم نغوّر ما رواءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشر ولا يشربون . فقال رسول الله ρ : لقد أشرت بالرأي . ونفذ ρ ما أشار به[1] .

وقبيل يوم احد استشار الناس وأخذ برأي الأكثرية . ويوم الأحزاب أخذ برأي سلمان الفارسي . ويوم الحديبية أشارت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها .

إنها القيادة التي لا تستكبر أن تنزل على رأي مسلم كائناً من كان ، ما دام الرأي سليماً صحيحاً ، والقيادة الصالحة هي التي تعمم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأي إلا قاله ، وخاصة فيما يكون فيه غرم .

بعد غزوة حنين جاءت هوازن مسلمة وسألوا رسول الله ρ أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم فقال لهم : إن معي من ترون وإن أحب الحديث إلي أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقام رسول الله ρ في المسلمين فأثنى على الله ما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال

---

[1] أخرجه ابن إسحاق .

لهم : إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم عادوا إلى رسول الله ρ يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا .

إنها الشورى التي يأخذ فيها كل إنسان حقه . ولقد علم المسلمون من نبيه هذا فأحسنوا القيام به ، حتى إن كان عمر بن الخطاب ليستشير المرأة فربما أبصر في قولها الشيء يستحسنه فيأخذ به .

* * *

وأما معرفة الرجال ووضع كل في محله المناسب له وتكليفه بالمهمة التي يصلح لها فكذلك لا يلحق برسول الله ρ أحد فيها .

إن أبا بكر وعمر كانا في زمن رسول الله ρ يلقبهما الصحابة بالوزيرين له ، وكان يسمر معهما في قضايا المسلمين ، ولما مرض ρ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس وهذا الذي جعل المسلمين يختارونه بعده خليفة ، ثم كان عمر الخليفة الثاني ، والناس يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس ، فهل يشك أحد أن تركيز الرسول ρ على هاتين الشخصيتين كان في محله ، وأنهما من الكفاءة في المحل الأعلى وأن رأي رسول الله ρ فيهما في محله . وهذان مثلان فقط وإلا فما اختار رسول الله ρ رجلاً إلا ورأيت الحكمة في هذا الاختيار .

يقول عمرو بن العاص في قصة إسلامه وخالد بن الوليد : فوالله ما عدل بي رسول الله ρ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا .

وما أحد إلا ويعرف كفاءة هذين الرجلين من آثارهما بعد .

وعندما أتى وفد بني تميم إلى رسول الله ρ قالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا .

قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل . فقام عطارد بن حاجب فقال ، فأمر رسول الله ρ ثابت بن قيس الخزرجي أن يرد عليه فرد ، ثم قال شاعر بني تميم فقال ، فأمر رسول الله ρ حسان بن ثابت أن يرد ، فغلب خطيب رسول الله ρ خطيبهم وشاعر رسول الله ρ شاعرهم .

لكل مقام رجال وكان رسول الله ρ أكثر الخلق فراسة في اختيـــار الرجـــل المناســـب للمقام المناسب .

ولعل في قصة نعيم بن مسعود بالغ الدلالة على ما قلناه :

" كان نعيم بن مسعود حسن الصلة بكل القبائل المعايدة للمسلمين يوم الأحزاب ســـواء في ذلك يهود بني قريظة أو قومه أو قريش ... وفي أحلك اللحظات أيام الأحزاب أسلم نعـــيم وقد أصبح المسلمون بين بني قريظة في الداخل والمشركين بعد الخندق ، وإذا أُتي المـــسلمون من قِبل قريظة لم يعد يصلح خط دفاع المسلمين واضطروا للدخول في معركة مفتوحة ليـــست متكافئة ولذلك فإن الرسول ρ وقد أسلم نعيم يكلفه ألا يعلن إسلامه وأن يقوم بعمليـــة تخلخـــل صف العدو .

يقول عليه الصلاة والسلام لنعيم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

ورجع نعيم وكان من أمره ما سنقصه عليك مما يشهد أن اختيار رســـول الله ρ كـــان موفقاً غاية التوفيق .

خرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال : يا بني قريظة قـــد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم .

قالوا : صدقت لست عندما بمتهم .

فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره . وإن قريشاً وغطفان قد جـــاءوا لحـــرب محمـــد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقـــة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيـــديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه . فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمر رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني . فقالوا : نفعل . قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد . وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ؟ ثم تكون لك على من بقي منهم حتى نستأصلهم . فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي . ولا أراكم تتهموني . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . قال : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل . ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم ..

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام فقد هلك الخف والحافر . فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم أن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم . ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا . حتى نناجز محمداً . فإنا نخشى إن ضرّستكم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا . ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا . فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم . وهكذا أفلح المسلمون في فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم .

* * *

6 – قدرته الكاملة ρ على حل المشاكل الطارئة :

إن الدعوات والتنظيمات السياسية التي تقوم على أساسها ، كثيراً ما تــضرب بــسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلاً موفقاً ، مما يــؤدي إلــى انقــسام أصــحابها أو ضربها والقضاء عليها ، وكلما كانت القيادة أقدر على حل المشاكل كان ذلك أضــمن لنجــاح الدعوة .

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلاً غير مشروع فتــستعمل القــوة مــع أتباعها ، فتبيد المعارضين أو تسجنهم .. كما نرى كثيراً من هذا في عصرنا الحاضر . إلا أن الظاهرة التي لا مثيل لها في تاريخ القيادات أنك تجد عند رسول الله ρ قدرة لا مثيل لها علــى حل المشاكل بكل بساطة ، هذا مع سلوك الطريق الألطف مع الأتباع . والذي عرف العــرب عن كثب يدرك أي قيادة هذه القيادة التي استطاعت أن تشق الطريق بأقل قــدر ممكــن مــن المتاعب .

إنه لا توجد أمة في العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية ، إذ العوامل النفسية التــي تثير المشاكل كثيرة جداً ، فكلمة قد تثير حرباً ، وجرح كرامة قد يؤدي إلى ويــلات ، ونظــام للثارات ، وشعور بالولاء ، وعواطف متأججة ، وعصبية عارمة ، وجرأة نــادرة ، وقــوة ، وصلابة ، وعدم انضباط ... وكل واحدة من هذه تحتاج إلى قيادة تتمتع بكفاءة منقطعة النظير ، وكان رسول الله ρ القائد الفذ الذي استطاع أن يدير أمر هذا الشعب القوي المــراس ويحــل كل مشاكله بكل بساطة . وهذه أمثلة على حلوله السريعة للمشاكل :

حله ρ لمشكلة وضع الحجر الأسود قبل النبوة حين هدمت قريش الكعبــة وأعــادت بناءها . وهذه رواية ابن إسحاق للحادث . قال :

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوهــا حتى بلغ البناء موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلــى موضــعه دون الأخرى حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فربت بنو عبد الدار جفنة مملــوءة دمــاً ثــم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الــدم فــي تلــك الجفنة ، فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فــي

المسجد وتشاوروا وتناصفوا . فزعم (إذ يروى أن المشير على قريش مشهم بن المغيرة ، ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذ أسن قريش كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان أول داخل عليهم رسول الله ρ فلما رأوه قالوا : هذا الأمينُ ، رضينا . هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ρ هلمّ إليّ ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثّوب ، ثم ارفعوا جميعاً ، ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

* * *

نموذج من حلوله ρ السريعة لمشاكل المنافقين :

نزل المسلمون مرجع رسول الله ρ يوم غزو بني المصطلق على ماء فحدثت حادثة أراد عبد الله بن أبي أن يستغلها ليهدم وحدة صف المسلمين ، وهو قديماً رأس قومه ، فلنر ماهية الحادثة وكيف حلها رسول الله ρ .

يقول ابن هشام : فبينا رسول الله ρ على ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول – وعنده رهط من قومه – فيهم زيد بن أرقم غلام حدث – فقال : أوَ فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

(جلابيب قريش : كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين) .

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى إلى رسول الله ρ وذلك عند فراغ رسـول الله ρ مـن عدوه ، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله .

فقال رسول الله ρ : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ولكن أذّن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ρ يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ρ حين بلغه أن زيد بن أرقـم قـد بلغه ما سمعه ، فحلف بالله : ما قلت ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفاً عظيماً .

فقال من حضر رسول الله ρ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ما قال الرجل ، حَدَباً على ابن أبي بن سلول ودفعاً منه .

فلما استقل رسول الله ρ وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليـه ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله ρ : أو ما بلغك ما قال صاحبكم . قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبـد الله بـن أبي بن سلول . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخـرجن الأعـز منهـا الأذل . قال : فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيـز . ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبته ملكاً .

ثم مشى رسول الله ρ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصـدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامـاً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ρ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبـد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله ρ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيـع يقال له بقعاء ...

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان مثـل أمـره ، فلمـا نزلت أخذ رسول الله ρ بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذي أوفى الله بأذنه ، وبلغ عبد الله بن

عبد الله بن أُبيّ الذي كان من أمر أبيه فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ρ : بل نترفق به ونحن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ρ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري .

* * *

حله ρ لمشاكل الهجرة :

ولما هاجر رسول الله ρ وأصحابه إلى المدينة كانت هناك مشاكل تحتاج إلى حل سريع :

أ- قضية اسنجام الناس بعضهم مع بعض وهم من قبائل شتى .

ب- إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس في المدينة وليسوا كلهم مسلمين فمنهم اليهود ومنهم المنافقون ومنهم المسلمون .

جـ- حل المشكلة الاقتصادية إذ المهاجرون تركوا أولادهم ومساكنهم ، ومشكلة المهاجرين دائماً مشكلة صعبة حتى بالنسبة للدول الحديثة ، ثم كان اليهود هم المسيطرين على السوق التجارية ، إذ السوق الوحيدة فيها لهم . ولنرى كيف حلت هذه المشاكل كلها بسهولة .

وقد حلت المشكلة الأولى والثالثة مع بعضهما على الشكل التالي :

ما كادت الأمور تستقر بالمدينة حتى أنشأ الرسول ρ للمسلمين سوقاً ليستغنوا عن سوق اليهود ، وشرع بأمر الله سنة الإخاء فكل مهاجري جعل له أخاً أنصارياً ، وجعل هذه

الأخوة أعمق من أخوة النسب فكانوا يتوارثون بها ، وحض الناس على الكرم والسخاء والإيثار ، وصادق ذلك نفوساً ما عرف التاريخ أشرف منها ، ولا أرقى بعد الرسل ، فكان من آثار ذلك الشيء العجيب .

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف قال :

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ρ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد : أيها الناس ! فقدموا لأنفسكم . تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه – ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه – ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله .

وروى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ρ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفني ، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ..

ومن خبر الأنصار يوم هاجر إليهم الناس أنهم كانوا يختصمون على المهاجر كلهم يريد أن يضمه إلى نفسه ، حتى إنه لم ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة .

بهذه الروح التي بثها رسول الله ρ في أتباعه حلت مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل .

أما المشكلة الثانية وهي إيجاد صيغة ملائمة يتعايش بها الناس ؛ إذ المجتمع المدني كان مؤلفاً من الأوس والخزرج وبينهما عداء قديم ، واليهود كانوا منقسمين على بعضهم ،

بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، وهم حريصون على أن يبقى النـــزاع بـــين الأوس والخزرج . ثم أتى المهاجرون وهم كذلك من عشائر كثيرة فكان من أمـــر رســـول الله ρ أن كتب أول وثيقة سياسية في الإسلام بين هذه الأطراف كلها تمثل الدستور الـــذي يتعـــايش بـــه هؤلاء جميعاً وقد رضوا جميعاً به .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ρ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادَعَ فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ρ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تـــبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون (الربعة : الحالة التي جاء الإسلام وهم عليها) بينهم . وهم يفدون عانيهم (العاني : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى (المعاقل : الديات ، الواحدة : معقلة) كل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقـــسط بـــين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولـــى ، وكـــل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو ابـــن عـــروف علـــى ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المـــؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفـــدي عانيهـــا بالمعروف والقسط بني المؤمنين . وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين علـــى مـــن بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فـــساد بـــين المـــؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا نصر كـــافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعـــض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصـــرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا علـــى سواء وعدل بينهم , وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعـــضاً ، وأن المـــؤمنين يبـــيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحـــسن هـــدى

وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه مـــن اعتبط (أي قتله بلا جناية منه توجب القتل) مؤمناً قتلاً عن بينة ، فإنه قود به إلا أن يرضـــى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينضر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نـــصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ρ ، وإن اليهود ينفقـــون مـــع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمـــة مـــع المـــؤمنين ، لليهـــود ديـــنهم , وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه (أي يهلك نفسه) وأهل بيته .

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، إن ليهود بني جـــشم مثـــل مـــا ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف . وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن مـــن ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن البرَّ دون الإثم ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم .

وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ρ ، وأنه لا ينحجـــز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم وأن الله على أبـــر هـــذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حـــارب أهـــل هـــذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لم يأثم امـــرؤ بحليفـــه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمـــة إلا بـــإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ρ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قـــريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دعهم يثرب ، وإذا دعوا إلـــى صـــلح يـــصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قـــبلهم ، وأن يهـــود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة " .

قال ابن إسحاق : وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بـــر واتقـــى ، ومحمـــد رسول الله ρ .

* * *

حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة :

أثناء غزوة الأحزاب أعلن بنو قريظة نقضهم للعهد مع رسول الله ρ وقرروا الحـــرب وكان قصة ذلك كما يلي :

كان من جملة الرجال الذين ألبوا العرب حتى تجمعوا لحرب رسول الله ρ فـــي هـــذه الغزو حيي بن أخطب اليهودي فلما اجتمعت العرب عامة وحاصرت المدينة أتى حيـــي بـــن أخطب كعب بن أسد سيد قريظة ليقنعه بإنهاء عهده مع رسول الله ρ والمشاركة في الحـــرب ضده ، وكان كعب حتى تلك اللحظة مغلقاً أبوابه وحصونه وملتزماً الوفاء بعهده مـــع رســـول الله ρ .

ولما طرق حيي بن أخطب باب كعب قال له كعب رافضاً أن يفتح له البـــاب : إنـــك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصـــدقاً . وبعد أخذ ورد سمح له كعب بالدخول فقال حيي :

ويحك يا كعب جئت بعز الدهر وبحر طام .

قال : وما ذاك ؟

قال : جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأســـيال مـــن رومـــه وبغطفان على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد وقد عاقدوني وعاهـــدوني علـــى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

قال كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شيء . دعني وما أنا عليه فإني لم أر محمداً إلا وفاءً وصدقاً .

ولكنه لم يزل به وببني قريظة حتى أقنعهم بنقض العهد فأحضرت قريظة الصحيفة التي كتب بها الميثاق فمزقتها وبعث النبي ρ من يستكشف له الأمر كسعد بن معاذ حليف بني قريظة في الجاهلية فقالوا له : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد وسبوا سعداً فقالوا له وهو سيد الأوس بكل وقاحة : أكلت أير أبيك ..

وكانت خيانة داخلية في أحرج المواقف ، وغدراً لو أعطى ثمراته الخبيثة لاستؤصل الإسلام والمسلمون ، إذ به لا تعود للخندق فائدة ، ويتحطم خط دفاع المسلمين ، وتكون الكارثة ، إنها خيانة جزاؤها بشكل طبيعي الإعدام .

وانتهت غزوة الأحزاب بانسحاب المشركين ثم أمر رسول الله ρ المسلمين للتوجه إلى بني قريظة لمعاقبتهم وحاصرهم رسول الله ρ حتى نزلوا على حكمه وكانوا يعرفون أن الحكم فيهم سيكون القتل والصحابة كلهم يعرفون أن جزاءهم سيكون كذلك . وهذا هو الحكم الحق والعدل والذي نصت عليه توراة اليهود نفسها .

وقبل أن يصدر الرسول ρ حكمه تواثبت الأوس وطلبوا من الرسول ρ العفو كما عفا عن بني النضير ، إذ بنو قريظة كانوا حلفاء الأوس في الجاهلية ، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج ، والأوس والخزرج كانتا تتنافسان في كل شيء ، وإذاً فرسول الله ρ أمام معارضة من قسم كبير من أصحابه في قضية حساسة هي قضية تنفيذ عقوبة يستحقها مجرمون ، فكان من أمر رسول الله ρ معهم ما هذه قصته كما يرويها انب هشام حيث حكّم سيد الأوس فيهم ، وسيد الأوس هو الذي عانى ما عانى من بني قريظة يوم غدروا ، وسيد الأوس ما كان يحكم إلا بما استحق هؤلاء فرضيت الأوس بتحكيم سيدها وحكم بالعدل في أمرهم وهو القتل جزاء خيانتهم ورضيت الأوس :

يقول ابن هشام :

فلما أصبحوا (أي بني قريظة) نزلوا على حكم رسول الله ρ فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت

– وقد كان رسول الله ρ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكـــانوا حلفـــاء الخـــزرج ، فنزلوا على حكمه . فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له – فلما كلمته الأوس قـــال رسول الله ρ ألا تضرون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم ؟ قالوا بلى . قال رســـول الله ρ فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ρ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رفيـــدة في مسجده . وكانت تداوري الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضـــيعة مـــن المسلمين . وكان رسول الله ρ قد قال لقومه حين أصابهم السهم بالخندق : اجعلوه في خيمـــة رفيدة حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله ρ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه علـــى حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم ، وكان رجلاً جسيماً جميلاً ثم أقبلوا معه إلى رســـول الله ρ وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ρ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد أنى (آن) لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم ســـعد ، عن كلمته التي سمع منه .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ρ والمسلمين ، قال رسول الله ρ قوموا إلى ســـيدكم – فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسول الله ρ الأنصار .

وأما الأنصار فيقولون : قد عم بها رسول الله ρ فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمـــرو ، إن رسول الله ρ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال سعد بن معاذ : علـــيكم بـــذلك عهـــد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم – قال : وعلى من ها هنا ؟_ فـــي الناحيـــة التي فيها رسول الله ρ : وهو معرض عن رسول الله ρ إجلالاً له – فقال رسول الله ρ : نعـــم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء .

قال رسول الله ρ لسعد : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة " .

ثم نفذ رسول الله ρ الحكم .

حله ρ لمشكلة هزيمة أحد :

يوم أحد خسر المسلمون المعركة بسبب عدم تنفيذ مخطط الرسول ρ للمعركة كـــاملاً وهذا الفشل سيكون من آثاره ما يلي :

1 – ضعف الروح المعنوية عند المسلمين .
2 – طمع القبائل العربية كلها بالمسلمين .
3 – سقوط هيبة المسلمين العسكرية .
4 – توجه قلوب الناس كلها للقضاء على المسلمين .
5 – تنفيس المنافقين واليهود وتربصهم الشر بالمسلمين .
6 – وهناك احتمال بعد أحد أن يفكر المشركون وقد انتصروا ورجعـــوا أن يعـــودوا لاستئصال المسلمين من جديد وقد سنحت لهم الفرصة . وفعلاً قد فكروا في ذلك . فكيف فعل رسول الله ρ لتلافي هذه النتائج كلها .

إنه ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلـــوا المعركـــة أن يـــستعدوا مباشرة للحرب رغم إعيائهم ثم خرج بهم تبعاً آثار المشركين ، ولم يكد المشركون يـــسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرد وراءهم إلا وأعلنوا الرحيل الذي يشبه الهرب مع أنهم كانوا يفكرون أثناءها في الرجوع إلى المدينة لاستئصال المسلمين فيها ، ولم يقع يومها حرب ولكـــن هـــذه العملية الجرئية غسلت آثار أحد كلها وبشكل سريع . إذ كانت معركة أحد يوم الـــسبت وكـــان خروج الجيش هذا يوم الأحد ، وبقي معسكراً في حمراء الأسد طيلة ثلاث ليال ونزل القـــرآن بعد ذلك فربى المسلمين ووعظهم وغسل كل الآثار النفسية للهزيمة ..

* * *

هذه أمثلة خمسة ضربناها لنرى كيف كان رســـول الله ρ يحـــل المـــشكلات اليوميـــة بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أثر ، هذه الإمكانية العجيبة في حل المـــشكلات . جعلـــت رجـــلاً كبرناردشو الأديب الإنكليزي المشهور يقول : ما أحوج العالم إلى رجل كمحمد يحل مـــشاكله وهو يشرب فنجاناً من القهوة (أي ببساطة) وهذه الأمثلة التي ضربناها ، نماذج . وإلا فمـــن قرأت كتب الحديث ككتاب البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد وكتب حياة الصحابة وكتب السيرة ، رأى كثرة المشكلات اليومية الفرديـــة والجماعيـــة التي كانت تعترض حياة رسول الله ρ وهو يسوس شعباً من أعصى شـــعوب العـــالم انقيـــاداً وطاعة وسياسة ، ومع هذا فما عرف أن مشكلة مرت عليه إلا وحلها بسهولة كاملة واســـتقامة

مع منهج الحق الذي يدعو إليه ، والذي يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بآن واحـد ، ومـا كان ذلك ليكون لولا توفيق الله ورعايته .

* * *

7 – بعد نظره ρ وضرباته السياسية الموفقة :

إن الدارس لتصرفات رسول الله يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته عليه الـصلاة والسلام ، إلا وفيه غاية الحكمة ، وبعد النظر ، فمثلاً يرسل كسرى إلى عامله على الـيمن / باذان / أن يهيج رسول الله ، وأن يقبض على رسول الله ليرسله إلى كسرى ، فيرسـل بـاذان رجلين ليقبضا على رسول الله ويأتيا به إلى كسرى ويأمر باذان أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله ، فلما وصل الرجلان أبقاهم الرسول عنده خمسة عشر يوماً دون رد عليهم وقُتِـلَ كسرى في اليوم الخامس عشر فأنبأهم عليه السلام بقتل كسرى يوم مقتله وأهدى أحد الرجلين منطقة فيها ذهب وفضة وأرسل إلى باذان رسالة مضمونها أنه إن أسلم أعطاه ما تحـت يـده وكان من آثار هذا كله أن خلع باذان ولاءه لكسرى وأسلم معلناً ولاءه لمحمد ρ .

ويوم أراد المنافقون أن يستغلوا شعائر الإسلام ، ليوجدوا عملاً منسقاً فيما بينهم ضـد الإسلام . بأن يبنوا مسجداً يكون مركزاً لتآمرهم ودسهم وتجمعاتهم المشبوهة . أمهلهم عليـه السلام حتى عاد من غزوة تبوك ، ثم حرق المسجد وهدمه وفضح الله أمرهم ، والأمثلة مـن هذا النوع كثيرة كلها تدل على حنكته عليه السلام وحكمته وبعد نظره الـسياسي ، وإن كـان العمل السياسي عنده عليه الصلاة والسلام غير منفصل عن غيره ، فتجده يخاطب كـل قـوم بأسلوب ينسجم مع نفسيتهم ، ويعامل كل إنسان بطريقة ترضي هذا الإنسان بـالحق وهكـذا ، انظر إلى خطابة إلى وفد بني الحارث بن كعب تجده يختلف عن أي خطاب آخر خاطـب بـه وفداً من الوفود لأن هذه القبيلة لها وضع خاص .

قال ابن هشام :

" فأقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعـب مـنهم قـيس بـن الحصين ذي الغصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد الزيادي وشداد

بن عبد الله القناني وعمر بن عبد الله الضبابي فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل : يا رسول الله ! هؤلاء رجال بني الحارث ابن كعب . فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا : نشهد إنك رسول الله وأنه لا إله إلا الله . قال رسول الله ρ : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، ثم قال رسول الله : أنتم الذين إذا زجروا استقدموا ، فسكتوا ، فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المدان : نعم يا رسول الله نحن الذي إذا زجروا استقدموا قالها أربع مرار فقال رسول الله : لو أن خالداً لم يكتب لي أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً قال : فمن حمدتم قالوا : حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله قال : صدقتم ، ثم قال رسول الله : بم كنتم تغلبون من قاتلكم ، في الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحداً قال : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله إنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم " .

ولما كانت خطتنا في هذا البحث الاختصار فسنكتفي بتحليل موقف من أبرز مواقفه السياسية عليه الصلاة والسلام ، تتضح به حنكته وحكمته بشكل كامل . هذا الموقف هو الموقف الذي تمخض عنه صلح الحديبية ، وما لهذا الصلح من آثار رائعة وهذه هي القصة كما يرويها ابن هشام نذكرها ثم نعقب عليها :

قال ابن هشام :

واستنفر العرب ومن حوله ومن أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذي صنعوا : أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، فخرج ρ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له .

وخرج رسول الله ρ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[1] وقد نزلوا بذي طوى

---

[1] العوذ المطافيل : استعار العوز المطافيل للنساء مع أولادهن , والعوذ هي الإبل الحديث النتاج . والمطافيل : التي معها أولادها .

يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى قراع الغميم[1] ، فقال رسول الله ρ : يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (أي صفحة العنق) .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ وإن رجلاً من بني أسلم قال : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل (كثير الحجارة) بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال ρ للناس : قولوا نستغفر الله ونتوب إليه . فقالوا ذلك . فقال : والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها فأمر رسول الله ρ الناس فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش ، في طريق تخرجهم على ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة .

فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قترة الجيش (غبار الجيش) قد خالفوا عن طريقهم . رجعوا راكدين إلى قريش . وخرج ρ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقالت الناس : خلأت الناقة (بركت ولم تنهض) . قال : ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ، ثم قال للناس : انزلوا . قيل له يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القلب (القليب : بئر) فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن (مبرك الإبل حول الماء) .

فلما اطمأن رسول الله ρ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه : ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت ليريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ، ومعظماً لحرمته ، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ! إنكم تعجلون على محمد ، إن محمداً لم يأت للقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت ،

---

[1] كراع الغميم : موضع بين مكة والمدينة .

فاتهموهم وجبهوهم[1] وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبـــداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ρ ، مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف ، فلما رآه رسول الله ρ مقبلاً قـــال : هـــذا رجل غادر ، فلما انتهى إلى رسول الله ρ وكلمه قال له رسول الله ρ نحواً ممـــا قـــال لبـــديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قاله له رسول الله ρ ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة – أو ابن زبان – وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ρ قال : إن هـــذا مـــن قـــوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدي يسير عليه في عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ρ إعظاماً لما رأى .

فقال لهم ذلك . فقالوا : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك . فغضب عند ذلك وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، وعلى هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيـــت الله مـــن جاء معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبـــين مـــا جـــاء لـــه أو لأنفـــرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى بـــه .

ثم بعثوا إلى رسول الله ρ عروة بن مسعود الثقفي ، وخرج حتى أتـــى رســـول الله ρ فجلس بين يديه ثم قال :

يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس (الأوشاب ، الأخلاط) ثم جئت بهم إلى بيـــضتك (القبيلة والعشيرة) لتفضها بهم . إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل . قد لبسوا جلـــود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً .

---

[1] جبهوهم : واجهوهم بما يكرهون .

وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، وأبو بكر الصديق خلــف رســول الله ρ قاعد ، فقال : امصص بظر اللات ، أنَحْنُ ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟

قال : هذا ابن أبي قحافة .

قالوا : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها .

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ρ وهو يكلمه . والمغيرة بن شعبة واقف علــى رأس رسول الله ρ في الحديد . وجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ρ ويقول : اكفــف يــدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك .

يقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك .

فتبسم رسول الله ρ فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيــك المغيــرة ابن شعبة . قال : أي غدر ، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس . فكلمه رسول الله ρ بنحو ممــا كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي فــي ملكــه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيــت قومــاً لا يــسلمونه لشيء أبداً . فروا رأيكم .

وإن رسول الله ρ دعا خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله علــى بعير له يقال له " الثعلب " ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقــروا بــه جمــل رســول الله ρ وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ρ .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يــا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعنــي وقــد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمــان بــن

عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلا فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ρ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ρ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ρ . واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل . قال ابن إسحاق فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ρ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم . فدعا رسول الله الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ρ على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ρ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر فبايع رسول الله ρ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً إبط ناقته قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ρ أن الذي ذكر من أمر عثمان بن عفان باطل .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ρ وقالوا له : إئت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ρ مقبلاً فقال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ρ تكلم فأطال الكلام وتراجع ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟ قال : بلى قال : أولسنا بالمسلمين قال : بلى قال : أليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر : الزم غرزه ، فإني أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ρ فقال : يا رسول الله ؟ ألست برسول الله .

قال : بلى .

قال : أولسنا بالمسلمين ،

قال : بلى .

قال : أو ليسوا مشركين ؟

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟

قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعني .

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله ρ علي بن أبي طالب – رضوان الله عليه – فقال : اكتب " بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب " باسمك اللهم " فكتبها ثم قال : اكتب : " هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو " فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، وقال رسول الله ρ :

" هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بني عمرو . اصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ..

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وأنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

فبينا رسول الله ρ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل ابـــن عمرو يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله ρ وقد كان أصحاب رسول الله ρ خرجـــوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ρ فلما رأوا ما رأوا من الـــصلح والرجـــوع ، وما تحمل عليه رسول الله في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

ولما رأى سهيل أبا جندل قام إليه بضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال : يا محمد لقـــد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال: صدقت . فجعل ينثره بتلبيبه ويجـــره ليـــرده على قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المـــشركين يفتنوني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله ρ يا أبـــا جنـــدل ، اصـــبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننـــا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناه على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبـــا جنـــدل ، فإنهم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني عمر قائم السيف منه ، يقول عمر :

رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضنَّ الرجل بأبيه ونفذت القضية فلمـــا فـــرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين : أبو بكر الـــصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبـــي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك وعلي بن أبي طالب ، وكان هو كاتب الصحيفة " . اهـــ .

هذه قصة الحديبية فلنر آثرها وقيمة هذا العمل من الناحية السياسية الحركية :

يقول الزهري ، فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كـــان القتـــال حيـــث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقـــوا فتفاوضـــوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخـــل فـــي تينـــك السنين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك .

قال ابن هشام :

والدليل على قول الزهري أن رسول الله ρ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك في بسنتين في عشرة آلا " وحسبك أن تعلم أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة زعماء قريش أسلموا في هذه المرحلة .

ومن آثار هذه العملية :

أن تهدمت حجة قريش الأساسية في جمعها العرب على رسول الله ρ إذ أن قريشاً أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الجوار ولتعظيمها هذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم فلما سار رسول الله ρ معلنا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمام الرأي العام كثير من الحجب .

ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول ρ من العرب الذين يسيرون في فلك قريش لغيرهم ، وتفرغ لليهود فأنهاهم من جزيرة العرب سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، ومن آثار هذه العملية أن اقتنعت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد ρ يومها وهم حلفاء قريش المشركة .

ومن آثار هذه العملية أن أعطيت القبائل العربية حرية التحالف مع محمد ρ وهذا شيء ما كان ليكون من قبل ، فدخل من شاء من هذه القبائل في حلف رسول الله ρ .

ومن آثار هذه العملية كثرة إقبال الناس على الإسلام بعدها ، أن انقطع أمل الناس من غير المسلمين بنصرة أو عزة أو غلبة أو منعة إلا بالإسلام ، فضلاً عن انقطاع أملهم بإنهاء الإسلام والمسلمين .

ومن آثار هذه العملية أن تفرغ رسول الله ρ لفتح آفاق أمته على العالم . وتفهيمهم مهمتهم العالمية ، بإرسال رسله وكتبه إلى الدول الكبرى يومذاك . كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشي ...

ومن آثار هذه العملية أن خدمت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون أزرهــم . وتتقــوى ظهورهم بقريش ، وتبعثرت القبائل العربية الوثنيــة ، وهمــدت حــدة قــريش وعــصبيتها ، واسترخت وأخذت تقوى تجارتها , وركنت إلى السلام ، ولما كانت الهدنة مديدة المدة لم تفكر في البحث عن أحلاف لها بينما كان المسلمون يتوسعون يومياً .

ومن آثار هذه العملية فتح مكة . إذ عندما نقضت قريش عهدها واعتدت على حلفــاء رسول الله ρ من بني خزاعة ، وعمد رسول الله ρ إلى مكة فاتحاً . لولا صلح الحديبية ومــا أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد رمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتهــا وأصنامها وقريشها ، ولكن صلح الحديبية والآثار التي ترتبت عليه لم يبق بقية من الحميــة لا عند قريش ولا عند غيرها لها ، فكان أن فتحت مكة صلحاً بل لقد فتحت مكة من يوم دخلهــا المسلمون في العام التالي للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة ومظاهرتهم التي أرهبت من رآها .

لقد كنت ضربة سياسية لا يستطيعها غير محمد ρ . إذ ضربها وأصحابه غير راضين ، وأعداؤه لا يعرفون كيف يتصرفون . وإنك عندما تعلم أن عمر وكبــار الــصحابة كــانوا كارهين لما حدث ، وترى بعد ذلك هذه الآثار ، تدرك أن الأفق الذي ينظر منه رســول الله ρ أفق فريد في تاريخ الزعامات كلها .

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتعرض لمصير أقسى الشروط التي فرضتها قريش في المعاهدة والذي أثار المسلمين ، وهو أن قريشاً لا ترد من جاءهــا مــن المــسلمين مرتداً وأن المسلمين يردون من جاءهم من مكة مسلماً بدون إذن ، لقد كانت نهاية هذا الــشرط أن طلبت قريش نفسها إلغاء هذا الشرط من المعاهدة وقصة ذلك ما يلي :

لما فر أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قــريش وراءه رجلين وقالوا :

العهد الذي جعل لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يــأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر فقال أجل والله لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال ρ حين رآه : لقــد رأى هــذا

ذعراً فلما انتهى إلى النبي قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله قد وفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال ρ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر . قال : وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عنده عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا وتعرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ρ تناشده الله تعالى والرحم ما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل إليهم " .

وهكذا ألغت قريش بنفسها أشد البنود قسوة كما ظنها المسلمون .

إذا عرفت آثار الحديبية وعرفت أن الصحابة كلهم كانوا غضاباً لهذا الصلح . حتى أن رسول الله ρ لما أمرهم بعد كتابة الصلح أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا متحللين من إحرامهم لم يقم منهم رجل واحد ، مما داخلهم من الغم مع تكرار رسول الله ρ الأمر ثلاثاً . ولم يفعلوا إلا بعد أن حلق عليه الصلاة والسلام ونحر هديه ، هنالك أفاقوا ونفذوا ما أمرهم به ، إذا عرفت هذا تدرك الأفق العالي الذي كان ينظر منه عليه السلام ، وتدرك أن قيادته جزء من صلته بالله المحيط علماً بكل شيء فكان مسدَّداً راشداً مهدياً .

* * *

8 و 9 – الوصول إلى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر ، وإحكام البناء بحيث يكون قادراً على الصمود في المستقبل ، ووضع أسس النمو الدائب المتطور بحيث تحتفظ الدعوة بإمكانية السير عبر العصور :

لقد مضى على بدء الإسلام أربعة عشر قرناً ولا زال الإسلام في انتشار ولا زال يتوسع ، ورغم كل ما تبذله الدعايات الكافرة من أعدائه . سواء كانوا أصحاب دين أو غير أصحاب دين ، بطرق منظمة وغير منظمة ، فلا زال الإسلام هو الإسلام ولا زال قادراً على أكثر من الحركة ، ورغم الملابسات التاريخية التي أوقعت العالم الإسلامي في قبضة أعدائه ، ورغم سيطرة هؤلاء الأعداء ، فالإسلام باق . ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهيؤا لأعداء الإسلام وسائل الانتصار داخل العالم الإسلام ، فالإسلام شامخ يتحدى ويقهر .

وخلال هذا التاريخ الطويل دخل الإسلام في صراع مع ثقافات فغلبها ، ومـــع أديـــان فغلبها ، ومع قوى عظيمة فصهرها .

وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دول تحكم باسم الإســـلام ، وقامـــت دول تحمـــل الإسلام واستوعب الإسلام الجميع .

وفي كل مرة كان الإسلام محمولاً حق الحمل ، كان أصحابه هم الغالبين وحـــضارته أرقى الحضارات وما أتي المسلمون إلا من تقصيرهم وتفريطهم وجهلهم بالإسلام .

القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر ، والقرون الوسطى عندنا قمـــة التقـــدم ، وكانوا يومها متمسكين بدينهم وكنا لا زلنا متمسكين بديننا ومن هنا مفرق الطريق ، حيث كان الإسلام حمل أتباعه على التقدم . وحيث كان غير الإسلام ديناً كان تأخر .

والإسلام الآن يصارع على كل مستوى شرقاً وغرباً فكراً وسلوكاً وهو في كل حـــال أبداً غالب وإن اضطهد المسلمون فذلك لقوة فكرهم لا لشيء آخر .

وما أحد يجهل أن روح الجهاد في قلوب المسلمين هي التي حررت العالم الإســـلامي من قبضة مستعمريه في عصرنا هذا ، وإن كان جهاد المسلمين ضرب بيد ناس منهم وليـــسوا منهم ، ففرضوا على المسلمين بعد التحرير مذاهب أخرى . هذا الإسلام الذي كان هكذا عبـــر العصور يحمله جيل إلى جيل وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله .

هذا الإسلام استطاع أن يفعل هذا لأن الأساس الذي بناه رسول الله ρ له خلال ثلاثـــة وعشرين عاماً ، كان من القوة بحيث يحمل كل العصور ، ويسع كل العصور .

* * *

ونحن اليوم نرى دعوات فكرية وسياسية كثيرة ، لا تحمـــل فـــي جوهرهـــا إمكانيـــة تطبيقها ، أو لا تستطيع قيادتها أن تحققها في عالم الواقع مع أن بيدها كل السلطات وبيدها كل الوسائل ، ولكنها تقف عاجزة عن تحقيق الفكرة ، وأحياناً تتراجع من نصف الطريق ، ولكـــن الظاهرة التي نراها في حياة رسول الله ρ أنه خلال عشر سنوات فقط كان كـــل جـــزء مـــن

أجزاء دعوته قائماً يمشي على الأرض ، على أكمل ما يكون التطبيق ، وكل جزء من أجــزاء دعوته قابلاً للتطبيق خلال كل عصر وما مر عصر وإلا ورأيت الإسلام مطبقاً بــشكل مــن الأشكال ، فإذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية تحتاج إلى عشرات الــسنين حتــى تنتــشر وتنتصر وقد تطبق وقد لا تطبق ، أدركت أن العملية هنا ليست عملية عادية وإنما هي شــيء خارق للعادة تحس وراءه يد الله . وتحس بالتالي أن الدين دين الله . وأن محمداً عبده ورسوله ...

وقد آثرنا هنا الاختصار لأن الرسالة الثالثة (الإسلام) كلها برهان عملــي علــى أن شريعة الإسلام وأحكامه تعلو في كل عنصر وعلى كل فكر .

وننتقل هنا نقلة أخرى لاستعراض جوانب الشخصية القيادية لرسول الله ρ في أمــور الحرب كما وعدنا .

* * *

(ب) الرسول عليه الصلاة والسلام

الشخصيّة القيَادِية العَسْكريّة المثلى

قبل الكلام عن شخصية الرسول ρ العسكرية ، نحب أن نذكر بعضاً من مواقفه العسكرية كنماذج تكون بمثابة مقدمة للحديث في هذا الموضوع :

أ – قال ابن هشام يروي قصة فتح حصون خيبر عن أنس بن مالك :

" واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا رسول الله ρ والجيش قالوا : محمد والخميس ، فأدبروا هراباً ، فقال رسول الله ρ : الله أكبر خربت خيبر إنا نزلتنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

قال ابن إسحاق :

وكان رسول الله حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر (جبل بين المدينة ووادي الفرع) فبنى له فيها مسجد ثم على الصهباء (موضع بينه وبين خيبر روحة) ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع ، فنزل بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ، فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً . ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهاليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر ... يفتحها حصناً حصناً ... " .

تأمل : عنصري المفاجأة والمداهمة ، حيث لم يستطع يهود حصون خيبر أن يجمعوا قوتهم ، وتأمل حيلولة رسول الله ρ بينهم وبين المدد ، وتأمل الاحتياطات المتخذة لإبقاء غطفان في مواقعها .

* * * * *

ب – بعد فتح مكة سمع رسول الله ρ أن قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال ، قد جمعوا جموعهم لحربه ، فبعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ρ ، وسمع عن مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ρ فأخبره الخبر .

يقول ابن هشام : فلما أجمع رسول الله ρ السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان ابن أمية أدراعاً له وسلاحاً فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال : يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا فقال : أغَصْباً يا محمد ؟ قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها لك قال : ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

وخرج رسول الله ρ بجيش عدته اثنا عشر ألفاً منهم ألفان من أهل مكة .

وجعل أمير مقدمته خالد بن الوليد . وطبعا المفروض أن تكون مهمتهما استطلاعية .

يقول جابر بن عبد الله فيما يرويه عنه ابن هشام :

" لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً وفي عماية الصبح (أي ظلامه قبل أن يتبين) وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا " .

وهنا تجد أن خالداً رجل الحرب العظيم ، قد فشل في مهمته الاستطلاعية الضاربة ، إذ أصبح في الكمين هو ومقدمته . وكانت صدمة فرت منها المقدمة وثبت خالد ، إلا أن الجيش لما رأى المقدمة فارة دون معرفة السبب ، والجيش فيه من أهل مكة الكثير وهم بعد ليسوا في حالة نفسية جيدة . ففروا وأخذ الناس هول المفاجأة وبدقائق معدودات فر الجيش كله ، ولم يبق حول رسول الله ρ أحد .

أخرج البخاري عن أنس – رضي الله عنه – قال : لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع رسول الله ρ عشرة آلاف والطلقاء فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار ! قالوا

: لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ! فقالوا : لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك ، وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبد الله ورسوله .

وروى ابن هشام عن العباس بن عبد المطلب قال :

إني أسمع رسول الله ρ آخذاً بحكمة بغلته (أي لجامها) البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرءاً جسيماً شديد الصوت ورسول الله ρ حين رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء فقال : يا عباس ! اصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة ! فقال : فأجابوه لبيك لبيك ، فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت : ياللأنصار ثم خلصت أخيراً ياللخزرج وكانوا صبراً عند الحرب ..

عن جابر بن عبد الله قال : بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع ما يصنع ، إذ هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه فيأتيه علي بن أبي طالب من خلفه فضرب عرقوبه الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصار على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجف عن رحله واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ρ .

تأمل هذه المقتطفات عن غزوة حنين : إرسال العيون للاستطلاع ، اختياره خالداً . استعارته الأدراع والسلاح ، تلافيه الهزيمة . إدارته المعركة بنفسه . معرفته برجاله الذين يعتمد عليهم في ساعة المحنة .

وقبل الانتقال عن هذا المقام ، نحب أن نذكر هنا موقفاً يجمع بين أعلى ما في العبقرية العسكرية والسياسية :

بعد الانتهاء من معركة حنين قرر الرسول ρ أن يفتح الطائف ، فذهب إليها وحاصرها ، وكان أهلها عندهم خبرة في فن الدفاع العسكري ، والبلدة محصنة وخيراتها كثيرة ورأى الرسول ρ أن الحصار سيطول فاستشار نوفل بن معاوية فقال :

يا نوفل ! ما ترى في المقام عليهم ؟ فقال : يا رسول الله ثعلب في جحــر إن أقمــت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر النبي ρ عمر بن الخطاب أن يــؤذن فــي النــاس بالرحيل .

والآن تصور منطقة الطائف وحولها قبائل موتورة منذ قريب لا زالت مستقلة فهــي لا شك إذا تفرغت لنفسها ولم تشغل قد تسبب مشكلة خطيرة في قلب الدولة الإســلامية . إذ قــد تكون مجمعاً لكل موتور حاقد .

فانظر كيف هيأ لها رسول الله ρ ما يشغلها ويضايقها حتى أسلمت :

كان قائد القبائل المحاربة لرسول الله ρ يوم حنين مالك بن عــوف . وقــد فــر بعــد المعركة ولجأ إلى ثقيف فلما جاء وفد هوازن يفاوض الرسول ρ سألهم عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف . فقال رسول الله ρ : أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مــسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل ، فأتي مالك بذلك فخرج من الطــائف ، وقــد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال ما قال فيحبسوه فــأمر براحلتــه فهيئت له ، وأمر بفرس له فأتي به إلى الطائف فخرج ليلاً فجلس على فرسه فركض حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة الإبل وأسلم فحسن إسلامه ... فاستعمله رسول الله ρ على من أســلم من قومه وتلك القبائل : ثمالة وسلمة وفهم ، فكان يقاتل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغــار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن الثقفي : هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنــو ســلمة . وأتانا مالك بهم ناقضاً للعهد والحرمة . وأتونا في منازلنا ولقد كنا أولي نقمة .

فانظر كيف استطاع رسول الله ρ أن يشغل ثقيفاً ويضايقها فيقــضي علــى الأخطــار والمشكلات المتوقعة بهذه البساطة الكبيرة .

* * * * *

لعلك بهذين المثالين من مواقفه العسكرية عليه الصلاة والسلام أخذت صورة على أن محمداً ρ في القيادة العسكرية كهو في كل شيء ، يمثل دائماً القمة التي لا يرقى إليها آخــرون ، وقد حلا لعباس محمود العقاد أن يعقد مقارنة بين محمد ρ والقائد العسكري الإفرنسي النابغة

في فن الحرب نابليون بونابرت ، فأرانا في هذه المقارنة أنه ما من قضية مهمــة فــي أمــر الحرب فطن لها نابليون وطبقها إلا وكان رسول الله ρ سباقاً لها . هذا مع أن نــابليون كــان متفرغاً مختصاً بفن الحرب . ثم إنه صادف في حياته العسكرية من الفشل ما لم يَحــدث قــط لرسول الله ρ عسكرياً ، ولا لمن رباهم ودخلوا المعارك الكبرى بعده ، هــذا مــع ملاحظــة الإمكانيات المحدودة لرسول الله ρ والإمكانيات الكثيرة الموجودة بيد غيره من أمثال نابليون ، وقد استطرد العقاد استطرادات مفيدة في هذا الموضوع نحب أن ننقلها مع شيء من الحــذف لبعض الجمل لفائدتها ولكن قبل ذلك نحب أن نقرر هذه الحقيقة وهي :

أن الرسول ρ بدأ حياة دولته العسكرية بجيش مقداره ثلاثمائة وأربعة عــشر رجــلاً . محاط بقبائل الجزيرة العربية كلها . مشركيها ويهودها ونصاراها وكلها معاديــة لــه ، وفــي الجزيرة العربية وعلى أطرافها سلطان لفارس والروم ، وقد استهدفهم رســول الله ρ بحربــه وبهذه القوة الصغيرة وبدعوته الكبيرة شق رسول الله ρ طريقــه دعــوة وسياســة وحربــاً . فأخضع الجزيرة العربية كلها ، ولم يتوقف إلا وقد هيأ المسلمين لحرب الفرس والــروم بــآن واحد . فأتم خلفاؤه ما بدأه عسكرياً . فسقطت الدولة الفارسية وتقلصت الدولة الرومانية عــن آسيا وأفريقيا تقريباً . كل ذلك في أقل من عشر سنوات وما حدث بعده من فتوحات لا يمكــن أن ينسب إلا إليه فإنه من آثار تربيته ρ وتأسيسه وتخطيطه .

وهذا شيء يتحدى التاريخ سابقاً ولاحقاً أن يكون قد حدث مثله ولو مرة فــي تــاريخ العالم . فنحن إذا ما نقلنا هذه المقارنة لا نعني التساوي . حاشا ، وإنما نريد أن نبرهن علــى أن كل عظمة يرجح بها رسول الله ρ على الاختصاصيين المتفرغين لها ، وهو في كماله بهــا كماله في كل شيء غيرها ، يرجح الناس كلهم بكمالاتهم كلها .

* * * * *

يقول " العقاد " : ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونــابرت علــى أســلوب حرب الحركة الذي كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية ، والذي ظهر في الحــرب العالمية الحضارة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة في جميع الحروب ، على الرغم من الحــصون والسدود . لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية ، بالمــضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم .

1 – " فنابليون " يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع .. وإنما كانت عنايته الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التي يلجأ إليها جلة القواد .

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك من ثلاثة أمور ..

أن يختار الموقع الملائم ،
وأن يختار الفرصة ،
وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده .

وكان النبي ρ سابقاً إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها ... فكان كما قدمنا لا يبدأ أحداً بالعدوان ، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموا جهد ما تواتيه الأحول ، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة ... فلا يثنيه ذلك عن الخطة التي تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جميع الأموال وجمع الرجال ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي ، فلم يحدث ما توقعوه .

وكان عليه الصلاة والسلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها ... ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي المهاجمين ، إلا أن يكون الهجوم وبالاً على المقدمين عليه ، كما حدث في غزوة الخندق .

2 – وكان نابليون يقول إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم في عدد الجنود ..

ومعجزة الإيمان هنا أعظم جداً من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يحارب عرباً بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة ... فلا يقال هنا أن الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون . وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان .

3 – وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره ، فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتها وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوربية وتحويل العملات عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا .

وهكذا كان النبي ρ يحارب قريشاً في تجارتها ، ويبعث السرايا في إثر القوافل كلما سمع بقافلة منها .

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوربة هذه السرايا وسموها " قطعاً للطريق " وهي سنة المصادرة بعينها التي أقرها " القانون الدولي " وعمل قادة الجيوش في جميع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيداً تارة وغالياً في الحمق والشطط تارة أخرى .

4 – وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة .

ونرجع إلى غزوات النبي عليه الصلاة والسلام فلا نرى أنه حاصر محله ، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها في الغدر والوقيعة ، كما حدث في حصار بني قريظة وبني قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف .

5 – وقد كان نابليون معتداً برأيه في الفنون العسكرية ، ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغني عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال .

ومحمد عليه الصلاة والسلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتـــال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر ، وألمحنا إليه آنفاً – حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ، ثـــم بتغـــوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء . وقيل في روايات كثيرة إنه عمل بمـــشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينـــة . فحفر الخندق وعمل النبي بيديه في حفره .

وقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه الصلاة والسلام كان خليقاً أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن ســـلمان الفارسي بين أهل المدينة في إبان الهجمة عليها ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور في جميع وقعاته . وفي وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين رامياً مشدداً عليهم في التـــزام مـــوقفهم قائلاً لهم : احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا أماكنكم لا تبرحـــوا منـــه . وإن رأيتمونا ننهزم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فـــلا تعينونـــا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبـــل . والـــذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة ، ولكن المـــشاورة هنـــا هـــي المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبي وما تبع فيه نابليون ، فهذه خـــصلة معهـــودة فـــي كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب .

6 – ولَم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون .

وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يـــضربون العبـــدين المستقيين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشاً ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء . وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عـــن عـــدد الجزور التي ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذي يحتاج إليه .
وكان صلوات الله عليه إنما يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلـــى العلم بفجاجه ودوربه ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع مـــن كـــل فيما هو خبير ه من فنون أو دلائل استطلاع .

7 – واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام وكان يقول : إنــه يخشى من أربعة أقلام ، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التي عاهدوا عليها ويــشهرون بــه وبالإسلام ، أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون في هجوه وهجو دينه ، فينفذ إليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم .

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزي كولردج الذي كان يخوض في ذمه ويستهوي الأسماع بسحر حديثه .

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الإسلام إنما هــي حــروب دعــوة أو حروب عقيدة ، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والــشرك أو بــين الإلهيــة والوثنية . وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلاً من سبل الصراع في هذا الميدان . فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ويقصده بــالطعن فــي لبــاب رسالته الإسلامية . وإن لم ينفر مع الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده وإنمــا هــو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل مــن المقــاتلين ، ولا ســيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة إلا ريثما تعود .

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز لــه أن يقتــل أحداً لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته . ومــا نهــض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين ، ولو كان للرسول الإسلامي من غرض لجــاز لــه أن يقــل المسالمة ممن يحاربونه في دينه وإن لم يشهروا السيف في وجهه . فــإن الــضرب بالــسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه .

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبــل أن نحكــم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح ، ولم يتخذ محمد الحرب صناعة .. فإذا كان مع هــذا لم يتقن منها ما يتولاه مدفوعاً إليه فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الــذي تعلمهــا

وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمي بين رمال الصحراء .

ولقد كانت خبرة النبي ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال فكانت طريقته في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأتباع مثلاً يحتذى في جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه – من ثم – حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال العدو .

ففي الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض . إلى أمثال ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات .

ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على سر البعث ورجاله جميعاً يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أم في مناورة استطلاع ، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهناك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ولا خوف من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة . ولا سيما إذا كانت الحركة من حركات البحار .

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة . وقد عرفت في المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن " سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم " .

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقديماً وعند بداءة الدعوات على التخصيص .

فأولها كتمان لخبر عمن يحيطون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن

يكون منهم الضعفاء والمخالفون , وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبي عليه الصلاة والسلام في جميع المطالب وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن بالاتباع ، ولهذا كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب إلى الآن .

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصاته ألا يكره أحداً منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام .

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه إذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب إلى النقيض فيحرف الأخبار عمداً أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه .

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن إلى صحته قبل الاعتماد عليه .

وفي الحروب الحاضرة تجربة جديدة من المستطلعين أو الرواد المتقدمين فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون إلى الطيارات وراء الصفوف ، فيتسللون إلى مراكز المواصلات ويعبثون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد .

قيل في الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل في انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير .

فمن دواعي الإعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين وأنها شيء جديد في شكله وإن لم يكن جديداً في غايته ومرماه .

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية . فهي تستلزم أن يكون الرائد غيوراً على عمله متحمساً لإنجازه رقيباً على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له إذ هو انفرد وأعوزته الرغبة في إنجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل إليه من بلاد الأعداء طلباً للسلامة . ولا عقاب عليه إلى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه . وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات .

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول إليهم ، وهي لهذا أحرى أن تحسب من وحي إخوان الطريق وإلهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ، ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذي يغني عن الرقابة ساعة التنفيذ ، لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب .

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام في اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والإكراه . فهذه " أولاً " بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعال بين رجالها إذا أريد . وهي " ثانياً " بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقسور ، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء .

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع ، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام عليماً بمزاياه . معنياً به غاية العناية ، فالعدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه .

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حيث أصيب في وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم .

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع .

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ، ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها دياراً يسأله عن مكان الجيش المتراجع . أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل عليه .

أما " هتلر " فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة .

فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم . واشتهر أنه أخطأ في استطلاع القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ويترقب الإغارة عليه لنصرته كائناً من كان ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافي وهو عنصر الجرمان .

ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم – كما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية – أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين .

* * * * *

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية . ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو أشكالها أو أحجامها ، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق ، إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حرباً تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والإشارة ، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل ، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم ، فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهي إلى نتيجة واحدة وهي استضخام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التوي توجه هذه الضخامة .

لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة .

وهذه الفكرة هي التي ترينا محمداً عليه الصلاة والسلام قائداً حربياً بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه وفي الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأي والسلاح والكلام . وهذه القدرة هي شهادة كبرى للرسول تأتي من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال .

* * * * *

ويزيد هذه الشهادة عظماً ، أن الرجل الذي يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هياب ، شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال .

فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان علي فارس الفرسان يقول : " كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ρ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو " .

ولولا ثباته في وقعه حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين ، للحقت الهزيمة بالمسلمين ، وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعاً ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شيء ؛ لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير في داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره .

ومشاركته في الوقعات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفي نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود .

وإذا كان القائد خبيراً بالحرب قديراً عليها غير هياب لمخاوفها ، ثـــم اكتفـــى منها بالضروري الذي لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة مـــن طريـــق القيادة العسكرية وتأتي جميع صفاته الحسنى تبعاً لصفات الرسول . اهــ " عبقرية محمد "

نقلنا كلام العقاد الآنف لما فيه من فوائد ، إلا أننا لا نعتقد أنه أحاط بمزايا رســـول الله ρ العسكرية . ولا نعتقد أنه أراد ذلك ، وإنما لمس بعض هذه المزايا لمساً خفيفاً ، ولا نعتقـــد كذلك أننا نستطيع استجلاء هذه المزايا كلها لقصورنا أولاً وللإيجاز الذي نقصده ثانياً في هـــذه الكتابات ، غير أن هناك ميزة تربو على كل ما ذكر لرسول الله ρ من ميـــزات فـــي قـــضية الحرب لم يتعرض لها حتى الآن هي تأمينه ρ لجيشه ولدولته دائماً (الهيبة العسكرية) التـــي تجعل الآخرين دائماً في حالة رعب وقد عبر هو نفسه ρ عن هذه الحقيقة بقولـــه " ونـــصرت بالرعب مسيرة شهر " وأن من جملة عوامل النصر المهمة دائماً في حـــرب المـــسلمين هـــذه الناحية التي وطد رسول الله ρ أركانها في حياته ، وحافظ عليها أصحابه بعده ، وهـــي التـــي كانت تفعل في قلوب أعدائه المقاتلين الأفاعيل . ولو درسنا حياة الرسول ρ العسكرية لرأينـــا أن هدفاً كبيراً دائماً من أهداف عملياته العسكرية كان إبقاء هذه الهيبـــة وزيادتهـــا وتأكيـــدها وتوسيع دائرتها حتى وصل المسلمون إلى حالة في النهاية كان النـــاس كلهـــم يهـــابونهم ولا يهابون هم أحداً ، لا دولة كبرى ولا صغرى ولا قبيلة ولا جيشاً ولا سلاحاً ولا عدداً ولا عدة فترى الجيش الصغير (3000) يهجم على الجيش الكبير (200.000) يوم مؤتة ولا يبـــالي بالنتائج ، وإليك عرضاً موجزاً لأعمال الرسول ρ العسكرية خلال سنة من أول سني المدينـــة لتعرف كيف أوجد هذه الهيبة العسكرية وأمنها .

ما كاد يستقر بالمدينة حتى يرسل في رمضان من السنة الأولى للهجرة حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المسلمين ، فيلتقي بأبي جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلاث مائة راكـــب فيحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني فلا يقع قتال .

وفي شوال من نفس السنة يرسل عبيدة بن الحارث في ستين راكباً إلـــى وادي رابـــغ فيلتقي بأبي سفيان ومعه مائة مشرك فيترامى الفريقان بالنبل ولا يقع قتال .

وفي ذي القعدة يرسل سعد بن أبي وقاص في نحو عشرين رجـــلاً يعتـــرض عيـــراً لقريش ولكنها تفوته ، وفي صفر يخرج الرسول ρ بنفسه بعد أن يستخلف سعد بن عبادة على

المدينة فيسير حتى يبلغ ودّان يريد قريشاً وبني ضمرة فلم يلق قريشاً وعقد حلفاً مع بني ضمرة .

وفي ربيع الأول خرج الرسول ρ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط معترضين عيراً لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاتته .

وفي جمادى خرج إلى العشيرة من بطن ينبع وأقام بها شهراً صالح فيه بني مدلج .

ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستاق سرحها فخرج النبي ρ في طلبه حتى بلغ وادي سفوان قريباً من بدر فهرب كرز ولم يدركه رسول الله ρ .

وعند مقفله من هذه الغزوة أرسل عبد الله بن جحش بسرية فيها ثمانية من المهاجرين .

وفي رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التي كانت أول صدام عنيف مسلح بين المسلمين وغيرهم سقط فيه قتلى أعتى المشركين ، فانظر من رمضان إلى رمضان كم سرية وكم غزوة حركها رسول الله ومن حكم هذه السرايا :

1 – إنها تدريب عملي وإعداد نفسي للمسلمين يجعلهم دائماً في حالة تعبئة عامة وحذر دائم واستعداد يقظ وحركة قتالية سريعة .

2 – إشعار الأعداء بالقوة التي تهاجم ولا تنتظر حتى تهاجم ، وإلقاء الرعب في قلوب من يفكر بغدر وشر .

3 – الإشعار بالانتقال من مرحلة الصبر إلى مرحلة الرد بالمثل على الظلم وإيقاف المشركين في غير حدهم .

وكانت معركة بد الضربة الساحقة التي حققت هذه الأغراض جميعاً ، وكان ما قبلها مقدمة لها ، وخلال عشر سنوات قضاها الرسول في المدينة ، تجد أن أعماله العسكرية من غزوات إلى سرايا بلغت عشرات وكلها كانت محكمة وسريعة وناجحة ، من غزوة ضد قريش

إلى عملية ضد اليهود ، إلى تحرك نحو القبائل العربية على الحدود الرومانية والفارسية . إلى مناوشة مع الدولة الرومانية ، ولم يقبض عليه الصلاة والسلام حتى فــتح للمــسلمين طريــق العمل العسكري الذي انطلقوا منه إلى العالم . فلم يوقفهم شيء إلا ضعف جذوة الإســلام فــي أنفسهم لأمد .

والأهم من الناحية العسكرية مما قدمناه هو أن الرسول ρ بلغ بأتباعه مــن الانــضباط العسكري مبلغاً ما بلغه قائد عسكري آخر ، ونحن نعلم أن الانضباط العسكري هو كل شــيء في المعركة ولا يمكن أن تظهر عبقرية قائد عسكرياً إلا إذا كان الانضباط موجوداً ولذلك فإن ثمانين بالمئة من عبقرية القيادة العسكرية تظهر في انضباط جندها معها في اللحظة الحاسمة ، فإذا بلغ رسول الله ρ من هذا قمته وفي أمة العرب الشعب المارد المتمــرد الــذي لا يعــرف انضباطاً ولا طاعة فتلك معجزة المعجزات .

وكمثال على مدى الروح الانضباطية التي تمتع بها المسلمون في آخر حياتــه عليــه الصلاة والسلام ما حدث يوم غزو تبوك . إذ تخلف بعض الأتباع عن الذهاب معــه ρ فــأمر رسول الله ρ الناس بمقاطعتهم (وهم ثلاثة) فلم يكلمهم أحد حتى تاب الله عليهم وستمر معــك القصة في / مبحث الثمرات / .

إن عبقرية هذه القيادة لا مثيل لها في كل تصرف من تصرفاتها الصغيرة والكبيــرة ، نجدها حيث يبقى أبا سفيان يوم فتح مكة على الطريق تمر به كتائب المسلمين كلهــا ، حتــى ينقطع آخر أمل له في المقاومة وحتى يتلاشى آخر تردد عنده في الاستسلام ، والتــي نجــدها حيث يغزو الروم يوم تبوك ويعقد المعاهدات مع أطراف دولــتهم ، ممهــداً بــذلك لاســتقبال الجيوش الإسلامية في المستقبل .

وإذا كانت نتائج العمل العسكري ميزاناً توزن به قيمة هذا العمل العــسكري فإنــه لا يوجد في ميزان العالم أثقل من العمل العسكري الذي قام به رسول الله إذ ما من معركة حدثت للأمة الإسلامية بعد إلا وكانت قبساً من شمس رسول الله ، وما من ظفر حققه المــسلمون إلا ووراءه الروح التي بثها رسول الله في موات القلوب ، ولئن مرت ظــروف انتــصرت فيهــا الأمة الإسلامية في عصرنا . فاستغل انتصارها أعداؤها ، فإن تعاليم رســول الله ρ ســتجعل هذه الأمة في وضع آخر مرة أخرى بإذن الله .

وبعد : إن الرسالة الثالثة من هذه السلسلة وهي عن الإسلام ، ستوضح تعاليم رسول الله بشكل مفصل . وهذا الذي جعلنا نقصر هذا البحث فقط على صفات الرسول دون ذكر التعاليم التي تنبع عنها هذه التصرفات ، وإنما أردنا إبراز الكمال الذي يتمتع به رسول الله في كل شيء بحيث استجمع أعلى قمم السلوك البشري في كل شيء فكان الإنسان الوحيد الذي يصح أن يكون قدوة البشر العليا في كل شيء وبعد أن تقرأ الرسالة الثالثة سترى بوضوح أن البشرية لن يستقيم أمرها إلا بأخذها بتعاليم محمد والاقتداء به ، وأن الحدود التي حدها رسول الله في حياته السلوكية والعملية في كل الجوانب هي أرفع وأعدل ما ترتقي إليه آمال البشر مع الواقعية التي لا تخرج هذه التعاليم إلى مثل معطلة ، وإن أي انحراف عن التأسي برسول الله واتباع تعاليمه إنما هو في الواقع ارتكاس وانتكاس مهما حاول أهل الباطل أن يفيضوا عليه من الألقاب والنعوت والتسميات . فالرسول عليه الصلاة والسلام قد أعطى البشر بوحي من الله الصيغة الوحيدة للحق ، فمهما ابتغت البشرية الهدى في غير هذه الصيغة فإنها إلى ضلالٍ تسير .

لقد رأيت في هذا الباب :

أن رسول الله صادق ودلّكَ هذا على أنه رسول الله .

وأن رسول الله أمين في تنفيذ ما دعا إليه ودلك هذا على أنه رسول الله .

وأن رسول الله قد بلغ دعوة الله حقاً ودلك هذا على أنه رسول الله .

وأن رسول الله أعقل البشر وأعظمهم فطانة فدلك هذا على أنه رسول الله حقاً .

وأن رسول الله أعظم الناس في باب التربية والتعليم ودلك هذا على أنه رسول الله حقاً .

وأن رسول الله أكمل الخلق أباً وزوجاً وأخلاقاً وقيادة وكل ذلك دلك على أنه رسول الله حقاً .

ورسول تدلك صفاته على رسالته إلى أين تفارقه متبعاً أصنام الهوى وأباطيل الهــوس ومجانين الضلال ، إن هؤلاء لا يسيرون بك إلا إلى الهاوية .

ولكن رسول الله لا يدلك عليه فقط صفاته بل قامت الأدلة على رسالته حتى إنــه لــم يزغ عن الرؤية إلا أعمى .

فإلى الباب الثاني لترى الدليل الكامل الآخر على أن محمداً ρ رسول الله .

الباب الثاني

المعجزات

المعجزات

سنكتب في هذا الباب فقرتين وتعقيباً :

الفقرة الأولى :

حول المعجزة القرآنية نتحدث فيها عن خمسة جوانب من جوانب المعجزة القرآنيـــة ، كل منها يشهد أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله .

الفقرة الثانية :

معجزات أخرى لرسول الله ρ غير القرآن نتحدث عن تسعة أنواع منها ، كل واحـــدة منها تشهد أن محمداً رسول الله .

التعقيب :

ونتحدث فيه عن الفارق بين المعجزة وغيرها من الأمور التي يراها النـــاس خارقـــة للعادة ، ونرجو ألا ينتهي هذا الباب إلا وقد انشرح القلب ببرد اليقين أن محمداً رسول الله وأنه ليس أمام الإنسان إلا طريق محمد ρ وحده . فذلك الذي يصح للإنسان أن يـــسلكه {وَعَلَىٰ ٱللَّـهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ} .

فإلى الفقرة الأولى من هذا الباب .

* * *

الفقرة الأولى

المعجزة القرآنية

- 1 -

يقول عليه الصلاة والسلام : " ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثلــه آمــن عليــه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إليَّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[1] . إن النبيين عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحي الذي أُنزل إلــيهم وبلغوه . أما الرسول محمد ρ فمعجزته الرئيسية كانت في نفس الوحي . فالوحي نفــسه فيــه دليل على أنه من عند الله عز وجل إذ هو ذاته المعجزة ، ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كانوا يلفتون إلى أن الآية بين أيديهم :

{وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ من رَّبهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} العنكبــوت : 50 ، 51 .

وإذا كان القرآن باقياً بحفظ الله {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الحجر 9 .

فالمعجزة إذن باقية محسوسة يستطيع كل إنسان إن صدق أن يعرفها ويتيقنها بعلم يقين .

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ ٱلظَّالِمُونَ} العنكبوت : 49 .

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .

وهذا القرآن من أين أخذته دلّك على ذاته ، على شرط أن تأخذه بعلم ، وتطلب الحق فيه بصدق ، فالعالم بأي علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى في القرآن الحق الذي يعلو أن يكون مصدره بشراً .

{وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ} سبأ : 9 .

فالعالم باللغة ، الدراك لأسرارها ، البصير فيها ، يرى أن لغة القرآن ليست ببيان بشر . والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفتات البلاغة ، يرى أن ما في القرآن من أسلوب وبيان وبلاغة جلّ عن طوق بشر .

والعالم المحيط بالتاريخ المتثبت بما كان ، سواء قبل نزول القرآن أو بعده . يرى أن الخبر الذي في القرآن ليس مصدره البشر .

والعالم بالكون قوانين وواقعاً يرى أن القرآن ليس من عند بشر إذ ما فيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفاً ، شيء ضخم فيه دليله .

والعالم بالنفس غرائزها وما يصلحها ويفسدها ، وما يرتفع بها ويهبط ، يستطيع إدراك ربانية القرآن .

والعالم بالتشريع الاجتماعي والجنائي والاقتصادي ، وغير ذلك من أنواع التشريع يمكنه معرفة ربانية القرآن .

والعالم بالأخلاق والتربية والسلوك ، يستطيع أن يرى الله في قرآنه .

والعالم بالأمم حضاراتها وعمرانها ، والعوامل التي تبنيها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن في مصدره الرباني .

والعالم بالكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور ، يدرك أن كتاباً يحكم في أدق قضايا الخلاف بين أتباع الديانات ، ليس مصدره محمداً الذي لم يسمع كتاباً ولم يقرأ .

إن العالم يرى ، وطالب الحق يرى ، أما المتكبر ، أما الحاسد ، أما طالب الدنيا ، أما الظالم ، أما أعمى القلب المظلم البصيرة ، أما هؤلاء فلن يروا ، لأنهم ليسوا أهلاً للرؤية .

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ} (الأعراف : 149).

{وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيۤ آذَانِهِمْ وَقْراً} (الإسراء : 45 ، 46).

{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ ٱلظَّالِمُونَ} العنكبوت : 49 .

إن مثل هذا النوع من البشر الذي يجحد ، وقلبه مستيقن يمنعه من الإقرار الكبر والبطر ، ليس لك إلى مناقشته سبيل ، إذ الحجة وعدمها معه سواء .

{وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} النمل : 14 .

إذ ليس سبب إنكاره عدم الحجة ، بل السبب في ذاته هو ، وإن الذين عانى منهم رسول الله ρ وكل رسول هم من هذه الطبقة العاتية ، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى إذا وجوده عرفوه وقبلوه واعتنقوه .

{فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ} الأنعام : 33 .

وإليك هذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق : أتى الأخنس بن شريق أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس بن شريق .

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن ، ليس لهم عذر ولا مستمسك وأنى يكون لهم عذر وتحدي المعجزة يقرع آذانهم وهم صامتون .

{أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} هود 13 .

اكذبوا وهاتوا مثل سوره ولكنهم لم يفعلوا وحتى الذي ادعى النبوة والوحي كمسيلمة . لم يتكلم ليعارض القرآن بل كان يعترف أن القرآن وحي سماوي ، ولكنه تكلم ليقال : وها أنا يوحى إليَّ ولكنه لم يتحد بوحيه .

{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ} البقرة 23 ، 24 .

لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم : لن تفعلوا ولم يفعلوا أليس في ذلك عجب ؟

عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة . فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا .

وعجب لأنهم أمة البيان وبهتوا أمام البيان .

وعجب لأنهم فعلوا كل شيء من أجل القضاء على الدعوة الجديدة وسكتوا عن أبسط الأشياء وهو الكلام .

وعجب أن وارث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم . أصبحوا مسلمين كحسان والخنساء وبجير وكعب والحطيئة ولبيد . وهم الأعلم باللغة والأبصر فيها ولبعضهم لسان أشد من السيف ، ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسليم .

" أليس عجباً أن تجد الخنساء الشاعرة وهي التي قالت لحسان بن ثابت في سوق عكاظ حين أنشدها .

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى	وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابن محرق	فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا أينما

ضعفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع قال : وكيف ؟ قالت : قلت لنا الجفنات ، والجفنات ما دون العشر . ولو قلت : الجفان لكان أكثر . وقلت : الغر . والغرة البياض في الجبهة . ولو قلت : البيض لكان أكثر اتساعاً . وقلت : يلمعن ، واللمع شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت : يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان ، وقلت : بالضحى ، ولو قلت : بالعشي لكان أبلغ في المديح ؛ لأن الضيف في الليل أكثر طروقاً ، وقلت : أسيافنا ، والأسياف دون العشر ، ولو قلت : سيوفنا كان أكثر ، وقتل : يقطرن ، فدللت على قلة القتل . ولو قلت يجرين لكان أكثر : لانصباب الدم ، وقلت : دماً ، والدماء أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفتخر بمن ولدوك " راجع إعجاز القرآن للرافعي .

هذه نفسها النقادة الشاعرة التي ملأت الدنيا نحيباً على أخيها صخر تفقد أولادها الأربعة في الإسلام في معركة واحدة ، فلم تذرف دمعة بل تحمد الله ، لقد آمنت بالقرآن وغيّر القرآن أعماقها .

لقد شعر العرب الأقحاح يوم تنزل القرآن أن هذا القرآن الذي يسمعونه لم يخرج من بشر ، كانوا يحسون هذا في أعماقهم سواء في ذلك مؤمنهم وكافرهم .

وانظر هذين النصين عن مؤمن وكافر :

أ – روي أن أبا بكر رضي الله عنه – وكان أنسب العرب وأعلمهم بلغاتها وأشعارها وأمثالها – سأل أقواماً قدموا عليه من بني حنيفة ، عن كلام مسيلمة ، وما كان يدعيه قرآناً فحكوا له ، فقال أبو بكر : سبحان الله ! وحيكم إن هذا الكلام لم يخرج عن إل (أي عن ربوبية) فأين كان يذهب بكم[1] ؟ فانظر مفهوم كلامه وشعوره . إن القرآن خارج من الله وليس من بشر .

ب – " وروي أن الوليد بن المغيرة المخزومي جاء إلى النبي ρ ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله . فقال الوليد : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً .

[1] البداية والنهاية ج6 ص326 .

قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له .

قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا برجـزه ولا بقـصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله حـلاوة وإن عليـه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعني حتى فكر ، فلما فكر قال : (هذا سحر يؤثر) يأثره عن غيره .

ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليـد : إن وفـود العـرب تـرد فأجمعوا فيه (يعني النبي ρ) رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً فقالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه .

قالوا : مجنون .

قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه .

قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده .

قالوا : فما نقول ؟

قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وإن أقرب القول أنـــه ساحر وأنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجتـــه والمـــرء وعـــشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس "[1] .

إن هذا الإحساس بربانية المصدر ، والتحدي من المصدر نفسه ، وظهور العجز قديماً وأبداً ما ترك لكافر عذراً ولا حجة .

والناس إما صافي الفطرة يستجيب لأول بارقة نور ، فيشتعل نور فطرته ، وإما إنسان أصاب فطرته تعقيد وتوهم ، سواء بسبب الوراثة أو الفكر الخاطئ مثل هذا إنما نطالبه بـــالعلم قبل الحكم ، وبالبحث بعد العلم ، وسيرى الآية واضحة والمعجزة قائمة من أي أبـــواب العلـــم أتاها .

أ – فهو لو درس حياة الرسول ρ قبل النبوة وبعد النبوة قبل القرآن وبعد القرآن يجـــد جواباً قاطعاً ، إنه الوحي والنبوة وليس غيرهما رجل أمي جاوز الأربعين لـــم يعـــرف عنـــه خلالها أنه تكلم بشيء له علاقة بدين ، ولا درس ولا كتب فلم يتلق علماً ولم يقرأ كتاباً دينياً أو غير ديني ، ثم البيئة بيئة أمية ولكنها ذكية لا تعلم عن النبوءات والرسالات شـــيئاً ، فليـــست هناك مقدمة تشير إلى نتيجة ومع ذلك وإذا بقرآن يتلى ، ودين يقوم ، ومفاهيم تغير بسر هـــذا القرآن الذي يتحدى فيسكت المتحدون ، وهذا ما أشار القرآن إليه كدليل عل النبوة لا يبقى معه ريب .

{وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَـابَ ٱلْمُبْطِلُونَ} العنكبـــوت : 48 .

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} النحل : 103 .

{وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} الأنعام : 105 .

إن دارس القرآن العظيم لا يمكن أن يتصور أن ما فيه صادر عن جهل ، بل يرى أنه لا بد صادر عن علم محيط ، وهناك سر المعجزة . ولذلك قال الكافرون : تعلم محمـــد ودرس

---

[1] رواه ابن هشام في السيرة .

. وإذ يثبت التاريخ أن محمداً لم يدرس ولم يتعلم ، والقرآن كله حكمة وعلم فليس هناك مصدر إلا الوحي ولا بد هنا من التأكيد على ناحيتين :

الأولى : أن الكافرين مقرون بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون على هذه الحالة إلا إذا كان محمد قد تعلم أعظم ما يكون العلم ، وتصورهم حدوث تعلمه هو الذي يجعلهم يستبعدون معنى الوحي . فإذا ما ثبت أنه لم يتعلم ولم يتلق علماً من أحد ، شيء مشهور ، فإن مكة لم يكن بها أهل كتاب إلا ورقة بن نوفل وحداد ، والحداد أعجمي . وكم يمكن أن تكون ثقافته العامة والدينية في زمن ما كانت الكتب الدينية فيه إلا عند رؤساء الديانات ولم تكن مترجمة ، ثم جلوس الرسول عنده للأخذ منه شيء مبتوت من عدم وجوده . وكذلك ورقة وليس هناك أي نص تاريخي يشير إلى غير هذا بل كل النصوص على أن المعلم الوحيد للرسول ρ هو الوحي .

الثانية : أن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوا النبي اتبعوه لأنه صادق . ولو رأوا وهم الذين يخالطونه ليلة نهار ذرة شبهة لأنكروا وبينوا . وهم من هم ، فإذا ما ذكر القرآن كما ورد في الآيات أن النبي ρ لم يتلق علماً من أحد وكان الذين حول الرسول ρ وهم أعرف الناس به صبياً وشاباً وكهلاً يعرفونه غير هذا لرأوا في ذلك مدخلاً يشكون فيه بالصدق ، ولو كان القرآن من عند محمد وكان قد تعلم عن غيره من الناس ، لما نفي مثل هذا النفي الذي يمكِن افتضاحه بسهولة لو كان .

فإذا ما تأكدت الناحية الأولى والثانية . شهادة التاريخ ، وشهادة واقع الحال ، وانتفى إمكانية التعلم البشري ، لم يبق إلا الوحي مصدراً لأعظم أثر في تاريخ البشرية .

ب – وكذلك لو درس الإنسان ظاهرة الوحي نفسها بإمعان وتبصرة وأحاط بها إحاطة ما وحكّم العلم والعقل . لوجد أن المسألة وحي وليست غير ذلك ، وأنها النبوة ليس إلا . ادرس مثلاً هذه الآثار التي هي بعض مما حدث الصحابة عن هذه الظاهرة .

عن عمر رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ρ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل عليه يوماً فمكث ساعة ثم سري عنه فقرأ {قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ} إلى عشر آيات منها من أولها وقال : من

أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال : (اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم وأرضنا وارض عنا ...) الترمذي .

وفي مسلم عن أبي هريرة قال :

كان رسول الله ρ إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه ، حتى ينقضي الوحي . وفي لفظ كان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة . وفي رواية كرب لذلك ، وتربد وجهه ، وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر .

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال :

كان إذا نزل على رسول الله ρ السورة الشديدة أخذه من الكرب والشدة على قدر شدة السورة ، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها .

وفي رواية البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها :

فيفصم عنه وإن جبينه ليتصبب من العرق في اليوم الشديد البرد . إن هذه الحالة التي ترافق ظهور النص القرآني ليست حالة عادية كما أنها ليست حالة مرضية .

فالحالة المرضية لا يرافقها تصبب عرق ، ولا يرافقها ظهور نص كالنص القرآني وقد يكون سورة طويلة . كسورة الأنعام ، أو يكون نصاً تشريعياً من أدق النصوص التشريعية في تاريخ العالم كنصوص المواريث .

إن هذه الظاهرة تدل على أن مصدر القرآن الخارجي عن ذات محمد ρ : {إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} النجم : 4 .

ج – وكذلك لو درس الإنسان النص القرآني بإمعان فإنه سيصل إلى نتيجة واحدة ، هي أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر ، بل لا بد أن يكون من عند الله والنص القرآني بين أيدينا . فتعال نستعرض بعض خصائصه وبعضاً من معانيه فإننا سنجده أدل على

ذاته ، وأكثر إقناعاً للراغب في الحق الطالب له ، ونوثر أن نسلك في هذا الاستعراض الطريق التالي :

إن الأعلم بالقرآن هو صاحب القرآن ، وهو أولى من يتحدث عن خصائصه وأولى من يصف مناحي دلالاته وإعجازه ، ونحن نجد أثناء دراستنا لهذا القرآن آيات كثيرة تحدثت عن صفات هذا القرآن وخصائصه . فلو أننا تتبعنا هذه الآيات وفهمناها نكون قد أدركنا خصائص القرآن بشكل أجود ، وأكثر إحاطة ، وأقرب إلى السهولة ، مع ملاحظة أننا سنذكر إن شاء الله مع كل خاصية دليلها والبرهان عليها ليطمئن قلب الشاك ، ويرتاح قلب المؤمن بالعلم الذي لا يدحض {وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} الحج : 54 .

- 1 -

يتصور بعض الناس الذين يقرأون القرآن من أهله ومن غير أهله ، أن السورة القرآنية لا تشكل وحدة متناسقة مترابطة ، وأنه لا صلة بين الآيات وإن كانت هناك صلة بين بعض آيات السورة ، فإن السورة ككل فاقدة هذا التماسك ، وكما يتصورون هذا التصور في السورة الواحدة يتصورونه بشكل أكبر بالنسبة للقرآن كله ، ولسورة كلها فلا رابطة بني السورة والسورة ولا رابطة بين سور القرآن عامة .

وهذا التصور أقل ما يقال فيه ، إنه تصور فاسد يقوم على جهل كبير ، وعلى بساطة في الفكر وضحالة في النظر . فما كان القرآن ليكون كذلك ، وقد رتب الله آياته في السورة الواحدة ورتب الله سوره على الشكل الذي نراه . فإن السيد الرسول ρ كان يؤمر بأن يضع الآية في مكانها من السورة ، والسورة في مكانها من القرآن ، فترتيب الآيات في السورة الواحدة بوحي ، وترتيب السور في القرآن بوحي ، والله عز وجل حكيم علي ، وقد وصف كتابه بأنه علي وحكيم ، {وَإِنَّهُ فِيۤ أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} الزخرف : 4 .

فلا يكون كلام غير الله أكثر ترتيباً ، وأكثر انسجاماً من كتاب الله . وسنذكر هنا نموذجين من الأمثلة . نموذجاً نتبين فيه ترابط السورة القرآنية وتناسقها ، ونموذجاً نبين فيه الصلاة بين سور القرآن عامة ، وإن في كتابنا " الأساس في التفسير " لمزيد بيان .

النموذج الأول

افتح المصحف على سورة (ق) وتأمل :

تبدأ السورة هكذا :

{قۤ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوۤاْ أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعُ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} .

تبدأ السورة بمقدمة هي الآية الأولى ثم يأتي حرف " بل " ثم حديث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة منذر ينذرهم بالبعث بعد الموت . واستبعادهم لهذه المسألة ، ثم يأتي الرد عليهم أنه وإن أصبحوا تراباً فإن الله يعلم ما أخذته الأرض منهم . وإذا كان علم الله كذلك فلا استبعاد لخلقهم مرة ثانية . إذن بإيجاز مقنع ذكر هذا المقطع من السورة إشكالاً للكافرين وردّ عليه فانتهى بذلك المقطع من السورة ليبدأ مقطع جديد والملاحظ في المقطع الجديد أنه كذلك مبدوء بكلمة " بل " كما بدأ المقطع الأولى بكلمة " بل " وفيه حديث عن تصورات للكافرين وردّ عليهم فشأنه شان الأول يقول :

{بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيۤ أَمْرٍ مَّرِيجٍ} ق : 5 .

هذا موقف الكافرين من الوحي الذي أنذرهم به الرسول ، فيما له علاقة باليوم الآخر ويأتي الرد : {أَفَلَمْ يَنظُرُوۤاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ ٱلْخُرُوجُ }. ق : 6 – 11 .

هذا الجزء الأول من الرد ، وفيه لفت نظرهم القرآن إلى الكون ليتعرفوا فيه على الله وقدرته ، حتى أوصلهم إلى رؤية إحياء البلد الميت بالمطر ، والنبات يكون ميتاً ينزل عليه المطر فيحيا و ... كذلك الخروج ، بهاتين الكلمتين اللتين تأتيان بعد لفت النظر هذا ؛ يأتي الرد المفحم لهؤلاء الذين استبعدوا بعث الإنسان وكذبوا رسول الله .

ولا زلنا حتى الآن في المقطع الثاني :

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ ٱلأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلأَوَّلِ} ق : 12 ، 15 .

رأينا في بداية هذا المقطع {بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ} ورأينا الرد الأول ، تتمة الرد يذكر القرآن مشيراً : كما كذب هؤلاء فقد كذب غيرهم .. وبعد أن يعرض علينا هوية المكذبين . يجعلنا نتعجب ونستنكر تكذيبهم ويقيم الحجة عليهم بكلمة { أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلأَوَّلِ} إذا كان الله خالق الإنسان أول مرة ولم يعجزه ولم يتعبه أفيعجز أن يخلقكم مرة ثانية ؟ .

وبذلك ينتهي المقطع الثاني ليبدأ المقطع الثالث ويلاحظ كذلك أنه مبدوء بكلمة " بل " كما بدأ المقطعان الأول والثاني ، وفيه حديث عن نفس المضمون يقول :

{ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } ق : 15 . الكافرون شاكون في خلقهم مرة ثانية ويأتي الرد على مرحلتين كل مرحلة مبدوءة بكلمة " ولقد " كما كان الجواب في المقطع الأول مبدوءاً بكلمة " قد " عند قوله {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلأَرْضُ مِنْهُمْ} .

يقول :

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ ٱلْوَعِيدِ * وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَـٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ * قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلأَتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلاَدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } ق : 16 – 37 .

وبهذا تنتهي المرحلة الأولى من الرد على شكهم ، وهي مرحلة تذكر بخلق الإنسان . وعلم الله بكل ما يجول بخاطره . ورقابة الملائكة على الإنسان ، وتذكير الإنسان بالموت ، وبالمصير الفظيع الذي أعد للكافر ، وبالمصير المشرق المعد للمؤمن التقي . وإن هذا وعد من الله للمؤمن . وتختم هذه المرحلة بالإعلان أن الإنسان ذا القلب وأن الإنسان الذي يصغي بتدبر ، يكفيه هذا البيان ليتذكر . وتبدأ المرحلة الثانية من الرد وتستمر حتى نهاية السورة .

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ * وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ } ق : 38 – 45 .

تذكر هذه الفقرة بأن الله خالق السماوات والأرض وما فيهما في مدة قصيرة بلا تعب ، وفي هذا الكلام ردّ مقنع على الشك ، هذا الإله لا يعجز عن إعادة الإنسان مرة ثانية .

وهل شك الإنسان في محله ؟

وفي الفقرة أمرة للرسول ρ بالصبر على أقوالهم – الآنفة الذكر – التي رأيناها في المقطع الأول {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعُ بَعِيدٌ} وفي المقطع الثاني : {بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ} وفي المقطع الثالث : {بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} والعبادة لله ويؤكد أن يوم القيامة آت وأنهم محشورون وأن الله يعلم أقوالهم وأنم مهمته أن يذكرهم . فخاتمة السورة إذن تخاطب النبي وتعلمه كيف ينبغي أن يكون موقفه .

وكما ترى من استعراض هذه السورة . فإن التناسق والترتيب والوحدة والتكامل كل هذه موجودة بشكل واضح في السورة . فإذا ما أتى إنسان مغرض أو معرض . وقال : إنه لا رابط بين الآيات في السورة الواحدة ، فإنه لا شك يدلل على فساد ذوقه ، وعمى بصيرته ، وليس ذلك بضار القرآن شيئاً .

ولعل هذا المرور الخاطف على هذه السورة وضح لنا تناسق السور القرآنية ووحدتها وانسجامها وترابطها ، وهذا الذي رأيناه هنا نستطيع أن نراه في كل سورة قرآنية من الفاتحة

إلى سورة الناس بما في ذلك السور الكبيرة كالبقرة وآل عمران .. ونتيجة لهذا القول نقــول : إن الترتيب في كل سورة من سور القرآن كائن بشكل معجز فهو مع كماله في بابه لا يستطيع أن يدركه إلا إنسان بلغ الذروة في نضح التأمل . فهل يمكن أن يكون هذا وليد بيئة أمية ؟ .

النموذج الثاني

والآن ننتقل لإثبات الأمر الآخر :

إن القرآن كله مترابط فيما بينه ، يشكل وحدة منتظمة مترابطة .

أول سورة من سور القرآن هي الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معاني القرآن كله . فمعاني القرآن كلها تدور حول العقائد ، والعبادات ، ومناهج الحياة ، والسورة بدأت بالعقيدة {بِسْمِ اللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ} وثنت بالعبادات {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وثلثت بمناهج الحياة { ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } وبينت أخيراً أن منهاج المسلمين متميز {غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ} ويلاحظ أن آخر فقرة فيها مبدوءة بكلمة { ٱهْدِنَا } ويأتي في أول سورة البقرة {الۤمۤ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } فالرابطة إذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة .

ننتقل الآن إلى سورة البقرة والسورة التي تليها إلى سورة يونس وهي المسماة بالسبع الطِوَل : البقرة ، وآل عمران , والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، لنرى هل هناك رابطة بين هذه السور :

نظرة على سورة البقرة نلقيها ترينا :

1 – أن السورة مبدوءة بأحرف {الۤمۤ} ويأتي بعدها عشرون آية تتحدث عن أقسام الناس في المصطلح القرآني . متقين ، وكافرين ، ومنافقين ، وتصف كلاً من هؤلاء .

2 – تأتي بعد ذلك خمس آيات مبدوءة بكلمة {يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ} وفيها دعوة إلى الناس جميعاً أن يكونوا من الفئة الأولى " المتقين " وإن طريق التقوى هو عبادة الله ، وتصف الآيات مظاهر قدرة الله ، وكون القرآن لا شك فيه ، ومصير الذين لا يسلكون هذا السبيل ومصير الذين يسلكونه .

3 – تأتي بعد ذلك ثلاث آيات تتحدث عن الله عز وجل والقرآن ، وموقف المهتـــدين منه ، وضلال الضالين به وصفاتهم {ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلأَرْضِ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ} ومناقشة من يكفر بالله عز وجل .

4 – تأتي بعد ذلك آية مبدوءة بكلمة { هُوَ } تتحدث عن الله أنه خلق كل شـــيء فـــي الأرض للبشر .

5 – تأتي بعد ذلك عشر آيات تتحدث عن قصة آدم عليـــه الـــسلام ، ونزولـــه إلـــى الأرض وتختم بالقاعدة التي تحاسب عليها البشرية { فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

6 – {كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} ثم تأتي آية مبدوءة بكلمة {يَسْأَلُونَكَ} الآيـــة فيها استفتاء من الصحابة عن قضية لها علاقة بالقتال ثم تفصيلات في أمور كثيـــرة . حتـــى تختم السورة . ومن السهل جداً على دارس السورة أن يجد وحدتها ، وليس هذا ما نريده الآن بل نريد إثبات الصلة بين هذه السورة والسور الست التي تليها .

ولعلك تدهش إذا قلنا لك إن السور الست الطِوَل التي تأتي بعدها إنما تشرح وتفـــصل هذه المقامات التي ذكرناها لك بشكل واضح لا يلتبس علـــى المتأمـــل . وهـــي تـــشرح هـــذه المقامات بالتسلسل الموجود في سورة البقرة وكأن هذه المقامات تحتاج إلـــى زيـــادة إيـــضاح فجاءت كل سورة تشرح كل واحدة منها مقاماً وهاك الدليل :

1 – سورة البقرة مبدوءة بأحرف {الـمۤ} وسورة آل عمران مبدوءة بـــنفس الأحـــرف . سورة البقرة مبدوءة بآية { ذَلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ } . سورة آل عمران مبدوءة بهاتين الآيتين { ٱللَّهُ لاۤ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ } .

العشرون آية الأولى في البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنـــافقين . ســـورة آل عمران كلها توضح ملامح هذه الفئات الثلاث ، والحدود التي ينبغي أن تقف عليهـــا الجماعـــة المسلمة في علاقتها مع الفئتين الأخريين .

2 – بعد العشرين آية من سورة البقرة تأتي الآية المبدوءة بـ {يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ} والتي تبين للإنسان طريق التقوى وأن التقوى هدف { ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} .

وتأتي سورة النساء بعد سورة آل عمران مبدوءة بآية :

{يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } . نفس النداء . نفس المعاني . وكأنك عندما تدرس سورة النساء إنما تدرس التقوى طريقاً وسلوكاً .

3 – وبعد هذه الآيات تأتي الآيات التي تتحدث عن نقض العهد . وتأتي بعد سورة النساء سورة المائدة وهي مبدوءة بالأمر بالوفاء بالعقود {يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ} وفي السورة أكثر من آية تذكر العهود .

{وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} وكأن السورة تذكر المعاني الأساسية للعهود الأساسية التي من تمسك بها اهتدى بهدي القرآن وإلا ضلّ .

4 – وبعد آيات سورة البقرة هذه تأتي الآية {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً} وتأتي بعد سورة المائدة سورة الأنعام التي تتردد فيها كلمة { هُوَ } { هُوَ } مرات كثيرة . الآية الثانية {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ} والآية (19) {وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} والآية (61) {وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِٱللَّيْلِ} و ...

وهكذا مرات ، وآخر آية في السورة تكاد تكون معنى حرفياً لآية سورة البقرة {وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ ٱلأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} فكأن سورة الأنعام كها تفصيل لمجمل الآية في سورة البقرة .

5 – وتأتي بعد ذلك في سورة البقرة قصة آدم ، وتنتهي بالقاعدة التي ذكرناها {فَمَن تَبِعَ هُدَايَ .. } وتأتي بعد سورة الأنعام سورة الأعراف والآية الثانية فيها {ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ} والآية الأولى فيها تقول {المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ } .

وتأتي بعد ذلك قصص عن أمم وكيف كان موقفهم من الهدى المنزل عليهم فكأن السورة كلها عرض عملي وتاريخي ومناقشة في جو القاعدة التي انتهت بها قصة آدم في سورة البقرة .

6 – وكما أنه بعد آية القتال في سورة البقرة تأتي كلمة {يَسْأَلُونَكَ} وفيها استفتاء عما له علاقة بالقتال ، فإن سورة الأنفال بعد الأعراف مبدوءة بكلمة {يَسْأَلُونَكَ} .

والسورة كلها والسورة التي بعدها وهي سورة " التوبة " تتحدثان عن القتال وأدب الحرب ، ويلاحظ أن السورتين في القرآن مكتوبتان بلا فاصل " البسملة " فكأن السورتين شرح وتوضيح للفريضة التي ذكرها الله في سورة البقرة .

ونظن أن قد وضحت الرابطة التي تربط هذه السور فيما بينها .

ولكنك سترى أعجب إن شاء الله تعالى إذا درست تفسيرنا " الأساس في التفسير " .

ونستطيع ههنا أن نضع أسس نظرية في موضوع الوحدة القرآنية فنقول :

إن كل مجموعة سور من القرآن تشكل كلاً متكاملاً ، وهذه المجموعات كلها إنما تفصل المعاني التي ذكرتها سورة البقرة على الترتيب مع تبيان وتوضيح وتفصيل ، وقد رأينا مثالاً على ذلك ، ويلاحظ أن كل مجموعة من السور قد عرض الأسس النظرية والعملية للإسلام ، بحيث إن من يقرأ أي مجموعة من هذه المجموعات ، يتذكر بكل الحقائق الأولية في الإسلام . كما يلاحظ أن كل مجموعة من هذه المجموعات قد عرضت هذه الحقائق بلغة وطريقة عرض ونغمة جرس تختلف عن الأخرى ، مما يبهر الإنسان ولا يستطيعه مخلوق : أن تعرض قضيةً واحدة على عشرات الأوجه وبطرق كثيرة من العرض . المعاني في البقرة مرتبة ترتيباً معيناً ، ثم كل مجموعة سور تشكل وحدة تعرض المعاني القرآنية على ترتيب عرضها في سورة البقرة ، هذه المجموعات تتدرج في الغالب من الطول إلى القصر ، كل وحدة تذكر الإنسان بالمعاني الأساسية بطريقة عرض تختلف عما قبلها . ولو تأملت سورة العصر فما بعدها لرأيت نفس ترتيب العرض في سورة البقرة مع فارق القصر ، فهل يمكن أن يكون هذا من عند بشر !

ولعلنا استطعنا بفضل الله بعد ما تقدم توضيح هذه الآيات التي وصف الله بها كتابه :

1 – {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود : 1 .

2 – { كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ } . الزمر : 23 .

3 – {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ} {وَإِنَّهُ فِيۤ أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} فبسبب ما رأيناه كان القرآن مفصلاً ، وكان متشابهاً ، وكان مثاني ، وكان مذكراً ؛ لأن كل جزء منه يذكر بما ينبغي أن يتذكره الإنسان . وبمثل هذا وبمثل ما يأتي بعدُ كان هذا الكتاب على غاية الحكمة ولا يعلوه كتاب أبداً عرفه البشر .

– 2 –

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير إلى ربانية مصدره ، ما أشار إليه القرآن بقوله :

{قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ} . {لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِيۤ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ} .

لقد أخبر الله في الآية الأخير أنه سيكشف للناس خفايا هذا الوجود ، ودقائق هذا الإنسان وأن الكشف فيه دليل صادق على أن القرآن حق ، إذ ما سيعرفه الإنسان سيطابق ما في القرآن وهذا لا يكون إلا إذا كان منزل القرآن هو الله العالم بأسرار السماوات والأرض ولئن كانت الآية الأخيرة نبوءة كاملة في حد ذاتها ، تحققت بما كشف الإنسان حتى الآن فإن ما سنذكره من أمثلة سيكون برهاناً كاملاً على نسبة القرآن لله جل جلاله :

لقد تحدث القرآن بلغة واضحة عن كثير من القضايا الكونية ، مما لم يكن معروفاً قطعاً قبل أربعة عشر قرناً في أي مكان من العالم ، فضلاً عن أن يكون معروفاً وفي جزيرة العرب حيث الأمة الأمية ، التي كانت معارفها عن الكون محدودة وسطحية ، فكان حديث المحيط بسر كل شيء . ولكما تقادم الزمان أكثر ظهرت دقة القرآن أكثر . فيصبح الإنسان

أمام الحقيقة التي لا شك فيها أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد ، الله رب العالمين ، وهـذه أمثلة وفي القرآن المزيد لمستزيد :

أ – قال الله تعالى :

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ} النحل 66 .

يقول العلم اليوم إن الحليب قبل أن يصبح في الثدي ، يمر على عمليتي تصفية . الأولى تصفيته من الفضلات وذلك بعد الهضم ونزول السائل الحليبي إلى الأمعاء ، إذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياها في الدم ومبقية الفضلات في المعدة حيث تطرح خارج الجسم . وأما المواد الممتصة التي طرحت في الدم فإن قسماً منها يغذي جسم الكائن الحي ، وقسماً آخر تصفيه الغدد اللبنية من الدم وترسله إلى الضرع حليباً خالصاً سائغاً للشاربين .

إذن قال العلم هذا الحليب يصفى أولاً من الفضلات ثم من الدم .

وقال القرآن { مِن بَيْنِ فَرْثٍ } والفرث هو الفضلات { وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً ... } .

وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلاً عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة ، وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل ، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة ، يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن .

ب – قال تعالى :

{فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ} الأنعام 125 .

" منذ اكتشاف الطبقات العليا من الجو بفضل الطيران والبالونات ، استطعنا أن نـــدرك ظاهرة كونية تنتج عن نقص أوكسجين الهواء في طبقات الجو العليا ، إذ يشعر الـــصاعد فـــي هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق ، والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الضيق ، ولذلك يستعمل الطيارون الذي يصعدون إلى الارتفاعـــات العالية أجهزة التنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة ولقد لفتت هذا الظـــاهرة نظـــرة هـــواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا . ويلاحظ أن الآية لم تعبر عن لفظ الصعود فـــي الجبال بل عبرت عن الصعود في السماء . كما أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصـــحارى ممتدة وليس فيها جبال عالية بحيث يأخذ الساكن فيها فكرة عن تـــسلق الجبـــال ومـــا يـــشعر المتسلق فيها من ضيق " .

ج – قال تعالى :

{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الذاريات : 49 .

وقـــــال : {سُبْحَانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ} يس : 36 .

القاعدة في اللغة العربية أن (كل) إذا أضيفت إلى معرفـــة عممـــت أجزاءهـــا وإذا أضيفت إلى نكرة عمت أفرادها ، وفي الآية الأولى أضيفت (كل) إلى نكرة لذلك تعمم جميع الأشياء .

يقول صاحب ظلال القرآن " وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلـــق فـــي هـــذه الأرض وربما في هذا الكون ، إذ إن التعبير لا يخصص الأرض قاعدة الزوجية فـــي الخلـــق وهي ظاهرة في الأحياء ولكن كلمة شيء تشمل غير الأحياء أيضاً ، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية ، وحين تتذكر أن هذا النص عرفه البشر منـــذ أربعـــة عشر قرناً وأن فكرة عموم الزوجية حتى في الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلاً على عموم الزوجية في كل شيء حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يُطلعنا على الحقـــائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير .

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية سائرة في طريق الوصول وهي لا تكاد ...

إن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهربـــاء موجـــب وسالب .

د – قال تعالى :

{يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوۤاْ أَشُدَّكُمْ} الحج : 5 .

وقال : {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ} المرسلات : 20 ، 23 .

وقال : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ } المؤمنون : 12 – 14 . وقال : {ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ} العلق : 22 .

" يتم الإخصاب بين الحيوان المنوي للرجل وبويضة المرأة في أعلى القنـــاة الواصـــلة بين المبيض والرحم ، فيبدأ الجنين خلية واحدة ولكن الإنسان كله بكل عناصـــره وخصائـــصه يكون مختَصراً في تلك الخلية الواحدة ، ثم تنحدر في اتجاه الرحم مستغرقة في رحلتهـــا مـــا يقارب الأسبوع ، تكون خلاله قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتصق هـــذه الكتلـــة بجدار الرحم فتنهشه ربما بواسطة أنزيمات معينة حتى تعلق به كنقطة صغيرة تتغذى على دم الأم ، وليس أدق من كلمة العلق في وصف شكل ونشاط الجنين في هذه المرحلة ثم تأخذ هـــذه العلقة في النمو ، وتأخذ خلاياها في التنوع ، ويكون شكلها مستديراً بغير انتظام ، وتبقى كذلك بضعة أسابيع يكون الدم فيها في (برك) صغيرة لا في شرايين محددة ، إن شكلها لا يختلـــف عن شكل قطعة من اللحم الممضوغ وإن كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات .

ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادي هو الغضروف الذي تترسب حوله مادة العظم فيما بعد ، وتنشط الخلايا في كافة أجزاء المضغة مكونة الأنسجة والأجهزة التي تكسو العظام المتكونة لحماً " .

وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي . وذلك أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظم ، وتمام الهيكل العظمي الغضروفي للجنين . وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني { مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً} فسبحان العليم الخبير .

في كل المراحل السابقة لا توجد فروق بين جنين الإنسان وجنين الحيوان ولكن ما أن يوشك الشهر الثاني للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية لهذا الجنين فإذا به خلق آخر ...

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد ، وهو ينشأ { خَلْقاً آخَرَ } في آخر أطواره الجينية بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً كما تقول النظريات المادية ، فهما نوعان مختلفان اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالَةٌ من الطين إنساناً . واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة التي ينشأ بها الجنين الإنساني خلقاً آخر ، إن الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني ، ثم يبقى الحيوان حيواناً في مكانه لا يتعداه ، ويتحول الإنسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان {فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ }.

وإن الناس ليقفون دهشة أمام ما يسمونه " معجزات العلم [1] " حين يصنع الإنسان جهازاً يتبع طريقاً خاصاً في تحريكه دون تدخل مباشر من الإنسان . فأين هذا من سير لجنين

[1] لا يجوز إطلاق المعجزة إلا على الأمر الخارق للعادة الذي يجري على يد الرسل بقدرة الله .

في مراحله تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها وتحولات كاملة في ماهيتها ؟

غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون مغلقي القلوب . لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب ، وأن مجرد التفكير في أن الإنسان هذا الكائن المعقد كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة ، وإن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر . فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى . وإذا كان الطفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة . هذه الوارثات وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة ..

إن مجرد التفكر في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكافٍ وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب .

كل هذا يتم في القرار المكين الذي هو الرحم وأن من يدرس تشريح الرحم وموضعه المكين الأمين في أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ذا الجدار العريض السميك ، ثم يرى هذه الأربطة العريضة ، والأربطة المستديرة ، وهذه الأجزاء من البريتون التي تشده إلى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السقوط . تطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل ، وتقصر إلى طولها الطبيعي تدريجياً بعد الولادة . إن من يدرس كل ذلك يعرف تكوين الحوض وعظامه يعرف جيداً صدق قوله تعالى :

{ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ} المؤمنون : 13 .

هـ – {وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} الحجر : 22 .

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِٱلأَبْصَارِ} النور : 43 .

" إن العوامل المسببة للأمطار محورها الكهربائية الجوية وقد أشـير إليهـا إشـارات واضحة كما سنرى في هاتين الآيتين ، كما ضمت الآيتان معاني أخرى .

لقد كان الناس قبل يحملون وصف الرياح " باللواقح " على أنها لواقح للزرع والـشجر وهذا منهم إغفال للنصف الثاني من الآية . إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتـب عليـه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إنزال الماء من السماء يشربونه ، أما وقد رتـب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون "" للواقح " معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك – من ناحية – شبيهاً بلقاح الأحيـاء مـن زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلـة والمعلـول ، أو السبب والمسبب ، وما عليك الآن إلا أن تتذكر بعض الحقائق العلمية حتى ترى سر الإعجـاز في الآية :

إن تكاثف السحاب مطراً أثر عن الكهربائية ، إذ من السحاب ما كهربائيتـه سـالبة ، ومنه ما كهربائيته موجبة ، والرياح هي أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطـر . وهـذا هو المراد كما هو ظاهر في الآية من وصف الرياح بأنها لواقح .

فالملاقحة هنا بين قطيرات أو بين سحاب وسحاب والشبه تام بين التلقـيح الكهربـائي والتلقيح النباتي ، فكما تتحد الخليتان في حالة التلقيح النباتي لتنشأ بعد ذلك خلية واحدة لها غير خواص الخليتين الأصليتين فكذلك في حالة اتحاد سحاب وسحاب إذ ينشأ عنها بـرق ورعـد ومطر ، إذ ينزل المطر كأثر عنه التفريغ الكهربائي السحابي .

فآية الحجر تلك هي مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن لأن تلاقـح الـسحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث .

ثم زادت آية النور الإعجاز {سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ} فإن التأليف بين السحاب ما هـو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبـأ في الجو تعبئة تتفق مع ما سيخلق من برق وصواعق ومن مطر أو برد .

فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام عظيماً ، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض – كما هـو الغالـب – نـزل المطـر

الناشيء عن التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق ، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة والاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى فيسقط على الأرض والإنسان لا يعرف كثيراً عن الظروف التي يتكون فيها البرد ولكنه يعرف أنها ظروف يسودها اضطراب جوي عظيم . هذا الاضطراب قد أشارت إليه الآية وإلى طبيعته إشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله بالجبال . ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها وأنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات .

والثانية : حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوينه بنصها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك {يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِٱلأَبْصَارِ} النور : 43 .

و – {أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً} الفرقان : 45 ، 46 .

نحن نعلم أن الجو هو تراكب طبقات متتابعة ، تقل فيها بينها كثافة الهواء ابتداء من الأرض ، وفي وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئي منحنياً طبقاً للقانون الثاني للعالمين (الهيثم – ديكارت) وهو قانون الانكسار ... إن قانون (الهيثم – ديكارت) يقول بأن الشعاع الضوئي الذي ينتشر في مجال ذي كثافة متغيرة باستمرار يخط في مسيره خطأ منحنياً ذا تجويف متجه نحو النقط الأكثر كثافة وفي هذا المجال يقبض الظل " قبضاً يسيراً " بالنسبة لما قد يكون عليه في الفراغ الذي لا يوجد فيه انكسار . ذلك توافق عظيم بين ما كشفه الإنسان مما لم يكن معروفاً زمن تنزل القرآن وبين القرآن .

ز – {وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} الذاريات : 47. وهكذا يبدو الكون من خلال الآية – بسبب استعمال اسم الفاعل " موسع " الذي يفيد الاستمرار في هذه الحالة – وكأنه في حالة

توسع مستمر وكأنه يزداد على الدوام ، هذه المسألة أصبحت الآن من مسلمات العلــوم وهـــي التي هالت (انشتين) عندما اكتشف عالم الطبيعة (هابل) أن الكواكــب الـــسديمية تبتعــد عـــن (سديمنا) واستنبط عالم الرياضة البلجيكي (لسومتر) من ذلك نظرية امتداد الكـــون ، أو لـــيس عجيباً مذهلاً أن يضع الوحي دائماً معالمه المضيئة أمام الفكر العلمي حتى كأنها تـــصف لـــه الطريق وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمي .

ح – {وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} النمل 88 .

{يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} الأعراف 54 .

إن في هاتين الآيتين إشارتين واضحتين إلى موضوع دوران الأرض ، الآية الأولـــى تلفت النظر إلى أن الإنسان لأول وهلة يرى الجبال ثابتة ، ولكنها في واقع الأمر تـــسير تبعـــاً لسير الكرة الأرضية ذاتها ويذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في حـــديث الآخـــرة ولكـــن نهايتها : {صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} تدل على أنها في عالمنا هذا .

والآية الثانية تشير إلى نفس المعنى وإن كانت الإشارة أبعد وذلك :

لنفرض أن الشمس والأرض ثابتتان إذن يكون قسم من الأرض نهاراً دائماً وآخر ليلاً دائماً ، فإذا ما فرضنا أن الشمس هي التي تدور حول الأرض فإنه في هذه الحالة يكون المنبع الضوئي هو المتحرك وإذن فالنهار هو السائر والليل تابع .

وعلى عكس ذلك في حالة دوران الأرض فالمنبع الضوئي ثابت نـــسبياً[1] أي بالنـــسبة للأرض – وإن كان هو في حد ذاته متحركاً ، وفي حالة ثبات المنبع الضوئي يكون الليل هـــو السائر وحركة النهار تابعة وهذا الذي ذكرته الآية إذ قالت : {يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} فالليل هو الذي يطلب النهار ولا يكون هذا إلا إذا كانت الأرض هي التي تدور حول نفـــسها ، ولزيادة التوضيح نقول : إذا عمل الفعل – في اللغة العربية – بمفعولين ليس أصـــلهما مبتـــدأ

[1] يقول علماء الكون اليوم : إن للشمس ثلاث حركات . حركة عمودية باتجاه كوكبة الجائي مع الكواكب السيارة ، وحركة حول نفسها ، وحركة مع مجرتها .

وخبر . فالأول منهما يكون فاعلاً في المعنى والثاني مفعولاً ، ولا يصح تقديم ما هو مفعول في المعنى على ما هو فاعل بالمعنى في حالة وجود اللبس وآية : {يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً} عمل فيها الفعل يغشي بمفعولين كل منهما يصلح أن يكون فاعلاً ومفعولاً . فلا بد إذن أن الفاعل في المعنى يكون هو المقدم فلما قال الله عز وجل {يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ} دل على أن الليل هو الفاعل في المعنى وهو الفاعل فيقوله عز وجل : {يَطْلُبُهُ حَثِيثاً} يقول ابن مالك :

والأصل سبق فاعل معنى كمن — من ألبسن من زاركم نسج اليمن
ويلزم الأصل لموجب عرى — وترى ذاك الأصل حتما قد يرى

ط – والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة لمن أراد أن يتتبّع وكلها تشير إلى شيء واحد : إن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر فإنك إذ تجد في كلمتين حقيقة علمية ما عرفها الناس إلا في زمن متأخر تصبح أمام شيء خارق جداً جداً .

فعندما يقول : {وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً} تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التي تقول بأن للجبال جذوراً وتدية في الأرض يعدل امتدادها ضعفي ارتفاع الجبل عن الأرض .

وعندما يقول {إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلأَرْضُ أَثْقَالَهَا} تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التي تعب العلم حتى وصل إليها وهي أن الاضطرابات تسبق البركان وإن باطن الأرض أثقل من قشرها وإن كانت الآية لم تأت لبيان هذا ولكنها مع هذا لم تتناقض مع النظريات العلمية .

وعندما يقول في قراءة صحيحة :

{وَجَعَلَ فِيهَا سُرُجاً} عن السماء تجد نفسك أمام حقيقة عملية غير متوقعة فالسراج في اصطلاح القرآن الشمس وفي الماضي لم تكن تعرف إلا شمس واحدة وإذا بالعلم اليوم يقول هذه النجوم كلها شموس .

وعندما يقول :

{وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَـا} تجد نفسك أمام أدق الحقائق عن الشمس التي تبين أخيراً أنها تشارك مجرتها في دورتها وتدور حول نفسها وهي مع هذا تسير في اتجاه عامودي نحـو كوكبة الجاثي ويتوقع العلم حدوث حالة ما لها في يوم من الأيام .

وعندما يقول :

{يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَـارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّـهَارَ عَلَى ٱللَّيْلِ} الزمر . تجد نفسك أمـام مسألة كروية الأرض إذ التكوير إنما يكون للشيء الدائري ، كما تجد نفس المعنى في قوله : {وَٱلأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} فالأدحية والأدْحُوَة بيض النعام .

وعندما يقول :

{وَأَلْقَىٰ فِي ٱلأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ} النحل : 15 . تجد نفسك أمام الحقيقة العلميـة التي تقول : إنه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض في حالة تشقق دائم ، وبالتالي في حالة ميدان واضطراب شديدين .

وعندما يقول :

{أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا} الأنبياء : 30 .

تجد نفسك أمام ما كشفه العلم بعد زمن في كلا تفسيري الآية سواء فسرنا " رتقاً " بأنهما كانتا شيئاً واحداً وهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصة السديمية أو فرسنا " رتقاً " بأن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطر وهذا ينسجم مع النظريات التي تقول إن الأرض كانت في الأصل كتلة نارية كالشمس فلم يكن وقتذاك شيء حي أو ماء ، وكلا التفسيرين أشار إليه ابن كثير .

هذا وأمثاله كثير ولو أنصف العقل عرف أن هذا القرآن أنزله خالق السماوات والأرض العليم بهما {أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ} الملك : 14 .

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير إلى ربانية مصدره ما أشار إليه القرآن بقوله : {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَّ يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} فصلت : 41 ، 42 .

لقد تكلم القرآن عن الماضي وتكلم عن المستقبل وفي كلامه عن الماضي أو المستقبل تنزّه عن الخطأ وجل عن الباطل ، وهو في كلا الأمرين يقدم الدليل الكامل على أنه من عند الله .

وقد حاول أناس أن يطعنوا في بعض أخباره عن الماضي متصورين أن بعد الزمان يجعل كلامهم مقبولاً عند غير المؤمنين ، وهم يدعون في ذلك النقد العلمي والنزاهة التاريخية ، ولكن العلم أثبت بالكشوف المحسوسة تخريفهم وصدق القرآن . قال العقاد في كتابه (مطلع النور) :

" فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عاداً وثموداً ، وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة ، إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفي الجزاف . فما لبثوا طويلاً حتى تبين لهم أن عادا (Oadita) وثمود (Thamudida) مذكورتان في تاريخ بطليمسوس وأن اسم عاد مقرون باسم إرم في كتب اليونان فهم يكتبونها (ادراميت) ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد وعثر المنقب (موزيل التشيكي) صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود .

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ، وكنبة جيشه ، واهتمامه بتعطيل الكعبة ، وبناءه القليس في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها ثم تتكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقباً بالأمير الحبشي من قبل " ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل " .

ويروي الرحالة (بروس) الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون في تواريخهم أن أبرهة قصد مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذي

يصفونه بصفة الجدري ، ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعاً سند التاريخ بعام الفيل قبـل البعثـة المحمدية بجيل واحد بل أقل من جيل " .

إنه ما من شيء تحدث عنه القرآن في الماضي إلا وكانـت وقـائع التـاريخ القـديم ونصوصه وحفرياته تؤديه من أدق التفصيلات – حيث يحدثنا القرآن عن شك بعض النصارى أنفسهم في صلب المسيح ، فتكون فرقة كبيرة من فرقهم قديماً لا تؤمن بصلب المسيح – إلـى أكبر الوقائع حيث يحدثنا القرآن عن الطوفان العظيم الذي تذكره مصادر التاريخ القديم كلهـا ، سواء المصادر المصرية ، أو اليونانية ، أو البابلية ، ويأتي التنقيب لحديث ليرى طميه ويحدد مكانه .

وعندما نعلم أن قسماً من أخبار القرآن كان معروفاً عند العرب ، وقسماً كان مجولاً لا يعرف شيء عنه ، كقصة الطوفان . إذ يقول القرآن عنها {تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا} هود : 49 . ولم يكن هناك مصدر آخر غير الـوحي كما هو ثابت تاريخياً يأخذ عنه محمد ρ . يتبين كنتيجة لهذا كيف أن هذا القرآن لا يمكـن أن يكن مصدره غير الله عز وجل .

{ لاَّ يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ } فصلت 42 .

وأما حديثه عن المستقبل ، وتصديق المستقبل حديثه . فذلك أدل في بابه على أنه مـن عند الله . فما من كلمة قالها القرآن قديماً ونقضتها الوقائع على مر الأيام ، حتى هذا الزمـان وإلى آخر الزمان . سواء في ذلك ما في القرآن من تشريع أو إخبـار أو بيـان ، ولتـشريع القرآن محل آخر ندرسه فيه .

وقد رأينا مثلاً في الخاصية السابقة على أن بيانه عن الكون كان موافقاً – ولا يمكـن ألا يكون – لما اكتشفه الإنسان من حقائق . ونريد هنا أن نتحدث عن شيء مما أخبر به عـن المستقبل ووقع ، وقبل أن نبدأ بضرب الأمثلة نحب أن نذكر كيف أن في هذه الخاصية دلـيلاً لا يدحض على أن القرآن من عند الله وذلك :

إن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضي ، أما المستقبل فهو غيب مـستور مجهول ، والإنسان يستطيع أن يوازن ويقايس ليصل إلى احتمال في أمر هذا المـستقبل ، قـد

يقع وقد لا يقع وهو أبداً لا يستطيع أن يجزم ، فعندما يحدثنا كتاب عن بعض ما سيأتي حــديثاً جازماً ، ثم يقع هذا المخبر عنه تماماً وقوعاً مطابقاً مرات دون أن يخرم ذلك مرة ، إننا فــي هذه الحالة لا بد واجدون غير علم الإنسان وإحاطته ، إنه لا بد أن يكون ذلك أثراً مــن علــم محيط منكشف أمامه المستقبل كالحاضر والماضي إنه علم الله عز وجل . وهذه أمثلة مما فــي القرآن :

أ – { وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ } المائدة 67 .

روى الإمام أحمد عن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ρ ســهر ذات ليلــة وهي إلى جنبه قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : " ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة " قالت : فينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنــا سعد بن مالك ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رســول الله : قالــت : ســمعت غطيط رسول الله في نومه " .

وروى الترمذي والحاكم عن عائشة وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال :

كان النبي ρ يُحرس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : " يا أيهــا النــاس انصرفوا فقد عصمني الله " .

من هذين الأثرين يتبين لنا أن رسول الله ρ كان يحب أن يُحــرس وكــان يحــب أن يحتاط في أمر حماية نفسه ، وقد حرسه الصحابة حتى نزول هذه الآية التي تجزم أن الرسول ρ معصوم من الناس

لن تستطيع يد قاتل أن تمتد إليه ، وهذا إخبار عن غيب إذ من الذي يستطيع أن يجزم أنه لن يقتل قتلاً مع توافر دواعي التعرض للقتل خاصة لرجل كمحمد ρ ! عاداه الناس جميعاً وصار للعداء مظهر الدم في أمة تأصل فيها معنى الثأر . إن مثل هذا لا يجــزم بــه إنــسان متماسك عقلياً ، إن لم يكن مصدر ذلك العلم المحيط .

وتذكر لنا السيرة محاولات كثيرة أعدها اليهود لاغتياله ، ومحاولات كثيــرة أعــدها المشركون كلها لم تبلغ شيئاً في الوقت الذي لم يكن أي مانع بشري يحول دون تنفيذ الجريمــة

إلا عناية الله . وعدا عن محاولات الاغتيال فقد كانت معارك الرسول ρ كثيرة وكانت خطرة وكان الرسول ρ هو هدف العدو فيها ، وما حدث أبداً أن ولى الرسول ρ العدو ظهره وكان أقرب أصحابه إلى العدو ساعة المعركة وكانوا يلوذون به إذا حمي الوطيس كما يذكر ذلك صناديدهم ، ومع هذا وذاك فالآية تجز أن هذا الإنسان معصوم لن يقتل وقد كان

لقد انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بيد القدرة الإلهية لا بتسليط إنسان .. ونذكر هنا أثرين يوضحان حماية الله لرسوله ρ في أشد ساعات الخطر ؛ تحقيقاً لوعده .

– روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة وروى مسلم في صحيحه عن جابر قال :

كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ρ فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله ρ تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي ρ أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله يمنعني منك ضع السيف فوضعه .

– وروى الشيخان : في غزوة حنين انكشف المسلمون وولوا مدبرين فطفق الرسول ρ يركض جهة العدو راكباً بغلته وعمه العباس آخذ بلجامها يكفها عن الإسراع فأقبل المشركون إليه فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه فوالله ما نالوا منه نيلاً بل أيده الله بجنده وكف عنه أيديهم بيده .

إن نبوءة تقول لإنسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل : لن تقتل . لا يمكن أن يجزم بها رجل يحترم نفسه أن يكذبه الناس ما لم يكن ذلك وحياً من الله الذي يعلم الغيب وبيده الموت والحياة .

ب – {سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ} القمر 45 ، 46 .

نزلت هذه الآية في مكة كما روى البخاري عن عائشة : (نزل على محمد بمكة وإني لجارية ألعب) : { بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ} والمسلمون وقتذاك مستضعفون في مكة قليلون رمتهم العرب عن قوس واحدة ولم تكن هناك أية فكرة قتال ، ولو كان قتال فلم يكن متوقعاً في ميزان القوة أن يغلب المسلمون ، ومع ذلك تتنزل هذه الآية المنبئة فلا يفهم المسلمون المراد منها حتى عمر . روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال :

لما نزلت : {سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ} قال : عمر : أي جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ρ يثب في الدرع وهو يقول : {سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ} فعرفت تأويلها يومئذ . وقد وقعت الواقعة بعد فترة طويلة تميز بها معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وأصبح للمسلمين دار ، وللمشركين دار ، واصطدم الجمعان ، وكان رسول الله ρ عارفاً يومها أنه اليوم الموعود . روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ρ قال وهو في قبة له يوم بدر : أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض . فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله لقد ألححت على ربك . فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : {سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ} وقد انتصر جمع الإيمان ، وهزم جمع الكافرين وصدق القرآن العظيم , وآمن المؤمنون أن هذا إنما هو علم الله الذي لا يخطئ .

ج – {الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ} .

– كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم إن الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أُنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية ..

ولقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها ، وهزمت في بلادها ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك – إلى أمد طويل – قائمة فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر ، ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه ، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقول {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ} الروم : 3 ، 4 .

إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس . سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين ، وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما في يوم ؟

لذلك أكد القرآن أعظم التأكيد بقوله {وَعْدَ ٱللَّهِ لاَ يُخْلِفُ ٱللَّـهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاس لاَ يَعْلَمُونَ} الروم . ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤخرين في أقل من تسع سنين ، وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى . كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ورواه الطبري عن ابن عباس وغيره . فكانت نبوءة ثالثة في الآية تحققت .

د – {ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} المدثر 21 – 26 .

{تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} .

النص الأول :

في الوليد بن المغيرة كما هو معروف من أسباب النزول .

ولكن النص الثاني في عم النبي ρ وزوجة عمه ، والنصان يخبران في حياة الثلاثة أنهم سيدخلون النار وهذا يعني أنهم سيموتون على الكفر ولن يدخلوا في الإسلام وواضح في ذلك الإخبار عن الغيب . فكم من مشرك كان مثلهم ضلالاً وكفراً وعتواً وكيداً بالمسلمين ، ثم كان بعد من المسلمين كأبي سفيان وخالد وعمرو بن العاص .. وظواهر الأمور لم تكن تدل على أن الوليد مثلاً أبعد من أبي سفيان عن الإسلام . فللوليد تلك الشهادة العظيمة التي رأيناها سابقاً في القرآن كما أن الآخر عم النبي ρ ولكنها النبوءة التي لا تتخلف إذ تقول فيكون ما قالت ، ولم يحدث أن القرآن ذكر إنساناً بأنه من أهل النار ثم أسلم .

هـ - {لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّـهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّـهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً} الفتح 27 .

مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قريش إذا جاؤها في العام المقبل أن يدخلوا عزلاً من كل سلاح إلا السيوف في القرب .

فهل كان للمسلمين أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود ، وقطع الأرحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحسبون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟

على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعها وقوتهم ؟ ألا يمكن أن تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى فخ ؟ وآية ذلك : اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القراب وهو سلاح قد يطمئن به المؤمن إلى أنهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ولكن لا يأمنون معه أن ينالوا بسهامهم وبنبالهم .

في هذه الظروف المربية يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثالثة مجتمعة : الدخول والأمن وقضاء الشعيرة . فدخلوها في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم ، وقضوا مناسكهم كما أخرج ذلك الشيخان . وكان من بعد ذلك الفتح القريب .

و - كان القرآن بمكة يقص على المسلمين ما يثبت به فؤادهم ، ويعدهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ} الصافات : 171 – 173 .

{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلأَشْهَادُ} غافر : 51 .

كان هذا يوم كانوا في مكة حيث كانوا ينامون على خوف ، ويستيقظون على خوف . ثم هاجروا إلى المدينة فكيف كان الحال ؟

روى الحاكم وصححه (لما قدم رسول الله ρ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أترون أنا نعيش آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت الآية : {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً} النور : 55 .

وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال :

" نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد " فانظر بعد ذلك ماذا كان من نصر وماذا كان من أمن ، وماذا كان من استخلاف بلدة عدد سكانها مئات تقوم بها دولة كل من حولها يعاديها ، وإذا بها في سنوات تضرب كل جزيرة العرب وتنتصر عليها ، وتضرب أكبر دولتين في العالم الفرس والروم فتنتصر عليهما ، ثم تنساح في الأرض فلا يستعصي على سيوف أهلها شعب ولا بلد .

ز – {وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} الشورى : 31 . {وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِي ٱلسَّمَآءِ} العنكبوت : 22 .

إن الكلام عن الشيء فرع تصوره هذا بالنسبة للإنسان . أما بالنسبة للذات الإلهية ، فإن الكلام عن شيء أثر العلم به . وأنت ترى في هاتين الآيتين خطاباً للإنسان أنه لن يعجز الله ، ولكن يلاحظ في الآية الأولى أنه خاطب الإنسان على الأرض فقط ، وفي الآية الثانية خاطبه على الأرض وفي السماء . فزيادة " في السماء " إذن في الآية الثانية زيادة ذات دلالة كبيرة ، هذه الزيادة فيها معنى النبوءة التي تبشر بإمكانية صعود الإنسان إلى السماء وتخاطبه في كل أحواله بأنه خاضع لقهر المشيئة غير خارج عما تريد هذه الذات .

يا إنسان لن تعجزني على الأرض ، وإذا صعدت إلى السماء فلن تعجزني ، ولم يصعد الإنسان إلى السماء إلا في عصرنا هذا ، فكأن الخطاب إذن لإنساننا الحالي وذلك من أسرار الإعجاز .

وفي كل حال يظهر لك أن الزمان يظهر ما في القرآن من حق ، وكيف أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ح – {وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} النحل : 8 .

{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} يــس : 41 ، 42 .

الآية الأولى ذكرت أصنافاً مما يركبه الإنسان وله فيه زينــة ، وبعــد أن عــد هــذه الأصناف ذكر أنه سيخلق ما لم يعلمه الصحابة المخاطبون الأول بهذه الآية ، ومن جو الآيــة نفهم أن هذا الشيء سيخلقه الله عز وجل هو مما يركب وفيه زينة في نفس الوقت غير الخيــل والبغال والحمير .

والآية الثانية تحدد نوع تحديد بعض صفات هذه المركوبــات وتقــول : {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} .

ترى ما هذا الذي هو من جنس الفلك ويركبه الإنسان ؟

لقد كان يومها في مستقبل الغيب السفينة الفضائية والطائرة والسيارة والقطار وكل هذه المركوبات التي رأيناها حديثاً وهذا كله يدخل في كلمة { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} يس : 42 .

وإذن فنحن أمام آيتين تبشران بمركوبات جديدة للإنسان ، وقد كان ما بشر به القــرآن ، يبقى معنى لا بد من الإشارة إليه وهو أننا نلاحظ تطور المركوبات يوماً بعد يوم كــل يــوم يأتي بجديد لا يعلمه الإنسان قبل وجوده وهذا الشيء نفسه نفهمه من آخــر الآيــة الأولــى { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} النحل : 8 .

فالقرآن في الحقيقة يخاطب الإنسان أبداً في كل زمان ومكان . فعندما أسمع الخطــاب اليوم { وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أفهم أن في غد شيئاً جديداً ، ويكون إذن ما نراه من تطور كــل يوم في عالم المركوبات داخل ضمناً في الآية .

وأخيراً نقول : إن بعض الصحابة منذ تنزل القرآن فهم أن الله سيخلق للإنسان ما يركبه غير ما يعهده الناس قديماً يسير في البر كما تسير السفن في البحر .

ط – {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلأَرْضِ أُمَماً} الأعراف 168 .

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ} الأعراف : 167 .

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوۤاْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ} آل عمران : 112 .

هذه الآيات في اليهود وإن واقع التاريخ ، ومستقبل الزمان بالنسبة لعصر تنزل القرآن ، هو الذي يفسرها ، فكان ما حدث تفسير القدرة الإلهية للعم الإلهي ، إذ كان اليهود مشردين طوال هذا الزمان ، كما أخبر الله {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلأَرْضِ أُمَماً} ومع هذا التقطيع كان العذاب المتواصل من لدن عصر القرآن إلى هذا الزمان .

والتاريخ يقص علينا قصة هذه الحقبة من تاريخ اليهود ، وأنها اضطهاد دائم ، وذلة دائمة ، من ملاحقة الأسبان لهم ، إلى مطاردة الكنيسة في كل مكان ، إلى ما وقع لهم في روسيا ، وآخر أنباء هذا العذاب ما سامهم إياها النازيون مما يعرفه أهل الأرض جميعاً . هذه صورة مما وقع لهم في الغرب ، والصورة الأخرى التي وقعت لهم في الشرق والغرب أنهم أبداً محكومون من غيرهم ، وأنهم أبداً يعانون حياة الذلة ، وفي هذا وذلك عذاب { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ} الأعراف 167 .

ثم حدث أن عطفت عليهم الشعوب والحكومات . أمريكا ، وإنكلترا ، وروسيا ، وفرنسا ... والناس فكان لهم ما يسمى دولة فارجع بعد ما ذكرناه إلى الآية الثالثة ترى كيف قامت المعجزة {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوۤاْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ} آل عمران : 112 .

عذاب متواصل وذل دائمة إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، فلما كان هذان الحبلان . صار لهم دولة ، ولكن الآية الأولى تذكر أن العذاب لن ينقطع عنهم إلى يوم القيامة . لذلك فهم على موعد معنا نحن المسلمين {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ} الصافات : 177

. وفي التوراة الحالية المحرفة هذا القول " سأجمعك يا إسرائيل في أرض الميعاد ثم أذبحك ذبحاً " وسيعلمون ماذا سيفعل بهم جند الله بعد أن تنتهي هذه الردة عن الإسلام إن شاء الله .

ي – والذي يريد أن يتتبع هذا النوع مما في القرآن يجد الكثير . ففي آية {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الحجر : 9 . غيب تحقق وفي آية {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ} البقرة : 24 . غيب تحقق وفي آية {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلآفَاقِ وَفِيۤ أَنفُسِهِمْ} غيب تحقق مظهره ما كشف الإنسان من علم وما يكشف ، وفي آية {إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً} غيب تحقق وفي آية {إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} القصص 85 . أي إلى مكة ففيها غيب تحقق .

والشيء الذي نريد أن نخرج به هو أن القرآن إذا قال فذلك العلم الذي لا يخطئ لأنه علم الله المحيط .

غير أن فهمنا للقرآن قد يخطئ وهذا هو البلاء الكبير عندما نفهم القرآن فهماً خاطئاً ، ونعطيه للناس ، بل نلزمهم به أو يلتزمون . وهذا خطر كبير . لذلك ينبغي أن نكون على حذر عندما نقرأ تفاسير القرآن : وكل مفسر فهم القرآن على ضوء ثقافة عصره فقدم لنا فهمه للقرآن وتفسيراً للقرآن وشتان بين الفهم الخاطئ للقرآن وحقيقة القرآن .

– 4 –

شيء آخر يدلك على أن هذا القرآن مصدره الله عز وجل ، وأنه ما كان ليكون هكذا لولا أنه منزل من عند الله الذي أحاط علمه بكل شيء . هذا الوجه الذي نريد أن نتحدث عنه هو الذي أشارت إليه الآيات القرآنية التالية :

{إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيۤ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} النمل : 76 .

{يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ} المائدة : 15 .

{وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} النحل : 64 .

{مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} يوسف : 111 .

* * *

إن الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة إلا لسفر واحد من أسفارها . هو سفر " أرمياء " كما يذكر (مونتيه) في تاريخ الكتاب المقدس ، وليس الإنجيل بأسعد حالاً . فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقيه) كثيراً من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الأناجيل . وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح . لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن أي بعد عصر الحواريين الذي تنسب إليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فإن شكوكاً كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية . (انظر كتاب الظاهرة القرآنية) .

إن إنجيلاً واحداً نطق به عيسى على أنه كلمة الله ، فلِمَ يكون الإنجيل أربعة ولم كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص ، ولقد لعن أرمياء في سفره المذكور (أقلام النساخ الكاذبة) .

ومن هنا كان للقرآن فيما يتعلق بهذه الكتب مواقف كل منها يشير إلى ربانية مصدره ، حيث إن هذه المواقف كلها تدل على علم مطلق لا يأتيه الشك ، حتى يتحدى في بعض المواقف أن يأتوا بالتوراة ليثبتوا ما يدعون مما يذكر القرآن خلافه {كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِيۤ إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَاةِ فَٱتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} آل عمران : 93 .

– أول هذه المواقف أن التوراة والزبور والإنجيل ، هذه الموجودة حالياً ليست هي بالضبط الكتب السماوية الأصلية بل داخلها تحريف وتبديل ، ونُسي قسم منها وقد رأينا موقف النقد العلمي العقلي النصراني من هذا الموضوع وكلمة أرمياء التي تتفق مع ما ألح القرآن عليه :

{وَمِنْهُمْ أُمِيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ } البقرة : 78 – 79 .

{مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} النساء : 46 . {يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ} المائدة : 41 .

– الموقف الثاني :

ذكر القرآن الكريم كثيراً مما كان في التوراة والإنجيل من معان ووحي ، وعندما نستعرض هذه النصوص وتقرأ التوراة والإنجيل فإننا نجد هذه النصوص قد طابقت ما في التوراة والإنجيل ، مما يدل على أن قسماً من التوراة والإنجيل لم يحرف ، وعلى أن الله العليم بما أنزل هو منزل القرآن ، إذ لا شك تاريخياً كما مر أن محمداً ليس له أي اطلاع على كتب دينية أو غير دينية :

وهذه أمثلة :

أ – يقول القرآن :

{لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} . {وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيۤ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبي وَرَبَّكُمْ} المائدة : 116 .

ويقول إنجيل يوحنا الفقرة الثالثة الباب السابع عشر (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

ويوقل إنجيل مرقس الباب الثاني عشر (28) (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله أية وصية هي أول الكل فأجابه يسوع أن أول كل

الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكركَ ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى) .

ويقول إنجيل متى الباب التاسع عشر (16) (وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية فقال له لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله) .

هذه نصوص صريحة في الأناجيل الحالية تثبت أن دعوة عيسى كانت للتوحيد وأنه رسول الله ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف .

ب – يقول القرآن على لسان عيسى {وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ ... } ويقول {وَآتَيْنَاهُ ٱلإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ} المائدة : 46 . ويقول مخاطباً لنا : {شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِيۤ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ} الشورى ك 13 .

ويذكر إنجيل متى إصحاح (5) على لسان عيسى : لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماوات والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات فإني أقول لكم : إن لم يزد بركم على الكتبة والقديسين لن تدخلوا ملكوت السماوات " .

ج – يقول القرآن :

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلأَنْفَ بِٱلأَنْفِ وَٱلأُذُنَ بِٱلأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ} المائدة : 45 . وفي الإصحاح (21) من سفر الخروج .

وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم (من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً ومن ضـــرب أباه أو أمه يقتل قتلاً وإن حصلت أذية تعطي نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكياً بكي وجرحاً بجرح وضاً برض) .

د – يقول القرآن :

{هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} . {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} . {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً} .

وتقول التوراة في الإصحاح الأول من سفر التكوين بعد ذكر قصة الخلق . (وقال الله نعمل الإنسان فخلق الإنسان ذكراً وأنثى وباركهم اله وقـــال لهـــم أثمـــروا وامـــلأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا وكان .. يوماً سادساً) . وفي الإصحاح الثاني من سفر التكوين :

– (فأكملت السماوات والأرض وكل جندها) .

– (هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقـــت يـــوم عمـــل الـــرب الإلـــه الأرض والسماوات) .

– (وجعل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفـــساً حية) .

(فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانهـــا لحمـــاً وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إليه) .

هـــ – يقول القرآن :

{مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} الكهف ويقـــول {مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ} ويقول {أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَاداً * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً

شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً } النبأ : 6 – 16 .

وفي سفر أيوب إصحاح (38) أجاب الرب أيوب وقال : (شد الآن حقويك كرجل – أي قف باستعداد – فإني أسألك فتعلمني : أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم من وضع قياسها وعلى أي شيء قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله .من حجز البحر بمصاريع حين اندفق من فم الرحم هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار أتخرج المنازل من أوقاتها وتهدي الشمس مع ... من يهيء للغراب صيده إذا نعب فراخه إلى الله فأجاب أيوب : الرب وقال : ها أنذا حقير فماذا أجاوبك وضعت يدي على فمي " .

و – يقول القرآن :

{ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُل شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُل شَيْءٍ وَكِيلٌ * لاَّ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ } ويقول {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ويقول {لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْض} .

وتقول التوراة سفر الخروج :

"الرب يملك إلى الدهر إلى الأبد " (ص ح 15 وفي الإصحاح (37) " عند الله جلال مرهب القدير لا ندركه عظيم القوة والحق وكثير البر " وفي الإصحاح (33) " هو ذا الله يتعالى بقدرته من مثله " " هو ذا الله عظيم ولا نعرفه وعدد سنيه لا يفحص " .

ز – يقول القرآن :

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} البقرة : 51 .

ويقول {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيۤ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلألْوَاحَ} الأعراف : 150 ويقول {وَٱنظُرْ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ} طه : 97 .

(وفي الإصحاح (32) من سفر الخروج (فانصرف موسى ونزل من الجبـــل ..) وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمـــي غــضب موســـى وطـــرح اللوحين من يديه ...

ثم أخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء) .

ح – يقول القرآن متحدثاً عن موسى :

{قَالَ رَبِّ أَرِنِيَ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي} الأعراف : 143 .

وفي ألإصحاح (33) من سفر الخروج (فقال موسى : أرني مجـــدك ... (18) . قال لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش) (20) .

ط – يقول القرآن :

{وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَ بَنِـيۤ إِسْـرَائِيلَ لاَ تَعْبُـدُونَ إِلاَّ ٱللَّـهَ وَبِٱلْوَالِـدَيْنِ إِحْـسَاناً وَذِي ٱلْقُرْبَـىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً} البقرة : 83 .

وفي الإصحاح العشرين من سفر الخروج : (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صـــورة مما في السماء ... لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور وأصنع ‘إحـــساناً إلـــى ألوف من محبيَّ وحافظي وصاياي ..) .

ي – يقول القرآن في سورة يوسف عن يوسف عليه السلام :

{إِذْ قَـالَ يُوسُـفُ لأَبِيـهِ يٰأَبتِ إِنِّـي رَأَيْـتُ أَحَـدَ عَـشَرَ كَوْكَبـاً وَٱلـشَّمْسَ وَٱلْقَمَـرَ رَأَيْـتُهُمْ لِـي سَاجِدِينَ} ويقول سفر التكوين الفصل (37) (قال رأيت حلماً أيضاً كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له) .

ويقول القرآن على لسان إخوة يوسف :

{ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } يوسف : 10 .

وفي سفر التكوين :

(والآن تعالوا نقتله ونطرح في بعض الآبار ونقول : إن وحشاً ضارياً افترسه ونرى ما يكون من أحلامه ، وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذا البئر التي في البرية) .

ويقول القرآن :

{قَالُواْ يَأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ... } .

{وَجَآءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} يوسف .

وفي سفر التكوين :

(فأخذوا قميس يوسف وذبحوا تيساً من المعز وغمسوا القميص في الــدم .. وحــش ضار أكله افترس يوسف افتراساً) .

ويقول القرآن :

{وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَايَ} يوسف 23 .

وفي سفر التكوين :

(وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت ضاجعني فأبى وقال لامرأة مولاه هو ذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت وجميع ما هو له جعله في يدي ... فاتفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن في البيت احد من أهله فأمسكت بثوبه وقالت ضاجعني) .

ويقول القرآن :

{وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يٰأَيُّهَا ٱلْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوۤاْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ} يوسف .

ويقول سفر التكوين :

(إن فرعون رأى حلماً كأنه واقف على شاطئ النهر فإذا بسبع بقرات صاعدة منه وهي حسان المنظر وسمان الأبدان فرتعت في المرج وكأن سبع بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهي قباح المنظر وعجاف الأبدان فوقفت بجانب تلك على شاطئ النهر فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف الأبدان السبع بقرات الحسان المنظر السمان ...

ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبقت في ساق واحدة وهي سمان جياد وكأن سبع سنابل دقاقاً قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون فإذا هو حلم فلما كانت الغداة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها فقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون) .

* * *

من هذه النقول نعرف معنى الآية القرآنية التي ختمت بها سورة يوسف {مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} ونعرف كذلك وحدة الوحي ووجوده إذ رأينا أن سيدنا محمداً ρ لم يتلق أي تعليم سابق مما يوهم أن مثل هذا التلاقي وليد دراسة ، كما أن البيئة العربية لم تكن منتشرة فيها هذه المعاني أبداً . ولم تكن تعرفها ، بدليل الآية التي ذكرت في

سورة يوسف عقب القصة {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} يوسف : 102 .

فعندما يتم التلاقي بين معنى ذكره الإنجيل أو التوراة أو الزبور مع معنى موجود في القرآن ، مع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً فذلك دليل لا يدحض على أن هذا القرآن من عند الله {لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} النساء : 166 .

– الموقف الثالث :

رأينا فيما مضى أن التوراة والإنجيل والزبور في الأصل من عند الله ، ورأينا كذلك أنها داخلها تحريف وتبديل وتغيير ونسيان وضياع ، والشيء العادي إذن بعد هذا ، أن تحدث انحرافات ضخمة نتيجة لهذا ، ومفاهيم خاطئة ، وتصورات فاسدة ، واختلافات كثيرة ، ويأتي القرآن ليصحح لهم هذه المفاهيم كلها ، وهذه الأخطاء كلها ، وهذه الانحرافات كلها . فيبين ويوضح ويوبخ ويعاتب ويدعو وينذر ، ويعلل ويوضح ، ويطالب ويأمر ، وينهي بجزم وحزم وتعليم وإرشاد وأستاذية مطلقة ، وسيادة بينة . فردَّ اليهود والنصارى معاً إلى القصد وإلى الطريق المستقيم {إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيۤ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} النمل : 76 {يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} المائدة : 19 .

وهذه أمثلة :

أ – أعطى قسم من الكتابيين العصمة لبعض البشر ممن ليسوا بأنبياء ، فأطاعوهم وعطلوا نصوص الكتب السماوية ، كما هو مشاهد الآن عند النصارى مع البابا . فقال لهم {ٱتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ} التوبة : 31 .

وقال :

{قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ} المائدة : 77 .

ب – ووصف بعض الكتابيين الله بصفات خلقه . فقالوا عنه إنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع فقال لهم ولغيرهم .

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ} ق : 38 .

جـ – ووقف اليهود من عيسى ابن مريم وأمه موقفاً منكراً فقال عنهم :

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ} النساء : 155 – 167 .

د – وأله بعض النصارى عيسى ابن مريم فقال :

{لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوۤاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيهِ ٱلْجَنَّةَ} المائدة : 72 .

هـ – وقال بعض النصارى بالتثليث فرد عليهم :

{لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوۤاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ} ووضع عيسى وأمه في المحل الصحيح {مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ ٱلطَّعَامَ} المائدة : 75 .

و – تصور بعض الكتابيين أن إثمهم يحمله غيرهم وأن الإنسان آثم بالأصل فقالوا بالخطيئة الأزلية ورفعها بالمسيح {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاۤ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوۤءًا يُجْزَ بِهِ} النساء : 123 .

وقال :

{وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} الأنعام : 164 .

والأمثلة كثيرة جداً على هذا في القرآن ، كثرة تلفت النظر لدرجة أن الإنسان لا يشك بتاتاً إذا طالع هذه الكتب كلها . إن القرآن قد استوعب معانيها وأصلح ما أفسدوه فيها ، وأقـــام الناس على الحق الذي لا شبهة فيه ، ويخرج أخيراً بهذه النتيجة .

إن الحديث عن الكتب السماوية وأهلها في القرآن يدل على علم محــيط كامــل بهــذه الكتب وأهلها ، ويدل على علم محيط كامل في مواطن الخلاف التي لــم يكــن منهــا شــيء معروف في جزيرة العرب ، ويدل على علم محيط كامل في مــواطن الانحــراف ، وكــذلك بالتناقض بين النصوص ، كأثر عن هذا الانحراف واستعمال دقيق كامل للمصطلحات الكتابية . هذا مع أمية الرسول ρ ووجود هذه الكتب في غير اللغة العربية ، وعدم انتشارها ، وجهــل البيئة العربية بمضامينها ، وثبوت أن الرسول ρ لم يتلق تعليماً من أحد .

إن هذا كله لا شك يثبت أن هذا القرآن وحي من عند الله .

وآخر ما نريد ذكره في فصل المعجزة القرآنية . هذه الخطوط العامة حول لغة القرآن ، وأسلوب القرآن ، وفي ذلك برهان أي برهان على كون هذا القرآن من عند الله .

إن المبتدئ في طريق ليس له فيها تجربة سابقة ولا لأحد قبله زيــادة فيــه ، يختلــف وضعه عن المجرب الخبير ، أو من صاحب المجربين واستفاد من خبرتهم ، كما يقال هذا في الحل والترحال ، يقال مثله عن عالم الأدب ، لم كان حسان بن ثابــت فــي الجاهليــة أقــوى شاعرية منه في الإسلام ؟

لأن المعاني التي كان يتحدث عنها في الجاهلية معان مطروقة من شعراء قبله . قالوا فيها كثيراً ، وفتحوا فيها آفاقاً واسعة استفاد منها . فقال وأجاد .

أما في الإسلام فالوضع يختلف . فقد أتى الإسلام بمفاهيم جديدة وقــيم ومثــل عليــا تختلف عما في الحياة الجاهلية ، وأقام نظاماً للحياة على أسس معاكسة تماماً لما كــان عليــه الناس ، والمعركة بين جديد وقديم . فكان إذن هو يتحدث عن هذا الشيء الجديد كلــه رائــداً

غير مسبوق ، فشيء عادي إذن أن يكون شعره الإسلامي أضعف من شـــعره الجـــاهلي . إن زهير ابن أبي سلمى لم يكن شعره بهذه الجودة لو لم يستفد من تجربة حجر الشعرية ، ولـــولا شعر زهير ما كان الحطيئة جيد الشعر ومعاني هؤلاء واحدة .

هذه قضية ينبغي أن تكون على ذكر منا ، ونحن نتحدث عن لغـــة القـــرآن وأســـلوب القرآن .

وجرت عادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون , ولغة المخاطبة غير لغة الشعر ، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية ، تختلف عن طريقة التعبير في قضايا الخيال والتصور أو العاطفة ، وفي الأدب عادة يشطح الخيال فيقرب البعيد يبعد القريب فيكـــون كـــذب وشـــطط وإسفاف ومجانة ..

وهذه قضية ثانية ينبغي أن تكون على ذكر منا كذلك .

والأديب عادة ينتزع الصورة من بيئته ، ومن محيطه مما يشاهده أو يـــسمعه فيحلـــل ويركب ويغوص ويحلق ويدقق ، ولكنه لا يخرج عن بيئته ومحيطه :

من زهير إذ يقول :

ترى العين والآرام في عرصاتها وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

إلى علي بن الجهم إذ يقول للخليفة :

أنت كالكلب في الحفاظ على الود وكالتيس في قراع الخطوب

وهذه قضية ثالثة كذلك ينبغي أن نتذكرها أثناء الحديث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن .

وأي شاعر تكلم ، وأي أديب قال أو كتب ، لو عرض عليه ما قال بعد مدة من قولـــه أو كتابته ، لغيّر أو بدّل أو قدّم أو أخّر ، وأي قول قيل يمكن أن ينتقده الناقدون . فيرون كلمة

أجود من كلمة ، وحرفاً أجمل من حرف ، وجرساً ألطف من جرس ، أو أكثر مناسبة ، وقــد تجد القصيدة الجيدة فتجد فيها كلمة غير مناسبة لما قبلها ، أو جرساً غير منسجم مع معنـــى ، إلى آخر ما هو معروف عند نقاد الكلام ، ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفصح منها أو أدق تعبيراً أو أوجد معنى .

وفيما رأيناه من نقد الخنساء لحسان في أوائل هذا البحث مثال كاف ، فإذا ما اتضحت هذه القضايا كلها نقول : إن إنساناً يعقل لا يستطيع أبداً أن يتصور أن هذا القــرآن مــن عنــد محمد ρ أو سواه من البشر ، بل لا بد أن يكون مصدر هذا القرآن الذات العليا ذات الله عــز وجل :

أ – فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية . فما فيه من صور ومــا فيــه مــن أمثال جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر . خذ مثالين على ذلك :

أولاً – {وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ من فَوْقِهِ مَوْجٌ من فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ } النور : 39 ، 40 .

إن هذا النص وخاصة المثل الثاني منه لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ولا وليــد العصر الذي وجد فيه ولتعرف لماذا ؟ اقرأ هذا التعليق : (في هذه الآية إشارة إلى الأمــواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعباً هي أمواج غير منظورة تتحــرك فـــي خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحار ، وقد كان من المعروف منذ سنين كثيــرة أن سفن البعثان إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميــت ، والذي عرف الآن بأنه أمواج داخلية . وفي عام 1900 م لفت الأنظار كثير مــن مــساحي البحاري الإسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء ، والآن بالرغم من أن الغمــوض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً أســفل الــسطح فــإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمراً معروفاً جيداً ، فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة كما تعمل شقيقاتها السطحية على قذف السفن . ويظهر أن هذه الأمواج تتكــسر عند التقائها بتيار الخليج ، وبتيارات أخرى قوية في بحر عميق ، فالآية القرآنية تقــول : { فِي بَحْرٍ لُّجِيٍّ} إذن الكلام عن بحر عميق { يَغْشَاهُ مَوْجٌ من فَوْقِهِ مَوْجٌ } إذن أمواج داخلية وأمواج

سطحية { من فَوْقِهِ سَحَابٌ } إذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب والصورة إنما تنطبق على الإنسان إذا كان تحت الأعماق أي تحت الأمواج الداخلية "[1] مثل هــذا التــصوير معجــز لا يتصور من رجل الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرناً .

ثانياً – {وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ} لقمان 27 . {قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً} مثل هذه الصورة مما لا يخطر على قلب بشر في التعبير عن ســعة علم الله بالكلمات التي تعبر عن هذا العلم الذي لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الروعة المــوجز الواضح السهل . أن تنقلب الأشجار كلها أقلاماً والبحار كلها حبراً وفوق البحر أبحــر وتبــدأ الأقلام بالكتابة وينفد ماء البحر وتبقى بعد ذلك الكلمات لا تتنــاهى ، إن الأمــة التــي كــان تصورها عن الإله أن تصنع صنم التمر ثم تعبده ثم تأكله ، ليس بالإمكان أن يصدر عن فــرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصور ولكنه كلام الله .

ب – والقرآن الكريم نزل منجماً خلال ثلاثة وعشرين عاماً وكتاب تم جمعــه خــلال هذه الفترات الطويلة لا بد – إلا إذا كانت المسألة غير عادية – أن يكون هناك اخــتلاف فــي أسلوبه قوة وضعفاً ما بين بدايته إلى نهايته ولا بد أن يكون هناك اختلاف فــي المــضامين . وهذا شيء يلاحظ عند كل من تعاطى صناعة الكلام ، وصناعة الأفكار ، وصناعة الإصــلاح وصناعة الأمم . التجربة تغير الرأي ، والتجربة تقوي الأسلوب ، وليست آراء الإنــسان بعــد عشرين عاماً من العمل الإصلاحي هي نفسها قبل العشرين , ولكنك في القرآن تجــد ظــاهرة الوحدة في الأسلوب سواء في ذلك ما نزل أولاً أو ما نزل أخيراً وســواء فــي ذلــك الــنص التشريعي ، أو النص الوعظي أو النص الوصفي أو النص القصصي ، وظاهرة الوحــدة فــي المعاني فلا تجد معنى متأخراً ينقص معنى متقدماً ، بل يتممه وكل ذلك يــتم بــلا تــدبير أو ترتيب أو تفكير يخرج النص الموحى به من فم رسول الله ρ فيأخذ محله في القرآن ، ويبقــى كما هو بلا تغيير ولا تبديل ، ويبقى هذا الأسلوب متميزاً متفرداً ما عرف له مثيل مــن قبــل ومن بعد مختلفاً عن أسلوب محمد ρ نفسه في الكلام مع بقاء معاني القــرآن أعظــم وأحكــم وأروع ما سمعته أذن الإنسان . فالمسألة بإنصاف ليست بشرية وهــذه أمثلــة علــى وحــدة الأسلوب ووحدة المعاني .

---

[1] روح الدين الإسلامي .

من النصوص التشريعية في القرآن :

{يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيۤ أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلأُنْثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} النساء : 11 .

ومن النصوص القصصية :

{وَقِيلَ يٰأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ} هود : 44 .

{وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِيۤ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} القصص : 7 .

ومن النصوص الوعظية :

{ يٰأَيُّهَا ٱلإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِيۤ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ ٱلأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} الانفطار : 6 – 14 .

ومن النصوص الوصفية :

{أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَاداً * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً } النبأ : 6 – 15 .

هذه النصوص كما ترى بعضها نزل سابقاً وبعضها نزل لاحقاً ، وكلٌ يتحدث عن معنى ولكن هل تجد اختلافاً في الأسلوب ؟

إن إنساناً ذا عقل لا يستطيع أن يحكم على هذه الظاهرة إلا أنها خارقة للعادة .

أول آية نزلت في الخمر قوله تعالى :

{وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً} النحل : 67 .

فتعبير السكر والرزق الحسن دل على أن السكر غير الرزق الحسن ، فكانت أول آية غمزت من الخمر . ثم تأتي الآية الأخـــرى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} البقرة : 219 .

ثم تأتي الآية الأخرى :

{ لاَ تَقْرَبُواْ ٱلصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ } النساء : 43 .

ثم تنزل الآية الأخيرة :

{يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلأَنصَابُ وَٱلأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} المائدة : 90 . فهل تجد تناقضاً بين أول آية ذكرت الخمر وآخر آية . وعلى هذا فقس . فالقرآن تكامل خلال ثلاثة وعشرين عاماً . ما نقض معنى متـــأخرة معنـــى متقدم بل أكمله وأوضحه وتممه . وصدق الله العظيم {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء : 82 .

ح – والقرآن الكريم طرق معاني ما طرقها أحد من قبل في أمة العرب .

فالمفروض لو كان الأمر بشرياً ، أن يرى آثار ذلك من ضـــعف صـــياغة ، وركـــة كلمات , وتلعثم وتكلف إلى غير ذلك ، إلا أن الواقع غير ذلك فقد تحدث القرآن عـــن الجنـــة والنار والملائكة والإنسان والجن والأخلاق والسياسة والكفر والإيمان ، وتحدث عـــن الـــذات الإلهية ، وناقش المعارضين ، وأفحم المجادلين ، وهو في ذلك كله في أعلى طبقات البلاغة ، وفي أعظمها ، وكل من أتى بعد وتحدث عن أي معنى طرقه القرآن ، كان فيمـــا قـــال أقـــل فصاحة وبياناً غير واضح المعنى إذا ما قيس ما قيل إلى لغة القرآن . لدرجة أنك لا تـــستطيع أن تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها ، وما تعطيه من معنى ، ومناسبتها لما قبلها وبعدها . هذه البلاغة العظيمة كلها لم يرافقها شـــطحة فكـــر ، ولا كذبة خاطر ، ولا لفتة غير واقعية . بل الحق الذي لا يناقش فيه واحد .

ونرى ذلك بشكل مضطرد من أول القرآن لآخره . كتاب ضخم لا يتخلف فيه حرف عما قلناه ، وزيادة على ذلك فإن الكلمة القرآنية ، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها وإن لم تعرفه ، وتكشف لك عما فيها وإن لم تفهم ، فجرس الحرف ، ومحل الكلمة في الآية ، ومحل الآية في السورة ، كل ذلك عجيب ، مظهر عجبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة في طبقات البلاغة عرفه الإنسان ، فإنه سهل لدرجة أنه يفهمه كل إنسان ، ولكن كل إنسان يأخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية . وكلما ارتقى أكثر كان في القرآن أكثر ، وكلما أتى جيل وجد في القرآن جديداً تفهمه الأجيال كلها . ولا تحيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} القمر 17 .

يقرؤه عالم الاقتصاد المختص ، فيستخرج منه أرقى ما تترقى به الحياة الاقتصادية للإنسان ، ويكتب في ذلك كتاباً ضخماً وفي القرآن مزيد لمستزيد .

يقرؤه عالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا في القرن العشرين ، فيؤلف في ذلك كتاباً ضخماً وفي القرآن مزيد لمستزيد .

ويقرؤه عالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الإنسان في الفلك وفي القرآن مزيد ...

ويقرؤه عالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية إذا خرجت عن سنن القرآن كان في ذلك دمارها .

ويقرؤه ويقرؤه أصحاب كل اختصاص فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا إلا تلاميذ صغاراً ولا يحيطون بأسراره علماً .

ويقرؤه الرجل العادي فيفهمه فيتذكر ويبكي ويتعظ . إنه كتاب كل إنسان وإن كان بيانه أرقى من كل بيان ، وكلمته أفصح من كل كلمة ، حتى أنك لو فتشت في كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة القرآنية فتكون أجمل منها أو أحكم أو أفصح أو حاولت أن تقدم كلمة منه عن محلها أو تحذفها أو تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحسن مما كان فإنك لا تستطيع مهما بذلت من جهد . بل تنقطع ويبقى القرآن هو القرآن . وزيادة على ذلك فإنك لا

تجد الكلمة التي تعطيك المعنى المقصود بأبعاده كلها كالكلمة القرآنية . وهذه أمثلة توضح هذا الذي قدمناه هنا .

{وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ} البقرة : 179 .

قارن هذا التعبير بأي كلمة قالتها العرب في معناها أو يمكن أن تقولها فإنـك سـتجد الفارق الكبير بين التعبير القرآني وأي تعبير آخر . فمثلاً قال العرب في معنى الآية ما يلـي : (قتل البعض إحياء للجميع) وقالوا (أكثروا القتل ليقتل القتل) وقالوا (القتل أنفـى للقتـل) ولعل آخرها أجودها فلنقارنه بالآية لنجد أن التعبير القرآني أفصح وأبلغ وأحكم في ستة أوجـه وبعضهم أوصلها إلى أكثر من عشرة :

أولاً – إن التعبير القرآني أخصر لأن المقارنة ما بين كلمتي (القصاص حيـاة) و (القتل أنفى للقتل) .

ثانياً – إن قولهم (القتل أنفى للقتل) فيه التباس إذ ظاهره أن القتل سبب لانتفاء نفـسه بخلاف لفظ القرآن فإنه واضح فيه أن نوعاً من القتل وهو القصاص سبب لنوع مـن أنـواع الحياة .

ثالثاً – في قولهم (القتل أنفى للقتل) كررت كلمة القتل مرتين أمـا التعبيـر القرآنـي فذكرت فيه كلمتا قصاص وحياة .

رابعاً – في قولهم (القتل أنفى للقتل) لم يشمل إلا نوعاً مما ينبغي القصاص فيه . أما التعبير القرآني فيشمل القتل وغير القتل ، من ما القصاص فيه سبب من أسباب الحياة السعيدة الآمنة .

خامساً – إن القصد من القصاص حفظ الحياة الإنسانية ولذلك كان تعبير القرآن أجـود ، إذ أوضح المقصود مباشرة ، من تعبيرهم الآخر إذ ذكر المقصود تبعاً .

سادساً – وأخيراً فإن تعبيره قاصر وموهم وخاطئ : إذ قد يكون القتــل ســبباً لكثــرة القتل كالقتل ظلماً ، فتعبيرهم عمم مع أنه ما كل قتل نافياً للقتل على خلاف التعبير القرآنــي . فإنه صحيح شامل غير موهم ، صادق ظاهراً وباطناً . كيف قلبته أعطاك معنى صحيحاً .

وفي تعريف كلمة القصاص وتنكير كلمة الحياة في التعبير القرآني ، معــاني عظيمــة كبيرة أما هنا فليس في تعريف ولا إخبار أي ميزة .

{وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا ٱسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ} الأنفال : 60 .

هذا طلب أمرت به الأمة الإسلامية بالاستعداد ، وهو أمر لها في كل زمان ومكــان . وشمل كل ما يلزم من أمر الإعداد والاستعداد ولنحاول أن نفهم النص :

من : في اللغة العربية تأتي للجنس أحياناً وهذا معناها هنا ، والقوة فسرها الرســول ρ بالرمي فلما قال الله {وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا ٱسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ} صار المعنى وأعدوا لهم ما تــستطيعون إعداده مما يرمى به ، أي من جنس ما يرمى به ، فشمل ذلك الــسهم والــصاروخ والمــدفع والقنبلة الذرية ، وكل ما يمكن أن يخترعه الإنسان من أدوات الرمي ، ولما قــال {وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ} أي وجنس رباط الخيل ، فشمل ذلك كل ما يركب للمعركة أي شمل التعبير كل الآليات .

أرأيت الإعجاز الواضح إذ يسع النص القرآني الزمان كله ، والمكان كله ، ولو أنــك حاولت أن تغير كلمة أو حرفاً من هذا لتعبير لبدا القصور ، فإنك ستجعل النص لزمــان دون زمان أو قاصراً على جزء مما ينبغي إعداده .

{ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } البقرة 187 .

هذا التعبير القصير الذي عبر عن المرأة بأنها لباس للرجل ، وكذلك الرجــل بالنــسبة للمرأة كم فيه من معان ؟

أولاً – يشترط في اللباس أن يكون خاصاً بصاحبه ، وملكاً له وحده ، وكذلك ينبغــي أن تكون كلها لزوجها لا لغيره . لا خدها ولا عينها ولا جسمها ولا ...

ثانياً – ويشترط في اللباس أن يكون ساتراً لعورة الرجل ، وكـذلك لعـورة المـرأة ، وكذلك المرأة بالنسبة للرجل أو العكس ، زوجتي ينبغي أن تكون ساترة لعيـوبي لا تفـضحني أما إذا كانت أداة فضيحة فهذا شيء لا يحتمل .

ثالثاً – ويشترط في اللباس أن يكون طاهراً ونظيفاً وكذلك المرأة أو الرجل .

رابعاً – ويشترط في اللباس أن يكون مناسباً لمكانة الإنسان الاجتماعية وكذلك الرجل مع المرأة .

فهل تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحل محل هذه الكلمة بحيث يبقى الجمال والكمال والجرس والانسجام مع السابق واللاحق وتعطي هذه المعاني كلها .

{نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ} البقرة 223 .

الحرث هي الأرض التي تفلح ليلقى فيها البذر ويلقى البذر من أجل الثمـر ، فالرجـل مهمته إلقاء البذار والمرأة مهمتها حضانة البذر . الأرض يعتني بها حتـى تقطـف الثمـرة ، وتختار صالحة للزراعة ، ولا يلقي الإنسان بذاره في الأرض ويتركها ، ولا يبذر فـي غيـر أرضه وقد تختلف طريقة البذار ويبقى محل البذار واحداً .

هل تجد كلمة في اللغة العربية تحل محل كلمة حرث ، لو قلت " أرض " لما أعطـت المعنى المراد ولو قلت ولو قلت فلن تجد أجمل وأكمل وأكثر معاني وأجود وأصدق منها فـي محلها .

{ فَأَوْقِدْ لِي يٰهَامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحاً } القصص 38 .

الطين المشوي يسمى آجراً أو قرميداً بعد عملية صنعه ترى هل تحـل واحـدة مـن الكلمتين في محل هذا التعبير الجميل المصاغ هذه الصياغة العظيمة . ثم التعبير القرآني يـدل على أن الآجر من ساعة الطلب غير موجود وفي ذلك لفتة تدلنا على حماقة فرعون وبطره إذ

لم يقدر الزمان الكافي لعمل يحتاج إلى زمن طويل وهل يحل محل كلمة الصرح كلمة أخـــرى .

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ آيَاتٍ مّفَصَّلاَتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} الأعراف 133 .

ترى لو تقدمت كلمة متأخرة على أخرى متقدمة ، فهل يبقى الجمال والتناسق واللطافة والوزن والنغم والخفة على الأذن كما هي موجودة في هذه الصياغة ؟ حتماً لا ...

{كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِٱلنَّاصِيَةِ} العلق : 15 .

لو سألك سائل ماذا تعني كلمة سفع في اللغة العربية فإنك لا تعرف إلا إذا رجعت إلى قاموس ، ولكنك إذا رجعت إلى الآية وتلوتها فإن قلبك يكاد يحس بمعناهـا وإن لـم تعـرف معناها وذلك سر من أسرار القرآن يحسه كل من له صلة بهذا القرآن .

وبعد القرآن لا يمكن أن يكون وليد بيئة ولا يمكن أن يكون الكمال فيه والتناسق فيـه والترتيب فيه والجمال فيه والوحدة فيه إلا من عند الله العظيم العليم .

* * *

والذي ذكرناه في هذه الفقرة الخامسة هو من خصائص القرآن المذكورة في الآيات :

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} القمر 17 {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلاَفاً كَثِيراً} النساء 82 {قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} الزمـر : 28 . {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ} الزمر : 23 .

* * *

وبهذا نختم الحديث عن المعجزة القرآنية ، ولم نذكر إلا الطرف الأقـل عنهـا . وإلا ففي القرآن مناحي لو بحثت لكان هنا محلها ككون القرآن فيه تبيان كـل شـيء {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ} النحل : 89 .

وككون القرآن يهدي دائماً وفي كل شيء لأقوم الطرق .

{إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} الإسراء 9 .

وغيرها وغيرها مما وصف الله به كتابه ، وتجد مصداقه فيه .

ولعل فيما كتب في هذه الفقرة كفاية لطالب الحق ليؤمن أن هذا القرآن من عنـــد الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإذا بقي في قلبه شك ، فليجرب أن يؤلف مثل ســـورة مهمـــا كانـــت قصيرة من سور القرآن ، فإن عجز فليجرب أن يتعاون مع الآخرين ممن هـــم أبلـــغ ، فـــإن عجزوا فقد قامت عليهم الحجة ولم يبق إلا الضلال والحماقة وعمى القلب وموت الضمير .

{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ممَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ من مثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم من دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } البقرة : 23 ، 24 .

{لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} الإسراء 88 .

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} فـــصلت 52 .

*   *   *

وإلى الفقرة الثانية من هذا الفصل .

الفقرة الثانية

معجزات أُخرَى

إن قدرة الإنسان محدودة بما حدها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعه الإنسان وإلا فلا . فالإنسان مثلاً يستطيع إذا توفر لديه أوكسجين وهيدروجين والأدوات اللازمة لإحداث تفاعل بينهما أن يصنع منهما ماء فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالكترونات وبروتونات النحاس فيصبح النحاس ذهباً إذا توفرت لذلك شروط وأدوات معينة . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذهباً من لا شيء ، والبخار الموجود في الجو ينعقد مطراً إذا وجدت شروط معينة من برودة وكثافة وغيرها ، ويستطيع الإنسان ببعض الوسائط أن يوفر هذه الشروط في الجو فينزل مطراً صناعياً كما يقولون . ولكن لا يستطيع الإنسان بمجرد الكلام أن ينزل مطراً .

إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانات يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فإن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون .

ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التي يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : إن مما يعرف به الإنسان أنه رسول الله هو أن تظهر معه آثار قدرة الله . فتظهر على يديه خوارق لعادات هذا الكون وقوانينه وأسبابه هذا الكون مما لا يمكن أن يكون للجهد البشري فيه تعلق ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الإنسان رسول الله . بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله . وتقوم بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولاً ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق في دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر في عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول ρ تقوم على مَن بعدهم بثبــوت معجزاتــه تاريخياً إذ الثابت تاريخياً كالثابت مشاهدة في إقامة الحجة .

* * *

ولم يوجد رسول أبداً في تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتــة ثبوتــاً تاريخيــاً يتحدى أدق معايير النقد التاريخي مثل ما كان لخاتم رسل الله محمد ρ . فإن معايير النقد التي وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله ρما وصل إليهــا العالم قط ولا يرقى إلى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخياً يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قــدرة الله المباشرة مؤيدة لرسول الله ρ بأشكال وصور ومظاهر تحيط بكل الأوضاع . مما لا يبقي ريباً لمرتاب . إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمي بذلك عقله .

وهذه نماذج من هذه الواقعات التي لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرســول الله ρ مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله والتي بها قامت الحجة على خلق الله فــي كــل العصور هي القرآن ، الذي رأينا بعض ما فيه في الفقرة السابقة مما يشهد أنه كتاب الله ومــع ملاحظة أننا لم نرد الاستقصاءَ هنا وإنما أردنا ضرب الأمثلة فقط ، وإلا فمعجزات الرســول عليه الصلاة والسلام كثيرة جداً .

- 1 -

أخرج مسلم والبيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : قال : ســرنا مع رسول الله ρ في غزوة ذات الرقاع فقال رسول الله ρ يا جابر نــاد بوضــوء . فقلــت ألا وضوء ؟ ألا وضوء ؟ قلت يا رسول الله ما وجدت في الركب من قطرة ، وكان رجــل مــن الأنصار يبرد لرسول الله ρ الماء فقال لي : انطلق إلى فلان الأنصاري فانظر في أشجابه من شي ، فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قَطْرةً[1] في غزْلاء[2] شَجْبٍ[3] يابسةٍ مما لو أنــي أفرغه لشربه واحد فأتيت رسول الله ρ فأخبرته قال :

---

[1] قطرة : يسيراً في الماء .

[2] عزلاء : فم الرواية ومصب الماء منها .

[3] شجب : قربة بالية ، وسميت بذلك لأنها جلد قد شجب : أي عطب .

اذهب فأتني به ، فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو ويغمزه بيده ثم أعطانيه فقال :

" يا جابر ناد بجَفْنةِ[1] الركب فقلت " .

يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه فقال رسول الله ρ بيده هكذا فبسطها في الجفنة وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة وقال : خذ يا جابر فصب علي وقل بسم الله ، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ففارت الجفنة وفارت حتى امتلأت فقال يا جابر ناد من كانت له حاجة بماء ، فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ورفع رسول الله ρ يده من الجفنة وهي ملأى .

وأخرج الشيخان من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال : " رأيت رسول الله ρ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتي بوضوء فوضع رسول الله ρ يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضأ منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم " .

وأخرج الشيخان من طريق ثابت رضي الله عنه " أن النبي ρ دعا بماء فأتي بقدح رحراح فيه شيء من ماء فوضع أصابعه فيه فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه فجعل القوم يتوضؤون فحزرت من توضأ منه ما بين السبعين إلى الثمانين " .

وأخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ρ وأصحابه كانوا بالزرواء فدعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه فتوضأ أصحابه به جميعاً . قلت لأنس كم كانوا قال : زهاء ثلاث مائة " .

وأخرج أحمد والبيهقي والبزار والطبراني وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " أصبح رسول الله ρ ذات يوم وليس في العسكر ماء فقال رجل : يا رسول الله ليس في العسكر ماء . قال هل عندكم شيء ؟ قال : نعم . فأتي بإناء فيه شيء من ماء فجعل رسول

---

[1] القصعة التي تشبع عشرة فأكثر .

الله ρ أصابعه في فم الإناء وفتح أصابعه قال : فرأيت العيون تنبع من بين أصابعه فأمر بلالاً أن ينادي في الناس الوضوء المبارك " .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " إنكم تعدون الآيات عذاباً وكنا نعدها بركة على عهد رسول الله ρ قد كنا نأكل مع النبي ρ ونحن نسمع تسبيح الطعام وأتـــي النبي ρ بإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبي ρ حـــي علـــى الطهـــور المبـــارك والبركة من الله حتى توضأنا كلنا " .

وأخرج البخاري عن المسور بن مخرمة رضي الله عنـــه " أن رســـول الله ρ نـــزل بالحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكي لرسول الله ρ العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم الـــري حتى صدروا عنه وكانوا بضع عشرة مائة من أصحابه " .

وأخرج البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كـــان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله ρ أربـــع عـــشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي ρ فأتاها فجلس على شـــفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غيـــر بعيـــد ثـــم إنهـــا أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا .

وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : " قـــدمنا مـــع رســـول الله ρ الحديبية ونحن أربع عشرة مائة معها خمسون شاة ما ترويها فقد رسول الله ρ علـــى جباهـــا يعني الركية فإما دعا وإما بزق فيها فجاشت فسقينا وأسقينا " .

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنهم خرجوا مع رســـول الله ρ عـــام تبوك فقال : " إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يـــضحى النهـــار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً فأتاها والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فغرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء ثم غسل وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العـــين بمـــاء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ρ : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنـــا قد ملئ جناناً " .

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : " كنا في سفر مع رسول الله ρ فشكا إليه الناس العطش فدعا علياً ورجلاً آخر فقال : اذهبا فابغياني الماء فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحين من ماء على بعيرها فقال لها أين الماء قالت عهدي بالماء أمس هذه الساعة (أي يبعد مسيرة يوم كامل) فانطلقا بها إلى رسول الله ρ فدعا بإناء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين فمضمض في الماء وأعاده في أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي (أي مصب الماء من القربة) ونودي في الناس أن اسقوا واستقوا فسقى من شاء واستقى من استقى وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها وايم الله لقد أقلعوا عنهما وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملاءً منها حين ابتدؤا فيها فقال رسول الله ρ :اجمعوا لها فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً كثيراً فقال لها رسول الله ρ : تعلمين والله ما رزئنا من مائك شيئاً ولن الله عز وجل هو سقانا . قال : فأتت أهلها وقد احتبست عنهم فقالوا : ما حسبك يا فلانة ، قالت : العجب لقيني رجلان وذهبا بي إلى هذا الذي يقال له : الصابئ ففعل بمائي كذا وكذا الذي قد كان فوالله لإنه أسحر من بين هذه وهذه وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض أو أنه لرسول الله حقاً .

قال : فكان المسلمون بعد يغيرون على ما حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذي هي فيه فقالت يوماً لقومها ما أرى إلا أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً فهل لكم في الإسلام فأطاعوها فدخلوا في الإسلام " .

وأخرج مسلم عن أبي قتادة أن النبي ρ كان في سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ إلا والشمس في ظهره فدعا بميضأة[1] كانت معي فيها شيء من ماء فتوضأ منها ثم قال احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ فسار حتى امتد النهار فقال الناس هلكنا وعطشنا فقال : لا هلك عليكم .

ثم قال انطلقوا إلى غمري (يعني القدم الصغير) فدعا بالميضأة فجعل النبي ρ يصب وأبو قتادة يسقيهم فقال النبي ρ أحسنوا الملء كلكم سيروى حتى ما بقي أحد .

[1] الميضأة : إناء يوضع فيه الماء .

أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ρ كان يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه النبي ρ فمسحه فسكن .

وأخرج أحمد وابن سعد والدارمي وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ρ كان يخطب إلى جذع قبل أن يتخذ المنبر فلما اتخذ المنبر وتحول إليه حن الجذع فأتاه فاحتضنه فسكن فقال ρ : " لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة " .

وأخرج الدارمي والترمذي وأبو يعلى والبيهقي وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه قال : " كان رسول الله ρ يقوم إلى جذع فلما اتخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره فنزل إليه رسول الله ρ فالتزمه فسكت فقال : والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة حزناً على رسول الله ρ " .

وأخرج ابن سعد وابن راهويه في مسنده والبيهقي عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه " أن رسول الله ρ كان يقوم إلى خشبة فلما اتخذ المنبر حنت الخشبة فأقبل الناس عليها فرقوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم فنزل ρ فأتاها فوضع يده عليها فسكنت " .

وأخرج الدارمي وابن ماجه وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : " كان النبي ρ يخطب إلى جذع فصنع المنبر فلما جاوز ذلك الجذع إليه خار حتى تصدع وانشق فنزل ρ فمسحه بيده حتى سكن " .

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : " كان لرسول الله ρ خشبة يستند إليها إذا خطب فصنع له منبر فلما فقدته خارت خوار الثور حتى سمعها أهل المسجد فأتاها ρ فاحتضنها فسكنت " .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : " كان رسول الله ρ يخطب إلى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه حن الجذع حنين الناقة إلى ولدها فنزل إليه رسول الله ρ فضمه إليه فسكن " .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري قال : " كان رسول الله ρ يخطب إلى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه حن الجذع حنين الناقة إلى ولدها فنزل إليه رسول الله ρ فضمه إليه فسكن " .

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " كان جذع يقوم إليه النبي ρ فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع صوتاً مثل أصوات العشار .. (النياق) .. حتى نزل النبي ρ فوضع يده عليه فسكت " .

قال التاج السبكي : حنين الجذع متواتر لأنه ورد عن جماعة من الصحابة إلى نحوالعشرين من طرق صحيحة تفيد القطع بوقوعه ، وقال القاضي عياش في (الشفاء) : إنه متواتر . وقال البيهقي : قصة حنينه من الأمور الظاهرة التي نقلها الخلف عن السلف .

– 3 –

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أصابت الناس سنة (جدب) على عهد رسول الله ρ فبينا رسول الله ρ على المنبر يوم الجمعة يخطب أتاه أعرابي فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا . فرفع رسول الله ρ يديه وما نرى في السماء قزعة ، فوالذي نفسي بيده ما وضعهما حتى ثار سحاب كأمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابي فقال : يا رسول الله تهدم البناء فرفع رسول الله ρ يديه وقال : اللهم حوالينا ولا علينا فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرج حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهراً ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدّث بالجود " وأخرج مسلم مثله .

وأخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله ρ على المنبر يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستقى الغَمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من مضر أتوا النبي ρ فسألوه أن يدعو الله أن يسقيهم فقال : اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً مريعاً غدقاً طبقاً نافعاً غير ضار عاجلاً غير رائث فأطبقت عليهم حتى مطروا سبعاً .

– 4 –

وأخرج الدارمي وأبو يعلى والطبراني والبزار وابن حبان والبيهقي وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

كنا مع النبي ρ في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا قال له النبي ρ أين تريد قال إلى أهلي قال هل لك في خير قال : وما هو قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله قال : من شاهد على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة ، فدعاها رسول الله وهو بشاطئ الوادي فأقبلت تخدّ الأرض خداً حتى جاءت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه رسول الله ρ ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه فقال إن يتبعوني آتك بهم وإلا رجعت إليك فكنت معك .

وروى البخاري في تاريخه والبيهقي والدارمي بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء أعرابي إلى النبي ρ فقال : بم أعرف أنك رسول الله ρ ؟ فقال : إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتؤمن بي ؟ قال : نعم . فدعاه فجعل ينقز (أي يثب) حتى أتاه فقال : ارجع فعاد إلى مكانه فأسلم الأعرابي .

وفي رواية : فجعل ينزل من النخلة شيئاً فشيئاً حتى سقط على الأرض فأقبل وهو يسجد ويرفع حتى انتهى إلى النبي ρ ثم قال له : ارجع فعاد فأسلم الأعرابي وقال : أشهد أنك رسول الله .

وروى الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن يعلى بن مرة الثقفي رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ρ في مسير فذكر الحديث إلى أن قال : ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً فنام النبي ρ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ، وفي رواية : طافت به ثم رجعت إلى مكانها فلما استيقظ ρ ذكرت له ذلك فقال : " هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلم عليَّ فأذن لها " .

وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما – قال : آذنت (أي أعلمت) النبي ρ بالجن ليلة استمعوا له شجرة وأن الجن قالوا : مَن يشهد لك (أي بأنك رسول الله) فقال ρ : " هذه الشجرة " ثم دعاها للشهادة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع .

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي والطبراني بسند صحيح عن يعلى بن سبابة رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ρ في سفر فأمر وَدِيَّتَينِ (أي نخلتين صغيرتين) فانضمتا .

وأخرج البزار عن بريدة بن الخصيب رضي الله عنه قال :

سأل أعرابي النبي ρ آية (أي علامة) تدل على أنه رسول الله فقال له : قل لتلك الشجرة : رسول الله يدعوك . فدعاها فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله فقالت : السلام عليك يا رسول الله . قال الأعرابي : مرها فلترجع إلى منبتها فرجعت فدلت عروقها فاستوت فقال الأعرابي : ائذن لي أسجد لك ، أي بعد أن آمن به ρ كما صرح به في رواية فقال له ρ : " لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " . فقال الأعرابي : فأذن لي أقبل يديك ورجليك فأذن له.

قال الشيخ أحمد الدحلان في السيرة النبوية : وأحاديث كلام الشجر له ρ كثيرة شهيرة رواها أهل السنن عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب . وعلي بن أبي طالب . وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله ، وأسامة بن زيد ، وأنس بن مالك ويعلى بن مرة وغيرهم رواها عنهم أضعافهم من التابعين .

وقال القاضي عياض في الشفاء عنها : فصارت في انتشارها من القوة حيث هي ، قال الشهاب الخفاجي : يعني أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين حتى بلغت التواتر المعنوي وصارت في مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء .

يقول الله تعالى :

{ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ * وَإِن يَرَوۡاْ آيَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ * وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ} القمر 1 – 3 .

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر في عهد رسول الله ρ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال عليه الصلاة والسلام :

" اشهدوا "

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه : " أن أهل مكة سألوا رسول الله ρ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما " .

وروى الترمذي من حديث ابن عمر في قوله تعالى : {ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ} قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله ρ انشق فلقتين دون الجبل وفلقة فوق الجبل . فقال رسول الله ρ " اشهدوا " .

وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : " انشق القمر على عهد رسول الله ρ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سَحَرَنا محمد فقالوا إن كان سحَرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس " .

وروى أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال :

" اجتمع المشركون إلى رسول الله ρ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ρ إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فلقتين ، فسأل ربه فانشق " .

ونقل الخطيب في تفسيره عن حذيفة وقد خطب في المدائن قوله : " ألا إنَّ الساعة قد اقتربت وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم " .

وكفى ذكره في القرآن الكريم حتى يحكم بتواتره إذ الآيات وضاحة فيه ولا يمكــن أن تفسر بغيره ولذلك أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه كما قال القاضي عياض والسبكي وغيرهم .

ونقل صاحب كتا إظهار الحق عن المقالة الحادية عشر من تاريخ فرشــنة ، أن أهــل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضاً " أي حادث انشقاق القمر " .

وذكر الحافظ المزي عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بــلاد الهنــد بناءً قديماً مكتوباً عليه بني ليلة انشق القمر .

وقد أثار بعض مبشري النصارى شبهات حول هذا الموضوع ، من ناحيــة أن هــذا الحدث كان ينبغي أن يذكر في كل التآريخ العالمية لو كان صحيحاً متناسين أن الخسوف مــثلاً قد يقع في منطقة من العالم ، ويبقى ساعات ولا يراه إلا أهلها . وقد ناقش مقــالتهم صــاحب الكتاب المذكور آنفاً . وننقل جزءاً من مناشقته للأمر قال :

1 – إن انشقاق القمر كان في الليل ، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشي ، والتردد في الطرق ، سيما في موسم البرد ، فإن الناس يكونون مستريحين في داخل البيــوت وزواياها ، مغلقين أبوابها ، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا مَن انتظره واعتنى بــه , ألا ترى إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيراً وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبــرهم أحد به في السحر .

2 – إن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمان كثير فما كان للنــاظر أن يــذهب إلــى الغير الذي هو بعيد عنه وينبهه أو يوقظ النائم ويريه .

3 – إنها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العلم ينظرونها في وقتها ، ويرونها كما أنهــم يرون هلال رمضان , والعيدين والكسوف والخسوف في أوقاتها غالباً لأجل كونهــا متوقعــة الحصول ، ولا يكون نظر كل واحد إلى السماء في كل جزء من أجزاء النهار أيــضاً فــضلاً عن الليل ، فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة ، وكذلك من وقع نظره في هذا الوقت إلى السماء ، كما جاء في الأحاديث الصحيحة أن الكفار لما رأوها قالوا : سَحَرَكُم ابــن أبــي كبشة فقال أبو جهل : هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا . فــأخبر

أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقاً وذلك لأن العرب يسافرون في الليل غالباً ويقيمون في النهار ، فقالوا هذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ... ثم نقل ما ذكرناه قبل هذا النقل .

4 – إنه قد يحول في بعض الأمكنة وفي بعض الأوقات في الديار التي ينــزل فيهــا المطر كثيراً فإنه يكون في بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يــرى النــاظر في النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة ، وكذا لا يرى في الليــل القمــر والكواكب ولا اللون المذكور في بعض أمكنة أخرى . لا أثر للسحاب ولا للمطــر ، وتكــون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة ، وأهل البلاد الشمالية كالروم في موسم نــزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام فضلاً عن القمر .

5 – إن القمر لاختلاف مطالعه ليس في حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع علــى قوم قبل أن يطلع على آخرين فيظهر في بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض ابــلاد دون بعض ...

أخرج البخاري عن البراء رضي الله عنه : أن عبد الله بن عتيك لما قتل أبــا رافــع ونزل من درجة بيته سقط إلى الأرض فانكسر ساقه قال فحدثت النبي ρ فقال : ابسط رجلــك فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشكُها قط .

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن سهل بن سعد رضي الله عنه " أن رسول الله ρ قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه فلما أصبح قال : أين علي بن أبي طالب قالوا : يشتكي عينيه قال : فأرسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله ρ في عينيــه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع " .

وأخرج البخاري عن يزيد بن أبي عبيد قال :

" رأيت أثر ضربة في ساق سلمة بن الأكوع فقلت : ما هذه الضربة ، قال : ضــربة أصابتني يوم خيبر فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت رسول الله ρ فنفث فيها ثلاث نفثات فمــا اشتكيت منها حتى الساعة " .

وأخرج النسائي والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه وأخرجه البرهان الحلبي من طرق متعددة حتى قال الشهاب الخفاجي في شرح الشفاء : فلم يبق فيه شبهة .

عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً أعمى قال :

" يا رسول الله ادع الله لي أن يكشف عن بصري فقال له رسول الله ρ : انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إن أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري اللهم شفعه فيّ ، فما قام القوم من مجالسهم إلاّ ورجع الرجل وقد أبصر ، وكان عثمان بن حنيف وبنوه يعلّمونه للناس فيدعون به عند تعسر قضاء الحاجات فتقضى " .

وأخرج ابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن جده قتادة ابن النعمان : " أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ρ فقال : لا فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لا يدري أي عينيه أصيبت " .

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن قتادة مثله وزاد بعد قوله " براحته " وقال : " اللهم اكسه جمالاً " .

وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه " أن عين قتادة بن النعمان أصيبت فسالت على خده فردها رسول الله ρ فكانت أصح عينيه " .

وأخرج البيهقي وأبو نعيم والطبراني من طرق أن عين قتادة أصيبت يوم أحد فوقعت على وجنته فردها ρ فكانت أحسن عينيه .

ولفظ رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال : كنت يوم أحد أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله ρ فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ρ فلما رآها في كفي دمعت عيناه فقال : اللهم قِ عين قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظراً فصارت كذلك .

والظاهر أن إحدى عينيه أصيب في بدر والأخرى في أحد .

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن الوازع قال : قدمت على رسول الله ρ والأشج في ركب ومعنا رجل مصاب فقلت : يا رسول الله إن معي خالاً مصاباً فادع الله له قال : ائتني به ، فأتيت به فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى رأيت بياض إبطيه ثم ضرب ظهره وقال : اخرج عدو الله فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعا له ، ومسح وجهه فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ρ يفضل عليه .

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بسند حسنه ابن حجر في المطالب العالية عن أسامة بن زيد قال : خرجنا مع رسول الله ρ إلى الحجة التي حجها حتى إذا كنا ببطن الروحاء نظر إلى امرأة تؤمه فحبس راحلته ، فلما دنت منه قالت : يا رسول الله : هذا ابني ما أفاق من يوم ولدته إلى يومي هذا فأخذه رسول الله ρ منها ووضعه بني صدره وواسطه الرحل ثم تفل في فيه وقال : اخرج يا عدو الله فإني رسول الله ثم ناولها إياه وقال خذيه فلا بأس عليه قال أسامة : فلما قضى رسول الله ρ حجه انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها ...

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي والطبراني وأبو نعيم من طريق سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أمه أم جندب قالت :

رأيت رسول الله ρ عند جمرة العقبة فرمى ورمى الناس ثم انصرف فجاءت امرأة ومعها ابن لها به مس (أي جنون) قالت : يا رسول الله ابني هذا به بلاء لا يتكلم فأمرها النبي ρ فجاءت بتور (إناء من حجارة فيه ماء) فأخذه ρ بيده فمج فيه ودعا فيه وأعاده فيه ثم أمرها فقال : اسقيه واغسليه فيه قالت : فتبعتها فقلت : هبي لي من هذا الماء قالت : خذي منه فأخذت منه حفنة فسقيتها ابني عبد الله فعاش فكان من يره ما شاء الله أن يكون قالت : ولقيت المرأة فزعمت أن ابنها برأ وأنه غلام لا غلام خير منه " ولفظ أبي نعيم : براً وعقل عقلاً ليس كعقول الناس " .

وأخرج أحمد والدارمي والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت بابن لها فقالت : يا رسول الله إن بابني هذا جنوناً وإنه يأخذ عنده غداءنا

وعشاءنا فيفسد علينا ، فمسح رسول الله ρ صدره ودعا له فثع ثعة فخرج مـن جوفـه مثـل الجرو الأسود فشفي .

وأخرج الحاكم عن أبي بن كعب قال :

كنت عند النبي ρ فجاء أعرابي فقال : يا نبي الله إن لي أخاً به وجع قال : وما وجعه قال : به لمم (أي جنون) قال : فائتني به فأتاه به فوضعه بين يديه فعوذه النبـي ρ بفاتحـة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين :

{وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ} .. وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآيـة مـن آل عمران : {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ} وآية مـن الأعـراف : {إِنَّ رَبَّكُمُ ...} وآخـر سـورة المؤمنون : {فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ..} وآية من سورة الجن {وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ..} وعـشر آيات من أول الصافات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر و{قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ} والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك شيئاً قط .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزوائد بسند حسن .

ومعجزة أخرى متواترة النقل تقدم لها بما يلي :

لقد صعد الإنسان إلى ارتفاعات كبيرة في هذا القرن ، ولكن رغم هذا فإنه باق ضمن إطار معين محدود في السرعة والزمان والمكان . فهو ما جاوز بعد دائرة الأرض ومجاوزته دائرة المجموعة الشمسية مستحيل وأقرب نجم إلى مجموعتنا الشمسية على مـا يقـال يبعـد حوالي أربع سنين ضوئية أي لو سار الإنسان بسرعة 300000 كم في الثانية فإنه يصل بعـد أربع سنوات وهذا مستحيل المستحيلات .

وهنا يظهر الفارق بين المعجزة والعادة ، المعجزة تتعلق بقدرة الله المباشرة أما العادة فهي خاضعة للأسباب التي جعل الله عز وجل هذا العالم يسير عليها .

فقد أسري برسول الله ρ من مكة إلى القدس وعرج به إلى ما فوق السماء السابعة ورجع في مدة قصيرة لجداً لم تتجاوز دقائق أو سويعات قليلة فكان في ذلك معجزة دلت على قدرة الله وعلى أن محمداً رسول الله ρ .

وقد يقول قائل : إن المعجزة حتى تقوم بها الحجة على الناس ينبغي أن تكون مشاهدة يراها الناس ، والإسراء والمعراج لم يرهما أحد وإنما أخبر عنهما محمد رسول الله ρ نفسه والإخبار بالمعجزة وحده من صاحبها لا تقوم به الحجة على الناس .

والجواب أن الحجة قامت بسبب أن الرسول ρ أخبر عن قضايا ما كان ليستطيع الإخبار عنها لولا أنه أسري به وعرج وبهذا قامت الحجة على الناس . إذ أن الناس عندما أخبرهم بما حدث له سألوه دليلاً فقدم لهم جواباً عن كل ما سألوه وهذه أمثلة :

أ – أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك عن أنس ... فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا يا أبا بكر هل لك في صاحبك يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع مسيرة شهر ثم رجع في ليلة فقال أبو بكر : إن كان قاله فقد صدق . وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، نصدقه على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله ρ : ما علامة ما تقول : قال : مررت بعير لقريش وهي في مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارات وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ρ .

ب – أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ρ : لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه .

ج – أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي وصححه والبزار والطبراني وابن مردويه عن شداد بن أوس : " ... فأتاني أبو بكر فقال : يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في مظانك فقلت : علمت أني أتيت بيت المقدس الليلة فقال : يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي قال ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه قال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله فقال المشركون : انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة فقال : إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم

فجمعه فلان وأن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى كان قريباً من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ρ " .

وليس في هذا النص والنص الأول تناقض فالنص الأول يتحدث عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء انكسرت رجله أما هذا فيتحدث عن الجمل الأول في القافلة وعليه غرارتان سوداوان .

د – أخرج أحمد وابن أبي شيبة والنسائي البزار والطبراني وأبو نعيم بسند صحيح من طريق زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ρ : لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبي فقعد معتزلاً حزيناً فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ :

هل كان من شيء ؟ قال : نعم قال : وما هو ؟ قال : إني أسريَ بي الليلة ، قال : إلى أين – قال : إلى بيت المقدس قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم فلم يرَ أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه قال :

أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم ما حدثتني ؟ قال : نعم قال : هيا معشر بني كعب بن لؤي فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال : حدث قومك بما حدثتني فقال رسول الله ρ :

إني أسري بي الليلة قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم قال : فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً قالوا : وتستطيع أن تنعت المسجد وفي القوم من سافر إليه قال رسول الله ρ : فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعته وأنا أنظر إليه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب .

هـ – أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر من طريق أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ρ أنه حدث عن ليلة أسرى به ... ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب : إني أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء ثم رأيت

كذا وكذا فقال أبو جهل : ألا تعجبون مما يقول محمد قال : فأخبرهم بعير قريش قال : لما كانت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا وإنها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل : أنا أعلم الناس ببيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ فرفع لرسول الله ρ بيت المقدس فنظر إليه فقال : بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا فقال : صدقت .

و – وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظي قال : بعث رسول الله ρ دحية الكلبي إلى قيصر الروم وذكر قصة اجتماع أبي سفيان بهرقل وأسئلة هرقل لأبي سفيان إلى أن يذكر ما يلي على لسان أبي سفيان .

قلت : أيها الملك ألا أخبرك عنه خبراً تعرف أنه قد كذب . قال : وما هو ؟ قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح قال : وبطريق إيلياء عند رأس قيصر قال البطريق : قد علمت تلك الليلة قال فنظر إليه القيصر وقال : ما علمك بها ، قال : إني كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة غلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجناه فلم نستطع أن نحركه وكأنما نزاول به جبلاً فدعوت النجاجرة فنظروا إليه فقالوا : هذا باب سقط عليه النحات والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركته مفتوحاً فلما أصبحت غدوت فإذا الحجر الذي من زاوية الباب منقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا ، فقال قيصر : يا معشر الروم أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشّركم به عيسى وهذا هو النبي الذي بشر به عيسى فأجيبوه إلى ما دعا إليه فلما رأى نفورهم قال : يا معشر الروم دعاكم ملككم يختبركم كيف صلابتكم في دينكم فشتمتموه وسببتموه وهو بين أظهركم فخروا له سجداً .

ز – وأخرج مسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ρ : لقد رأيتني من الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به .

* * *

وهناك سؤال آخر يسأله بعض الناس وهو أين هي السماء التي عرج إليها رسول الله ρ ؟

والجواب أن القرآن قد ذكر السماء في كثير من آياته وأراد بها المعنى اللغوي لها . وذكر أحياناً السماء وأراد بها معنى اصطلاحياً له ارتباط بالمعنى اللغوي ، ففي اللغة كل ما علاك فهو سماء : قال الله تعالى {وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً} فهنا أراد المعنى اللغوي فقط وأما في قوله تعالى {تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} {ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} فالمراد هنا السماء بالمعنى الاصطلاحي كما في قوله عليه الصلاة والسلام :

" إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع أربع أصابع إلا ... "[1] فالمقصود بالسماوات هذه سكن الملائكة ، والتي فيها الجنة في السماء السابعة ، وسقفها عرش الرحمن ، فهذه السماوات هي التي عرج إليها رسول الله ρ كما سنرى في الأحاديث بعد قليل . أما أين هي فالله أعلم بذلك . إذ هي من المغيبات عنا في فهمي أما ما يتصوره بعض الناس بأن هذه الزرقة هي السماوات فهذا خطأ ووهم ، إذ هذه الزرقة ترى من الأرض فقط فإذا ما ارتفع الإنسان في الفضاء غابت فهي انعكاسات أضواء وأنوار وأجواء .

وإذن فنحن نؤمن أن هناك سماوات سبعاً ، وعرشاً فوقها ، أثبتناها بإثبات الله إياها ، وإخبار رسول الله عنها ، ولا نجزم بمكانها وإن كنا نجزم أنها في جهة فوق بالنسبة لسكان الأرض ، ولا نعرف عنها إلا ما أخبرنا الله ورسوله ، هذه السماوات هي التي كان إليها العروج وهي التي تصعد إليها أرواح البشر ، وتتنزل الملائكة والروح منها .

* * *

ويتساءل آخرون : ما الحكمة في الإسراء والمعراج ؟

والحكمة – والله أعلم – تكمن في ناحيتين :

---

[1] أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد وإسناده حسن .

الأولى: أن الله أرى رسوله ما دعا إليه فقد أمر الرسول ρ أن يـدعو إلـى الإيمـان بالجنة ورأى الجنة ، وأن يدعو إلى الإيمان بالرسل ورأى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وإلى الإيمان بالملائكة ورأى الملائكة ، وإلى الإيمان بالله ورأى أثار قدرة الله وملكوتـه وقـد ذكر الله في القرآن حكمة الإسراء بقوله {حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ... } .

الثانية : أن اله يُعِدُّ رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية . هذه المرحلة تشبه المرحلة التي رأى فيها موسى آيات الله الكبرى وهي مرحلة مجابهة فرعون فقد قـال الله عن موسى : {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} إن موسى الذي سيقابل فرعون الطاغية هد هيء بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضية ما دامت معـه قـوة الله : وسيدنا رسول الله ρ كان مأموراً بالصبر طوال المرحلة المكية ، وبعد الهجرة أمر بالمجابهـة وكان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل . فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهيداً لهذه المرحلة التي سيقف فيها رسول الله ρ بالقلة من أصحابه في وجه الدنيا كلها . قال الله تعالى في أوائـل سورة النجم بعد الحديث عن المعراج : {لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ} ومن قبل كما ذكرنـا أرى موسى من آيات الله الكبرى قبل مرحلة المجابهة .

وأخيراً بعد هذه المقدمات عن هذه المعجزة نبدأ بذكر طـرف عنهـا . قـال الحـافظ السيوطي :

اعلم أن الإسراء ورد مطولاً ومختصراً من حديث أنس وأبي بن كعب وبريدة وجـابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان وسمرة ن جندب وسهل بن سعد وشداد بن أوس وصهيب وابـن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وعبد الله بن أسعد بن زرارة وعبد الـرحمن بـن فرط وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ومالك بن صعصعة وأبي أمامة وأبي أيوب وأبي حية وأبي الحمراء وأبي ذر وأبي سعيد الخدري وأبي سفيان بن حرب وأبي ليلى الأنـصاري وأبي هريرة وعائشة وأسماء بنتي أبي بكر وأم هانئ وأم سلمة .

وعد الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية ستة وعشرين صـحابياً وصـحابية رووا حديث الإسراء والمعراج فهو إذن حديث متواتر مع نص القرآن عليه في سـورتي الإسـراء والنجم وهذه بعض روايات الحديث :

أ – أخرج مسلم من طريق ثابت عن أنس أن رسول الله ρ قال : أتيت بالبراق وهــو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتــى أتيــت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتــين ثــم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقــال جبريــل : اختــرت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لــي بخير ، ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل : من أنت قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فحربا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى الــسماء الثالثــة فاســتفتح جبريل فقيل : من أنت قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قــال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومــن معــك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعــا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل : من هذا قال : جبريل قيــل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحــب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل : من هــذا قــال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فــإذا أنــا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل قيل : من هذا قــال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : بعث إليه ففتح لنــا فــإذا أنــا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعــودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمارها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها فأوحى إلي ما أوحى ففــرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فــرض ربــك على أمتك قلت : خمسين صلاة قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلــك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم فرجعت إلى ربي فقلت : يا ربي خفف عن أمتــي فحــط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمساً قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فــارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال يا محمــد إنهــن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن همَّ بحسنة فلم يعملهــا كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فــإن عملهــا

كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال : ارجــع إلــى ربــك فاســأله التخفيف فقلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه .

ب – وأخر مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ρ : مررت ليلة اســري بــي علــى موسى قائماً يصلي في قبره .

ج – وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والترمذي والحاكم وصححاه والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن حذيفة أنه حدّث عن ليلة أسري بمحمد ρ فقال : " ما زايل البــراق حتى فتحت له أبواب السماوات فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عــاد " ولفــظ ابــن مردويه فأري ما في السماوات وأري ما في الأرض .

د – أخرج مسلم من طريق مرة الهمداني عن ابن مسعود قال لما أُسري برســول الله ρ فانتهى إلى سدرة المنتهى ما يصعد به – وفي لفظ ما يعرج – به من الأرواح حتى يقــبض منه وإليها ما ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض . إذ يغشى السدرة ما يغشى قال غــشيها فراش من ذهب وأعطي رسول الله ρ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفــر لمــن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات .

وعندما يدعو رسول الله لإنسان فإنك تجد ما دعا له قد تحقــق كمــا دعــا ، وكثــرة الحوادث في هذا الموضوع تجعل الإنسان على اليقين الكامل أن محمداً رسول الله وأن الله عز وجل يؤيد رسوله ويسدده ويستجيب دعاءه حتى لا يشك معه قيمة الكلمة التي تخرج مــن فــم رسول الله ρ .

وقد قال القاضي عياض في الشفاء : إجابة دعوة النبي ρ لجماعة دعا لهم أو علــيهم متواترة معلومة ضرورة . وأخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قــال : " كان النبي ρ إذا دعا للرجل أدركت ولده وولد ولده " .

وهذه أمثلة منتقاة من عشرات الحوادث بل مئاتها وفي كل منها دليل ما قلناه :

أ – أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رســـول الله ρ إلى اليمن فقلت : يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء فــضرب بيده في صدري وقال : اللهم اهد قلبه وثبت لسانه فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بـــين اثنين .

ب – أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنـــه أن رســـول الله ρ قـــال لعبــد الرحمن : " بارك الله لك " وأخرجه ابن سعد والبيهقي من وجه آخر وزاد : قال عبد الـــرحمن : لقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة .

ج – أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن سعد رضي الله عنه أن النبـــي ρ قـــال : اللهم استجب لسعد إذا دعاك فكان لا يدعو إلا استجيب .

د – أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال دعا لي النبـــي ρ فقـــال : " اللهم فقهه في الدين " وأخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم من وجه آخر عنه بزيادة : " وعلمـــه التأويل " فصار حبر هذه الأمة ولا سيما في علم التفسير .

وأخرج الإمام أحمد وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مسح رســـول الله ρ رأسي ودعا لي بالحكمة فلم تخطئني دعوة رسول الله ρ .

هـــ – أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال :

اشتكى ابن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مـــات هيـــأت شيئاً ونحته في جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام قالت : هدأت نفسه وأرجـــو أن يكون قد استراح وظن أبو طلحة أنها صادقة فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخـــرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبي ρ ثم أخبر ρ بما كان منهما فقال ρ لعل الله يبـــارك لكمـــا في ليلتكما قال سفيان : قال رجل من الأنصار : فرأيت لهما سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن .

و – أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما على وجـــه الأرض مـــؤمن ولا مؤمنه إلا وهو يحبني قلت : وما علمك بذلك قال : إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يهدي أم أبي هريرة إلى الإسلام فدعا لهـــا ، فرجعـــتُ فلمـــا

دخلت البيت قالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فرجعت إلـــى رســـول الله ρ وأنا أبكي من الفرح كما كنت أبكي من الحزن وقلت : يا رسول الله قد اســتجاب الله دعوتـــك وهدى أمَّ أبي هريرة إلى الإسلام فادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المــؤمنين وأن يحبــبهم إلينا فقال ρ : اللهم حبب هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحببهم إليهما فمــا أعلــم مؤمنــاً ولا مؤمنة إلا وهو يحبني وأحبه .

ح – أخرج الشيخان عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ρ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تــسمعنا مــن هنيهاتــك – وكان عامر رجلاً شاعراً – فنزل يحدو القوم بقوله :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتنينا	وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ρ : من هذا السائق قالوا : عامر قال : يرحمه الله قال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله هلا أمتعتنا به فلما تصافّ القوم تناول عامر سيفه ليــضرب بـــه ســـاق يهودي فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه . وأخرجه مسلم من وجه آخر وفيه فقـــال : من هذا القائل قالوا : عامر قال : غفر لك ربنا قال : وما خص رسول الله ρ قط أحداً بـــه إلا استشهد فقال عمر : لولا متعتنا بعامر أي ما ستغفر لإنسان يخصه قط إلا استشهد .

ط – أخرج البخاري عن أبي عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله بـــن هـــشام إلـــى السوق ليشتري الطعام فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان أشركنا فإن رسول الله ρ قد دعـــا لك بالبركة فيشركهم فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلى المنزل .

ي – أخرج الشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه قال : طَلَبَنَا القوم فلم يـــدركنا مـــنهم غير سراقة بن مالك على فرس له فقلت : يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا قال : لا تحزن إن الله معنا فلما كان بيننا وبينه قدر قيد رمحين أو ثلاثة دعا رسول الله ρ فقال : اللهم اكفناه بمـــا شئت فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فقال : يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب فدعا له رسول الله ρ فـــانطلق راجعاً .

ك – أخرج البخاري في الأدب والنسائي عن أم قيس أنها قالت توفي ابنـــي فجزعــت فقلت للذي يغسله ، لا تغسل ابني بالماء البارد فيقتله فانطلق عكاشة بن محصن إلى رسول الله ρ فأخبره بقولها فتبسم ثم قال طال عمرها فلا يعلم امرأة عُمّرت ما عُمّرت .

ل – أخرج البيهقي وأبو نعيم من طريق يعلى بن الأشدق قال : سمعت النابغة نابغــة بني جعدة يقول : أنشدت رسول الله ρ شعراً فأعجبه فقال : جدت لا يَفْــضُض الله فــاك قــال يعلى : فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن .

م – أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ρ بعث بكتابه إلى كسرى فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليهم رسول الله ρ أن يمزقوا كل ممزق فمزقوا .

ن – وروى البيهقي بإسناد صحيح أنه ρ دعا على الحكم بن أبي العاص وكان يخــتلج بوجهه أي يحرك وجهه وحاجبيه وشفتيه استهزاءً بالنبي ρ فقال كن كذلك فلم يزل يختلج إلـــى أن مات .

س – وأخرج مسلم عن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند النبي ρ بشماله فقال : كل بيمينك قال : لا أستطيع قال : لا استطعت ، ما منعه إلا الكبر . قال فما رفعها إلى فيـــه بعد .

عندما تدرس حياة رسول الله ρ تجدك دائماً أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قـــدرة الله المباشرة التي لا دخل لعالم الأسباب فيها ، ولا تستطيع أبداً أن تجد تعليلاً لما تـــراه ، أو نقـــل إليك نقلاً صحيحاً ، إلا أن الله جلت حكمته يجري على يد هذا الرسول العظيم ρ ما تقوم بـــه الحجة على الكافر ، ويزداد به المؤمن يقيناً ويخرج به الشاك عن شكه .

ولا يفوتنا هنا ونحن ننقل نوعاً آخر من أنواع معجزاته ρ أن نشير مرة ثانية إلـــى أن هذه النقول هي أدق نقول تاريخية في العالم . لأن معايير النقــد التـــي وضـــعت لاســـتخراج صحيحها لا مثيل له أبداً . مع ملاحظة أنها منقولة في النهاية عـــن الـــصحابة الـــذين كـــانوا يعتقدون أن الكذب على رسول الله ρ من أكبر الكبائر ، وقد رباهم رسول الله ρ على الـــصدق

، وما كان أحدهم يسكت على باطل رآه . فلو حدث أن صحابياً أخطأ في النقل فـإنهم جميعـاً كانوا يردون عليه إذا بلغهم خطؤه ، وإذن فنحن إذ ننقل هذه النقول ننقلها باطمئنان الواثق إلى ما بين يديه ، ولئن كان في الأخبار المروية عن الرسول ρ ما هو ضعيف فالعلة تكمـن فـي أجيال ما بعد الصحابة وعلماء النقد عند المسلمين ما تركوا أمثال هذه تمر . بعد هذا نبدأ بنقل مجموعة من الآثار لها صلة بالمعجزات وما ننقله غيض من فيض ، وكثير مما نقلناه مـروي بعدة روايات عن عدة صحابة ، ومخرج في عدة كتب ، ولكنا اخترنا روايـة مـن مجمـوع روايات الحادثة الواحدة وهاك هذه المختارات .

أ – روى البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قـصة حفر الخندق قال : رأيت بالنبي ρ خمصاً شديداً ، وهو ضمير البطن من الجـوع فأخرجـت جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة – وهي الصغيرة من أولاد المعز – وفـي روايـة عـن جابر رضي الله عنه : أنا يوم الخندق تحفر فعرضت لنا كدية شديدة فجاءوا إلى النبي ρ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق قال : أنا نازل ، ثم أقام وبطنه معصوب بحجر ولبثنـا ثلاثـة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ρ فضرب فعادت كثيباً أهيل فقلت : يا رسول الله ائذن لي إلـى البيت فأذن فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ρ شيئاً ما كان لي في ذلك صبر فعندك شيء ؟ قالت : عندي شعير وعناق فذبحت العناق وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثـم جئـت النبي ρ والعجين قد اختمر والبرمة بين الأثافي – أي الأحجار التي توضـع عليهـا القـدر – كادت أن تنضج وقالت امرأتي : لا تفضحني برسول الله ρ وبمن معه فجئته فساررته فقلـت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعاً من شعير فتعال أنت ونفر معك يعني دون العشرة وفي رواية فقلت طعيم لنا صنعته فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجـلان وكنـت أريـد أن ينصرف وحده قال : كم هو ذكرت له فقال : كثير طيب قل لها لا تنزل البرمة ولا الخبز مـن التنور حتى آتي فصاح النبي ρ يا أهل الخندق إن جابراً صنع سؤراً فحيهلا بكم – أي هلمـوا مسرعين – والسؤر الطعام الذي يدعى إليه .

وفي رواية فقال : قوموا فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل علـى امرأتـه قـال : وحيك جاء النبي ρ بالأنصار والمهاجرين ومن معهم قالت : هل سألك قلـت : نعـم . وفـي رواية قال : لقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله تعالى وقلت : جاء الخلق على صاع من شعير وعناق فدخلت على امرأتي أقول : افتضحت جاءك رسول الله بالجند أجمعين فقالت : هل كان سألك كم طعام فقلت : نعم فقالت : الله ورسوله أعلم نحن أخبرناه بما عندنا وفي روايـة أنهـا خاصمته في أول الأمر وقالت : بك بك فلما أعلمها أنه أعلم النبي ρ سكن ما عندها وقالـت :

الله ورسوله أعلم لعلمها بإمكان خرق العادة ودل ذلك على وفور عقلها وكما فضلها رضي الله عنها .

فقال النبي ρ : لا تنزل برمتكم ولا يخبزن عجينكم حتى أجيء . وفي رواية قال جابر فجئت وجاء النبي ρ يقدم الناس فأخرجت المرأة له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا وبصق فيها وبارك أي دعا بالبركة ثم قال لجابر : ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ثم قال لها : اقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم – أي القوم الذين جاءوا معه – ألف وأقعدهم عشرة عشرة يأكلون فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا – أي مالوا عن الطعام – وإن برمتنا لتغط أي لتغلي وتفور كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو. وفي رواية فقال ρ لأصحابه ادخلوا ولا تضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا أجمعين والتنور والقدر أملأ مما كانا فقال : كلي واهدي فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع . وفي رواية فأكلنا وأهدينا لجيراننا فلما خرج ρ ذهب ذلك .

ب – وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ρ في غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا فأمر نبي الله ρ فجمعنا مزاودنا فبسطنا له نطعاً فاجتمع زاد القوم على النطع فطاولت لأحزر كم هو فحزرته كربضة لعنز ونحن أربع عشرة مائة فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ثم حشونا جرباننا ثم قال رسول الله ρ هل من وضوء فجاء رجل بإداوة فيها نطفة ماء فأفرغها في قدح فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة (نصبه صباً كثيراً واسعاً) .

جـ – وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا يا رسول الله لو أذنت لنا ننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهنا ؟ فقال عمر : يا رسول الله إن فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك الخير فقال رسول الله ρ نعم فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتي بكف ذرة ويجيء الآخر بكف تمر ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا رسول الله ρ بالبركة ثم قال لهم خذوا في أوعيتكم فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ρ : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة . وأخرجه بنحوه ابن سعد والحاكم وصححه البيهقي وأبو نعيم عن أبي عمرة الأنصارية رضي

الله عنه وأخرجه ابن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه ، عنه بلفظ :

خرجنا مع رسول الله ρ في غزوة تبوك فأصابنا جوع شديد فقلــت : يــا رســول الله خرج إلينا اروم وهم شباع ونحن جياع وأرادت الأنصار أن ينحروا نواضحهم ، فنــادى فــي الناس من كان عنده فل من زاد فليأتنا فحرزنا جميع ما جاءوا به فوجــدوه ســبعة وعــشرين صاعاً ، فجلس رسول الله ρ إلى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال : أيها الناس خذوا ولا تنتبهــوا فأخذوه في الجرب والغرائر حتى جعل الرجل يعقد قميصه فيأخذ فيه حتى صدروا وإنه نحــو ما كان يحرزون فقال النبي ρ : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يأتي بهما عبد بحق إلا وقاه الله حرّ النار .

د – وأخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : قال أبو طلحــة لأم ســليم : لقــد سمعت صوت رسول الله ρ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك مــن شــيء فقالــت : نعــم فأخرجت أقراصاً من شعير ثم ذهبت إلى رسول الله ρ فقال : أرسلك أبو طلحة قلت : نعم قال : لمن معه قوموا فجئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جــاء رســول الله ρ والناس وليس عندنا ما نطعمهم قالت : الله ورسوله أعلم فدخل رسول الله ρ فقال : هلمي مــا عندك يا أم سليم فأتت بذلك الخبز فأمرت به ففت وعصرت عليه عكة لها فأدمته ثم قال فيــه رسول الله ρ ما شاء أن يقول ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثــم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون . وأخرجه مسلم من عدة طرق وفي بعضها ثم أكل رسول الله ρ وأهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم ، وفي بعضها قال : بسم الله اللهم أعظم فيها البركة .

هـــ – وأخرج الدارمي وابن أبي شيبة والترمذي الحاكم والبيهقي وصححوه وأبو نعيم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ρ أتى بقصعة فيها طعــام فتعاقبوهــا إلــى الظهر منذ غدوة يقوم قوم ويقعد آخرون ، فقال رجل لسمرة هل كانت تمد ؟ قال : ما كانــت تمد إلا من ههنا وأشار إلى السماء .

و – وأخرج البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال : كنــا مــع النبي ρ ثلاثين ومائة فقال : هل مع أحد منكم طعام ؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحــوه فعجن ثم جاء رجل بغنم يسوقها فاشترى منه شاة ، فأمر بها فصنعت ، وأمــر رســول الله ρ

بسواد البطن أن يشوى ، قال : وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حزّ له رسول الله ρ من سواد بطنها إن كان شاهداً أعطاه وإن كان غائباً خبأ له ، قال : وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون وشبعنا وفضل من القصعتين فحملنا على البعير .

ز – وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعاني النبي ρ فقال : انطلق إلى المنزل فقل : هلموا الطعام الذي عندكم فأعطوني صحيفة فيها عصيدة بتمر فأتيته بها فقال لي : ادع أهل المسجد فقلت في نفسي : الويل لي مما أرى من قلة الطعام والويل لي من المعصية فدعوتهم فاجتمعوا فوضع النبي ρ أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال كلوا بسم الله فأكلوا حتى شبعوا وأكلت حتى شبعت ورفعتها فإذا هي كهيئتها حين وضعتها إلا أن فيها آثار أصابع النبي ρ .

ح – وأخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم عن قيس بن النعمان رضي الله عنه قال لما انطلق رسول الله ρ وأبو بكر مستخفين مرا بعبد يرعى غنماً فاستقياه اللبن فقال : ما عندي شاة تحلب غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء وقد أخرجت وما بقي لها لبن فقال ρ : ادع بها فدعا بها فاعتقلها النبي ρ ومسح ضرعها ودعا وجاء أبو بكر بمجن فحلب ρ وسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب هو ρ فقال الراعي : من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط قال : محمد رسول الله قال : أنت الذي تزعم قريش أنه صاب ؟ قال : إنهم ليقولون ذلك قال : فأشهد أنك نبي وإن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي .

ط – وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد على كبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوماً على الطريق فمر بي أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعني فمر ولم يفعل ثم مر بي أبو القاسم ρ فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال : يا أبا هريرة قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : إلحق ومضى فاتبعته فدخل واستأذنت فأذن لي فدخلت فوجد ρ لبناً في قدح فقال : من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهداه لك فلان أو فلانة قال ρ : " أبا هريرة " .

قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : الحق بأهل الصفة فادعهم وادعهم لي قال : وأهل الصفة أضـياف الإسـلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ، إذا أتته ρ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً فإذا أتته هديـة أرسل إليهم فأصاب منهم وأشركهم فيها فساءني ذلك وقلت : وما هذا اللبن في أهـل الـصفة كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها وإني لرسول فإذا جـاءوا أمرنـي ρ أن أعطيهم ، ما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فـأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت فقال : أبا هريرة قلت : لبيك يا رسول الله قال خـذ : فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليَّ القدح أعطيـه لآخر فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى رسول الله ρ وقـد روي القـوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ونظر إلي وتبسم وقال : يا أبا هريرة قلت : لبيك يا رسـول الله قال : بقيت أنا وأنت قلت : صدقت يا رسول الله قال اقعد فاشرب فشربت فقـال اشـرب فشربت فما زال يقول اشرب فأشرب حتى قلت لا والذي بعثك بالحق مـا أجـد لـه مـسلكاً فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة ρ .

* * *

وبعد هذا ننتقل إلى خاتمة هذا الباب :

تعقيب

إن المعجزة حجة على صحة الدعوة . غير أن بعض الناس يحاول أن يتهـرب مـن حجيتها بذكر أشياء خارقة للعادة تظهر على يد غير الرسل ، يراها الناس ثم يعتبر ذلك دلـيلاً على أنه لم تقل عليه الحجة بالمعجزة ، والحقيقة أن هناك أشياء كثيرة يراهـا النـاس خارقـة للعادة وليست كذلك . والمعجزة تختلف عن كل هذه الأشياء وبهذا تقوم الحجة علـى النـاس ولنضرب أمثلة :

نسمع كثيراً عن أخبار سحرة يأتون بأشياء عجيبة ، ونسمع كثيراً عن أشـياء عجيبـة تظهر على يد فقراء الهنود ، والرسول ρ أخبرنا عن خوارق تظهر على يد الدجال في آخـر الزمان ويروي لنا الثقات أن هناك ناساً من صلحاء المسلمين تظهر على أيديهم خوارق للعادة . فمثلاً يذكر ابن تيمية أن الشيخ عبد القادر الجيلاني منقولة كراماته تواتراً .

فما مقام المعجزة التي تقوم بها الحجة بين هذه الأشياء ؟

كنا ذكرنا في مقدمة هذه الفصول أن المعجزة تكون بخلق الله المباشر دون أن يكون للأسباب الكونية فيها أي تعلق . على خلاف السحر فإنه علم له قوانينه من أتقنها ظهر على يده منه ، وعلى خلاف الأعاجيب التي تظهر نتيجة الرياضات الروحية فإن ذلك أثر عن أسباب وقوانين كونية تخضع لها عوالم الروح .

ومن هنا كانت هذه الأشياء في الحقيقة نتائج عادية لمقدمات خاصة ، أما معجزة الرسول ρ فتختلف عن هذا كله لأنها ليست وليدة علم أو قانون كوني وسبب ، أما الخارقة للعادة التي تظهر على يد رجل صالح ، فهي مثل المعجزة من حيث كونها خارجة عن الأسباب ، ومن حيث كونها بقدرة الله المباشرة .

ولكنها في العادة لا تكون إلا على يد إنسان متمسك بحبل رسول الله ρ فهي أثر من آثار اتباع الرسول . فهي كرامة لمن ظهرت على يده معجزة للرسول . لأنه لولا اتباعه للرسول ما أظهر على يديه مثل هذه الخوارق ، فالكرامة والمعجزة من مشكاة واحدة ، ولكن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة ، والكرامة تظهر تأييداً لصاحب الرسالة على يد إنسان متبع للرسول .

ولا نحكم على الخارقة أنها كرامة إلا بعد التأكد من استقامة صاحبها على أمر الله وسنة رسوله .

إن سنة الله جرت ألا يظهر خارقة للعادة بكل شروطها على يد إنسان كذاب في دعوى الرسالة عنه ، وهنا سر الفرق الحقيقي بين المعجزة وكل خارقة أخرى .

فصاحب الكرامة لا يدعي الرسالة ، ولذا فإن ظهورها على يده لا يجعل في الأمر التباساً ، خاصة وهو متبع لرسول الله متمسك بشريعته .

وأما المسيح الدجال فليس يدعي الرسالة وتظهر معه الخوارق تأييداً لها حاشا ، ولكنه إنسان جعله الله عز وجل أعظم فتنة للبشر إذ يدعي الألوهية ويظهر معه شيء من آثار قدرة الله ليبقى العقل البشري مسؤولاً ، إذ العقل يعرف الله بصفات الكمال وهذا الإنسان لا يمكن أن يكون هو الله . فما يظهره الله على يده فتنة يختبر بها العباد ، ولا يلتبس ما يظهر على يده

بالمعجزة التي تقوم بها الحجة ، لأنه لا يدعي الرسالة أصلاً ، ولو كان يدعي الرسالة ما ظهرت على يده مثل هذه الخوارق .

وإذن بعض ما يظهر للناس أنه خوارق للعادة ليس هو في الحقيقة من هذا النوع .

وبعضها لا يظهر مع دعوى الرسالة فلا يلتبس بالمعجزة .

وتبقى المعجزة شاهدة على صحة دعوى الرسالة ، والكرامة إذا خرجت من أهلها دليل على صدق التابع والمتبوع ، فلا التباس بين المعجزة وغيرها والحجة قائمة على البشر بها .

ولا عذر لأحد لا يتبع صاحبها .

وأخيراً وقد انتهى هذا الباب .

نقول :

إن إنساناً يرى معجزة المعجزات بين يديه (القرآن) ثم لا يؤمن بأن محمداً رسول الله ، فهو أعمى القلب والعقل .

وإن إنساناً تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات محمد عليه الصلاة والسلام ثم لا يؤمن به ، مظلم الوجدان والضمير .

وإن إنساناً مثل هذا ليقولن في يوم :

{وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ} الملك 10 ، 11 .

* * *

وإلى الباب الثالث لنرى برهاناً على أن محمداً رسول الله .

الباب الثالث

النبوءات

النبُواءت

إن المستقبل مجهول للإنسان ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان بالنسبة للمستقبل هو من باب التوقعات التي تعتمد على المقدمات المؤدية للنتائج ، وحتى في هذه فمهما أوتي الإنسان من صدق الحدس ، وقوة الإدراك ، فإن كلامه يبقى من باب التوقعات التي يمكن ألا تقع ، أما في حالة عدم وجود المقدمات التي تؤدي إلى النتائج ، فالمسألة تبقى من باب التخرصات أو التبوهمات ، ووقوعها في هذه الحالة من قبيل المصادفات ، وعدم وقوعها هو الأصل ، لقد تنبأ اليهودي الشيوعي الخبيث " ماركس " أن الثورة الشيوعية ستكون في ألمانيا وإنكلترا ، وكان يستبعد أن تقوم في روسيا فكانت في روسيا لملابسات خاصة ولم تكن في ألمانيا أو إنكلترا .

فإذا ما وجدنا ظاهرة عند إنسان ، هذه الظاهرة هي أنه تحدث عن المستقبل حديثاً ما خرمه المستقبل ، ولا في جزء من أجزائه ، فنحن إذن أمام ظاهرة تحتاج إلى تحليل وتعليل ، وليس كلامنا هنا إلا في حالة التصديق الكامل من الواقع للنبوءة الثابتة ، فليس كلامنا إذن في التوقعات ، وليس كلامنا في التكهنات الكهنية التي يكذب الواقع عشرات منها ، وليس كلامنا في النبوءات المدَّعاة التي يُدَّعى أنها قيلت قبل وقوع مضمونها ، والحقيقة أنها قيلت بعده ، وليس كلامنا في أمر بُيّتَ فتنبأ بوقوعه بعض مَنْ بَيَّته ، وليس كلامنا في إنسان تحققت بعض نبوءاته وكذب الواقع بعضها ، وليس كلامنا في نبوءة كانت عن رؤيا منام أو ما يشبه رؤيا منام ، وليس كلامنا في نبوءة صدرت عن تابع نبي فكانت كرامة له باتباعه لهذا النبي .

وإنما كلامنا في إخبار عن المستقبل المجهول ، عن رجل يقول عن نفسه أنه رسول ، ويتحقق هذا المستقبل تحققاً تاماً لا يخرم منه شيء ، فتلك إذن نبوة لا شك فيها واتصال بالله عالم الغيب والشهادة لا شك فيه .

هكذا يذكرون عن التوراة وهكذا ذكر القرآن يقول الله في القرآن : {عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ} الجن : 26 ، 27 .

ويذكرون عن التوراة : (فإن أحببت وقلت في قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية إن ما قاله لك النبي باسم الرب ولم يحدث فهذا الرب لم

يكن تكلم به بل ذلك النبي صورة في تعظيم نفسه ولذلك لا تخشه) . الباب الثامن عشر من كتاب الاستثناء التثنية 22 .

وهذه نبوءات تحدث بها السيد الرسول محمد ρ تجعلك على مثل الشمس وضوحاً ، أن محمداً رسول الله ρ وأنه لا ينطق عن الهوى والذي نعرضه هنا في هذا الفصل قليل من كثير نجتزئ به حتى يأخذ الإنسان صورة واضحة المعالم عن هذا الموضوع ومن أراد التوسع فعليه بالكتب التي استقصت هذه الأبحاث ، وسترى في الأمثلة التي سنذكرها نبوءات عن حوادث معينة لأشخاص معينين ونبوءات وقعت قديماً وأخرى نراها الآن . ونبوءات عن حوادث خاصة أو عامة تقع للأمة الإسلامية أو فيها قريباً من حياة الرسول ρ أو بعيداً وهذه هي الأمثلة فتأملها :

1 – روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صعد النبي ρ أُحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان .

هذه نبوءة تذكر أن عمر وعثمان يستشهدان . وقد قتل عمَر أبو لؤلؤة ، وقُتل عثمان في الفتنة المعروفة .

2 – وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى الأشعري : أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال : لألزمن رسول الله ρ ولأكونن معه يومي هذا ، فجاء المسجد فسأل عن النبي ρ ، فقالوا : خروج وجه ههنا ، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر (أريس) ، فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ρ حاجته وتوضأ ، فقمت إليه فإذا هو قد جلس على بئر (أريس) وتوسط قفها (حافة البئر) وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت لأكونن بواب رسول الله ρ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت من هذا ؟ فقال : أبو بكر .

فقلت على رسلك ثم ذهبت فقلت : يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

فقال : ائذن له وبشره بالجنة فأقبلت حتى قلت لأبي بكر :

ادخل ورسول الله ρ يبشرك بالجنة ، فدخل أبو بكر فجلس عن يمــين رســول الله ρ معه في القف ، ودلى رجليه في البئر كما صنع النبي ρ وكشف عــن ســاقيه ، ثــم رجعــت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني فقلت : عن يرد الله بفلان خيراً – يريد أخاه – يــأت به فإذا إنسان يحرك الباب فقلت من هذا ؟

قال : عمر بن الخطاب .

فقلت : على رسلك .

ثم جئت إلى رسول الله ρ فسلمت عليه وقلت :

هذا عمر يستأذن فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فجئت عمر فقلــت : أذن ويبــشرك رسول الله ρ بالجنة ، فدخل فجلس مع رسول الله ρ في القف عن يساره ، ودلى رجليــه فــي البئر ، ثم رجعت فجلست فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً – يعني أخاه – يأت به فجاء إنــسان فحرك الباب فقلت من هذا ، فقال : عثمان بن عفان فقلت : على رســلك ، وجئــت النبــي ρ فأخبرته فقال :

ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه ، فجئت فقلت : ادخل ويبــشرك رســول الله ρ بالجنة مع بلوى تصيبك . وفي رواية أخرى فقال : اللهم صبراً فدخل فوجد القــف قــد ملــئ فجلس وجاههم من الشق الآخر .

فهذه نبوءة في أن عثمان ستصيبه بلوى وقد كانت هذه البلوى هي ما حدث لــه فــي الفتنة التي أدت إلى قتله عليه الرضوان , ومما يرشح هذا المعنى ما رواه ابن عبد البــر فــي الاستيعاب عن عائشة قالت : قال رسول الله ρ .

" ادعوا لي بعض أصحابي فقلت أبو بكر ؟ قال : لا . فقلت : عمر ؟ قال : لا . فقلت : ابن عمك علي ؟ قال : لا . فقلت : عثمان ؟ قال : نعم . فلما جاء قال لي بيــده ، فتنحيــت فجعل رسول الله ρ يُساره ولون عثمان يتغير فلما كان يوم الدار وحصر قيل له : ألا تقاتــل ؟ قال : لا . إن رسول الله عهد إلي عهداً وأنا صابر نفسي عليه .

3 – روى الشيخان عن أنس بن مالك : أن رسول الله ρ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان – وهي من خالاته من الرضاع – فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الـصامت ، فدخل عليها رسول الله ρ فأطعمته ، فنام رسول الله ρ ثم استيقظ وهو يـضحك قالـت : مـا يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتي عرضوا عليَّ ، غزاة في سبيل الله ، يركبون ثـبج هـذا البحـر ملوكاً على الأسرة .

قالت : فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ثم وضع رأسه فنـام ثم استيقظ وهو يضحك .

قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله ، كما قال في المرة الأولى .

قالت : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم .

قال : أنت من الأولين .

وقد غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص في سنة ثمان وعشرين هجرية ومعه من كبـار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ، وكانت مع عبادة زوجـة أم حـرام بنـت ملحان .

4 – أخرج الشيخان أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوماً : أيكم يحفظ ما قال رسول الله ρ في الفتنة التي تموج كموج البحر فقال حذيفة رضي الله عنه : ليس عليك منهـا بأس يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال : أيفتح أم يكسر . قال : يكـسر قـال : إذن لا يغلق أبداً فقيل لحذيفة : من الباب ؟ قال : هو عمر قيل له : أكان عمر يعلمـه ؟ قـال نعم كما يعلم دون غد الليلة إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط .

وأخرج الطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ρ قال : لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم يعني عمر . ويروى معناه عن عثمان بن مظعون وخالد بن الوليد . ولكننا يعلم أن الفتنة بين المسلمين وقعت بعد عمر . أما الرد فلم تكن فتنة بين المسلمين ، وإنما كفر بالإسلام حاربه المسلمون وهم يد واحدة .

5 – وأخرج الشيخان عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : كان علي تخلف عن النبي ρ في خيبر وكان رمداً فقال :

أنا أتخلف عن رسول الله ρ فخرج فلحق به فلما كان مساء الليلة التي فتح الله في صباحها قال رسول الله ρ : لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه ، فإذا نحن بعلي وما نرجوه فقالوا : هذا علي فأعطاه الراية ففتح الله عليه .

ووردت القصة أيضاً من حديث ابن عمر وابن عباس وسعد وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وعمران بن حصين وجابر وأبي ليلى ، أخرجها كلها أبو نعيم .

6 – أخرج البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ρ للحسن : إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . فهذه نبوءة عن انقسام وفرقة وصلح بواسطة الحسن ، وقد كان الانقسام وجرت الدماء ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة ، وحقن دماء المسلمين .

7 – وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قول رسول الله له وقد مرض بمكة حتى أشرف على الموت : " لعلك تخلف – أي تعيش – حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون " فشفاه الله وفتح الله العراق على يديه وهدى به أناساً أسلموا على يديه وغنموا معه . وأضر الله به ناساً من الكفار جاهدهم وقتل منهم وسبى .

8 – وأخرج الشيخان عن أبي سعيد ومسلم عن أم سلمة وأبي قتادة أن رسول الله ρ قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية قال الحافظ السيوطي : هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر .

ففي الحديث ثلاث نبوءات أن هناك فئة باغية وأن عماراً سيقتل قتلاً ، وأن الفئة الباغية قاتلته وقد كان كل هذا إذ قتلته فئة معاوية ولم يكن بجانبها الحق ، وقد دخل كثير من الصحابة المعركة بجانب علي بعد مقتل عمار لكون الحديث حجة له في كونه على الحق .

9 – أخرج البخاري عن عدي بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله ρ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة وأتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال : يا عدي بن حاتم إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله – قلت فيما بيني وبين نفسي فأين ذعار طيء الذين سعروا البلاد – ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت : كسرى بن هرمز .

قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد قال عدي :

قد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة .

قال البيهقي : قد وقعت الثالثة في زمن عمر بن عبد العزيز ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ، والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول :

اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله نتذكر من يضعه فيهم فلا نجد فيرجع بماله ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس .

10 – أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينا نحن عند النبي ρ وهو يقسم قسماً إذ أتى ذو الخويصرة فقال يا رسول الله : اعدل قال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ، خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . قال عمر : يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه ، فقال رسول الله ρ : فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون على خير فرقة من الناس . قال أبو سعيد فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ρ ، وأشهد أن علي بن

أبي طالب قاتلهم وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسـول الله ρ الذي نعته .

وأخرج مسلم عن عبيدة قال لما فرغ علي من أصحاب النهر قال : ابتغـوا فـيهم إن كانوا القوم الذين ذكر رسول الله ρ فإن فيهم رجلاً مخدج اليد ، فابتغيناه ، فوجـدناه فـدعوناه إليه فجاء حتى قام عليه فقال : الله أكبر ثلاثاً . والله لولا أن تبطروا لحدثتكم بمـا قـضى الله على لسان رسول الله ρ لمن قتل هؤلاء ، قلت : أنت سمعت هذا من رسـول الله ρ قـال أي ورب الكعبة . ثلاث مرات .

11 – أخرج مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنهـا قالـت للحجـاج : سمعت رسول الله ρ يقول : " إن في ثقيف كذاباً ومبيراً . فأما الكذاب فقد رأيناه وأمـا المبيـر فلا أخالك إلا إياه " وقد روى ابن سعد والبيهقي عن عمر ما يشير إلى الحجاج ، وكذلك روى الإمام أحمد والبيهقي عن الحسن ما يشير إليه ، وأخرج البيهقي عن علي كذلك ما يشير إليه .

12 – وأخرج الشيخان عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ρ : إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده , وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتـنفقن كنوزهما في سبيل الله .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن أبي محيريز قال : قـال رسـول الله ρ : فـارس نطحة أو نطحتان ، ثم لا فارس بعد هذا أبداً ، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن .

ومعروف تاريخياً أنه بسقوط دولة الأكاسرة انتهى أمرهم تماماً ولم يـستردوا ملكهـم بتاتاً وبقي من يومها الأمر للمسلمين ، وبسقوط دولة القياصرة في القسطنطينية انتهت دولـتهم تماماً ولم يستردوها مرة ثانية وبقي من يومها الأمر للمـسلمين ، مـع ملاحظـة أن الدولـة الرومانية طال أمرها حتى سقطت بيد المسلمين نهائياً ، على عكس الدولة الفارسية وهذا مـا أشار إليه الحديث الثاني .

13 – وأخرج أبو داود والترمذي عن سفينة قال : قال رسول الله ρ : الخلافة بعـــدي في أمتي ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكاً عضوضاً بعد ذلك وهكذا وقع خلافة أبي بكـــر ســـنتان وثلاثة أشهر وعشرون يوماً ، وخلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيـــام ، وخلافـــة عثمان إحدى عشر سنة وإحدى عشر شهراً وثمانية عشر يوماً وخلافـــة علـــي أربـــع ســـنين وعشرة أشهر أو تسعة ، وخلافة الحسن ستة أشهر فكانت ثلاثين .

والحديث الذي رواه البزار بسند حسن صحيح يتحدث بشكل واضح عن مراحل الحكم في الأمة الإسلامية ، كما وقعت ونثبت هنا نص الحديث كما ورد في كتاب " الموافقـــات " و " الإمامة " .

" إن أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ، ثم يكون ملكاً عاضاً فيكون فيكم ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعه الله جل جلاله ثم يكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون خلافة على منهاج النبـــوة تعمل في الناس بسنة النبي ، ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ســـاكن الـــسماء وساكن الأرض لا تدع السماء من قطر إلا صبته مـــدراراً ، ولا تـــدع الأرض مـــن نباتهـــا وبركاتها شيئاً إلا أخرجته " .

وواضح أن الدورين الأولين والثاني انتهيا بزوال الخلافة الراشدة ، وأن الدور الثالـــث استمر حتى زوال الدولة العثمانية ، وأن الدور الرابع هو الذي نحن فيه وأن الـــدور الخـــامس قادم بإذن الله .

14 – وأخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قـــال رســـول الله ρ : " إنكـــم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحمـــاً " والمقـــصود بالرحم أنهم أخوال إبراهيم بن السيد الرسول ρ : إذ المقصود في ذلك أرض مصر والآثار في الأخبار عن فتح مصر كثيرة .

15 – وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " وعـــدنا رســـول الله ρ غزو الهند " . وقد غزوناها .

16 – روى الستة إلا النسائي عنه عليه الصلاة والسلام :

" لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرَقة " وينطبق الوصف تماماً على التتار ، أما أصحاب نعال الشعر فقد ذكر البيهقي : أن قوماً من الخوارج بناحية الري وكانت نعالهم الشعر وقوتلوا .

17 – أخرج أبو يعلى عن معاوية بن خديج رضي الله عنه قال : كنت عند معاوية فأتاه كتاب عامله أنه أوقعَ بالترك وهَزمهم فغضب معاوية من ذلك ثم كتب له لا تقاتلهم حتى يأتيك امرؤ فإني سمعت رسول الله ρ يقول : " لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم " وهما نبتان يوجدان في بلاد العرب وقد حدث أن السلطان خلال أربع مائة عام كان للترك على العرب إلا مناطق الصحراء .

18 – روى البخاري " لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله " .

وفي حديث ابن الزبير .

" بين يدي الساعة ثلاثون كذاباً " .

وأخرج أحمد عن حذيفة بسند جيد " سيكون في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون ، أربعة نسوة إني خاتم النبيين لا نبي بعدي " .

وقد ظهر كثير من هؤلاء الكذابين حتى الآن ولعل أبرزهم في عصرنا غلام أحمد القادياني الذي ادعى أنه نبي نسخت به شريعة محمد ρ ومن هذه السلسلة الخبيثة مسيلمة ، والأسود العنسي وسجاح .

19 – روا البخاري والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة " لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى " . وروى ابن شيبة وأحمد والحاكم صححه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ρ : ليت شعري متى تخرج نار من جبل وراق

تضيء لها أعناق البخت ببصرى كضوء النهار " ويبدو أن الحديث هنا عن بركان عظيم يخرج من أرض الحجاز من مكان عينه الرسول ρ .

وقد وقع هذا .

قال النووي : تواتر العلم بخروج هذه النار عن جميع أهل الشام قال السمهودي : وكانت في زمنه وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها ، واشتدت في يوم الثلاثاء وظهرت ظهوراً عظيماً ثم في ليلة الأربعاء ثالث الشهر في الثلث الأخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جداً أشفق الناس منها واستمرت تزلزل بقية اليوم ثم إلى يوم الجمعة ولها دوي أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثماني عشرة حركة .

وكانت هذه كلها مقدمات لظهور هذه النار وقد وصف القسطلاني في كتاب أفرده لهذه الحادثة هذه النار :

" إن ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران ، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة ، ولونها هي يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف " .

وقال القسطلاني كذلك : " أنها لم تزل مارة على سبيلها وهي تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى ، وإن طرفها الشرقي آخذ بين الجبال فحالت دونها ثم وقفت ، وإن طرفها الشامي وهو الذي يلي الحرم اتصل بجبل يقابله يقال له وعيرة على قرب من شرقي جبل أحد " .

وقد ذكر هذه النار السمهودي في تاريخ المدينة ، وذكرها القاضي سنان والقاشاني والعماد بن كثير والمطري وغيرهم ...

20 - وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم " وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان " .

21 – روى مسلم عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله ρ صنفان من أمتي من أهـل النار لم أرهما بعد . قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس ، ونساء كاسيات عاريـات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت " .

وروى الإمام أحمد والحاكم عن ابن عمر :

" يكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر حتى يأتوا أبـواب المـساجد . نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف العنوهن فإنهن ملعونات ، لـو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدَّمهم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم " .

ولعل أدق وصف لما عليه وضع النساء في زماننا من تبرج وعـري تـثن وميوعـة وفتنة ، هو ما وصفهن به الحديث الشريف ، وهذا لا شك معجزة واضحة . إذ ما كـان أحـد يستطيع أن يتصور أن تصبح المرأة المسلمة في مثل هذه الحالة التي عليها الآن ، حتى إنـك لو كنت في بداية هذا القرن الرابع عشر الهجري لما استطعت أن تتصور بشكل من الأشـكال هذا الوضع الحاضر لامرأة أصلها مسلمة .

22 – أخرج أبو داود والبيهقي عن ثوبان رضي الله عنه قال : " قـال رسـول الله ρ يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟

قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قيل وما الوهن يا رسول الله : قال حـب الـدنيا وكراهيـة الموت " .

والمراقب لوضع المسلمين منذ ظهور ما يسمى بالمسألة الشرقية حتى الآن يجد هـذه الظاهرة ظاهرة طمع الأمم في العالم الإسلامي والكيد لـه والتخطـيط لامتـصاص خيراتـه واضحة جداً مع ما وصف به رسول الله المسلمين .

23 – وهذه جملة أحاديث تراها في عصرنا هذا واقعاً يتحرك أمامك :

" إن بين يدي الساعة فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجـارة – وقطـع الأرحام وفشو القلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق " .

" يأتي على الناس زمان لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا فيه من الحليم ، ولا يـوقر فيـه الكبير ولا يرحم فيه الصغير يقتل بعضهم بعضاً على الدنيا ، قلوبهم قلوب الأعاجم وألـسنتهم ألسنة العرب لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً يمسي الصالح فيهم متسخفياً أولئك شـرار خلق الله لا ينظر الله إليهم يوم القيامة " .

" لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عاراً ويكون الإسلام غريبـاً ، وحتـى تبـدو الشحناء بين الناس وحتى يقبض العلم ويهرم الزمان وينقص عمر البـشر ويـنقص الـسنون والثمرات ويؤتمن التهماء ، ويتهم الأمناء ، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، ويكثر الهرج – وهو القتل – وحتى تبنى الغرف أي القصور فتطاول وحتى تحـزن ذوات الأولاد أي لعقـوق أولادهن ، وتفرح العواقر ويظهر البغي والحسد والشح ويهلك الناس ويكثـر الكـذب ويقـل الصدق وحتى تختلف الأمور بين الناس ويتبع الهوى ، ويقضى بالظن ويكثـر المطـر ويقـل الثمر ويغيض العلم (أي علم حقيقة الإسلام) غيضاً ، ويفيض الجهل فيضاً . ويكـون الولـد غيظاً والشتاء قيظاً ، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقي لشرار أمتي ، فمن صـدقهم بـذلك ورضي به لم يرح رائحة الجنة "

* * *

وأخيراً نقول :

إن هذا الباب ألفت فيه كتب كثيرة ونقل فيها الكثير والكثير ، وهو قليل بالنـسبة لمـا ذكره الرسول ρ للصحابة عن المستقبل ، فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة قال " قام فينـا رسول الله ρ مقاماً فما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه ، حفظه مـن حفظه ونسيه من نسيه ، وقد علمه أصحابي هؤلاء وإن ليكون منه السيء قـد نـسيته فـأراه فأذكر كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه " .

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصاري قال : صلى بنا رسـول الله ρ الفجـر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ثم صـعد المنبـر فخطبنـا حتـى

حضرت العصر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا " .

إنها النبوة ولا شيء غير ذلك {فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر} .. {مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} الإسراء 15 .

النبوة التي دلتنا بما أخبرتنا عنه من غيوب أن لصحابها صلة كاملة بالله ، ولولا ذاك ما ظهر في كلام صاحبها آثار علم الله المحيط في الماضي والحاضر ، وكأنما المستقبل أمامه مكشوف يكشف الله له .

وهذه آثار أخرى عن رسول الله ρ لا تحتاج إلى شرح لوضوح انطباقها على وضع أمتنا في هذا العصر ، فكأنما قيلت فيه عنه وهي مسطورة في كتب الإخبار عنه عليه الصلاة والسلام من مئات السنين نقلناها من كتاب مطابقة الاختراعات العصرية للأحاديث النبوية .

1 – " لا تقوم الساعة حتى تروا أموراً عظاماً لم تكونوا ترونا ولا تحدثون بها أنفسكم "[1] .

2 – " ولن يكون ذلك (أي من قضية الدجال) حتى تروا أموراً يتفاقم شأنها في أنفسكم وتساءلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكراً "[2] .

3 – " لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة "[3] .

والشام تشمل فلسطين ولبنان والأردن وسوريا ، وانظر حال مصايف هذه البلاد تجد كيف أنها مملوءة بالحجازيين وغيرهم ممن يأتون للراحة فقط مما لم يكن موجوداً من قبل .

---

[1] أخرجه نعيم بن حماد وأحمد والبزار والطبراني .

[2] أخرجه أحمد .

[3] أخرجه الديلمي .

4 – " لا تقوم الساعة حتى تمطر مطراً لا تكن منها بيوت المدر ولا تكن منها إلا بيوت الشعر "[1] . ولعل صور الطائرات في الحرب العالمية الثانية وهي تمطر المدن بوابل القنابل فتزعزع كل بناء . تذكرنا بجزء مما ينطبق الحديث عليه . إذ تأثير هذه القنابل على بيوت المدر أكثر من تأثيرها على بيوت الشعر " .

5 – " إن الله تعالى قال في الحديث القدسي " :

" أبث العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل المرأة والعبد والحر والصغير والكبير فإذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقي عليهم "[2] .

ومن رأى تسهيل العلم في زماننا وكثرة أدواته ومعاهده من مدارس وإذاعة وجرائد ومجلات و ... رأى مصداق الحديث .

6 – ومن حديث علي وله حكم المرفوع .

" ويحاً للطالقان فإن لله فيه كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة "[3] والطالقان من قزوين وتلك ناحية وجود البترول في إيران .

7 – " تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من أشرار الناس "[4] .

ونحن نعلم أن معدن البلاد القريبة من الحجاز في عصرنا إنما استخرجه أوّل ما خرج الأجانب بوسائلهم الكثيرة وفي الحديث الآخر " ستكون معادن يحضّرها شرار الناس " ولاحظ كلمة يحضّرها المشددة الضاد[5] .

---

[1] أخرجه أحمد بسند صحيح .

[2] أخرج الدارمي وأبو نعيم .

[3] أخرجه أبو الغنائم الكوفي في كتاب الفتن .

[4] أخرجه الحاكم .

[5] أخرجه أحمد .

8 – " ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره "[1] .

ومن رأى في زماننا قيام الحياة الاقتصادية كلها على المصارف والبنوك رأى الواقع الذي أخبر عنه الحديث .

9 – " ما أنتم إذا مرج الدين وسفك الدماء وظهرت الزينة وشرف البنيان "[2] .

وفي زماننا حدث هذا كله : اختلط الدين وكثر القتل وظهرت الزينة وكثر البنيان وشرف وتطاول كما في حديث آخر " وحتى يتطاول الناس في البنيان "[3] .

10 – " لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عاراً ويتقارب الزمان "[4] . وقد أصبح القرآن الآن عند بعض الناس في بعض الأقطار رجعياً وأصحابه يعيرون بالرجعية وتقارب الزمان حتى قطعت المسافة الطويلة بالزمن القصير .

11 – " كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم قالوا :

يا رسول الله إن هذا لكائن قال : نعم "[5] . وقد حدث هذا كما يشاهد واقعاً .

12 – " إذا كثر قراؤكم وقلت علماؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت أمناؤكم . والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الله ... "[6] .

وقد كثر القراء وقل العلماء وكثر الأمراء وأصبحت الدنيا هدفاً ولم تعد معاهد العلم في الغالب تخرج طلاباً لله .

---

[1] أخرجه أبو داو وابن ماجه والحاكم .
[2] أخرجه الطبراني .
[3] من حديث رواه البخاري .
[4] أخرجه الطبراني .
[5] أخرجه أبو يعلى والطبراني .
[6] أخرجه أبو نعيم في الحلية .

13 – " إن بين يدي الساعة سنين خداعة يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة قيل : وما الرويبضة قال : الرجل التافه ينطق في أمر العامة " .

" والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول وتظهر التحوت قالوا : يا رسول الله وما الوعول وما التحوت ؟ قال : الوعول وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم "[1] .

" وكان زعيم القوم أرذلهم "[2] .

ومن رأى واقع السنين التي نعيشها علم مصداق هذه الآثار إذ تسلط على الناس في أكثر من مكان أكثر الناس وضاعة وانحطاطاً وتفاهة ، وضاع أصحاب الحلوم والعقول .

14 – " سيكون من بعدي سلاطين ، الفتن على أبوابهم كمبارك الإبل لا يعطون أحداً إلا أخذوا من دينه مثله "[3] . ولعل كلمة " كمبارك الإبل " أبلغ وصف للسيارات .

15 – " يوشك أن يؤمر عليهم الرويجل فيجتمع إليه قوم محلقة أقفيتهم بيض قمصهم فإذا أمرهم بشيء حضروا "[4] .

فانظر هذا الوصف الدقيق لنوع الحلاقة والقمصان التي يلبسها بعض الموظفين ممن لم يكن نوعيتها معروفة قديماً .

16 – " والمشي بالأسواق والأفخاذ بادية "[5] . وهذا ينطبق على ما يسمى في زماننا بالفرق الرياضية والكشفية ويرى خاصة أثناء الاستعراضات .

---

[1] أخرجه الطبراني .

[2] أخرجه الترمذي .

[3] أخرجه الطبراني والحاكم .

[4] أخرجه الطبراني .

[5] أخرجه الديلمي .

17 – " قص اللحية "[1] . وقد أصبح الآن هو السائد واللحية مستغربة .

18 – " لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ، ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبراً فشبر وإن ذراعاً فذراع ، وإن باعاً فباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه "[2] . ومن رأى كثرة التقليد في عصرنا للغربيين في أي مسلك سلكوه شاهد يقيناً وقوع الحديث .

19 – ومما رواه معاذ في أشراط الساعة :

" إن الدم يسفك بغير حقه ، والمال يعطى على الكذب "[3] . وترى المال يعطى على الكذب في صورة إعطائه رجلا المباحث السياسية على تقارير ، قسم كبير منها كاذب ، ولكتاب روايات مختلفة ، وإعداد برامج إذاعية مختلفة كاذبة وأشياء كثيرة من هذا القبيل .

20 – " ويح لهذه الأمة ماذا يلقى فيها من أطاع الله ؟ كيف يكذبونه ويضربنه إنه أطاع الله من أجل أنهم ما أطاعوا الله – قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله الناس يومئذ على الإسلام ؟

قال : نعم يا عمر

قال عمر : يا رسول الله الناس يومئذ على الإسلام ؟

قال : نعم يا عمر .

قال عمر : يا رسول الله ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله ؟

قال ترك القوم الطريق وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرج النساء زيهم زي الملوك الجبابرة يسمنون كالنساء فإذا تكلم أولياء الله وأمروهم بطاعة الله قيل له : أنت

---

[1] أخرجه ابن عساكر في تاريخه .

[2] أخرجه الطبراني .

[3] أخرجه نعيم بن حماد .

قرين الشيطان ورأس الضلالة تكذب بالكتب تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا أولياء الله "[1] .

ومن عرف وضع الأمة الإسلامية اليوم رأى كيف أن الدعاة إلى الله وشريعته يضطهدون في كل مكان من قبل الحكام الظالمين .

21 – " ستكون فتنة يفارق الرجل فيها أخاه وأباه تطير الفتنة في قلوب الرجال منهم إلى يوم القيامة حتى يعيّر الرجل فيها بصلاته كما تعيّر الزانية بزناها "[2] .

وما رؤيت هذه الفتنة في العالم الإسلامي إلا هذا العصر الذي فيه يلام الرجل على صلاته ويوبخ ، ويعير مع كثرة دعوات السوء المنتنة ودخول أصحابها فيها . واستمرارهم عليها مع بطلانها .

22 – " يأتي على الناس زمان يخير الرجل فيه بين العجز والفجور فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور "[3] .

23 – " سيخرج قوم في آخر الزمان هم دجالون كذابون ببدع من الحديث لم تسمعوا به أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يفتنونكم "[4] .

24 – " إذا كنت في قوم عشرين رجلاً أو أقل أو أكثر فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلاً يهاب الله عز وجل فاعلم أن الأمر قد حضر "[5] .

25 – " لا تقوم الساعة حتى يفيض المال فيضاً , ويغيض الكرام غيضاً ، ويجترئ الصغير على الكبير واللئيم على الكريم "[6] .

---

[1] أخرجه ابن وضاح في البدع .

[2] أخرجه نعيم بن حماد والطبراني .

[3] أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

[4] أخرجه ابن وضاح في البدع .

[5] أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي .

[6] أخرجه الطبراني .

26 – " سيأتي على الناس زمان تمات فيه الصلوات ، ويشرف فيه البنيان ويكثر فيـــه الحلف والتلاعن ويفشو فيه الرشا والزنا ، وتباع الآخرة بالدنيا . فإذا رأيت ذلك فالنجا والنجـــا قيل : وكيف النجا قال : كن حلساً من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك "[1] .

27 – " ليأتين على الناس زمان يؤمن بالله ولا يشركون به شيئاً ويصومون رمـــضان ويصلون الخمس وقد سلبوا دينهم لأنهم رأوا الحق فتركوه "[2] .

28 – " إني لأعلم أهل دينين من أمة محمد ρ في النار قوم يقولون : إن كنـــا أولنـــا ضلالاً ما بال خمس صلوات في اليوم والليلة إنما هما صلاتان : العصر والفجر "[3] .

والذي يعرف شيئاً عن طائفة الإسماعيليين يدرك صدق الحـــديث فـــإنهم يؤمنـــون أن عليهم صلاتين فقط صباحاً ومساءً .

29 – " سيظهر شرار أمتي على خيارهم حتى يستخفي فيهم المؤمن كما يستخفي فيكم المنافق اليوم "[4] .

30 – " ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف "[5] . وهـــذا واقع الآن بشكل واضح .

31 – " إنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كمـــا يتجـــارى الكلـــب بصاحبه لا يبقى منه عرف ولا مفصل إلا دخله "[6] .

32 – " لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره وحتى تترك الأئمة ذكـــره علـــى المنابر "[7] .

---

[1] أخرجه ابن أبي الدنيا .
[2] أخرجه ابن وضاح .
[3] أخرجه الحاكم .
[4] أخرجه الديلمي .
[5] أخرجه البخاري .
[6] أخرجه أبو داود .
[7] أخرجه الإمام أحمد .

33 – " لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة . فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة "[1] .

34 – " يأتي على الناس زمان يصبح الرجل بصيراً ويمسي ما يبصر شـــعرة "[2] . أي يضل الحق .

35 – " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً "[3] .

36 – " إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم فتن كقطع الدخان يموت فيه قلـــب الرجل كما يموت بدنه ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا "[4] .

37 – " ليت شعري كيف أمتي بعدي حتى تتبختر رجالهم وتمـــرح نـــساؤهم ، ليـــت شعري كيف هم حين يصيرون صفين صفين صفاً ناصبي نحورهم في سبيل الله . وصفاً عمالاً لغيـــر الله "[5] .

38 – " إذا ظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش وجاهدوا في غيـــر سبيل الله يومئذ بكتاب الله سراً وعلانية كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار "[6] .

39 – " ذلك أيام الهرج حين لا يأمن الرجل جليسه "[7] .

40 – " قال أبيض رجل من أصحاب رسول الله ρ : والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى لا تبقى ملة إلا ولها منكم نصيب . قلت يبادرون يخرجون من الإسلام ؟

---

[1] أخرجه الإمام أحمد والطبراني .

[2] أخرجه نعيم بن حماد .

[3] أخرجه أحمد .

[4] أخرج أحمد والطبراني والحاكم .

[5] أخرجه ابن عساكر .

[6] أخرجه نعيم بن حماد .

[7] أخرجه الحاكم .

قال : يصلون بصلاتكم ويجلسون مجالسكم وهم معكم في سوادكم ، ولكل ملـة مـنهم نصيب . قلت : (أي الوليد راوي الحديث) إي والله لكل ملة منهم نصيب إلا الإسـلام فـلا نصيب له منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم "[1] .

41 – " من اقتراب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويفتح القـول ويخـزن العمل " .

42 – " من اقتراب الساعة تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال "[2] .

وأنت إذا ما تأملت هذه الآثار فإن لا تجد فيها حديثاً إلا وتراه أمامـك واقعـاً علـى الأرض الآن ، مما لم يكن موجوداً من قبل . حتى أن رائي العين لا يصف بأبلغ مـن هـذا ، وإنما كان هذا ، لأنه أثر علم الله المحيط الذي أطلع على بعضه محمداً ρ فقال ما قال ووقـع كل ما قال . وفي ذلك الشهادة الكاملة على أن محمداً ρ رسول الله حقاً وصدقاً لا يمتري فـي ذلك إلا متكبر أو حاسد أو شيطان يرى الحق ولا يتبعه .

إن النبوآت التي اخترناها كلها نبوءات قد وقعت وهناك نبوآت أخرى لم يحـن وقتهـا بعد ، ومن العجيب أن بعضها مذكور في الكتب الدينية السابقة على رسـولنا عليـه الـصلاة والسلام ، وهذا يؤكد أن مصدر هذه النبوآت السابقة الوحي وأنها من القسم الذي لم يحرف في الكتب الأولى ، وكل تعليم آخر ظاهر الفساد ، فلم تكن مثل هذه القضايا منتشرة ولا معروفـة في الجزيرة العربية .

والرسول عليه الصلاة والسلام أمي لا يحسن القراءة ، ولم تكن هـذه الكتـب أصـلاً مترجمة إلى العربية في ذلك الزمان ، عدا عن كون النسخ محدودة جـداً لا توجـد إلا عنـد رؤساء الدين اليهودي بالنسبة لنسخ التوراة . غير أن بعض هذه النبوءات موجودة فـي كتـب العهد الجديد التي لا يؤمن بها اليهود أصلاً . وليست موجودة عندهم ولم تكن هناك أي صـلة

---

[1] أخرجه عبدان في كتاب الصحابة .

[2] أخرجه أبو نعيم في الحلية .

بين النصارى ورسول الله عدا عن كون الفكر النصراني لم يكن له أي صدى في مكة والمدينة . إلا ما ذكر أن ورقة بن نوفل كان له مثل هذا الاتجاه .

إلا أن اتصال الرسول بورقة كان محدوداً ومعروفاً ما جرى فيه ، وورقة آمن برسالة محمد من اللحظة الأولى ، فليس هناك من تعليل لوجود هذه النبوآت المشتركة إلا وحدة المصدر وهو الوحي .

أبرز هذه النبوآت المشتركة ثلاث :

1 – الإخبار عن يأجوج ومأجوج .

2 – الإخبار عن المسيح الدجال .

3 – الإخبار عن نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان وأنه يقتل الدجال .

فقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن مجيء ناس ذوي عدد هائل سموا باسم يأجوج ومأجوج إلى منطقة في فلسطين قبيل قيام الساعة ، وأخبر عليه الصلاة والسلام بأحاديث متواترة عن ظهور إنسان سماه المسيح الدجال يدعي الألولهية وهو أكبر ما فتن به البشر ، وأن المسيح عليه السلام يقتله بعد نزوله .

وقد ذكر في كتاب المشاهدات الباب 19 وفي الباب الثاني من الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان .

" إن عيسى – عليه السلام – سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله " .

وقد نقل عن حزقيال عليه السلام في كتب العهد القديم أنه أخبر عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمن المستقبل وإهلاكهم حين وصولهم إلى جبال إسرائيل ثم عقب على ذلك في الكتاب المنسوب إليه في الباب التاسع والثلاثين الفقرة الثامنة .

" ها هو جاء وصار يقول الرب الإله هذا هو اليوم الذي قلت عنه " إشارة إلـــى يـــوم القيامة .

إن هذا كله يؤكد لنا رسالة محمد عن الله ويجعلنا على اليقين الذي لا شك معه ، أن ما قاله عليه الصلاة والسلام هو الحق الذي لا يمترى فيه .

ملاحظة : قصة يأجوج ومأجوج واردة كذلك في القرآن ، ولكـــن التفـــصيلات التـــي ذكرناها عن الرسول ρ آنفاً توضح وتبين الآيات القرآنية .

* * *

الباب الرابع

الثمرات

الثَمرات

إن دعوة الرسل عليه الصلاة والسلام تختلف عن أي دعوة أخرى من دعوات البشر المنبتّة عن هداية الله ، ولذلك كان شيئاً عادياً تماماً أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها ، فإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى الإغراق في الشهوات والملذات الحيوانية ، فإن من ثمار دعوة الرسل ضبط النفس إلا عن المتع المعقولة .

وإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عدم التقيد بالحق والخير والمعروف ، فإنه شيء عادي أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الالتزام بهذا ، وإذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدماً على الأخلاق ، فشيء عادي أن يكون من ثمرات دعوة الرسل اعتبار الجمال في الأخلاق الكريمة العالية .

إن الفطرة تحس بالخير والشر ، وإن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة ، كما يستشعر ذوق الإنسان حلاوة الثمرة الطيبة ، وإن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الخبيثة للدعوة الخبيثة ، كما يستشعر ذوق الإنسان مرارة الثمرة الرديئة .

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستطيع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعي النبوّة الكاذب ، وأن ترى في آثار كلٍ ما يدل على صدق الأول وادعاء الثاني .

وقد أشارت الكتب السماوية إلى هذا المعنى :

فقال الله تعالى في القرآن :

{وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً} الأعراف : 58 .

ويذكرن في إنجيل يوحنا الباب السابع الفقرة الخامسة عشر على لسان المسيح قوله :

" احذروا من الأنبياء الكَذَبَة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخلٍ ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونه ، هل يجتَنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً " .

يقول الله تعالى :

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ} الفتح : 29 .

ويذكرون في الباب الثالث عشر من إنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام :

" قدم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر البُقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها " .

يعرف النبي من ثماره ، لذلك كان لا بدَّ من كتابة هذا الباب لتبيان أن ثمار محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تكون إلا ثمار نبي .

وسنستعرض في هذا الفصل عشر ثمرات من ثمراته عليه الصلاة والسلام . في كل منها شهادة كاملة على أنها منبثقة من شجرة النبوَّ الطيبة العطرة المتميزة .

أولاً – التوحيد :

في الهند اليوم حوالي 200 مليون بقرة ، هذه الأبقار يعتبرها الهنود مقدسة ، وبالتالي فإنه لا يستفيدون منها بتاتاً ، ويحرمون ذبحها ، وأكثر من هذا فإن الشعب الهندي كله مسخر لخدمتها ، وتعيش على حسابه ، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار إلى مراع وطعام ؟

وكم تعطل طاقات على حساب هذا النوع من الشرك ؟

وزيادة على ذلك فإن لهذا البقر سلطاناً على كل شيء . تقف البقرة فتوقف وراءها السيارات ولا يزعجها أحد حتى تمضي هي فيمضي غيرها . وتبول في أي مكان ، وتتخثى في أي مكان . وتعتدي على مال أي إنسان ، ولا أحد يجرؤ على أن يعترض سبيلها بشيء .

وفي الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين، ترى لو استفاد الشعب الهندي من البقـــر ألا تنحل شيء من أزمته ؟

إن هذه الصورة من صور الشرك جعلت البشر مسخراً لخدمة البقر .

وفي مصر اليوم أهرامات ضخمة جداً ، وأحجارها ضخمة جداً ، نقلت مـــن أمـــاكن بعيدة جداً ، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصري إلى منطقة الأهرامات ، وتعبت في بناء هذه الأهرامات آلاف الأدمغة وآلاف الأيدي من أجل ماذا ؟

من أجل أن يصنعوا قبراً لفرعون الذي كانوا يعبدونه كإله !! فكم أُنفق من جهد ، وكم أنفق من أموال ؟ بسبب هذه الصورة من صور الشرك ، بصرف النظـــر عمـــا تمثلـــه هـــذه الأهرامات من تقدم مدني .

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر .

وفي العالم اليوم حوالي ثلاثة عشر مليوناً من الطائفة الإسماعيلية ، التي تعبد رجـــلاً كإله وتقدم له كل عام خُمس أموالها ، تجعله في كفة ميزان ، وتجعل الذهب في كفـــة أخـــرى حتى يتساويا ، وتقدمه له كهدية سنوية ، ثلاثة عشر مليوناً من البـــشر يـــستغلهم فـــرد باســـم الألوهية . ليجهدوا ويقدموا ، أما هو فيأخذ ويكنز وينفق بلا حساب على أشـــياء كثيـــرة وقـــد يكون المرشح لهذا المنصب داعراً فاسقاً ماجناً ، ينال هذا كله ويصرفه في كل سبيل داعـــر ، ذلك أثر من آثار الشرك بالله ، أن يستغل فرد من البشر شعباً كاملاً من البشر باســـم ألوهيـــة الإنسان وعبودية الإنسان للإنسان .

وفي العالم اليوم شعوب وثنية ، وقديماً كانت الوثنية منتشرة في العالم كله لـــم تخـــل منها أمة من الأمم :

الرومان واليونان ، والهند والصين واليابان والعرب .. والشعوب الإفريقية من مـــصر إلى غيرها .. فماذا تعني هذه الوثنية ؟ قبل أن نقول ماذا تعني نضرب أمثلة عن نماذج منها :

أ – عند العرب :

1 – روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به .

2 – وقال الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاثاً أثافيَّ لقدره وإذا ارتحل تركه .

3 – وقال صاعد في كتاب (طبقات الأمم) : كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشتري ، وطيء سهيلاً ، وقيس الشِّعرى العبور ، وأسد عطارد .

4 – وقال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً .

5 – وكان لكل قبيلة من العرب صنم ولكل ناحية أو مدينة صنم خاص وكان في فناء الكعبة وحدها ثلاث مائة وستون صنماً للعبادة .

6 – قال سعيد بن جبير في شرح الأزلام : " الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدواً أو روحاً كتبوا في قدحين في أحدهما : أمرني ربي وفي الآخر نهاني ربي ، ثم يضربون بهما فأيهما خرج عملوا به " .

ب – عند الهنود :

يقول أبو الحسن الندوي في كتابه : " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " عن حال الوثنية في الهند :

" بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس ، فقد كان عد الآلهة في ويد ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت في هذا القرن 330 مليوناً ، وقد أصبح كل شيء رائعاً وكل شيء جذاباً ، وكل

مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد ، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة الإلاهات الحصر وأربت على العد ، فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله – زعموا – في عهود وحوادث معروفة ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله ، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس " مهاديو " الإله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة ، والأجرام الفلكية وغير ذلك ، وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان " .

جـ – والفرس :

كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم ، واليابانيون يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة ، واليونانيون يعبدون إله المطر فلاناً وإلاهة الحب فلانة وإله الحرب فلاناً .. وهكذا ..

* * *

فماذا تعني هذه الوثنيات كلها ؟

تعني أن الإنسان اعتبر نفسه أقل من الحجر ، وأقل من الشمس وأقل من الحيوانات ، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها ، بل جعلها في مقام السيد ، وجعل نفسه في مقام العبد الذليل ، وجعلها تتحكم فيه بواسطة وبغير واسطة .

وقال النصارى : إن المسيح ابن الله وأعطوه حكم الأب – تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً –

فأصبح المسيح عندهم إلهاً ، كما اعتبر الهنود بوذا من قبل إلهاً ، وهؤلاء وهؤلاء صنعوا التماثيل لهذا وهذا وعبدوها ، فأصبحت كلاً من الديانتين ديانة وثنية شركية من ناحيتين : من ناحية عبادة الأصنام ومن ناحية عبادة الإنسان ، ونتج عن هذا عند النصارى أن اعتبروا خليفة المسيح الممثل في البابا له حكم المسيح من حيث طاعة أوامره ونواهيه ، فأصبح التحليل والتحريم والتضليل والتخريف الذي عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شيء . فكانت مآسي وفظائع من حَجْرٍ على العقل ، وقتل للأنفس ، وسلب للحريات ، ومقاومة لكل حق وقد ذكر التاريخ من ذلك الكثير .

*　*　*

وألحَد ناس قديماً وألحد ناس في هذا العصر ، فماذا يعني الإلحاد ؟

يعني الإلحادُ أن الإنسان عبد الكون كله بدلاً من أن يعبد أجزاء منه ، وخلع على الكون كله صفات الألوهية ، فالكون يخلق ويَرزق ، ويُعطي ويمنع ، ويحيي ويميت ، ويتصرف ويعمل ورتب ويبدع ويكوِّن ، واعتبروا أنفسهم أعظم ما في هذا الكون فعبدوا أنفسهم ؛ اعتبروا أن الإنسان مصدر التشريع ، ومصدر الحاكمية ، ومصدر الأمر والنهي . وهو حر أن يفعل وأن يترك وأن يعمل كل شيء فغلبتهم شهواتهم ، وظلموا بعضهم ، وأصبح كل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه إلهاً ، وأخيراً اعتبرت الفلسفة الشيوعيّة الشعب كله إلهاً يفعل ما يشاء ، لا رادَّ لحكمه ، وتمثل الشعب بأفراد تصرفوا كآلهة ، فحدث على يدهم من المآسي ما لم يحدث على يد غيرهم ، حتى إنه قتل في زمان ستالين وحده تسعة عشر مليوناً من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفييتي .

فلم يكن الإلحاد إذن إلا صورة من صور الشرك ، انتقل به الإنسان من الجزئية إلى الكلية ، ومن الشرك الواضح إلى الشرك المقنع ، فأعطى الكون كلّه صفات الألوهية بعدما كان يعطي أجزاء منه ، وعبد نفسه وتعبّد لها بعدما كان يعبد غيره .

*　*　*

ومحمد وحده بوحي من الله ، من يوم بعثته إلى قيام الساعة ، هو الذي وضع الإنسان في محله الصحيح فعلمه :

1 – أن الكون كله ، قمره وشمسه ونجومه وأرضه وحيواناته من بقر ونمر وأسد وعجل ، ونباتاته كلها ، وأحجاره ومعادنه وكل شيء فيه خلق للإنسان ! فالإنسان سيده والإنسان مكرم ومفضل عليه .

{هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً} البقرة : 29 .

{أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ} لقمان : 20 .

ومن حق الإنسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها ، ومن القمر وما فيه ومن المـــريخ وغيره ، كل الكون مسخر للإنسان والإنسان أكرم ما فيه :

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} الإسراء : 70 .

2 – وأن الله خالق الكون والإنسان ، هو وحده الإله المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، المستحق وحده للعبادة . والإنسان عبده وحده .

{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} الذاريات : 56 .

فالناس كلهم عباد الله . ورسولهم ونبيهم ، وملكهم وخادمهم ، وكبيرهم وصـــغيرهم ، ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه .

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِيۤ إِلَيْهِ أَنَّهُ لاۤ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَاْ فَٱعْبُدُونِ } الأنبيـــاء : 25 .

{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} آل عمران : 79 .

{قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا} الكهف : 110 .

لا إله إلا الله

لا حجر ولا قمر ولا بشر ولا كون ولا مجلساً نيابياً يحلل ويحرم كمـــا يـــشاء ، ولا شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا البشرية كلها .

كل الكون للإنسان ، والإنسان لله . مقام الإنسان السيادة علـــى المخلوقـــات ، لأنهـــا مسخرة له ، والعبودية لله وحده : بنقلة واحدة نقل محمد ρ البشر من أحط الدركات إلى أعلـــى

الدرجات ، وبذلك وجد المسلم ، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد ρ وهي أول ثمرة من ثمار كل نبي ولكن الناس انحرفوا :

مكتوب في نسخ التوراة الموجودة الآن :

(لو دعا نبي أو من يدعي الإلهام في المنام إلى عبادة غير الله يقتل هذا الداعي وإن كان ذا معجزات عظيمة) الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء ، وفي الباب السابع عشر منه :

(لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرجم رجلاً كان أو امرأة)

ومكتوب في نسخ الإنجيل الحالي :

(وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) " إنجيل يوحنا الباب السابع عشر – 3 " .

وفي الباب الثاني عشر من إنجيل مرقص – 28 – (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله : أية وصية هي أول الكل فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد) .

* * *

وبهذه النظرة إلى الكون والإنسان ، فتح المسلم أقفال الكون بالتجربة والمشاهدة ، يدفعه في ذلك عقيدة أن الكون كله للإنسان ، وعليه أن يستفيد منه ، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم إلى القمة في تسخير الكون ، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة الإسلامية ، ولولا ذاك لما كان في أوروبا حضارة ولا علم وأين يكون ومحاكم التفتيش وسيف الكنيسة مسلطة على رأس كل من يفكر ، يقول بريفولت في كتابه " بناء الإنسانية " :

" ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير .

ويقول في موضع آخر :

لم تكن العلوم الطبيعية التي يرجع فيها الفضل إلى العرب هي التي أعادت أوروبا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيـــرة ومتنوعـــة منـــذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا " .

ولكن للأسف فإن أوروبا أخذت جزءاً فقط من هدي محمد ρ في هذا الموضوع ولـــو أخذته كله لأفلحت واهتدت .

إن هذه الثمرة من ثمار محمد ρ التي لا يصلح الإنسان إلا بهـــا ، ولا يأخـــذ محلـــه الصحيح إلا إذا اعتقدها ، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام في دعـــوة محمـــد عليـــه الصلاة والسلام لولا أنه رسول الله حقاً . أراد الله به أن ترجع الإنسانية عن الانحـــراف إلـــى الاستقامة .

* * *

ثانياً – التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه وجعله محور سلوك الإنسان :

مكتوب في كتاب أيوب في الباب الثاني والأربعين منه فقرة (17) : (ومات أيـــوب شيخاً معمراً ويبعث مرة أخرى مع الذين يبعثهم الرب) .

ومكتوب في إنجيل مرقس الباب الثالث عشر فقرة (32) : (وأما ذلك اليـــوم وتلـــك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ولا (الابن) أي المـــسيح إلا (الأب) أي الله) ، وتعالى أن يكون أباً أو يكون له ولد ، وإنما ذكرنا العبارة هنا لنندلل علـــى ذكـــر يوم القيامة في كتب العهد القديم والجديد .

ومكتوب في الباب التاسع عشر من إنجيل متى هكذا (16) : (وإذا واحد تقدم وقـــال أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية) .

إن الرسل كلهم بعثوا من أجل أن يبشروا بالحياة الأبدية الطيبة للـصالحين والعـذاب الأبدي للطالحين .

{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} النساء : 165 .

إن من ثمار محمد ρ أنه أخرج بإذن الله وأمره جيلاً من البشر لم يعد له همة إلا في أن ينال رضا الله ، وينال سعادة الأبد ، ودل البشرية على الطريق إلى ذلك . فكان أتباعه أعظم نماذج عرفها العالم كطلاب آخرة بعد النبيين ، هذا مع قيام كامل في أمر الدنيا إصلاحاً ورعاية ، ولكن كممر إلى الآخرة ، وهذه أمثلة على هذه النماذج تخرجها تربية محمد ρ في كل جيل وكان فيها القدوة الأولى :

1 – أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

" دخلت على رسول الله ρ وهو على حصير قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وقرظ (ورق السلم يدبغ به) في ناحية من الغرفة ، وإذا إهاب معلق فابتدرت عيناي فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فقلت : يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته ، وهذه خزانتك ! قال : يا ابن الخطاب ! أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ "

2 – وأخرج أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت :

" مات أبو بكر رضي الله عنه فما ترك ديناراً ولا درهماً ، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت المال " .

3 – ومن حديث طويل أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصري في عمر بن الخطاب :

" فقالوا : ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار إلى زهد هذا الرجل وإلى حليته ؟

لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر ، وطرفي المشرق والمغرب ، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتي عشرة رقعة . فلو سألتم معاشر أصحاب محمد ρ وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله ρ والسابقين من المهاجرين والأنصار يغيّر هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويغذى عليه بجفنة من الطعام ويراح عليه بجفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار .

فقال القوم بأجمعهم : ليس لهذا القول إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته ؛ أو ابنته حفصة – فإنها زوجة رسول الله ρ وهو موجب لها لموضعها من رسول الله ρ . فكلموا علياً فقال علي :

لست بفاعل ولكن عليكم بأزواج النبي ρ فإنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه .

فقال الأحنف بن قيس : فسألوا عائشة وحفصة رضي الله عنهما وكانتا مجتمعتين .

فقالت عائشة : إن سائلة أمير المؤمنين ذلك .

وقالت حفصة : ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك .

فدخلتا على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما .

فقالت عائشة : يا أمير المؤمنين أتأذن أكلمك ؟

قال : تكلمي يا أم المؤمنين ! قالت : إن رسول الله ρ مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وكذلك مضى أبو بكر رضي الله عنه على إثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله ρ وقتل المكذبين ، وأدحض حجة المبطلين ، بعد عدله في الرعية ،

وقسمه بالسوية ، وإرضاء رب البرية ، فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صـلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى . لم يرد الدنيا ولم ترده ، وقد فتح الله على يـديك كنـوز كسرى وقيصر وديارهما ، وحمل إليك أموالهما ودانت لك أطـراف المـشرق والمغـرب ، ونرجو من الله المزيد ، وفي الإسلام التأييد ، ورسل العجم يأتونك ، ووفود العـرب يـردون عليك ، وعليك هذه الجبة ، وقد رقعتها اثنتي عشرة رقعة ، فلو غيرتها بثوب لين يهـاب فيـه منظرك , ويغذى عليك بجفنة من الطعام ويراح عليك بجفنة تأكل أنت ومـن حـضرك مـن المهاجرين والأنصار .

فبكى عمر عند ذلك بكاءً شديداً ثم قال :

سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شبع من خبز برٍ عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة ، وجمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله ؟!

فقالت : لا .

فأقبل على عائشة فقال :

هل تعلمين أن رسول الله ρ قرب إليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر مـن الأرض . كأن يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ويأمر بالمائدة فترفع ؟ قالتا : اللهم نعم . قال لهمـا : أنتما زوجتا رسول الله ρ وأمهات المؤمنين ، ولكما على المؤمنين حق وعليّ خاصة . ولكـن أتيتما ترغباني في الدنيا وإني لأعلم أن رسول الله ρ لبس جبة من الصوف فربما حـك جلـده من خشونتها ، أتعلمان ذلك ؟

قالتا : اللهم نعم .

فقال : هل تعلمين أن رسول الله ρ كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة وكان مسحاً في بيتك يا عائشة تكون بالنهار بساطاً وبالليل فراشاً فندخل عليه فنرى أثر الحصير على جنبه ، ألا يا حفصة أنت حدثتيني أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد فلم يستيقظ إلا بأذان بـلال فقال لك يا حفصة ماذا صنعت ؟ أثنيت المهاد ليلتي حتى ذهب بي النوم إلى الصباح ؟ مـالي وللدنيا ومالي شغلتموني بلين الفراش !

يا حفصة ، أما تعلمين أن رسول الله ρ كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تـــأخر ، أمسى جائعاً ورقد ساجداً ، ولم يزل راكعاً وساجداً وباكياً ومتضرعاً في آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله برحمته ورضوانه ! لا أكل عمر طيباً ، ولا لبس ليناً ، فله أُسوة بصاحبيه ، ولا جمع بين أدمتين إلا الملح والزيت ، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر ينفض ما انفض من القوم ، فخرجتا فخبرتا بذلك أصحاب رسول الله ρ فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل .

4 – وعن الحسن أنه سئل عن القائلين في المسجد فقال : رأيت عثمان بـــن عفـــان رضي الله عنه يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة ، قال :

ويقوم وأثر الحصير بجنبه ،

فيقال : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين[1] .

وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان رضي الله عنه كان يطعم النـــاس طعـــام الإمـــارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت (حياة الصحابة) .

5 – أخرج أبو نعيم في الحلية (ج1 ص82) عن رجل من ثقيف أن علياً رضي الله عنه استعمله على عكبرا قال :

ولم يكن السواد يسكنه المصلون – وقال لي : إذا كان عند الظهر فرح إليّ فرجعـــت إليه فلم أجد عنده حاجباً يحبسني دونه ، فوجدته جالساً وعنده قدح وكوز ماء – فـــدعا بطينـــة فقلت في نفسي :

لقد آمنني حتى يخرج إليّ جوهراً ولا أدري ما فيها ، فإذا عليه خاتم فكسر الخـــاتم ، فإذا فيهما سويق ، فأخرج منهما فصب في القدح ، فصب عليه ماء فـــشرب وســـقاني ، فلـــم أصبر فقلت :

---

[1] أخرجه أبو نعيم في الحلية ج1 ص 60 ، وأحمد كما في صفوة الصفوة ج1 ص116 بمثله .

يا أمير المؤمنين ! أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك !

قال : أما والله ما أختم عليه بخلاً عليه ، ولكني أبتاع قدر ما يكفيني فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره ، وإنما حفظي لذلك ، وأكره أن أدخل إلا طيباً .

6 – أخرج أبو نعيم في الحلية (ج1 ص101) عن عروة قال : دخل عمر بن الخطاب على أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فإذا هو مضطجع على طنفسة رحْلِه ، متوسد الحقيبة فقال له عمر : ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ؟ هذا يبلغني المقيل . وقال معمر في حديثه :

لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر : أين أخي قالوا : مَن ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا الآن يأتيك ! فلما أتاه نزل فاعتنقه فقال ، ثم دخل عليه بيته فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله .

7 – وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحسن قال :

" كان عطاء سلمان رضي الله عنه خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين ، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها ، وإذا خرج عطاؤه أمضاه (أي تصدق به) ويأكل من سفيف يده " .

8 – وروى الإمام أحمد عن محمد بن كعب ناساً نزلوا على أبي الدرداء رضي الله عنه ليلة قرة فأرسل إليهم بطعام سخن ، ولم يرسل إليهم بلحف ، فقال بعضهم : لقد أرسل إلينا بالطعام فما هنأنا مع القر ، لا أنتهي أو أبين له . قال الآخر : دعه ، فأبى .

فجاء حتى وقف على الباب ، رآه جالساً وامرأته ليس عليها من الثياب إلا ما لا يذكر فرجع الرجل وقال :

ما أراك بت إلا بنحو ما بتنا به ،

قال : إن لنا داراً ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها (أي الدار الآخرة) ولو ألفيت عندنا منه شيئاً لأرسلنا إليك به وإن بيني أيدينا عقبة كؤوداً ، المُخِف فيها فخير من المثقل أفهمت ما أقول لك ؟

قال : نعم .

9 – وأخرج أبو نعيم عن عمر بن حمزة بن عبد الله قال : كنت جالساً مع أبي فمر رجل فقال :

" أخبرني ما قلت لعبد الله بن بن عمر رضي الله عنه يوم رأيتك تكلمه بالجرف ؟ قال : قلت يا أبا عبد الرحمن ! رقت مضغتك ، وكبر سنك ، وجلساؤك لا يعرفون حقك ولا شرفك ، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئاً يلطفونك إذا رجعت إليهم، قال : ويحك والله ما شبعت منذ إحدى عشرة سنة ولا ثنتي عشرة سنة ولا ثلاث عشرة سنة ولا أربع عشرة سنة ولا مرة واحدة فكيف لي ؟

وإنما بقي مني كظمئي الحمار " .

10 – أخرج عمر بن شية عن أفلح مولى أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان عمر رضي الله عنه يأمر بحلل تنسج لأهل بدر يتنوق فيها (أي يتجود ويبالغ فيه) ، فبعث إلى معاذ ابن عفراء حلة فقال لي معاذ :

يا أفلح : بع هذه الحلة فبعتها له بألف وخمس مائة درهم ثم قال : اذهب بابتع لي بها رقاباً ، فاشتريت له خمس رقاب ، ثم قال والله إن امرءاً اختار قشرين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغبين الرأي ، اذهبوا فأنتم أحرار " (حياة الصحابة) .

* * *

مما مرّ يتبين أن الجيل الذي رباه محمد رسول الله ρ جيل أصبح همه الأعلى الآخرة ، ولم يعد له في غيرها همة : إلا إذا كان وسيلة إلى الآخرة تقربهم إلى الله ، وتفرع عن هذا الأصل سلوك لا مثيل له في أي جانب من جوانب الحياة ، والحياة والمال هما الميزان الذي يمتحن به إيمان الإنسان بالمبدأ والعقيدة . فعلى قدر تضحيته يكون إيمانه ، والتضحية التي

نراها عند الصحابة – الجيل الذي رباه رسول الله – بالنفس والمال ابتغـاء وجـه الله والـدار الآخرة تضحية لا مثيل لها في تاريخ العالم أبداً ، مما يدل على مقدار إيمانهم باليوم الآخـر ، حتى أصبح محور وجودهم . وهذه أمثلة على تضحيتهم بالمال والـنفس تؤكـد لـك مقـدار استقرار هذا المعنى في أنفسهم :

أ – تقول زوجة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنها :

دخلت يوماً على طلحة فرأيت منه ثقلاً فقلت له : مالك ؟ لعله رابك منا شيء فنعتبـك ؟

قال : لا ولنعم لحليلة المرء المسلم أنت ! ولكن اجتمع عندي مـال ولا أدري كيـف أصنع به . قلت :

وما يغمك منه ! ادع قومك فاقسمه بينهم .

فقال : يا غلام عليَّ بقومي.

فسألت الخازن : كم قسم ؟

قال : أربع مائة ألف .

" كذا في الترغيب ، ورجاله ثقات " .

ب – وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن العزيز قال :

" كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقـوم إلى منزله وليس معه شيء " .

عن أنس بن مالك : سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها يوماً رجة في المدينة فقالت : ما هذا ؟ قالوا : قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شي ، وكانت سبعمائة بعير فقالت : يدخل عبد الرحمن الجنة حبواً (أي بسبب غناه) فلا بلغه ذلك قال :

إني لأرجو أن أدخلها قائماً ، فجعل القافلة كلها في سبيل الله ، الجمال وما عليها ، ووزعها على الناس[1] .

جـ - أخرج الطبراني في الكبير عن مالك الدار (هو مالك بن عياض مولى عمر ذكره الحافظ في الإصابة) .

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها في صرة فقال للغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ثم تلّه في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام إليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك .

فقال : وصله الله ورحمه ثم قال :

تعالي يا جارية ! اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان , وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره . فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضي الله عنه فقال :

اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل وتَلّه في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها إليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووصله ، تعالي يا جارية ! اذهبي إلى بيت فلان بكذا . اذهبي إلى بيت فلان بكذا . فاطعلت امرأة معاذ وقالت :

---

[1] راجع أسد الغابة وأبا نعيم في الحلية ومسند الإمام أحمد .

ونحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق في الخرقة إلى ديناران فدحى بهما (أي رمى) إليها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك فقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض .

د – أخرج ابن سعد عن أم درة قالت : أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهي يومئذ صائمة فقلت لها : أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟

فقالت : لو كنت أذكرتني لفعلت .

هـ – وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ρ إذا غزا . فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فنحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ρ فقال :

يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك ، والله إني أرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله ρ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد .

وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة فخرج مع رسول الله ρ فقتل يوم أحد شهيداً[1] .

و – تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال :

يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه إلا أخته ببنانه[2] .

ز – وأخرج ابن سعد عن جعفر بن عبد الله بن مسلم الهمداني رضي الله عنه قال :

---

[1] أخرجه ابن إسحاق .

[2] أخرجه الشيخان والترمذي .

لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنيفي رضي الله عنه رمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب في غير مقتل فأخر السهم ووهن شقه الأيسر – لما كان فيــه . وهذا أول النهار وجرّ إلى الرحل ، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم وأبــو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي رضي الله عنه يصيح بالأنصار :

الله ! الله ! والكرة على عدوكم واعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار :

أخلصونا ! أخلصونا فأخلصوا رجلاً رجلاً يميزون . قال عبد الله بن عمر رضــي الله عنه فنهض أبو عقيل يريد قومه ، فقلت ما تريد يا أبا عقيل ! ما فيك قتال ؟

قال : قد نوه المنادي باسمي . قال ابن عمر فقلت إنمــا يقــول يالالأنــصار لا يعنــي الجرحى .

قال أبو عقيل : أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبواً . قال ابن عمر فتحزم أبــو عقيل وأخذ السيف بيده مجرداً ثم جعل ينادي يالالأنصار كرة كيوم حنين . فاجتمعوا – رحمهم الله – جميعاً يقدمون المسلمين دربة (أي جرأة وشجاعة وقفة) دون عدوهم حتــى اقتحمــوا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بينهم . قال ابن عمر : فنظرت إلى أبي عقيل وقــد قطعت يده المروحة من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلهــا قد خلصت إلى مقتل ، وقتل عدو الله مسيلمة ، قال ابن عمر :

فوقعت على أبي عقيل وهو صريع آخر رمق فقلت :

يا أبا عقيل :

فقال : لبيك – بلسان ملتاث – لمن الدبرة ؟ قال قلت : أبشر ، ورفعت صوتي قد قتــل عدو الله فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله . قال ابن عمر : فأخبرت عمــر رضي الله عنه بعد أن قدمت خبره كله فقال : رحمه الله ما زال يسأل الشهادة ويطلبهــا ، وإن كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا ρ وقديم إسلام .

ح – وفي يوم اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل :

" قاتلت رسول الله ρ في مواطن ، وأفر منكم اليوم ثم نادى من يبايع على الموت ؟

فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور رضي الله عنهم في أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد رضي الله عنه حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتل منهم خلق . منهم ؛ صرار بن الأزور ، وأتى خالد رضي الله عنه بعدما أصبحوا بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول : كملا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد " .

ط – وروى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : " إني لفي الصف الأول يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمين ويساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرني جهل ، فقلت :

يا ابن أخي ما تصنع به ؟

قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه .

فقال لي الآخر : سراً من صاحبه مثله .

قال : فما سرني أنني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء " .

*   *   *

فهل وجد جيل في العالم مثل هذا الجيل ، بلغ في التضحية في سبيل الله وابتغاء رضوانه وطمعاً في جنته وخوفاً من ناره كما بلغ هذا الجيل العظيم الذي رباه رسول الله ρ .

ولعل في الأمثلة التالية من صبر الصحابة وتحملهم الأذى وثبـــاتهم علـــى دعـــوة الله حرصاً على السعادة الأبدية ، ما يجعلك على اليقين الذي ما بعده يقين ، إن تربية الرســـول ρ كانت أعظم تربية ربانية في تاريخ الإنسان . هدفها رضوان الله دون مطمح آخر :

أ – أرى خباب بن الأرث عمر بن الخطاب ظهره وفيه آثار تعذيب المشركين له فقال عمر : ما رأيت كاليوم . قال خباب : أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري " أي دهنه[1] .

ب – وقال أبو ذر :

" قلت : يا رسول الله ، إني أريد أن أظهر ديني . فقال رسول الله : أخاف عليـــك أن تقتل ، قلت لا بد منه وإن قتلت .

قال : فسكت عني فجئت وقريش حلقاً يتحدثون في المسجد فقلت : أشهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فانتفضت الحلق فقاموا فضربوني حتى تركوني كأني نصب أحمر ، وكانوا يرون أنهم قد قتلوني ، فأفقت فجئت إلى رسول الله ρ فرأى ما بي من الحال فقال لـــي : ألـــم أنهـــك ؟ ! فقلت : يا رسول الله كانت حاجة في نفسي قضيتها "[2] .

جـــ – عن أبي رافع قال :

" وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً إلى الروم وفيهم رجل يقال له عبـــد الله بن حذافة من أصحاب النبي ρ فأسره الروم ، فذهبوا به إلى ملكهم فقالوا لـــه : إن هـــذا مـــن أصحاب محمد ρ فقال له الطاغية :

هل لك أن تتنصر وأشركك في ملكي وسلطاني ؟

---

[1] أخرجه أبو نعيم في الحلية .

[2] أخرجه أبو نعيم في الحلية والحاكم .

فقال له عبد الله : لو أعطيتني ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ρ طرفة عين ما فعلت .

قال : إذاً أقتلك .

قال : أنت وذاك فأمر به فصلب .

وقال للرماة : ارموه قريباً من يديه قريباً من رجليه ، وهو يعرض عليه وهو يـــأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ، ثم دعا بأسيرين من المـــسلمين فأمر بأحدهما فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقى فيها فلما ذهب به بكى فقيل له : إنه قد بكى فظن أنه جزع فقال :

ردوه ،. فعرض عليه النصرانية فأبى .

فقال : ما أبكاك إذن ؟

فقال : أبكاني أني قلت في نفسي تلقى الساعة في هذا القدر فتذهب ، فكنت أشـــتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى في الله .

فقال الطاغية : هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك ؟

قال له عبد الله : وعن جميع أسارى المسلمين ؟

قال : وعن جميع أسارى المسلمين .

قال عبد الله :فقلت في نفسي عدو من أعداء الله أقبل رأسه يخلي عني وعن أســـارى المسلمين لا أبالي ، فدنا منه فقبل رأسه ، فدفع إليه الأسارى ، فقدم بهم على عمر رضـــي الله عنه فأخبر بخبره فقال عمر :

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ فقام عمر فقبل رأسه "[1]
.

د – وعن عثمان رضي الله عنه قال :

بينما أنا أمشي مع رسول الله ρ بالبطحاء إذا بعمار وأبيه وأمه يعذبون في الشمس ليرتدوا عن الإسلام فقال أبو عمار : يا رسول الله الدهر هكذا ؟ فقال : صبراً يا آل ياسر . اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ، وفي رواية : " صبراً يا آل ياسر صبراً فإن موعدكم الجنة "[2] .

هـ – وعن أبي الأسود قال :

... وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول ارجع إلى الكفر فيقول الزبير : لا أكفر أبداً[3] .

ترى أيمكن أن يكون هذا التفاني في طلب رضوان الله إلا ثمرة من ثمار نبي ؟

أو يمكن أن يستطيع كذاب على الله أن يجعل أصحابه في هذه الدرجة من الرغبة في نيل رضوان الله ؟ إن من المعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه ، إن الرجل الذي يكذب على الله لا يؤمن به ولا يؤمن باليوم الآخر الذي أعده ، فلا يستطيع أن ينقل الناس إلى هذه الحال من الإيمان ، لولا أنه أعلى في هذا الموضوع منهم بكثير . فلقد نقل الرسول ρ الناس إلى حال الرهبة من الله بشكل لا نرى مثله إلا عند نبي .

فأعطاهم اليوم الآخر حساً رقيقاً مرهفاً . إذا وقع أحدهم في المعصية جاد بنفسه من أجل التخلص من آثارها ، وترفعوا عن الشهوات والدنايا واحتقروا مظاهر الحياة الفانية ، حتى إن أحدهم أصبح ولا تساوي الدنيا عنده شيئاً يذكر ، فأصبحت الفيلة لهم عادة ، والأمانة

---

[1] أخرجه البيهقي وابن عساكر أخرج لهذه القصة شاهداً من حديث ابن عباس موصولاً .

[2] أخرج الحاكم وابن عساكر والإمام أحمد .

[3] أخرج أبو نعيم والحاكم والطبراني ورجاله ثقات .

عندهم محترمة ، وكلمتهم عهداً . وكل ذلك حرصاً على رضوان الله وطلباً لجنته وخوفاً من ناره .

أ – روى الإمام مسلم :

" أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ρ فقال : يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فردّه . فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله : إني زنيت فردّه الثانية . فأرسل رسول الله ρ إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفيّ العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأله عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال : فجاءت الغامدية فقالت :

يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني .

وإنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لمَ تردّني ؟ لعلك أن تردّني كما رددت ماعزاً . فوالله إني لحبلى . قال :

أما لا فاذهبي حتى تلدي ، قال : فلما ولدته أتته بالصبي في خرقة قالت : هذا قد ولدته .

قال : فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبي الله سبه إياها فقال :

مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ لغفر له .. ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت " .

ب – حدث الطبري قال :

" لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض ، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به .

فعرفوا أن للرجل شأناً فقالوا : من أنت فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني . ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأله عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس " .

ج – أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير وأظهر اليواقيت واللآليء الثمينة العظيمة ، وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب .

ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له :

ضع سلاحكَ ،

فقال : إني لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت .

فقال رستم : آذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها .

فقالوا : ما جاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1] .

---

[1] أخرجه ابن كثير في البداية ج 7 ص 38 .

د – " همّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ρ وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال رسول الله ρ : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء . كنت أذكر الله .

فضحك النبي ρ ثم قال : استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وكان فضالة يقول :

والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه .

قال فضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت هلم إلى الحديث فقلت :

يأبى الله عليك والإسلام "[1] .

هـ – عن أبي موسى قال :

انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين وقد قال عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك فقال جعفر : لا نسجد إلا لله .

* * *

إنه بمحمد رسول الله ρ أصبح الضمير يقظاً على اليوم الآخر . لا يغفل عنه ، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها . اليوم الآخر الذي دعا إليه كل المرسلين وغفل عنه كل الناس وهو أهم قضايا الإنسان لأنها قضية مصيره ويجعلها الإنسان أبسط قضاياه لغلبة الحس بالدنيا عليه حتى إذا مات الإنسان وانكشف له صدق الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص .

---

[1] راجع الإصابة لابن حجر والشفاء للقاضي .

وإحياء الإنسان بهذه الحقيقة وإحياء هذه الحقيقة في قلب الإنسان هي الثمرة الثانية من ثمرات رسول الله ρ وإنها لثمرة نبوة لا ثمرة كذابين مدعين ، ولا يستطيع العقل أن يتصور إلا هذا .

* * *

ثالثاً – إنسانية واحدة كريمة :

وجاء محمد رسول الله ρ ونظرة الناس بعضهم إلى بعض ما يلي :

أ – في الهند :

لم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة ، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة ، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي ، بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، أو بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها . وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي . وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه في البلاد ، وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ " منوشاستر" .

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات متمايزة وهي :

1 – البراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين .

2 – شترى : رجال الحرب .

3 – ويش : رجال الزراعة والتجارة .

4 – شودر : رجال الخدمة .

ويقول " منو " مؤلف هذا القانون :

" إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه . وشترى من سواعده . وويش من أفخاذه . والشودر من أرجله ، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلـــى البراهمة تعليم ويد ، أو تقديم النذور للآلهة ، وتعاطي الصدقات . وعلـــى الـــشترى حراســـة الناس ، والتصدق وتقديم النذور ودراسة ويد ، والعزوف عن الشهوات , على ويـــش رعـــي السائمة ، والقيام بخدمتها ،وتلاوة ويد والتجارة والزراعة . ولـــيس لـــشودر إلا خدمـــة هـــذه الطبقات الثلاثة .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً فقد قال : إن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وإن ما في العالم هو ملك لهم ، فـــإنهم أفـــضل الخلائـــق ، وســـادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شـــاؤوا ، لأن العبـــد لا يملك شيئاً ، وكل ماله لسيده ، وإن البرهمي الذي يحفظ رك ويد " الكتاب المقدس " هو رجـــل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله ، ولا يجوز للملك حتى فـــي أشـــد ســـاعات الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية ، أو يأخذ منهم إتاوة ، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً ، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل .

أما الشتري فإنهم وإن كانوا فوق الطبقتين " ويش وشـــودر " ولكـــنهم دون البراهمـــة بكثير . يقول " منو " : إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشتري الذي نـــاهز مائة كما يفوق الوالد ولده .

أما شودر " المنبوذون " فكانوا في المجتمع الهندي – بنص هذا القانون المدني الـــديني – أحط من البهائم ، وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن من سعادة " شرودر " أن يقومـــوا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك ، وليس لهم أن يقتنوا مالاً ، أو يدخروا كنـــزاً ، فإن ذلك يؤذي البراهمة ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش بـــه ، فطعت يده ، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله ، وإذا هم أحد مـــن المنبـــوذين أن يجـــالس برهمياً فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد ، وأما إذا مسه بيده أو سبه فيقطع لـــسانه ،

وإذا ادعى أن يعلمه سقي زيتاً فائراً ، وكفارة قتل الكلاب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء " .

2 – في فارس :

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً يدعون أنه يجري في عروقهم ، فكانوا يكفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ولا يجري اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق .

كما يعتقدون أن طبقة البيوتات الروحية والأشراف فوق العامة في طينتهم ، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم ، ويعطونهم سلطة لا حدّ لها ، ويخضعون له خضوعاً كاملاً يقول " آرتهرسين " :

" كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار الحرف والنسب ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية ، أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه . ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع .

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية . يظهر لك جلياً في مجالس الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ، ويجلسون مزجر الكلب .

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفارسية ، ويرون أن لها فضلاً علـى سـائر الأجنـاس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً ، وكانوا ينظرون إلـى الأمـم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية[1] .

3 – هذان مثلان يبينان لنا حال العالم في قضية الإنسان حين البعثة وليس همـا كـل شيء ، فاليونان والرومان كل واحدة منهما كانت ترى غيرها برابرة ، وهي وحـدها نمـوذج الإنسان العالي ، وكنت ترى هذا الشعور بالأفضلية حتى على مستوى القبيلـة ، حتـى علـى مستوى الأسرة ، ولم يكن يخطر ببال قضية الإنسانية الواحدة ..

4 – وما لنا نذهب بعيداً فحتى الآن نرى :

أن هتلر يعتبر الشعب الجرماني أعظم شعوب الدنيا ، وله حق سيادة العالم .

والشعب الأمريكي لا يزال في الغالب يعامل السود معاملة احتقار وازدراء وامتهان ، ولا يعترف لأسود بحق لدرجة أن سينما البيض لا يدخلها سود . ومطعم البيض لا يدخله سود ، ومدرسة البيض لا يدخلها سود .

وفي جنوبي إفريقيا الأسود أحقر عند البيض من الكلب .

بل أكثر من هذا بقيت الكنيسة النصرانية فترة طويلة في إفريقيا لا تـرى أن الرجـل الأسود أهل لأن يكون قسيساً ، وعند الشيوعيين تظهر الطبقية بـشكل آخـر : رأسـمالية – بورجوازية – بروليتاريا .

* * *

هذا بشكل عام ، فإذا ما نظرنا إلى المسألة من زاوية أخـرى ، زاويـة أن الإنـسانية رجل وامرأة ، وكل منهما إنسان ، فإنك تجد ولا تزال مثل هذه الصور :

---

[1] راجع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

في القرن السادس الميلادي كانت بعض المجامع الكنسية تبحث : هل المرأة إنسان أو حيوان ؟

وكان العرب يئدون بناتهم حتى قال صعصعة بن ناجية :

جاء الإسلام وقد فديت ثلاث مائة موءودة .

وكان الهنود إذا مات الرجل حرموا على زوجته أن تتزوج وأهانوها ، حتى أصبحت عادة عندهم أن تحرق المرأة نفسها إذا مات زوجها لتتخلص مما يصيبها بعد موته ، وقد يحدث عندهم أن يخسر الرجل زوجته في القمار ، وفي كل مكان ليس للمرأة شخصيتها الحقوقية المستقلة .

وحتى الآن تجد أن القانون الفرنسي لا يسمح للمرأة أن تتصرف بأموالها إلا بإذن زوجها ، والقانون الإنجليزي لا يسمح لها بتغيير اسمها إلا بإذن زوجها ، أما هو فحر ..

وإذا نظرنا إلى الإنسانية من وجه آخر . وجه الأحرار والعبيد . فإننا نجد صوراً من البشاعة في معاملة الرقيق لا تتصور ، الرقيق ليس له حق حياة ولا كرامة ولا يوجد أصلاً بإنسانية .

* * *

هذا كله كان وبعض منه كما رأينا لا يزال :

فماذا فعل محمد رسول الله ρ بأمر من الله ووحي ؟ :

لقد أعلن محمد رسول الله ρ وحقق عملياً إنسانية الإنسان ، ووحدة الإنسانية ، وكرامة الإنسان ، الرجل إنسان ، والمرأة إنسان ، والعبد إنسان ، والناس كلهم سواء في هذه الإنسانية ، فلا شعب أعلى من شعب ، ولا جنس أعظم من جنس .

وفي ذلك يقول صاحب كتاب " هذا الدين " فيه :

" من العصبية القبلية بل عصبية العشيرة بل عصبية البيت ، التي كانت تسود الجزيرة ، ومن عصبية البلد ، عصبية الوطن ، وعصبية اللون ، وعصبية الجنس ، التي كانت تسود وجه الأرض كله ...

ومن هذه العصبيات الصغيرة التي لم تكن البشرية تتصور غيرها في ذلك الزمان ، جاء الإسلام ليقول للناس :

إن هناك إنسانية واحدة ، ترجع إلى أصل واحد ، وتتجه إلى إله واحد . وأن اختلاف الأجناس والألوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف العشائر والآباء .. كل أولئك لم يكن ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينعزلوا ، ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا ، وتتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض ، ويرجعوا بعد ذلك إلى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها .

وقال لهم الله سبحانه في القرآن :

{يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوۤاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} الحجرات : 13 .

{يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَٱلأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً} النساء : 1 .

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ولكنها كانت أوضاعاً عملية .

لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة ، تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان .. وذابت كلها في النظام الإسلامي . ولم تقف وراثة لون , ولا وراثة جنس ، ولا وراثة طبقة ، ولا وراثة بيت ، دون أن يعيش الجميع إخواناً ، ودون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية ، وما تكفله له صفة الإنسان .

واستقر هذا الخط العريض في الأرض ، بعد أن كان غريباً فيها أشد الغرابة ، ومستنكراً فيها كل الاستنكار – وحتى بعد انحسار المد الإسلامي – لم تستطع البشرية أن تتنكر له كل التنكر ، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب .

حقيقة : إنها لم تستطع أن تتمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة ، ولم يستقر فيها استقراره في المجتمع الإسلامي .

وحقيقة : إن عصبيات شتى صغيرة ما تزال تعيش ، عصبيات الأرض والوطن وعصبيات الجنس والقوم وعصبيات اللون واللسان .

وحقيقة : إن الملونين في أمريكا وجنوب إفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة ، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة في أوروبا كلها .

ولكن فكرة الإنسانية الواحدة ما تزال خطاً عريضاً في هتافات البشرية اليوم ، وما يزال هذا الخط الذي خطه الإسلام هو أصل التفكير البشري – من الناحية النظرية – وما تزال تلك العصبيات الصغيرة تبزغ وتختفي ، لأنها ليست أصلية ولا قويمة .

وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقْفٌ على طبقات معينة ، وعلى بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة . أما الغثاء – غثاء الجماهير – فهو غثاء لا وزن له ولا كرامة ! غثاء !!!

وقال الإسلام كلمته المدوية : إن كرامة الإنسان مستمدة من إنسانيته ذاتها ، لا من أي عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة أو الثروة أو المنصب إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة ... والحقوق الأصيلة للإنسان ، مستمدة إذن من تلك الإنسانية التي ترجع إلى أصل واحد كما أسلفنا .

وقال لهم الله في القرآن الكريم :

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} الإسراء : 70 .

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرْضِ خَلِيفَةً} البقرة : 30 .

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ} البقرة : 34 .

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} الجاثية : 13 .

وعلم الناس منذئذ :

أن الإنسان – بنوعه ، كريم على الله . وأن كرامته ذاتية أصيلة . لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا قومه ولا عشيرته ، ولا بيته . ولا عرضاً من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة .

إنما تتبع كونه إنساناً من هذا النوع الذي أفاض عليه ربه الكريم . ولم تكن هذه المبادئ نظرية ، إنما كانت واقعاً عملياً ، تمثل في حياة الجماعة المسلمة ، وانساحت به في أرجاء الأرض ، فعلمته للناس ، وأقرته في أوضاع حياتهم كذلك ، وعلمت جمهور الناس ... ذلك الغثاء .. أنه كريم ، وأن له حقوقاً ، هي حقوق الإنسان ، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة . وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس – وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد ممن ليس بحاكم أو أمير .

وكان هذا ميلاداً جديداً " للإنسان " ميلاداً أعظم من الميلاد الحسي ..

فأي إنسانية لإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان ، وكرامة الإنسان , وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته ، وبحقيقته التي لا تتخلف عنه في حال من الأحوال ؟

بدأ أبو بكر رضي الله عنه عهده بقوله :

" لقد وُليت عليكم ولست بخيركم : فإن أحسنت فـأعينوني . وإن أسـأت فقومـوني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم " .

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يعلِّم الناس حقوقهم تجاه الأمراء :

" يا أيها الناس . إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا مـن أموالكم . ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم . فمن فعل به شيء من ذلك فليرفعه إلي . فوالذي نفس عمر بيده ، لأقصنه منه .. فوثب عمرو بن العاص فقال :

" يا أمير المؤمنين ، أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته . إنك لتقتص منه ؟ " .

قال عمر : " أي والذي نفس عمر بيده لأقصنه منه . وكيف لا أقص منه وقد رأيـت رسول الله ρ يقص من نفسه . ألا لا تضربوا الناس فتذلوهم ولا تجمـروهم فتفتنـوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم " .

وكتب عثمان رضي الله عنه كتاباً إلى جميع الأمصار قال فيه :

" إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم قد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف ؛ والنهـي عن المنكر ، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته . وليس لي ولا لعمـالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم . وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً يـشتمون ويـضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان مني أو من عمالي ، أو تصدقوا ، إن الله يجزي المتصدقين " .

والمهم – كما أسلفنا – أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية أو مجرد كلمات تقال .

فقد طبقت تطبيقاً واقعياً ، وسرت في أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعـدة للأوضـاع العملية .

" وحادثة ابن القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليها ، فسبقه فضربه ابن عمرو ، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقصه منه في موسم الحج وعلى ملأ من الناس ... حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر .. ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحرري الذي أطلقه الإسلام في ضمائر الناس وفي حياتهم .

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح ، وحديث عهد بالفتح الإسلامي . وهذا البقطي لم يزل على دينه فرداً من جماهير البلد المفتوحة . وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم ، وأول أمير عليه من قبل الإسلام .. وحكام هذا الإقليم قِبل الفتح الإسلامي هم الرومان :

أصحاب السياط التي تجلد ظهور شعوب المستعمرات ، ولعل ذلك القبطي كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان .

ولكنّ المدّ التحرري الذي أطلقه الإسلام في أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطي سياط الرومان وذلها ، وأطلقه إنساناً حراً كريماً ، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما في سباق . وهذه أخرى ، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر إلى المدينة لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطاراً ، ولكن جملاً ، يخب به ويضع الأشهر الطوال كل ذلك ليشكو للخليفة .

الخليفة الذي حرره يوم الفتح تحت راية الإسلام ، والذي علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان .

وهكذا ينبغي أن نفهم ، وأن ندرك عمق المد الإسلامي التحرري . فليست المسألة فقط أنّ عمر عادل ، وأن عدله لا تتطاول إليه الأعناق في جميع الأزمان .

ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر المستمد من الإسلام ، ومنهجه ونظامه ، انطلق في الأرض تياراً جارفاً ومحرراً مكرماً للإنسان ... بصفته " الإنسان " .

هذا المستوى الرفيع ، لم ترتفع إليه الإنسانية قط ... هذا صحيح ولكن هذا الخط العريض الذي خطه الإسلام ، في كرامة الإنسان وحريته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه ، قد ترك في حياة البشر آثاراً لا شك فيها . وبعض هذه الآثار هو الذي يدفع بالبشرية اليوم إلى إعلان " حقوق الإنسان " .

وحقيقة إن هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعي في حياة البشرية .

وحقيقة إن " الإنسان " ما يزال يلقى المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان في شتى أنحاء الأرض .

وحقيقة إن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان دون مقام الآلة ، وتقتل حرية الإنسان وكرامته وخصائصه العليا في سبيل الإنتاج ومضاعفة الدخل ، والتفوق في الأسواق .

كل هذا صحيح .

ولكن هذا الخط ما يزال قائماً في مدارك البشرية وتصوراتها ولم يعد غريباً عليها كما كان يوم جاءها الإسلام " .

* * *

وهذه نماذج من توجيهات السيد الرسول ρ في هذا الباب نذكرها كأمثلة على هديه في بناء جوانب إنسانية الإنسان .

أ – عن حذيفة : " كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان "[1] .

ب – وعن عائشة رضي الله عنها " أن فتاة قالت – يعني للنبي ρ – إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة ، فأرسل النبي ρ إلى أبيها فجعل الأمر إليها فقالت

[1] أخرجه البزار وحسنه السيوطي .

: يا رسول الله إن أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء مـن الأمـر شيء "[1] .

ج – عن معاوية بن سويد بن مقرن قال :

لطمت مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبي فدعاه ودعاني ثم قـال للخادم : امتثل منه فعفا ثم قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله ρ ليس لنا خادم إلا واحدة فطلمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ρ فقال : " اعتقوها فقيل له ليس لهم خـادم غيرهـا فقـال فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها "[2] .

د – وعن المعرور بن سويد قال :

رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسـول الله ρ يقول : " هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممـا يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه "[3] .

هـ – وكان عمر رضي الله عنه يقول : " أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالاً"[4] .

وسنرى إن شاء الله في الرسالة الثالثة " الإسلام " هذه المعاني بالتفصيل .

* * *

هذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله ρ وهي ثمرة ما كانت لتكون لولا أنـه رسـول الله .

---

[1] أخرجه أحمد .

[2] أخرجه مسلم .

[3] أخرجه البخاري ومسلم .

[4] أخرجه البخاري .

إن بيئة الجزيرة العربية ما كانت لتتبع منها فكرة وحدة الإنسانية وكرامتها ، بل ما كانت لتخرج إنساناً له رسالة للبشرية عامة . فكل المقدمات ما كانت لتوحي بنتيجة من هذا النوع .

يقول العقاد :

ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادي بني الإنسان جميعاً إلى دين واحد وإله واحد وحق واحد :

{يأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوۤاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الحجرات : 13 .

{وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ} سبأ : 28 .

{وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} الأنبياء : 107 .

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذي أُنزل إليه فيقول في تفسير هذه الآيات :

" لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى " ولو لم يكن من سعة المسافات بين المقدمات ، وهذه النتيجة غير هذا الذي أجملناه لكان فيه الكفاية . لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتي النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات ، وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم فإن الرسول ρ الذي نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم ، لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسباً ونسباً من أبويه الشريفين . بل كان من شرف الأبوة في الذؤابة التي يعترف بها الكافرون ، وهذا الرسول هو الذي يتعلم منه الناس أنهم إذا صلحوا واستقاموا {فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ} (مطلع النور) .

* * *

رابعاً – المسؤولية الفردية :

" ذهبت طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة مستنجدة : إن والـديها يهددانها بالطرد ، ولما سألها عن السبب أجابت : لأنها ستضع مولوداً وقالت : إنهـا لا تعلـم اسم أو شخصية والده ، لأنه كان يرتدي قناعاً حيث إنها ارتكبت الفاحشة في أيام الكرنفـال أو الناشنج ، وهذه الحادثة ليست إلا قصة صغيرة تقع أمثالها عشارت الألوف كل سنة في بـلاد الإباحية التي أحيت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطـور والتحـرر . فكانـت أعيـاد الكرنفال أو الناشنج التي تستمر ثلاثة أيام وفيها تباح كل الأعراض والحرمات ، بل إنـه مـن المخالف لآداب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة أو تسهر زوجة بجانـب زوجهـا . وأيام الإباحة الثلاثة تبدأ رسمياً في الدقيقة 11 من الساعة 11 من اليوم 11 من الشهر 11 من كل سنة مع تفاوت بسيط في مواعيدها بين مدينة وأخرى ، وفي أثناء هذه المهرجانـات بهـذه المناسبة تتعرى النساء من كل شيء تقريباً وهن يختلطن بالرجـال حيـث تجـري الـدعارة الجماعية وبدون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التي يرافقها ، وبدون أن تعرفه هي أيـضاً ، لأن الجميع يحرصون على ارتداء الأقنعة ، وفلسفة الألمان في هذه الأعياد هي أن مـن حـق البشر أن يخطئوا ، لأنهم إذا لم يخطئوا فسيرتفعون إلى مستوى الآلهة ، وهذا غير معقول وأن خطاياهم ستغفر لهم حتماً لأن المسيح قد دفع الثمن وصلب من أجلهم ، وهـم يـرددون هـذه الفلسفة في صحفهم ومجالسهم وفي كل مكان "[1] .

هذه ثمرة من ثمرات الفكرة النصرانية التي تقول : إن الإنسان خاطئ منـذ ولادتـه ، لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة ، وأن المسيح عليه السلام – صلب – حسب زعمهم حتى يكفر عن البشر خطاياهم فهو قد تحمل خطايا البشر .

وهذه الفكرة معناها أن الإنسان مسؤول عن أعمال غيره ، وغيره مسؤول عن أعماله ، وبين هذا وهذا تضيع المسؤولية الفردية التي يحس بها الإنسان أنه مسؤول عن أعماله فقـط . صغيرها وكبيرها ، وليس مسؤولاً عن عمل غيره بتاتاً .

ويترتب على الفكرة الأولى ناحيتان خطيرتان :

---

[1] مجلة حضارة الإسلام .

الأولى : أن الإنسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته الخطيئة وهـذا يؤثر تأثيراً سيئاً في نظرته لنفسه من حيث إنه كما ورث الخطيئة ولم يخطئ ، فسيعتمد علـى غيره في حمل خطاياه عنه .

الثانيـة : أنه ما دام غيره مسؤولاً عن ذنوبه ، فإنه لن يبالي بهذه الذنوب وعندئذ تملأ الخطيئة الأرض ، وادرس ما يحدث في كنائس أمريكا وبريطانيا وغيرهما بالذات تجد مقـدار اللامبالاة في الخطيئة .

وهذا أكثر الأديان اتباعاً الآن في العالم .

* * *

وتوجد عند البراهمة والبوذيين والجينيين – وهي ديانات لها أتباعها الكثر في العالم – عقيدة شبيهة من حيث سلب مسؤولية الإنسان الفردية بالديانة النصرانية .

هذه العقيدة هي عقدية تناسخ الأرواح ، وخلاصة هذه العقيدة أن الروح بعدما تفـارق جسداً في هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر في هذه الدنيا نفسها ، ولا يكون هذا الجسد الثـاني أو القالب الثاني بكلمة أصح إلا متفقاً مع الحياة التي قد أعدها الإنسان لنفـسه بأعمالـه وأفكـاره وميوله وعواطفه في حياته الأولى .

فإن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حـدثت فيـه مـؤهلات واستعدادات سيئة ، فإن روحه ستنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانـات أو النباتـات ، وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها قد حـدثت فيـه مـؤهلات واستعدادات صالحة ، فإن روحه سترتقي إلى طبقة من الطبقات العليا " .

هذه العقيدة مقتضاها أنني أنا الإنسان الحالي . إنسان بهذا الوضع نتيجة لسلوك غيري ، وحصيلة لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلي ، وهذه المخلوقات السابقة علي ، هي أنا وأنا بأعمالي الحاضرة سأكون بالتالي نباتاً أو حيواناً أو إنساناً .

فماذا ينتج عن هذه العقيدة ؟

1 – " سينتج عن هذه العقيدة شعور لدى الإنسان بأن الحيوان والنبات والإنسان سواء في ميزان الوجود ، إذ الحيوان كان إنساناً والنبات كان حيواناً . ويترتب على هذا ألا يجوز إيذاء النبات والحيوان والإنسان ، حتى ولو آذاني الإنسان ، وعندئذ فإن أمة مثل هذه العقيدة ليست صالحة ولذلك فإن أهلها يعيشون مشتتين بين واقعهم الذي يعملون ، وعقيدتهم التي يعتقدون .

2 – كما ينتج عن هذه العقيدة رهبانية مميتة عملياً ، إذ إن أهل هذه العقيدة يعتقدون أن الشهوة هي أصل كل فساد في الأرض وهي التي تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة ، فالإنسان إذا أودى بها ، وقضى عليها ، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها ، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ ويقولون :

ليست هناك سبل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه ، لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشؤونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها . والنتيجة اللازمة لذلك – يقولون – إن من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا ، ولا يسكن إلا في الغابات ، ورؤوس الجبال وكهوفها ، وإن لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ ، ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات .

3 – ولما كانت الفكرة الأولى والثانية غير عمليتين ؟

فالناس نتيجة لذلك إما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة التناسخ بزعمهم فتفنى البشرية كلها لو سلكت هذا الطريق .

وإما إنسان لن يمشي في هذا الطريق وهو بالتالي لا يبالي لأنه ليس مسؤولاً عن حاضره ولا يهمه مستقبله "[1] .

* * *

[1] الحضارة الإسلامية : أسسها ومبادؤها للمودودي .

ويظهر انعدام المسؤولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى ؛ كلها غير معقول :

تظهر بصورة أخذ الثأر من أي قريب للقاتل ، وتظهر بصورة الإيمان بأن الإنسان غير مسؤول أمام أحد عند الملحدين الفوضويين ، وتظهر بصورة أن الإنسان مسؤول أمام القانون فقط فإذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء .

* * *

وهناك صورة أخرى تنعدم فيها المسؤولية موجودة عند اليهود .

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، الذي غفر له كل شيء ، فمهما فعلوه من جرائم أو مآس ، أو مفاسد ، أو مظالم ، فإن خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجاة من عذاب الله إلا بشكل بسيط جداً جداً .

هذه صور من فرار الإنسان من المسؤولية كانت يوم بعث محمد رسول الله ρ ولا زالت وهي كلها صور غير معقولة ، وآثارها خطيرة على الإنسان ، والحياة الإنسانية كلها ، من حيث انعدام مسؤولية الإنسان أو قصورها ، مما يؤدي إلى انحراف فظيع في السلوك .

فماذا فعل محمد ρ بأمر الله ووحيه ؟ :

لقد كان الإعلان الذي أعلنه الإسلام هو أن الإنسان لا يتحمل إلا مسؤولية أعماله وحده ، فلا يتحمل مسؤولية ذنب جد ولا مسؤولية ذنب أخ وعم ، إلا إذا كان له علاقة في الموضوع ، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق ، وإنما الإنسان مسؤول عن أعماله وحده صغيرها وكبيرها أمام الله في الآخرة . وأما شريعة الله في الدنيا فقال القرآن . {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} .

وقال الرسول ρ : " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " .

وخاطب القرآن الناس

{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} النساء : 123 .

فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة . حتى قال قائل المسلمين : " كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام " وأصبح الذي يقدم الإنسان أو يؤخره هو عمل الإنسان حتى قال رسول الله ρ : " يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله ρ لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد ρ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً " رواه البخاري ومسلم .

وبذلك استقام سلوك الإنسان ، وتحرر ضمير الإنسان من التواكل على الآخرين ، وبذلك لم يعد الإنسان غير مبال في أمر الخطيئة ، وبذلك استقلت شخصية الإنسان استقلالاً تاماً ، وبذلك أصبح الخير مرجواً من الإنسان ، وبذلك قضي على الخرافة ، وقامت الحقيقة محلها .

هذه الثمرة العظيمة من ثمار دعوة محمد ρ تدل على أن محمدا رسول الله ، لأنها ثمرة ما كانت لتكون لولا الوحي ، وقد صاغ العقاد هذا الموضوع صياغة عالية نأخذ من فقراتها ما يلي :

" وللديانة الإنسانية مناط واحد ، هو ضمير كل فرد من أفرادها . فما لم يكن لهذا الضمير حساب ، وعليه تبعة ، فلا ديانة لإنسان ، ولا لجملة الناس وفكرة التبعية الفردية والمسؤولية الفردية بسيطة ، سهلة الفهم ، تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم ، في كل بيئة اجتماعية ، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها ، وسهولة فهمها ، وتجدد الحاجة إلى تطبيقها ، لما خلا المجتمع الإنساني قط من مبدأ المسؤولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان بالاجتماع .

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت ، وظلت مهملة من عهد البداوة إلى عهود الحضارة الأولى ، لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد ، إذ كان الفرد من القبيلة يعتدي على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدي أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه . فإن لم تسلمه تضامنت في الدفاع عنه ، ووقعت الحرب بين القبيلتين ، أو

تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدي لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر إلى الأبناء والأعقاب .

فمضى نظام القبيلة على مسؤولية القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير في الجماعات التي تقوم على المحافظة ، وعلى رعاية المأثورات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة التي كانت تسمى أم الشرائع . جعلت الأب مسؤولاً عن الأسرة ، وأباحت له التصرف في أرواحها وأموالها ، وقد ناظرتها في الشرق شريعة حمورابي فجعلت من حق الرجل الذي تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنساناً مستقلاً بحياته .

وكانت في الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسؤولية الفردية ، ولكنها ترجع إلى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التي لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال ، فهون مولود بجرائره وآثامه ، وكفارة تلك الجرائم والآثام إلى الأجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده . بل هي سابقة للميلاد لاحقة به آماداً بعد آماد " .

(كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده بل يسأل عنها كل ولد من ذريته) .

أما الدعوة الإسلامية فالمسؤولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات .

ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسؤولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ، ويعوقها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات .

قامت بها في أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ، ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى} النجم : 39 أن جيلاً لا يؤخذ بجريرة أسلافه ، ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته .

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} البقرة : 141 و {كُلُّ ٱمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهَينٌ} الطور : 21 .

" فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده ، مبتدئاً بغير سابقة ، بل مبتدئاً على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات . ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأي على حواشي العقيدة ، ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل التاريخ . إذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب " .

خامساً – العدل :

ثمرة خامسة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تشهد أنه رسول الله ، ولولا ذلك ما كانت ، هي العدل الذي ما عرف تاريخ العالم له مثيلاً . وسنختار حوادث من حياة رسول الله ρ والصحابة الذين رباهم . نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد ρ وبهديه إلى آفاق هي أعلى ما يطمح إليه الطامحون على مدى الأزمان والأجيال . ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعاً حياً متمثلاً بهذا الجيل الفريد ، وكيف أن القرآن يرفع الإنسان إلى أعلى آفاق الإنسانية وما خالفه يدنيه نحو حضيض الحيوانية .

* * *

{يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءِ للَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} النساء : 135 .

{يَا أَيُّهَآ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة : 8 .

{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ} النساء : 58 .

* * *

1 – أخرج انب ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي ρ يتقاضاه ديناً كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أحرج عليك إلا قضيتني فانتهره أصحابه فقالوا

: ويحك تدري من تكلم ؟ قال : إن أطلب حقي . فقال النبي ρ : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فاقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فاقترضه فقضى الأعرابي وأطعمه فقال : أوفيت أوفى الله لك فقال :

" أولئك خيار الناس إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع " .

أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه . والحديث رواه البزار عن عائشة مختصراً والطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد جيد .

2 – وأخرج البخاري عن عروة أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ρ في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد رضي الله عنه يستشفعونه . قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ρ وقال :

أتكلمني في حد من حدود الله ؟

فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله .

فلما كان العشي قام رسول الله ρ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

" أما بعد فإنما أهلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيه الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " .

ثم أمر رسول الله ρ بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت . قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ρ .

3 – أخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص " أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام يوم جمعة فقال :

إذا كان بالغداة فأحضروا صدقات الإبل نقسم ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن فقالت امرأة لزوجها :

خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملاً ، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر قد دخلا إلـــى الإبل فدخل معهما فالتفت أبو بكر فقال :

ما أدخلك علينا ؟

ثم أخذ منه الخطام فضربه ، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعـــا الرجــل فأعطـــاه الخطام وقال : استقد (أي اقتص مني كما ضربتك فاضربني) فقال له عمر : والله لا يـــستقيد لا تجعلها سنة قال أبو بكر فمن لي من الله يوم القيامة فقال عمر : أرضه . فـــأمر أبـــو بكـــر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة (أي كساء له خمل) وخمسة دنانير فأرضاه بها " .

4 – كان الرسول ρ قد وكل بتقدير حصة المسلمين في خيبر عبد الله بن رواحة وكان أهلها يهوداً وفي ذلك يروي البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه حديثاً منه :

كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يأتيهم كل عام فيخرصها (أن يخمنها) علـــيهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ρ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال :

يا أعداء الله تطعموني السحت (أي الحرام) والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلـــي ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض " .

5 – أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي قال : " كان بين عُمَرَ وبين أبي كعب – رضي الله عنهما – شيء فقال عمر :

اجعل بيني وبينك رجلاً فجعل بينهما زيد بن ثابت رضي الله عنه فأتياه فقال عمر :

أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم . فلما دخلا عليه وسع له زيـــد عـــن صـــدر فراشه فقال ها هنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هذا أول جور جرت في حكمـــك ولكـــن

اجلس مع خصمي فجلسا بني يديه فادعى أبي وأنكر عمر فقال زيد لأبي : اعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء " .

6 – وأخرج ابن سعد وابن راهويه عن عطاء قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فإذا اجتمعوا قال : " يا أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم فمن فعل به غير ذلك فليقم " فما قام أحد إلا رجل قام فقال :

يا أمير المؤمنين إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط قال : فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه فقام عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا لا أقيد ؟ وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا لنرضيه .

قال : دونكم فأرضوه فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين .

7 – وأخرج ابن عساكر قال :

كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمي رضي الله عنهما :

" أما بعد فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم على بركة الله فاغز في سبيل الله " فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضي الله عنهما فأذن به فزاحمه فتى من قريش فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي فدخل القرشي على عمر مستدمى فقال له عمر من فعل بك ؟

قال : فيروز وهو على الباب .

فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال :

ما هذا يا فيروز ؟

قال : يا أمير المؤمنين إنا كنا حديثي عهد بملك ، إنك كتبت إلي ولـــم تكتــب إليـــه ، وأذنت لي بالدخول ولم تأذن إليه فأراد أن يدخل في إذني قبلي فكان من ما قد أخبرك .

قال عمر : القصاص .

قال فيروز : لا بد ؟

قال : لا بد .

فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه فقال له عمر رضي الله عنه : علـــى رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ρ : سمعت رسول الله ρ ذات غداة وهو يقول : قتل الليلة الأسود العنسي الكذاب قتله العبد الصالح فيـــروز الـــديلمي ، أفَتَـــراك مقتصاً منه بعد أن سمعت هذا من رسول الله ρ قال الفتى : قد عفوت عنه بعـــد أن أخبرتنـــي عن رسول الله ρ بهذا فقال فيروز لعمر : أفَتَرى هذا مخرجي مما صنعت إقراري له وعفـــوه غير مستكره ؟ قال : نعم قال فيروز : فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفاً من مالي هبة له . "

8 – وأخرج الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بـــن الخطـــاب فـــي السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال : أمط عن الطريف لما كان في العام المقبل لقيني فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ست مائة درهم وقال : استعن بها على حج واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين : ما ذكرتها .

" قال : ما نسيتها " .

9 – أخرج المحب الطبري في مناقب العشرة قال :

كان لعثمان بعبد فقال له : إني كنت عركت أذنك فاقتص مني فأخذ بأذنـــه ثـــم قـــال عثمان : أشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة .

10 – وأخرج ابن عساكرعن علي بن ربيعة قال : " جاء جعدة بن هبيرة إلـــى علـــي رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه أو قـــال :

من أهله وماله والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك فتقضي لهذا على هذا قال : فلهزه علي رضي الله عنه وقال : إن هذا لشيء لو كان لي فعلت ولكن إنما ذا شيء لله " .

11 – وأخرج الترمذي والحاكم عن الشعبي قال : خرج علي بن أبـــي طالـــب إلـــى السوق فإذا هو بنصراني يبيع أدرعاً فعرف علي رضي الله عنه الدرع فقال : هذه درعي بيني وبينك قاضي المسلمين ، وكان قاضي المسلمين شريحاً ، كان علـــي استقـــضاه ، فلمـــا رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس قضائه وأجلس علياً في مجلسه وجلس شريح قدامه إلـــى جنب النصراني فقال علي :

اقض بيني وبينه يا شريح فقال شريح :

ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال علي : هذه درعي وقعت مني منذ زمان فقال شـــريح : ما تقول يا نصراني ؟

فقال النصراني : ما أكذب أمير المؤمنين الدرع درعي .

فقال شريح : ما أرى أن تخرج من يده فهل من بينة ؟

فقال علي : صدق شريح .

فقال النصراني : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء . أمير المـــؤمنين يجـــيء إلـــى قاضيه وقاضيه يقضيه عليَّ ، هي والله يا أمير المؤمنين درعك ، اتبعتك وقد زالت عن جملك الأورق فأخذتها فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقال علي :

أما إذا أسلمت فهي لك وحمله على فرس .

12 – وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحارث بن سويد قال : كان المقداد بن الأسود رضي الله عنه في سرية فحصروا فعزم الأمير أن لا يجشر أحد دابته (أي لا يخرجها للمرعى) فجشر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل يقول : ما رأيت كما لقيت اليوم قط فمر المقداد فقال : ما شأنك . فذكر له قصده فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال : أقد من نفسك فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول : (لأموتن والإسلام عزيز) .

* * *

إن هذا العدل الذي رأينا بعض نماذجه فيما مضى ، إنما كان وليد دعوة السيد الرسول ρ وإلا فإن العرب قبل كان شعارهم " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " وإن الإنسان ليعجب كيف تمثل أصحاب رسول الله ρ هذا العدل بهذه السرعة ، وبهذا العمق ، بحيث أنهم غلبوا أمماً ، وسيطروا عليها . فساسوها سياسة عادلة لا مثيل لها ، مما أدى بهذه الشعوب أن تدخل في الإسلام أفواجاً بمجرد أن رأوا معاملة هؤلاء الفاتحين الذين لا يغلبون . العادلين الذين لا يجورون .

وعلى الرغم من تضاؤل جيل الصحابة بالنسبة لرقعة الأرض المفتوحة ، فإن قوة الحياة التي صبتها تربية الرسول ρ في قلوب الأصحاب ، كانت كافية لأن تجعل الأمور تمشي في طريقها المستقيم .

وحتى بعد ذلك ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن قضاة الإسلام المتحققين بالإسلام علماً وعملاً . هم الذين يضربون أبداً المثل الأعلى في العدل الرباني العظيم ، الذي يتضاءل بجانبه كل قضاء .

وأنقل هنا مثلين لقاض من قضاة الدولة العباسية . وهو شريك بن عبد الله قاضي الكوفة في زمن الخليفة المهدي . لنرى فيها نزاهة القضاء الإسلامي وعدله :

1 – " قال عمر بن الهياج : كنت من صحابة شريك ، فأتيته يوماً وهو في منزله باكراً فخرج إليَّ بفرو ليس تحته قميص عليه كساء ، فقلت له : ألا تقوم إلى مجلس الحكم ؟

قال : غسلت ثيابي أمس فلم تجف فأنا أنتظر جفوفها اجلس . فجلست فجعلنا نتذاكر باب (العبد يتزوج بغير إذن مواليه) فقال : ما تحفظ فيه ؟ ما تقول فيه ؟

وكانت الخيرزان قد وجهت رجلاً في الطراز إلى الكوفة وجاء الوالي عيسى بن موسى الأمر بألا يتعرض له ، فكان هذا الرجل حر التصرف لا يعصى له أمر ، ولا سلطان للأمير عليه .

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضي إلى النخع ، ومعه جماعة من أصحابه . عليه جبة خز وطيلسان على برذون فاره ، وإذا رجل بين يديه مكتوف فلما مر ببيت القاضي صاح الرجل :

واغوثاه أنا بالله ثم بالقاضي ، ففتح شريك الباب وخرج ، فدعا به فإذا ظهره مكشوف وآثار الضرب فيه . فأقعده إلى جنبه وقال له : ما شأنك ؟ قال : أنا رجل أطرز وأعمل الوشي ، هذه صناعتي ، وكراء مثلي مئة في الشهر . وأخذني هذا منذ أربعة أشهر قسراً ، وحبسني وألزمني بالعمل بالقوة ، ولا يعطيني أجراً ولي عيال قد ضاعوا ، فهربت منه فلحقني فضربني وكتفني . فقال شريك للوكيل : قم فاجلس مع خصمك .

قال : أصلحك الله يا عبد الله هذا من خدم السيدة ، وهذا أمرها فاحبسه حتى يشتغل لها . قال : ويلك قم فاجلس معه كما يقال لك ، فقام فجلس معه . قال :

ما هذه الآثار التي تظهر بظهر هذا الرجل ؟ من أثرها به ؟ قال : أصلح الله القاضي إنما ضربته أسواطاً بيدي وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة . احبسه حتى يشتغل ، هذا أمر السيدة .

فألقى شريك رداءه وقام فدخل داره ، وأخرج سوطاً وضرب بيده إلى مجامع ثوب الوكيل وقال للرجل :

اذهب إلى أهلك وجعل يضرب الوكيل . فهم أعواني أن يخلصوه فقال : من ها هنا من شباب الحي ؟ فجاءه جماعة فقال :

من وقف من هؤلاء فاذهبوا به إلى الحبس . فهربوا جميعاً وتركوه ، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه . فتركه فانصرف وهو يهدد بانتقام السيدة . فألقى السوط من يده . وعاد إلى ما كنا فيه من المذاكرة كأنه لم يصنع شيئاً وقال لي :

يا أبا حفص ما تقول في العبد يتزوج بغير إذن مواليه ؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه . ولم يكن معه من يمسك له الركاب فجعل يضرب البرذون فصاح به شريك :

ارفق به ويلك ، فإنه أطول لله منك ، فمضى ماشياً . فقال لي شريك : خذ فيما كنت فيه قلت : مالنا ولهذا الآن ؟ قد فعلت والله فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة : من ضرب وكيل الخيرزان فكأنه ضربها . ومن ضربها فكأنما ضرب الخليفة . قال : أعز أمر الله يعزك . خذ فيما كنا عليه . فعدنا نتذاكر في مسألة العبد يتزوج بغير إذن مواليه . وذهب الوكيل إلى موسى بن عيسى أمير الكوفة فدخل عليه شاكياً باكياً . وكشف عن ظهره فارتاع الوالي وغضب وقال :

من فعل بك ذلك ؟

قال : شريك .

قال : لا والله ما أتعرض لشريك ، قال : سأشكوك إلى السيدة .

قال : لا أتعرض لشريك .

فمضى الوكيل ولم يعد " .

2 – كان موسى أمير الكوفة من كبار أمراء البيت العباسي . وكان له سلطان الإمارة وسلطان النسب . وكان مع ذلك كله يتجنب أن يكون بينه وبين القاضي خلاف . ويبتعد عن طريقه ولا يعارضه في شيء . ولم ينج مع هذا كله من الخلاف . ولم يختلفا لأن الأمير

عرض له في قضائه بين الناس . ولا لأنه دخل مؤيداً لمدع أو مدعى عليه ، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الأمير نفسه ، وسبب الدعوى " أن الأمير أراد أن يوسع داره . وكان إلى جنبها بستان نخل لأخوة ورثوه من أبيهم . وكانوا خمسة إخوة وأختاً واحدة . فاشترى منهم جميعاً إلا الأخت . فإنها أبت أن تبيع فزادها في الثمن وضاعفه لها أضعافاً . وهي تصر على الإباء . فغاظه أن يفسد عليه أمره حمق هذه المرأة . وأراد أن يضطرها إلى البيع وكان بينها وبين حصص إخواتها التي باعوها سياج . فبعث غلمانه ليلاً فأزالوه .

وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل إخوتها ولم تعد تعرف أرضها من الأرض التي باعوها للأمير . فأقبلت تبكي وتلطم . ولا تدري ماذا تفعل . وذهبت تكلم الأمير فلم يسمع منها وقال لها :

خذي ثمن الأرض أضعافاً .

فقال : لا أبيعها وانطلقت تتوسل إليه بوجوه البلد ، فما وجدت منهم مسعفاً ولا معيناً فقال لها واحد من جيرانها :

أنا أدلك على من يخلص لك حقك . فاستبشرت وابتهجت وقالت : من هو ؟ قال : القاضي . اذهبي إليه فنادي أنا بالله ثم بالقاضي ، وقصي عليه قصتك .

فذهبت تسأل الناس : أين قصر القاضي فيضحكون منها ويقولون لها : ومتى كان للقاضي قصر ؟ اطلبيه في المسجد أو في داره . ودلوها على داره فرأت داراً صغيرة من اللبن والطين . ما على بابها حرس ، وليس حولها جند . فقالت في نفسها أين هذا من قصر الأمير وهمت بالرجوع ، ثم أحبت أن تجرب فقرعت الباب تسأله عنه ، فقالت له امرأته هو في مجلس الحكم في المسجد . فدخلت إلى المسجد تسأل عنه فدلوها عليه . فصاحت أنا بالله ثم بالقاضي . قال : من ظلمك ؟

قالت : الأمير موسى بن عيسى .

قال : فيم وما دعواك ؟ فحكت له قصتها ، فأعطاها ورقة بعد أن ختمها وقال لها : امض بها إلى بابه حتى يحضر معك .

فلما أرادت الدخول على الأمير صاح بها الحاجب : مكانك يا امرأة ماذا تريدين ؟

قالت : الأمير .

فأراد إرجاعها فقالت :

إن معي هذه ، قال : وما هذه يا امرأة ، قالت : بطاقة القاضي للأمير فوثب وقال : تقولين إنها بطاقة القاضي هاتيها لأراها ، فلما رآها قال ويحك وَلِمَ لم تقولي من أول الأمر إن معك بطاقة القاضي ؟ ادخلي . فلما قرأها الأمير أمر بدعوة صاحب الشرطة فلما جاءه قال :

امض إلى شريك فقل له يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك . امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علي ، فحاول صاحب الشرطة أن يعتذر عن هذه المهمة ، فأصر الأمير فأرسل صاحب الشرطة من يأخذ له أغراضه إلى السجن ولما أوصل الرسالة أمر به شريك إلى السجن لأنه يتدخل في شأن القضاء ، فأرسل الأمير الحاجب فسجنه شريك أيضاً ، فأرسل إليه الأمير وجوه الكوفة للوساطة فسجنهم جميعاً . فجاء الأمير ليلاً ففتح باب السجن وأخرجهم جميعاً ، ولما بلغ من الغد الأمر إلى شريك قال لغلامه :

الحقني بثقلي إلى بغداد ، والله ما طلبنا هذا منهم ، ولكن أكرهونا عليه وقد ضمنوا لنا الإعزاز فيه إذا تقلدناه لهم ، وركب دابته ومضى نحو قنطرة الكوفة في طريقه إلى بغداد ، وأخبر الناس الأمير فلحقه وجعل يمشي معه ويقول له :

يا أبا عبد الله تثبت أنظر ، دع أعواني ، أفتحبس إخوانك ؟ إخوانك تحبسهم ؟ قال : نعم ، لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه ، ولست براجع حتى يردوا جميعاً إلى الحبس ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدني ، فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف مكانه ، حتى جاءه السجان فقال : قد رجعوا إلى الحبس . فقال القاضي لغلامه : خذ بلجامه فقده إلى مجلس الحكم ، ونودي على المرأة فجاءت فأجلسها معه ، فقال الأمير : أنا قد حضرت أفلا تطلق من حبستهم ، قال : أما الآن فنعم ، وأمر بإخراجهم من السجن وقال للأمير :

ما تقول يا رجل فيما تدعيه هذه المرأة ؟

قال : صدقت .

قال : أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها ؟

قال : نعم .

قال للمرأة : بقي لك شيء تدعينه ؟

قالت : نعم . بيت حارس البستان ومتاعه .

قال : ما تقول ؟

قال : أرد ذلك كله .

قال : بقي لك شيء .

قالت : لا وجزاك الله خيراً .

قال : قومي . ووثب فأخذ بيد موسى وأجلسه في مجلسه وقال له : السلام أيها الأمير أتأمر بشيء ؟ فضحك وقال : بأي شيء آمر ، قال : ذاك حق الشرع وهذا حق الأدب "[1] .

* * *

عدل لا مثيل له ، ذلك ثمرة من ثمار محمد ρ تدلُّ على أنها ثمرة نبي ، إذ ليس لهـــا مصدر سواه تنسب إليه في أمة لم تهذبها ثقافة سابقة ، ولا تجربة قضائية مستمرة ، ولا رقابة اجتماعية معترف عليها .

---

[1] من رسالة عن القاضي شريك لعلي الطنطاوي .

* * *

سادساً – الطاعة المبصرة :

وثمرة سادسة من ثمار سيدنا محمد رسول الله ρ تشهد أنها ثمرة نبي ونبوة ، هي الطاعة لمبصرة ، وذلك أن العرب شعب لم يترب على طاعة أحد ، ولم يترب على نظام ولا انضباط ، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما ، أو الخضوع لها ، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف ، طاعة عمياء لملوكهم ومرؤوسيهم في كل شيء . إذا أمروا بالشيء كان خيراً ، وإذا نهوا عنه نفسه كان شراً ، لا يقال لهم لا ، ولا يحاسبون ولا يراقبون .

وحدث ذلك الحدث الضخم ، أن الأمة التي لا تعرف النظام أصبحت منظمة ، والتي لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة ، ولكنها طاعة من نوع جديد فريد ، طاعة بالحق لا بالباطل ، بالعدل لا بالظلم ، لمن يستحق الطاعة لا لمن لا يستحقها ، فكان ذلك فتحاً جديداً في تاريخ الوعي عند الشعوب ، لدرجة أن العربي الذي كان يتعصب لقريبه وينصره وإن كان على الباطل ولا يطيع فيه أحداً أبداً ، صار على ابن عمه إذا كان على الباطل ، ويطيع فيه أبعد الناس نسباً عنه في الحق . والذي كان أبعد الناس عن الانضباط ، صار أكثر الناس انضباطاً ، ومن قرأ تاريخ العرب في الجاهلية ، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد . وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول ρ إياهم .

أ – روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله ρ عبد الله بن عبد الله ابن أبي أبي قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبي أنت وأمي ؟ يقول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل . أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني ، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به . فقال رسول الله ρ : لا ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ρ والله لا يؤيك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله فقال : ياللخزرج ، ابني يمنعني بيتي ! فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه . فاجتمع إليه رجال فكلمه فقال : والله لا

يدخله إلا بإذن من الله ورسوله ، فأتوا النبي ρ فأخبروه فقال : اذهبوا إليه فقولوا لــه : خلــه وسكنه ، فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي ρ فنعم .

ب – ومن كلام لسعد بن معاذ يوم بدر يخاطب به رسول الله ρ :

" إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فأظعن حيث شئت ، وصل حبل مــن شــئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله فئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك "[1] .

جـ – ويروي كعب بن مالك قصته مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبــوك فيقــول فيها :

" ونهى رسول الله ρ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين مَن تخلف عنه قــال : فاجتنبنــا الناس أو قال : تغيروا لنا حتى تنكرت لي نفس الأرض فما هي الأرض التي أعرف إلــى أن قال : حتى إذا طال علي من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبــي قتــادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت له : يا أبا قتــادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقــال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار " .

ويقول : " بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الــشام ممــن قــدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : " ما يدلني على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتــى جاءني ، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها "[2] . حتى نزلت توبته وكان ما كان .

[1] سيرة ابن هشام .

[2] أخرجهالبخاري .

د – وللعرب ولع بالخمر تتحدث عن معاقرتها والاجتماع علـــى شـــربها الـــشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثرت أسماؤها وصـــفاتها فـــي لغـــتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب ، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائمـــاً يرفرف عليها علم يسمى غاية . وشاعت تجارتها عندهم حتى أصبحت كلمة التجارة مرادفـــة لكلمة بيع الخمر ، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر ينزل حتى انتهت أمر الخمر من أرض العرب . روى أبو بريدة عن أبيه قال :

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة ، إذ قمت حتى آتي رســـول الله فأسلم عليه وقد نـــزل تحـــريم الخمـــر {يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلأَنصَابُ وَٱلأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ} .. إلى قوله : {فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ} فجئـــت إلـــى أصـــحابي فقرأتها عليهم إلى قوله : {فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ} .. قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صـــبوا فـــي بـــاطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا انتهينا .

هـــ – ولقد تأصل فقه الطاعة في المعروف عند العرب وغيرهم من المسلمين حتـــى وصل إلى عجائز الناس .

" أخرج مالك عن ابن أبي مليكة قال : إن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – مـــر بامرأة مجذومة وهي تطوف بالبيت فقال لها : يا أمة الله لاتؤذي الناس لو جلست في بيتـــك . فجلست . فمر بها رجل بعد ذلك فقال : إن الذي كان نهاك قد مات فارجعي . قالت : ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً " .

و – وتأصل فقه الطاعة بالمعروف في أنفسهم ظاهراً وباطناً في الغيبة والحضور في المنشط والمكره :

لما عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد غضب ناس . وممن غـــضب علقمـــة بـــن علاثة وهو من أمراء العرب فانظر ماذا كان جوابه في هذه الحادثة اللطيفة :

" لقي عمر – رضي الله عنه – علقمة بن علاثة جوف الليلة وكان عمر يشبه بخالـــد بن الوليد – رضي الله عنه – . فقال علقمة : يا خالد عزلك هذا الرجل ، لقد أبى إلا شـــحّاً ،

لقد جئت إليه وابن عم لي نسأله شيئاً ، فأما إذا فعل فلن أسأله شيئاً . فقال له عمر : هيه فما عندك ! فقال : هم قوم لهم علينا حق فنؤدي لهم حقهم وأجرنا على الله . فلما أصبحوا قال عمر لخالد : ماذا قال لك علقمة منذ الليلة ؟ قال : والله ما قال لي شيئاً قال : وتحلف أيضاً فجعل علقمة يقول لخالد : مه يا خالد فقال عمر كلاهما قد صدق وأجاز علقمة وقضى له حاجته "[1] .

ز – ولكن طاعتهم طاعة ضمن حدود المعروف أما أن تكون على غير ذلك فلا :

أخرج الشيخان عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : استعمل النبي ρ رجلاً من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا قال : فأغضبوه في شيء فقال : اجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال : أوقِدوا ناراً فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ρ أن تسمعوا لي وتطيعوا ؟ قالوا : بلى قال : فادخلوها . قال فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ρ من النار . قال : فسكن غضبه وطفئت النار فلما قدموا على النبي ρ ذكروا ذلك له فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف " .

وكان الصحابة يتذاكرون هذا الأصل ويتواصون به حتى لا ينحرفوا بانحراف سلطان أو حكم :

لما ولى زياد الحكم بن عمر الغفاري خراسان أرسل عمران بن الحصين رضي الله عنهما يطلبه حتى إذا لقيه قال : أسمعت رسول الله ρ يقول : لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالى ؟ قال : نعم . فقال عمران : الحمد لله أو الله أكبر .

جـ – وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : بعث رسول الله ρ خالد بن الوليد على سرية ومعه في السرية عمار بن ياسر – رضي الله عنهما – قال : فخرجوا حتى أتوا قريباً من القوم الذين يريدون أن يصبحوهم نزلوا في بعض الليل قال :

---

[1] أخرج يعقوب بن سفيان بإسناد صحيح إلى الحسن .

وجاء القوم النذير فهربوا حيث بلغوا ، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيتــه فــأمر أهله فتحمّلوا وقال : قفوا حتى آتيكم ، ثم جاء حتى دخل على عمار – رضي الله عنه – قال :

يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وأهل بيتي فهل ذلك نافعي إن انا أقسمت . فإن قومي قــد هربوا حيث سمعوا بكم ، قال فقال له عمار : فأقم فأنت آمن .

فانصرف الرجل هو وأهله ، قال : فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا فأخــذ الرجــل وأهله فقال له عمار : إنه لا سبيل لك على الرجل قد أسلم .

قال : ما أنت وذاك ؟ أتجير عليّ وأنا الأمير ؟ ؟

قال : نعم أجير عليك وأنت الأمير . إن الرجل قد آمن ولو شاء لــذهب كمــا ذهــب أصحابه ، فأمرته بالمقام لإسلامه . فتنازعا في ذلك حتى تشاتما فلما قدما المدينة اجتمعا عنــد رسول الله ρ فذكر عمار الرجل وما صنع فأجاز رسول الله ρ أمان عمار ونهــى يومئــذ أن يجير أحد على الأمير فتشاتما عند رسول الله ρ فقال خالد :

يا رسول الله ! أيشتمني هذا العبد عندك أما والله لولاك ما شتمني فقال نبي الله ρ :

كف يا خالد عن عمار فإنه من يبغض عماراً يبغضه الله عز وجل من يلعــن عمــاراً يلعنه الله عز وجل . ثم قام عمار واتبعه خالد بن الوليد حتى أخذ بثوبه فلم يزل يترضاه حتــى رضي عنه ونزلت هذه الآية :

{ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ } أمراء السرايا – {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ} . فيكون الله ورسوله هو الذي يحكم فيه .

{ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} (النساء : 59) . أي (خير عاقبة) .

* * *

والمسألة في هذا الموضوع كما يلي :

إن رسول الله ρ علم الإنسان أن الله وحده هو الذي يستحق الطاعة وحتى الرسول ρ إنما يطاع لله وغير رسول الله إنما يطاع بطاعة الله {مَّنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّـهَ} . {يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِـي ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ} أي من المسلمين ، أما غير المسلم فلا طاعة له ، والمسلم طاعته في حدود كتاب الله وسنة رسوله ρ لذلك ختمت الآية : {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ} وعلى هذا فمن أمر بمعصية الله فلا طاعة له ، وبهذا تماسكت شخصية الإنسان تماسكاً لا مثيل له ، فصار المسلم يقول لا ، إذا كان ينبغي أن تقال مهما كان وراءها ، لا يبالي إن كان الناس كلهم عليه في الباطل ، لا يساير الناس ولا يداريهم على حساب الحق . أما في الحق فهو أكثر الناس طاعة وانضباطاً إذ في هذه الحالة جعل رسول الله ρ بأمر الله طاعة الأمير الحق فرضاً ، وفي الباطل معصيته فريضة . قال أبو جعفر المنصور الخليفة لطاووس : ناولني الدواة . فرفض . قال : أخشى أن تكتب فيها معصية فأكون شريكك فيها . فما أبلغ هذا في ثمار النبوة وما أدله عليها .

* * *

سابعاً : أجيال خيرة جريئة بالحق :

وثمرة أخرى من ثمار محمد ρ تشهد أنه رسول الله :

ما هو الخير وما هو الشر ؟ وما هو المعروف وما هو المنكر ؟ وإذا عرفنا الخير والشر والمعروف والمنكر ، فما هي أجزاء هذا وهذا وأفراد هذا وهذا ؟ وإذا عرفنا الجميع فكيف نقتلع جذور الشر ونقضي عليه ، ونمكن للخير وندعمه ؟ وكيف نوجد بشراً ليس للشر في قلوبهم نصيب ، وقد نذروا للخير أنفسهم ، هممهم الأعلى إقامة بنيانه وإرساء حقائقه ؟ هذه قضايا يعجز عن كل واحد منها الكثير ، ولكنّ محمداً رسول الله ρ عرَّف الإنسان بالخير كله والشر كله وربى جيلاً يعشق الخير ، ويبغض الشر ويتفانى من أجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير المشرق المنير . فخرجت نماذج ما عرف العالم بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوى منها ، ولا أصلب في هذا الأمر .

* * *

اقرأ سيرة الرسول ρ واقرأ القرآن والسنة فإنك لا تجد خيراً إلا ذكــر ، ولا شــراً إلا ذكر ، ولا تجد شيئاً قال عنه رسول الله ρ إنه خير تستطيع أن تحكم عليه غيــر ذلــك إلا إذا جانبت العقل ولم تخضع لحجة ، ولا تجد شيئاً قال عنه رسول الله ρ إنه شر تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك ، إلا إذا كنت متبعاً للشهوات ميالاً مع الهوى {وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ} ومهما حاولت أن تجد شيئاً من الشر لم ينه عنه رســول الله ρ فإنك لا تجد ، ومهما حاولت أن تجد شيئاً من الخير لم يأمر به فإنك لا تجد ، والشيء المهــم بعد ذلك أن هذا الخير تمثل في مجتمع بشري لم يبق فيه للشر ظهور ، وكل ذلــك ببركــات رسول الله ρ وتربيته وسنضرب هنا أمثلة من حياة المسلمين يتبين فيها حربهم العنيفة للمنكــر وحرصهم على المعروف وأمرهم به .

أ – أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي فنيل عن معاوية بن أبي سفيان – رضــي الله عنهما – أنه صعد المنبر يوم الغمامة فقال عند خطبته :

إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه أحد ، فلمــا كان في الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالتــه فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال :

كلا .. إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا . .

فنزل معاوية – رضي الله عنه – فأرسل إلى الرجل فأدخله فقال القوم : هلك الرجــل ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس : إن هذا الرجــل أحيــاني أحياه الله ، سمعت رسول الله ρ يقول :

" سيكون بعدي أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القــردة " .

وإني تكلمت أول جمعة فلم يردّ علي أحد فخشيت أن أكون منهم ، ثــم تكلمــت فــي الجمعة الثانية فلم يرد أحد علي قلت في نفسي إني من القوم ، ثم تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فردّ علي فأحياني أحياه الله .

(قال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله ثقات) .

ب – أخرج مسلم عن الحسن البصري أن عائد بن عمرو – رضي الله عنه – دخـل على عبيد الله بن زياد فقال : أي بني .. إني سمعت رسول الله ρ يقول :

" إن شر الرعاء الحطمة " فإياك أن تكون منهم ، قال له : اجلس فإنما أنت من نخالـة أصحاب محمد ρ قال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم .

جـ – روى الخمسة إلا البخاري عن طارق بن شهاب " أن أول من بدأ بخطبة العيـد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة " وفـي روايـة الترمـذي " يـا مروان خالفت السنة " زاد أبو داود " أخرجت المنبر في يوم عيد ولم يكن يخرج فيه وبـدأت بالخطبة قبل الصلاة " قال : قد ترك ما هنالك . قال أبو سعيد الخدري – رضي الله عنـه – : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله ρ يقول :

" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " وليس عند النسائي إلا الأخير أي المسند .

د – وفي الإحياء عن الشافعي قال : حدثني محمد بن علي قال : إني لحاضر مجلـس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد قـال : أتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد قال الحـسن : يـا أميـر المؤمنين سل عنه ابن أبي ذؤيب . قال : فسأله فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب ؟ قـال : أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثيرو الأذى لهم . قال أبو جعفر : قد سمعتم . فقـال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد فاستشهده ، قال : أشهد عليه أنه يحكـم بغير الحق ، ويتبع هواه ، فقالوا : قد سمعت ما قال فيه ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الـصالح ظ قال : يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك فقال : ما تقول فيَّ ؟ فاستعفاه قال : أسـألك بـالله إلا أخبرتني قال : تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرني . قـال : أشـهد أنـك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاشٍ .

قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليـه ثم قال له : أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهـذا المكـان

منك ، قال : فقال ابن أبي ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية ، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم ، قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال : والله لولا أنك صادق لقتلتك . فقال ابن أبي ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك المهدي .

هـ – وصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالملك أيوب : يا أيوب ما حجتك عند الله إن قال لك : ألم أبَوّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور . قال : وهل جرى ذلك ؟قال : نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، قال : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي . قال : أنت ممن يقولون : { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ } فأمر الملك برفعها .

وسأل الشيخ تلميذه الباجي قال : يا سيدي أما خفته ؟ قال الشيخ : يا بني استحضرت هيبة الله فصار قدامي مثل القط .

و – وللنووي مواقف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ننقل بعضها :

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال أن كثيراً من بساتين الشام من أملاك الدولة فأمر الملك بالحوطة عليها أي بحجزها وتكليف واضعي اليد على شيء منها إثبات ملكيته وإبراز وثائقه فلجأوا إلى الشيخ النووي في دار الحديث فكتب إلى الملك هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين .. قال الله تعالى : {وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ} وقال تعالى : {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} وقال تعالى : {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ} المائدة : 2 .

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره ، ونصيحة عامة المسلمين ، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ρ أنه قال : " الدين النصيحة لله ، وكتابه ، وأئمة المسلمين وعامتهم " .

ومن نصيحة السلطان – وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته – أن تنهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام . فقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية ، والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم .

قال تعالى : {وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} (الحجر : 88) .

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ρ : " إنما تنصرون وترزَقون بضعفائكم " .

قال ρ : " مَن كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه " .

وقال ρ : " اللهم من ولي من أمر أُمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه " .

وقال ρ : " كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته " .

وقال ρ : " إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا " .

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ، أعز الله أنصاره ، فقد أقامه لنصرة الدين , والذب عن المسلمين ، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة ، في المدة اليسيرة ، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين . ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد ، وأمده بالإعانة واللطف والسعادة ، فلله الحمد على هذه النعم الظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين ، وزيادتها في خير وعافية آمين .

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين ، فقال تعالى : {لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} (إبراهيم : 7) .

وقد لحق المسلمون بسبب هذه الحوطة على أملاكهم ، أنواع من الضرر ، ولا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم إثبات ما لا يلزمهم ، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين . بل من في يده شيء فهو ملكه ، لا يحل الاعتراض عليه ، ولا يكلف بإثباته . وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصي نوابه به ، فهو أولى من عمل به .

والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة ، والإفراج عن جميعهم ، فأطلق أطلقك الله من كل مكروه ، فهم ضعفة ، ومنهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة ، والصالحون وبهم تنصر وتعان وترزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم ، فلهم حرمات من جهات ، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من شدائد لاشتد حزنه عليهم ، وأطلقهم في الحال ، ولم يؤخرهم ، ولكن لا تنهى إليه الأمور على وجهه ، فالله أغِث المسلمين يغثك الله ، وارفق بهم يرفق الله بك ، وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار ، وتلف غلاتهم فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء (أي أسناد تمليك) وقد نهبت كتبهم ، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ρ لمن رفق بأمته ، ويظهره على أعدائه . فقد قال الله تعالى : {إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... } . وتتوفر له من رعيته الدعوات ، وتظهر في مملكته البركات ، ويبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات . وفي الحديث عن رسول الله ρ أنه قال : " مَن سنَّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عَمِل إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سنّة سيئة فعليه وِزْرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة " .

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيامة ، ويحميه من السنن السيئة ، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه .

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وخشي إذ لان له أن يعيد معه في الشام سيرة العز بن عبد السلام في مصر ، فأجابه بالرد الشديد ، وأراد أن يعجل عليه بالعقوبة ، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه .

فقالوا له : إنه ليس للشيخ راتب ، وليس له منصب .

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفد ، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفع ، ذهب إليه بنفسه ، وقابله وكلمه كلاماً غليظاً . وأراد السلطان البطش به ، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه ، وأبطل الأمر بـ (الحوطة) وخلص الناس من شرها .

ثم جاءت قضية أخرى :

" أراد السلطان أن يجهز جيشاً ، ففرض على الناس ضريبة جديدة ، فعاذوا منه بالشيخ واجتمع إليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد وهم يمضون معه الكتاب ، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين الملك ، لما كان منه في (قضية الحوطة) . فلم يكتب إليه رأساً بل كتب إلى الأمير بدر الدين الخازن ليوصل كتابه إليه وكان بدر الدين نائب المملكة وأتابك الجيوش (أي القائد العام) وكان موصوفاً بكثرة الموة ومحبة العلماء والصلحاء وحسن السيرة .

قال تلميذه السخاوي : فلما كتبه وأرسل به ورقة إلى القاهر تتضمن وجوب العدل في الرعية . وإزالة المكوس عنهم ، ووضع العلماء والشيوخ خطوطهم معه .

فقرأ الأمير الكتاب ورفع الورقة إلى السلطان ، فاشتد غضبه ، واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد وهم يعارضونه وكان عليهم أن يؤيدوه وأنهم ينكرون عليه ، ولم يكونوا ينكرون على الكفار لما كانوا يحكمون البلاد ، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل ، ومثابرته عليه . وتوعد العلماء ، فتقاعسوا ، ولكن النووي لم يبال ، وكتب إليه في الجواب هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، من عبد الله يحيى النووي ينهي : إن خدام الشرع ، كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد ، وفهمنا من أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها ، فقال تعالى :

{وَإِذَ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} .

{لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَىٰ ٱلْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (التوبة : 91) .

وذكر في الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد ، وهذا أمر لم ندعه ولكن الجهاد فرض كفاية ، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع ، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم إليه ، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك .

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة ، في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين {وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ}[1] وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى ، واتباع آثار النبي ρ وملازمة أحكام الشرع وجميع ماكتبناه ، أولاً وثانياً ، هو النصيحة التي نعتقدها وندين لله بها ، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه ، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية ، وليس فيها ما يلام عليه ، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله ρ في الرفق بالرعية ، والشفقة عليهم وإكرامه لآثار النبي ρ . وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبناه ، وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد ، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ، وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام ؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله {إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ}[2] {وَأُفَوِّضُ أَمْرِيۤ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّـهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ}[3] وقد أمرنا رسول الله ρ أن نقول الحق حيثما كنا ، وأن لا نخاف في الله لومة لائم ، نحن نحب للسلطان معالي الأمور وأكمل الأحوال وما ينفعه في آخرته ودنياه ويكون سبباً في دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على مَرِّ الأيام يخلد في سنته الحسنة ويجد نفعه {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ

---

[1] غافر : 39 .
[2] غافر : 39 .
[3] غافر : 44 .

مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً} وأما ما ذكر في تمهيد سلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء ، فهو بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة ، وسارت في أقطار الأرض ولله الحمد . وثواب ذلك مدخر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خيْرٍ محضراً ، ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا النصيحة الواجبة علينا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " .

وبعد إذا لم يكن تمييز الخير من الشر والمعروف من المنكر وتبيان كل ، وتربية الناس على محبة الخير والمعروف ، وبغض الشر والمنكر ، إذا لم يكن هذا من ثمار النبوة فما هي ثمار النبوة ؟ .

لقد بين محمد رسول الله ρ للناس الخير والشر , ودل الناس على أن يفعلوا الخير وحده ، وعلى أن يحاربوا الشر أنى كان . فكانوا مثلاً علياً لا مثيل لها في ذلك ، استحقوا معها أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ}[1] .

نعم إنها ثمار النبوة ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، فلم تكن الجزيرة العربية مرشحة لشيء من هذا ولا غيرها لولا وحي الله .

* * *

ثامناً : دولة هداية لا جباية :

وثمرة ثامنة :

أخرج ابن سعد عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الله ما أدري خليفة أنا أم ملك ؟ فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم . قال قائل : يا أمير

---

[1] آل عمران : 110 .

المؤمنين إن بينهما فرقاً ؛ فإن الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر .

وقال عمر لسلمان : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين (أي أرض الدولة الإسلامية وإن كانت لذمة غير مسلم) درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حق ، فأنت ملك غير خليفة .

هذه هي الثمرة المقصودة ، أن رسول الله ρ قد شرع بأمر من الله للناس في شأن المال شريعة لا يمكن أن يوجد أعدل منها ، فلا يؤخذ من أحد مال إلا بعدل ، ولا يتملك إنسان ملكاً إلا بحق وعدل ، وقبل ذلك لم تكن في الأرض نظرية للتملك صالحة ولا عادلة ، ولا نظرية للجباية صالحة أو عادلة ، وكان شعار الحكومات قبل الإسلام : الجباية ، فأصبح شعار حكومة الإسلام : الهداية .

يقول الدكتور الفرد ج . ميكر عن الحكم الروماني في مصر :

" إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض احد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة ، أو تهذب نفوسهم ، أو إصلاح أمور أرزاقهم فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العواطف على الشعب المحكوم .

ويقول مؤلف إيران في عهد الساسانيين عن الوضع في إيران :

" كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة ، واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال .

إن ما قام به كسرى أنو شروان من إصلاح النظام المالي كان في مصلحة مالية المملكة أكثر منه في مصلحة الرعية . فلم تزل العامة يعيشون في الجهل والضنك كما كانوا في السابق .

كان الفلاحون في شقاء وبؤس عظـيم ، وكـانوا مـرتبطين بأراضـيهم ، وكـانوا يستخدمون مجاناً ، ويكلفون كل عمل . يقول المـؤرخ : أميـان مارسـيلينوس : إن هـؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الـرق الـدائم ، ولـم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أوجرة وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصـحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسادة "[1] .

* * *

أين هذا مما حدث ببركات رسول الله ρ مما نرى نماذجه هنا :

أ – أوصى عمر بن الخطاب وصية لمن يلي أمر المسلمين بعده منها :

" وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنها ردء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغـيظ العـدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم " . " وأوصيه بذمة الله وبذمة رسـوله ، أن يـوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم " .

ب – وأخرج ابن زنجويه عن رجل من ثقيف قال : استعملني علي بن أبي طالـب – رضي الله عنه – على عكبرا فقال لي وأهل الأرض عندي : " إن أهل السواد قوم خدع فـلا يخدعنك فاستوف ما عليهم " ثم قال لي : رح إلي فلما رجعت إليه قال لي : إنما قلت لك الذي قلت لأسمعهم ، لا تضربن رجلاً منهم بسوط في طلب درهم ، ولا تقمه قائمـاً ، ولا تأخـذن منهم شاة ، ولا بقرة إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو أتدري ما العفو ؟ الطاقة .

وفي رواية البيهقي " ولا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوةً شتاءً ولا صيفاً ولا دابة يعتملـون عليها ولا تقم رجلاً قائماً في طلب درهم قال :

قلت : يا أمير المؤمنين إذاً أرجع إليك كما ذهبت من عندك .

قال : وإن رجعت كما ذهبت ويحك إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو يعني الفضل .

---

[1] ماذا خسر العالم .

جـ – وأخرج أبو عبيد عن يزيد بن أبي مالك قال : كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا في عنبه فخرج عمر – رضي الله عنه – حتى لقي رجلاً من أصحابه يحمل ترساً عليه عنب فقال عمر : وأنت أيضاً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! أصابتنا مجاعة فانصرف عمر – رضي الله عنه – وأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه .

د – وأخرج الحاكم عن إبراهيم بنعطاء عن أبيه أن زياداً أون ابن زياد بعث عمران بن حصين – رضي الله عنه – ساعياً فجاء ولم يرجع معه درهم فقال له : أين المال ؟ قال : وللمال أرسلتني ؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله ρ ووضعناها في الموضع الذي كنا نضعها على عهد رسول الله ρ .

هـ – وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن محمد :

" أما بعد فإنك كتبت إلي تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال إن أخصبوا أو أجدبوا ، أو حيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ثم ائتنف (أي خذ) الحق فاعمل به ، بالغاً بي وبك ما بلغ وإن أحاط بمهج أنفسنا ، وإن لم ترفع إلي من جميع اليمن إلا حفنة من كتم فقد علم الله أني بها مسرور ، إذا كانت موافقة للحق والسلام " .

و – وأخرج ابن عساكر والواقدي عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي : – رضي الله عنهما – قال : لما قدمنا مع عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الجابية إذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم ، فسأل عنه فقال : هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف فوضع عنه عمر – رضي الله عنه – الجزية التي في رقبته وقال : كلفتموه الجزية حتى إذا ضعف تركتموه يستطعم ؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال " .

وفي رواية أبي عبيد وابن زنجويه والعقيلي عن عمر – رضي الله عنه – أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال : ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

ز – " وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أراد عمر – رضي الله عنه – أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب – رضي الله عنه – فيزيدها في المسجد فأبى العباس أن يعطيها إياه فقال عمر : لآخذنها قال : فاجعل بيني وبينك أُبي بن كعب – رضي الله عنه – قال : نعم . فأتيا أبيّاً فذكرا له فقال أُبي : أوحى الله إلى سليمان بن داود – عليهما الصلاة والسلام – أن يبني بيت المقدس وكانت أرضاً لرجل فاشترى منه الأرض فلما أعطاه الثمن قال : الذي أعطيتني خير أم الذي أخذت مني ؟ قال : بل الذي أخذت منك قال : فإني لا أجيز ثم اشتراها منه بشيء أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً فاشترط عليه سليمان – عليه الصلاة والسلام – أني أبتاعها منك على حكمك فلا تسألني أيهما خير ؟ قال فاشتراها منه بحكمه فاحتكم اثني عشر ألف قنطاراً ذهباً فتعاظم ذلك سليمان أن يعطيه ، فأوحى الله إليه : إن كنت تعطيه من شيء هو لك فأنت أعلم وإن كنت تعطيه من رزقنا فأعطه حتى يرضى ففعل . قال : وأنا أرى أن عباساً أحق بداره حتى يرضى قال العباس : فإذا قضيت لي فإني أجعلها صدقة للمسلمين .

وفي رواية : فقال أُبي لعمر : ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه . فقال له عمر : أرأيت قضاءك هذا في كتاب الله وجدته أم سنة من رسول الله ρ ؟ فقال أبي : بل سنة من رسول الله ρ فقال عمر : وما ذاك ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ρ يقول : إن سليمان بن داود ρ لما بنى بيت المقدس جعل كلما بنى حائطاً أصبح منهدماً فأوحى الله إليه أن لا تبني في حق رجل حتى ترضيه فتركه عمر فوسعها العباس رضي الله عنهما – بعد ذلك في المسجد .

وأخرج ابن جرير الطبري عن زياد بن جزء الزبيدي فقال : افتتحنا الإسكندرية في خلافة عمر – رضي الله عنه – فذكر الحديث وفيه : ثم وقفنا ببلهيب وأقمنا ننظر كتاب عمر حتى جاءنا فقرأه علينا عمرو – رضي الله عنه – وفيه :

" أما بعد فإنه جاءني كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلي من فيء يقسم ثم كأن لم يكن فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه

من الجزية ما يوضع على أهل دينه ، فأما من تفرق من سبيلهم بأرض العـــرب فبلـــغ مكـــة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردهم ، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفي له به .

قال : فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين قـــال : فقال : قد فعلت . قال : فجمعنا ما في أيدينا من السبايا واجتمعـــت النـــصارى فجعلنـــا نـــأتي بالرجل ممن في أيدينا ثم نخيره بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية قال : ثم نحوزه إلينا وإذا اختار النصارنية نخرت النـــصارى ثم حازوه إليهم ووضعنا عليهم الجزية وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً ، حتى كأنه رجل خـــرج منا إليهم قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بأبي مريم عبد الله بـــن عبد الرحمن قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بني زبيد قـــال : فوقفنـــاه فعرضـــنا عليـــه الإسلام والنصرانية وأبوه وأمه وإخوته في النصارى فاختار الإسلام فحزناه إلينا ووثب عليـــه أبوه وأمه يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفاً كما ترى فذكر الحديث .

* * *

إن نقل الدولة من دولة جباية ظالمة ، إلى دولة هداية كاملة ، مع مبادئ في التملك والحقوق في الملك لا مثيل لها في تاريخ العالم ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ρ فرسم طريق التملك العادل الذي ليس فيه ظلم ولا حيف ولا حرام ، والحقوق في هذا الملك للفقراء والمساكين والغارمين ... بحيث تقوم قضايا المال على العدل الذي لا باطل معه . ثمرة من ثمار النبوة ؟ إن محمداً رسول الله لا شك في ذلك ولا ريب .

* * *

تاسعاً وعاشراً : جهاد وحرية :

وقال تعالى : {لاَ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ} البقرة : 256 .

إذن هي الحرية الدينية لغير المسلمين في ظل دولة الإسلام .

فقد أعطى الإسلام الحرية للناس في عقائدهم إذا خضعوا لحكم الإسلام ما لم يكن وثنياً من جزيرة العرب ، فهذا لا حرية له ، وما عدا هذا فما عرف الناس مكاناً يأمنون فيه على دينهم غير أرض الإسلام . والدليل على ذلك واضح ، هو أنه حيث فتح المسلمون أرضاً فيها دين وجدت بقايا أهل هذا الدين موجودين ، ولو أن المسلمين كانوا يكرهون رعاياهم على اعتناق دينهم كما فعل غيرهم لما وجدت هذه الظاهرة . إنك لا تجد مثلاً مسلماً واحداً في أسبانيا مع أن المسلمين فيها كانوا ثلاثين مليوناً ، بينما تجد نصارى في بلاد الشام حتى الآن من بقايا النصارى الأولين ، وتجد يهوداً ، ولا يزال غير المسلمين هم الأكثرية في الهند مع أن المسلمين حكموها ثمان مائة سنة ، وهكذا تتكرر الظاهرة في كل مكان .

لقد حاول مرة السلطان سليم الأول أن يأخذ أولاد النصارى ويربيهم على الإسلام ، فوقف أمامه علماء المسلمين معارضين ، وأعلنوا أن هذا لا يجوز فعدل عن فكرته .

ومن قرأ معاهدات المسلمين مع غيرهم من أبناء الأرض المفتوحة ، وجد سعد صدر المسلمين وتسامحهم ، وعلم أن دعوة الإسلام لم تسلك طريقها في القلوب إلا عن طريق الإقناع والمعاملة الحسنة ، والإيمان بالقيم العظيمة الموجودة في هذا الدين ، واقرأ نص المعاهدة التي كتبت بين نصارى الشام وبين عمر تجد هذا المعنى واضحاً وهذا نص المعاهدة :

" بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أماناً لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبرها ، وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقض منها ولا من صلبانهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن إيلياء أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على إيلياء من الجزية ، ومن أحب إيلياء من الجزية ، ومن أحب من إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعتهم وصليبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء رجع إلى أرضه ، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله ρ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، شهد على ذلك من الصحابة – رضي الله عنهم – خالد بن الوليد – رضي الله عنه –

وعمرو بن العاص – رضي الله عنه – وعبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – " . ومن قرأ شهادة السكان غير المسلمين رأى مصداق ذلك .

يقول البطريرك (عيشو يايه) عام 656 هجرية :

" إن العرب الذين مكنه الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون " .

ويقول مكاريوس بطريك إنطاكية : " أدام الله بناء دولة الترك خالدة إلى الأبد . فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين ، أم ناصريين يهوداً أو سامرة " .

ويقول أرنولد : حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركي لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بها في ظل أي حكومة مسيحية .

ويقول : وحدث أن هرب اليهود الأسبانييو المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر .

ويقول ريتشارد سيبر من أبناء القرن السادس عشر : وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب ... سمحوا للمسيحيين جميعاً للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاؤوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثنتي عشرة عاماً قضيتها في أسبانيا أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب بل إننا في خطر على حياتنا وسلفنا "[1] .

* * *

[1] الدعوة إلى الإسلام لأرنولد .

وحتى الجزية التي هي من جانب رمز للخضوع لسلطان الإسلام ، هي من جانب آخر رمز على الحرية الدينية ، فالجزية من هذا الجانب تفرض على رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين ، في مقابل حمايتهم وعدم مشاركتهم في الحروب ، وفي ذلك منتهى العدل إذ القتال في الإسلام قتال عقدي فالمسلم الذي يقاتل إنما يقاتل بوحي من إسلامه وعقيدته ، وفي سبيل ربه ودينه . فلو أننا طالبنا رعايانا من غير المسلمين أن يقاتلوا معنا فكأننا في هذه الحالة نجبرهم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها ، وذلك منتهى الظلم ، وخاصة إذا كان القتال ضد أبناء دينهم أنفسهم . فالجزية إذن من هذا الجانب لصالح هؤلاء الرعايا ، وجزء متمم لحريتهم ، بدليل أنه حدث في التاريخ الإسلامي أن ناساً من غير المسلمين شاركوا في جيوش المسلمين فأسقط عنهم المسلمون الجزية .

* * *

وحتى العقوبة الصارمة التي فرضها الإسلام على المرتدين عن الإسلام وهي القتل ، هذه العقوبة لصالح الأقليات غير الإسلامية في الأرض الإسلامية من جانب . إذ غير المسلم عندما يعلم أن الدخول في الإسلام باختياره ، ولكنه وإذا دخل وخرج فجزاؤه القتل ، فذلك يجعله يفكر كثيراً قبل اعتناقه الإسلام فيقدم عليه بعد دراسة طويلة واقتناع كامل .

* * *

قارن هذه الحرية المعطاه لغير المسلمين في الأرض الإسلامية ، في عقائدهم ودياناتهم ، بما يفعل الآخرون حديثاً وقديماً من إجبار الإنسان على تغيير عقيدته ، أو قتله أو سجنه ، أو تعذيبه أو اضطهاده ، أو فرض فكر معين عليه يعتنقه ويتبناه ، أو عدم السماح له بدراسة دينه وعقيدته ، أو يحال بينه وبين من يمك أن يلقنه دينه ، وتجد في ذلك مآسي وحوادث تثير شجن الإنسان . لكن لو درست التاريخ الإسلامي . فإنك لا تجد حادثة واحدة شبيهة بهذا وهذه أمثلة على أعمال غير المسلمين :

يذكر صاحب كتاب كشف الآثار في قصص أنبياء بني إسرائيل وهو كتاب مؤلفه نصراني :

1 – أمر قسطنطين الأعظم بقطع آذان اليهود وإجلائهم إلى أقاليم مختلفة ، ثـم أمـر إمبراطور الروم في القرن الخامس أن يخرج اليهود من الإسكندرية التـي كانـت مـأمنهم .. وأمر بهدم كنائسهم . ومنع عبادتهم وعدم قبول شهادتهم ، وعدم نفاذ الوصية إن أوصى أحـد منهم لأحد في ماله ، ولما احتجوا على ذلك نهب جميع أموالهم وقتل كثيراً (صفحة 27) .

2 – إن يهود بلدة أنطيوح لما أسروا بعدما صاروا مغلوبين ، قطع أعـضاء الـبعض وقتل البعض ، وأجلى الباقين كلهم ، وظلم الإمبراطور الرومـاني اليهـود الموجـودين فـي المملكة كلها ، وأجلاهم وهيج الدول الأخرى على هذه المعاملة فتحملوا بذلك الظلم من آسـيا إلى أقصى حد في أوربا . ثم بعد مدة كلفوا في أسبانيا أن يقبلوا شرطاً من شروط ثلاثـة . أن يقبلوا المسيحية ، فإن أبوا عن قبولها يكونون محبوسين , وإن أبوا عن كليهمـا يجلـون مـن أوطانهم ومثل ذلك حدث في فرنسا (ص 29) .

3 – ومن القوانين التي أصدرها الكاثوليكيون . ولا يجوز الأكل مع اليهودي ويجـب نزع أولادهم منهم لتربيتهم تربية مسيحية (ص 29) .

4 – وقد ثبت تاريخياً أن اليهود أجلوا من فرنسا سبع مرات (ص 30 – 31) .

5 – وحدث لهم في النمسا وأسبانيا وبريطانيا من القتل والطر والإكراه الكثير ، وقـد أجلى إدوارد الأول ملك بريطانيا أكثر من خمسة عشر ألفاً من اليهود بعد أن نهب أمـوالهم (ص 32) .

* * *

ويذكر توماس نيوتن في كتابه عن نبوءات الكتب المقدسة أن النصارى عندما فتحـوا بيت المقدس في الحروب الصليبية قتلوا أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين .

ونقول : إن المسلمين عندما استردوا المدينة بعد زمن طويل لم يقتلوا إنساناً واحداً بعد الفتح .

* * *

وأصدر الملك لويس الحادي عشر سنة 1724 قانوناً يقول فيه : إن الكاثوليكية وحـــدها مأذون بها وأما أصحاب الديانات الأخرى فجزاؤهم الأشغال المؤبدة ، وكل واعظ يدعو إلـــى ملة غير الكاثوليكية جزاؤه الموت .

وقتل في فرنسا في مذبحة واحدة وهي الشهيرة بمذبحة بروتولماوس واحـــد وثلاثـــون ألفاً من البروتستانت .

وقتلت محاكم التفتيش حرقاً بالنار حوالي مائتين وثلاثين ألفاً ، والذين قتلـــوا بالـــسيف وبآلات التعذيب خلق كثير هذا من غير المسلمين ، أما المسلمون فقد ذكرنا أنه لم يبـــق فـــي أسبانيا من الثلاثين مليوناً من المسلمين مسلم واحد ، كلهم غدر بهم فمـــن قتيـــل أو طريـــد أو مكروه على تغيير دينه .

إن إعطاء الإنسان الحرية الكاملة في أمر اختياره عقيدته وعدم إجباره على تغيير دينه بأي واسطة من وسائط الإكراه ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ρ . ما كانت لتكـــون لـــولا الوحي . إن العرب هذا الشعب القاسي ، كان يمكن أن يمثل في حال النصر الدور الذي مثلـــه التتار من بعد . قتل جماعي ، ومحو للحضارة ، ولكن العرب على العكس من ذلـــك . مثلـــوا على مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة ، وهـــذا لـــيس مـــن أخلاقهم في الأصل لولا دعوة الله ودين الله ومحمد رسول الله ρ .

*   *   *

بل إن عملية الجهاد المستمر ، والتضحيات الكثيرة التي بذلت فيه من أجـــل إخـــضاع العالم لسلطان الله ، مع إعطاء الفرد الحرية في البقاء على دينه أو الانتقال منه إلـــى الإســـلام دين الله الحق بالاقتناع الكامل دليل على أن محمداً ρ رسول الله .

فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافى مع الحرب العادلة ، تصوراتهم معكوسة تماماً . إن حرب الأنبياء وحدها هي المعقولة في العالم ، إذ إن الحياة البشرية لا تـــستقيم إلا علـــى قانون الله وشريعته . فما لم يكن العالم خاضعاً لسلطان الله ، فإن العالم تمزقه بمن فيه وقتذاك أهواء البشر ، أما إذا خضع لسلطان الله المتمثل في عباده المستقيمين الصالحين ، وشريعة الله

، فإن في ذلك صلاحه وكما قدمنا فلا يعني إخضاع البشر لسلطان الله إجبارهم على الـدخول في دين الله .

والذين ينكرون على رسول الله الجهاد في سبيل الله إما ملحدون : وهؤلاء أصغر مـن أن يرد عليهم لأن القتل والخراب الذي يحدث على أيديهم بغير حق يندى له جبين الوحـوش . فقد قتلت روسيا من رعاياها من أجل إقامة الحكم الشيوعي تسعة عشر مليوناً . وإما أهل دين : كاليهود والنصارى وهؤلاء يناقضون أنفسهم فإن في التوراة التي يؤمن بها جميعهم نصوصاً كثيرة تدل على أن الأنبياء جاهدوا في سبيل الله ، وفي الإنجيل وكتب العهد الجديد مـا يـدل على أن الأنبياء يحاربون وهذه شواهد .

1 – مذكور في كتاب المشاهدات الباب (19) والرسالة الثانية الباب الثـاني لأهـل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان . أن عيسى عليه السلام سيقتل الدجال وعسكره بعد نزولـه . أي قرب قيام الساعة وهذه عقيدة المسلمين أيضاً .

2 – وفي سفر التثنية(10) وإذا دنوت من قرية لتقاتلهم ادعهم أولاً إلى الصلح فـإن قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذي بها يخلص ويكونون لك عبيداً يعطونك الجزيـة ، وإن لم ترد تعمل معك عهداً وبدأت بالقتال معك فقاتلها أنت ، وإذا سلمها الرب إلهـك بيـدك اقتل جميع من بها من جنس الذكر بحد السيف دون النساء والأطفال والدواب وما كـان فـي القرية غيرهم واقسم للمعسكر الغنيمة بأسرها . وكُل من سَلبِ أعدائك الذي يعطيك الرب إلهك . وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جداً . فأما القرى التي تعطى أنت إياها فلا تستحي منها نفساً البتة ولكن أهلكهم هلاكاً كلهم بحد السيف . الحيثـي والآمـوري والكنعـاني والفـرزي والحوابي والبابوسي كما أوصاك الرب إلهك .

3 – وفي الباب الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني هكذا (29) فجمع داود الشعب وسار إلى راية فحارب أهلها وفتحها وأخذ تاج ملكهم على رأسه .

والنصوص عندهم في هذا كثيرة تجدها في سفر الخروج الباب الثالث الفقـرة (43) وفي الباب الرابع والثلاثين منه (10) وفي سفر العدد الباب الثالث والثلاثـين وفـي سـفر صموئيل الأول الباب السابع والعشرون (8) وفي سفر الملوك الباب الثامن (20) وغيرهـا وغيرها كثير يقول بولس المقدس عند النصارى في الرسالة العبرانية الباب الحادي عشر فقرة

(32) : وماذا أقول أيضاً لأنه يعوزني الوقت أن أحدث عن جـدعون وبـاراق وشمـشون ويفتاح وداود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك صنعوا براً نالوا مواعيد سـدوا أفواه أسود أطفئوا النار ، نجو من حد السيف تقووا من ضعف صاروا أشـداء فـي الحـرب هزموا جيوش غرباء .

* * *

وأخيراً الجهاد في سبيل الله ثمرة من ثمار النبوة ، وعدم إكراه الناس على الدخول في الإسلام ثمرة أخرى ، وكلتاهما تشهد أن محمداً رسول الله ρ .

وهذه الثمار كلها غيض من فيض وإلا فإن ثمار النبوة كثيرة تعجـز الإنـسان عـن الإحصاء . وحيثما نظرت في الإسلام دلّك الإسلام على أنـه ديـن الله رب العـالمين ، وأن محمداً رسول هذا الإله العظيم وأنه المبلغ عنه .

وإلى الباب الخامس لنرى حجة أخرى على رسالة رسولنا عليه الصلاة والسلام .

* * *

الباب الخامس

البشارات

البشارات

- 1 -

إن القرآن ذكر بوضوح وفي أكثر من سورة أن الكتب السماوية قد بشرت بمحمد ρ {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يٰبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (الصف : 6) .

{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَـاةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلأَغْلاَلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيۤ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } (الأعراف : 157) .

{وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ} (البقرة : 89) .

إن ظاهرة دينية عامة كنبوة سيدنا محمد ρ للعالمين جميعاً ، يترتب عليها معاني كثيرة من وحدة الإنسانية وتوحيد دينها . تحتاج إلى مقدمات ومبشرات توجد استعداداً عاماً عند الناس لها .

- 2 -

والدارس للنصوص التاريخية التي تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثناءها يلاحظ ملاحظة هامة . هي أن الناس الذين كانت لهم صلة بكتاب سماوي كان واضحاً في أذهانهم أنه سيبعث نبي ، وكانوا يرتقبون ظهوره وإن بعضاً من علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد اجتماعه بهذا النبي ρ .

فمن ذلك قصة سلمان الفارسي كما تذكرها روايات كثيرة ، وتنقّله من عالم إلى عـــالم في النصرانية ، حتى دلّه آخرهم أن يترقّب نبياً كاد أن يبعث من أرض العرب ، وذلك ســـبب مجيئه إلى أرض العرب وسكناه فيها .

ومن ذلك القصة التي يرويها البخاري عن أبي سفيان عندما استدعاه هرقل في بـــلاد الشام إذ يقول في آخرها هرقل : " وقد كنت أعلم أنه خارج نبي ولم أكن أظن أنه منكم " .

ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حيي أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت :

لما قدم رسول الله ρ المدينة ونزل قباء ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمـــي أبـــو ياسر مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كالّين كسلانين ســـاقطين يمـــشيان الهوينا ، فهششت إليهما فما التفت إليّ أحد منهما مع ما بهما من الهم . فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ أي المبشر به في التوراة ، قال : نعم والله ، قال : أتثبته وتعرفه ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً[1]

ومن ذلك قصة إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن هشام في سيرته قال ابن إسحاق وكان من حديثه كما حدثني بعض أهله عنـــه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبراً عالماً قال : لما سمعت برسول الله ρ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ρ المدينة فلمـــا نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأ،ا في رأس نخلة لي أعمـــل فيها ، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ρ كبـــرت ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري : خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بـــن عمـــران قادماً ما زدت . قال فقلت لها : أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بمـــا بعث به ، قال فقالت : فذاك إذن قال : ثم خرجت إلى رسول الله ρ فأسلمت ثم رجعـــت إلـــى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا ...

[1] أخرجه ابن إسحاق في السيرة .

ومن ذلك قصة النجاشي وموقفه من أصحاب السيد الرسول ρ في هجرتهم إليه وقولهم بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد لإخراجهم :

.. أشهد أنه رسول الله وأنه المبشر به عيسى في الإنجيل[1] .

وقد اشتهر حديث اليهود للأوس والخزرج عن خروج نبي وكان ذلك من جملة العوامل التي جعلت هذا الاستعداد الكبير عند الأوس والخزرج للإيمان :

فمن ذلك ما جاء عن سلمة بن سلامة – رضي الله عنه – ، وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً ؟ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها نار وجنة يجزون فيها بأعمالهم ، قال : نعم والذي يحلف به ، وليود أي شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً . فقالوا له : ويحك وما آية ذلك ؟ قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن ، قالوا : ومن يراه ؟ فنظر إليّ وأنا أحدثهم سناً فقال : إن يستنفد أي يستكمل هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمد ρ وهو أي ذلك اليهودي بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغياً وحسداً ، فقلنا له : ويحك يا فلان ألست الذي قال لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به[2] .

وعلى كل حال فإن وجود الكتب الدينية العالمية الآن أصبح كثيراً ، وانتشارها واسعاً ، ولعل دراسة منصفة تستخرج الكثير مما له علاقة بهذه الحقيقة . هذا مع الاعتقاد بأن هذه الكتب قد حرفت وبدلت ، يشهد على ذلك كل دراسة جيدة لنصوص هذه الكتب ولواقعها التاريخي ، ويكفي كبرهان عملي على تحريف أحدثها وأقربها إلينا (الإنجيل) إن الإنجيل

[1] البداية والنهاية .

[2] أخرجه أحمد .

الواحد أصبح أربعة بينها تعارض أحياناً وبعضها يزيد على بعض أو ينقص وفي سندها التاريخي انقطاع .

وقد قام بهذه الدراسة المنصفة الواسعة الواعية علماء كبار ، جمعوا بين معرفة اللغات ، ومعرفة الديانات ، فخرج معهم الشيء العجيب الذي لا يدع مجالاً لإنسان يحترم عقله أن يشك في أن هناك بشارات بمحمد النبي العربي قبل ميلاده بمئات السنين ، ونحن ها ننقل نماذج من هذه الدراسات ، وسيرى أي منصف أن هؤلاء العلماء ما ظلموا وما حرفوا وما اعتسفوا في فهم النصوص ولا حمّلوها فوق ما تحتمل . بل فهم هذه النصوص على غير ما ذكروه ، هو الاعتراف والتحريف ، وتحميل النصوص ما لا تحتمل ، وكتمان الشهاة ونأي عن الحق :

{ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ} (الأنعام : 2) .

يقول العقاد :

" من هذه الدراسات كتاب باللغة الإنجليزية ألفه " مولانا عبد الحق فديارتي " وسماه : " محمد في الأسفار الدينية العالمية " واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عمّم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطعلنا على شواهد أقوى منها في روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية .

يقول الأستاذ عبد الحق : إن اسم الرسول العربي " أحمد " مكتوب بلفظه العربي في السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ، ونصها أن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس . ولا يخفي المؤرخ وجوه الاعتراض التي قد تأتي من جانب المفسرين البرهميين بل ينقل عن أحدهم " سينا أشاريا " أنه وقف عند كلمة أحمد فالتمس لها معنى هندياً وركب منها ثلاث مقاطع وهي " أهم " و " آت " و " هي " وحاول أن يجعلها تفيد " إنني وحدي تلقيت

الحكمة من أبي " قال الأستاذ عبد الحق ما فحــواه : إن العبــارة منــسوبة إلــى البرهمــي " فاتزاكانفا " من أسرة كانفا ولا يصدق عليه القول بأنه وحده تلقى الحكمة من أبيه .

وفي مواضع كثيرة يرى المؤلف أن النبي محمد ρ مذكور بوصفه الذي يعني الحمــد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا الذي ورد في كتاب الآثار فافيدا .

وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسي فاستخرج من كتــاب زندافستا نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين " سوشيانت " ويتصدى له عدو يــسمى بالفارسية القديمة " أبا لهب " ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفوءاً أحد وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مــسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة .

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام : أحد صمد ، لــيس كمثله شيء ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوءاً أحد ، ولم يتخذ صاحبة ولا والداً .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتيه ، تتبيء عن دعوة الحق التي يجــيء بها النبي الموعود ، وفيها إشارة إلى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها إلى اللغــة الإنكليزيــة معناها بغير تصرف " إن أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجــل فــي بلاد العرب يهزم أتباعه فارساً ، ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هيــاكلهم ، يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ وهي الأماكن المدقسة للزرادشــتيين ومــن جاورهم ، وإن نبيهم ليكون فصيحاً يتحدث بالمعجزات " .

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهــد القــديم ، والعهد الجديد ، فقال : إن النبي عليه السلام هو المقصود بما جــاء فــي الإصــحاح الثالــث والثلاثين من سفر التثنية " جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فــاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم " .

وجاء بالنص العبري كما يلي : " ويومر يهووه مسيناتي به وزارح مسعير لامو هــو فيع مهرباران ببوث قودش حيميفو أيش داف لامو " .

فترجمه هكذا " إن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فـاران وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم " .

وقال : إن الشواهد القديمة جميعاً تتبيء عن وجود فاران في مكة وقد قـال المـؤرخ جيروم واللاهوتي يوسبيوس : إن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيلة .

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة 1851 (أن إسماعيل سـكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) ثم قال إن سفر العدد مـن العهـد القديم يفرق بين سيناء وفاران إذ جاء فيه (أن بني إسرائيل ارتحلوا من برية سيناء ، فحلـت السحابة في برية فاران) ولم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء فيقال إن جبـل فـاران واقع إلى غربها . ولم يحدث قط أن نبياً سار بقيادته عشرة آلا قديس غير النبي محمـد عليـه السلام ، وقوديش ترجم بقديس في رأي المؤلف الذي يناقش ترجمتها بالملائكة في الترجمـات الأخيرة .

كذلك لم يحدث قط أن نبياً غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم فقول موسى الكلـيم : إن مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء إبراهيم يصدق على النبي العربـي صـاحب الشريعة ولا يصدق على نبي من أبناء إبراهيم تقدمه في الزمن . اهـ (نقل هذا المقطع مـن كتاب العقاد : مطلع النور – باختصار بعض جمله) .

ومن هذه الكتب التي قام أصحابها بدراسة النصوص الحالية للكتب الدينيـة اليهوديـة والنصرانية : كتاب اسمه " إظهار الحق " لـ " رحمة الله بن خليل الهندي " ولعل هذا الكتـاب أعظم دراسة نقدية لنصوص الديانتين اليهودية والنصرانية وأدق نقد لاعتراضات أتباع هـاتين الديانتين على الديانة الإسلامية ، بحيث يـرى أي دارس منـصف للكتـاب أن يهـود اليـوم ونصارى اليوم والسابقين لهم إلى فترات طويلة من الزمان ، ليسوا على شيء ، وأن الإسلام وحده هو الذي يصح أن يسمى ديناً ، فهو وحده دين الله الحق في هذا الزمان ومنذ بعث محمد عليه الصلاة والسلام .

ولأهمية الكتاب نعرض صورة مختصرة له هنا ، ثم نأخذ منه ما له علاقة ببحثنا من نصوص لا زالت موجودة رغم التحريف والتبديل تبشر بنبوة محمد ρ .

وقارئ الكتاب يحس إحساساً يقيناً أن المؤلف متمكن من كتب العهدين القديم والجديد تمكناً تاماً ، فكأنه قرأهما عشرات المرات واطلع على كل ما كتبه أهلهما من تفاسير أو شروح أو تعليقات عليهما . وكتب كتابه بعد ذلك ، وسبب تأليف الكتاب أن المبشرين النصارى أخذوا يهاجمون الإسلام مهاجمات عنيفة في الهند أثناء الاحتلال البريطاني ، وركزوا هجومهم حول خمس نقاط فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين ، وكان من آثار هذا التصدي أن عقدت مناظرة بين أكثر المبشرين سلاطة لسان وبين مؤلف الكتاب حضرها أكبر رجالات الهند . كان من نتائجها أن انسحب القس المبشر بعد أن قامت عليه الحجة ولما يتم النقاش في المسائل المقرر نقاشها .

والكتاب يناقش المسائل الخمس التي أثارها المبشرون النصارى وهاجموا فيها الإسلام وهي :

1 – إن دعوى القرآن بأن في التوراة والإنجيل تحريفاً وأن اليهود والنصارى حرفوا الكلم عن مواضعه دعوى باطلة .

2 – إن بعض آيات القرآن منسوخة وأن النسخ دليل على أن القرآن ليس من عند الله لأن أحكامه بهذا قابلة للتبديل والتعديل .

3 – إن الله ثلاثة الأب والابن وروح القدس والإسلام يدين بوحدانية الله ومحاولتهم البرهنة على عقيدة التثليث ومن ثم التهجم على عقيدة التوحيد .

4 – إن القرآن كلام محمد ρ وليس كلام الله المنزل وتشكيكهم في طريقة جمعه وتواتره .

5 – إنكارهم نبوة محمد ρ وأنه خاتم الأنبياء .

والكتاب ناقش هذه المسائل مناقشة دقيقة مستفيضة كل مسألة فـي بـاب ، وزاد باباً سادساً تناول فيه العهدين القديم والجديد ، ومع هذه الأبواب الستة فقد كتـب للكتـاب مقدمـة جامعة ، فتألف الكتاب من مقدمة وستة أبواب بحث في كل منها ما يلي :

أ – المقدمة : وتشمل ثماني ملاحظات عامة بين يدي الكتاب ، يـذكر فـي بعـضها مراجع الكتاب وطبعات المراجع وسنة طبعها وأين طبعت ، ويذكر بعض عـادات المبـشرين في بعضها ويعتذر في بعضها عن بعض ألفاظ يستعملها ويبين أنهم يستعملون أشد منها ...

ب – الباب الأول : تناول فيه الكلام على العهدين العتيق والجديد كل باب من أبوابهما ، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات ، وبـين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم في كلتا الديانتين سند متصل لأي كتاب مـن كتـب العهدين ثم تناول بعد ذلك ما في كتب العهدين من الاختلاف والأغلاط ، وبين أن ادعاءهم بأن هذه الكتب الموجودة بين أيديهم إلهامية ، ادعاء باطل ، وساق برهاناً على هذا البطلان سـبعة عشر وجهاً لكثرة ما بها من أغلاط وتحريف واختلاقات عجز مفسروهم عن التوفيق بينهـا ، ثم إن الكاثوليك والبروتستانت يختلفون في الاعتراف ببعض هذه الكتب ، فمـا يعتـرف بـه الكاثوليك ينكره البروتستانت والعكس بالعكس .

جـ – الباب الثاني : أثبت فيه وجود التحريف في كتـب العهـدين القـديم والجديـد مصداقاً لقوله تعالى {يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ}[1] وأثبت أن بعض هذا التحريف كـان عـن عمد ، وكان يأتي هذا التحريف أحياناً بالزيادة وأحياناً بالنقصان ، وأحياناً بالتبـديل اللفظـي ، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً ، كما ساق على التبديل اللفظـي خمـسة وثلاثين شاهداً ، كما أورد عدة مغالطات للمبشرين النصارى فندها ببراهين ساطعة ، ثم نقـل على سبيل الاستدلال أقوال النصارى الثقات عندهم من المفسرين والمؤرخين ليزيـد حججـه نصاعةوقوة ، وبلغت هذه الاستدلالات من أقوالهم الثلاثين قولاً مما يدل على سـعة اطـلاع وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم وبلسان علمائهم ، وفي ختـام هـذا البـاب أورد أموراً يزول بها استبعاد وقوع التحريف في كتبهم بل ثبت وقوع التحريف .

---

[1] المائدة : 13 .

د – الباب الثالث : أثبت فيه بالأدلة القاطعة نسخ بعض الأحكام في الشريعتين الموسوية والمسيحية بعد أن بين ماهية النسخ ، ثم برهن على أن الأحكام العملية للتوراة نسختها شريعة عيسى ، وأن لفظ النسخ موجود في كلام قديسيهم ، إلى غير ذلك من الأمور الهامة ، مبيناً أكاذيبهم في اختصاص الشريعة الإسلامية بالنسخ ، مبرهناً على أن النسخ في اصطلاح الشريعة موجود مثله عند اليهود والنصارى .

هـ – الباب الرابع : في إبطال التثليث . وهذا الباب ينقسم إلى مقدمة وثلاثة فصول :

1 – المقدمة وهي كمدخل إلى الفصول الثلاثة يذكر فيها اثنتي عشرة قضية ، ككون التوراة مصرحاً فيها بتحريم عبادة غير الله وكتصريح العهد الجديد والقديم بأن الله ليس كمثله شيء ، وأن النصوص المتشابهة محمولة على هذا التنزيه ..

2 – الفصل الأول في إبطال التثليث بالبراهين العقلية ، ويأتي على ذلك بسبعة براهين كلها دامغة في استحالة التثليث من الناحية العقلية .

3 – الفصل الثاني في إبطال التثليث بأقوال المسيح ، ويأتي فيه باثني عشر قولاً عن السيد المسيح من الإنجيل الحالي ، كلها تثبت أن المسيح دعا إلى التوحيد الخالص وأنه رسول فقط وكمثال :

أ – من إنجيل يوحنا إصحاح سابع جملة (3) وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته .

ب – في الباب التاسع عشر من إنجيل متى هكذا .. (16) وإذا واحد تقدم ، وقال له : أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية ؟ (17) فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله .

4 – الفصل الثالث في مناقشة النصوص الإنجيلية التي يتمسك بها المثلثون ، وإثبات أن فهمهم لها خاطئ هذا على فرض ثبوتها ، ومن المؤكد تاريخياً بطلان بعضها .

فمثلاً يعتمدون على إطلاق كلمة ابن الله في الإنجيل على مرادهم مع الإنجيل نفسه يطلقها على كل صالح " طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناءالله يدعون " إنجيل متى باب خامس (44) " وصلوا لأجل الذين يسبونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات " (45) نفس المصدر " لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني " يوحنا باب 8-42 .

وهكذا يثبت أن كل نص حملوه على التثليث قد استعمله المسيح على غير ما فهموه في خطاب الناس حتى لا يبقى مجال لمتشكك .

و – الباب الخامس : أثبت فيه أن القرآن من عند الله باثني عشر وجهاً ، وكل وجه كاف لإقامة الحجة ، وناقش الشبهات التي يذكرها بعض المبشرين ، وتحدث بعد ذلك عن السنة وثبوتها ، وبرهن على وجود الروايات اللسانية عند اليهود والنصارى التي سجلت متأخرة مع ملاحظة جواز الكذب عليهم لأنهم يرون الكذب جائزاً في موضوع النقل إذا كان لصالح الشريعة . أما المسلمون فعلى عكس هذا تماماً ، والدارس لموضوع السنة يرى أن أدق نقد في العالم أو سيعرف هو نقد علماء السنة للوصول إلى الحديث الصحيح .

ز – الباب السادس : أثبت فيه نبوة سيدنا محمد ρ ودفع فيه كل مطعن توهمه هؤلاء القسس الذين هاجموا الإسلام وقسم الباب إلى فصلين :

الفصل الأول : في إثبات النبوة وسلك فيه ستة سبل ، كل سبيل يؤدي إلى إقامة الحجة بأن محمداً ρ رسول الله .

1 – معجزاته .

2 – أخلاقه .

3 – كمال شريعته .

4 – انتصاره .

5 – حاجة الناس إليه وإلى شريعته .

6 – تبشير الأنبياء السابقين عليه عن نبوته عليه الصلاة والسلام .

الفصل الثاني : في دفع المطاعن التي يتوهمها المبشرون منافية لدعوى النبوة وهم يفعلون هذا مدعين أنهم مؤمنون بنصوص العهد القديم والجديد وأنبياء العهدين ، ولما كانوا مؤمنين بنصوص العهدين القديم والجديد فإنه يذكر المطاعن التي وجهوها إلى السيد الرسول ρ . ويثبت أن رسل العهدين قد فعلوا مثلها أو أشد منها ؛ ويثبت أن بيتهم كله من زجاج ، وأن ما يذكرونه في العهدين في حق الرسل لا يليق بالمؤمنين العاديين فضلاً عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المبرئين عندنا من كل مذمة .

ويبدأ الفصل في ذكر تصوراتهم الفاسدة في نصوصهم المحرفة عن الرسل ، وما يتكلمون في حقهم من الكلام القبيح . كنسبة الزنا إليهم والمعاصي ، ويأتي هنا بما لا يستطيع أحد أن يهضمه مما يجعل مقام الرسل وحاشاهم عرضة لسخرية الساخرين ؛ فإذا كان هذا مفهومهم الفاسد عن الرسل فبأي شيء يعترضون على محمد ρ ولم يقع في : أدنى ما ذكروه عن رسلهم كذباً .

ثم يذكر المطاعن ويرد عليها واحداً واحداً :

المطعن الأول : في عملية الجهاد الإسلامي وكيف أنهم يرون أن ذلك متناف مع مقام الرسالة ، ويذكر للرد على هذا الطعن خمسة أمور .

1 – حول استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم في الدنيا والآخرة ، ويذكر ذلك عن كتبهم .

2 – إن الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم قاتلوا الكفار وسبوا نساءهم وذراريهم ، ويأتي كدليل على ذلك بعشرات الشواهد من العهد القديم المعترف به عندهم .

3 – إن الجهاد في الإسلام أرحم بما لا يقاس بما يذكرونه في كتبهم عن عمليات القتال السابقة .

4 – إن عملية الجهاد عندنا لا تعني الإكراه على الدخول في الإسلام ولكن تـاريخهم هم وخاصة النصارى مليء بجرائم الإغارة على عقائد البشر وإكراههم ، ويذكر من ذلك أمثلة تقشعر منها جلود الإنسان . محاكم التفتيش ، مذابحهم الفظيعة ؛ طريقتهم القذرة في الحـرب ، وطريقتنا الرحيمة . إن التاريخ كله ضدهم وكله معنا .

5 – يتحدث عن الجهاد في الشريعة الإسلامية .

المطعن الثاني : إن محمداً لم تظهر على يده معجزة فلذلك هو ليس نبياً ، ويرد علـى هذا ، أولاً : يثبت من كتبهم أنه ليس مشروطاً عندهم وجود المعجزة للنبي فحتى على صـحة دعواهم فليس هذا مطعنا بالنسبة لعقيدتهم ، ولكن الحقيقة غير ذلك فإن معجزات محمد ρ أكثر من معجزات أي رسول ويثبت هذا .

المطعن الثالث : موضوع زواجه ρ بكثيرات وخاصة بزينب وتحريم زواج زوجاتـه بعد وفاته ويرد على هذا الكلام بثمانية مقاطع :

1 – إن الأنبياء الذين يعترفون على نبوتهم في الكتب المعتبرة عندهم تزوجـوا أكثـر من عدد زوجات الرسول ρ بكثير فما أحله الله لرسوله حلال وما حرم حرام .

2 – إن قصة زواجه بزينب كما يوردونها باطلة لا أساس لها ، وقد ذكرت في القرآن ، والسنة الصحيحة على خلاف ما أوردوه ونقلوه .

3 – إن التحريم والتحليل بيد الله ، ولذلك نجد شيئاً تقصه كتب العهدين فعلـه أنبيـاء سابقون وحرمه أنبياء لاحقون ، وإذ ثبت أن القرآن وحي من الله فما أحله حلال ومـا حرمـه حرام ، ورسول الله لم يفعل ما حرمه الله .

4 – إن هؤلاء يطعنون بمحمد ρ وما خالف لله أمراً مما ذكر في القرآن وينـسون أن كتبهم تذكر عن رسلهم كذباً أنهم خالفوا الوحي الذي نزل عليهم .

5 – يذكر في هذا المقطع أموراً فظيعة مذكورة فـي كتـبهم تجـرح مقـام عيـسى وحوارييه وحاشاهم من كلام هؤلاء الأتباع المارقين ، وكذلك مما حدث في تاريخ كنائسهم من

الإثم والزنى والفجور مما لا يطيق أحد أن يسمعه أفيطعنون بعد ذلك علينا وبمــاذا ؟ ونحــن أطهر أهل أرض ذيلاً .

6 – خطؤهم في فهم بعض الآيات القرآنية .

7 – إذا صدر للنبي أمر ولم يفعله يكون عاصياً ، أما إذا فعل شيئاً مباحــاً لــه فــي الأصل فلا حرج فإذا ما أطاع الرسول الله فلا مأخذ عليه .

8 – يذكرون في كتبهم أن هوشع النبي أمره الله أن يتزوج زانية وأن يتعشق بــامرأة فاسقة محبوبة لزوجها (وحاشاه) وأمثال هذا كثير في كتبهم ويذكر بعضاً منه فكيف ينكــرون على محمد ρ زواجه بزينب بعد طلاقها من زوجها وانتهاء عدتها بأمر الله ؛ ويذكر في ذلــك أن كتبهم تذكر أن الله خص بعض أنبيائه بأمور خصوا بها عن غيرهم ، تجوز لهم ولا تجوز لغيرهم ، ومحمد رسول الله ، فإذا خص بحكم فأي وجه المطعن عليه مع ملاحظة تفرده بكــل كمال مما لا تتطاول إليه أعناق الرجال .

المطعن الرابع : يدعون فيه أن محمداً أذنب والمذنب لا يكون رسولاً ، ويــرد علــى كلامهم بخمسة مقاطع يثبت فيها عصمة الرسول ρ عن الذنب وأنه لم يرتكب ذنباً قط .

وبذلك ينتهي الكتاب . والكتاب في الحقيقة أنفس كتاب – في علمنا – ناقش الــديانتين النصرانية واليهودية نقاشاً دقيقاً في النصوص والمضمون معتمداً على كلام علمائهم نفــسه ؛ وفي تصورنا أن أي منصف من أتباع الديانتين يطلع على الكتاب كلــه مــضطر لنبــذ دينــه والدخول في الإسلام .

نبدأ بنقل الجزء المتعلق بالبشارات من الفصل الأول من الباب الــسادس لأنــه هــو المقصود هنا ، مع ملاحظة أننا حذفنا بعض مقاطع من فقراته لم نجد ضرورة لنقلها والمكــان الذي تم فيه حذف نشير إليه بثلاث نقاط وكل ما نذكره هنا هو كلامه بنصه :

قال في المسلك السادس من مسالكه لإثبات نبوة محمد عليه الــصلاة والــسلام تحــت عنوان : إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه الصلاة والسلام ما يلي :

ولما كان القسيسون يغلّطون العوام في هذا الباب تغليظاً عظيماً استحسنت أن أقدم على نقل تلك الأخبار أموراً ثمانية تفيد للناظر بصيرة .

الأمر الأول : إن الأنبياء الإسرائيليين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليه السلام ، أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش وإسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض آدوم ومصر ونينوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد الذي كان وقت ظهوره ، كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تتآوى طيور السماء في أغصانها ، فكسر الجبابرة والأكاسرة ، وبلغ دينه شرقاً وغرباً ، وغلب الأديان وامتد دهراً بحيث مضى على ظهوره مدة ألف ومائتين وثمانين إلى هذا الحين ، ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا ، وظهر في أمته ألوف أولف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقين ، والأولياء ذوي الكرامات والمجاهَدَات والسلاطين العظام ، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض آدوم ونينوى وغيرهما فكيف يجوّز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الإخبار عن الحادثة العظيمة .

الأمر الثاني : أن النبي المقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية في السنة الفلانية في البلد الفلاني ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الإخبار في غالب الأوقات مجملاً عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جلياً بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفياً عليهم أيضاً لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عني ، وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء وظهور صدقه يصير جلياً عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون ، كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله (ويل لكم أيها الناموسيون ؛ لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ، ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم) كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من إنجيل لوقا .

الأمر الثالث : ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبياً آخر غير المسيح وإيلياء ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضاً لما علمت في الأمر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى – عليه السلام – أولاً : أنت المسيح ؟ ولما أنكر سألوه : أنت إيلياء : ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أين النبي المعهود الذي خبر به موسى ، فعلم أن هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وإيلياء وكان مشهوراً بحيث ما كان محتاجاً إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كانت كافية . وفي الباب السابع من إنجيل يوحنا بعد

نقل قولعيسى عليه السلام هكذا 40 : فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قــالوا : هــذا بالحقيقة هو النبي 41 (وآخرون قالوا : هذا هو المسيح) وظهر من هــذا الكــلام أيــضاً أن النبي المعهود عندهم غير المسيح ولذلك قابلوه بالمسيح .

الأمر الرابع : ادعاء أن المسيح خاتم الأنبياء ولا نبي بعده باطل لما عرفت في الأمر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وإيلياء عليهما الــسلام ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده وقد يتمسكون لإثبات هذا الادعــاء بقــول المسيح المنقول في الآية الخامسة عشر من الباب السابع من إنجيل متى هكذا (احترزوا مــن الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفــة) والتمــسك بــه عجيب لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبيــاء الــصدقة أيــضاً ولذلك قيد بالكذبة . نعم لو قال احترزوا من كل نبي يجيء بعدي لكان بحسب الظــاهر وجــه للتمسك .. فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبــة لا من الأنبياء الصادقين أيضاً ولذلك قال بعد القول المذكور في الباب الــسابع (مــن ثمــارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً) ومحمد ρ من الأنبياء الصاقين كما تدل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المتقدمة .

الأمر الخامس : الإخبارات التي نقلها المسيحيون في حق عيــسى عليــه الــسلام لا تصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونــه أشــد الإنكــار ، وعلمــاء المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب إلى تفاسيرهم وتــأويلاتهم ويفــسرونها ويؤولونهــا بحيــث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام . قال صاحب ميزان الحق في الفصل الثالث مــن الباب الأول في الصفحة 46 من النسخة الفارسية المطبوعة سنة 1849 (المعلمــون القــدماء من الملة المسيحية ادعوا أن هذه الدعوى الصحيحة فقط : إن اليهود أوّلوا الآيات التي كانــت إشارة إلى يسوع المسيح بتأويلات غير صحيحة وغير لائقة وبينوها خلاف الواقع) انتهــى . وقوله ادعوا هذه الدعوة الصحيحة فقط غلط يقيناً ، لأن المعلمين القدماء كمــا ادعــوا هــذه الدعوى ادعوا أن اليهود حرفوا الكتب تحريفاً لفظياً كما عرفت في الباب الثاني . لكني أقطــع النظر عن هذا وأقول : كما أن تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غيــر صــحيحة وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الإخبارات التي هي في حق محمــد ρ مردودة غير مقبولة عندنا . وسترى أن الإخبارات التي ننقلها في حق محمد ρ أظهر صدقاً من الإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام . فلا بأس علينا إن لم نلتفــت إلى تأويلاتهم الفاسدة . وكما أن اليهود ادعوا في حق بعض الاختبارات التي هــي فــي حــق

عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها في حق مسيحهم المنتظر أو في حـق غيـره أو ليست في حق أحد ، والمسيحيون يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم . فهكذا نحن لا نبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الإخبارات التي هي في حق محمـد ρ ولو قالوا إنها في حق عيسى عليه السلام . فادعاؤنا أحق من ادعائهم ...

الأمر السادس : أن أهل الكتاب سلفاً وخلفاً عادتهم جاريـة بـأنهم يترجمـون غالبـاً الأسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد وأنهم يزيـدون تارة شيئاً بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ، ولا يشيرون إلى الامتيـاز ، وهذا الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بألسنة مختلفـة وجد شواهد تلك الأمور الكثيرة .

وإذا عرفت هذه الأمور الستة أقول : إن الإخبارات الواقعة في حق محمـد ρ توجـد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات في هذه الكتب ومن عرف أولاً طريق إخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على ما عرف في الأمرالثاني جزم بأن الإخبارات المحمديـة فـي غاية القوة . وأنقل في هذا المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتـستنت ثمـاني عـشرة بشارة[1] .

البشارة الأولى : (في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء هكذا : 17 فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا 18 . وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامـي فـي فمـه ويكلمهم بكل شيء آمره به 19 – ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنـتقم من ذلك 20 – فأما النبي الذي يجترئ بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم آمره بـه أن يقولـه أم باسم آلهة غيري فليقتل 21 – فإن أحببت وقلت في قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية : إن ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث فـالرب مـا تكلم به بل ذلك النبي صورة في تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) . وهذه البشارة ليـست بـشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار اليهود ولا بشارة عيسى عليه السلام كما زعم علمـاء بروتستنت بل هي بشارة محمد ρ لعشرة أوجه .

[1] بعض البشارات آثرنا عدم نقلها لصعوبة إدراك مضمونها إلا بتأمل طويل .

الوجه الأول : قد عرفت في الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبياً آخر مبشراً به في هذا الباب ، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ، فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام .

الوجه الثاني : أنه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ، ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى أما أولاً فلأنهما من بني إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بني إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهي هكذا : (ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى يوفه الرب وجهاً لوجه) فإن قام أحد مثل موسى بعده من بني إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ..

الوجه الثالث : أنه وقع في هذه البشارة لفظ من بين إخوتهم ولا شك أن الأسباط الاثني عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده ، فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم قال منهم لا من بين إخوتهم ، لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببني إسرائيل ؛ كما جاء لفظ الإخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله هاجر في حق إسماعيل عليه السلام في الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 هكذا (وقبالة جميع إخوته ينصب المضارب) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة 1811 هكذا (بحضرة جميع إخوته يسكن) وجاء بهذا الاستعمال أيضاً في الآية الثامنة عشر من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين في حق إسماعيل في الترجمة العربية المطبوع سنة 1844 هكذا (منتهى إخوته جميعهم سكن) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة 1811 هكذا (أقام بحضرة جميع أخوته) والمراد بالأخوة ههنا بنو عيسو وإسحاق وغيرهم من أبناء إبراهيم عليه السلام . وفي الباب الثاني من سفر الاستثناء هكذا . (وقال لي الرب 4 ثم أوص الشعب أنكم ستجوزون في تخوم إخوتكم بني عيسو والذين في ساعير وسيخشونكم فلما جزنا إخوتنا بني عيسو الذين يسكنون ساعير إلخ) والمراد بإخوة بني إسرائيل بنو عيسى ولا شك أن استعمال لفظ إخوة بني إسرائيل في بعض منهم كما جاء في بعض المواضع من التوراة استعمال مجازي ولا تترك الحقيقة ولا يصار إلى المجاز ما لم يمنع عن الحمل على المعنى الحقيقي مانع قوي . ويوشع وعيشى عليهما السلام كانا من بني إسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما .

الوجه الرابع : أنه وقع في هذه البشارة لفظ " سوف أقيم " ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى داخلاً في بني إسرائيل نبياً في هذا الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ .

الوجه الخامس : أنه وقع في هذه البشارة لفظ (أجعل كلامي في فمه) وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه يكون أمياً حافظاً للكلام ، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الأمرين فيه .

الوجه السادس : أنه وقع في هذه البشارة (ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به فأنا أكون المنتقم من ذلك) فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبي المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الأخروي الكائن في جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التي تلحق المنكرين من الغيب ، لأن هذا الانتقام لا يختص بإنكار نبي دون نبي بل يعم الجميع فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعي ، فظهر منه أن هذا النبي يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره ولا يصدق على عيسى عليه السلام لأن شريعته خالية من أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد .

الوجه السابع : في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 هكذا : (19 فتوبوا وارجعوا كي تمحى خطاياكم 30 – حتى إذا تأتي أزمنة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادي به لكم وهو يسوع المسيح 21 – الذي إياه ينبغي للسماء أن تقبله إلى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر 22 – أن موسى قال إن الرب إلهكم يقيم لكم نبياً من إخواتكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به – 23 – ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب) . فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل على صراحة أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام وأن المسيح لا بد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبي ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين وتأمل في عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفي لإبطال ادعاء علماء بروتستنت . إن هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد ρ على أكمل وجه لأنه غير المسيح عليه السلام ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة 1 – كونه عبد الله ورسوله 2 – كونه ذا الوالدين 3 – كونه ذا نكاح وأولاد 4 – كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية 5 – كونه مأموراً بالجهاد 6 – اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته 7 – وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته 8 – اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز 9 – حرمة غير المذبوح وقرابينالأوثان

10 – كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية 11 – أمره بحد الزنا 12 – تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص 13 – كونه قادراً علـى إجرائهـا 14 – تحـريم الربا 15 – أمره بإنكار من يدعو إلى غير الله 16 – أمره بالتوحيد الخالص 17 – أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله لا ابن الله أو الله والعياذ بالله 18 – موته على الفـراش 19 – كونه مدفوناً كموسى 20 – وعدم كونه ملعوناً لأجل أمته . وهكذا أمور أخر تظهر إذا تؤمـل في شريعتهما ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد : {إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً} (المزمل : 15) وكان من إخوة بني إسـرائيل لأنـه مـن بنـي إسماعيل وأنزل عليه الكتاب وكن أُمياً جعل كلام الله في فمه وكان ينطق بالوحي كما قـال الله تعالى : {وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ} (الـنجم 3 ، 4) وكـان مـأموراً بالجهاد وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش والأكاسرة والقياصرة وغيرهم وهر قبل نـزول المسيح ...

الوجه الثامن : أنه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يـأمره يقتل ، فلو لم يكن محمد ρ نبياً حقاً لكان يقتل ، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضاً {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ} (الحاقة 44 – 46) . ومـا قتل بل قال الله في حقه {وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ} (المائدة : 67) .

الوجه التاسع : أن الله بين علامة النبي الكاذب أن إخباره عـن الغيـب المـستقبل لا يخرج صادقاً . ومحمد ρ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلية كما علمت .. وظهر صدقه فيها ، فيكون نبياً صادقاً لا كاذباً .

الوجه العاشر : أن علماء اليهود سلموا كونه مبشراً به في التوراة ولكن بعضهم أسلم وبعضهم بقي في الكفر ...

البشارة الثانية : الآية الحادية والعشرون من الباب الثاني والثلاثين من سفر الاستثناء هكذا : (هم أغاروني بغير إله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطل وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب ؛ وبشعب جاهل أغضبهم) . والمراد بشعب جاهل العرب ، لأنهم كـانوا فـي غايـة الجهـل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقليـة ، ومـا كـانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم مـن أولاد هـاجر الجارية ، فمقصود الآية أن بني إسرائيل أغاروني بعبـادة المعبـودات الباطلـة ، فـأغيرهم

باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبي ρ فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في سورة الجمعة : {هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} (الجمعة : 2) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم في العلوم والفنون ، وكان جميع الحكماء المشهورين مثل سقراط وبقراط وفيثاغورث وافلاطون وأرسطاطاليس وأرشمديس وبليناس وإقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم وكانا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضاً بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة ، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة ..

البشارة الثالثة : في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 هكذا (وقال جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار) فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلائه من جبل فاران إنزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة ، في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا 20 – (وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي بالسهام 21 – وسكن برية فاران) ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كان سكونته بمكة ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضاً فانتشرت في هذه المواضع لأن الله لو خلق ناراً في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك وقد اعترفوا أن الوحي اتبع تلك في طور سيناء فكذا لا بد أن يكون في ساعير وفاران .

البشارة الرابعة : في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام في الترجمة المطبوعة سنة 1844 هكذا (وعلى إسماعيل استجيب لك هوذا أباركه وأكبّره وأكثره جداً فسيلد اثني عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير) . وقوله أجعله لشعب كبير يشير إلى محمد ρ لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره ؛ وقد قال الله تعالى ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل في حقه – عليهم

السلام – في كلامه المجيد أيضاً : {رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ} البقرة : 129 .

البشارة الخامسة : الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين هكــذا كما في الترجمة العربية سنة 1722 وسنة 1831 وسنة 1844 – .

(فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من تحت فخذه حتى يجيء الذي هو له وإليــه تجتمع الشعوب) .

" يذكر المؤلف هنا كلاماً طويلاً محتواه أن القضيب هنا لا يفسر إلا بالنبوة ويفند كــل تفسير آخر مستشهداً بالتاريخ والوقائع المذكورة في كتب اليهود والنصارى أنفسهم ومقتــضى كلامه أن الذي له الكل وإياه تنتظر الأمم لا بد أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام ولا يصح أن يفسر به غيره لأنه لو فسرنا أن المقصود بذلك المسيح لكان فهمنا متناقضاً مــع الــنص إذ المسيح من آل إسرائيل ومن ذريته والكلام هنا عن نبوة تخرج عن ذرية إسرائيل تجتمع إليــه الشعوب من غيرهم وليس ذلك لغير محمد عليه الصلاة والسلام " .

البشارة السادسة : في الزبور الخامس والأربعين هكذا :

(فاض قلبي كلمة صالحة أنا أقول أعمالي للملك (1) لساني قلم كاتب ســريع الكتابــة (2) بهي في الحسن أفضل من بني البشر (3) انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الدهر (4) تقلد سيفك على فخذك أيها القوي بحسنك وجمالك (5) إستلّه وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك (6) نبلك مسنونة أيها القوي فــي قلــب أعــداء الملك الشعوب تحتك يسقطون (7) كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين عصا الاســتقامة عــصا ملكك (8) أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصــحابك (9) المر والميعة والسليخة من ثيابك من منازلك الشريفة العاج التــي أبهجتــك (10) بنــات الملوك في كرامتك قامت الملكة من عن يمينك مشتملة بثوب ذهب موشى (11) اسمعي يا نت وانظري وأنصتي بأذنيك شعبك وبنت أبيك (12) فيشتهي الملك حسنك لأنه هو الــرب إلهــك وله تسجدين (13) بنات صور يأتينك بالهدايا لوجهك يصلي كل أغنياء البشر (14) كل مجــد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى (15) يبلغن إلى الملك عذارى فــي أثرهــا قريباتها إليك يقدمن (16) يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن إلى هيكل الملــك (17) ويكــون بنــوك عوضاً من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض (18) سأذكر اسمك في كل جيــل وجيــل

من أجل ذلك تعترف لك الشعوب إلى الدهر وإلى الدهر الداهرين) ا هـ . وهذا الأمر مسلم عند أهل الكتاب أن داود عليه السلام يبشر في هذا الزبور بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبي يكون موصوفاً بالصفات المذكورة في هذا الزبور ويدعي علماء بروتستنت أن هذا النبي عيسى عليه السلام ويدعي أهل الإسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي محمد ρ فأقول إنه ذكر في هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات 1 – كونه حسناً 2 – كونه أفضل البشر 3 – كون النعمة منسكبة على شفتيه 4 – كونه مباركاً إلى الدهر 5 – كونه متقلداً بالسيف 6 – كونه قوياً 7 – كونه ذا حق ودعة وصدق 8 – كونه هداية يمينه بالعجب 9 – كون نبله مسنونة 10 – سقوط الشعب تحته 11 – كونه محباً للبر ومبغضاً للإثم 12 – خدمة بنات الملوك إياه 13 – إتيان الهدايا إليه 14 – انقياد كل أغنياء الشعب له 15 – كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم 16 – كون اسمه مذكوراً جيلاً بعد جيل 17 – مدح الشعوب إياه إلى دهر الداهرين . وهذه الأوصاف كلها توجد في محمد ρ على أكمل وجه . أما الأول فلأن أبا هريرة رضي الله عنه قال : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ρ كأن الشمس تجري في وجهه) . وعن أم معبد رضي الله عنها قالت في بعض ما وصفته به : (أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب) وأما الثاني فلأن الله تعالى قال في كلامه المحكم {تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} البقرة : 253 . وقال أهل التفسير أراد بقوله {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} محمداً ρ أي رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة وقد أشبع الكلام في تفسير هذه الآية الإمام الهمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير . وقال ρ : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر " أي لا أقول ذلك فخراً لنفسي بل تحدثاً بنعمة ربي . وأما الثالث فغير محتاج إلى البيان ، حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف ، وقال الرواة في وصف كلامه إنه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بالمحل الأفضل والموضع الأكمل . وأما الرابع فلأن الله تعالى قال {إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ} وألوف ألوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس . وأما الخامس فظاهر وقد قال هو بنفسه أنا رسول الله بالسيف . وأما السادس فكانت قوته الجسمانية على الكمال . وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضي الله عنهما (ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله ρ) وقال علي كرم الله وجهه (وإنا كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ρ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ρ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً) . وأما السابع فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجليلة له ρ كما قال النضر بن الحارث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم إنه ساحر لا والله ما هو بساحر) وسأل هرقل عن حال النبي ρ أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن

يقول ما قال ، قال :لا . وأما الثامن فلأنه رمى يوم بدر وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلاً وأسراً فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه . وأما التاسع فلأن كون أولاد إسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان غير محتاج إلى البيان وكان هذا الأمر مرغوباً له وكان يقول : " ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحكم أن يلهو بأسهمه " ويقول : " ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً " ويقول عليه الصلاة والسلام : " من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا " . وأما العاشر فلأن الناس دخلوا أفواجاً أفواجاً في دين الله في مدة حياته . وأما الحادي عشر فمشهور يعترف به المعاندون أيضاً كما عرفت في المسلك الثاني . وأما الثاني عشر فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين في الطبقة الأولى ومنها شهريانو بنت يزدجر كسرى فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضي الله عنه . وأما الثالث عشر والرابع عشر فلأن النجاشي ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ؛ وهرقل قيصر الروم أرسل إليه بهدية والمقوقوس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جواري وغلاماً أسوداً وبغلة شهباء وحماراً أشهب وفرساً وثياباً وغيرها . وأما الخامس عشر فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضي الله عنه إلى الخلافة في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها ...

أما السادس عشر والسابع عشر فلأنه ينادي ألوف أولف ، جيلاً بعد جيل في الأوقات الخمسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة " أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله " ويصلي عليه في الأوقات المذكورة غير المحصورة من المصلين والقراء يحفظون منشوره والمفسرون يفسرون معاني فرقانه , والوعاظ يبلغون وعظه . والعلماء والسلاطين يصلون إلى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب (أي باب قبره عليه الصلاة والسلام) .

البشارة السابعة : وهي موجودة في الزبور المائة والتاسع والأربعين " لأن الرب يسر بشعبه ويشرّف المتواضعين بالخلاص ، تفتخر الأبرار بالمجد ويبتهجون على مضاجعهم ترفيع الله في حلوقهم وسيوف ذات فمين في أياديهم ، ليصنعوا انتقاماً في الأمم ، وتوبيخات في الشعوب ، ليقيدوا ملوكهم بالقيود ، وأشرافهم بأغلال من حديد ، ليضعوا بها حكماً محكتوماً هذا المجد يكون لجميع الأبرار " ... (لم تتحقق هذه البشارة إلا بالمسلمين الذين فعلوا هذا باسم الله ولله) وهذه هي :

البشارة الثامنة : في الباب الثاني والأربعين من كتاب أشعيا هكذا :

9 (التي كانت أولاها قد أتت وأنا مخبرا أيضاً بأحداث قبل أن تحدث وأسمعكم إياها)
.

10 (سبحوا للرب تسبيحة جديدة حمده من أقاصي الأرض راكبين في البحر وملؤه الجزائر وسكانهن) .

11 (يرتفع البرية ومدتها في البيوت نحل قيدار سبحوا يا سكان الكهف من رؤوس الجبال يصيحون) .

12 (يجعلون للرب كرامة ، وحمده يخبرون به في الجزائر) .

13 (الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوّش الغيرة ويصوت ويصيح على أعدائه يتقوى) .

14 (سكت دائماً صمت صبرت صبراً فأتكلم مثل الطائفة ما بدد وابتلع معاً) .

15 (أخرب الجبال والآكام وكل نباتهن أجفف وأجعل الأنهار جزائر والبحيرات أجففهن) .

16 (وأقيد العمي في طريق لم يعرفوها والسبل لم يعلموا أسيرهم فيها أُصير أمامهم الظلمة نوراً والعقب سهلاً هذا الكلام صنعته لهم ولا أخذلهم) .

17 (اندبورا إلى ورائهم والمتكلمون على المنحوتة القائلون للمسبوكة إنكم آلهتنا ليخزون خزياً) وظهر من الآية التاسعة أن أشعيا عليه السلام أخبر أولاً عن بعض الأشياء ثم يخبر عن الأخبار الجديدة الآتية في المستقبل فالحال الذي يخبر عنه من هذه الآية إلى آخر الباب غير الحال الذي أخبر عنه قبلها ولذلك قال في الآية الثالثة والعشرين هكذا (من هو بينكم إن يسمع هذا يصغى ويسمع الآية) والتسبيحة الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد التي هي في الشريعة المحمدية وتعميمها على سكان أقاصي الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبراري ، إشارة إلى عموم نبوته ρ ولفظ قيدار أقوى إشارة إليه لأن محمداً ρ

في أولاد قيدار بن إسماعيل . وقوله مـــن رؤوس الجبـــال يـــصيحون إشـــارة إلـــى العبـــادة المخصوصة التي تؤدي في أيام الحج يصيح ألوف ألوف من الناس لبيك اللهم لبيـــك .وقولـــه حمده – يخبرون به في الجزائر إشارة إلى الأذان يخبر به ألوف ألوف في أقطار العـــالم فـــي الأوقات الخمسة بالجهر . وقوله (الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوّش الغيرة) يـــشير إلى مضمون الجهاد إشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره خالياً عن حظـــوظ الهوى النفسانية ولذلك عبّر الله عن خروج هذا النبي وخروج تابعيه بخروجه وبيّن في الآيـــة الرابعة عشر سبب مشروعية الجهاد وأشار في الآية السادسة عشر إلى حال العـــرب لأنهـــم كانوا غير واقفين على أحكام الله وكانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا مبتلـــين بـــأنواع الرســـوم القبيحة الجاهلية كما قال الله تعالى في حقهم {وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} وقولـــه (لا أخذ لهم) إشارة إلى كون أمته مرحومة {غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ} وإلـــى تأييـــد شريعته . وقوله (والمتوكلون على المنحوتة القائلون للمسبوة إنكم آلهتنا ليخزون خزياً) وعد بأن عبادي الأصنام والأوثان كمشركي العرب وعابدي الصليب وصور القديسين يحصل لهـــم الخزي والهزيمة التامة ، ووفى بما وعد فإن مشركي العرب وهرقل عظيم الـــروم وكـــسرى فارس ما قصّروا في إطفاء النور الأحمدي لكنهم ما حصل لهم سوى الخـــزي التـــام وعاقبـــة الأمر لم يبق أثر الشرك في إقليم العرب وزالت دولة كسرى مطلقـــاً وزالـــت حكومـــة أهـــل الصيب من الشام مطلقاً ، وأما في الأقاليم الأخر فمن بعضها انمحى أثـــره مطلقـــاً كبخـــارى وكابل وغيرهما ومن بعضها قل كالهند والسند وغيرهما وانتشر التوحيد شرقاً وغرباً .

البشارة التاسعة : في الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعيا هكذا : 1 (سبحي أيتها العاقر التي لست تلدين ، أنشدي بالحمد ، وهللي التي لم تلدي من أجل أن الكثيرين مـــن بنـــي الوحشة أفضل من بني ذات رجل يقول الرب) ، 2 (أوســـعي موضـــع خيمتـــك وســـرادق مضاربك ابسطي شقق مساكنك طولي حباك ثبتي أوتادك) 3 (لأنك تنفيـــذين يمنـــة ويـــسرة زرعك يرث الأمم ويعمر المدن الخربة) 4 (لا تخافي لأنك لا تخزين ولا تخجلين فإنـــك لا تستحين من أجل أنك خزي صبائك تنسين وعار ترملك لا تذكرين أيضاً) 5 (فإنـــه يتـــولى عليك الذي صنعك رب الجنود اسمه وفاديك قدوس إسرائيل إله جميـــع الأرض يـــدعى) 6 (إنما الرب دعاك مثل الامرأة المطلقة والحزينة الروح وزوجة منذ الصبا مرذولة قال إلهـــك) 7 (لساعة في قليل تركتك وبرحمة عظيمة أجمعك) 8 (في ساعة الغـــضب أخفيـــت قلـــيلاً وجهي عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب) 9 (مثلما في أيام نوح لي هذا الـــذي حلفت له أن لا أصب مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك) 10 (فإن الجبال ترتجف والتلال تزلزل ورحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك قـــال

رحيمك الرب) 11 (فقيرة مستأصلة بعاصفة بلا تعزية ها أنذا أبلط بالرتبةحجارتك وأونسك بالسفير .

12 (وأجعل شُرَفَكِ ياقوتاً ، وأبوابك حارة منقوشة وجميع حدود الأحجار مشتهية) 13 (جميع بنيك متعلمين من الرب وكثرة السلام لبنيك) 14 (وبالبر تؤسسين فابتعدي من الظلم لأنك لا تخافين ومن الهيبة لأنها لا تقرب منك) 15 (ها يأتي الجار الذي لم يكن معي والذي قد كان قريباً يقترب منك) 16 (ها أنا ذا خلقت صائغاً الذي ينفخ في النار جمراً ويخرج إناء لعمله وأنا خلقت قتولاً للإهلاك) 17 (كل إناء مجبول ضدك لا ينجح وكل لسان يخالفك في القضاء تحكمين عليه هذا هو ميراث عبيد الرب وعدلهم عندي يقول الرب) اهـ : فأقول : أن المراد بالعاقر في الآية الأولى مكة المعظمة لأنها لم يظهر منها نبي بعد إسماعيل ولم ينزل فيها وحي ، وهي بخلاف أورشليم لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون ، وكثر فيها نزول الوحي ، وبنو الوحشة عبارة عن أولاد هاجر لأنها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة عن البيت ساكنة في البر ولذلك وقع في حق إسماعيل في وعد الله هاجر (هذا سيكون إنساناً وحشياً) كما هو مصرح به في الباب السادس عشر من سفر التكوين ، وبنو ذات رجل عبارة عن أولاد سارة فخاطب مكة الله آمراً لها بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر لأجل أن كثيرين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها ، ووفى بما وعد بأن بعث محمدا ρ رسولاً أفضل البشر خاتم النبيين من أهلها في أولاد هاجر . وهو المراد بالصائغ الذي ينفخ في النار جمراً ، وهو القتول الذي خلق لإهلاك المشركين ، وحصل لها السعة بواسطة هذا النبي ، وما حصل لغيرها من المعابد في الدنيا إذ لا يوجد في الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور محمد ρ إلى هذا الحين ، والتعظيم الذي يحصل لها من القرابين فيك كل سنة من مدة ألف ومائتين وثمانين لم يحصل لبيت المقدس إلا مرتين في عهد سليمان عليه السلام لما فرغ من بنائه ومرة في السنة الثامنة عشر من سلطنة يوشيا ، ويبقى هذا التعظيم لمكة إلى آخر الدهر إن شاء الله كما وعد الله بقوله ، لا تخافي لأنك لا تخزين ولا تخجلين لأنك لا تستحيين ، وبقوله : برحمات عظيمة أجمعك وبالرحمة الأبدية رحمتك ، وبقوله حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك ، وبقوله رحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك ، وملك زرعها شرقاً وغرباً ، وورثوا الأمم وعبروا المدن في مدة قليلة لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ، ومثل هذه الغلبة في مثل هذه المدة القليلة لم يسمع من عهد آدم عليه السلام إلى زمان محمد عليه الصلاة والسلام لمن يدعي الدين الجديد ، وهذا مفاد قول الله : وزرعك يرث الأمم ، ويعمر المدن الخربة . سلاطين الإسلام سلفاً وخلفاً اجتهدوا اجتهاداً تاماً في بناء الكعبة والمسجد الحرام وتزيينهما وحفر الآبار والبراك والعيون في مكة

ونواحيها والغرباء يحبون مجاورتها من ظهور الإسلام إلى هذا الحين سيّما في هذا الزمـــان ، وألوف من الناس يصلون إليها في كل سنة من أقاليم مختلفة ، وديار بعيدة ووفى بمـــا وعــد بقوله : " كل إناء مجبول بضدك لا ينجح " لأن كل شخص من المخالف قام بضدها أذلـــه الله كما وقع بأصحاب الفيل ...

البشارة العاشرة : في الباب الخامس والستين من كتاب أشــعيا هكــذا : 1 (طلبنـــي الذين لم يسألوني قبل ووجدني الذين لم يطلبوني قلت هاأنذا إلى الأمة الذين لم يدعوا باسمي) 2 (بسطت يدي طول النهار إلى شعب غير مؤمن الذي يسلك بطريـــق غيـــر صـــالح وراء أفكارهم) 3 (الشعب الذي يغضبني أمام وجهي دائماً) . (الــذين يــذبحون فـــي البــساتين ويذبحون على اللبن) 4 (الذين يسكنون في القبور في مساجد الأوثان يرقدون الذين يـــأكلون لحم الخنزير والمرق المنجس في آنيتهم) 5 (الذين يقولون ابعد عني لا تقترب منـــي لأنـــك نجس هؤلاء يكونون دخاناً في رجزي ناراً متقدة طوال النهار) 6 (هـــا مكتـــوب قـــدامي لا أسكت بل أرد وأكافي جزاء في حضهم) فالمراد بالذين لم يسألوني والذين لم يطلبوني العرب لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه فما كانوا سائلين عن الله وطالبين لـــه كما قال الله تعالى في سورة آل عمـــران {لَقَدْ مَنَّ ٱللَّـهُ عَلَى ٱلْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَـانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران : 164 . ولا يجوز أن يراد بهم اليونانيون كما عرفت في البشارة الثانية والوصف المذكور في الآية الثانية والثالثة يصدق على كل واحد من اليهود والنــصارى ، والأوصـــاف المذكورة في الآية الرابعة ألصق بحال النصارى ، كما أن الوصف المــذكور فـــي الخامــسة ألصق بحال اليهود ، فردّهم الباري واختار الأمة المحمدية .

البشارة الحادية عشرة : في الباب الثاني من كتاب دانيال في حال الرؤيا التي رآهـــا بختنتنصر ملك بابل ونسي ثم بين دانيال عليه السلام بحسب الوحي تلك الرؤيا وتفــسيرها 31 (فكنت أنت الملك ترى وإذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيماً ورفيع القامة واقفاً قبالـــك ومنظره مخوفاً) 32 (رأس هذا التمثال هو من ذهب إبريز والصدر والذراعان مـــن فــضة والبطن والفخذان من نحاس) 33 (والساقان من حديد والقدمان قسم منهما من حديـــد وقـــسم منهما من خزف) 34 (فكنت ترى هكذا حتى انقطع حجر مـــن الجبـــل لا بيـــدين وضــــرب التمثال في قدميه من حديد ومن خزف فسحقهما) 35 (فانسحق حينئذ مع الحديـــد والخـــزف والنحاس والفضة والذهب وصارت كغبار البيدر في الصيف فذرتها الرياح ولم يوجد لها مكان والحجر الذي قد ضرب التمثال صار جبلاً عظيماً وملأ الأرض بأسرها) 36 (فهذا هو الحلم

وتنبئ أيضاً قدامك يا أيها الملك بتفسيره) 37 (أنت هو ملك الملوك وإلــه الــسماء أعطـــاك الملك والقوة والسلطان والمجد) 38 (وجميع ما يسكن فيه بنو الناس ووحوش الحقل وأعطى بيدك طير السماء أيضاً وجعل جميع الأشياء تحت سلطانك فأنت هو الرأس من الذهب) 39 (وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك من فضة ومملكة ثالثة أخرى من نحاس وتتسلط علـــى جميع الأرض) 40 (والمملكة الرابعة تكون مثل الحديد كما أن الحديد يسحق ويغلب الجميـــع هكذا هي تسحق وتكسر جميع هذه) 41 (أما فيما رأيت قسم القدمين وأصابعهما من الخـــزف الفاخوري وقسماً من حديد تكون المملكة مفترقة وإن كان يخرج من نـــصبة الحديـــد حـــسبما رأيت الحديد مختلطاً بالخزف من طين) 42 (وأصابع القدمين قسم من حديد وقسم من خزف فتكون المملكة بقسم صلبة وبقسم مسحوقة) 43 (فيما رأيت الحديد مختلطاً بالخزف من طين إنهم يختلطون بزرع بشري بل لا يتلاصقون مثل ما ليس بممكن أن يمتزج الحديد بـــالخزف) 44 (فأما في أيام تلك الممالك يبعث إله السماء مملكة وهي لن تنقضي قط ملكهـــا لا يعطـــى لشعب آخر وهي تسحق وتفني جميع هذه الممالك أجمعين وهي تثبت إلى الأبد) 45 (وكمـــا رأيت أن من جبل انقطع حجر لا بيدين وسحق الخزف والحديد والنحاس والفـــضة والـــذهب فالإله العظيم أظهر للملك ما سيأتي من بعد والحلم هو حقيقي وتفـــسيره صـــحيح) ا هـــــ . فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة بختنصر وبالمملكة الثانية سلطنة المادنين الذين تسلطوا بعد قتل بلشاصر بن بختنتصر كما هو مصرح به في الباب الخامس من الكتاب المـــذكور وســـلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة إلى سلطنة الكلدانيين والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين لأن قورش ملك إيران الذي هو بزعم القسيسين كيخسر وتسلط على بابل قبل ميلاد المسيح بخمسمائة وست وثلاثين سنة ولما كان الكيانيون على السلطة القاهرة فكأنهمكانوا متسلطين على جميع الأرض ، والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلفوس الرومي الذي تسلط على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلاثمائة وثلاثين سنة ، فهذا السلطان كان في القوة بمنزلة الحديد ثم جعل هـــذا السلطان سلطنة فارس منقسمة على طوائف الملوك فبقيت هذه السلطنة ضعيفة إلـــى ظهـــور الساسانيين ثم صارت قوية بعد ظهورهم فكانت ضعيفة تارة وقوية تـــارة وتولـــد فـــي عهـــد أنوشيروان (محمد بن عبد الله) ρ وأعطاه الله السطنة الظاهرية والباطنية وقد تسلط متبعـــوه في مدة قليلة شرقاً وغرباً وعلى جميع ديار فارس التي كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها ، فهذه هي السلطنة الأبدية التي لا تنقضي وملكها لا يعطى لشعب آخر ...

فهذا الحجر الذي انقطع لا بيدين من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفـــضة والذهب وصار جبلاً عظيماً وملأ الأرض بأسرها هو محمد ρ .

البشارة الثانية عشرة : نقل يهوذا الحواري في رسالته الخبر الذي تكلم بـــه أخنـــوخ الرسول .. وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 :

(الرب قد جاء في ربواته المقدسة ليدائن الجميع ويبكت جميع المنـــافقين علـــى كـــل أعمال نفاقهم التي نافقوا فيها وعلى كل الكلام الصعب الذي تكلم به ضد الله الخطاة المنـــافقون) ...

فجاء محمد في ربواته المقدسة فدان الكفار وبكت المنافقين والخطاة على أعمال النفاق وعلى أقوالهم القبيحة في الله ورسله فبكّت المشركين لعدم تسليم توحيد الله ورسالة رسله مطلقاً وعبادتهم الأصنام والأوثان ، وبكّتَ اليهود على تفريطهم في حق عيسى ومريم عليهما السلام ، وبعض عقائدهم الواهية ، وبكّتَ أهل التثليث مطلقاً على تفريطهم في توحيد الله وإفـــراطهم في حق عيسى عليه السلام ، وبكت أكثرهم على عبادة الصليب والتماثيل وبعـــض عقائـــدهم الواهية .

البشارات : الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة :

(ملاحظة : لقد تصرفنا هنا في كلامه فدمجنا البشارات الثلاث وصـــغناها صـــياغة مختصرة مع أنه ذكر كلا على انفراد وشرح كلا ولكنا رأينا أن الموضوع واحد فدمجنا رغبة في الاختصار) .

في الباب الثالث عشر من إنجيل متى هكذا :

31 (قدم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السماوات حبة خـــردل أخـــذها إنـــسان وزرعها في حقله) 32 (وهي أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتـــصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها) ا هـــ . وفي البـــاب العـــشرين مـــن إنجيل متى هكذا .

1 (فإن ملكوت السماوات يشبه رجلاً رب بيت خرج من الصبح ليستأجر فعلة لركمه فاتفق في العملة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه ثم خرج نحو الـــساعة الثالثـــة ورأي آخرين قياماً في السوق بطّالين فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحـــق لكـــم

فمضوا وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطّالين فقال لهم : لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد قال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين فجاء أصحاب الساعة الحادية عشر وأخذوا ديناراً فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا ؛ نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك أما اتفقت معي على دينار فخذ الذ لك واذهب ، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك ، أو ما يحلُ لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأني أنا صالح ، هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون) .

(وفي الباب الثالث من إنجيل متى :

(يشبه ملكوت السماوات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله) .

(يشبه ملكوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله) .

(يشبه ملكوت السماوات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع) .

وفي الباب الحادي والعشرين من إنجيل متى هكذا :

(لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) .

وفي الباب الثالث من إنجيل متى هكذا :

11 (وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرّز في برية اليهودية قائلاً توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات) .

وفي الباب الرابع من إنجيل متى هكذا :

12 (ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرّز ويقول : (توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات) .

هذه النصوص كلها تشير إلى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

فالمة البطّالة التي هي الأخيرة والأولى هي أمته .

والأمة التي ورثت ملكوت الله وعملت أثماره هي أمته .

وحبة الخردل التي هي أصغر البذور ثم أصبحت أكبر الشجر هي أمته وهكذا لا يمكن أن تفهم هذه النصوص فهماً مستقيماً إلا إذا طبقناها على محمد رسول الله وأمته .

البشارة السادسة عشرة : في الباب الحادي والعشرين من إنجيل متى هكذا :

33 (اسمعوا مثلاً آخر : كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلمه إلى كرامين وسافر ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً ثم أرسل أيضاً عبيد آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك ، فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني ، وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه) ...

40 (فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين) 41 (قالوا له أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها) 42 (قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا) 43 (لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) 44 (ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه) 45 (ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم) اهـ.

أقول إن رب البيت كناية عن الله والكرم كناية عن الشريعة وإحاطته بسياج وحفر المعصرة فيه وبناء البرج كنايات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهي وإن

الكرامين الطاغين كناية عن اليهود ، وكما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنــه تكلــم علــيهم والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام ، والابن كناية عن عيسى عليه السلام ، وقــد قتله اليهود أيضاً في زعمهم ، والحجر الذي رفضه البناؤون كناية عن محمد ...

وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه ترضض وكل من سقط هو عليــه ســحقه ، وأما ادعاء علماء المسيحية بزعمهم أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه :

(**الأول**) : أن داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا .

22 (الحجر الذي رذله البناؤون هو صار رأساً للزاوية) 23 (من قبل الرب كانــت هذه وهي عجيبة في أعيننا) فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه الــسلام وهــو مــن اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام فأي عجب في أعين اليهود عموماً لكون عيــسى رأس الزاوية سيما في عين داود عليه السلام خصوصاً لأن مزعوم المسيحيين أن داود عليــه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيماً بليغاً ويعتقد الألوهية في حقه ، بخــلاف آل إسماعيل لأن اليهود كانوا يحقرون أولاد إسماعيل غاية التحقير ، وكان كون أحــد مــنهم رأساً للزاوية عجيباً في أعينهم .

(**والثاني**) : أنه وقع في وسط هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجــر ترضــيض وكل من سقط هو عليه سحقه ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قــال : (وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم) كما هو في الباب الثاني عشر من إنجيل يوحنا ؛ وصدقه على محمد غير محتاج إلى البيــان لأنــه كان مأموراً بتنبيه الفجار الأشرار فإن سقطوا عليه ترضضوا وإن سقط هو عليهم سحقهم .

(**والثالث**) : قال النبي ρ : " مَثَلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منــه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة ختم بــي البنيــان وختم بي الرسل " ولما ثبتت نبوته بالأدلة الأخرى كما ذكرت نُبَذاً منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن أستدل في هذه البشارة بقوله أيضاً .

(**والرابع**) : أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن .

البشارة السابعة عشرة : في الباب الثاني من المشاهدات هكذا :

26 (ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً علـــى الأمـــم فيرعـــاهم بقضيب من حديد ، كما تكسر آنية من خزف ، كما أخذت أيضاً من عند أبي وأعطيه كوكـــب الصبح من له أذنان فليسمع ما يقول الروح بالكنائس) .

(ونصوغ بعض تحليله لهذه البشارة باختصار) .

" إن صاحب قضيب الحديد الذي يرعى به الأمم رسول الله ρ إذ اجتمع لـــه ســـلطان الدين والدنيا ولخلفائه الراشدين ودول المسلمين " .

" والكنيسة المذكورة بأنها ستعطى له اسمها الأصلي (ثياثرا) كما قال القسيسان ويت ووليم اللذان ناظرا صاحب كتاب صولة الضيغم وهذه الكنيسة قريبة من القـــسطنطينية التـــي حكمها المسلمون من مئات السنين " .

البشارة الثامنة عشرة : وهذه البشارة واقعة في آخر أبواب إنجيل يوحنا وأنـــا أنقـــل عن التراجم العربية المطبوعة سنة 1821 وسنة 1831 وسنة 1844 في بلدة لندن فأقول فـــي الباب الرابع عشرة من إنجيل يوحنا هكذا :

15 (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخـــر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنـــتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم) 26 (والفارقليط روح القدس الـــذي يرســـله الأب باسمي وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) 30 (والآن قد قلت لكم قبـــل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون) ...

وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا : 7 (لكني أقول لكم الحق أنه خيـــر لكم أن أنطلق لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم) 8 (فإذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم) 9 (أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي) 10 (وأما على البر فلأني منطلق إلى الأب ولستم ترونني بعد) 11 (وأما على الحكـــم

فإن أركون هذا العالم قد دين) 12 (وأن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن) 13 (وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنـده بـل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي) 14 (وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم) ..

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين :

الأمر الأول : أنك قد عرفت في الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفاً وخلفـاً عـاداتهم أن يترجموا غالباً الأسماء وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني ، فـإذاً لا يبقى شك في أن الإنجيل الرابع ترجم اسم المبشر به باليوناني بحسب عادتهم ، ثم مترجموا العربية عرّبوا اللفظ اليوناني بفارقليط وقد وصلت إلى رسالة صغيرة فـي لـسان أردو مـن رسائل القسيسين في سنة ألف ومائتين وثمان وستين من الهجرة وكانت هذه الرسـالة طبعـت في كلكته وكانت في تحقيق لفظ فارقليط وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المـسلمين علـى سبب وقوعهم في الغلط من لفظ فارقليط وكان ملخص كلامه : إن هذا اللفظ معرب من اللفـظ اليوناني فإن قلنا (إن هذا اللفظ يوناني الأصل باراكلي طوس فيكون بمعنى المعزي والمعـين والوكيل ، وإن قلنا إن اللفظ الأصل بيركلوطوس يكون قريباً من معنى محمد وأحمـد ، فمـن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل بيركلوطوس ومعناه قريـب مـن معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد لكـن الـصحيح أنـه باراكلي طوس ، انتهى ملخصاً من كلامه فأقول : إن التفاوت بين اللفظـين يـسير جـداً وإن الحروف اليونانية كانت متشابهة فتبدل بيركلوطوس بـ باركلي طوس في بعض النـسخ مـن الكاتب قريب القياس ثم رجع أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الآخر ومَن تأمـل في الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الإنصاف ، اعتقد يقيناً بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكـون مـن المستحسنات والأمر الثاني أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد ρ أنهم مصاديق لفظ فـارقليط مثلاً منتنس المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد ، وكان مرتاضاً شديداً واتقى عهده ، ادعى في قرب سنة 177 من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقـال إن هـو الفـارقليط الموعود به الذي وعد بمجيئه عيسى عليه السلام وتبعه أناس كثيرون ، ذلك كما هو مـذكور في بعض التواريخ ، وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث مـن تاريخه بلسان أردو المطبوع سنة 1848 من الميلاد هكذا :

(أن البعض قالوا إنه ادعى أني فارقليط يعني المعزي روح القدس وهو كـان أتقـى ومرتاضاً شديداً ولأجل ذلك قبله الناس قبولاً زائداً) . انتهى كلامه .. فعلم أن انتظار فارقليط كان في القرون الأولى المسيحية أيضاً ، ولذلك كان الناس يـدعون أنهـم مـصاديقه وكـان المسيحيون يقبلون دعاويهم وقال صاحب لب التواريخ : " إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد ρ كانوا منتظرين لنبي فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى أني هـو ذاك المنتظر . انتهى ملخص كلامه " .

فيعلم من كلامه أيضاً أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي في زمـان النبـي ρ وهو الحق لأن النجاشي ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد ρ (فقال أشهد بالله أنه للنبـي الذي ينتظره أهل الكتاب) وكتب في الجواب (أشهد أنك رسول الله صـادقاً ومـصدقاً وقـد بايعتك وبايعت ابن عمك ، (أي جعفر بن أبي طالب) وأسلمت على يديه لله رب العالمين) .

وهذا النجاشي قبل الإسلام كان نصرانياً ، وكتب المقوقس ملك القبط في جواب كتاب النبي ρ هكذا : (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك .

أما بعد ..

" فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت نبياً قد بقي وقد كت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك .

والمقوقس هذا وإن لم يسلم لكنه أقر في كتابه أني قد علمت أن نبياً بقي وكان نصرانياً . فهذان الملكان ما كانا يخافان في ذلك الوقت من محمد ρ لأجل شـوكته الدنيويـة ؛ وجـاء الجارود بن العلاء في قومه إلى رسول الله ρ فقال : " والله لقد جئتَ بالحق ونطقتَ بالـصدق والذي بعثك بالحق نبياً لقد وجدت وصفك في الإنجيل وبشر بك ابن البتول فطول التحية لـك والشكر لمن أكرمك لا أثر بعد عين ولا شك بعد يقين ، مد يدك فأنا أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأنك محمد رسول الله ثم آمن قومه " .

وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشّر بك ابن البتول أي عيسى عليه السلام فظهر أن المسيحيين أيضاً كانوا منتظرين لخروج نبي بشّر به عيسى عليه السلام .

فإذا علمت ذلك فأقول إن اللفظ العبراني الذي قاله عيسى عليه السلام مفقــود واللفــظ اليوناني الموجود ترجمة لكني أترك البحث عن الأصل ، وأتكلم عن هذا اللفظ اليوناني وأقول : إن كان اللفظ اليوناني الأصل بيركلوطوس فالأمر ظاهر وتكون بشارة المسيح في حق محمد ρ بلفظ قريب من محمد وأحمد وهذا وإن كان قريب القياس بلحاظ عاداتهم لكني أتــرك هــذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم إلزاماً ، وأقول إن كان اللفظ اليوناني الأصل باراكلي طــوس كمــا يدعون فهذا لا ينافي الاستدلال أيضاً لأن معناه المعزي والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1816 وهذه المعــاني كلهــا تصدق على محمد ρ وأنا أبيّن الآن أولاً أن المراد بفارقليط النبي المبشر به أعني محمداً ρ لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثــاني مــن كتاب الأعمال وأذكر ثانياً شبهات العلماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الأول فيدل عليــه أمور :

(1) أن عيسى عليه السلام قال : " أولاً إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصــاياي " ، ثــم أخبر عن فارقليط ، فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم بعد ضروري واجب الرعاية ، فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة لأنه ما كان مظنوناً أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهــم كــانوا مستفيضين به من قبل أيضاً ، بل لا مجال للاستبعاد أيضاً لأنه إذا نزل على قلب أحــد وحــلّ فيه يظهر أثره لا محالة ظهوراً بيّناً ، فلا يتصور إنكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم فــي صورة يكون فيه مظنة يكون الاستعباد فهو عبارة عن النبي المبشر بــه . فحقيقــة الأمــر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبي المبــشر به عند ظهوره فأكد أولاً بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه .

(2) أن هذا الروح على زعمهم متحد بالأب مطلقاً وبالابن نظراً إلى لاهوتــه اتحــاداً حقيقياً فلا يصدق في حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبي المبشر به فإنه يصدق هذا القول فــي حقه بلا تكلف .

(3) أن الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خواص هذا الروح المتحــد بــالله (على زعمهم) فلا يصدقان على الورح ويصدقان على النبي المبشر به بلا تكلف .

(4) أن عيسى عليه السلام قال : " هو يذكركم كل ما قلته لكم " ولم يثبت من رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام وهذا الروح النازل يوم الدار ذكّرهم إياه .

(5) أن عيسى عليه السلام قال : " والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون " . وهذا يدل على أن المراد به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنوناً بهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضاً فلا حاجة إلى هذا القول ، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

(6) أن عيسى عليه السلام قال : " هو يشهد لأجلي " وهذا الروح ما شهد لأجله بين يدي أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم ، بخلاف محمد ρ فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدّقه وبرّأه عن ادعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براءتهما في القرآن في مواضع متعددة وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة .

(7) أن عيسى عليه السلام قال : " وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1816 هكذا (وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم كنتم معي من الابتداء) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة 1860 هكذا : (وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء) . فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ أيضاً وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة 1816 وسنة 1828 وسنة 1841 وفي ترجمة أردو المطبوعة سنة 1814 ترجمة لفظ أيضاً فلفظ أيضاً سقط من التراجم التي نقلت عنها عبارة يوحنا سهواً وقصداً ، فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة فارقليط ، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار فلا توجد مغايرة الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها . فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به فإن شهادته غير شهادة الحواريين .

(8) أن عيسى عليه السلام قال : (إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأمـــا إن انطلقــت أرسلته إليكم) .

فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرســلهم إلى البلاد الإسرائيلية فنزوله ليس بمشروط بذهابه فلا يكون مراداً بفارقليط ، بل المــراد بــه شخص لم يستفض منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفاً على ذهــاب عيسى عليه السلام ، ومحمد ρ كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفاً على ذهاب عيسى عليه السلام لأن وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمــان واحد غير جائز بخلاف ما إذا كان الآخر متبعاً لشريعة الأول أ يكون كل من الرســل متبعــاً لشريعة واحدة لأنه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحــد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

(9) أن عيسى عليه السلام قال : " يوبخ العالم " فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد ρ لأنه وبخ العالم سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام توبيخاً لا يــشك فيــه إلا معاند بحت ، وبخلاف الروح النازل يوم الدار فإن توبيخه لا يصح على أصول أحــد ، ومــا كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزولة أيضاً لأنهم كانوا يــدعون إلــى الملــة بالترغيــب والوعظ وما قال رانكين في كتابه المسمى بدافع البهتان الذي هو بلسان أردو فــي رده علــى خلاصة صولة الضيغم " إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الإنجيل ولا فــي ترجمــة مــن تــراجم الإنجيل ، وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقاً بيناً لأجل أن محمداً ρ وبــخ وهدد كثيراً إلا أن مثل هذا التغليظ ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله " . انته كلامــه ؛ فمردود .

وهذا القسيس إما جاهل غالط أو مغلط ليس له إيمان ولا خوف من الله لأن هذا اللفــظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنــا ومــن الترجمــة العربيــة المطبوعة سنة 1860 هكذا : " ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية إلخ " وفــي الترجمــة العربية المطبوعة سنة 1816 وسنة 1825 وفي التراجم الفارسية المطبوعة سنة 1816 وسنة 1828 و 1841 يوجد لفظ الإلزام ولفظ التبكيت والإلزام أيضاً قريبان مــن التــوبيخ لكــن لا شكاية منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بروتستنت ولذلك ترى أن مترجمي الفارســية وأردو تركوا لفظ فارقليط لشهرته عند المسلمين في حــق محمــد ρ ومتــرجم ترجمــة أردو

المطبوعة سنة 1839 فإن هؤلاء أسلافه أيضاً حيث أرجع إلى الورح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا للفظ مؤنث وليس بمذكر .

(10) قال عيسى عليه السلام : " أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي " وهـذا يـدل على أن فارقليط يكون ظاهراً على منكري عيسى عليه السلام موبخاً لهم على عدم الإيمان به ، والروح النازلة يوم الدار ما كان ظاهراً على الناس موبخاً لهم .

(11) قال عيسى عليه السلام : " إن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لـستم تطيقـون حمله الآن " وهذا ينافي إرادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد حكماً على أحكـام عيـسى عليه السلام لأنه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العـالم كله فأي أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قال لهم زمان صعوده ، نعم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي ما عدا بعض الأحكام العـشرة المـذكورة فـي البـاب العشرين من سفر الخروج وحللوا جميع المحرمات وهذا الأمر لا يجوز في حقه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة الذي كان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحاً موعـوداً بـه لأجـل عـدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيـادة الأحكـام لأجل ضعف الإيمان وضعف القوة إلى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروتـستنت كـان خارجاً عن استطاعتهم فظهر أن المراد بفارقليط نبي تزاد في شريعته أحكـام بالنـسبة إلـى الشريعة العيسوية ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد ρ .

(12) أن عيسى عليه السلام قال : " ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل مـا يـسمع " وهذا يدل على أن فارقليط يكون بحيث يكذبه بنو إسرائيل فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذاالقول ولا مجال لمظنة التكذيب في حق هذا الروح النازل يوم الدار علـى أن هذا الروح عندهم عين الله فلا معنى لقوله بل يتكلم بما يسمع فمصداقه محمد ρ فإنه كـان في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله وكان يتكلم بما يوحى إليه كما قـال الله تعـالى : {وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ} الـنجم 3 ، 4 . وقـال {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} الأحقاف : 9 .

(13) أن عيسى عليه السلام قال : إنه يأخذ مما هو لي وهذا لا يصدق علـى الـروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق وقادر مطلق ليس له كمال منتظر بل كل كمـال مـن

كمالاته حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذي يكون له كمال منتظر ، ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دفعه بقوله فيما بعد " جميع ما للأب فهو لي فلأجل هذا قلت مما هو لي يأخذ " يعني أن كل شيء يحصل لفارقليط من الله فكأنه يحصل مني كما اشتهر من كان لله كان الله له ، فلأجل هذا قلت إن مما هو لي يأخذ .

(ثم ذكر الشيخ شبهات النصارى وما يمكن أن يقولوه وردّ عليها وختم بذلك البشارات) .

– 6 –

وهناك كتاب ظهر في أوروبا وأحدث ضجّة وأخذاً وردّاً ثم كانت النتيجة أن رفضه العالم النصراني بلا مبرر . هذا الكتاب يسمّى " إنجيل برنابا " والكتاب أعطى قولاً فصلاً في المسائل الثلاث الأساسية وهي رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح .

فهل هناك مبرر لرفض هذا الكتاب :

1 – يذكر التاريخ أن الباب جيلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة 492 ميلادية أي قبل ميلاد الرسول ρ بحوالي قرن أصدر أمراً ينهى فيه عن مطالعة كتب معينة من جملتها كتاب اسمه إنجيل برنابا . إذن من المعروف تاريخياً أن هناك كتاباً اسمه إنجيل برنابا موجود قبل الإسلام .

2 – وقد عثر لهذا الإنجيل على نسختين : إيطالية وإسبانية أما الإسبانية فقد أقرضها الدكتور (هلم) من هدلي بلدة من أعمال همبشير المستشرق سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكهوس أحد أعضاء الكلية الملكية في أكسفورد فنقلها إلى الإنكليزية ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة 1784 إلى الدكتور هويت أحد مشاهير الأساتذة ثم بعد ذلك طمس خبرها وأمحى أثرها .

وأما النسخة الإيطالية فموجودة في مكتبة بلاط فيينا وأوّل من عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا وكان مقيماً وقتئذ في أمستردام فأخذها سنة 1709 من مكتبة أحد مشاهير وجهاء المدينة المذكورة فأقرضها كريمر طولند ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى

البرنس أيوجين سافوي ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة 1738 مع سائر مكتبة البـرنس إلـى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هنالك . وإذن هـذا الكتـاب فـي ورده وصـدره أوروبي .

3 – إنه لم يعرف بتاتاً عند المسلمين أن هناك كتاباً اسمه إنجيل برنابا قبل ظهوره في أوروبا ولو أن للمسلمين يداً في صنع هذا الإنجيل لذكروه وحاولوا نشره وكان مشهوراً .

4 – يذكر سايل أنه مذكور في النسخة الإسبانية المفقودة أنها مترجمة عـن النـسخة الإيطالية ، وفيها مقدمة عن الراهب الذي اكتشف النسخة الإيطالية والقصة هي ما يلـي : أن الراهب اللاتيني فرامرينو عثر على رسائل لايرينايوس وفي عدادها رسالة يندد فيها بالقـديس بولص الرسول وأن أرينايوس أسند تنديده هذا إلى إنجيل القديس برنابا فأصبح من ذلك الحـين الراهب فرامرينو المشار إليه شديد الشغف بالعثور على الإنجيل واتفق أنه أصبح حينـاً مـن الدهر مقرباً من البابا سكتس الخامس فحدث يوماً أنهما دخلا معاً مكتبة البابا فأخذت البابا سنة من النوم فأحب فرامرينو أن يقتل الوقت في المطالعة إلى أن يفيق البابا فكـان الكتـاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه فكاد أن يطير فرحاً من هذا الاكتشاف فخبـأ هـذه الذخيرة الثمينة في أحد ودنيه ولبث إلى أن استفاق البابا فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذلك الكنز معه فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على أثر ذلك الدين الإسلامي .

5 – إن الكتاب متماسك يشكل وحدة متكاملة ويدل على علم لا مثيلله في كتب العهـد القديم وفيه من براعة الحجة ووضوح المسلك ودقة الخطاب وتوضيح خفايا في حياة المـسيح عليه السلام وتشابه كثير بين بعض مقاطعه والأناجيل الأخرى كل ذلك يجعل احتمـال نـسبته إلى برنابا أكبر من أي احتمال آخر .

6 – إن الكتاب لا يوجد فيه ما يشير إلى تأثره بالمفاهيم الإسلامية بتاتاً ولا يوجد فيـه ما يشم منه أن صاحبه قد قرأ القرآن أو عرف دين النبي محمد ρ مما يؤكـد أن الكتـاب لـم يؤلفه مسلم وأنه كتب قبل الإسلام .

7 – والدارس للكتاب يرى أن له صولة في تهذيب النفس وترقيتهـا ويحـس صـدق العبارة وحرارة الإخلاص فيفتح له الكتاب آفاقاً روحية لا يستطيع الإنسان أن يتصور بعـدها أن رجلاً اختلق هذا الكتاب كذباً وزوراً . وبعد هذه المقدمات ننقل فقرات من هذا الكتاب ممـا

له علاقة ببحثنا عن البشارات الصادرة على لسان المسيح في رسالة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام .

1 – في الفصل السابع عشر يقول : " ولكن سيأتي بعدي بهاء وكل الأنبياء الأطهار فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله " أي يبين غامض أقوالهم .

2 – في الفصل الثالث والأربعين يقول : " الحق أقول لكم إنّ كل نبي متى جاء فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه وسيأتي بقوة على الظالمين ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً انظر فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً ، هكذا سيفعل نسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً ، هكذا سيفعل نسلك أجاب يعقوب : يا معلم قل لنا بمن صنع هذا العهد فإن اليهود يقولون بإسحاق والإسماعيليون يقولون بإسماعيل ، أجاب يسوع ابن من كان داود ومن أي ذرية ؟ أجاب يعقوب : من إسحاق لأن إسحاق كان أبا يعقوب ويعقوب كان أبا يهوذا الذي من ذريته داود . فحينئذ قال يسوع : لا تغشوا أنفسكم لن داود يدعوه في الروح رباً قائلاً هكذا قال الله لربي : اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك يرسل الرب قضيبك الذي سيكون ذا سلطان في وسط أعدائك فإذا كان رسول الله الذي تسمونه ميسا ابن داود فكيف يسميه داو ربا صدقوني لأني أقول لكم الحق إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق .. "

3 – وفي الفصل الرابع والأربعين يقول : " لذلك أقول لكم إن رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريباً لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة ، روح الحكمة والقوة ، روح الخوف والمحبة ، روح التبصر والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العل والتقوى ، روح اللطف والصبر التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه ، ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم صدقوني أني رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي لأن الله يعطيهم روحه نبوة ولما رأيته امتلأت عزاء قائلا يا محمد ليكن الله معك وليجعلني أهلاً أن أحل سير حذائك لأني إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقدوس الله ... " .

4 – وفي الفصل الرابع والخمسين يقول : " فمتى مرت هذه العلامات تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حي إلا الله وحده الذي له الإكرام والمجد إلى الأبد ومتى مرت الأربعون سنة يحيي الله رسوله الذي سيطلع أيضاً كالشمس بيد أنه متألق كألف شمس فيجلس ولا يتكلم ... وسيقيم الله أيضاً الملائكة الأربعة المقربين الذين ينشدون رسول الله فمتى وجدوه قاموا على الجوانب الأربعة للمحل حراساً له ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ويحيطون برسول الله ثم يحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم فيقبلون يد رسول الله واضعين أنفسهم في كنف حمايته ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون اذكرنا يا محمد فتتحرك الرحمة في رسول الله لصراخهم ... ثم قال يسوع أرجو الله ألا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم إن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده ... عند ذلك يخاف رسول الله لأنه يدرك أن لا أحد أحب الله كما يجب ... لكن إذا خاف رسول الله فماذا يفعل الفجار المملؤون شراً ... " .

5 – في الفصل الثاني والثمانين يقول : ولكن صدقيني أنه يأتي وقت يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى ويمكن السجود له في كل مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان برحمته أجابت المرأة إننا ننتظر مسياً فمتى جاء يعلمنا يسوع أتعلمين أيتها المرأة أن مسياً لا بد أن يأتي أجابت : نعم يا سيد حينئذ تهلل يسوع وقال : ويلوح لي أيتها المرأة إنك مؤمنة فاعلمي أنه بالإيمان بمسيا سيخلص كل مختارياالله إذن وجب أن تعرفي مجيء مسيا قالت المرأة : لعلك أن مسيا أيها السيد . أجاب يسوع : إني حقاً أرسلت إلى بيت إسرائيل نبي خلاص ولكن سيأتي بعدي مسيا المرسل من الله لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم . وحينئذ يسجد لله في كل العالم وتنال الرحمة حتى أن سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مئة سنة سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان " .

6 – وفي الفصل الثالث والثمانين (وبعد صلاة نصف الليل اقترب التلاميذ من يسوع فقال لهم ستكون هذه الليلة في زمن مسيا رسول الله اليوبيل السنوي الذي يجيء الآن كل مئة سنة لذلك لا أريد أن ننام بل أن نصلي) ... ولعله أراد بهذه الليلة ليلة القدر أو ليلة براءة أي ليلة النصف من شعبان وعلى هذا نفهم أن تجلياتها كانت مرة كل مائة سنة من قبل وعلى هذا نفهم الكلمة " إن سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مئة سنة في الفقرةالسابقة " .

7 – في الفصل السادس والتسعين أجاب يسوع : " لعمر الله الذي تقف بحضرته نفس أني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً بنسلك أبارك كل

قبائل الأرض ، ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام وسينزع الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً " .

8 – في الفصل السابع والتسعين " فقال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع : إن اسم مسياً عجيب لأن الله نفه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي قال الله : اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجاً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ومن يعلنك يكون ملعوناً ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى إن السماء الأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن إن اسمه المبارك محمد " .

هذه شذرات مما ورد في هذا الكتاب وإذا ثبت أن الكتاب كان موجوداً قبل الإسلام فقد ثبت عندئذ أن ذلك مما بقي صحيحاً من آثار عيسى والله أعلم .

– 7 –

ونختم البحث بنصين كل منهما يدل بما لا يقبل الشك أن النصارى أثناء بعثة محمد رسول الله ρ كانوا ينتظرون رسولاً أوصافه هي نفس أوصاف السيد الرسول ρ :

1 – قصة سلمان الفارسي الذي هرب من الأرض الفارسية باحثاً عن الدين الحق : " يقول سلمان لما قدمت الشام قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة قال فجئته فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك قال فادخل فدخلت معه ، قال فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا له أشياء اكتنزها لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً قالوا : وما علمك بذلك ! قال : قلت أنا أدلكم على كنزه

فدلنا عليه قال : فأريتهم موضعه قال فاستخرجوه منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً قال فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً فصلبوه ثم رجموه بالحجار ثم جاؤا برجل آخر فجعلوه مكانه قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه قال : فأحببته حباً لم أحبه من قبل وأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له : يا فلان إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله فإلى من توصي بي وما تأمرني : فقال يا بني والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به . قال فلما مات وغيّب لحقت بصاحب الموصل فقلت : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره قال فقال لي : أقم عندي فأقمت فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره قال فقال لي : أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى فإلى من توصي بي وما تأمرني : قال يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجل بنصيبين وهو فلان فالحق به فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي ، قال فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توص بي وما تأمرني : قال : أي بني والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته قال : فإنه على أمرنا . قال فلما مات وغيّب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري فقال أقم عندي فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة قال : ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني والله ما أعلم ، أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ؟ ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل "[1] والرواية متصلة السند رواتها عدول .

[1] أخرجه أحمد والحاكم .

2 – وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني أبو ســفيان بن حرب قال : انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ρ إلى الشام فبينا أنا بهــا إذ جيء بكتاب من النبي ρ إلى هرقل جاء به دحية الكلبي فدفعه إلى عظيم بصري فدفعــه إلـــى عظيم الروم هرقل فقال هرقل : هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبـــي قـــالوا : نعم . فدعيت في نفر من قريش فدخلنا عليه فأجلسنا بين يديه فقال : أيكم أقرب نسباً منه فقلت أنا فأجلسني بين يديه وأصحابي خلفي ثم دعا بترجمانه فقال : قل لهؤلاء إني سائل هــذا عــن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبني فكذبوه . قال أبو سفيان وايم الله لولا أن يؤثر علـــيّ الكذب لكذبته ثم قال لترجمانه سله كيف نسبه فيكم . قلت هو فينا ذو نسب ، قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قـــال ؟ قلـــت : لا . قال فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أو ينقـــصون ؟ قلت لا . بل يزيدون قال : هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة لـــه قلـــت : لا . قال : فهل قاتلتموه قلت نعم قال : كيف قتالكم إياه ؟ قلت : تكون الحرب بيننا وبينـــه ســـجالاً يصيب منا ونصيب منه . قال : فهل يغدر قلت : لا . ونحن منه في هذه المدة ما ندري ما هو صانع قال أبو سفيان : فوالله ما أمكني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه قال فهل قـــال هـــذا القول أحد قبله قلت : لا . فقال لترجمانه : قل له إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فـــيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها . وسألتك هل كان في آبائه ملك فزعمت أن لا فقلت لو كان في آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافه فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول مـــا قـــال فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى . وسألتك هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له فزعمت أن لا فكذلك الإيمان إذا خالطـــت بشاشته القلوب وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالاً ينال منكم وتنـــالون منه وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكـــذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا ، فقلت لو قال هذا القـــول أحد قبله قلت رجل ائتم يقول بقول قيل قبله ، ثم قال بم يأمركم قلنا بالصلاة والزكاة والـــصلة والعفاف فقال إن يك ما تقول حقاً فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم . ولـــو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه مـــا تحـــت قدمي ثم دعا بكتاب رسول الله ρ فقرأه فإذا فيه ... فلما فرغ مـــن قـــراءة الكتـــاب ارتفعـــت

الأصوات عنده وكثر اللغط فأمر بنا فأخرجنا فقلت لأصحابي لقد أمر أمْراً ابن أبي كبشة إنـــه ليخافه ملك بني الأصفر .

– 8 –

وأخيراً سأل الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب قصص الأنبياء الدكتور (كـــارلو نلينو) المستشرق الإيطالي عن كلمة (بير كليتوس) الواردة في الأناجيل : فأجابه بقوله : إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها (المعزي) فقال له إني أســـأل الـــدكتور كـــارلو نلينـــو الحاصل على الدكتوراة في الآداب اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً فقال : إن معناها الـــذي له حمد كثير فسأله أيضاً : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد فقال : نعم وهذا ما جاء فـــي القرآن على لسنا المسيح :

{وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} الصف 6 (قصص الأنبياء للنجار) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : (من قال رضيت بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ρ رسولاً وجبت له الجنة) أخرجه أبـــو داود .

وإذا مر معك في المبحث الأول عن الله ما أثلج ضميرك يقيناً نهيب بـــك أن ترضـــى بالله رباً .

وإذا مر معك في المبحث الثاني عن الرسول ما أثلج صـــدرك يقينـــا نهيـــب بـــك أن ترضى به رسولاً .

وها نحن سنبدأ بعرض الإسلام دين الله الذي بلغه لنا رسول الله ρ في المبحث الثالث ونهيب بك أن ترضاه ديناً .

لتكون بعد هذا كله أهلاً لنيل رضوان الله وجنته ولتنجو بهذا من ســـخط الله وعقوبتـــه والله ولي أمرنا وأمرك .

❋ ❋ ❋

كتاب "الله"

سعيد حوى

مقدمة

سلسلة الأصول الثلاثة هذه السلسلة سلسلة الأصول الثلاثة أردت فيها بيان الأصول الثلاثة التي لا يكون المسلم مسلما إلا بمعرفتها والإيمان بها وكنت فيها جامعا منسقا أكثر مني منشئا؛ فقد لاحظت أنه قد كتب الكثير في كل أصل من هذه الأصول الثلاثة بل كتب الكثير في كل جانب من أصل دون أن يكون هناك بحث جامع لهذه الأصول فأردت أن أسد هذه الثغرة بكل ما أوتيت من طاقة وكنت إذا ما وصلت إلى بحث كتب فيه غيري كتابة جيدة لا أرى مانعا أن أنقل ما كتب أو جزءا منه فلا يستغربن القارئ إذا رأى في الكتاب كثرة النقول فإن حرصي على إبراز الفكرة كان أكبر من حرصي على أن يمدح مادح أو من خوفي أن يقدح قادح يقول عليه السلام: من قال: "رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وجبت له الجنة" رواه أبو داود

وقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيا" رواه مسلم

وهذه الأصول الثلاثة تحدثت عن الذات الإلهية حديثا يمحو كل شك بإذن الله ويزيل كل شبهة ويدحض كل إفك ويصل بالإنسان إلى الرضا بالله ربا. وتحدثت السلسلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا تتكشف به لكل إنسان جوانب في شخصية هذا الرسول العظيم مصحوبا ذلك بالإقناع والبرهان اللذين يجعلان الإنسان على مثل الشمس وضوحا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم مظهر للإنسان في كل جانب كما جلا أدلة رسالته بالشكل الذي لا يسع العقل إلا أن يؤمن. وتحدثت السلسلة بعد ذلك عن الإسلام عقائد وعبادات ومناهج حياة ومؤيدات مبينة كلياته مظهرة بعض جزئياته موضحة أصوله وفروعه مقيمة الحجة على الناس فيه بحيث لا يسع الإنسان أن يتركه إلى غيره. "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ" آل عمران : 85 ولن ينتهي الإنسان من الدراسة إلا وقد ارتاح قلبه واطمأن ببرد اليقين إذا رغب في الحق وشاء الله له الهداية وإلا فكم عقل زاغ عن الحق وهو يراه.

إن هذه السلسلة نقطة البداية لميلاد جديد لإنسان يريد الخروج من ظلمة الشك والحيرة والضياع والتشتت والتمزق والفوضى ويلاحظ قارئ هذه السلسلة مناقشا ومعللا ومبرهنا ومقنعا معتمدا خطاب العقل بأناة وصبر وملاحقا لكل جوانب الشك وبينما كنت في الأصل الثالث الإسلام

عارضا أكثر مني مناقشا والسبب في ذلك يعود إلى أن الإنسان بعد أن يقتنع بوجود الله وان محمدا رسوله لم يبق أمامه إلا التسليم لدينه وشريعته فالمسالة هنا مسالة تعريف ومنطق.
العقل يقول: إن الإنسان ليس أمامه إلا التسليم لله في شريعته فانه الرب وخلقه عبيد والأعلم الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

وسبب آخر جعلنا نقف هذه المواقف الطويلة أثناء الكلام عن الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم هو أن المادية الملحدة تحاول بكل إمكانياتها أن تنسي الإنسان الله وان تصغر في قلبه وذاته عظمة رسل الله يساعدها على ذلك خطط أهل الأديان الباطلة في تشويه الصورة الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لا بد من إعطاء هذه الدراسة حقها إذ أن هذه الحملات تزداد يوما بعد يوم وتزداد انعكاساتها على النفس البشرية لحظة بعد لحظة حتى إن المسلمين وهم وحدهم أهل الحق في هذا العالم أصابهم من هذا وهذا الكثير الفظيع حتى أصبحوا الآن في أتون ردة خطيرة هائلة وأصبحوا بحاجة إلى جلاء هذين الأصلين مع الأصل الثالث كغيرهم تقريبا إلا من عصم الله ورحمه.

وقد أردت بهذه السلسلة شيئا آخر سوى ما مر: إن الذي يقومون بشأن التربية الإسلامية أغفلوا أهم جانب فيها على الإطلاق، هذا الجانب هو الذي أشار إليه ابن عمر في هذا النص يقول ابن عمر: " لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون انتم القرآن ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه وينثره نثر الدقل" (الدقل رديء التمر ويابسه).

إن مأساة المسلمين تكمن في أنهم أهملوا علم الإيمان وطريقه وهو المقدمة الفطرية لكتاب الله "قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى" فصلت : 44 فكانت هذه السلسلة مع بعض كتبنا الأخرى محاولة لإرجاع الأمر إلى نصابه في هذا الموضوع ولعل هذه السلسلة بعد ذلك تعطي المسلم من قوة الحجة ما يستطيع به أن يدعو كل شارد عن باب الله وأن يقيم الحجة على كل عدول له ممن يجحدون بآيات الله وإن استيقنتها

أنفسهم ظلما وعلوا ولا يفوتني أخيرا أن أنبه إلى قضية هي: أنني نقلت من كتب كافرين ونقلت من كتب منحرفين لأن الحكمة ضالة المؤمن وليس كل كاتب نقلت عنه أشير به وليس كل كتاب نقلت عنه يستحق أن يقرأ ولكني لم أنقل شيئا لا أوافق عليه إلا بينته والله من وراء القصد وهو حسبي ووليي في الدنيا والآخرة ونعم الوكيل.

الكتاب الأول من سلسلة الأصول الثلاثة عن الله جل جلاله

ملاحظة: إذا قرأت هذا البحث فسترى أن أعظم حقيقة يثبتها العلم والعقل بما لا يقبل الجدل هي وجود الله عز وجل وانه لا أحد في هذا الكون يعرف الله حق المعرفة غير المسلمين

المقدمة

في السوق كتب كثيرة تدلك على وجود الله عز وجل ولكن الكثيرين من الذين يكتبون في هذا الموضوع لا يبنون البناء الصحيح على ما يقتضيه الإيمان بالله من إيمان برسله صلوات الله عليهم وإيمان بوحيه ودينه وشريعته ومن ثم كان هذا الكتاب سداً لهذه الثغرة إذ كان فيه تدليل ووضع لمحل الإيمان بالله في محله الصحيح في الحياة البشرية. وكثيرون من الذين كتبوا في موضوع الألوهية إما أنهم اقتصروا على التدليل على الوجود ولم يصلوا إلى التعريف على الصفات والأسماء، وإما أنهم تكلموا عن الصفات والأسماء ولم يدللوا على الوجود، فكان في كل من العملين ثغرة حاول هذا الكتاب أن يسدها، وكثيرون من الذين تكلموا في الدليل إما أنهم فاتتهم الاستفادة من معطيات عصرنا أو أنهم تكلموا ضمن معطيات علوم عصرنا دون أن يربطوا ذلك بمعطيات العصور، وكانت تلك ثغرة كذلك حاول هذا الكتاب أن يسدها.

وكثيرون من الذين تكلموا في هذه الشؤون فاتتهم الدقة العلمية أو الدقة في التعبير فشطح بهم القلم نحو كلمة لا تليق أو كلمة ليست صحيحة أو كلمة فيها كفر أو إثم وذلك تناقض مع المضمون فبينما يقرأ الإنسان لتحقيق الإيمان إذا به يقع في الكفر وكان هذا الكتاب بريئاً من ذلك بفضل الله تعالى ومن ثم فان هذا الكتاب وان كان جديده قليلاً فان ميزاته هذه ذات وزن كبير عند أهل الإنصاف. وندر من عرض لموضوع الإيمان العقلي بالله من بدايته إلى نهايته بدايته التي تحدد الطريق للمعرفة العقلية ثم تبني هذه المعرفة من خلال الدليل ثم تصل إلى ما يوصل إليه العقل من تعرف على صفات الله وأسمائه ثم تبرهن على أن ما يصل إليه العقل من تعرف على صفات الله وأسمائه ثم تبرهن على أن ما يصل إليه العقل هو نفسه الذي يوصل إليه الوحي الصحيح ثم تبين الأخطاء التي وقع فيها البشر في هذا الشأن.

إن كتابا فعل هذا كله ربما يكون نادراً وتلك ميزة أخرى لهذا الكتاب ثم إن هذا الكتاب عرض من وجهة نظر إسلامية محضة لهذه القضية وبقلم إسلامي كذلك فرفع بذلك وصاية الأقلام الخاطئة أو المنحرفة أو الكافرة عن المسلم المثقف الذي يرغب في أن يقرأ في هذا الموضوع فكانت تلك ميزة أخرى من ميزات هذا الكتاب لقد هدف كثير من المؤلفين إلى قضية جزئية في مؤلفاتهم لها صلة بهذا الموضوع وأردنا في هذا الكتاب أن نحقق مجوعة ما قصد إليه المؤلفون وكان ذلك ميزة لهذا الكتاب المختصر.

ولقد حاولنا أن نقرأ كل ما استطعنا الوصول إليه من كتب تحدثت عن أي جانب من جوانب هذا الموضوع واستفدنا من الكثير منها، استفدنا من كتاب قصة الإيمان لنديم الجسر، ومن كتاب الله للعقاد، ومن كتاب العلم يدعو للإيمان لكريسي موريسون، ومن كتاب الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من العلماء، ومن كتاب الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، ومن كتاب مصير البشرية ليكونت دي نوي، ومن كتاب مع الله في السماء لأحمد زكي، ومن كتاب العقائد للأستاذ البنا، ومن كتاب الوجود الحق للدكتور حسن الهويدي، ومن رسائل كثيرة أخرى وكتب كثيرة أخرى منها القديم ومنها الحديث ولقد سرت في هذا الكتاب مقرراً عقيدة الحق التي يجتمع عليها المسلمين تاركا البحوث التي حدث فيها خلاف بين الفرق الإسلامية لأن تلك البحوث والتقرير في شأن ما اختلف فيه منها محلا آخرا فمن طبيعة هذه السلسلة كلها أنها لا تحتمل مثل هذه البحوث إلا أن لنا كلاما في هذه الأمور في سلسلة أخرى إن شاء الله تعالى.

سرنا في البحث بأن حددنا الطريق إلى معرفة الذات الإلهية وهي آثار الله التي تدل عليه وبينا أن هذه الآثار التي تدل عليه: الكون، القرآن، والمعجزات، والكرامات. وبينا أننا في هذا البحث نريد أن نعرض الظواهر الكونية فقط وكيف أنها تدلنا على الله عز وجل وفي البحث الثاني عن الرسول صلى الله عليه وسلم سنتعرض للقرآن وللمعجزات وبذلك يكتمل الكلام عن الظواهر التي تدل على الله. وإنما اقتصرنا في هذا البحث على ذكر الأدلة الكونية فقط كي لا نضطر لأن نعيد كلاما مرتين لأن الإعجاز القرآني كما يدل على الله يدل على أن محمدا رسول الله وان المعجزات والكرامات كما تدل على الله فإنها تدل على أن محمد رسول الله .

وفي هذا البحث سنرى أن الظواهر الكونية وحدها كافية للدلالة على الله فكيف إذا اجتمع معها غيرها ومن خلال هذه القضية ندرك أن المسلم وحده هو الذي يمتلك التعليل الشامل والحق لكل شيء على خلاف الآخرين الذين يستطيعون التعليل لبعض الأشياء ويقفون عاجزين أمام غيرها ومع ذلك يملؤهم الغرور بسبب أنهم عرفوا بعض قوانين هذا الكون.

ثم أنه بعد المقدمة التي حددنا فيها الطريق إلى معرفة الله وذكرنا فيها التصورات الخاطئة والمعاني التي تحول دون الإيمان عرضنا تسع ظواهر كونية كنماذج على الظواهر الكونية الكثيرة التي تدلنا على الله بما لا يقبل جدلا عند المنصف ثم بينا أن الظواهر الكونية تدلنا على أسماء الله وأن أسماءه تدلنا على ذاته فعرفنا بذلك الله عز وجل من خلال النظر في هذا الكون ثم برهنا بعد ذلك على أن ما أوصلنا إليه النظر العقلي في الكون من صفات الله وأسمائه هو الذي قرره القرآن وهو يعرفنا على أسماء الله عز وجل وصفاته فكان ذلك وحده آية على أن هذا الإسلام هو دين الله عز وجل.

وعندما وصلنا إلى هذا أحببنا أن نقدم مقارنة بين العقيدة الإسلامية في موضوع الألوهية وبين غيرها مما يتبين منه سموها بما لا يقاس معها أو عليها غيرها من عقائد موجودة أو موروثة أو معروفة إن في عالم الأديان كما نقلت إلينا أو في اتجاهات الفلاسفة.

وقد رأينا أن ننقل هذه المقارنة من كلام العقاد كشهادة من إنسان مستوعب لثقافة الحاضر والماضي وإنسان له شهرة في عالم الفكر والفلسفة والأدب وذلك لشعورنا أن ذلك أقوى في مخاطبة المثقف المعاصر في الأوضاع والظروف التي صدر فيها الكتاب فإن المؤلف لم يكن معروفا وبالتالي فان كلام العقاد في قضية فيها طابع المقارنة الشاملة سيكون أقوى في تحقيق غرض المؤلف وهو الإقناع في الدعوة إلى الإيمان وهذا وحده كاف لان يجعلنا نتجاوز بعض الأمور فنقلنا كلام العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه في مقارنة للعقيدة الإسلامية في باب الألوهية مع غيرها مما يظهر أنها هي وحدها الحق وغيرها باطل وبذلك تم الكتاب ما بين مقدمة وعرض ظواهر وذكر دلالات الظواهر ومقارنات بعد ذلك فاستكمل الكتاب من المعاني ما تفرق في غيره وإذا كان قانون السببية هو أهم مبادئ العقل وإذا كان هذا المبدأ هو

الأساس الذي يقوم عليه الإيمان العقلي والمعرفة العقلية لله فقد أعلنا له فصلا خاصا جعلناه بين الظواهر ودلالات الظواهر.

وإذا كان التوحيد هو أهم ما خرقته أهواء البشر في باب معرفة الله فقد خصصناه كذلك بفصل جعلناه تاليا لظاهرة الوحدة. وإذا كان وهم الطبيعة قد سيطر على كثير من العقول القاصرة فقد خصصناها بكلام في نفس المكان من هذا الكتاب ومن ثم فقد قلنا في هذا المكان فيما بين الظواهر ودلالاتها كلاما للدكتور حسن هويدي وللشيخ سعيد النورسي نقطع فيه دابر الخرق السفيه لمبدأ السببية العقلي ودابر الخرق لقضية التوحيد ونهتك فيه حجاب الوهم حول قضية الطبيعة لقد كان كلامهما رائعا في هذه الأمور فنقلناه انطلاقا من قاعدتنا أنه حيثما وجدنا إحسانا عند أحد يخدم تسلسل أبحاث هذه السلسلة أو يخدم مواضيعها فإننا ننقله مستغنين بذلك أن نكتب نحن فيه.

نقول: إن هذا البحث كاف في تحقيق غرضه في موضوع التعريف على الله عز وجل وبناء الإيمان العقلي ولكن موضوع الألوهية يحتاج إلى كثير من البحوث والكتابة فيه من خلال عقلية إيجابية تنقب في التاريخ طولا وعرضا دراسة كل ما أخرجته الحفريات زمانا ومكانا لتبرهن على أن التوحيد هو الأصل وإنما طرأ عليه ما طرأ بسبب من الأهواء والتحريف، كما أننا بحاجة إلى أن نضع كل نقطة فوق حرفها في عملية إقامة الحجة على كل فكر كافر في هذا العالم وفي كل جانب منه من خلال حوار شامل، قالوا ونقول نذكر هذا وذاك كنموذجين على بعض احتياجاتنا في هذا الموضوع. وللتدليل على أن هذا الكتاب يأخذ محله ولكن لا يغني عن غيره مما نحتاجه في عصرنا وفي حوارنا الشامل مع غيرنا.

وأخيرا أقول: لقد كان هذا الكتاب والكتابان اللذان جاءا بعده في هذه السلسلة أثرا عن الشعور باحتياجات المسلمين وهذا الذي جعلنا نحرص على الإنجاز السريع مستفيدين مما كتبه غيرنا مفضلين ذلك على أن نعيش في أحلام الكتابة دون أن نقدم للمسلمين زادا يحتاجونه سريعا ولقد كررنا العذر مرة بعد مرة حول قضية كثرة النقول في هذه السلسلة لأننا نعلم أن كلاما ما يقال أو سيقال في هذا الشأن فأحببنا أن يعرف الناس عذرنا فإما كريم يعرف فيقصر وإما ناقد منصف يتكلم فيذكر نقده مع العذر ولندخل في البحث.

مدخل إلى معرفة الذات الإلهية

معرفة الله هي المرتكز الذي يرتكز عليه الإسلام كله وبدون هذه المعرفة يكون كل عمل في الإسلام أو للإسلام غير ذي قيمة حقيقية إذ انه في هذه الحالة يكون فاقدا روحه وما قيمة عمل لا روح فيه ولكن كيف نعرف الله وما هو الطريق إلى هذه المعرفة إن الجواب على هذا شيء لا بد منه حيث أننا إذا لم نعرف الطريق لن نصل إلى الغاية التي نطلبها

1- تصور الكافرين للطريق:

أن ناسا في القديم وفي الحديث أنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم متصورين أن هذا هو الطريق إليه ورموا المؤمنين به بأنهم: واهمون وضالون وخرافيون ومشوشون وغير علميين إلى آخر السلسلة الطويلة من السب والهزء والسخرية والازدراء التي يوجهها الكافرون بالله إلى المؤمنين لأنهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس.

إن أمثال هؤلاء الذين يقولون: انهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادي الذي يعيشونه فهم مثلا يؤمنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها بل رأوا آثارها ويؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره ويؤمنون بالمغناطيسية وقد شاهدوا فقط انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب ويؤمنون بوجود الإلكترون والنيترون ولم يشاهدوا إلكتروناً أو نيتروناً فواقع أمرهم يدل على انهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ولكن آثارها هي التي دلتهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك وهذا يعني بوضوح أن كثيرا من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لإحساسهم بآثارها دون إحساسهم بها ذاتها والعقل وليس الحواس هو الذي عرفهم عليها وان كانت الحواس هي الآلة التي أعطت العقل أدوات الحكم حتى اصدر حكمه لكنه لولا العقل ما صدر حكم ولما كانت معرفة بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحياناً صورا كثيرة وهمية ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده فالعصا المغمورة بالماء تبدو مكسورة والخطوط المتوازية على المدى البعيد تبدو غير متوازية والأرقام البيضاء تبدو أكثر من الأرقام السوداء وشعورنا دائما أننا نسير ورؤوسنا إلى أعلى سواء كنا في القطب الشمالي أو الجنوبي أو على خط الاستواء فمثل هذه الصور تبين لنا بوضوح أن الحواس لولا العقل لأعطتنا أخطاء بدلا من حقائق ولولا العقل لم تكن لنا أي معرفة فهل كان هؤلاء على صواب عندما حصروا المعرفة

كلها بالحواس؟ وهل كانوا منطقيين مع أنفسهم عندما رفضوا الإيمان بالله لأنه لم تدركه حواسهم مع انهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق التي لم يشاهدوها والتي تشكل اكبر الحقائق التي عرفها الإنسان قبل اختراع الجهاز الذي يكتشف الحقيقة؟ هل كانت الحقيقة غير موجودة وبالتالي فهل كان إنكاركم لها قبل اكتشاف الجهاز علميا؟ ثم هل كل حقيقة علمية تكشفها الحواس أو الجهاز؟ أليست الحقائق الرياضية وكثير من الحقائق الكونية لا طريق إليها إلا العقل والتأمل وربط النتائج بالمقدمات. ثم أليست كل قضية تحتاج إلى جهاز خاص يناسبها.

أو لا يكفيكم جهاز العقل للوصول إلى الله ولو أنه كانت لكم قلوب لحدثناكم عن القلب ذاك وكيف أن أهل القلوب عندهم الجهاز الذي يعرف الله حق المعرفة معرفة ذوقية لا تعدلها أي معرفة أخرى ولكن قلوبكم هذه ميتة ولذلك فإننا لا نطمع في أن تفهموا كلامنا في شأنها ولا نقصد بالقلوب هنا القلوب التي تعرفونها بل هي قلوب أخرى مركزها القلب الصنوبر ولكنها غيره. إن هذا التصور الخاطئ لطريق معرفة الله قديما وحديثا من أكبر العوامل التي أبعدت كثيرا من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله مع أن مثل هذا التصور خاطئ بالبداهة لأن العقل ببداهته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمادة لان المادة لا تخلق مادة وإذا كان منتهى إدراك الحواس في عالمنا هذا المادة المحسوسة فقط فلن يكون الله محل إدراكها والذي يبدو انه ما من أمة من الأمم أو كافر من الكافرين إلا وعندهم هذه الشبهة حول التصور الحسي للطريق إلى معرفة الذات الإلهية، فلقد سمعنا في عصرنا هذه أفراداً يجعلون عدم الرؤية سببا للإلحاد، وسمعنا كذلك دولاً تصرح بهذا كما صرحت بذلك إذاعة الاتحاد السوفياتي عقب إطلاق قمرها الصناعي الأول إلى الفضاء.

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكتة يقال أنها وقعت في مدرسة ابتدائية حيث وقف معلم ابتدائي يقول لطلاب السنة الابتدائية السادسة أترونني قالوا نعم قال: فإذن أنا موجود أترون اللوح قالوا: نعم قال: فاللوح موجود أترون الطاولة قالوا: نعم قال: فالطاولة إذن موجودة قال: أترون الله قالوا: لا قال: فالله غير موجود فوقف أحد الطلاب الأذكياء وقال: وترون عقل الأستاذ فقالوا: لا قال: فعقل الأستاذ غير موجود. وهذا الوهم الذي يتمسك به كثير من الكافرين قديم قدم الكفر كما انه أثراً عن أمراض في النفس والقلب وليس أثراً عن فكر سوي أو عقل مستقيم أو إنصاف في تحقيق فقد حدثنا القرآن الكريم أن الكافرين في كل عصر كانوا

يشترطون للإيمان أن يحسوا عن طريق السمع أو الرؤية وقد ذكر القرآن علل هذا الاشتراط وهي ذاتها الأمراض التي ينتج عنها هذا التصور الفاسد والكلام الخاطئ ويحدد القرآن أسباب هذا الطلب بأنها الجهل والكبر والانحراف والظلم

1- الجهل:

قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" البقرة : 118 يلاحظ في الآية أنها أشارت إلى أن هذا القول ليس كلام عالمين بل كلام جهال وان هذا الكلام ليس جديدا بل هو منطق الكافرين قديما وحديثا وذلك اثر عن تشابه القلوب وأخيراً فإنها تقرر أن الطريق إلى الله آياته أي آثاره التي تدل عليه.

2- الكبر:

قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ" الفرقان : 21-22 وكما رأيناهم في الآية الأولى يريدون أن يسمعوا نراهم هنا يريدون أن يروا ولكن من هم الذين يريدون أن يروا إنهم الذين يتصورون أن الحياة الدنيا هي كل شيء وليس وراءها إلا العدم وكما ردت الآية الأولى عليهم بطريق غير مباشر كذلك بينت هذه الآية أن عالما غير هذا العالم وفي قوانين غير هذه القوانين يرى الكافرون الملائكة أما قوانين هذا العالم العادية فليس فيها للحواس من عالم الغيب نصيب وإذا كان الملائكة في قوانين هذا العالم العادية لا ترى فأولى إذن أن تكون الذات الإلهية كذلك كما بينت الآية أيضاً أن الكبر وحده هو الذي دفعهم إلى مثل هذا المنطق وليس الوضع السوي للإنسان الذي يرغب بالحق ويسلك طريقه الصحيح.

3-الانحراف:

وآية أخرى تحدثنا عن أحد فراعنة مصر إذ يقول: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ" غافر : 36-37

والآية كما ترى تضمنت الرد في قولها وصد عن السبيل فليس ما تصوره فرعون طريقا يعرف به الله هو الطريق الصحيح بل هو طريق خاطئ.

4- الظلم:

وآية أخرى تحدثنا أن اليهود طلبوا هذا الطلب ظلما: "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ" البقرة : 55 وفي موضع آخر: "فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ" النساء : 153

وكما ردت الآية الأولى على أمثال هؤلاء بشكل ضمني فكذلك هنا أشعرتنا بالرد بكلمة بظلمهم فليس العدل هو الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب بل الظلم؛ ظلم النفوس للحق إذ تعرفه وتتنكر له وكما طابق قول الكافرين اليوم قولهم قديما في هذا الموضوع كذلك يطابق تهجمهم في الماضي تهجمهم اليوم ففي الماضي يقص علينا القرآن قصة تهجمهم فيقول : "قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ" الأنبياء : 4-5 فقد اتهموا المؤمنين بالله بأنهم: متوهمون وكاذبون وعاطفيون وأصحابهم يتهمون المؤمنين بأنهم: غير علميين وغير صادقين ومشوشون ومخدوعون ولئن سار على هذه الدروب كثير من الناس فليس للمسلم صاحب القلب الكبير أن يقتفي أثر الضالين فيقع فيما حذره الله منه "أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ" البقرة : 108

2- الطريق إلى الله: آياته:

وإذن فمثل ذلك الطريق لن يصل بنا إلى غاية في موضوع التعرف على الذات الإلهية فتحديد الطريق ومعرفته أساس لكي نصل إلى الهدف. إن الطريق إلى الله هي آثاره التي تدل عليه وهي طريق وحيد والعقل والفكر والعلم شروط أساسية لسالك هذا الطريق إذ بدون عقل لن نعرف الآية وبدون فكر لن يعرف صاحبها وبدون علم لن تكون معرفة للآية أو لصاحبها ولعل هذا الكلام مستغرب عند الملحدين إذ انهم يعطون لأنفسهم دائما ألقاب: العلمانيين والعقلانيين والأحرار والمفكرين ولكن الدعوى بدون دليل ليس لها أي قيمة علمية وسيكون في كل ما نكتبه في هذا البحث دليل إن شاء الله تعالى على صحة ما قلناه وهدم ما ادعوه: "وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ" الشورى : 16

" وسيأتيك بيان ذلك أما الآن فنقول: المتأمل أدنى تأمل للقرآن يرى أن القران يلفت النظر بشكل واضح وواسع العقل والفكر والعلم والآثار وهي الشروط الأساسية لمعرفة الله "قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" الأحقاف : 46 أي هل هناك ذرة من علم تشهد أن غير الله هو الخالق فإذا ما أنكر الناس ربهم فليس ذلك دليلا على العلم بل هو دليل هو الجهل "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ" الحج : 8 / لقمان : 20ولكنه ليس الجهل المطلق المجرد عن آية معرفة بل هو جهل خاص ذكره الله تعالى بقوله: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ" الروم : 7 وقوله تعالى: "فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ" النجم : 29-30

إن الإكثار من ذكر العلم والفكر والعقل في القرآن ظاهرة تلفت النظر لقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الرعد : 4 وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" الرعد : 3 وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" الروم : 22 وقوله تعالى: "قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" يونس : 101

ومن ثم فإن المتأمل للقرآن يدرك أن الإسلام يفرض على المسلم أن يفكر ويفرض عليه أن يتعلم وأن العلم والفكر جزآن من شخصية المسلم في الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها أو باب معاش يرتزق منه أو هواية عند بعض الأفراد. وإذ يفرض الإسلام العلم فلأنه بالعلم يعرف الإسلام حقاً قال تعالى: "وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ" سبأ : 6

وسندرس في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى آيات الله لنتبين الحقيقة السافرة تلك التي تقول إن الكافرين بالله أضلوا قلوبهم إذ لم يهتدوا إليه وان المؤمنين هدوا قلوبهم إذا اهتدوا إليه "وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" التغابن : 11 وأن مثل الكافر الذي لم يشاهد الله بعقله بعد رؤيته آياته كمثل حامل أسفار لا يعرف قيمتها ولا مؤلفها فينسبها إلى المجهول المعدوم وسنرى كذلك إن شاء الله انه ليست قلة الآيات ولا غموضها هي التي أدت بالكثير إلى الكفر بل الآيات من الكثرة بحيث لا تعد ومن الوضوح بحيث لا تخفى ولكن السر في الإنسان ذاته السر في إعراضه هو عن

الآية في كبره عن الاعتراف بالحق في عدم تعرفه على الحقيقة في انحرافه عن فطرة الإنسان وأخلاق الإنسان في انغلاق قلبه وعماه حتى لو حركته القدرة الإلهية بشكل معجز لبقي مصراً على الإنكار ويحدثنا القرآن عن أمثال هؤلاء فيقول تعالى: "وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ" الحجر : 14-15 وقال تعالى: "وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ" القمر : 2 وقال تعالى: "وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105

وفي هذا المقام نحب أن نسأل: ترى هل الله هو الذي يحتاج إلينا كي نؤمن به أم نحن الذين نحتاج أن نؤمن من أجل أنفسنا؟ والجواب: "فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" آل عمران : 97

وإذن فلنحرر أنفسنا من أجل أن نكون أهلاً لرؤية آيات الله:

1- من الكبر: لأن الله لا يري قلباً متكبراً آياته قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ" الأعراف : 146

2- ولنحرر أنفسنا من الظلم والكذب "وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" آل عمران : 86 قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" الزمر : 3

3- ولنحرر أنفسنا من الإفساد في الأرض ونقض العهد وتقطيع أواصر ما ينبغي أن يوصل قال تعالى: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" البقرة : 26- 27

4- ولنحرر أنفسنا من الغفلة: إن أردنا أن تتكشف آيات الله كلها لنا فإن بعضاً من آيات الله يتكشف للإنسان بمجرد الفكر إن لم تكن هناك موانع أخرى بمجرد العقل: ومثال تلك وهذه كل آية في القرآن قد قال تعالى عنها: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" الرعد : 3 وقال تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الرعد : 4 ولكن آيات الله كلها لا تتكشف لقلب إلا

إذا اجتمع لصاحبه فكر مع ذكر "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" آل عمران : 190-191

وما أعرض معرض عن الله إلا لغفلة ولا غفلة إلا وراءها لعب ولهو والحياة الدنيا كلها لعب ولهو قال تعالى: "أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" الحديد : 20

قال تعالى: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ" الأنبياء : 1-3

5- ولنحرر أنفسنا من الإجرام قال تعالى: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ" المطففين : 14 وكذلك قال تعالى: "كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ" الحجر : 12-13

6- ولنحرر أنفسنا من التردد في قبول الحق إذا رأيناه صريحا "وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" الأنعام : 110 وساعتئذ فإن آيات الله من الإشراق بحيث تغمر كل جوانب قلبك بعد إذ أعددته لتلقي النور ولكن هيهات والقلب قلب شيطان أن يكون أهلا لهداية الرحمن ذلك أن الضباب الكثيف يمنع أشعة الشمس والعطب في العين يمنع الرؤية والمرض في الأذن يمنع السمع وليس الذنب ذنب الماء الفرات إذا وجده المريض مراً قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" المائدة : 41

فالسر دائما في الإنسان نفسه قال تعالى: "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" الصف : 5
وأما آيات الله فواضحة بينة "وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ" الأنعام : 6
وآيات الله نراها في ثلاث:

الكون والقرآن والمعجزات والكرامات وقد عبر القرآن عن كل من هذه الثلاثة بأنه آية تدل عليه.

الكون:

قال تعالى: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ* وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" الذاريات : 20-21
وقال تعالى: "وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105
وقال تعالى: "وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ" يس : 37-39
وقال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ* وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ" الروم : 22-23

القرآن:

"وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ* أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ" العنكبوت : 50-51
وقال تعالى: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" " العنكبوت : 49
وقال تعالى: "وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ" آل عمران : 101

المعجزات:

"وَفِيكُمْ رَسُولُهُ" آل عمران : 101 "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ* وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ" القمر : 1-2 "وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً" هود : 64 "وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" آل عمران : 49 ونصوص القرآن تشير إلى أن في الكون آيات كثيرة وليس هو آية واحدة. وفي القرآن آيات وليس فيه آية واحدة فحسب والمعجزات آيات.

إن عشرات الظواهر في الكون كل واحدة منها تدل على الله وعشرات الظواهر في القرآن كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله والمعجزات ظواهر تاريخية كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله وفي كل ظاهرة آلاف الإشارات كل واحدة منها تدل على الله فالله أقام الحجة على الناس قياماً كاملاً قال تعالى: "رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ" النساء : 165
وقال تعالى: "قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" غافر : 50

في هذا الكتاب سنعرض آيات الله في الكون مقيمين الحجة على كل كافر ومعاند أن الله موجود وأن له صفات الكمال والجلال والجمال كلها وفي الكتاب الثاني الذي عنوانه الرسول سنرى بعض آيات الله في القرآن وبعض آياته في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فكما أن القرآن آية تدل على الله وكما أن في المعجزة بشكل مطلق آية تدل على الله فإن في القرآن في الوقت نفسه شهادة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله وكذلك في معجزاته ولذلك فقد أخرنا هذين الموضوعين إلى الرسالة الثانية حيث إقامة الدليل على صحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى ولا زالت الكرامات في هذه الأمة تتوالى وكل كرامة في هذه الأمة إنما هي معجزة لرسولها عليه الصلاة والسلام ومن ثم فكل كرامة هي في حد ذاتها دليل على صحة رسالة رسولنا ودليل على أن الله موجود إذ الكرامة كالمعجزة في كونها خرقا لعالم الأسباب ومن تأمل ما سنذكره في هذه السلسلة من هذه الظواهر وهي غيض من فيض فإنه لا يسعه إلا أن يكون مسلما مسلّماً لله ورسوله وبعد إذ تبينت لنا ماهية الطريق الموصلة إلى معرفة الله والإيمان به وبعد أن تبين لنا خطأ التصورات المنحرفة عن الطريق وبعد أن عرفنا كيفية انتظام الأدلة في هذه السلسلة ونوع الأدلة التي سيعرضها هذا البحث فلنبدأ عرض ماله صلة ببحثنا هذا بأن نستعرض ظواهر الكون التي تدلنا على الخالق العظيم.

الظاهرة الأولى
ظاهرة حدوث الكون

ظاهرة حدوث الكون: أي وجوده بعد إذ لم يكن.
أول ظاهرة تدلنا على الله هي حدوث هذا الكون الذي يدلنا على أن له محدثا وكلما تقدم العلم أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعا على هذه الظاهرة بل ما قدمه العلم من أدلة عليها جعلها في حكم البدهية إذ وضوح الأدلة وتعاضدها لم يبق مجالا للشك فيها فقوانين الحرارة وقوانين الإلكترون والطاقة الشمسية قد قدم كل منها دليلاً واضحا عليها وبتضافر هذه الأدلة يظهر الأمر ظهورا لا يبقى معه مجال للشك هذا عدا عن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون في كل عصر وسنحاول أن نستعرض هذه الجوانب واحدا تلو الآخر لنرى كيف يقدم كل منها الدليل على كون هذا الكون مخلوقا لخالق.

1- قوانين الحرارة:
يقول ليكونت دي نوي رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة في جامعة السوربون في كتابه مصير البشرية: إن أحد وجوه النجاح العظيمة التي حققها العلم الحديث ربط قانون كارنوت كلوزيوس يدعى أيضا "بالقانون الثاني في الترموديناميك" الذي يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية بحساب الاحتمالات وقد أثبت الفيزيائي الكبير بولتزمان أن التطور غير الحي وغير القابل للانعكاس الذي يفرضه هذا القانون يوافق تطورا نحوا حالات أكثر وأكثر احتمالا تتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة وهكذا فإن الكون يميل نحو التوازن حيث تزول جميع عدم التناظرات الموجودة في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام وقد عبر إدوار لوزكيل عن هذا القانون وكيف أنه يثبت به أن لهذا الكون بداية بما يلي:

وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي أي أزلية الكون فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها

حرارة جميع الأجسام وينضب منها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود وهكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ولا بد له من مبديء أو من محرك أول أو من خالق هو الإله واستدل فرانك الان عالم الطبيعة البيولوجية على عدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون يقول: كثيراً ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته؟. هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:

فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده.

وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية.

وإما أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة الإحساس والشعور فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة فالرأي الذي يدعي أن هذا الكون ليس له وجود فعلي وأنه مجرد صورة في أذهاننا وأننا نعيش في عالم من الأوهام لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة. **والرأي**

الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزلية وإذا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجا وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة

بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليا لأن الحرارة لا يمكن أن تنبعث تلقائيا في الكون بعد برودته ولو كان أزليا لكان بارداَ.

2- قوانين الحركة الإلكترونية:

والشهادة الأخرى التي تدل على حدوث الكون نجدها في كل ذرة من ذرات الوجود على الإطلاق وذلك أن ذرات الكون كلها مؤلفة من جزيئات كهربائية سالبة وموجبة. الموجبة يطلق عليها اسم البروتون والسالبة يطلق عليها اسم الإلكترون. وأنوية الذرات إلا ذرة الهيدروجين فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون والبروتون والنيترون يشكلان نواة الذرة بينما الإلكترونات تشكل الكواكب السيارة لهذه النواة وهي تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائرية إهليلجية وبسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الإلكترون يبقى الإلكترون متحركا هذه الحركة إذ لولا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الإلكترون وعندئذ يكون العجب، إذ في هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الأرضية حجم بيضة الدجاجة فالفراغ كبير جدا في عالم الذرة فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع وذلك أن البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً. من هذه الدراسة الموجزة للذرة نصل إلى الحقائق التالية:

1- أن الإلكترونات في أكثر ذرات الوجود إن لم يكن في كلها في حركة دائمة دائرية.

2- وأنه ليس هناك أي دليل في الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع آخر للإلكترون كان عليه أولا ثم انتقل إلى هذه الحالة إن لم نحكم باستحالة تصور آخر أقدم من

هذا الوضع إذ لو كان لاحتجنا إلى مؤثر جعل إلكترونات الوجود تتحرك بعد خمود فتتوسع الذرة بعد ضيق

3- أن في هذا الكون كله مؤلف من نفس الذرات التي عرفنا خصائصها هنا بل من نفس العناصر وهذه الحركة التي نجدها في الإلكترون نجدها في كل جرم في الفضاء وبعد هذه الحقائق نقول: إن الشيء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته. ولما كانت الإلكترونات والأجرام كلها في حركة دائرية ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدو فإذن لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الإلكترون وهذه البداية في الحقيقة هي بداية وجود الذرات نفسها وبهذا نكون قد وصلنا إلى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخالقا من العدم إذ العدم لا ينتج عنه وجود.

4- الطاقة الشمسية: نحب أولا أن نذكر كلمة توضح معنى الأزلية إنه لو وضعنا الرقم 1 وأمامه أصفار ممتدة منه إلى محيط الكرة الأرضية فإن هذا الرقم الكبير من السنين إنما يمثل جزءا كالصفر تقريبا بالنسبة إلى اللانهاية أو اللابداية ونفس الشيء لو كان الرقم 1 أمامه أصفار من أول الكون إلى نهايته فإن هذا الرقم لا يمثل إلا جزءا من اللانهاية يشبه الصفر وكذلك هو بالنسبة للأزل فالذين يقولون بقدم المادة إنما يعطونها هذا المعنى وهذا الذي تثبت الظواهر كلها استحالته حول خلافه والظاهرة هذه كالتي سنتكلم عنها تمثل إحدى هذه الظواهر: من أين تأتي الشمس بطاقتها؟ وكيف تحافظ على حرارتها؟

وعندما نقول: الشمس فإنما نعني كل نجوم هذا الكون فنجوم هذا الكون كلها شموس صغيرة لبعدها عنا وشمسنا هذه نموذج عنها والسؤالان اللذان ذكرناهما مهمان جدا لأن كل الشموس في حالة عطاء دائم فهي تعطي دائما إشعاعا حراريا يشكل طاقة لقد أضيء معرض شيكاغو الذي أقيم عام 1933 بكامله بواسطة مفتاح ضخم يدار بواسطة شعاع ضئيل كان قد انبعث من نجم السماك الرامح منذ أربعين عاما فما سبب هذه الطاقة في الشموس؟ أجيب على هذا السؤال أكثر من جواب ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير وهو إن ذرات هذه الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جدا وبواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة

الحرارية التي لا مثيل لها وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءا من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة وإذن فإن كل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان ولو جزء بسيط من كتلتها.

إن الشمس مثلا تفقد كل يوم كذا كيلو غرام ومثلها بقية النجوم فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي أو أنها تكون قد استنفدت وانتهى أمرها والأزل كما رأيناه هو الأزل ونحن لم ننس أن قسما من هذه الطاقة التي تصرفها الشموس يتحول إلى مادة ولكن نسبة التحول إلى غير التحول تبقى ضئيلة كنسبة النجوم إلى الفضاء وكلامنا ليس في جزء من الكون يفقد ويعوض فقد يوجد مثل هذا التوازن أحيانا ولكن كلامنا في الكون كله إذ ما دام الفضاء عظيما فحتما سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول: إلى مادة وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادي بشكل ما من جديد فإن تصور أزلية الكون القحالي مستحيلة إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستنفاد طاقة الوجود كله أما الكلام بأن الكون كله كان في الأصل طاقة فتحولت إلى مادة وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة ومن ثم سيكون مادة وهكذا فالمغالطات فيه واضحة ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها فالطاقة تحتاج إلى ذات وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم أو بتعبير العلماء القدامى: الطاقة عرض تحتاج إلى جوهر لتظهر فيه فإشعاع الشمس عندما يصادف الأرض مثلا تأخذ ذرات الأرض حرارته وبهذا تصبح ذرات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مادة فهل سيتحول نفسه إلى ذرة مادية على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن وبهذا يتضح بما لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديما وأن له بداية وأنه لا يتصور وجوده لولا أن له خالقا هذا الخالق هو ابتدأ خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن.

وقد عبر علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله على الشكل التالي: نظروا إلى الكون فوجدوا ما فيه على نوعين: نوع يقوم بذاته ونوع لا يقوم بلا ذات فمثلا الجسم يقوم بذاته لكن المرض لا يكون بلا جسم والذرة تقوم بذاتها ولكن الحرارة لا تكون بلا ذات وسموا ما يقوم بذاته الجوهر ومالا يقوم إلا بالجوهر عرض فالذرة جوهر وحرارتها عرض والجسم جوهر والصحة عرض وقالوا: إن الجوهر لا ينفك عن الأعراض فما رأينا جوهرا إلا ويلازمه عرض ما وكل عرض حادث فالظلام حادث فمنذ فترة كان قبله نهار

والنهار حادث فمنذ فترة كان قبله ليل وحرارة الذرات مهما كانت فإن لها بداية وإذا كان لا جوهر إلا بعرض فلا جوهر إلا وله بداية فالكون جواهره وأعراضه كله حادث وليس أزليا

مناقشة سؤال: ويثير الناس عند الوصول إلى هذه الحقيقة السؤال التقليدي: من خلق الله الذي خلق الخلق وفي مضمون السؤال الجواب عليه فالله حق وكونه خالقا يجعلنا لا نتصور أنه مخلوق إذ لو كان مخلوقا لما استطاع أن يخلق ألا ترى أن الإنسان مثلا مع كل ما أوتي من إمكانيات لم يستطع أن يخلق شيئا من عدم فكيف نتصور خالق هذا الكون مخلوقا.

يقول الأستاذ البنا رحمه الله مجيبا هؤلاء الذين يسألون هذا السؤال: إذا وضعت كتابا على مكتبك ثم خرجت من الحجرة وعدت إلها بعد قليل فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعا في الدرج فإنك تعتقد تماما أن أحدا لا بد أن يكون قد وضعه في الدرج لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه احفظ هذه النقطة وانتقل معي إلى نقطة أخرى لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيته جالسا على البساط مثلا : فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله ولا تعتقد أن أحدا نقله من موضعه لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله احفظ هذه النقطة الثانية ثم

اسمع ما أقول لك: لما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها بل لا بد لها من موجد. عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره بل إن من صفاته قيامه بنفسه عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى من يوجده وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام اتضح هذا المقام والعقل البشري أقصر من أن يتورط في أكثر من ذلك وقد كان علماء التوحيد يرون أن مثل هذا السؤال لا معنى له. فيقولون: إذا سرنا مع السائلين شوطا عندما سألوا: من خلق الله فقلنا لهم: غيره ومن خلق غيره غيره ومن خلق الثالث آخر وماذا بعد ذلك فإنه بالتالي لا بد أن نصل في النهاية إلى ذات لا بداية لها ولا خالق هذه الذات التي لا بداية لها ولا خالق هي الذات الإلهية وكل جواب في الوسط لا معنى له في النهاية.

فهناك خالق ومخلوق ولا يمكن أن يكون للخالق خالق والحقيقة أن يسأل مثل هذا السؤال إما هازل والجواب عليه إعراض عنه أو متوهم والجواب عليه إزالة سبب التوهم وسبب توهمه أنه رأى كل شيء موجود محتاجا إلى خالق فتصور أن هذا القانون يسري على الخالق نفسه وهذا خطأ فليس شرطا حتميا أن تنطبق على الصانع نفس القوانين التي يخضع لها المصنوع إذ المصنوع والقوانين التي يخضع لها من صنع الصانع وفي حدود العالم نفسه نجد أن ما صنعه الإنسان لا تسري عليه حالات الإنسان فالإنسان يمشي تلقائيا ويريد ويعلم ويدرك ويفكر ويأكل ويشرب ويمس ويشتهي فهو شيء وما يصنعه شيء آخر ولكل خصائصه وهذا الكون شيء وخالقه شيء آخر وللكون خصائصه وللذات الإلهية صفاتها وفي غالب الأحيان يكون صاحب السؤال من الذين لا يؤمنون بالله

والجواب على مثل هذا أن نقول له: إننا جميعا متفقون على أن هناك شيئا قديما لا بداية له ولا خالق أنت تقول: إن هذا الشيء القديم هو المادة ونحن نقول هذا الشيء القديم هو الله وقد أثبتت العلوم كلها أن المادة غير قديمة فلم يبق إلا أن يكون الله هو القديم وقد ذكرنا في الصفحات السابقة بعضا مما قالته العلوم وننقل الآن أقوالا أخرى لبعض علماء الطبيعة في نفس الموضوع مختتمين بها الحديث عن هذه الظاهرة يقول جون كوشران: تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد ويقول ايرفنج وليام: فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن هذا الكون بداية قديمة وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلي ليس له بداية أو أبدي ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغير هذا كلام هؤلاء على كفرهم إذ الإيمان بالله له مستلزمات لم يقم بها هؤلاء إلا أن علمهم بقوانين الكون أوصلهم إلى هذه الحقيقة الخالدة والقائمة في كل فطرة والبدهية عند كل عقل مستقيم والله عز وجل يقول: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ" الطور : 35 . "أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" الطور : 36

الظاهرة الثانية

ظاهرة الإرادة

إن هناك فرضيات ثلاث يمكن أن تذكر أثناء الحديث عن الكون وما فيه؛ كتعليل لوجوده على ما هو عليه :

1- أن يكون من صنع الله

2- أن يكون من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عن قصد وإرادة وعناية منها أي أن عناصر المادة الأصلية فكرة دبرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي نراها

3- أن يكون الكون بما فيه قد يكون بطريق المصادفة أي أن الجزيئات الكهربية التي منها تتألف ذرات هذا كالكون وجدت مصادفة وكان بعضها سالبا والآخر موجبا والأخير معتدلا مصادفة وكل جزيء سالب التقى بجزيء موجب مصادفة ومجموعة متدرجة من الواحد إلى 238 من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نوى مصادفة والجزيئات السالبة أخذت تدور حول هذه النوى مصادفة وكان بين النواة والكهارب فراغات لولاها لكان جرم كالأرض بحجم البيضة مصادفة ووجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب كان مصادفة ووجود إمكانيات التحاد بين العناصر لتشكل مركبات جديدة بسبب نقص الالكترونات عن الثمانية في غلافات بعض الذرات كان مصادفة واتحاد العناصر واجتماعها لتتكون هذه الأجرام الهائلة من الشموس كان مصادفة والحرارة الموجودة في الشموس والإشعاع والترتيب كان مصادفة ثم الأرض بوضعها الحالي الصالح للحياة: قشرتها هواؤها ماؤها جبالها حجمها وجدت مصادفة ثم الحياة بتنوعها وتركيبها وأجهزتها المعقدة وجدت مصادفة ثم الإنسان: بعقله وفكره وتركيبه وروحه وأخلاقه واستعداداته الخيالية والتصويرية والعلمية وإمكاناته للتسخير كل هذا وجد مصادفة هذه افتراضات ثلاث لا يمكن أن يفترض غيرها لتعليل وجود هذا الكون على ما هو عليه.

أما الفرض الأول: فيقول به المؤمنون وأما الفرض الثاني فلا يقول به أحد وأما الفرض الثالث فيقول به الماديون وإذن فنحن أمام فرضين فقط إما أن يكون هذا الكون بتنوعاته من صنع صانع له إرادة طبقا لمبدأ السببية وإما أن يكون نتيجة المصادفة ومهمتنا أن نرى أياً من الفرضين يقوم عليه البرهان وأياً منهما لا دليل عليه ولا برهان؛ إذ أن المصادفة في حد ذاتها

تكون أحيانا ممكنة وتكون أحيانا في حكم المستحيلة عقلا وسنضرب أمثلة تبين حالة الإمكان وحالة الاستحالة: خذ لوحا واغرز فيه إبرة وضع في ثقبها إبرة ثانية أخرى وقل لي: إذا رأى الإنسان هاتين الإبرتين وسأل كيف أدخلت الثانية في ثقب الأولى فأخبره إنسان معروف بالصدق أن الذي أدخلها رجل وضعها بيده في شق الإبرة الأولى ثم أخبره إنسان آخر معروف بالصدق أيضا أن الذي ألقاها صبي صغير ولد من بطن أمه أعمى فوقعت في الشق بطريق المصادفة فأي الخبرين يصدق؟

لا ريب أنه يميل إلى تصديق الخبر الأول ولكنه أمام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر ولكن إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة في شق الثانية أيضا فهل يبقى عدم الترجيح على حاله؟ الحقيقة أنه يتقوى ترجيح القصد على المصادفة ولكن لا يزال للمصادفة محل ولو كان ضعيفا فإذا ما رأى الرجل أن هناك عشر إبر كل واحدة منها مغروزة في ثقب الأخرى التي تليها فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على وضعه السابق الحقيقة أن ترجيح فكرة القصد يتقوى لدرجة تكاد تتلاشى فيها فكرة المصادفة وكلما ازداد تعقيد المسألة أكثر دنت فكرة المصادفة من الاستحالة.

فمثلا لو قلنا: إن الإبر العشر مرقمة بخطوط لكل واحدة منها رقم من الواحد إلى العشرة وقيل لنا في الخبر: إن الصبي الأعمى أعطي كيسا فيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة وإنه كان يضع يده في الكيس ويستخرج الإبر تبعا على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ويلقيها اعتباطا فتقع الأولى في شق المغروزة في اللوح وتقع الثانية في الأولى والثالثة في الثانية والرابعة في الثالثة وهكذا حتى أتم إدخال الإبر العشر بعضها في بعض على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ثم إذا تعقدت المسألة أكثر بحيث جعلنا بدل الصبي الهواء أو الماء أو العدم فماذا يكون موقف الإنسان في هذه الحالة هل يصدق خبر من يقول بالمصادفة أو خبر من يقول أن هناك ذاتا ذات إرادة وبصر هي التي فعلت هذا؟ لا شك أن الإنسان العاقل يرجح ترجيحا مطلقا بالبداهة أن الثاني هو الصادق وسبب هذا الترجيح يعود إلى أن للمصادفة قانونا رياضيا عاقلا لا يمكن الخروج عنه وهو: أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين يكون حظ

المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عشرة وذلك لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعا وإلى هنا يكون الحظ في النجاح قريبا من المتزاحمين حتى لو كانوا مائة أو ألفا ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخما هائلا يصبح حظ المصادفة في حكم العدم بل المستحيل ولإدراك المسألة بشكلها الواسع الواضح فلنقرأ هذا المثال:

افرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها فجاءت هزة أرضية قلبت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها ثم جاءك منضد الحروف يخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني فالقضية تكون في هذه الحالة قابلة للتصديق جدا ولو قال لك: إن الكلمات العشر ألفت جملة مفيدة كاملة تستبعد ذلك ولكن لا تراه مستحيلا ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها تشكلت وكونت عند اختلاطها بالمصادفة كتابا كاملا من 500 صحيفة يتضمن قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة منسجمة بألفاظها وأوزانها لا شك أنك في هذه الحالة ترى الاستحالة بدهية وواضحة والسبب في رؤية الاستحالة يعود إلى قانون الصدفة نفسه فإذا علمنا أن نسبة خروج الأرقام العشرة متسلسلة في مسألة الإبر هو 1 إلى العشرة مليارات ولو كانت الإبر 12 لكان احتمال خروجها متتابعة واحد إلى ألف مليار ولو كانت 21 لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار فكيف بالتزاحم الذي يجري بين 500 ألف حرف لتكوين 125 ألف كلمة تقريبا بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدا إن النتيجة هائلة لدرجة أن نسبة الاحتمالات في حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة ولكي نعرف معنى كلمة 500 ألف وحرف و125 ألف كلمة و28 حرف هجائي لندرس هذا النقل العلمي.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد 40000 ذرة ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة 92 عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئا من جزيئات البروتين يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات

الجزيء الواحد وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة 1 إلى 10 أي بنسبة واحد إلى الرقم 10 مضروبا في نفسه 160 مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

يقول ليكونت دي نوي: يجب أن تتصور حجما أكبر من الكون الأنشتايني بسكستيليون سكستيليون مرة ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنين 10 أس 243 إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتآلف ذرات هذه الجزيئات إنها إذا تآلف بطريقة أخرى غير التي تتآلف بها تكون غير صالحة للحياة بل تصير في بعض الأحيان سموما وقد حسب العالم الإنكليزي ج . ب ليتز الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين 10 أس 48 وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينا واحدا. ولقد ذكرنا هذا النص لنرد مباشرة على من يقول إن مالا يحدث في هزة واحدة يمكن أن يحدث في غيرها إلى ملايين الهزات لنبين الزمن الهائل الذي نحتاجه لتكوين جزيء واحد فيه خمسة عناصر مع ملاحظة أن أقصى تقدير لعمر الكون خمسة بلايين سنة فخمسة عناصر في جزيء واحد يمكن أن يكون تشكيلاتها 10 أس 48 نوع فكيف ب28 حرف هجائي تريد أن تشكل قصيدة مؤلفة من 125 ألف كلمة مجموع حروفها 500 ألف حرف بتسلسل معين بفكر معين بنظم معين وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه نذكر كلمات علماء التوحيد المسلمين في هذا الموضوع فإن لها علاقة وثيقة بنظرية الاحتمالات للوصول بالنهاية إلى المراد. يتحدث علماء التوحيد عن الكون كحديثهم عن كل الممكنات التي يمكن أن تكون ويعددون هذه الممكنات فيقولون:

الممـــــــــكنـــــــــــات المتقابلات   وجودنا والعدم الصـــفات
أزمنـــــــــة أمكـــــــــــنة جهـــات   كذا المقادير روى الثقات

فإذا كان هذا الكون من الممكنات فكل ممكن يمكن أن يكون موجودا ويمكن أن يكون معدوما ويمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تعد ويمكن أن يكون في زمان ويمكن أن يكون في أزمنة أخرى ويمكن أن يكون في مكان ويمكن أن يكون في أمكنة أخرى ويمكن أن يكون بمقدار ويمكن أن يكون بمقادير أخرى وبالتالي فكل جزء من أجزاء هذا الكون تنطبق عليه هذه المعاني فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يختار دائما واحد هو الأحكم والأحسن والأكثر نظاما ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى فلا بد إذن من وجود إرادة عليا رجحت أحد وجوه الاحتمال والمكان وبعد هذا كله وقبل أن نصوغ مسألتنا في صيغتها الأخيرة نقول: إن المسألة في موضوع الكون أعتقد بكثير من المثالين اللذين ضربناهم ففي مثال الطفل والإبر أو مثال المطبعة والحروف. الإبر موجودة بثقوبها بإمكانية الغرز فيها ذراتها متآلفة مع بعضها على ترتيب معين من معدن معين. والطفل موجود وعنده إمكانية الرمي وله إرادة تتوجه حتى يرمي وإن كان أعمى. وحروف المطبعة موجودة وهذا حرف كذا وذلك حرف معين وذراتها مجتمعة حتى تكون هذا الحرف وموجودة بجانب بعضها ومصفوفة في صناديقها وهناك شيء اسمه هزة أرضية لها قوانين. أما في موضوع الكون فإن القضية من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحيط بها عقول البشر كافة مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور في حد ذاتها بل الوقوع.

ونبدأ الآن في صياغة المسألة: هذا الكون مؤلف من عناصر واحدة: بنجومه وشموسه ومجراته وأرضه يبلغ عدد هذه العناصر أكثر من مئة وهذه العناصر نفسها عبارة عن شحنات كهربائية بعضها موجب والآخر سالب وبعضها معتدل ويسمى الموجب البروتون والسالب إلكترون والمعتدل نيوترون وعدد الإلكترونات في مدار الذرة الخارجي يكون مطابقا لعدد البروتونات التي في نواتها فإذا كان في نواتها بروتون واحد كان في المدار إلكترون واحد كما في الهيدروجين وإذا كان في النواة بروتونان كان في المدار إلكترونان وهكذا يتدرج العدد واحد من أخف العناصر وزنا ذريا إلى أثقلها وهو الأورانيوم وبهذا التعادل العجيب بين الإلكترونات السالبة والبروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذرة أما النيوترونات المحايدة فإن عددها في نواة الذرة قل أو كثر لا يتعادل مع عدد الإلكترونات واختلاف العناصر أثر عن اختلاف عدد البروتونات والإلكترونات في ذرة كل منها فالفارق بين الهيدروجين والأورانيوم؛ أن الأول فيه بروتون واحد وإلكترون واحد بينما الأورانيوم فيه 238 بروتون و238 إلكترون والعناصر هذه

التي يتشكل منها الكون كله وهي نفسها موجودة تقريبا في كل جرم فنفس العناصر الموجودة في الأرض موجودة في الشمس وكذلك في كل نجم موجود في هذا الفضاء وإذن فكل هذه المجموعة من العناصر تجتمع مع بعضها بكتل عظيمة لتشكل جرما وكل جرم له نفس القوانين التي للأجرام الأخرى وهذه الأجرام كلها لها مداراتها المنظمة لكل مداره الذي لا يصطدم فيه مع أي جرم آخر رغم السرعات الهائلة التي يسير فيها حتى إن احتمال اصطدام نجم مع آخر كاحتمال اصطدام سفينتين في المحيط الهندي والأخرى في المحيط الأطلسي وشمسنا نحن واحدة من هذه الأجرام التي لها نفس خصائصها وقوانينها ويتبع شمسنا كواكب سيارة إحداها الأرض التي نعيش عليها والتي ظهرت فيها الحياة ثم:

1- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ولما أمكن وجود الحياة.

2- ولو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحترق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

3- ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لكنا تجمدنا ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنا رمادا منذ زمن بعيد.

4- ولو كان قمرنا يبعد عنا 20000 ميلا بدلا من بعده الحالي ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه 60000 ميل لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرضي تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفسها.

5- ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل يتجمد كل ما نبت على الأرض.

6- ولو كان الأوكسجين بنسبة 50 بالمئة أو أكثر من الهواء بدلا من 21 بالمئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة كلها ولو كانت نسبة الأوكسجين 10 بالمئة لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم.

7- ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها فلولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة ولولا أن البخار أخف من الهواء لما كانت الحياة.

8- ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لما كان ملح وبالتالي ما كانت حياة.

9- ولو كانت الأرض كعطارد لا يدير إلا وجها واحدا منه نحو الشمس ولا يدول حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلا دائما والآخر نهارا دائما لما عاش أحد حيث الليل قائم أو النهار دائم ولا كانت حياة.

10- ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات ومن أين تكون الشمس شمسا والأرض أرضا ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الإنسان.

11- وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ولصارت الحرارة بالغة حد الموت.

12- ولو كانت الإلكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات لكانت الكرة الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره وعندما تكون المسألة كذلك يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته.

13- ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات إن مواقع الإلكترونات في غلاف الذرة أي في المدار الخارجي تنتظم في ترتيب معين فهي لا تزيد عن ثمانية إلكترونات إلا في المدار الأول فإنه لا يتسع لأكثر من إلكترونين فإذا بلغ عدد الإلكترونات في المدار الأخير الثمانية يفتتح مدار آخر فمثلا إذا كان للعنصر أحد عشر إلكترونا اتخذ اثنان المدار الأول والمدار الثاني يتسع لثمانية فقط فيتخذ الإلكترون المتبقي مدارا ثالثا وهكذا بحيث لا تزيد إلكترونات المدار الخارجي عن ثمانية علما بأن بعض المدارات الداخلية تتسع لأكثر من ثمانية إلكترونات واتحاد العناصر ببعضها يتماشى على أساس هذا الترتيب ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين إلكتروناتها فإذا كان عدد إلكترونات المدار الخارجي للعنصر أقل من ثمانية فإنه يستطيع أن يتحد مع عنصر آخر فالذي في مداره الخارجي سبعة يتحد مع الخارجي إلكترونان أما الذي في مداره الخارجي ثمانية فهو خامل ولا يستقبل إلكترونا واحدا.

14- ولولا قوانين الحرارة لما بردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة.

15- ولولا الجبال لتناثرت الأرض ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة.

16- ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استمرت الحياة.

هذه كلها مقدمات للحياة إنها مقدمات أوصلت إلى نتيجة وكل مقدمة من هذه المقدمات لا يمكن أن تكون مصادفة في حساب الاحتمالات إلا بنسبة 1 إلى أرقام خيالية جدا وإننا نرى أن كل مقدمة من مقدمات الحياة في هذا الكون يمكن أن تكون على شكل ملايين الأشكال الأخرى ولكن

واحدا فقط من هذه الممكنات هو الذي اختبر والمقدمة الثانية يمكن أن تكون على ملايين الاحتمالات. وبتضافر هذه المختارات من بين هذه الممكنات كلها وجد الجو المناسب للحياة ثم كانت حياة بأنواعها وأجناسها وتعقيداتها فهل يمكن تعليل هذا كله بغير الإرادة التي ترجح وجود ممكن على ممكن آخر. إنها الإرادة فقط.

ولنعد مرة أخرى إلى ما قاله علماؤنا من قديم: إن كل شيء في هذا الوجود يمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون في جهة وأن يكون في جهة أخرى ويمكن أن يكون في مقدار ويمكن أن يكون في مقدار آخر وإرادة الله وحدها هي التي يعلل بها ترجيح أحد وجوه الاحتمال حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله وكل شيء فيه على أجمل ترتيب وأروعه

وأخيرا:

إن الذين يقولون بأن حوادث هذا الكون كلها وليدة الصدفة إنما يعطون لهذه المصادفة علما محيطا وإرادة كاملة وقدرة مطلقة تعلم وتريد وتقدر وهي في كل ذلك تعمل بحكمة أكثر مما لو اجتمعت عقول البشر جميعا بنسبة ذكاء لا متناهية وإن بداهة العقل تحكم أنه حيث وجدت الإحكام كان العلم والإرادة والقدرة والحياة حيث وجدت هذه الصفات كانت الذات التي تقوم بها هذه الصفات إن القلم الذي تكتب به والذي تشعر أنه أعد خصيصا لكي تكتب به يد الإنسان ومخزن الحبر الذي أعد فيه لغاية والغطاء والثقب الموجود فيه اللذان أعدا لحكمة والنحاسة التي تعلقه بها في جيب سترتك وتجويف إبرة الكتابة وهذا العظم الذي فيها بخطوطه ذات الفائدة و .... هذا القلم الذي فيه هذه الأشياء مجتمعة لو حاول إنسان أن يقنعك بأنه وليد مصادفة وليس وليد علم الإنسان وإرادة الإنسان وقدرة الإنسان وحياة الإنسان وذات الإنسان فإنك لا شك تحمقه أو تجهله فكيف يخطر ببال أن الإنسان هذه الآلة الضخمة والمعمل العظيم صاحب جهاز الهضم وجهاز الدوران وهذه الشجرة ذات الجذور والأوراق والساق بنسغها الصاعد والهابط وما يكون فيها من تنفس وتفاعلات وتشكلات وإنتاج زهر وثمر معمل أدق تركيبا من كل ما صنعه عقل الإنسان وعالم الذرة بما فيه من طاقات وتحركات وتركيبات وما ينتج عنه من تفاعلات وآلاف الأمثلة من أمثال هذا وملايينه كل هذا وليد مصادفات وهل يكون العقل الذي يقول بهذا علماني الاتجاه وهو يتحدى كل قواعد العلم

قال تعالى : "قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ"عبس : 17 " أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ" يس : 77

الظاهرة الثالثة
ظاهرة الحياة

إن القصد من دراسة هذه الظواهر هو الإيمان بالله والوصول إلى العلم به بتحكيم قواعد العقل وعندما ندرس ظاهرة ما فإننا نريد دراسة أمهات القضايا التي تشير إلى الله لأن في كل ظاهرة جوانب لا تعد ولا تحصى تدل على الله إننا نقول هذا لأن بعض الناس يتوهمون كأن التفكير في الكون ودراسة ظواهره بعمق وترتيب المقدمات على النتائج والوصول إلى الحقائق ونبذ الأوهام والقضاء على الخرافة والتمسك بالقانون الذي أوصلت إليه التجربة كل هذه المعاني مما لا يتفق مع الفكر الديني ولئن وجد هذا عند ديانات خاطئة ومذاهب باطلة فلا يصح هذا في الدين الحق ولن يوجد أبدا لأن الحق لا يتعارض مع الحق فإذا كان الدين حقا فلا بد أن يكون كل أصل فيه وكل فرع من فروعه منسجما انسجاما تاما مع الحقيقة التي قام عليها البرهان؛ وإلا فإن نصا واحدا من نصوص الدين يثبت تناقضه مع الحقيقة القاطعة كاف لأن يزعزع الثقة في الدين كله ولما كانت ظاهرة الحياة من الظواهر التي كثر الأخذ والرد حول بعض جوانبها كان لا بد من أن نذكر بعض القواعد التي تتحدث عن بعض حقائق الإسلام حتى لا نقع في التباس مع ملاحظة أن هذه الجوانب ليس لها علاقة مباشرة في موضوع دلالة ظاهرة الحياة على الله فنقول:

1- إن الإسلام فرض على الناس الفكر والبحث وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة: "أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ" الأعراف : 185 "قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" يونس : 101 "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى" الروم : 8

2- إن الإسلام فرض على الناس العلم، والآثار الواردة في الحث على العلم كثيرة وكذلك الآيات التي تبين أن العالمين بالكون أعرف بالله: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" الروم : 22
"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء" فاطر : 27-28

3- ومن البديهي بعد هذا أن يقال إن ما وصل إليه الفكر والعلم من حق يفترض على المسلم أن يقول به ولا يقول بخلافه وقد يحدث أن يوجد بعض المسلمين الجاهلين وحتى ممن ينتسبون إلى العلم يعارضون بعض الحقائق العلمية ولكن في هذه الحالة يبقى رأيهم شخصيا وهم فيه خاطئون ويؤاخذهم على ذلك عامة المسلمين وعلماؤهم ولقد قال الإمام الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة حاملا على علماء الدين المنكرين للحقائق العلمية كمعرفة وقت الكسوف والخسوف وغيرها: ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق من أدلتها ثم يقال له إن هذا على خلاف الشريعة لم يسترب فيه وإنما يستريب في الشرع. وضرر الشرع ممن لا ينصره بطريقة أكثر من ضرره ممن يطعن فيه وهو كما قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل

إنه لمن الوهم أن يظن ظان أن يأمرنا الله عز وجل بالبحث والعلم والنظر والمعرفة ثم يحرم علينا أن نأخذ بنتائج هذا العلم والمعرفة بل العكس هو الصحيح فالأمر بالفكر أمر بالأخذ بنتائج الفكر بالضرورة.

4- ولكن إذا كان المسلم علمي التفكير والاتجاه وهدفه أن يصل إلى الحقيقة العلمية فليس معنى هذا أن يقبل الظن أو الفرضية أو النظرية على أنها حقيقة علمية إن المسلم ينبغي أن يقف أبدا على أرض من صخر في عالم الفكر فالله الذي حرم علينا أن لا نذعن إلا للحقيقة لم يرض لنا أن نقبل شيئا دون برهان أو نعتبر الفرضية والنظرية حقيقة فنأخذ بها على أنها مسلمة "وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً" الإسراء : 36 "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" النجم : 28 " قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" البقرة : 111

"اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" الأحقاف : 4 "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى" النجم : 23

وهذا هو الفارق الكبير بين العقلية الإسلامية والعقلية الأخرى العقلية الإسلامية عقلية مثبتة تماما لا تقبل شيئا دون برهان ولا تضع في صف الحقائق إلا ما قام عليه الدليل القاطع وذلك

على عكس العقلية الأخرى التي تشتط أحيانا فتصف ما ليس علميا بأنه علمي وتؤمن به وكأنه قطعي رغم ضعف البرهان أو إمكانية انهياره إن العقل المسلم كما يرفض ألا يكون علميا كذلك يرفض أن يكون: حدسيا أو ظنيا أو متوهما ومنذ قيام الإسلام كدين تفتح العقل المسلم على الحياة والعلم والتجربة وبدأ في حل ألغاز الكون بعقلية تريد أن تعرف كل شيء وتخضع الكون كله للتجربة وتستنتج قوانينه المودعة فيه فقامت الحضارة الإسلامية أزهى ما تكون الحضارة متدرجة نحو علم أكثر وكشوف أكثر.

ومما لا شك فيه تاريخيا أن لقاح الفكر الإسلامي التجريبي هو الذي ولد العقل الغربي التجريبي الذي قامت كثمرة من ثماره الحضارة العلمية والصناعة الغربية وإذا حدث في العالم الغربي أن اصطدمت الحقائق التي محصتها التجربة بالدين الذي كان سائدا هناك فالذنب ذنب الدين المحرف المبدل الذي لا يصمد أمام الحقيقة ولكن هذا الشيء الذي حدث هناك لم يحدث عندنا قديما أو حديثا ولا يمكن أن يحدث لأن الحقيقة لا تصادم الحقيقة بل تدعمها والدين الحق دين الله والكون خلق الله ولا يمكن أن يتعارض ما خلق الله مع ما أخبر الله عنه ولذلك كانت ظاهرة من أعجب ما عرف العالم وهي أن النص القرآني وسع في حال تعرضه لقضية كل حقيقة كشف العلم عنها في هذه القضية وسيسع كل حقيقة يمكن كشفها فيها وسنرى في بحث الإعجاز القرآني كثيرا من الآيات التي تدل على هذا المعنى بشكل واضح وصريح مثبتين أن الحق لا يعارض حقا ولكن هذا لا يعني أبدا أنه كلما قام إنسان فقال قولا أن نحمل القرآن هذا القول أو نتأول القرآن لصالح هذا القول إن القرآن أمنع من أن يكون تابعا فقد أنزله الله ليتبع لا ليتبع إن القرآن والحقيقة العلمية لا يتناقضان ولذلك فإذا ما ثبتت الحقيقة العلمية ثبوتا كاملا فهم النص القرآني الذي له علاقة بهذه الحقيقة على مقتضاها بل في هذه الحالة يكون النص القرآني أسبق لتقريرها وإن غفل عن معناه الحقيقي الناس قرونا نتيجة لقلة معرفتهم في الكون وقد ذكرنا هذه المقدمات لأن دارس ظاهرة الحياة لا بد أن يطالبنا بتوضيح الرأي الصحيح في نظرية التطور كنظرية تعلل تنوعات الأحياء وظهور الإنسان و إليك ما نقوله في هذا الموضوع:

1- إن القول بأن إنساننا الحالي الذي أتى من أب واحد وأم واحدة كان متحدرا من قرد خطأ لا شك فيه ولا ريب نقول هذا بلغة العلم ولغة القرآن ولا يتناقضان أما بلغة القرآن فلان الله يقول: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" آل عمران : 59 "وَبَدَأَ

خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ" السجدة : 7 ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب " . رواه الترمذي (2955) وأبو داود (4693) .

وقال عليه الصلاة والسلام: "لما خلق الله آدم ، ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله . فحمد الله بإذنه ، فقال له ربه : يرحمك الله يا آدم ! اذهب إلى أولئك الملائكة – إلى ملأ منهم جلوس – فقل : السلام عليكم . قالوا : وعليكم السلام ورحمة الله . ثم رجع إلى ربه . فقال : إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم . . . ." [الترمذي (3368)

وأما بلغة العلم:

1- إن التاريخ كله كل سفر فيه وكل أثر من آثاره وكل رواية يتناقلها الأبناء عن الآباء تذكر أن أبا البشر آدم

2- الفوارق الكبيرة بين الإنسان والقرد أو أي حيوان آخر تثبت أنه لا صلة تواليدية بين الإنسان الحالي وأي حيوان هذه الفوارق التي تبدأ من الناحية الجسمية وتنتهي عند (الأخلاف) وبين ذلك الفكر والعلم والإرادة ... إلخ.

وهذه القضية هي التي جعلت حتى بعض أنصار داروين كوالدس يقول إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا وقال فرخو: إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقا بعيدا فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم ولا يحسن أن نتفوه بذلك

3- إن اكتشاف الكروموسومات الصبغيات وهي العامل في انتقال الصفات الوراثية جعلت العلماء يتحرضون بادعاء أن الإنسان منحدر من قرد إذ الكروموسومات في الشمبانزي 48 وفي الإنسان 46 وذلك أن هذه العرى الملونة لها عدد ثابت في كل نوع من إنسان أو حيوان حيث بها يختلف النوع ويتميز الجنس وإذا كان العلم والقرآن يقولان بما أسلفنا فلا كلام لغيرهما بل ولو شك العلم وقال القرآن لما كان عاقل إلا مع القرآن وذلك لأن الله الذي خلق الإنسان

أعلم به كيف خلق قال تعالى: "مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ" الكهف : 51

أما فيما يتعلق بأنواع الحياة الأخرى فالذي يبدو أن العلماء الذين أيدوا داروين ليسوا أكثر من العلماء الذين عارضوه وبمجرد أن تكون القضية فيها أخذ ورد بين العلماء تبقى في حدود النظريات ولا ترقى إلى المستوى العلمي المتين وإليك بعض أقوال العلماء الاختصاصيين في هذا الموضوع والذي قبله يقول وولتر أدوار لامبرتس أخصائي علم الوراثة وقد اتضح لي كثير من الحقائق فعلم الوراثة مثلا لم يقدم لنا دليلا على صحة الفرضين الأساسيين اللذين أقام عليهما تشارلز داروين نظريته في نشأة الأنواع وهما:

1- أن العضويات الصغيرة في كل جيل من الأجيال تنزع دائما إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة

2- أن التغيرات المفيدة تورث في الأجيال الأخرى وتتراكم نتائجها حتى ينتج عنها تغيرات جسمية والواقع أن أقصى ما يمكن أن يتم من التغيرات في النباتات والحيوانات يمكن أن يتحقق سريعا عن طريق الانتقاء والتربية ويؤدي التلقيح الذاتي في النباتات أو زواج الأقارب في الحيوانات إلى إنتاج أفراد ضعيفة إلى حد كبير ولا تتغير في جميع الاتجاهات كما ذكر داروين إلا عندما تصيبها بعض الطفرات وهي قليلة الحدوث.

وتعتبر هذه الطفرات على قلتها الأساس المادي الذي يبني عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور ولكن هل يمكن أن تكون الطفرات حقيقة وسيلة التطور إن الدراسة الطويلة المتصلة لهذه الطفرات في كثير من الكائنات ؛ وبخاصة في ذبابة الفاكهة المسماة دروسو فيلاميلانوجستر تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت أما الأنواع غير المميتة منها فإن التغيرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي إلى التشويه أو على الأقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد فمن الصعب إذن أن يؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثية إلى التغيرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة تعتبر أكثر تقدما ورقيا من أسلافها وقد تؤدي الطفرة في بعض الحالات النادرة إلى تحسين صفة من الصفات كما يحدث في جناح الدروسوفيلا ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى

التي تطرأ على الجناح يؤدي إلى تكون حشرات أقصر عمراً وأقل قدرة على الحياة ولنسلم جدلا بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات تبلغ 1 بالمئة فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الأجيال لكي تتراكم ويظهر أثرها وينتج عنها نوع جديد. لقد وضح باتو في كتابه التحليل الرياضي لنظرية التطور أن تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة وحتى لو سلمنا بقدم الأحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيوانا حديثا نسبيا مثل الحصان قد نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمسا في الفترة من العصر الحجري حتى الآن ويقول ليكونت دي نوي: إن كلمة حلقة كلمة ذات أهمية كبرى في تاريخ الكائنات الحية إذ لا يمكن إثبات أن شكلا ما من الكائنات يشكل حلقة حقيقية وقد يكون ذلك ممكنا في بعض الحالات ولكنه ليس مؤكدا

وعلى أي حال يمكننا أن نقول: إنه ليس هناك شكل يعيش حاليا وهو سلف مباشر لشكل آخر فالإنسان لم ينحدر عن القرد أما بين المستحثات فإن كثيرا من الأشكال التي تدعى أشكالا وسطية ليست سوى محاولات غير ناجحة للتكيف وقد تكون معاصرة أو سابقة أو تالية للأشكال الانتقالية الحقيقية (ا . ه)

3- وإن الحلقة التي يقدمها بعضهم كأهم حلقة متكاملة من حلقات التطور هي حلقة روابط التسلسل عند الحصان إذ قدموا ستة أشكال وسطية تبتدئ من الهيرا كوثيريوم والايوهيبوس من العصر الإيوسيني منذ حوالي 50 مليون سنة وتنتهي بالحصان الحالي ولكن هذه الأشكال الوسطية تبدو وكأنها ظهرت فجأة وحتى الآن لم يتمكن من معرفة الجسر الذي يربط بين هذه الأشكال الوسطية بسبب نقص المستحثات ولكن حتى في حالة ثبوت هذا؛ فليس في ذلك دليل على ما ذهب إليه دوارين إذ أن الحصان بقي حصانا والمراد أن يؤتى بالدليل على أن الحصان أصبح جملا

ويقول ليكونت دي نوي كذلك: منذ البداية تلاحظ وجود روابط وفروق أساسية بين الحيوان والنبات فالسائل المغذي في الحيوانات هو الدم ودم الحيوانات العلية يحتوي على مادة أساسية هي عبارة عن صباغ أحمر يدعى بالهيموغلوبين كبيرة جدا ومعقدة للغاية ويختلف تركيبها بين

حيوان وآخر والوزن الذري الأدنى 69000 يقارب الهيموغلوبين في تركيبه الكيميائي ذلك الصباغ الموجود في النباتات والأشينات والذي يدعى باليخضور يحتوي على جوهر من المغنزيوم ومما يزيد في تعقيد المسألة أن الدم في بعض مفصليات الأرجل والرخويات والحيوانات الدنيا يحتوي على صباغ يختلف وزنه الذري تبعا للأنواع بين 400000 , 6700000 ويحتوي على جوهر من النحاس بدلا من الحديد والمغنزيوم بعض أنواع الحلزون مثلا فكيف تم الانتقال الكيميائي من صباغ لآخر يجب أن نعترف بصراحة أنه من المستحيل بيان ذلك إن بعض الأشينات الزرقاء تحتوي على العنبكوسبانين بينما الأشينات الخضراء تحتوي على الكلوروفيل ولا أحد يستطيع أن يثبت أن الأشينات الخضراء اشتقت من الأشينات الزرقاء لأن الفرق بين الاثنين كبير جدا وليس هناك شيء يستطيع أن يعلل هذا الانتقال لأن البيئة التي يوجد فيها النوعان مشتركة فلا يعلل الانتقال بتغير بيئة لندع جانبا إغراء القول: بأن أشياء كثيرة قد تحدث خلال 100 مليون سنة فإذا لم يحدث شيء في سنة واحدة فليس هناك ما يدعو بضرب ما يحصل بمليون أو 100 مليون مرة لأن نقول بأن شيئا سيحدث في نهاية الزمن فيجب أن تتوفر دائما نقطة أو عدة نقاط بدء مهما كانت صغيرة لتصبح المسألة ممكنة. لقد نقلنا هذه الأقوال ؛ لنبرهن على أن نظرية التطور ليست إلا من قبل الفرضيات التي لم يقم عليها برهان ولولا أن الصهيونية العالمية والشيوعية العالمية كل واحدة منهما تتبناها لهوى في النفس كامن ؛ لنُقِضَتْ من زمن نتيجة للحملات العلمية المركزة التي قام بها آلاف من العلماء عليها.

إن بروتوكولات حكماء صهيون تذكر أنها هي التي مهدت لنجاح داروين وقصدها من ذلك تحطيم الأديان في نفوس البشر غير اليهود والشيوعية تتمسك بها كمتمسك لا بد منه ولو باطلا لإثبات المادية الجدلية أما موقفنا نحن المسلمين من هذه القضية فهو الذي ذكرنا سابقا كموقفنا تماما من كل شيء ما قام عليه البرهان قبلناه وإلا توقفنا فيه إذا كان النص القرآني محتملا أما إذا جزم النص القرآني وشك العلم فنحن مع النص جزما لقد أمرنا الله أن نبحث عن نشأة الحياة:

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ" العنكبوت : 20 وقال تعالى : "أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ" العنكبوت : 19 ولقد أمرنا أن ننظر كيف وجدت الأحياء: "أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" الغاشية : 17 والله وحده له العلم الشامل المحيط قال أي

فرعون: "فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى" طه : 51 قال: أي موسى: "عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى" طه : 52

فما أخبرنا عنه منه ذلك لا يكون غيره حقا ولا يكشف العلم عن سواه وقد ذكرنا ما قال في هذه القضية والآن نبدأ في دراسة ظاهرة الحياة لرؤية قدرة الله فيها وهو المقود من هذه الدراسة فنقول: إن ظاهرة الحياة تدل على الله من أربعة جوانب رئيسية:

1- نشأتها
2- تنوعها
3- الإنسان
4- الأخلاق

كل جانب من جوانب هذه المعاني يدل على الله دلالة كاملة ورغم كل المحاولات التي بذلت لإثبات أن هذه المعاني يمكن أن تكون دون أن يكون الله خالقها فإن الحقيقة بقيت سافرة دائما أن الله هو الخالق.

نشأة الحياة وتنوعها

إن الملحدين يقولون: إن الحياة بدأت خلية بسيطة أو مجموعة خلايا ثم بدأ التكاثر يعمل عمله والتطور يعمل عمله حتى وصلت الحياة إلى ما وصلت إليه الآن ولكن هل لهم على هذا من برهان إن أكبر برهان لو كان هو أن يصنعوا الحياة خاصة والعناصر التي تتركب منها الأحياء معروفة ونسبها معروفة وأجهزتها معروفة وكل شيء فيها معروف وكل شرط تحتاجه الحياة يمكن أن يتوفر في المصنع فمهما كانت الظروف الأولى التي ولدت فيها الحياة فبالإمكان أن نقدرها ونوجد ظروفا مثلها ولكن حتى لو حصل هذا أيقول الذي صنعها: إنها وجدت من غير شيء أم يقول: إنها وجدت بعلم الإنسان وإرادة الإنسان وقدرة الإنسان؟

إن الله عز وجل يتحدى الذين يؤمنون بغيره إلها مهما كان نوع هذا الإله: طبيعة كان أو إنسانا أو صنما أن يخلق هذا الإله المزعوم ذبابة قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ" الحج : 73 "مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" الحج : 74 ولقد سار

الإنسان في الطريق ليجرب حظه في هذا التحدي لا ليصنع ذبابا بل ليصنع ما هو أقل من الذباب فماذا كانت النتيجة لقد كانت كما يلي:

حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويا وذلك في زعمها كدليل تثبت به مذهبها الإلحادي وكان أن كلفت بهذا الموضوع أوبارين رئيس المعهد الكيميائي في الاتحاد السوفيتي وطلبت منه أن يتفرغ للبحث في أمر واحد وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاما أعلن حوالي سنة 1959 عن انتهائه من دراسة هذا البحث وأعلن عن النتيجة التي توصل إليها في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباء في العالم إذ ذاك وهي أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المختبر والعلم لا شأن له إلا بالمادة المحسوسة وبدلا من أن يعترف أن الله هو خالق هذا الكون أجاب على سؤال كانت صيغته: هل التفاعل الكيميائي في المادة قادر على بعث الحياة كما انبعثت الحياة الأولى منذ ملايين السنين وعلى الصورة التي ادعاها أرنست هيكل
إن هذا ممكن ولكن في كواكب أخرى غير كوكبنا هذا وهذا تهرب واضح من السؤال حتى لا يحرج وإذن لِمَ لَمْ نستطع صناعة الحياة وكل شيء متوفر

والواقع أن عامة الذين لا يؤمنون بالله يتهربون من هذا الموضوع بمثل هذه الادعاءات إن الحياة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومة انسلت دون أن يصيبها تلف وبعد أن بقيت زمانا غير محدود في الفضاء استقرت على الأرض ومن ثم تسللت الحياة عن تلك الجرثومة أو يقولون: إنها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا مثل هذا الكلام عدا عن كونه لا يفسر لنا علميا تبعا لقوانين الوراثة ما نجده من أحياء فهو غير معقول كذلك إذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن تبقى حية في درجة الصفر المطلق في الفضاء وإذا استطاعت هذه الجرثومة البقاء رغم ذلك فكيف نجت من الإشعاع الكثيف ذي الموجة القصيرة الذي يقتل أمثالها وإذا بقيت حية رغم ذلك فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش في الظروف حتى توالدت فبدأت الحياة وكم من السنين استغرقت هذه الرحلة حتى وصلت وفي الحالة الثانية حالة النيزك كيف سلمت رغم الاشتعال الذي يحدث عندما يصطدم نيزك في جو الهواء وإذا سلمنا بإمكان هذا كله يبقى سؤالنا دون جواب كيف بدأت الحياة على ذلك الكوكب الأول

إن الخلية الواحدة على بساطتها ينبغي أن تقوم بجميع وظائف الحياة من تغذية وتنفس وطرح وحرارة معينة ونمو وتكاثر وانقسام وحركة وتأثر وإفراز وتلاؤم مع البيئة ولذلك فإن الخلية من التعقيد بحيث لا تقل أبدا عن أي كائن حي آخر ومن نوادر الاعترافات العلمية قول بخنز الذي يعتبر من أشد المؤيدين لمذهب النشوء ومن أكثر الماديين غلوا ومن الذي اتهموا داروين بأنه كان مصانعا لرجال الدين:

إن البت في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي نشأ عنها الأصل الأول غير متيسر لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولدا ذاتيا غير معروفة والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة بل إن ظهورها من الجماد في نظر العلم معجزة ليست أقل بعدا عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأسا
ويلوح أحيانا للعلماء بصيص من أمل, فيجمح بالكثير منهم الخيال , هانحن قد كدنا نصنع الحياة ؛ ثم لا يجدون إلا السراب, ومن آخر ما سمعناه في ذلك قولهم يوم اكتشفوا حمض الـــ دي إن إي: إن سر الحياة أصبح بأيدينا. ولكن بعد الضجة الكبيرة, كان الجواب القاطع أن الحياة من صنع الله وإليك القصة كاملة:

إن بعض أمراض التبغ تتولد من حمات مركبة من هيولينات نووية. تقاوم مبيدات الجراثيم وتتصف بخواص تمكنها من التكاثر والتمثل, ولقد تأكدت في السنوات الأخيرة حقيقة جديدة, ألا وهي أن هذه الحمات ليست إلا حموضا نووية خالصة تحيط بها مادة هيوليونية وأن الحمض النووي المكون لها هو أحد نوعين إما دي أن إي أو آر إن إي ولقد أمكن الآن معرفة بنية كل من هذين الحمضين معرفة تامة, رغم تركيبها المعقد جدا وذلك بفضل استخدام الأشعة فوق البنفسجية والمجهر الإلكتروني ووسائل كيماوية كثيرة أخرى وتبين أن هذا الحمض يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية تؤلف وحدة صغيرة تسلسل وتتكرر بشكل شريط أو سلسلة طويلة, وتقابل تلك السلسلة سلسلة أخرى مثلها, تصطف أمامها وتلتف إحداهما حول الأخرى بشكل حلزوني , ويربط بين السلسلتين بمسافات متساوية الأبعاد, روابط هيدروجينية تجعل شكلها النهائي كشكل سلم لولبي أو درج مئذنة. وأوضح العالمان واطسون وكريك أن عدد دورات الشريطين الحلزونين في الحمض يزيد عن ألف دورة , وأن طول الشريطين أو طول الحمض لا يتجاوز

30 انغستروا. ولقد قدر أحد العلماء أننا لو بسطنا الشريطين الحلزونين ووصنا نهاية أحدهما بنهاية الآخر , لكان طولهما خارج النواة مترا ونصف المتر ولكي ندرك تعقيد هذا الحمض نذكر الوزن الذري لأحد نوعيه أر ن إي وهو 1 فاصلة 5 ضرب 10 أس 6 ومع ذلك اكتشف الحمض واستطاع العالم اوشوا من اصطناعه وأخذ على ذلك جائزة نوبل لقد صيغ هذا الحمض وبلور فكان من ذلك حمض لا قدرة له على التكاثر هو مثل الحمض دي إن إيه الذي وجد التبغ والحمات, كانت صيغة الحمضين واحدة ولكن الفرق بينهما عظيم جدا وهو الفرق بين الحياة والموت هو الفرق بين الصنم العديم الروح والجسد الحي الآهل بالروح وبعد هذه هي النتيجة: إن المادة لا تعقل حتى القوانين التي تطبق عليها فالذرات إنما تطيع قواعد الألفة الكيماوية وقانون الجاذبية وتأثير درجة الحرارة أما الحياة فهي ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئا سوى آثاره قال تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

يقول ليتز: (إن كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات وإن كل حلقة فيها هي تركيبة من ذرات قوامها حمض من الأحماض النشادرية وهي أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف في النسبة والترتيب, ولكننا لا نراها في بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة في هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصيها أرقامنا المألوفة يكفي لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لغات البشر كافة لا تتجاوز الثلاثين ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفي قابلة لأضعاف هذا التكرار ثم لا تشاهد فيها إلا كلمة واحدة في ترتيب واحد لا يتغير فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الإصابة في التوفيق والتركيب.

لتقريب هذا الخيال نقول: إن الضوء يصل من طرف المجرة إلى الطرف الآخر في ثلاثمائة ألف سنة؛ فإذا أردنا أن نشبه إصابة الخلية في تركيبها بمثل مفهوم, فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التي تنطلق من الأرض فتصيب هدفا في نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات, وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليست بضع مئات

ولكن البروتين ليس هو كل شيء, بل هو جزء من خلية والخلية جزء من عضو والعضو جزء من جهاز, والجهاز جزء من جسد والجسد كله من بروتيناته إلى خلاياه إلى أعضائه, إلى أجهزته, متداخل تداخلا هائلا, ومنسجم انسجاما تاما ومتفاعل مع بعضه تفاعلا تاما.
والجسم الحي الذي تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته, لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه, وهي أن هذه الذرات الخفية تتجمع وتتفرق وتلتئم وتنفصل على نحو يضمن لها التجدد, أو يضمن الدوام للحياة. فيتألف كل حي من جنسين, وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكون منهما حي جديد وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجا وتارة أخرى فرادى , على الوضع المطلوب في المرحلة المطلوبة, ويتفق عددها في كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان, وينطبع كل حي على عادات وغرائز تسوقه إلى التناسل في موعده المقدور , فيبني العش قبل أن ينسل إن كان من الطيور. ويفارق الماء الملح إلى مداخل الأنهار أو الخلجان قبل أن ينسل إن كان من سمك البحار. ويمتلئ إلى شريكه في التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس)

إن التعقيد الهائل في ظاهرة الحياة, والانسجام الهائل فيها, ووضع كل شيء في محله إنما يدل دلالة واضحة على علم وإرادة وقدرة وراءها؛ بشكل غريب عند الأمي, وعلمي مقنع عند العليم.
أن تنشئ المادة لنفسها أسماعا وأبصارها وأفئدة. إن هذا ليس من حالات المادة التي يقبلها العقل بغير تفسير, وكل ما قيل في نفي العجب من تركيب الجسم الحي – لأننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام, وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم, وهدف معلوم – هو العجب . فالعجب في هذا التشابه بين الآلات والأجسام الحية , لأن الآلات لا تنشأ بغير صانع, ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين إلى إرادة المهندس المسخر لهذه القوانين
وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة إلى أعضاء الجسم الحي ؛ فيعجبون وسعهم العجب لدقتها, وتساند أجزائها, وتعاون وظائفها , وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية, على حسب السن والنوع والفصيلة. سواء في جسم الإنسان أو جسم الحيوان, أو جسم الحشرة, أو جسم النبات؛ فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مم تتألف تلك الأعضاء, وعلى أي نحو تتساند تلك الوظائف, وتبين لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذرات لا ترى الألوف منها بالعين المجردة وأن كل ذرة منها تقع في

موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه, كأنها على علم بها وبما تطلبه, ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها, إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها. وفي الأرض بلايين البلايين من الأحياء؛ وفي كل واحد منها من العجب مالا ينقضي و هاك مثالا يبين لك كثرتها, يقول لسترجون زمرمان إخصائي التربة: (أما التربة المنتجة الخصيبة فهي تربة حية, يعيش بها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقة, من حيوان ونبات, وقد تصل نسبة الكائنات الحية التي تعيش بهذه التربة الخصيبة إلى ما يقرب من 20 بالمئة من المادة العضوية التي بها, وقد يصل عدد هذه الكائنات الحية إلى بضعة بلايين في الجرام الواحد من التربة)

هذه البلايين الهائلة من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأجناس والأنواع, كل جنس وكل نوع له خصائصه, ومزاياه, وشكله, وصورته, و طرق تغذيته, وطرق حياته, وكل فرد من أفراد كل جنس فيه خصائص الجنس وكل تعقيدات الحياة قال تعالى: "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم" الأنعام : 38

ولكل رزقه, وغذاؤه , وغريزته التي يبحث فيها عن الرزق, وأجهزته التي يهضم بها رزقه قال تعالى: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء" النور : 45 "وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ" لقمان : 10

إن المنطق الواحد المعقول, أن الله الحي هو وحده خالق الحياة قال تعالى: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ* أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" النحل : 20-21 ولا يستويان في منطق العقل قال تعالى: "أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ" النحل : 17 ولا يستويان كذلك عقليا: إنسان نسب الحياة إلى المصادفة , وآخر ينسبها إلى الله قال تعالى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" الأعراف : 179

وتأمل بعد هذا في هذه القصة, قصة أصغر مخلوق وأبسط مخلوق؛ لترى أن وراء سر الحياة الله, ابتداء وانتهاء, نشأة وأنواعا. هذا المخلوق هو الأمبيا: (عندما نذهب إلى المعمل, ونفحص

قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها, فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون: فتلك الأميبا تتحرك في بطء وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها, فإذا به داخلها, وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق. بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر.

فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول, فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين, ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانا جديدا كاملا. (وقالوا: إن انقسام الخلية لا يتم إلا إذا لامستها خلية أخرى؛ إذن هنا عملية زواج بين ذكر وأنثى) تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها إلى آلاف الخلايا أو ملايينها. ولا شك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة, مع ملاحظة أنه موجود في كل مكان في العالم, وهو الآن على ما كان عليه من أول ما وجد وإذا دققت في هذا الحيوان البسيط, تجد داخله الجبلة البروتوبلازم ذا التركيب المائي, والحيوية الفياضة, مركز الحركة والحياة في جميع الكائنات الحية, يتحرك حركة عجيبة.

فالأمبيا لا تسبح في الماء ولا تطفو على سطح قطرة الماء أو تندفع في جوفها ولكنها تتحرك كما لو كانت تنسكب أو تسيل. أما جسم الأمبيا فهو كتلة عارية من البروتوبلازم, وهو يختلف عن الخلية النباتية, في أنه لا يحيط به من الخارج جدار صلب, بل مجرد غشاء رقيق يحدد جسمه, وكلما تحركت الجبلة البروتوبلازم في اتجاه من الاتجاهات, أطاعه ذلك الغشاء, وتحرك معه في نفس الاتجاه وبذلك يتغير شكل الحيوان , وتتكون له زوائد لا تلبث أن يتغير شكلها بعد قليل وبهذه الطريقة يتحرك الحيوان, مستعينا بهذه الزوائد التي تشبه الأقدام, والتي تسمى بسبب ذلك الأقدام الكاذبة؛ ومن الممكن استخدام القوة المكبرة العظمى في المجهر لمشاهدة الحشوة السيتوبلازم عند اندفاعه في الأقدام الكاذبة, ولكي تشاهد أن جسم الحيوان يتكون من طبقتين من الجبلة البروتوبلازم تختلفان في كثافتيهما, أما إحداهما فهي كتلة شفافة مائية دائمة الحركة, وأما الأخرى فهي كتلة هلامية نصف صلبة تحيط بالطبقة السابقة إحاطة تامة.
كيف تتحرك الأمبيا؟ ماهي الأسباب التي تقوم بعمليات التغذية؟ أجوبة كثيرة تبقى غير كافية, مؤثرات كثيرة تؤثر على حركة الجبلة داخل الخلايا, ولكنها مجرد مؤثرات سطحية بسيطة, لا تستطيع أن تبين لنا لماذا تبقى حركة الجبلة دائبة لا تنقطع, حتى عندما يزول أثر هذه

المؤثرات. ومعنى ذلك أن جانبا على الأقل من أسباب هذه الظاهرة يرجع إلى الجبلة ذاته. فمن المحال إذن أن نفسر ظواهر الحياة على أنها مجرد استجابات لبعض المؤثرات الخارجية وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما تنشطر خلية حية إلى نصفين, بطريقة الترشيح الدقيق, بحيث تكون النواة في أحد القسمين دون الآخر, فإن القسم الخالي من النواة يموت بعد قليل.

وقد أخفقت جميع الجهود التي بذلت للاحتفاظ به حيا, وعلى ذلك فإن النواة هي التي تنظم العمليات الحيوية في الخلية وتسيطر عليها, فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة وهكذا في الخلية التي تشكل أبسط حيوان, ترى قدرة الله كما تراها في أعقد الأحياء قال تعالى: "أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ" الأعراف : 191 إن الكون مخلوق لا خالق , ومن أعطى الكون أو الطبيعة صفة الخلق, فقد أشرك بالله جهلا وسفاهة فنشأة الحياة لا تعلل إلا بالله, ووجود الأنواع والأجناس لا يعلل إلا بالله. وما في الأحياء من عجب لا يعلل إلا بالله, وكل جزيئة من هذا كله آية على الله.

الإنسان والأخلاق

الإنسان أكمل ما خلق الله, لذلك كان من أبدع ما يعرف الله به ولذلك فيقدر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه, وبقدر ما يجهل نفسه يجهل ربه, لذلك كانت الحكمة التي تقول: (من عرف نفسه عرف ربه) من أصدق الكلم التي صاغها عقل الإنسان وأهم شيء في الإنسان, صفاته الأساسية التي لا يمكن تعليلها إلا بأنها قبس من أمر الله ثم أخلاق الإنسان, والصفات الأساسية للإنسان: العلم, والإرادة, والقدرة.

إن المادة لا تعرف نفسها ولا تعقل قوانينها, والمادة لا يمكن أن يكون لها خيار وقدرتها قدرة محدودة بإطار, أما الإنسان فيعلم ويريد تبعا لهذا العلم, وقدرته تنفذ على ضوء هذه الإرادة. إن استعداد الإنسان للعلم ظاهرة من أعظم ظواهر الوجود, إذ الإنسان وحده من هذه المخلوقات التي نراها, عنده استعداد ليعرف كل شيء, ويحلل ويركب ويقايس ويعلل, ويقبل ويرفض, ويتصور, ويستطيع أن يفكر حتى يعرف مجهولا على ضوء معلوم ويرسم للحياة طريقا أو طرقا, ويبني حضارة أو يهدمها ويتبع ظاهرة العلم, ظاهرة التعبير حين يعبر الإنسان عن كل هذا: تارة أدبا, وأحيانا كلمة, وأخرى فلسفة, وطورا منطقا, وبهدوء أو بشدة, وبعاطفة أو بعقل.

إن علم الإنسان وبيانه يدلان مباشرة على الله: " الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" الرحمن : 1-4 " اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" العلق : 3-5 والمادة لا تريد, بل تخضع لإرادة وهذه الإرادة لا تتغير ولا تتبدل سننها والحيوان إن كانت له إرادة غريزة ضمن أطر معينة. إطار الحياة والموت , إطار الرزق و الفساد, أما ما عدا هذا فهو في بهيمة غامضة, لا يعرف معنى الإرادة حتى يريد ولكن الإنسان عنده طاقة إرادة, يرجح بها بين المتقابلين, ويختار من بين الضدين كلامه بإرادة, وحركته بإرادة, إن الإنسان وحده يملك حرية الاختيار بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالم المحسوس. يختار الكذب فيكذب, ويختار الصدق فيصدق, ويختار الخراب فيخرب, والإعمار فيعمر؛ طاقة هائلة من الإرادة, يرافقها طاقة هائلة من القدرة.

إنه بقدر ما أعطي الإنسان من طاقة إرادة, أعطي قدرة عظيمة, ومظهر هذه القدرة؛ إمكانية التسخير والاستفادة من كل شيء. إنه يستطيع أن يستنبت الأرض إذا لم تنبت وأن يحصد إذا زرع, وأن يركب متن الريح والماء, وأن يأكل لحم الطير والسمك وأن يستخرج من كل شيء ما ينفعه, وأن يترك من كل شيء ما يضره إن علم الإنسان. وإرادة الإنسان. وقدرة الإنسان, تدل بشكل واضح على تميز الإنسان على المادة. وأن المادة لا يمكن أن تعطيه علما ولا إدراكا ولا قدرة ولا إرادة, بل الله وحده هو الذي يملك أن يعطي الإنسان هذا قال تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا" البقرة : 31 "هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً" البقرة : 29 "هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا" هود : 61 "وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" النحل : 78 "أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" البلد : 8-10

وأما الأخلاق؛ فإنها تلك المشاعر التي تنتج سلوكا, ومحل هذه المشاعر عالم النفس عند الإنسان, إنها عالم كامل لا نعرف عنه إلا آثاره التي نحسها في أعماقنا, وتظهر تارة على صفحات وجوهنا. أو على ألسنتنا أو أيدينا مشاعر الرحمة والقسوة, العفو والانتقام الذلة والعزة العدل والظلم الأمن والخوف, والحرب والسلم, والغضب والحلم, والجبن والشجاعة, الكبر والتواضع, والجبروت واللين, والهداية والضلال, القبض والبسط. الانخفاض والارتفاع. التجمع والتفرقة, الحب والبغض, الحقد والغل والكراهية والحسد, الإحساس بالجمال والإخلاص للمثل

ومشاعر أخرى تفيض بها النفس وكأنها أمواج بحر كبير نساء فنبكي, نسر فنضحك, ونعشق ونبغض من عشقناه ونرجو ونيأس إنها النفس أغمض ما في الإنسان إن تجمع بروتونات أو إلكترونات لا يكون احساسات أخلاقية قال تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي" الإسراء : 85 "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا" الشمس : 7 "وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" الذاريات : 21

ففي النفس آيات كثيرة كلها تشير إلى أن الله هو الذي خلق وجود النفس آية , وكل صفة من صفاتها الخيرة أو الشريرة آية. وعدا هذا؛ ففي النفس آيات أخرى تدل على أن في هذا الكون عجائب غير مادية, تجعل الإنسان قريبا جدا مما وراء المادة فالتنويم المغناطيسي والطرح الروحي (والتلبائي), وحوادث الرياضة الروحية التي يبصر أصحابها بلا إبصار هذه المعاني كلها تدل على أن هناك شيئا غير المادة في هذا الوجود, وحوادث قراءة الأفكار وما يحيط بها؛ كلها تشير بعمق إلى أن الإنسان ليس مادة فقط وأنه عندما يموت الإنسان لا يكون قد تعطل جزء من جهازه المادي فقط, بل مع هذا يكون الإنسان قد فقد شيئا آخراً هذا الشيء المفقود هو الإنسان نفسه, وعاد التراب إلى التراب.

وأخيرا, إن نشأة الحياة دليل على الله, وتعقيدات الحياة دليل على الله, وتنوع الأحياء دليل على الله, ومركز الإنسان في هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله, وفي النفس البشرية – أخلاقها وعجائبها – دليل على الله, وهذا وحده كاف لتعرف به الله. فكيف إذا اجتمع معه ما ذكرنا سابقا وما سنذكر لاحقا؟ وكيف إذا اجتمع مع هذا وحي يتنزل ومعجزات تتحدى؟ وكيف إذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أتقياء أذكياء وبررة فهل يبقى بعد كل ذلك لكافر من حجة ولا سبيل؟ إلا حجة الجهل وسبيل الهوى المؤدي إلى البوار ثم إلى النار؛ ألا لعنة الله على الكافرين.

الظاهرة الرابعة
ظاهرة الإجابة

هذه الظاهرة لكل واحد منا تجربته الخاصة فيها, فما من واحد منا نحن البشر سواء في ذلك المؤمنون منا وغير المؤمنون, إلا مرت عليه فترة فيها شدة وفيها اضطراب وفيها قلق توجه فيها إلى الله بقلب كله انكسار ورجاء وأمل, وإذا بالكرب يزول, الشدة تنتهي ويجعل الله من بعد عسر يسرا, ويعود الرخاء بعد الضراء. ولكنك تجد قلوبا بقيت شاكرة متذكرة زاد إيمانها, وأخرى عادت إلى غفلتها متناسية ما ذكرته ساعة المحنة.

إن الأمر المسلم به, أنه ما من نفس إلا وتلجأ إلى الله ساعة الخطر وقد كرر القرآن هذا المعنى كثيرا فقال: "قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ" الأنعام : 40-41
"وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" يونس : 12
"وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا" الإسراء : 67
"هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" يونس : 22-23
"قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ" الأنعام : 63-64
وقد جرت سنة الله أن يجيب المضطر إذا شاء , كائنا من كان حتى ولو كان كافرا بالمعنى الاصطلاحي ما دام قد توجه إليه قال تعالى: "أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ" النمل : 62

والحوادث التي أخبر أصحابها عما جرى لهم فيها مما له علاقة بهذه الظاهرة كثيرة لا تعد فما من إنسان إلا وله قصة أو قصص, أنا وأنت وهو. وإليك أمثلة نختارها من بين آلاف أمثالها مما يجري كل يوم, تدل على أن الإنسان ليس وحده, فالله يرعاه إن كان أهلا للرعاية, أو يستجيب له إن دعاه بقلب مضطر, أو يكله إلى نفسه, وما أكثر خسارة من وكله الله إلى نفسه؟ وفي كل حالة نجد رعاية غير متوقعة أو استجابة غير عادية فإن الإنسان يلمح آثار قدرة الله واستجابته وفي كل حادثة من هذا النوع يقع دليل على وجود الله عز وجل وهذه نقول لها علاقة بهذا المعنى:

1- نشرت مجلة المختار ريدر دايجست في عدد أكتوبر 1944 تحت عنوان ألا تؤمن بالصلاة والدعاء هذه الحادثة التي صاغتها كما يلي:

واليوم تتدفق الأدلة التي لا تنقض من كل ناحية, على فضل الدعاء وقوته وليس مما يدهش أن يتوجه الناس في ساعة الشدة والحاجة إلى القوة الخارجية, وإنما الشيء الوحيد المدهش في هذا هو أن نراه مدهشا وما يصنع هؤلاء المصلون الداعون من الجنود والبحارة والطيارين؛ إلا كما صنع لنكولن الذي قال في أحلك أيام الحرب الأهلية: بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع أن أنجح وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوي على الشوق الروحاني أو على شعور باطن مبهم, بأن هناك قوة يتوجه إليها بفطرته. حدث لما اضطر الماجور ألن لندبرج من وستفيلد بولاية نيوجيرسي وهو يقود إحدى القلاع الطائرة للنزول في البحر في طريقه إلى استراليا أن ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعة الذين معه قد فقدوا,

وفي هذا يقول الماجور: تمكنا من الخروج على طوفين من المطاط وكدنا لا نفعل, ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء, وكان رجال الطائرة كلهم قلقين إلا الشاويش البرت هرنادز المدفعي الخلفي وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهال وسرعان ما راعنا بقوله: إنه يعرف أن الله قد استمع إليه وأنه سيساعدنا, وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشققت شفاههم وورمت ألسنتهم فعجزوا عن مجاراة هرناندز في التهليل والتسبيح ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك وبعد ثلاثة أيام وقبل دخول الليل لمحوا معالم جزيرة صغيرة, وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجري لهم في خلد فأقبلت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الأجساد واتضح أن منقذيهم من أهل أستراليا الأصليين وهم صيادون سود الأجسام منفوشو الرؤوس وقد جاءوا من

داخل البلاد على مسافات مئات الأميال, وقالوا إنهم دفعوا بدافع غريب إلى تغيير اتجاههم فجاءوا إلى هذا الشاطئ المرجاني الذي لا سكان فيه وهناك لمحوا لندبرج وزملاءه.

2- أذاع راديو دمشق في 10 \ 1 \ 1965 الساعة الثالثة إلا ربعا بعد الظهر نقلا عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة في إنكلترا حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوقيع الطبيب الذي جرت معه الحادثة والقصة أن شابا بقي مريضا بمرض مزمن مدة ثلاثة عشر عاما وأعيا الأطباء دون أن يصل إلى نتيجة وقد دخل عليه آخر كطبيب الطبيب الذي يروي القصة, وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لا أمل له, وهناك سأله المريض بلهجة يائسة: لا أمل يا دكتور؟ فقال الدكتور: هناك أمل واحد في السماء فجرب أن تدعوا, ألا تعرف أن تصلي؟ ولأول مرة يدعو الشاب الذي دام مرضه ثلاثة عشر عاما , وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع وجد المريض معافى , وقد شفي من مرضه الذي لم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه.

3- وحدثنا شاب مصري ممن شاركوا في المقاومة السرية التي جرت في مصر في قناة السويس 1951 _ 1954 عن ثلاثة من المقاومين خرجوا لينسفوا سكة حيد في منطقة مكشوفة ... وكانت الليلة مقمرة والسماء صافية, والأرض صحروواية ترى حركات من فيها عن بعد, فيعرضهم ذلك لنيران العدو ومطاردته فقال أحدهم الثلاثة وهم ماضون: يا رب ولا غيمة, فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر فانتشر الظلام مما ساعدهم على القيام بمهمتهم ورجعوا وكلنا سمع ما حدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثي, إذ اشتعلت النيران في مدينة بور سعيد, وضاق الأمر بالناس ودعوا ربهم مخلصين, فكان المطر الذي أطفأ الحرائق يومذاك ....

4- والناس في كل مكان يتحدثون, فما من مسلم إلا وله تجربة خاصة في هذا الأمر تضيق به السبل, فيلجأ إلى اللجوء إلى الله لجوء المضطر فتكون الاستجابة ويحصل الفرج. ومن أبرز مظاهر هذا المعنى قصص الاستسقاء حيث يلجأ المسلمون إلى الله في حالة القحط ولهم في ذلك آداب منها: التوبة, ومنها الصلاة والدعاء. ومنذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم, يتحدث المسلمون عن عجائب حصلت, وعن أناس مجابي الدعوة استجيب لهم, ومن تتبع حوادث ذلك وجدها صحيحة أدق مقاييس النقد التاريخي إن ظاهرة الاستجابة ظاهرة تتجدد دائما كلما

توفرت شروطها, وهي تدل بشكل قطعي على وجود ذات عليا, تسمع نداء المناديNوتوسلات
المتوسلين, وإذا شاءت تجيب المضطر أنى كان وكيف كان, مسلما كان أو كافرا. وتجيب المسلمين في كل الأحوال إذا كان متمتعا بشروط الاستجابة وكان في الاستجابة خير له, ولم يكن غيرها أحسن إليه منها: قال تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" البقرة : 186
"وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" غافر : 60

استجب لله يستجب الله لك ونحيل من شاء التوسع في هذا الموضوع إلى كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي. ففيه ما يكفي. وإنما اختصرنا في هذه الظاهرة لكثرة الحوادث فيها وظهورها والآن في البحث الثاني عن الرسول صلى الله عليه وسلم نماذج عنها.

الظاهرة الخامسة

ظاهرة الهداية

إننا عندما ندرس الكون نرى فيه هداية كاملة, من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه ,ومن أبسط أشكاله إلى أعقد مظاهره , فكيف نعلل هذه الهداية؟ كيف وجدت؟ كيف استمرت؟ كيف ثبتت ؟ إن هناك جواباً واحدا يقدمه العقل على ذلك, هو وجود ذات هداية.

1- ثعبان الماء متى اكتمل نموه هاجر من مختلف البرك والأنهار, قاطعا آلاف الأميال في المحيط , قاصدا الأعماق السحيقة جنوب برمودا حيث يلتقي ثعابين الماء من كل أنحاء العالم, وهناك تبيض وتموت, أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء, سوى أنها في مياه قفرة فإنها تعود أدراجها, وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها . ومن ثم إلى كل نهر أو بركة صغيرة, ولذا يظل كل جسم من الماء آهلا بثعابين الماء, ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوروبية أو العكس.

2- الزنبور يصيد الجندب النطاط, وينخزه بإبرته في مكان مناسب بحيث يفقده وعيه مع بقائه حيا كنوع من اللحم المحفوظ , فلا يكثر السم فيه بحيث تميته, أو يسمم لحم الأولاد إذا أكلوا منه, ولا يقلله بحيث يبقى محتفظا بوعيه فيفر, وبعد ذلك يحفر له حفرة في الأرض, ثم تأتي أنثى الزنبور وتضع بيضا في المكان المناسب بالضبط, ثم تغطي هذه الحفرة وترحل فرحة, ثم تموت بعد أن أمنت وسيلة الحياة لأولادها. وهم صغار لا يستطيعون الحركة, ولا بد أن الزنبور قد فعل ذلك من البداية من يوم وجوده أول مرة وكرره دائما, وإلا ما بقيت زنابير على وجه الأرض.

3- الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاما في ولاية نيوانكلاند. يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عاش في ظلام مع تغير طفيف في درجة الحرارة, ويظهر بالملايين في 24 مايو من السنة السابعة عشرة تماما. بحيث يضبط مواعيده للظهور في اليوم تقريبا بهداية يعجز عنها الإنسان لولا أنه يستعمل التقويم.

4- خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج, بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي نالها البيض من الدجاجة الحاضنة له, فلما جمع البيض ووضعه في جهاز للتفريخ, نصحه فلاح أن يقلب البيض إذ إنه رأى الدجاجة تفعل ذلك فسخر منه العالم, وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمه, أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة.

واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تفقس البيضة, وأعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة, فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفراريج. وآخر تعليل علمي لتقليب البيضة أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي دون تحريك أوعيته. ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير بهذه الهداية الكاملة في عملية البقاء الجنس, يبقى الدجاج في العالم, لأنه يعلم تماما ما ينبغي أن يفعله, ولا بد أن ذلك فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج.

5- حيوان الإكسيلوكوب , يعيش منفردا في فصل الربيع , ومتى باض مات ؛ فالأمهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها في غذاها ودفاعها عن نفسها, وهي لا تستطيع الحصول على غذائها مدة سنة كاملة, لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب, فتحفر فيها حفرة مستطيلة, ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية, وتحشوا بها ذلك السرداب وتصنع بعد ذلك سردابا آخراً, فإذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر لسنة.

6- يمتص جذر النخلة العناصر الغذائية في التربة بالشعيرات الجذرية وتصعد العصارة بالضغط الاسموزي إلى الأعلى, ويتغذى جذع النخلة بما غلظ من هذه العصارة, أما الخلاصة فتصعد إلى حيث تغذي الأجزاء العلوية, وترتفع العصارة الدقيقة لتكون الثمرة وقمع البلحة هو مصفاتها التي تسمح بمرور المواد الغذائية تماما إلى الداخل تماما وهي التي تكون الحلو من البلحة وغير الحلو من النواة والتي منها ينشأ جسم البلحة الطري وهيكل النواة الصلب, وبين الحلو والمر والصلب والطري غلاف شفاف لا يكاد يرى, ولم يحدث إطلاقا أن أخطأت نخلة فكونت نواة البلحة في الخارج والبلحة من الداخل, أو كونت البلحة صلبة والنواة طرية

7- الحيوان المنوي يشبه العلق في حركته, له رأس مفلطح وعنق قصير, وذيل طويل, ويتحرك بلولبية ذيله, وقد أمد بقوة مقاومة, إذ أنه في الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيه ويفقد مظاهر نشاطه, فإذا ما وجد الوسط المناسب عادت له حيويته ونشاطه, ويستمر في الحياة عدة أيام متوالية في انتظار البويضة التي يدفع بها مبيض الأنثى –وهو جهاز التناسل عندها – ليقوم بإخصابها, ويتم كل ذلك بهداية منقطة النظير إذ لا دخل له بأي قوة _ كائنة ما كانت كيماوية أو حيوية أو عقلية أو ادراكية في توجيه الحيوان المنوي إلى بويضة الأنثى

7- في عملية الرضاع كل شيء يتم بهداية . تنمو الغدد التي تصنع اللبن أثناء الحمل, يدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان, وفي نهاية الحمل وبدء الوضع , تتلقى هذه الغدد النخامية الموجودة في قاعدة الجمجمة أمرا بالبدء في صنع اللبن, وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدي أمه بهداية لا حد لها, وعملية الرضاعة عملية شاقة, إذ أنها تقتضي انقباضات متوالية في عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه, وحركات متواصلة في فكه الأسفل, وتنفسا من أنفه ,ويقوم الطفل بهذا كله بهداية تامة من أول رضعة لساعة فطامه.

وقالوا: إن الرجل نفسه لا يستطيع أن يقوم بعملية الرضاع كما يقوم بها الطفل الذي لا يتجاوز عمره ساعات هذه أمثلة قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية , فإذا ما التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق , يرى هذه الظاهرة في كل شيء, فهي ظاهرة تنتظم شؤون الكون كله من الإلكترونات في الذرة , إلى الذرة, إلى العناصر, إلى الأرض, إلى الشموس, إلى المجرات بكل حوادثها إلى كل خلية من خلايا الحيوان, إلى كل جهاز من أجهزته, إلى كل حيوان من وحيد الخلية , إلى النحلة, إلى الإنسان قال تعالى: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه : 50 تلك كلمة القرآن وهي كذلك كلمة العقل, وهي كذلك كلمة العلم, إن هداية بلا هاد غير مقبولة لا عقلا ولا علما إن الله ظهر باسمه الهادي في كل شيء, ومع ذلك ضل الكافرون عن الله, وأضلوا قلوبهم, وهم في ضلالهم مهتدون إلى طرق الظلال والزيغ, إذ أن الإنسان بما أوتي من إرادة واختيار, وبما امتحن به في هذه الحياة كأثر ناتج عن هذه الإرادة, قد ركب تركيبا ظهر فيه اسم الله الهادي بما يتفق مع هذه الحرية في الإرادة ومع هذا الامتحان: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" الشمس : 7-10 "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" النازعات : 40-41

إن الكافرين قديما كانوا يعتبرون الدعوة إلى الله وتعليل كل شيء به نوعا من الافتراء والكذب والأسطورة قال تعالى: "قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ" الأنبياء : 4-5

والكافرون اليوم: يعتبرون كل كلام غير كلامهم , لا يقوم على علم, بل تظهر منه رائحة الخرافة, أوفيه معنى الأسطورة. إن التشابه الكامل بين الموقفين في القديم والحديث دليل على وحدة النفس البشرية, وإن كان المحدثون أكثر فلسفة وأزهى زخرفا, كما أن فيه دليل على نوع من الهداية إلى الضلال, كهداية المهتدين إلى الهدى , (وذلد) ظهور اسم الله الهادي في عالم الإنسان قال تعالى: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" البلد : 10 "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" الإنسان : 3

إن الكافر يرى أن بإمكانه أن يعلل كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون بدون الله والذي لا يستطيع أن يعلله الآن يتصور أن باستطاعته أن يعلله في المستقبل, وصرف النظر عن كون هذه التعليلات علمية عقلانية أو ظنية حدسية, فإنه مقتنع بها ولا يقبل أي تفسير آخر ولو كان علميا وعقليا, لأن كثرة الاحتمالات عنده لا تبطل ظهور الممكن الواحد, وتعدد مظاهر الوجود يقنعه بأي تفسير يتوهمه كأثر عن استشعاره لذاته المتصفة بالعلم والقدرة والإرادة والحياة, فهو يخلع هذه المعاني على الكون متناسيا أن الطبيعة بمجموعها ليس لها علم ولا إرادة وقدرة وحياة . إنه يقول عن كل شيء يراه: إنه ممكن ونحن إن لم نقل بإمكانه نكفر (نخرج عن الإسلام) ولكن نقول بذلك: إذا وجد علم الله وإرادته وقدرته. أما بغير علم ولا إرادة فلا إن الله ظهر كثيرا وبطن كثيرا, ظهوره الكثير جعل المؤمنين به كأنهم يعاينون كشف الحجاب ما ازددت يقينا وبطونه الكثير جعل الكافرين على مثل اليقين بأن الأولين واهمون, ولا يمكن في حكم العقل إلا أن يكون الله ظاهرا وباطنا بآن واحد: ظاهرا للجنان, وخفيا عن العيان؛ يظهر للعيان خلقه , وخلقه يدل الجنان عليه لذلك قال الله تعالى: "وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" التغابن : 11
ليس في خفاء الله حجة لكافر على كفر, وقد رأينا هذا في مقدمة أبحاثنا, وفي ظهوره الحجة الكاملة على الإيمان, وإذا كان في ضلال الضالين نوع هداية إلى الضلال, إذا حرموا أنفسهم الرؤية الصافية فشاهدوا الأمور معكوسة, فإن في هداية المهتدين المظهر الكامل للهداية التامة.

ولكن كما أن في هداية المهتدين دليلا على ظاهرة الهداية, فإن في هداية الضالين إلى طرق الضلال دليلا عليها كما سنرى بعد, والكل يدل على أن هنالك ذاتا هادية. إن آيات الله التي تدل عليه واضحة جدا في كل شيء, ولكن الاهتداء إليها يحتاج إلى إنسانية أكثر, وإلى أخلاقية رفيعة قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ" الأعراف : 146

إنها الحقيقة التي لا ترد: الكبر والغفلة عن آيات الله هما طريق الكفر, والخضوع للحق وقبوله واليقظة على آيات الله هي طريق الإيمان. فبمزيد من أخلاق الإنسان, وبمزيد من التأمل, وبمزيد من طلب الحق, يصل الإنسان إلى الله. فإذا قيل: إن المرجع في الهداية إرادة الله.. قال تعالى: "وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا" السجدة : 13 تقول: إن المرجع في كل شيء إرادة الله , وليس في ذلك عذر لمعتذر أو متعلل أو متهرب أو متحلل من المسؤولية لقد قال الله: "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ* لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ" التكوير : 27–28 فقال أبو جهل: ذلك إلينا إن شئت . فأنزل الله تتمة: "وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التكوير : 29 وهذا يعني أن مشيئة الله محيطة بكل شيء , ولكن لا يعني هذا إلغاء اختيار الإنسان ومشيئته.
قال تعالى: "يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ" المائدة : 16
"ضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" البقرة : 26

إن الله إذا أراد أن يضل إنسانا ظهر له في الوجود كله باسم المضل, حتى لم ير في آيات الله في كل خلقه ما يدله عليه: وكذلك في آياته في القرآن حتى لا يرى فيها آية تدله عليه, وليس في ذلك إجبار من الله له؛ بل ذلك لأن الإنسان ذاته اختار الطريق الآخر كبرا وظلما, فصار يرى الآيات معكوسة, فما فيه حجة على الإيمان صار يعتبره حجة له على الكفر, وذلك كأثر من إحاطة هداية الله في الطريقين, والذي يتحمل المسؤولية هو الإنسان ذاته.

تعالى الله أن يسأل تغيير ما سن من سننه, وعلى الإنسان أن يحقق ما طلب منه ضمن هذه السنن ويقول الكافرون: إن الله قادر على أن يهدي الناس كلهم إلى ما يحب؛ فلم لم يهديهم؟ وإن الله قادر على أن يجعل العالم خاليا من كل شر؛ فلم لم يفعل, يقولون هذا حتى يقولوا أخيراً:

كون العالم فيه ضلال وكونه فيه شر, فذلك دليلان على أن هذا العالم ليس من صنع الله ويقولون للمؤمنين: ما دمتم تؤمنون بالقضاء والقدر , فما نحن فيه من انحراف قدره الله علينا ولا مخرج لنا من قدره, فهو المسؤول إذن ولسنا المسؤولين فلا تلومونا ألم يقل: "يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء". ونقول: كلمتهم هذه قالها الكافرون من قبل, ورد عليهم القرآن أي رد: "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ " النحل : 35-36

نفس اللغة القديمة للكافرين استعملها كفار عهد الدعوة الأول, واستعملها كفار عصرنا الحاضر: "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ" الأنعام : 148 ترى ما قيمة حجة المكذبين؟ يلاحظ في الرد القرآني أنه رماهم بالتكذيب لرسل الله صلوات الله عليهم, و أنه بلاغ الرسل – صلوات الله عليهم – فيه الحجة عليهم.

إنهم نظروا إلى عموم مشيئة الله ولم ينظروا إلى مشيئتهم, فأرادوا أن يقيموا الحجة على الله بكماله, فأقام الله عليهم الحجة بمشيئتهم التي استعملوها في غير طريقها الصحيح. إن ما كتب الله, وما علم الله, وما أراد الله, لا يسلب الإنسان اختياره, كلاهما خطأ عظيم: أن نظن أن الله لا يعلم ما سيحدث, أو نظن بأن علمه بما سيحدث يسلبنا اختيارنا. فالعلم كاشف لا مجبر, وإذا كان علمه تعالى لا يسلبنا اختيارنا. فكذلك إرادته وكذلك قدرته, فالقدرة تبرز ما خصصته الإرادة والإرادة تخصص ما سبق به العلم إنه من الخطأ أن نفهم قوله تعالى: "يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء" فاطر : 8 بأنه يجبر على الهداية ويجبر على الضلال بل: "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" الصف : 5
"قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" الشمس : 9-10 "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ* لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ* وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التكوير : 27-29

إن إرادة الإنسان موجودة؛ ولا يعني هذا أن هناك شيئا يكون خارجا عن إرادة الله, وعموم الإرادة الإلهية حق؛ ولا يعني هذا سلب الإنسان حريته واختياره.

وأخيراً: لقد خلق الله كل شيء, حسيا كان أو معنويا, ومن الأخلاق الفاسدة إلى الأخلاق الحسنة, إلى الإنسان, إلى الوجود كله, وأعطى كل شيء هدايته, فالكبر مهتد إلى طريقه,وكذلك الحسد, وكذلك الضلال, وكذلك كل نوع من أنواع الضلال, الشمس, وكذلك القمر. وبالنسبة للإنسان خاصة: ذاته, ونفسه, وجسمه, وكل شيء فيه مهتد إلى طريقه إذا ترك على سجيته, ولكن هذا الإنسان بما أوتي من ملكات أهلته للتكليف, جعل الخير والشر له فتنة قال تعالى: "وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً" الأنبياء : 35 ونتيجة لهذا فرض عليه أن يحاول التغلب على كثير من ميوله ورغباته وأهوائه وشهواته, وأن يكيف ذاته حسب هدى معين, حدده له الوحي الإلهي, ليقوم بدوره على هذه الأرض ضمن طريق مخصوص. وعلى هذا فانحراف الإنسان عن هذا الطريق ضلال, وإن كانت فروع هذا الضلال من الهداية التي أعطيت لكل شيء في موضوعه قال تعالى: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" البلد : 10 ولكن كون الإنسان يستطيع أن يتخلى عن هذا الضلال – ولو على حساب متعته – فإنه مفروض عليه أن يعمل كي يحقق معنى الابتلاء, ولذلك كان: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات" رواه مسلم.

وفي الظاهرة السابعة زيادة بيان إن شاء الله – وإنما قصدنا في هذه أن نشير إلى الهداية الكاملة لكل شيء – مخلوق حسي أو معنوي – تشير إلى ذات هادية: "أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه : 50. فما من شيء إلا وعنده نوع هداية عامة. حتى الأشياء المعنوية خيرا كانت أو شرا, ولكن الإنسان كلف بنوع خاص من الهداية, وعليه أن يسعى لتحقيقه. والأهم بعد: أن يكون وضح لدينا الهداية في كل شيء لا يمكن أن تكون إلا بالله الهادي.

الظاهرة السادسة

ظاهرة الإبداع

أرأيت لوحة رسام قال الناس عنها: إنها أثر عظيم؟ قل لي: لماذا حكم الناس عليها هذا الحكم؟ سنقول لما فيها من إبداع في التصوير والتعبير والجو والظلال والتناسق والتفاعل والمعرفة, بما يثير الإعجاب في نفس المشاهد, إنك تقول بدهشة أو بإعجاب: لقد أبدع هذا الأثر فلان, ترى ألم يخطر ببالك وأنت أمام مشهد إبداعي عظيم من هذا الكون, أن تفكر في المبدع الأعظم الذي أبدع هذا الكون, أو أن الألفة أعمت البصر عن الرؤية؟ إنك لو تأملت لوجدت: أن الجمال والإبداع يبدوان ملازمين لكل شيء في الكون: السحب, قوس قزح, السماء الزرقاء, النجوم ذات الألوان وانتثارها وانتظامها وحركاتها وهندستها, القمر ساعة طلوعه عندما يكون بدرا أو هلالا أو ساعة توسطه قبة الفلك, الشمس في غروبها وشروقها, الفجر والأصيل, روعة الظهر, كل ذلك آثار إبداع عظيم. إن أعظم فنان هو الذي يستطيع أن يرسم جزءا مما في الكون للحظة من لحظاته بأمانة, أما الكون فكل مظهر من مظاهره التي تتكرر أو تتعاقب أو تتغير صور من الجمال تثير في النفس كل آن مباهج من الروائع. كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام, مخططة أجمل تخطيط, تخطيط وإبداع يقلد ولا يصنع, تجده على أروع ما يكون في الأزهار, برشاقتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة, بشكل يحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه, وإنك لتجد في كل زهرة إحساسا جيدا, وهي بديعة عندما تجتمع جنسا واحدا, ورائعة عندما تكون أجناسا, فالورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار, كلها إبداع عجيب, منفردة كانت أو مجتمعة موصولة أو مقطوعة.

والوادي الأخضر والنهر والأشجار الباسقة, والصخور والجبال يجلل قممها الثلج, أو التي تسبغ عليها السماء زرقتها من بعيد, وكثبان الرمال الفسيحة الممتدة في الصحراء, والتتابع المنسق الفاخر لأمواج المحيط وتلاطمها على أرض الشاطئ, والهدير والخرير والصفير والرفيف والحفيف, وصوت الرعد, ولمعان البرق: أليس ذلك كله جميلا وبديعا ومبهجا حتى عندما يخيف؟ والطيور فوق البحر أو فوق الغابة أو على الأرض هاربة منك أو مذللة بين يديك, ألوانها المتناسقة, أشكالها الزاهية, نقشاتها الفاتنة, تصميمها الجميل, أصواتها العذبة, حركاتها

الفاتنة, في كل ريشة منها جمال, وفي كل شعرة فيها رونق, وفيها جناحها ساعة يمتد وساعة ينقبض يرتفع أو ينخفض؛ ما يجعل القلب يمور شعورا حيا واغتباط.

قطع الثلج ذات الأشكال الهندسية المختلفة, والخطوط البلورية للعناصر والمركبات وألوان العناصر منفردة أو مركبة, وتركيباتها أجزاء وكتلا, كروية الأرض, وسحب المريخ, ووجه القمر, وكلف هذا الوجه, كل ذلك جميل جميل لدرجة مدهشة تحت المجهر أو بالعين المجردة. وفي الجمال جمال, وفي الغنم جمال, وفي البقر جمال, وفي الماعز جمال وفي الكلب جمال, وفي الهرة جمال, وفي كل خلق الله الجمال, في مراحه ومغداه, في سكونه وممشاه. في حركات السمك وتموجات حشائش البحر في الأعماق, أو تموجات حشائش البر إذا مر النسيم, في العظام المكسورة التي تشفى, في الجرح الذي يلتئم بعد إذ تمزق لحمه, في دورة الدم, في القلب الذي يتحطم, ثم ينجبر بعد كسر, في حبوب اللقاح, في النحل تمتص رحيق الزهر, في تقبيل الفراشة ميسم الزهرة, في انتقالها إلى ميسم آخر, في نقلها حب اللقاح على زهرة أخرى, في التلقيح, في التزاوج, في انجذاب القرين إلى قرينه, في كل شيء إبداع.

إن التناسق الذي نراه في كل مخلوق, انسجام الأعضاء بعضها مع بعض, انسجام اللون مع الأعضاء جعل كل شيء في محله, كل ذلك إبداع يشير إلى مبدع.
قال تعالى:"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" السجدة : 7
"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" الأنعام : 101
"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ" الزمر : 7
إن هذا الإبداع من أجلك أيها الإنسان قال تعالى: "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" لقمان : 20
"وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا" النحل : 18.

إنه من أجلك حتى تعرف ربك بأسمائه كلها وتشكره جل جلاله وتعبده بحب وعشق, ولذلك جعل فيك الإحساس بالإبداع, وحب الجمال, فكان ذلك من أروع الإبداع لو عقل الإنسان. لقد أعطي الإنسان الفكر والتصور والشعور, فصار يتذوق الجمال, ويسرح بخياله من البداية إلى النهاية, ويتذكر بسرعة البرق آلافا من لوحات الوجود, و يخترق بخياله حجب السماوات

والأرض, مع الإدراك الذي يجعله يتفاعل مع كل شيء, فيهوى ويحب, يمل ويبغض, ويصمم تارة للبناء وتارة للهدم, فيجعل الحياة فنا والمعنى جهازا. إن في ذلك كله إبداعا سواء في ذلك باطن الإنسان أو ظاهره, أو ما يحيط به, وقد يرسم الرسام صورة الجميل فيبدع, وصورة القبيح فيبدع, وفي كلتا الحالتين يبقى الإبداع إبداعا وفي كليهما يكون محسنا, وفي الكون جميل وأجمل, وقبيح وأقبح, ولكن وفي ذلك كله يظهر الإبداع في ذلك أكثر, فلن يعرف الجميل إلا بالقبيح ولا الأجمل إلا بالجميل, وتعدد الصور أكثر إيماء, وأبقى تجديدا, وأدل في القدرة على الإبداع.

فلا يفوتنك يا صاح أن ترى الإبداع ولا تعرف المبدع, أو تلمس الإحسان وتنسى المحسن, أو تعشق الجمال ولا يمتلئ قلبك بحب خالق الجمال, بل ترنم مع الحداة:

عذابه فيك عذب — وبعده فيك قرب

وأنت عندي كروحي — بل أنت منها أحب

حسبي من الحب أني — لما تحب أحب

الظاهرة السابعة
ظاهرة الحكمة

قال تعالى: " قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ" يونس : 101
"أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ" الأعراف : 185
"وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105
"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" الأعراف : 179
إن الله لا يقبل من المسلم إلا أن يرى في كل شيء آية تدل عليه اعتقادا, وتدلنا إلى ذلك استشعارا, وإن لم يصل المسلم إلى هذا المستوى الرفيع, فإنه بحاجة إلى يقظة أكثر وإلى فكر أكثر, وإلى ذكر أكثر إن يد الله التي خلقت أرت نفسها في خلقها, وإرادة الله التي خصصت أرت نفسها في مبدعاتها , وحكمة الله ظهرت فلم تخف.

وإن قلبا لم ير آثار الله في كل شيء أصبح قلبا أعمى قال تعالى: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" الحج : 46 ولعله محل للشفقة: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا" الكهف : 6
لقد أمرنا الله أن ندرس آياته في هذا الكون, والكون ذاته يستلفت النظر, ولقد درسه الكافرون والمؤمنون على السواء, وليس هناك من فارق بين الطرفين في العلم بهذا كثرة أو قلة, ولكن الفارق إنما هو في استعمال العقل وقوانينه للوصول إلى ما وراء الكون, أو بالجمود على رؤية الحس وعدم استعمال العقل والركون إلى التراب.

ولئن أكثر القرآن من ذكر: إن في الكون آيات لقوم يعلمون, أو يتفكرون فقد أكثر كذلك من ذكر: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" النحل : 12 مما يدل على أن تحكيم قوانين العقل شرط لمعرفة آيات الله وعلى هذا فكل ظاهرة من الظواهر التي نذكرها في هذا الكون, لا ندعي أننا وحدنا نعرفها, فنحن والكافرون مشتركون في هذه المعرفة, ولكن الفارق أننا نعلل وجود هذه

الظاهرة يلازمها العقل الذي لا بد منه, وهم يرفضون هذا التعليل دون دليل؛ كمهندسين وقفا أمام بناء جميل, فكلاهما يستوي في كون يعرف كل ما في البناء من أجزاء, من معرفته بكيفية الترتيب, إلى معرفته بكيفية التركيب, إلا أن أحدهما جزم أن هذا البناء قد كان دون أن توجد خبرة وعلم وإرادة وقدرة وإبداع وحكمة وذوات تقوم بها هذه الأشياء, والآخر حكم على البداهة بأن مهندسا عالما حكيما. قد أظهر هذا البناء. إن المسألة بكل بساطة في هذه, وعندما يناقش الأول عقليا في الحكم الذي أصدره يقول: إنني فيما يستقبل من الأيام سأكشف كيف قام هذا البناء بنفسه, مع أن العقل ببداهته يحكم أن زمانا أكثر سيعطينا تفصيلات أكثر في أمر البناء, تدلنا على صاحبه بشكل أوسع وأدق وأين يلغي الحكم البداهة أبدا.

والكون كلما تكشف أكثر دل على الله أكثر, وهذه الظاهرة التي ندرسها الآن (ظاهرة الحكمة) خير شاهد على ما قلناه, فالإنسان العادي يرى أن في الكون حكمة فيتعرف بها على الله الحكيم, وكلما ازداد علما. زادت معرفته بهذه الحكمة؛ فما رأينا العلم إلا كاشفا للحكمة.
وإن أكبر مصيبة ابتلي بها المؤمنون في هذا الزمان, هي دعوى الكافرين العلم حين يكفرون وأن المؤمنين لا يعلمون, وساعدهم على الظهور بهذه الدعوى أن أكثرية المؤمنين في زماننا أقل علما بظواهر الحياة الدنيا من الآخرين, ولكنه بدأ العصر الذي يصبح فيه المؤمنون أكثر علما بظواهر الحياة الدنيا, وبدأوا يثبتون أن مزيدا من العلم يعطي مزيدا من الإيمان.

قالوا عن الحكمة: إنها وضع الشيء في محله, وبالنسبة للكون بإطلاق: ألا يكون شيء منه يمكن أن يكون أحسن في غير المحل الموجود فيه؟ وهذا واقع الكون, فكل ما فيه على غاية الحكمة, فليس بإمكان العقل أن يتصوره أحكم مما هو فيه. وادرس كل شيء فيه, أجزاء وكتلا, تجد الحقيقة ناصعة تقول لك على لسان حالها: ما أنا عليه من عين الحكمة وهذه أمثلة:

1- لولا الموت ماذا يحدث؟ قالوا: لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها 5 سم, وهذا جنس واحد من المخلوقات, فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت, ومن هذا نفهم حكمة المرض, وحكمة وجود مسببات الأمراض من جراثيم ونحوها, ويقول قائل: ترى لو كان الإنسان يموت بلا مرض أليس أحسن؟ أو لو كان يموت بمرض واحد فمتى أصيب بمرض كانت نهايته فيه؟

وقد غاب هؤلاء حكمة وجود الأمل, وحكمة الإنذار وحكمة البصر, وحكمة الاعتبار بهذا الواقع.

2- ما يخرج من الإنسان وحده, كان يمكن أن يملأ الدنيا, لولا وجود أنواع البكتيريا والعوامل الكثيرة التي تؤثر في تحويل وإبادة هذا الخارج, ومن هنا نفهم حكمة وجود كثير من الموجودات التي يتصور الإنسان مبدئيا أنه لا ضرورة لها, وبالتالي يتوهم أنها موجودة لغير ما حكمة, إنه لو لم يكن في بعض المخلوقات إلا جمالها لكفى الجمال ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تخيف لكفى ذلك حكمة, إن وجود الخوف من أكبر الحكم, إذ يعلم الإنسان الحذر, وبالتالي ينمي قدراته, ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تريك محلها مع ما قبلها وما بعدها لتدلك على التناسق, لكان ذلك وحده حكمة, ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنك ترى فيها عجائب خلق الله وقدرته لكفى ذلك حكمة.

3- ويقول بعض الناس: وحتى الشر فيه حكمة؟ وكذلك الألم؟ أليس العدل خيرا من الظلم, والرحمة خيرا من القسوة؟ والرعاية خيرا التيتم؟ والإيمان خيرا من الكفر؟ والقيام بالواجب خيرا من إهماله؟ وبالتالي فما الحكمة في وجود هذه النقائص وغيرها خير منها؟
ويصل الأمر ببعضهم إلى أن يسألوا لم خلق الله الشر؟ وإلى أن يقولوا: إن وجود الشر دليل على لا إله لأن الإله ينبغي أن يكون خيرا, ولا يصدر عنه إلا كل خير ونقول: أن نحب معرفة الحكمة في كل شيء, أو نسأل حتى نعرف أو أن نحاول المعرفة, فهذا شيء لا غبار عليه مع ملاحظة أن القصور في معرفة الحكمة لا يعني عدم وجودها. وأما أن نسأل الله لم فعلت؟ فهذا لا, ولا يسأل هذا السؤال إلا الجاهل بجلال الله وإحاطة علمه ومتناس محدودية الإنسان بالنسبة لعدم تناهي كمالات الله, والعالم إذا فعل عن علم لا يسأله الجاهل لم فعلت؟ وكما قال الله عن الإنسان: "وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً" الإسراء : 85 وإذن: "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ" الأنبياء : 23

وأما أن نقول: إن وجود الشر دليل على أن لا إله فإن هذا محض الجهل, ومحض الضلال, ومحض عدم المعرفة بقوانين الكون, فإن وجود الله قائم عليه من البراهين؛ بحيث يأخذ حكم البداهة عند كل إنسان لم تتعطل ملكاته. وإذن ففي دائرة التعرف على الحكمة نجيب على

التساؤلات الآنفة: الزنى شر, فهل خلق آلاته شر؟ لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية وكذلك لأنثى, وخلق عند الرجل شهوة وكذلك عند المرأة شهوة, والحكمة واضحة, فيما خلق الله، ولكن الإنسان هو الذي نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذي خلقت له من أجل بقاء الجنس, على حالة الفوضى الجنسية, فليس الشر إذن من خلق هذه الأعضاء, وإنما الشر فيما فعله الإنسان متجاوزا الحدود التي خلقت الأشياء من أجلها.

وشرب الخمر شر؛ فهل خلق العنب شر؟ إن العنب في حد ذاته شيء طيب جميل والحكمة في خلقه واضحة, والإنسان هو الذي نقل العنب من وضعه الصالح الطيب إلى الوضع الخبيث الفاسد, واستعمال الحديد في القتل غير المشروع شر, فهل خلق الحديد شر؟ عن وجود الحديد فيه من الحكم مالا يعد ولا يحصى, وإنما كان استعمال الإنسان له استعمالا خاطئا هو الشر.
والحسد في حد ذاته الذي هو تمني زوال النعمة عن المحسود شر؛ فهل خلق ملكة التنافس عند البشر شر؟ إن ملكة التنافس عند الإنسان من أكبر العوامل التي تؤدي إلى ازدهار العمران وصلاح الإنسان, ولكن الإنسان هو الذي حرف هذه الملكة فيه فكان الشر. فالشر من صنع الإنسان وليس في وجود الملكة, والكبر الذي هو غمط الناس وبطر الحق شر, فهل خلق طلب الكمال والعلو المشروع شر؟ لقد خلق الله عند الإنسان استعدادا كي يطلب الكمال ويطلب العلو في الكمال؛ ولكن الإنسان هو الذي حرف هذا الاستعداد فجعله كبرا, فكان شرا.
فالإنسان إذن هو الذي بتنكبه عن تحقيق الحكمة فما خلق الله, يحيل الخير إلى شر والصلاح إلى فساد .

والسؤال الآن: ما الحكمة في جعل هذا الاستعداد الهائل عند الإنسان للخير والشر والجواب على ذلك:

1- كي يستعمل الإنسان طاقاته كلها فلا تعطل طاقة, طاقة العقل, وطاقة الإرادة وطاقة الروح, وطاقة الفكر وطاقة الجسد فتظهر بذلك كمالات الإنسان في حالة استعمال كل طاقة في طريقها الصحيح, وفي إيجاد التوازن بين هذه الطاقات, وبالتالي يعرف فضل الله على الإنسان. أو في حالة تعطيل بعض الطاقات وإطلاق بعضها الآخر على غير طريق الحكمة يظهر قبح الانحراف عن سنن الله, وآثاره السيئة فيرجع الإنسان إلى الطريق الصحيح.

2- وبهذا يعرف الإنسان الله حق المعرفة: إذ لا يعرف أن الله غفور إلا أن أخطأ الإنسان واستغفر, ولا يعرف أن الله تواب إلا إذا تاب الإنسان بعد الذنب وأيقن أن الله يتوب عليه, ولا تعرف قدرته المطلقة على خلق كل شيء من خير وشر وهدى وضلال, إلا إذا كان هدى وضلال وخير وشر, وبالتالي لا يعرف الله حق المعرفة إلا إذا كان الإنسان على ما هو عليه, ولذلك كانت حكمة الله في خلق الإنس والجن هي معرفته: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" الذاريات : 56

إن الإنسان لا يعرف أن الله مجيب إلا إذا اضطر فدعاه واستجاب, ولا يعرف أن الله رزاق إلا إذا شاهد وصول الأرزاق إلى كل مخلوق. ومن هنا ندرك أسرار كثير من الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3- والذين يطلبون أن يكون عالمنا هذا خيرا محضا يخطئون, إذ أن الحكمة من وجود هذا الكون والإنسان وحياته الأولى فيه هي الابتلاء, ولا ابتلاء إلا بوجود خير وشر, وإنما ينجح الإنسان في الامتحان إذا بذل جهدا إراديا للخلاص من الشر والإقبال على الخير: "وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" الأنبياء : 35 " الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" الملك : 2 "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" الشمس : 7-10 "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" النازعات : 40-41 فإذا ما نجح الإنسان في امتحان الحياة الدنيا؛ كان مرشحا للحياة في عالم الخير المطلق في الآخرة "لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ" الأنعام : 127 ومن سقط كان أهلا لدخول دار الجزاء على الشر "جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ" إبراهيم : 29 "جَزَاء وِفَاقًا" النبأ : 26

4- وإن الإنسان إذا استعمل عقله بعلم, سيجد أنه من أصغر ذرات هذا الوجود, إلى كل جزء من أجزائه, إليه جميعا, مليء بالحكم, ولن يجد الإنسان شيئا فيه قد خلا من أجمل الحكم, والأمثلة التي ضربناها في ظاهرة الهداية أو الإرادة أو الإبداع , كلها تصلح أمثلة على الحكمة المبثوثة في كل خلق الله: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" السجدة : 7 . "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ" النمل : 88 وهذه أمثلة أخرى جزئية تصلح شاهدة على ظاهرة الحكمة في إطارها الكبير:

1- ترى لو كانت عينا الإنسان في أعلى رأسه أو في أسفل ذقنه أو في مؤخرته أو ... ؟ أكان ذلك أحكم؟ أم كونهما في مكانيهما الحاليين؟ ترى هل هناك جزء من الإنسان كان خليقا أن يكون أحكم في غير محله؟ إن إنسان يحترم عقله لا يمكن أن يقول: نعم. (وكأبسط مثال يضرب في تبيان مواطن الحكمة في أجزاء الإنسان يد الإنسان, إنه من الصعب جدا؛ إن لم يكن من المستحيل, أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف, فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك, ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة, وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائيا, وحينما تقلب صفحاته تضع أصابع يدك تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها, ثم يزول الضغط بقلب الورقة, واليد تمسك القلم وتكتب به, وتستعمل الآلة, ويأكل بها الإنسان, ويفتح بها النافذة, ويحمل بها ما يريد, ويلمس بها, وقد يستعملها في تحسس الجمال لنقل إحساساته إلى قلبه, حتى الأظافر فيها؛ تحمي الأطراف لأنها أكثر تعرضا للإصابة, وبدون الأظافر لا تستطيع أن تحك جلدك أو تلتقط الأشياء الدقيقة, وأخيرا فإن الأظافر هي الميزان الصحي للإنسان, إن كل ما فعله الإنسان ساعدت فيه إلى أكبر حد حركة إبهام يده, ولو كانت غير متحركة كإبهام القرد مثلا؛ فإنه لا يستطيع أن يفعل الكثير مما يفعله الآن)

2- شفة الجمل العيا مشقوقة كي تساعده على أكل نباتات الصحراء الشوكية, وخفافه تناسب الرمل فلا تغوص فيه؛ بخلاف ما لو كان له ظلف أو حافر, وأهدابه الطويلة كالشبكة تحمي عينيه من ذرات الرمل, وسنامه يكنز غذاءه فيه لأمد طويل في غيبة الطعام.

3- النتح في النبات عبارة عن تبخر الماء من النبات عن طريق الأوراق, الأمر الذي يساعد على صعود العصارات من الأرض خلال الجذور, وتتم عملية النتح بواسطة ثغور موجودة على الورقة, وهذه الثغور تختلف من نبات إلى نبات بحسب بيئته. لذلك يقل عدد ثغور النباتات الصحراوية عن عدد الثغور في نباتات الحقل, مما يقلل النتح في الأولى عن الثانية.

4- إن الطير أخف من أي حيوان في حجمه, وقد اتضح نتيجة تشريحه أن عظام الطير رقيقة مجوفة؛ لتعمل على خفة جسمه وتجعله بذلك قادرا على الطيران.

5- في القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى البانجو تضع الأنثى بيضها في أشهر الشتاء المظلمة – حيث تتلبد الثلوج في الأرض والسماء – في جيب جلدي في الطرف الأعلى من رجلها, ويبقى الصغار في ذلك الجيب إلى أن يقووا ويشتد مراسهم.

6- إن للسمك خطا طوليا على كل جانب من جانبيه, وبفحص هذه الخطوط بالمجهر, وجدت أنها أعضاء دقيقة حساسة إلى درجة كبيرة, فإذا اقتربت السمكة من حاجز أو صخرة تحس هذه الأعضاء باختلاف ضغط الماء نتيجة اصطدامه بالحاجز مهما كان تماوج الماء قليلا, فتتفادى بذلك الاصطدام وتغير طريقها.

7- يطير الخفاش في الليل حيث لا ضوء على ضعف بصره, ولا يصطدم الخفاش بالحواجز مهما كثرت, وقد تبين أن الخفاش يرسل اهتزازات ترجع إليه بالتصادم مع أي جسم يقابله,
فيحس به دون أن يراه, إنه في هذا شبيه بالرادار.
هذه أمثلة تعطينا صورة مبسطة عن الحكمة المبثوثة في كل شيء, وأن الإنسان كلما ازداد علما ازداد إدراكا لظاهرة الحكمة كما قلنا من قبل, ولكن القلوب العمي, والآذان الصم, والعقول المعطلة, تبقى عاجزة فلا تعي عن الله آية: "وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105 "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" الملك : 10

ترى لو نسب إنسان إلى مجنون, أصم, أعمى, أخرس, صناعة الرادار ألا يشك في عقله؟ بل يجزم بجنونه, أو ليس ينسب اهتزازات الخفاش إلى المادة الصماء, العمياء البكماء, الميتة, أكثر جنونا. "إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" فصلت : 40

إن في هذا الكون مليارات من شواهد الحكمة في الذرة والخلية, وفي اجتماع الذرات والخلايا, وفي كل نوع من أنواع الخلق وفي كل جزء منه, وفي اجتماع هذا كله, وكل شاهد من هذه المليارات لو نسبه إنسان إلى العدم لكان مجنونا, فكم هؤلاء مجانين أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحكيم وكم هم سفهاء إذ يتهمون المؤمنين بخالق الحكمة أنهم مجانين؟ قال تعالى: "وَالْقَلَمِ وَمَا

يَسْطُرُونَ* مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ* وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ* وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ* فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ* بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ* إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ* فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ" القلم : 1-8

الظاهرة الثامنة

ظاهرة العناية

1- كل نعمة وراءها منعم, وصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب, تأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم, رعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وراءها أب وأم, وجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا, وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى. أترى هذه المعطيات الكثيرة التي ليست من صنع الإنسان للإنسان, أليس وراءها يد؟ إن مثل الكلام تعطيل للعقل أي تعطيل. ولما كانت هذه الظاهرة ظاهرة العناية والنعمة على الإنسان, من أكثر الظواهر تفصيلا في القرآن لما يترتب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه, وبالتالي يستخرج بها شكر العاقل لله العظيم, أو إقامة الحجة على الإنسان وكفره وظلمه وجحوده, وبالتالي استحقاقه كل عقاب؛ فلذلك نبقى في جو شرح القرآن لظاهرة النعمة على الإنسان, والعناية به وكون ذلك دليلا على الله.

2- يقول الله تعالى: "وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" النحل : 18 "وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" إبراهيم : 34 والملاحظ أن آية من الآيتين ختمت بأن الله لغفور رحيم بينما الأخرى ختمت بوصف الإنسان إن الإنسان لظلوم جهول فوضح من سياق الآيتين وختامهما معا:

1- إن هذه النعم التي لا تعد ليست مصادفة بل هي من خلق الله, وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الإنسان المؤمن, إذا لم يقم لله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياما كاملا.

2- إن جهل الإنسان الذي ينتج عنه الكفر, وكبره الذي ينتج عنه الظلم, هو الذي يجعل الإنسان لا يرى بداهة نعم الله, ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص وتجرد, بل ينسبها إلى أي شيء, مهما كان تافها وباطلا: "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" الزمر : 45

3- وقد أجمل الله ماهية عنايته بالإنسان ونعمه عليه في آيات منها: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا". "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" لقمان : 20 "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ" الجاثية: 13 وفي هذا الإجمال السريع يتبين:

1- أول مظهر من مظاهر نعمة الله على الإنسان, خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة.

2- وثاني هذه المظاهر أن الأرض بما فيها والسماوات بما فيها مسخرة للإنسان.

3- إن هذا الإنعام كله بجزأيه على الإنسان من الله عز وجل قال تعالى "وَأَسْبَغَ" وقال: "جَمِيعًا مِّنْهُ" ولا يمكن أن يكون إلا ذاك؛ لأن مناسبة الكون للإنسان وإمكانه تسخيره, لا يمكن أن يكون إلا بمسخر.

4- وبعد هذا الإجمال, نذكر بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمة الله على الإنسان في القرآن:

1- "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" الإسراء : 70 "الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" الرحمن : 1-4 "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" التين : 7 ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم"فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" رواه البخاري (6227) ومسلم (2841)

أي على صفاته على رأي بعضهم, فالله له إرادة وللإنسان إرادة, والله له علم وللإنسان صفة علم, والله حي وللإنسان صفة حياة, والله سميع وللإنسان صفة سمع, والله بصير وللإنسان صفة بصر, والله متكلم وللإنسان صفة كلام, والله حليم وللإنسان صفة حلم, والله رحيم للإنسان صفة رحمة و ..... مع ملاحظة أن الله ليس كمثله شيء؛ وجودا وصفات وأسماء وأفعالا. فلم ينعم على مخلوق من المخلوقات كما أنعم عل الإنسان من حيث ما أعطي من معطيات خلقية ظاهرة وباطنة: "وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" لقمان : 20 وكفى بالعقل للإنسان نعمة, وبسبب ما أعطي استطاع أن يسخر هذا الكون بما فيه.

2- ويعدد الله عز وجل نعمه الكونية على الإنسان, وما أكثر الآيات في ذلك ويكفي أن نعرف أن سورة طويلة هي سورة الأنعام كلها تقريبا تتحدث عن هذا الموضوع, وكذلك سورة النحل, ولنذكر نماذج مختارة من القرآن الكريم: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ" يونس : 5

"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" الأنعام : 97 إن الطريق الوحيد للإنسان كي يتعرف على الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر هو النجم, وقد كانت المسألة قديما أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الإنسان من الاهتداء بالنجم, ولكن في الحاضر وإلى الأبد سيبقى الاهتداء بالنجوم شيئا أساسيا. يهتدي بها قاطع الصحراء في سيره, والجندي في معركته هجوما أو انسحابا والإنسان حيث كان, إن السفينة في البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض هي – حتى في هذه _ معتمدة على النجوم؛ إذ لولا نجم القطب ما عرف طولا ولا عرضا, ولولا النجوم الأخرى ما عرف نجم القطب. وبدون نجوم كم يتعذب الإنسان وكم يضل, وكم تشل حركته, وكم تتقلص دائرة عمله**!!**

"وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" النحل : 15-16

"اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ* وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ* وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" إبارهيم : 32-34.

"أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ* وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ* وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ* وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" الأنبياء : 30-33

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ* خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ* وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ* وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ*

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ* وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ* هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ* يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ* وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ* أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ* وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" النحل : 3-18

"أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ" النحل : 48

"وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ* وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" النحل : 65-69

"وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ" النحل : 72

"وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ* وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم

مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ* فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ* يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ" النحل : 78-83

"أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا* وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا* وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا* وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا* وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا* وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا" النبأ : 6-16

"فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ" عبس : 24-32

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" فاطر : 3

"وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" فاطر : 9

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" فاطر : 27-28

"وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ" الأنعام : 141-144

"إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ* فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" الأنعام : 95 -96.

"وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ" الأنعام : 98
ونختم هذه الآيات بما ختمت به سورة الأنعام: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" الأنعام : 165

وفي هذه الآية ترى إجمالا لنعم الله كلها:

1- كون الإنسان خليفة على هذه الأرض, وفي هذه إشارة لنوعية النعم: نعمة الله على الإنسان في إعطائه الخصائص الظاهرة والباطنة التي استأهل بها تسخير الوجود, ونعمة الله على الإنسان إذ جعل الأرض بما فيها له.

2-وكون الناس ليسوا سواء؛ بل رفع بعضهم فوق بعض درجات من أكبر النعم. وقد يشكل على بعض الناس كيف يكون جعل الناس بعضهم فوق بعض نعمة, وهذا من قصور الفهم؛ وذلك لأن الحياة الدنيا لا تقوم إلا على هذا, فلو كان الناس كلهم متساوين جمالا وذكاء وقوة وعقلا وعلما وإمكانات, وكانوا كلهم في الدرجة العليا من ذلك فإن وقتذاك لا يوجد كناس ينظف أرضا, ولا عامل يقيم عملا، لكن وجودهم متفاوتين جعل كلا مسخرا في حدود طاقاته , إلى جزء من العمل الذي تقوم به الحياة الدنيا ومصالح الخلق وبهذا التفاوت صلاح ناس للإمرة وناس للشورى وناس للجيش, وهكذا.

ثم بينت الآية الحكمة في وجود هذا التفاوت بين المستخفلين؛ وهو الابتلاء فيما أوتي كل إنسان من مقام ومواهب وإمكانات, فمن استعمل هذه في طريقها الصحيح نجح وإلا فقد سقط, وقد يسقط إنسان أوتي من المكانة أعلاها, وينجح إنسان أوتي المكانة أدناها, ومن هنا ندرك أن أكبر

نعمة أنعمها الله على الإنسان إرسال الرسل: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" الأنبياء : 107
"لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ" آل عمران : 164
إن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين يدلون كل إنسان على الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يستعمل فيه ملكاته كلها, بحيث لا يعطل شيئا منها, وبحيث لا يصطدم مع الآخرين الذين يحسنون استعمال الملكات, وبالتالي تتم نعمة الله على الإنسان بالاستفادة من كل ما سخر له, ولولا هذا لتضاربت محاولات الناس الاستفادة مما سخر الله لهم واصطدموا, وأصبح هذا الفضل على الإنسان بتسخير كل شيء له سببا في شقاء الإنسان كما هو واقع الآن.

من كل ما تقدم نخرج بما يلي:

هذا الإنسان هو أكمل مخلوقات هذا الكون, ودراسة كاملة لهذا الكون, تدلنا على أنه سماواته, وأرضه, وحيواناته, ونباتاته, كله مسخر للإنسان لا يشذ عن كل هذا ذرة من ذراته:
فالنباتات قديمها وحديثها يستفيد منها الإنسان مباشرة أو بطريق غير مباشر ثمرها لغذائه, وساقها لسياراته وشقته وناره, وزهرها للنحل الذي يأكل منه الإنسان العسل وقد تكون غذاء للشاة التي يأكل لحمها, ويشرب لبنها ويستعمل صوفها لثيابه, ويستخرج منها الدواء ويصنع منها الأدوات, ولا ننسى أن البترول كان من الأشجار على رأي بعضهم.

وهذه الأحياء ما علمنا منها وما لم نعلم؛ أليست كلها للإنسان يستفيد منها بطريق مباشر وغير مباشر: درا وطعاما, ومتعة ونظرا وقد نرى أصنافا من الأحياء لا نعرف الآن ماذا يستفيد منها الإنسان وكيف يستفيد وقد يعرف في المستقبل, ولعل في هذه القصة عبرة:
(هناك نوع من الصبير يستعمل كسياج للمزارع, نقل إلى أستراليا ووزع هناك وكانت فاجعة إذ امتد بشكل هائل لدرجة أنه كاد يغطي كثيرا من الأراضي الصالحة للزراعة وحار العلماء في هذا الأمر, ثم عثروا على نوع من الجراثيم المرضية لا تعيش إلا على هذا النوع من النبات, فنقلوا هذه الجراثيم بواسطة النبات نفسه, وبدأت الجراثيم تعمل عملها حتى تقلص النبات إلى الوضع المناسب, والملاحظ أن الجرثوم لم يقض على النبات بل بقي النبات ولكن بالقدر الذي ينفع ولا يضر) ولعل في قصة اكتشاف البنسلين وفي وجوده عبرة أخرى , على أن كل شيء في هذا الكون يستفيد الإنسان منه بشكل أو بآخر الآن أو غدا, وعلى كل فإن الإنسان كما يتمتع

باللقمة التي يأكلها والثوب الذي يلبسه يتمتع بالمنظر الجميل, وكما يتمتع بالمنظر الجميل, يتمتع بلذة المعرفة, ولئن لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته, إيجادا وإمدادا , إحياء وإماتة ورزقا لكفى.

ثم أليست عناصر هذا الكون: حديده ونحاسه, وأوكسجينه, وآزوته, وهيدروجينه, وذهبه, كلها مسخرة للإنسان؟! ثم الأرض بساطه ومأواه ومحل معاشه وقراره؟ ! وفي القمر للإنسان جذبه ونوره وجماله ومعرفتنا الوقت به؟ ! وفي الشمس للإنسان جذبها وحرارتها ونورها وطاقتها التي تبثها؟! وفي النجوم الهادية الجميلة؟! والمياه ودورتها؟! ثم كون هذا الإنسان على ما هو عليه من علم وإرادة وقدرة وحكمة وعقل بحيث عرف الكثير من الأشياء, وكيف يستفيد منها, أليس في هذا دليل كامل على أن هذا الكون خلق مسخرا للإنسان, وأن الإنسان خلق مسخرا لهذا الكون؟! أو ليس في هذا الدليل الكامل على أن هناك ذاتا رتبت هذا للإنسان وأوجدت الإنسان له؟! ذلك الله رب العالمين.
قال تعالى: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ* وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ" إبراهيم : 7-8
"وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" سبأ : 13

الظاهرة التاسعة

ظاهرة الوحدة

إن الدارس لهذا الكون , يرى أن فيه وحدة, تدل دلالة كاملة على أن ذاتا واحدة بعلم واحد وإرادة واحدة وقدرة واحدة قد أوجدته, ومظاهر هذه الوحدة كثيرة منها:

1- التكامل في أجزاء هذا الوجود الذي يدلنا بدقة على أن خالقا واحدا قد رتب أجزاءه هذا الترتيب الدقيق المتكامل, يقول الأستاذ البنا رحمه الله:

الملاحظة الأولى: هذا الهواء الذي نستنشقه مركب من عدة عناصر منها جزءان هامان: جزء صالح لتنفس الإنسان ويسمى باصطلاح الكيميائين الأوكسجين وجزء ضار به ويسمى الكربون, فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات وهو نافع له, ففي الوقت الذي يكون الإنسان فيه يستنشق الأوكسجين ويطرد الكربون, يكون النبات يعمل عكس هذه العملية فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسجين.

وتتم عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غاز الفحم (البحر) , فإنه يمتص كل زيادة موجودة في الجو إذا بلغت هذه الزيادة فوق الحد المناسب.

فانظر إلى الرابطة التعاونية التكاملية بين الإنسان والنبات والبحر في شيء هو أهم عناصر الحياة وهو التنفس.

الملاحظة الثانية: أنت تأكل الطعام وهو يتركب من عدة عناصر نباتية أو حيوانية, يقسمها العلماء إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية مثلا, فترى أن الريق يهضم بعض المواد النشوية ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان, والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره, والصفراء المفرزة من الكبد تهضم الدهنيات وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها, ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك, فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية, والرابعة تحول اللبن إلى جبن, فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشري وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

الملاحظة الثالثة: ترى الزهرة في النبات, فترى لها أوراقا جميلة جذابة, ملونة بألوان مبهجة فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار, لتسقط على الزهرة وحتى إذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها, وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح, فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان؛ حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

هذا التكامل تجده في كل شيء بين الليل والنهار, السماء والأرض, الشمس والقمر, الأعضاء المذكرة والأعضاء المؤنثة والإنسان والحيوان والنبات.

إن في هذا الكون وحدة مظهرها تكامل أجزائه تدل على أن لها خالقا وأنه واحد. أما لم دلنا هذا على الوحدانية؟ يجيب على هذا الأستاذ البنا فيقول: (إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف والعلو ولا سيما شأن الألوهية الكبرياء والعظمة, وأيضا فلو استقل أحد المتعددين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين, ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم, وتعطيل صفات الألوهية يتنافى مع جلالها وعظمتها فلا بد أن يكون الإله واحدا لا رب غيره) وقد ذكر القرآن دليل التكامل ودلالته على الخالق ووحدانيته في أكثر من سورة:

قال تعالى: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ* أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ* أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" النمل : 59-64.

"أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ* أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" الأنبياء : 21-25.

"قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ* بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ* عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" المؤمنون : 84-92 .

"قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً* سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا" الإسراء : 42-43.

2- ومن مظاهر هذه الوحدة في الكون, ذلك التناسق والترتيب الذي ذكره الله في القرآن بقوله تعالى: "مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ" الملك : 3-4

وهذه أمثلة من هذا الكون تدلك على هذه الوحدة الشاملة المتناسقة فيه:

1- إن الإلكترون يدور على عكس عقارب الساعة, والأرض تدول على عكس عقارب الساعة, والشمس تدور على عكس عقارب الساعة, والكواكب السيارة تدور على عكس عقارب الساعة, والقمر وكل الأقمار تدور على عكس عقارب الساعة, والنجوم كلها تدور عل عكس عقارب الساعة, ومجرتنا التي تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسية تدور على عكس عقارب الساعة, والإلكترون يدور على مدار بيضوي إهليجي والأرض تدور حول الشمس على مدار بيضاوي إهليجي, وكذلك الزهرة ونبتون والمشتري والكواكب السيارة, ومحور الأرض مائل. ومحور القمر مائل, ومحور المريخ مائل. ومحور الشمس مائل. والعجيب أن النسبة بين النوات وإلكتروناتها كالنسبة بين الشمس وكواكبها السيارة.

2- إن ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجية, كهرباء سالبة وكهرباء موجبة, فإذا ارتقينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية, فإلى الحيوان كذلك, فإلى الإنسان كذلك وحتى في الأحياء المخنثة توجد أعضاء ذكرية وأخرى أنثوية قال تعالى: "سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ" يس : 36 وفي الأرض نفس العناصر التي تؤلف الشمس, ونفس العناصر التي تؤلف كل الكواكب, والكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات وإلكترونات كعناصر أساسية, وهناك نيترونات كشحنات كهربائية معتدلة تكون في نواة معظم العناصر.

3- في هذا الكون قوة ومنابع قدرة, وتحكمه قوانين, وإنك لتجد أدق معاني التناسق والوحدة بين هذه القوى والقوانين, كمثال:
من منابع القوة والقدرة في هذا الكون: الضوء والحرارة والأشعة السينية, والأشعة اللاسلكية, والأشعة البنفسجية, وتحت الحمراء, هذه القوى كلها ترجع إلى شيء واحد هو تلك القوة الكهربائية المغناطيسية ولها جميعا سرعة واحدة وإنما اختلافها اختلاف موجة.
ومن قوانين هذا الكون, قانون الجاذبية الذي يحكم الوجود كله من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه, والذي نصه: كل شيء له كتلة يجذب كل شيء آخر له كتلة, وقوة التجاذب التي بينهما تزداد ازديادا طرديا بزيادة أي الكتلتين, فالقوة تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع البعد بينهما.
والآن عرفنا أن هناك قوتين أو نوعين من القوى؛ القوة المغناطيسية الكهربائية وقوى الجاذبية وكلها ترجع إلى أصل واحد.
يقول أينيشتاين: (إن روح العالم النظري لا تحتمل أن يكون في الوجود شكلان لقوى لا يلتقيان شكل للجاذبية القياسية, وشكل للمغناطيسية الكهربائية)

4- وهاتان قصتان تدلا على التناسق أولا, وفي التشابه بينهما دليل على الوحدة الكونية:
الأولى: إن لاختلاف العناصر الأصلية في هذا الكون, أثر عند اختلاف عدد إلكتروناتها وبروتوناتها , والوزن الذري أثر من آثار هذا العدد , وخواص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد, وقد استطاع العالم الروسي مندليف أن يصنف العناصر بحسب وزنها الذري ووضع لها جدولا على هذا الأساس وكان ترتيب العناصر متدرجا صاعدا, ولكن مندليف فوجئ بفراغ كالفراغ الذي سنذكره بين المريخ والمشتري.

إذ أنه وجد أن درجات السلم الدوري للعناصر تطرد بتتابع لا فراغ فيه, إلا في ثلاثة عناصر, فإما أن يكون هذا القانون الدوري غير مطرد وغير صحيح, وإما أن يكون صحيحا ومطردا, فلا بد حينئذ من وجود هذه العناصر المفقودة في نفس تلك الدرجات الفارغة, وكان مندليف واثقا من صحة قانونه الدوري, فأخذ يؤكد أن هذه العناصر الثلاثة المفقودة لا بد من وجودها على الأرض, بل إنه استطاع على أساس وزنها الذري الذي يأتي في الدرجات الفارغة أن يحدد كل الخواص الكيميائية التي لها كأنه يراها, وقد رأى مندليف قبل موته صحة نظريته العلمية, واكتشف العلماء العناصر المفقودة بكل خصائصها كما حددها مندليف.

الثانية: أقرب الكواكب إلى الشمس عطارد وبعد 36 مليون ميل, فالزهرة ومتوسط بعدها 67 مليونا, فالأرض 93 مليونا, 6فالمريخ 142, فالمشتري 484 مليونا فزحل 887 مليونا فأورانوس 1782 مليونا, فنبتون 2792 مليونا من الأميال, ويهمنا أن نعرف النسبة في هذه الأعداد. إن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق 9 منازل: أولها الصفر, ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد 3, ثم تتدرج متضاعفة هكذا 2-6-12-24-48-96-192-384 فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد 4 ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل, ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس؛ أي أنه بإضافة 4 إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا: 4-7-10-16-28-52-100-196-388 فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه, وضربنا كل عدد منه بتسعة ملايين, يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك البعد عن الشمس؛ فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل, وبما أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمه 4, فإذا ضربنا 4×9 يكون حاصل الضرب 36 مليون ميل, وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة.

ولكنهم وجدوا أن منزلة العدد (28) ليس فيها كوكب, بل تأتي بعد العدد 16 الذي صاحبه المريخ, العدد 52 الذي صاحبه المشتري, فما هو السر في هذا الفراغ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة, وإما أن يكون هناك كوكب غير منظور في مرتبة العدد 28 على بعد 252 مليون ميل عن الشمس, أي بين المريخ والمشتري وأخيرا وجدوا هذا الشيء الذي لا بد من وجوده, ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا؛ بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في

الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري, أي في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة, فكأنه كوكب تحطم.
هاتان قصتان متشابهتان في قضيتين مختلفتين, كل واحدة منها تتمم الأخرى لتكملا عندك الشعور؛ بأن يدا واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصر وجزيئاته وكلياته.

وللنجوم قصة:

(فقد عرف الإنسان شيئا من مواقع النجوم, وعرف أن لها أقدارا ثابتة بحسب نورها وعددها. عدوا منها في الماضي البعيد ستة أقدار ووقفوا, ثم ما زالوا يكتشفون الجديد حتى وصلوا إلى القدر العشرين, ثم إلى القدر الحادي والعشرين, والعجيب في هذه الأقدار أنها تسير مترقية أو متدنية – بحسب عدد النجوم تارة, وبحسب قوة نورها أخرى – في نسب مدهشة تطرد في عدد النجوم, فتزداد تباعا من قدر إلى قدر, فيكون عدد نجوم القدر الأول 14 نجما, ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ في القدر العشرين 76 مليون نجم, ويبلغ في القدر الحادي والعشرين ملياري نجم, أما في قوة النور فقد شوهد أن تلك الأقدار تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر, فكلما زاد عدد النجوم في القدر زادت قوة النور, وأما بعد العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضاؤل.

ومن مظاهر هذه الوحدة في هذا الكون اتصال أفق النبات بأفق الحيوان, واتصال أفق الحيوان بأفق الإنسان, فترى في عالم النبات تدرجا من أدنى إلى أعلى مع التشابه, وتجد أعلى آفاق النبات متصلا بأدنى آفاق الحيوان, وأعلى آفاق الحيوان متصلا _ نوع اتصال _ بأفق الإنسان, حتى حسب الحاسبون أن هناك بذرة أولى كان منها تطور وارتقاء حتى أصبحت الأحياء على ما هي عليه. وقد ناقشنا هذه النظرية وبينا بطلانها في ظاهرة الحياة, ولكن القول بها دليل على ما بيناه من أن في أحياء هذا الكون وترقياتها وحدة تدل على وحدة الصانع الذي خلقها أجناسا وأنواعا, وجعل بعضها أرقى من بعض: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم" الأنعام : 38

ومن مظاهر الوحدة في هذا الكون أن المادة كلها من نور, إذ أن عناصر المادة كلها تؤول إلى ذرات وكهارب, وأن هذه الذرات والكهارب تنشق فتؤول إلى شعاع.

ومن مظاهر الوحدة أنك تجد أن أجنة الحيوان والإنسان في الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشابها تاما, فإذا بهذا التشابه يخرج منه ذلك الخلق المختلف.

وهذه المظاهر كلها تدل على التنسيق والترتيب, فإذا أضفنا إليها ظاهرة التكامل, عرفنا جزما أن ذاتا واحدة، بعلم واحد, بإرادة واحدة, بقدرة واحدة, هي صانعة هذا كله.
أما لم نسبنا هذا الوجود والوحدة فيه إلى خالق؟ ولم حكمنا أن هذا الخالق واحد؟ وما الرد على عباد الطبيعة؟ فهذا ما سيأتيك الجواب عنه في الفصول الثلاثة التالية بالتفصيل:

1- السببية
2- الطبيعة
3- التوحيد

وهذه الفصول الثلاثة منقولة من كتاب الوجود الحق للدكتور حسن هويدي.

وإنما وقفنا عند هذه الموضوعات الثلاثة هذه الوقفة, لأن أعظم صراعات الإسلام المعاصرة, صراعه مع الماديين الذين ينكرون قانون السببية في حق الكون, ويعللون لحوادث الكون بأنها فعل الطبيعة, والصراع الضخم الآخر صراع الإسلام مع القائلين بالتعدد كالنصارى القائلين بالتثليث والمجوس القائلين بالثنوية والمشركين عموما, وللتأكيد على السببية وعلى دحض فكرة الطبيعة وعلى تعميق التوحيد نذكر فصلا رابعا نجعله تحت عنوان عود على بدء للشيخ سعيد النورسي.

1- السببية

منذ امتياز هذا الإنسان بالإدراك وإشراق أشعة عقله على الوجود, تساءل ولا يزال عن مبدئه ومنتهاه, فهو يتساءل من أين أتى وإلى أين يصير؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالم؛ إنما كان من رحم أمه, أو من نطفة أبيه, لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة, دون النظر إلى المبدأ الأول, والبحث عن السبب الأساسي الذي ترجع إليه جميع الأسباب.

ولهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية, والذي ولد معها, وما زال يلازمها, كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل؛ فنشأت أحكام مختلفة, ونظريات متباينة وكان منهم مخطئ ومصيب. غير أننا إذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من السماء والأرض؛ نرى أن المطر ينهمر من سحاب, وأن الثمر يحصل من شجر, وأن الشجر ينبت من الماء والتراب, وأن الماء ينشأ من عنصر الأوكسجين والهيدروجين ولم يشاهد الإنسان منذ فتح عينيه على الوجود أن حادثا حدث من غير سبب, أو أن شيئا وجد من غير موجد, حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن إلى غيره, ولا يأبى الإقرار به إلا عقل مريض شأن المعتوهين, أو عقل قاصر شأن الطفل الذي يكسر الإناء ثم يقول: إنه انكسر بنفسه؛ ولذلك وجدنا ذلك العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية فنادى نداءه المشهور: البعرة تدل على البعير, والأثر يدل على المسير, ليل داج, ونهار ساج, وسماء ذات أبراج, أفلا تدل على الصانع الخبير.

لهذا الواقع الصريح , والإدراك القاهر , وجريان الحوادث أبدا على هذا القانون أضحى هذا المبدأ مسلما به في كتب الفلسفة, وسمي بمبدأ السببية وهو أول مبادئ العقل المديرة للمعرفة, لأنه أساس الأحكام العقلية والمحاكمات المنطقية, ولو التفت إلى كلماتك التي تخاطب بها الناس صباح مساء, والأحكام التي تنتظم بها شؤون حياتك, لوجدتها لا تخلو في أي مرحلة من المراحل من الاستناد إلى مبدأ السببية.

إذا, فقولنا: لا بد لكل حادث من محدث أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره, وبالتالي محال على حادث أن يحدث بذاته, وعلى شيء أن يوجد بغير موجد, وإليه الإشارة في القرآن الكريم "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ" الطور : 35

نقول بناء على هذه القاعدة: إن عالمنا هذا من أرض وجبال, وشجر ودواء وكواكب وشموس, لا بد له من محدث, وإن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة, مندفعة عن أسباب, وهذه الأسباب مندفعة عنه أسباب أخرى أقل من الأولى, ولا بد أن نصل بالنتيجة إلى سبب لجميع هذه المسببات, ومحدث لجميع هذه الحادثات, لأننا كلما رجعنا إلى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات, قلت العوامل الدافعة, حتى نصل أخيرا إلى مسبب واحد. كنظرك إلى أغصان

الشجرة المتعددة المتشابكة, فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها, ذهبت إلى قليل من كثير, حتى تنتهي إلى ساق واحدة, وإنك تجد لهذه أمثلة كثيرة, هي من الظهور بمكان لا تحتاج معه إلى الوقوف الطويل وضرب الأمثال.

إذا, فإنكار محدث للحوادث, وموجد للوجود, تناقض مع العقل, وإقامة على الخطأ, ولعله لهذا الإلزام المنطقي الذي لا مناص منه, سماه ابن سينا بالواجب الوجود, حفاظا على حرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض, أو البلاهة والتبلد إذ يستحيل أن ينبثق الوجود من العدم.
هذا وإن قدم المبدأ, أو قول كثيرين به, أو ظهوره بمظهر البديهية لا يقضي عليه ولا يخرجه من الحق إلى الباطل, ما دام العقل يمليه, والواقع يؤيده, إلا إذا كان الداعي إلى الإنكار, استكبارا على كل قديم, أو عقوقا للمنطق السليم, أو جريا مع كل هوى سقيم, شأن الحمقى والمرضى والمغرورين.

وقد يقول قائل: إن هذا المحدث لجميع الحوادث هو الطبيعة, وسيأتي الكلام على الطبيعة, أو يقول: إذا أقررنا بوجود الخالق, فمن الذي أوجد الخالق؟ وسيأتي تفصيل ذلك.
والذي نريد أن نخلص إليه الآن واضحا مجزوما به: لا بد لكل حادث من محدث, إذن فلا بد لهذا العالم من خالق.

هنا قد يثير بعض النقاد قضية قدم العالم وحدوثه, فيقول: إن هذه القاعدة تستقيم إذا سلمنا بحدوث العالم ولم نقل بقدمه.
ونقول: إن البرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفي قدمه, فقد قال الإمام الغزالي بناء على ملاحظة الحركة والسكون: إن دورة من الفلك: إما أن تكون شفعا أو وترا فإن كانت شفعا فقد أتمت عددا فرديا, وإن كانت وترا فقد أتمت عددا زوجيا, إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود, ولما كان محدودا فهو حادث قطعا ولو استمر الناقد فقال: إن أصل العالم (هيولاه) قديم, والحركة طارئة, قلنا له: من أين طرأت الحركة به, فهو إذن إقرار منه صريح بوجود مرجح آخر أثر على العالم بإيجاد الحركة, بل هو استعجال فاصل للإقرار بوجود خالق للعالم, فالناقد بين أمرين: إما أن يرجع إلى قولنا بالحدوث فيعترف بالخالق, أو أن يقر بوجود المرجح وهو اعتراف بالخالق, إذن, فنقد الناقد واه لم يصل إلى القرارة ولم يثبت للنقد, والقول بقدم العالم

باطل لا يسنده برهان, وهكذا تنهار المادية الجدلية التي تقول بقدم العالم, هربا من الإقرار بوجود خالق للعالم, وتفلتا من البرهان الملزم, والدليل القطعي.

وقد تستغرب قولي بانهيارها بهذه السرعة, ولكني أقول: إن عقدا من النظام لو بلغ ألف حبة, لانفرط كله بحل العقدة الأولى. وإن لم ترد ذلك, فاحذف من المادية الجدلية كل ما بني على أساس قدم العالم من الأحكام, فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية إلحادها في الخالق, وعند القول بخالق الوجود؛ تنشأ أحكام أخرى تهدم أحكامها الفرعية كما سترى, دون أن يكون البحث موجها إلى الفروع خاصة, ولكن بروز الحقيقة في الأصل يهدم بصورة عفوية كل باطل فرعي.

2- الطبيعة

بعد ما تبين لك, بما لا يقبل الشك, وجود الخالق الأول, وأنه الكامل المطلق, وأن السؤال عن خالق الكمال المطلق لا يصح, وتبددت أمامك تلك الشبهات, بقيت شبهة من شبهات العصر, وضلالة أخرى من ضلالته, وهي كما سيظهر لك مصطنعة كما تصطنع الأصنام, مخيمة على الأحلام كما تخيم الأوهام, ولكنها بكل أسف, مع اصطناعها هذا وعدم استنادها إلى أساس, نجدها مسيطرة على عقول كثير ممن يدعون الثقافة والمعرفة, وقد انطلت عليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص. تلك الشبهة هي الطبيعة, إله العصر المزعوم.
حينما تبادر أحد الطبيعين بالقول:
من خلق السماوات والأرض؟ يقول لك: الطبيعة
من خلق النبات والحيوان؟ يقول لك: الطبيعة
من خلق الإنسان؟ يقول لك: الطبيعة
من يدبر جميع هذه الأمور الفلكية, والحيوية والغريزية, وكل بحساب دقيق ونظام لا يحيد, فسيقول لك: الطبيعة.
وهو يتذرع لك بهذا السبب لأنه لا يستطيع أن يقول لك: إنها تحدث بذاتها, أو من تلقاء نفسها, وينكر قانون السببية, فهو أصاب حين أقر بالسببية, وأخطأ حين جهل السبب, وليس شأننا حين البحث في هذا الأمر أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع, ولكننا نناقش الأمر من جميع الوجوه, فما كان

من حق أقررناه, وما كان من باطل فندناه, والعاقل الذي يصيخ إلى المنطق, والجاهل الذي يتبع هواه, ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق.
فما هي الطبيعة؟ وما هي مفاهيمها؟ وما هي حقيقة تأثيرها؟

الطبيعة في اللغة: السجية والخلق. غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس حسب تفاوتهم مفهومين:

المفهوم الأول: إنها عبارة عن الأشياء ذاتها فالجماد والنبات والحيوان, كل هذه الكائنات هي الطبيعة, وهو مفهوم غير دقيق, وحكم غير سديد كما سيتبين لك.

المفهوم الثاني: إنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها؛ فهذه الصفات: من حرارة وبرودة, ورطوبة ويبوسة, وملاسة وخشونة, وهذه القابليات: من حركة وسكون, ونمو واغتذاء, وتزاوج وتوالد, كل هذه الصفات و القابليات هي الطبيعة.
وسواء أكان القول الأول أو القول الثاني هو المعبر عن الطبيعة بحق, فما نصيب هذا القول من الحق؟

أما القول الحق: فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء, فالأرض خلقت الأرض, والسماء خلقت السماء, والأصناف صنفت نفسها, والأشياء أوجدت ذاتها, فهي الحادث والمحدث, وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته, وبطلان هذا القول بين, فهو إما إدعاء بأن الشيء وجد بذاته عن غير سبب وقد تبين لك فساده بقانون السببية وإما إدماج الخالق والمخلوق في كائن واحد, فالسبب عين المسبب وهو مستحيل؛ بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إلى الوقوف والشرح.

وأما القول الثاني: وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين, فنقول فيه:
الحقيقة إن الذي يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص, لا يعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر، لا يعرفون كنهها, ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها, ولو فعلوا ذلك

لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمآن ماء, حتى إذا جاء إليه لم يجده شيئا, ولإيضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي:
نضع حبة في التراب, ونسقيها بالماء فتنتفخ, وتنفلق, فيظهر منها الرشيم, ويندفع منه الجذر إلى الأسفل, والساق إلى الأعلى, وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار, وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلا.

فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ ثم الانفلاق ثم ظهور الرشيم. ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظواهر الحيوية, ولما نشأت عنها الثمرة. فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها: لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء. فمن الذي نفخها وفلقها؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا: إن عقلها هو الذي هيا لها ذلك, ولو أن الماء هو الذي نفخها وفلقها, لأمكن للماء أن ينفخ في الحديد ويفلقه, إذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر, وإذا كانت الحبة بذاتها جدلا انتفخت وانفلقت, فلماذا لم تجمد وتضمر بدلا من أن تنتفخ وتنمو؟ ولكي يحصل التكاثر والبقاء, يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك, ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة, والبذرة لا تملك شيئا من ذلك! فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها, بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة, وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها؟
والحقيقة أن من أنعم النظر في تعبير الطبيعين المستندين إلى القابلية: طبع النبات على ذلك, انتفخت الحبة, وانفلقت, وتوالدت الخلايا, تميل الخلية الحية إلى الانقسام؛ يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهل الفاعل الحقيقي, فكأن الطبيعي أغمض العين عن السبب الحقيقي, وبنى الفعل للمجهول تخلصا. فمن الذي نفخ الحبة؟ ومن الذي فلقها؟ ومن الذي أدى إلى التوالد؟ ومن الذي جبل الخلية على الانقسام؟ كل هذا التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر, دون الذهاب إلى أسبابها, بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة سببا فاعلا, والقابلية مؤثرا, والظاهرة المجهولة عاملا مكون, فالانتفاخ صفة, نشأت عن المؤثر الخارج عن الشيء, وعن قبول أثره في ذلك الشيء. والانفلاق صفة, والامتداد صفة.

وما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوما مركبا, سماه قابلية التوالد والنمو. فجعل من القابلية التي هي عرض من أعراض الشيء سببا في الخلق, ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك, سببا فاعلا واعيا في تكوين الأشياء! إذن فمن الذي ركز

الطبيعة في العناصر؟ ومن الذي نوع تلك الطبائع؟ إن بذرة الأجاص, وبذرة المشمش, حين توضعان في التراب تنتج كل واحدة منهما ثمرا يختلف عن الآخر, بلونه وطعمه, ورائحته, مع أنه يسقى بماء واحد, ومع اتفاقنا على أنه ليس للبذرة عقل, ولا لجذر الشجرة إدراك, فكيف كان الجذر يمتص الماء, ويصطفي ذرات بعينها, وينضح النسغ ويسوقه إلى الثمر, ويكون العصارة, وينشئ الحلاوة؟! كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب, ولا نقف عند المجهول, ولا نكتفي بوصف الظواهر, بل لا نصف هذه الظواهر خطأ بأنها أسباب الخلق الحقيقية, ونحن نعلم أن القابلية ليست إلا صفة من صفات الشيء فكيف تختلقه؟ وأن الحبة بالنسبة للنبات جماد لا يعقل؛ فكيف تنوعه؟ وإذا لاحظت أننا مجبرون بحكم هذه النظرة إلى طبائع الأشياء, أن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعة, وعمن طبع الأشياء عليها, وكيف تؤثر؟ وهل تبدع أم تصنف وتركب, وهل هي فاعلة بذاتها, أم منفعلة لغيرها؟ أدركت أن الطبيعين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل كثيرة, ومن الأصل الحاسم إلى الفروع التي لا تحسم الأمر, فبينما كنا نسأل عن خالق الحبة وفالق النواة, انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة إلى صفات انفعالية ليس لها من القدرة على الخلق نصيب, ولولا قصر النظر عند الطبيعيين على هذه الأسباب الغريبة المحيرة دون مبرر؛ لوجدنا الجواب شافيا منطقيا منسجما مع ما تقدم من التحقيق العلمي في الآية الكريمة التالية: "إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" الأنعام : 95 وبذلك ترجع الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتعرف المجاهيل, ويحسم الأمر.

ولكي نزيد الأمر وضوحا , نضرب لذلك مثلا. محرك السيارة, فإن تحرك أجزاء المحرك, واحتراق البنزين, والقوة الدافعة في محصول الانفجار, كل تلك الخصائص قابليات وطبائع, فهل تجد أن القابلية غير ذات الشيء, وأنها إن كانت سببا في اندفاع الظواهر, وبروز المظاهر, فهو في حدود التركيب والتصنيف, لا في حدود الخلق والإبداع, وهي في المراحل الأخيرة, لا في المرحلة الأولى من خلق الوجود, ولذلك إذا أراد الطبيعي الخروج من هذا المأزق, وأقر معنا من أن هذه الطبائع أسباب فرعية في مجال التكاثر والتنويع, ولا تعدو في حقيقتها نوعية تساند الأسباب التي تكلمنا عنها في مبدأ السببية. قلنا له: رجعت إذن إلى الأصل الذي بحثنا عنه من قبل وأثبتناه, ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سببا لإخراج

الوجود من العدم. وإذا أردت أن تعرف العلة النفسية في تكوين هذا الإله الزائف الطبيعة لدى بعض الناس, وجدتها في السلسلة التالية.

عاين الإنسان صفة الشيء, فأضاف الصفات بعضها إلى بعض, وكون من مجموع الصفات مفهوما, وسمى المفهوم قابلية أو طبيعة, ومالت النفس إلى الراحة والاختصار فجعلت من تلك الطبيعة في خيالها ذاتا مستقلة فعالة, وأسلم لها خاضعا, من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن, يصنعها ثم يتخيل أن له النفع والضر, ثم يعبده.

وما أشد التشابه بين من كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها, ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها, فالعلة النفسية واحدة, ونوعية الخطأ واحدة, ألا وهي الاصطناع في أول الأمر, وتوهم الاستقلال والتأثير في آخره, وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخدعة في آيات كريمة منها:
"مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" يوسف : 40
"قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ" الأعراف : 70-71
فانظر من أي ناحية ضل البشر من قبل, ومن أي ناحية يضلون اليوم, والقضية ليست إلا أسماء يسمونها في البداية, ثم يجادلون كحقيقة واقعة في النهاية.

وخلاصة القول في الطبيعة: أنها إما قول بأن الأشياء حدثت بذاتها؛ وهو قول ساقط من كل اعتبار.
وإما قول بأن الصفات تختلق الذات, وهو أشد تداعيا وسقوطا من القول الأول؛ لأنه إذا عجزت ذات الشيء عن خلقه, فكيف تستطيعه الصفات؟ وإما اعتبار للقابلية على أنها سبب متأخر كبقية الأسباب, فتفتقر إلى السبب الأول وهو الذي نقول به.
إذن ففي الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع إلى الخالق الأول, وتأتي الطبيعة متأخرة منفعلة له مفتقرة إليه.

وهكذا تجد أن الطبيعة – إله العصر المزعوم – لم تثبت أمام النقد المنطقي والشرح العلمي, وليست بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابليتها وقوانينها التي تجري عليها, وأن طبائع الأشياء لا تخلقها.

3 – التوحيد

إذا كان سراب الطبيعة قد تبدد أمام ناظريك, وأصبح أفق معرفة الخالق الأول واضحا لديك, أمكنك أن تستكمل معرفتك هذه بالتعرف إلى صفاته عز وجل, التي يلزمك بها البحث, مستندا إلى الحقائق المتقدمة, وصفاته التي تستنتج من ذلك فنقول:

هو الأول: ليس قبله شيء, لأن القول بشيء قبله يجعل له حدودا, والحدود من صفات الحوادث, وقد فندنا ذلك من قبل.

وهو الآخر: وليس بعده شيء للمحذور نفسه, فهو إذن الأزلي الأبدي.

وهو الحي: الحياة المطلقة, لأنه الواهب الحياة للأحياء, ولا يصح إلا أن تكو مطلقة, لأن النسبية من صفات الحوادث.

وهو السميع العليم البصير القدير: لأن هذه الصفات لوازم صفة الحياة, ولما كان الإطلاق صفة لحياته, كان الإطلاق ملازما لجميع الصفات الأخرى, بحيث لا يعجز السمع أو البصر أو العلم أو القدرة معجز.

وهو الواحد : الذي لا شريك له في الملك, ولما لهذه الصفة من أهمية عظيمة, وخطورة بالغة, نخصها بالتفصيل التالي:

لعلك أدركت من تسلسل البحث, ومن ذكر الصفات المتقدمة, ومن الجزم بكمال الله المطلق, أن التوحيد حاصل ولا يحتاج إلى برهان, بل إن التعدد هو الذي يفتقر إلى الدليل, ولكننا على الرغم من ذلك, نعرض بالتثنية, فإن ثبتت التثنية, صح التعدد من غير حصر, وإن بطلت بطل التعدد أصلا, ولزم التوحيد.

فالقول بالتثنية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين؛ لأن التساوي التام من جميع الوجوه باطل, ولا يصح بالتصور إلا إذا انطبق الأول على الثاني تمام الانطباق, فيبقى في النتيجة كائن واحد, ولما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز, فإن قال مكابر: بإمكان التمييز بين اثنين حال التساوي التام, قلنا له: أقمت الحجة على نفسك حينما ميزت, وما ميزت إلا بإدراك صفة مميزة, ووجود صفة مميزة يبطل التساوي التام, ,إذا بطل التساوي التام, حصل التفاضل بين الاثنين فسقط المفضول وبقي واحد.

والقول بالتثنية, من الوجهة الرياضية يفيد وجود إطلاقين, وذلك محال, لأن وجود أحدهما ينافي إطلاق الآخر, فهو إما أن يدخل في إطلاق الأول, فلا يبقى إلا الأول, وإما أن يخرج عن نطاق الأول, فيسقط إطلاق الأول المفترض, ويبقى الثاني, أي أن الإطلاق محيط, ولا يحاط به, والنتيجة, أنه لم يبق إلا إطلاق واحد.

وهذا كما أنه دليل على التوحيد, فهو دليل على حدوث العالم ونفي قدمه, لأن القول بقدمه يفيد وجود إطلاقين, وذلك محال كما رأيت, ومن هنا نفهم المعنى العميق للآية الكريمة: "ألا له الخلق والأمر". أي أنه ليس تصريف الكون وحده حادثا فحسب, بل الكون كله: خلقا, وتصريفا مقهوراً للخالق, فهو حادث بمادته ومعناه.
وإذا أردنا أن نجلي معنى هذا البرهان بالنسبة للتوحيد والتعدد, قلنا: حين وجود اثنين يترتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قدرة وعلما؛ فإن عجز عن ذلك, فهو ليس بإله, وبقي واحد, وإن قدر على ذلك, سقطت ألوهية الثاني وبقي واحد وبعض الفلاسفة يسمى هذا بـــ: برهان التمانع, فيقولون: لو كان هناك إلهان, يريد أحدهما قيام زيد في آن, ويريد الآخر قعوده في ذلك الآن, فمحال نفوذ الإراديتين, لاستحالة المراد, وجمع الأضداد, فإن غلبت إرادة أحدهما على الآخر, فهذا الآخر عاجز مقهور, فهو ليس بإله, وبقي واحد.

وقد أورد عن ذلك ابن جرير الطبري, قال: لم يخل كل واحد من الاثنين من أن يكونا: قويين, أو عاجزين. فإن كانا عاجزين فالعاجز مقهور, وغير كائن إلها, وإن كانا قويين, فإن كل واحد منهما يعجزه عن صاحبه عاجز, والعاجز لا يكون إلها. فإن كان كل واحد منهما قويا على صاحبه, فهو بقوة صاحبه عليه عاجز.

إذن لم يبق إلا الواحد المطلق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء, وما قال ومن قال بالتعدد إلا عن عقلية ابتدائية, وفكرة وثنية, وتصور خيالي مصطنع, بعيد عن التحقيق, مصادم للعقل.

ولم يبق في الدنيا من يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد. بل إن التحقيق لا يرشد إلا إلى التوحيد, بريئا من صفات الحوادث, كالإلصاق والتفريع والولادة, فكما أن التعدد باطل, فطرقه من بعد أشد بطلانا وأقبح , وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره كالتثنية والتثليث وغيرهما, على الرغم من إقامة كثير من البشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة بكل أسف, ولو رجعوا قليلا إلى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هياكل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان, وصراحة الحجة, وثورة العقل على هذا التناقض المشين, فليت شعري, متى يثور مفكروا العالم الأحرار وعقلاؤه المتجردون على هذه الوثنية النكراء, فيمزقوا غشاء العنكبوت, ويقودوا العالم إلى التوحيد؟!

والقرآن الكريم هو الذي حمل لواء التوحيد للناس, ونص على ما تقدم من تفنيد التعدد وبطلانه, وتأكيد التوحيد وثبوته, في آيات كثيرة حملت أنصع بيان وأقوى برهان, منها:
"لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ" الأنبياء : 22
"مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" المؤمنون : 91.
"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" الحديد : 3
"أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ" فصلت : 54
"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" الإخلاص : 1-4
وهكذا تثبت حقيقة التوحيد للخالق القديم بما لا يدع مجالا للريب والتردد. والأحرى بالعالم المحقق, أن يدعوا الناس إلى ذلك, ويفند لديهم نحلة التعدد, ويفضح زيفها وبطلانها, لكي يخرجوا من الظلمات إلى النور, ومن التناقض المشين إلى الانسجام المنطقي المبين, وبذلك تخرج النفس البشرية مما تعانيه من الحيرة والتردد, والكبت والقلق, والجنوح بالنتيجة إلى السبل الشاذة, والمناهج السخيفة, المضحكة المبكية, والتي يثبت التحليل النفسي أنها ليست إلا صورة حسية تعبر عن إفلاس البشر في التماس طريق الحق.

4- عود على بدء

واستكمالا لكل جوانب الإقناع في هذه المسألة مسألة الطبيعة, والسببية, والتوحيد ننقل هذه الرسالة الجيدة لبديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله, قال: "قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" إبراهيم : 10. تأمل في هذه الآية وما فيها من الاستفهام الإنكاري, إنها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته, من أوضح البداية لكل من أبصر بعينه مرة هذه السماوات والأرض, غير أنه بالرغم من ذلك, فإن فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات, أقل ما فيها أنها تومئ إلى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى.

وسأتناول منها بالبحث ثلاث كلمات لا يرددها في الغالب إلا أحمق ذاهل عن حقائق الأمور, وملحد جعل من برذعة إلحاده حلة يفاخر بها ويتباهى بها: إحداها أوجدته الأسباب والثانية تشكل بنفسه, والثالثة اقتضته الطبيعة.

إن محالات كثيرة تتبع من الأخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاثة القذرة, ولو ذهبت أعدها بتفصيل علي موسع؛ لتجاوزت تسعين محالا من المحالات التي لا يشك فيها علم عالم ولا عقل عاقل, ولكي سأكتفي من بيان ذلك كله بالعشر فقط أذكره في عبارات موجزة سريعة.
أما الكلمة الأولى أوجدته الأسباب: فهناك بعض محالاتها:

المحال الأول: الناتج عن كلمة أوجدته الأسباب يظهر جليا في هذا المثال وقع احتياج إلى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الأنواع والمقادير, وقام الصيدلي بتحضير هذا المعجون طبق موازين دقيقة, بحيث لو أن بعض الأجزاء طغى على الحد المطلوب أو قل عنه, لأدى ذلك إلى عكس الفائدة المرجوة منه.
فلو أن زلزالا مثلا وقع بين تلك القوارير التي استحضر منها الدواء, فتكسرت وسال ما فيها, وجرى بعضه إلى بعض, فاختلطت الأجزاء المتنوعة, وتلاقت إلى بعضها, فهل يمكن أن يكون المحصول المركب من ذلك الخليط مساويا لذلك الخليط الذي استحضره الصيدلي بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى من فاتته نعمة التفكير والعقل؟!

إن كل ذي حياة على هذه الأرض ما هو إلا معجون رائع, ركب من ملايين الأجزاء العجيبة المختلفة, أخذت بمقدار وضمت إلى بعضها بحكمة ونظام. فلا ريب أن إسناد هذا الشكل إلى عمل الأسباب المادية الجامدة والعناصر الميتة الصامتة, أشنع وأقبح من الإسناد في ذلك المعجون الذي حصل من تصادم القوارير وسيلان ما فيها.

المحال الثاني: إن إسناد خلق الأشياء إلى أسبابها المادية, يستلزم أن يكون للكثير من العناصر والأسباب الدقيقة المتناقضة تأثير مباشر في وجود الأشياء. والحال أن تلاقي الأسباب المختلفة المتباينة على بعضها باتفاق من جهة, ودقة موزونة من جهة أخرى. في خلق البعوض مثلا إن لم يكن من أجلى المحالات, فهو من أشد الممتنعات؛ لأن جسم ذلك البعوض مع صغره ذو علاقة بأكثر العناصر والأسباب المادية المبثوثة في الكون, بل إنه بحق خلاصة وزبدة لها, فلو سلمنا ادعاء استناد هذا الموجود الصغير إلى تلك الأسباب؛ للزم أن تحتشد جميع العناصر والأسباب كلها بالذات عند إيجادها, بل يجب توافرها كاملة في جسمها, بل في حجيرة من حجيرات جسمها ولأن السبب المادي ينبغي أن يكون موجودا مع المسبب داخلا فيه, أي فينبغي أن تكون هذه العناصر المادية المتناقضة كلها مجتمعة على الدوام, تعمل عملها في كل حجيرة من حجيرات جسم البعوض, دون من يدفعها إلى هذا التلاقي والتفاعل.
وهل هذا إلا وهم يستحي بلهاء السفسطائيين من الهذيان به.

المحال الثالث: إن القاعدة البديهية تقول: إن الواحد لا يصدر إلا عن الواحد, أي كل ما يتصف بوحدة النظام والتنسيق والانسجام في مظهره وشكله, فلا بد أن يكون المؤثر فيه واحدا,
ضرورة أن التأليف بين المتنافرات, والجمع بين المختلفات في وحدة نوعية أو جنسية, لا يمكن أن يتم إذا ما اجتمعت عليه أكثر من إرادة ويد واحدة, ولا ريب أن هذا العالم العظيم تجمعه كله وحدة الانسجام والتنظيم, فإسناد وجوده بعد ذلك إلى الأسباب الجامدة المختلطة, التي لا شعور لها ولا عقل, من أعظم الخرافات المضحكة. هذا إلى أن الأسباب المادية لا يمكن تأثيرها إلا بواسطة التماس والمباشرة, وغير خاف أن تجانسها إنما يكون بسطح الموجودات وظاهرها, مع أن في بواطنها ووراء حدود المحس منها من الانتظام والغرابة والانسجام ما ليس في ظواهرها, فأين أسبابها المادية الموجدة لها؟ بل أين من يستطيع أن يفرق في غوص ذلك

الباطن, بين السبب المؤثر والسبب المتأثر, يفصلهما, ويفرق بينهما في الزمن والجوهر والحدود؟

أما الكلمة الثانية تشكل بنفسه: فهي أيضا تنطوي على محالات لا تعمى عنها الأبصار. غير أن الفكر المعاند من شأنه أن يبلغ به الكبر مبلغا يلبسه برذعة الحمق. إن الإنسان العادي من شأنه أن لا يخضع لمحال واحد يتراءى لعقله, ولكن مثل هؤلاء المعاندين لا يبالي أن يدافع عن حشد من المحالات, النابعة عن الباطل الذي أقسم أن لا يتخلى عنه. إنك أيها الإنسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود, إنما أنت جهاز معمل دقيق كبير. بلغ في دقته غاية الروعة والانسجام. إن في جسمك ذرات عاملة ساعية على الدوام. إن لجسمك تفاعلا في غاية الانتظام مع سائر مظاهر الوجود من حولك, إنها أشبه ما يكون بتفاعل على البيع والشراء والأخذ والعطاء. إن ملايين الذرات العاملة في جسدك تظل ساهرة على حفظ سير هذا التفاعل ودقة انتظامه, وهكذا نعلم أن الانسجام ليس بين ذرات جسمك وحده, بل بين مجموع هذه الذرات والوجود الخارجي من حولها, إن هذا يعني أن ثمة وحدة انتظام سارية بأتم دقة بين وجودك العضوي ووجود سائر الكائنات من حولك!

فإذا رفضت أن توقن بأن الذرات الساعية في جسدك, إنما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلي العظيم, لزمك أن تقول إن للذرات التي تتفاعل في حجيرة واحدة من حجيرات عينك مثلا عقلا متفلسفا هائلا, وضع به قانون الانسجام والتطابق بين كل ذرة من جسدك من جهة, وذرة من ذرات الوجود من حولك من جهة أخرى, سواء كان ذلك الوجود هواء أو ضياء أو طعاما أو شرابا أو أي شيء آخر, كما ينبغي أن يكون لكل ذرة من هذه الذرات فكر, يدرك منابر دهرك, وعناصر آبائك وأجدادك, ويتصور ماضيك ومستقبلك. يا لخرافة العناد المتكبر!!
أما إذا كان جوابك عن عالم الذرة ونظامها نفس جوابك عن عالمك الحسي هذا. أي أن له أيضا أسبابه المادية وتفاعله الذاتي, فإن السؤال سيلاحقك عن العالم الثالث الذي من ورائهما, والذي هو أدق من كليهما, وهكذا تتسلسل العوامل والأسباب إلى غير نهاية وتمتد إلى حيث يضل وراءها عناد المعاندين وجحود المتكبرين.

أما الكلمة الثالثة اقتضته الطبيعة: فيتفرع عنها سلسلة من مظاهر التفاوت المضحك, نجمل بعضها فيما يلي:

1-إن صاحب هذا القول ينبغي أن يلتزم أن كل ذرة من ذرات الوجود تنطوي على مجموعة العوامل والمؤثرات التي أبدعت هذه المجموعة الكونية, وأنها تشتمل على القدرة والطاقية الكافية لإبداع عالم كامل كالذي نراه من حولنا, وما على هذه القدرة إلا أن تنفذ ذلك وتعمل عملها.

2- إذ ما دام في كل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة, المدبرة الحكيمة, منفصلة عن غيرها, غير مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها, فلا مناص من التزام هذه النظرية. تماما كالذي يرى شعاع الشمس يسطع من قطرات المياه, وقطع الزجاج والأجرام الشفافة, ويأبى إلا أن يزعم أن في كل جرم من هذه الأجرام طبيعته الشعاعية المستقلة بذاتها, فلا ريب أنه ينبغي أن يلتزم ويعترف بوجود شمس حقيقية مستقلة ضمن كل جرم من هذه الأجرام المضيئة كل على حدة.

ومن أراد أن يضحك من خرافة هذه النتيجة؛ فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التي راح يزعمها ويتبناها.

3- إن على صاحب هذا القول أن يلتزم بأن شبرا واحدا من أي أرض معينة, تنطوي على ما لا تنطوي عليه دول العالم كله من المصانع والمطابع والمواد الأولية المختلفة؛ ذلك أن قدحا واحدا من التراب الذي لا تزيد مساحته على شبر, يمكن أن تستنبت فيه معظم أنواع النباتات وأزهار العالم, على سبيل التناوب. فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هي التي تقذف في تلك الأرض قدرة التفاعل, مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور, لتعطي كلا منها ذاته وشكله وخصائصه, إذا لكان لا بد أن توجد في تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة, بل ينبغي كما قلت أن تكون طاقة الصناعات الأوروبية كلها محشورة في ذلك الشبر من الأرض, إذ من المعلوم أن مواد النطف والبذور واحدة لا تختلف, وهي عبارة عن مزيج: مولد الماء, ومولد الحموضة, والكربون, والآزوت, ومواد الماء, والهواء والحرارة والضياء, هي الأخرى بسيطة لا تختلف في جريانها حول نبت وآخر.

ومع ذلك؛ فإن هذه النباتات تنبثق فوق ذلك الشبر من الأرض, كل واحد يحمل صفاتها وخصائصها ولونها ورائحتها, فلا بد أن يوجد في ذلك التراب شيء آخر غير المواد المعروفة للتراب والبذر والهواء, يمد هذه البذور بخصائص التشكل والتميز. فانظر وتأمل في مدى بعد هذا الكلام من الفكر والعقل!!

4- أذكر هنا مثالا كنت كتبته في بعض الرسائل الأخرى, يوضح حالة المنتسبين إلى الطبيعة. لنفرض أن في قلب بعض الصحاري بناء رائعا, مشيدا على أحسن طراز وأدق هندسة. وصادف أن دخل هذا الصرح بدوي متوحش, لم يسبق أن رأى في حياته غير صروح الخيام, فتأمل في براعته ونقوشه ومظاهر إتقانه, ثم حدث نفسه أن ليس في هذه الصحراء كلها من يقدر أن يبدع مثل هذا الإبداع, فلا بد أن الباني يجثم في جوف البناء نفسه. ثم راح ينظر ويفتش عنه في الغرف من حوله, فلم ير أحدا, ولكنه عثر على أوراق فيها: خارطة البناء, ومواده, وتفاصيل هندسته, ففكر قليلا أن هذه الأوراق لا يد لها ولا بصر, فليس من شأنها أن تشيد بناء. ولكنه ما لبث أن عاد فتعلق بها قائلا: ولكن هاهي ذي تبحث عن قوانين تشييده وكيفية تأليفه, إذا فليس ثمة غيرها المشيد والباني. فكذلك يدخل بدوي متوحش لم يهضم عقله إلا اسم الطبيعة إلى صرح هذا الكون العظيم, فيدهشه أنه يرى إبداعا لا يجد من حوله بسبب عقله القاصر من أبدعه، ويتأمل في ثناياه وأطرافه, فيعثر على اللوح الذي سجلت فيه قوانين الفطرة الإلهية وقواعد صنعته الإبداعية المسماة خطأ بالطبيعة فينبهر لها, ويحدث نفسه وهو في غيبوبة عقلية تامة أن لا بد أن هذا اللوح بقوانينه هو الذي أبدع هذا الإبداع, وصنع هذا الصنع. ونحن نقول: أيها السكران الأحمق, ارفع رأسك عن بئر الطبيعة, وانظر وراءك إلى صانع الكون. إن ذلك الذي بنى هذا الصرح, ووضع أمام عينيك في جنباته, قانون تشييده, ودستور إيجاده, إنما هو الخلاق الأزلي إله العالمين جل جلاله, لا الطبيعة التي أنت أجحد منها وأجهل. إن الطبيعة صنعة لا صانع, نقش لا ناقش, حكم لا حاكم, شريعة لا شارع, مخلوق لا خالق, منفعل لا فاعل, مصدرة لا مصدر. انتهى كلام الشيخ سعيد النورسي رحمه الله تعالى.

دلالات الظواهر الكونية
على أسماء الله وصفاته

كل ظاهرة من الظواهر الكونية تدل على اسم الله عز وجل, وهذه الأسماء التي تدل عليها الظواهر توصلنا إلى صفات الله عز وجل, وصفات الله عز وجل كثيرة منها ما تدلنا عليه النصوص وحدها وهي الصفات السمعية, ومنها ما تدلنا عليه الظواهر الكونية والنصوص وهي صفات الفعل, وصفات الفعل توصلنا إلى ثلاث عشرة صفة: واحدة منها يسميها العلماء نفسية وهي الوجود, وخمس منها يسميها العلمية سلبية وهي القدم والبقاء والوحدانية والقيام بالنفس والمخالفة للحوادث, وسبع منها يسميها العلماء صفات معاني أو صفات وجودية وهي العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام.

والله عز وجل متصف بصفات الكمال والجلال والجمال ولا يسمى إلا باسم سمى به نفسه ومن هذا كله نصل إلى أسماء الله الحسنى التي بعضها صفة فعل, والتي بعضها صفة معنى, والتي بعضها صفة سلبية والتي بعضها صفة جلال أو كمال أو جلال, وكل ذلك تدل عليه الظواهر بشكل مباشر أو بشكل ضمني, وهذا البحث يسير بك في هذا كله مع استطرادات يقتضيها المقام فلنبدأ عرض المسألة من بدايتها:

هناك قاعدة تقول: إن الآثار تدل على الأسماء, والأسماء تدل على الصفات, والصفات تدل على الذات, ولنضرب على هذه القاعدة مثلا يوضحها: لو أخذنا كتابا ودرسناه, فإننا بواسطة دراستنا للكتاب, نستطيع أن نتعرف على كثير من صفات صاحبه, وبالتالي نتعرف عليه تعرفا ما, فإذا كان في الكتاب أدب, حكمنا على صاحبه أنه أديب, وإذا كان مبتكرا, حكمنا أن صاحبه مبدع, وإذا كان لا يخرج على قواعد النحو حكمنا بأنه نحوي, وإذا كان بليغا, حكمنا على صاحبه بأن بليغ وإذا كان فيه إحاطة في موضوعه, قلنا عن صاحبه بأنه محيط, وإذا كان فيه دقة في العرض وجمال, حكمنا على صاحبه بأنه ذواقة ودقيق, وإذا كان الكتاب مرتبا منسجما متسلسل الأفكار, حكمنا على صاحبه بأنه ناضج, وإذا كان في الكتاب علم كثير, حكمنا على صاحبه بأنه عليم, وهكذا, فكل ظاهرة في الكتاب, تدلنا على صفة من صفات صاحبه, نسمي صاحبها بسببها اسما مشتقا منها, له علاقة بها, وبالتالي نكون قد عرفنا صاحب الكتاب نوع معرفة.

ولنطبق القاعدة الآنفة الذكر على بحثنا.

فقد استعرضنا في الصفحات الماضية تسع ظواهر كونية, كل ظاهرة من هذه الظواهر تدل على اسم من أسماء الله أو أكثر, فالكون من آثار الله وحوادثه من آثار الله كذلك, قال تعالى: "فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ" الروم : 50. وآثار الله تدل على أسمائه وأسماؤه تدلنا على صفاته, وصفاته تدلنا على ذاته.

فظاهرة القدم وحدوث العالم, تدل على اسم الله الأول والخالق, وظاهرة الحياة تدل على اسم الله المحيي والبارئ والمميت, وظاهرة الهداية, تدل على اسمي الله الهادي والمضل وظاهرة الإبداع, تدل على اسم الله البديع, وظاهرة الإجابة, تدل على اسم الله المجيب, وظاهرة النعمة, تدل على اسم الله المنعم المعطي وظاهرة الوحدة, تدل على اسم الله الواحد, وظاهرة الحكمة, تدل على اسم الله الحكيم.

وعلى هذا؛ فكل ظاهرة في الكون ذكرناها أو لم نذكرها, تدل على اسم من أسماء الله تعالى فظاهرة رزق كل مخلوق, تدل على اسم الله الرزاق, وظاهرة الإعزاز والإذلال, تدلان على اسمي الله المعز والمذل, وظاهرة ثبات القوانين في الكون, تدل على اسم الله المهيمن, وظاهرة وجود المخلوقات, تدل على اسمي الله القادر والمقتدر, وظاهرة ترتيب الأشياء بعضها وراء بعض, تدل على اسمي الله المقدم والمؤخر, وظاهرة الندم, تدل على أسماء الله التواب والغفار والعفو, وظاهرة الانتقام, تدل على اسم الله المنتقم, وظاهرة النفع والضر, تدل على اسمي الله النافع والضر, وظاهرة إمهال المخالفين عن أمر الله تدل على اسم الله الصبور, وهكذا فما من ظاهرة إلا وتدل على صفة لله واسم.

غير أن دلالة الظواهر على الأسماء والصفات, تختلف باختلاف المتعلق, واختلاف الارتباط:
فمنها ما يدل على صفات الفعل.
ومنها ما يدل على صفات الذات الوجودية.
ومنا ما يدل على صفات الذات السلبية, وكلها تدل على موجود.

والتوضيح الفروق بين هذه الصفات, نقول: لو قلنا: عن إنسان بأنه قاتل, فتلك صفة فعل من أفعاله, ولو قلنا: إنه سميع, فتلك صفة وجودية له, ولو قلنا: إنه لا يشرب الخمر, فتلك صفة سلبية له, ولكن الأنواع الثلاثة من الصفات, تدل على وجود إنساني معين.
والحقيقة أننا نعرف الصفات الوجودية بصفات الفعل, والصفات السلبية بصفات الفعل ونعرف الذات بكل الصفات.
وقبل أن نطبق ما قلناه على قضية التعرف على الله, نحب أن نذكر ماذا نعني بكلامنا: صفات وجودية, أو صفات فعلية, أو صفات سلبية.

المراد بالصفة السلبية بالنسبة للذات الإلهية: الصفات التي تدل على سلب ما لا يليق به سبحانه وتعالى, كالوحدانية فإنها تنافي التعدد فتسلب عن الله ما ينافي الوحدانية.

والمراد بالصفات الوجودية بالنسبة للذات الإلهية: الصفات التي تدل على معنى زائد على الذات, كالعلم والسمع.

والمراد بصفات الفعل: تعلقات القدرة بالممكنات, فكل تعلق لقدرة الذات الإلهية بممكن, يدل على اسم وصفة وفعل.
فكل الظواهر التي نراها في هذا الكون, تدل على أربع صفات وجودية:
العلم والإرادة والقدرة والحياة ، فلولا القدرة ما كان هذا الكون, ولولا تخصيص الإرادة الأشياء على ما هي عليه ما كان هذا الكون, ولولا العلم ما كان شيء , فأي جزء من أجزاء العالم يدل على علم سبق, وإرادة خصصت, وقدرة أبرزت, ومن لوازم اتصاف ذات بالعلم والإرادة والقدرة أن يكون لها حياة.
والظواهر كلها تشير, إلى أن هذه الذات المتصفة بالعلم والإرادة والقدرة والحياة، والتي خلقت هذا الكون, متصفة كذلك بالقدم فلا أول لها, والبقاء فلا نهاية لها, والوحدانية فلا ند لها, ومخالفتها لمخلوقاتها, فلا يشبهها شيء من خلقها, وقيامها بنفسها, فلا تحتاج إلى موجد أو مخصص.

والظواهر كلها تشير, إلى أن هذه الذات, كاملة منزهة عن كل نقص, ومن النقص العمى, فهي بصيرة, ومن النقص الصمم, فهي سميعة, ومن النقص البكم، فهي متكلمة. والظواهر كلها تشير إلى موجود متصف بهذه الصفات.

موجود لا بداية له فهو الأول, ولا نهاية له فهو الآخر, ولا ند له فهو واحد, ولا مشابه فهو قدوس, ولا حاجة به لأحد فهو القيوم.

موجود متصف بالقدرة فهو قادر, وبالحياة فهو حي, وبالسمع فهو سميع, وبالبصر فهو بصير, وبالكلام فهو متكلم, وبالعلم فهو عليم, وبالإرادة فهو مريد.

ومقتضى كثرة أفعال الله التي هي أثر عن العلم والإرادة والقدرة, أن يكون لله أسماء كثيرة, ولكن الأدب مع الله ألا نسمي الله إلا بما سمى به نفسه, بالوحي الثابت؛ لأنه لا يعرف جلاله إلا هو, ولكي لا ننسب إلى الله إلا ما يليق بذاته, الخير كله بيديك والشر ليس إليك, فلا نسميه إلا بما سمى به ذاته, ومجموع ما سمى به ذاته, يطلق عليه اسم: الأسماء الحسنى قال تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى" طه : 8. "قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى" الإسراء : 110. "وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ" الأعراف : 180. وما من اسم من هذه الأسماء الحسنى الواردة في الكتاب والسنة, إلا وفي الكون ظاهرة تدل عليه, أو يصل العقل إليه.

وهذه الأسماء كما وردت في الكتاب والسنة تعبر عن صفات سلبية أحيانا, وعن صفات وجودية أحيانا, وعن صفات كمال أحيانا, وعن صفات فعل أحيانا, فهي قد جمعت أمهات هذه الصفات كلها.

والأسماء الحسنى لله الواردة في الكتاب والسنة كثيرة, ومع هذا فهي ليست كل أسماء الله. فقد ورد في الحديث: "اللهم إني عبدك وابن عبدك ... أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك, أو أنزلته في كتابك, أو علمته أحدا من خلقك, أو استأثرت به في علم الغيب عندك".

ومن هنا نعلم أن ما ذكر ليس هو كل الأسماء الحسنى, فإن جلال الله لا يتناهى, ولكن ما ذكر, تدلنا عليه ظواهر الكون بشكل صريح أو ضمني, فإذا اجتمعت دلالة العقل مع دلالة النص واتفقا, فذلك برهان سلامة العقل وحقيقة النص, على أنه في معرض الحديث عن الأسماء والصفات, ينبغي أن نلاحظ هاتين النقطتين اللتين أشار إليهما الأستاذ البنا رحمه الله يقول الأستاذ البنا تحت عنوان بين صفات الله وصفات الخلق:

والذي يجب أن يتفطن له المؤمن, أن المعنى الذي يقصد باللفظ في صفات الله تبارك وتعالى, يختلف اختلافا كليا عن المعنى الذي يقصد بهذا اللفظ عينه في صفات المخلوقين فأنت تقول: الله عالم والعلم صفة لله تعالى, وتقول: فلان عالم والعلم صفة لفلان من الناس, فهل ما يقصد بلفظة العلم في التركيبين واحد؟ حاشا أن يكون كذلك؛ وإنما علم الله تبارك وتعالى علم لا يتناهى كماله, ولا يعد علم المخلوقين شيئا إلى جانبه. وكذلك الحياة, وكذلك السمع, وكذلك البصر, وكذلك الكلام, وكذلك القدرة والإرادة, فهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها في حق الخالق, من حيث الكمال والكيفية اختلافا كليا, لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحدا من خلقه فتفطن لهذا المعنى فإنه دقيق, ولست مطالبا بمعرفة كنهها؛ وإنما حسبك أن تعلم آثارها في الكون, ولوازمها في حقك, والله نسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق. وكذلك يقول الأستاذ تحت عنوان التفكر في ذات الله:

عن ابن عباس رضي الله عنهما, "أن قوما تفكروا في الله عز وجل, فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله, ولا تتفكروا في الله, فإنكم لن تقدروا قدره, قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف, ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ورواه أبو الشيخ كذلك, وهو على كل حال صحيح المعنى.

وليس ذلك حجرا على حرية الفكر, ولا جمودا في البحث ولا تضييقا على العقل ولكنه عصمة له من التردي في مهاوي الضلالة, وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها, ولا تحتمل قوته مهما عظمت علاجها, وهذه هي طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره.

فاحصر همتك في إدراك عظمة ربك, بالتفكير في مخلوقاته, والتمسك بلوازم صفاته.

ونحب أن نذكر في هذه الفقرة عن القرآن والسنة, على اعتبار أنهما المصدران الوحيدان للمعرفة عن طريق الوحي الصادق الذي يقوم عليه الدليل الكامل, كما سنرى في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم مجمل صفات الله كما وردت في القرآن, وبعضا من أسمائه الحسنى كما وردت في الكتاب والسنة, لنرى أن ما دلتنا عليه الظواهر بالعقل, دلنا عليه الكتاب والسنة بالوحي عن طريق النقل.

يقول الأستاذ البنا تحت فصل مجمل صفات الله في القرآن:

أشارت آيات القرآن الكريم إلى بعض الصفات الواجبة لله تعالى, والتي يقتضيها كمال الألوهية, وإليك بعض هذه الآيات الكريمة:

1- وجود الله تعالى: قال الله تعالى: "اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ* وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الرعد : 2-4.

"وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ* وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" المؤمنون : 78-80. فكل هذه الآيات تنبئك بوجود الله تبارك وتعالى, وتستدل عليه بما ترى من تصرفاته في شئون هذا الكون العجيب.

2-3 – قدم الله تعالى وبقاؤه: قال الله تعالى: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" الحديد : 3. "وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" القصص : 88.

"كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" الرحمن : 26-27. وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى صفتي القدم والبقاء لله تبارك وتعالى.

4- مخالفة الله للحوادث: قال الله تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" الإخلاص : 1-4.

"فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ" الشورى : 11.

وفي ذلك إشارة إلى مخالفته تبارك وتعالى للحوادث من خلقه وتنزهه عن الولد والوالد والشبيه والنظير.

5- قيام الله تعالى بنفسه: قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" فاطر : 15.

"مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا" الكهف : 50.

ونضيف قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا" فاطر : 40.

"اللّهُ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" آل عمران : 2.

وفي ذلك إشارة إلى قيامه تعالى بنفسه واستغنائه عن خلقه, مع حاجتهم إليه.

6- وحدانية الله تعالى: قال الله تعالى: "وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَـــهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ* وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ* وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ" النحل : 51- 53.

وقال الله تعالى: "لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـــهٍ إِلاَّ إِلَـــهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" المائدة : 73-74.

"أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ* لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ* أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ* وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" الأنبياء : 22-25.

وقال تعالى: "قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ* بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" المؤمنون : 84-92.

وقال تعالى: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ* أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ* أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" النمل : 59-64.

إلى غير ذلك من الآيات التي تثبت أنه تعالى واحد في ذاته, واحد في صفاته واحد, في أفعاله وتصرفاته لا رب غيره ولا إله سواه.

7- قدرة الله تعالى: قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ" الحج : 5-7.

"مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا" الكهف : 50.

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ" ق : 38
"وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا* وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا" الفرقان : 53-54

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ* يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ* وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" النور : 43-45.
إلى غير ذلك من الآيات الدالة عل عظيم قدرته تبارك وتعالى, وباهر عظمته.

8- إرادة الله تعالى: قال الله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" يس : 82.
"وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" الإسراء : 16.

وقال تعالى حكاية عن الخضر في قصته مع موسى عليهما السلام: "فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا" الكهف : 82.

"يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ* وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا* يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا" النساء : 26-28 .
إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشير إلى إثبات إرادة الله تعالى, وأنها فوق كل إرادة ومشيئة: "وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التكوير : 29.

9- علم الله تعالى: قال الله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ* يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" سبأ : 1-2 .

"يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" التغابن : 4.

وقال تعالى حكاية عن لقمان في وصيته لابنه: "يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" لقمان : 16.

وقال تعالى في حكاية ما وقع بين شعيب وقومه: "قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ* قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ" الأعراف : 88-89.

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" المجادلة : 7.

"وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" يونس : 61.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على سعة علمه تبارك وتعالى, وإحاطته بكل شيء, قل أو كثر, دق أو عظم.

10 - حياة الله تعالى: قال الله تعالى: "اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ" البقرة : 255.

"الم* اللّهُ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ* مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ" آل عمران : 1-4 .

"اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ* هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" غافر : 64-65. إلى غير ذلك من آيات كثيرة , تدل على أن الله تبارك وتعالى ، متصف بالحياة الكاملة , التي ليس ثم أكمل منها".

11-12 سمع الله تعالى وبصره: قال الله تعالى: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" المجادلة : 1.
"أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى* أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى* أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى* أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" العلق : 11-14.

وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حين أرسلهما إلى فرعون: "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى* قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى* قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى" طه : 43-46 .

"يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ* وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" غافر : 19-20.
إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على اتصافه تبارك وتعالى بصفة الكلام.

وقد سمى الله عز وجل ذاته في القرآن بأسماء كثيرة غير التي ذكرناها. فمن الآيات التي ذكرت أسماء الله في قوله تعالى: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" الحشر : 22-24.
"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" الأعلى : 1.

"فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ" الواقعة : 96.

والآيات في هذا الباب كثيرة كما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة. في أحاديث صحيحة – وهو أعرف الناس بذات الله عز وجل – منها "لله تسعة وتسعون اسما, مائة إلا واحدا, لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة, وهو وتر يحب الوتر" وفي رواية أخرى "من أحصاها", ورواها الترمذي وزاد "هو الله الذي لا إله إلا هو, الرحمن, الرحيم, الملك, القدوس, السلام, المؤمن, المهيمن, العزيز, الجبار, المتكبر, الخالق, البارئ, المصور, الغفار, القهار, الوهاب, الرزاق, الفتاح, العليم, القابض, الباسط, الخافض, الرافع, المعز, المذل, السميع, البصير, الحكم, العدل, اللطيف, الخبير, الحليم, العظيم, الغفور, الشكور, العلي, الكبير, الحفيظ, المقيت, الحسيب, الجليل, الكريم, الرقيب, المجيب, الواسع, الحكيم, الودود, المجيد, الباعث, الشهيد, الحق, الوكيل, القوي, المتين, الولي, الحميد, المحصي, المبدئ, المعيد, المحيي, المميت, الحي, القيوم, الواجد, الماجد, الواحد, الصمد, القادر, المقتدر, المقدم, المؤخر, الأول, الآخر, الظاهر, الباطن, الوالي, المتعال, البر التواب, المنتقم, العفو, الرؤوف, مالك الملك, ذو الجلال والإكرام, المقسط, الجامع, الغني, المغني, المانع, الضار, النافع, النور, الهادي, البديع, الباقي, الوارث, الرشيد, الصبور"

وهذه الصفات التسعة والتسعون, ليست كل ما ورد في أسماء الله تبارك وتعالى, بل نجد الأحاديث التي تزيد على هذه الصفات. ففي رواية أخرى للحديث السابق: "الحنان, المنان, البديع", وورد من كذلك من أسمائه تعالى: "المغيث, الكفيل, ذو الطول, ذو المعارج, ذو الفضل، الخلاق"

قال أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي, حاكيا عن بعض أهل العلم: إنه جمع من الكتاب والسنة من أسمائه تعالى ألف اسم, وفي كلام صاحب القصد المجرد ما يفيد ذلك, وأشار الشوكاني إلى ذلك تحفة الذاكرين, ثم قال: وأنهض ما ورد في إحصائها الحديث المذكور, وفيه الكفاية, وعلى اعتبار أن كل اسم من أسماء ذاته القدسية, إنما يدل على صفة من صفاته تعالى ويعبر عنها, فإن كل اسم من هذه الأسماء: إما أن يدل على صفة كمال, أو على صفة وجود, أو على صفة سلب, أو على صفة فعل, ومرجع هذه الصفات كلها وهذه الأسماء إلى الثلاث عشرة

صفة, المذكورة في الفقرة السابقة, فإليها ترجع صفات الفعل, والسلب, والكمال, والوجود, والمعاني.

ومرة ثانية نحب أن نؤكد, أن الخالق غير المخلوق, وأن الله لا يشبه خلقه في شيء: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" . وأن من أسس ضلال البشر في باب الاعتقاد, اعتقاد مشابهة الله لخلقه, وقد رد الله في القرآن على أي تصور من هذه التصورات؛ فمثلا زعم اليهود أن الله خلق الخلق, واستراح في اليوم السابع بعد ستة أيام خلق _ وهذا نوع تشبيه _ فرد الله عليهم بقوله: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ" ق : 38. أي تعب , ورد على النصارى اعتبارهم أن الله مؤلف من أجزاء, وأن من عباده من هو جزء منه, فقال: "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ" الزخرف : 15. فالمسلم يثبت لله ما أثبته لذاته من صفات وأسماء, وينزه الله عز وجل بما نزه به نفسه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم: "سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" المؤمنون : 91. "سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ" الصافات : 159-160. فالله تعالى موجود وجوده ليس كمثله شيء, وبصير وبصره ليس كمثله شيء, وسميع وسمعه ليس كمثله شيء, وهكذا في كل صفة لله عز وجل, وإنما نعرف الله عز وجل بالعقل وبما عرفنا هو جل جلاله على ذاته وصفاته وأسمائه بكتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وكتاب الله لا يناقض بعضه, وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تناقض الكتاب, بل كلاهما يفسر الآخر, وكل منهما يفسر بعضه, وإنما نعرف الله بمجموع ما ورد فيهما, دون أن نفهم فهما نجعل كتاب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يتناقضان بعضهما بعضا.

ولا نحب التكلف في فهم النصوص ولا التعسف, ولا نحب الخوض أصلا في قضية لها علاقة بالذات الإلهية, إلا بما يفيد الإيمان والتسليم والتنزيه, وعقيدتنا لذلك سهلة بسيطة مجمع عليها, لا ينكرها علينا أحد. فالله موجود ووجوده ليس كمثله شيء, وسميع وسمعه ليس كمثله شيء, وبصير وبصره ليس كمثله شيء, ومستو على المعنى الذي أراده بالاستواء؛ واستواؤه ليس كمثله شيء, ويجيء ومجيئه ليس كمثله شيء, وقريب وقربه ليس كمثله شيء, وهكذا في كل اسم أو صفة وصف الله بها ذاته: "وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا" طه : 110 .

هكذا كان أدب الصحابة في هذا الشأن, فلا نتجاوزه إلى غيره.
عن سليمان بن يسار أن رجلا من بني تميم، يقال له صبيغ بن عسل قدم المدينة، وكان عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه، وقد أعد له عراجين النخل فلما دخل عليه قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال عمر وأنا عبد الله عمر وأومأ إليه، فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه وجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي. الدارمي ونصر والأصبهاني معا في الحجة وابن الأنباري واللالكائي.

لقد أدرك عمر ما يترتب على سؤال هذا الرجل من أمور, وهذا واقعنا شاهد على أن الأمة, منذ بحثت هذه الأمور، اختصمت وتفرقت؛ لذلك قال مالك للسائل عن الاستواء: والسؤال عنه بدعة نسأل الله أن يطهر قلوبنا من البدع.
ونحب أن نختم هذا البحث بذكر ملاحظتين: إحداهما حول ما يذكره بعض الناس عن خواص أسماء الله, الثانية حول اسم الله الأعظم.

1- قضية خواص أسماء الله الحسنى:

يقول الأستاذ البنا: "يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواصا وأسرارا, تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجازا, وقد يغالي البعض فيتجاوز هذا القدر, إلى زعم أن لكم اسم خادما روحانيا, يخدم من يواظب على الذكر به, وهكذا, والذي أعلمه في هذا _ وفوق كل ذي علم عليم _ أن أسماء الله تعالى ألفاظ مشرفة, لها فضل على سائر الكلام, وفيها بركة وفي ذكرها ثواب عظيم, وأن الإنسان إذا واظب على ذكر الله تعالى، طهرت نفسه وصفت روحه, ولا سيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم للمعنى, أما ما زاد على ذلك فلم يرد في كتاب ولا سنة. وقد نهينا عن الغلو في الدين, والزيادة فيه, وحسبنا الاقتصار على ما ورد"

2- قضية اسم الله الأعظم:

يقول الأستاذ البنا: "ورد ذكر اسم الله الأعظم في أحاديث كثيرة منها:
1- عن بريدة رضي الله عنه, قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو وهو يقول "اللهم إني أسألك ؛ بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت , الأحد الصمد, الذي لم يلد ولم يولد, ولم يكن له كفوا أحد. قال: فقال: والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم, الذي إذا دعي به

أجاب, وإذا سئل به أعطى" رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال المنذري: قال شيخنا أبو الحسن المقدسي: هو إسناد لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روي في هذا الباب حديث أجود إسنادا منه, وقال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث أرجح ما ورد في هذا الباب من حيث السند.

2- عن أنس بن مالك رضي الله عنه, قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى وهو يدعو ويقول في دعائه: لا إله إلا أنت , المنان, بديع السماوات والأرض, ذا الجلال والإكرام, فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أتدرون بم دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم, الذي إذا دعي به أجاب, وإذ سئل به أعطى" رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

3- عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها, أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: "وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم" البقرة : 163.
"الم* اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" آل عمران : 1-2. رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

4- عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم, يقول: "هل أدلكم على اسم الله الأعظم, الذي إذا دعي به أجاب, وإذا سئل به أعطى؟ الدعوة التي بها يونس, حيث نادى في الظلمات الثلاث: لا إله إلا أنت, سبحانك, إني كنت من الظالمين" فقال رجل: يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة, أم للمؤمنين عامة؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تسمع قول الله عز وجل: فنجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين. فأنت ترى من هذه الأحاديث ومن غيرها, أنها لم تعين الاسم الأعظم بالذات, وأن العلماء مختلفون في تعيينه, لاختلافهم في ترجيح الأحاديث بعضها على بعض, حتى اختلفوا على نحو أربعين قولا. والذي نأخذه من هذه الأحاديث الشريفة, ومن أقوال الثقات من رجال الملة, أن الاسم الأعظم دعاء مركب من عدة أسماء من أسمائه تعالى, إذا دعا به الإنسان, مع توفر شروط الدعاء المطلوبة شرعا, استجاب الله له, وقد صرحت به الأحاديث الشريفة في عدة مواضع. وإذا تقرر هذا, فما يدعيه بعض الناس من أنه سر من الأسرار, يمنح لبعض الأفراد فيفتحون به المغلقات, ويخرقون به العادات, ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس, أمر زائد على ما ورد عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وإذا احتج هؤلاء البعض بالآية الكريمة وهي قول

الله تعالى: "قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ" النمل : 40. على القول بأن معنى: عنده علم من الكتاب أنه اسم الله الأعظم, تقول لهم: قد صرح المفسرون بأن ذلك المدعو به كان يا حي يا قيوم. أو الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وادعى بعضهم: أنه سرياني, لفظه آهيا شراهيا. وهي دعوى بغير دليل, فلم يخرج الأمر عما ورد في الأحاديث الصحيحة.

وخلاصة البحث: إن بعض الناس ولعوا بالمعميات, وادعاء الخصوصيات, والزيادة في المأثورات, فقالوا ما لم يرد في كتاب ولا سنة, وقد نهينا عن ذلك نهيا شديدا, فلنقف مع المأثور.

والآن وقد استعرضنا تسع ظواهر كونية, كل ظاهرة تدلنا على الله من وجه, واستعرضنا دلالات الظواهر, وأن كل ظاهرة ذكرناها أم لم نذكرها, تدل على اسم من أسماء الله, وذكرنا لك بعضا مما له علاقة بالأسماء والصفات والذات الإلهية كما وردت في الكتاب والسنة, يبقى أن نقارن بين هذا المفهوم الصحيح عند المسلمين عن الذات الإلهية, والمفاهيم الأخرى الخاطئة عند غيرهم؛ ليتبين أن المسلمين وحدهم عرفوا الله حق المعرفة, معرفة قائمة على العلم والعقل والبديهة, لا تجد جانبا من جوانبها فيه مغمز, وذلك آية على أن هذا الإسلام دين الله, وعلى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم, أرسله الله ليرد الناس عن الباطل في كل شيء إلى الحق في كل شيء.

وقبل أن نبدأ المقارنة نحب أن نلخص بعض ما مر معنا في هذه الفقرة:

1- إن ظواهر هذا الكون, تدل على أسماء الله الحسنى, وأسماؤه تدل على صفاته وصفاته تدلنا على ذاته.

2- مما تدلنا عليه ظواهر الكون, أن الله عز وجل متصف: بالعلم, والإرادة, والقدرة, والحياة, والسمع, والبصر, والكلام, والوحدانية, والبقاء, والأولية, القيومية, والمخالفة للحوادث وأن من أسمائه: المذل والمعز والرزاق والمعطي والمنعم...

3- ونظرة إلى ما وصف الله عز وجل به ذاته, أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم، ترينا انطباق ما دلتنا عليه الظواهر بدلالة العقل, على ما دلنا عليه النص مع زيادة في النص ترتقي بعقولنا إلى منتهى الكمال والأدب, ودين يأخذ بيد العقل في هذا الموضوع إلى مثل هذه الذروة, لا يبقى عند الإنسان شكاً بأنه وحي.

4- وفي كل ما مر, آية على أن المسلم في هذا الموضوع وغيره قد اجتمع له صواب العقل, وصفاء الفهم, وهداية الوحي الذي يأخذ بيد العقل والفهم إلى الطريق السوي.

مقارنات

تحت عنوان العقيدة الإلهية كتب عباس محمود العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه بحثا, قارن فيه العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله بعقيدة غير المسلمين في باب الألوهية, والملاحظ أن المقارنة منصبة على بعض عقائد الفلاسفة, وعلى العقائد الدينية في وضعها الذي صارت إليه كما يفهمه أهلها زمن الرسالة الإسلامية, لا كما هي في أصولها عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أصحاب هذه الرسالات _ إن كانت في الأصل عن رسل _ إذ إننا نعتقد أن موسى وعيسى عليهما السلام وكل رسول لله عقيدتهم في الذات الإلهية هي نفسها عقيدة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ كلهم رسول لرب واحد, ولكن هذه العقيدة حرفت وبدلت بعده, كما حرف وبدل غيرها, فأصبحت تحتاج إلى تصحيح, فكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي هذا التصحيح الكامل. فالانحراف الكامل في تصور الذات الإلهية في العالم كله من ناحية, والتصحيح الكامل لهذا الانحراف من ناحية ثانية, دليل على أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله. ونحن هنا لن ننقل بحث العقاد كله, وإنما سنختار منه, مع ملاحظة أن ما ننقله هو كلامه نفسه, وكل تعليق في أسفل الصحيفة من كلامنا, يقول العقاد:

العقيدة الإلهية

العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها. من عرف عقيدة قوم في إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان, ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر, وتقدر بها الحسنات والسيئات، فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية, ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة, ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات.

ولقد كان النظر في صفات الله, مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية, وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان, لأن الفيلسوف النظري ينطلق في تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التي يتقيد بها الحكيم الديني, ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه في الحياة العامة والمعيشة الخاصة, فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الإلهي صعدا إلى أوج لا يلحق به الخيال, فضلا عن الفكر والإحساس.

وجاء الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية, فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين _ في جانب النقص منهما _ أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحي من عند الله.

يقال على الإجماع: إن صفات الإله قد ارتفعت إلى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد في مذهب أرسطو الفيلسوف اليوناني الكبير.
والذين يرون هذا الرأي لا ينسون مذهب أفلوطين إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين إلى العصر الأخير. غير أنهم لا يذكرونه في معرض الكلام على التنزيه في وصف الله؛ لأن مذهبه أقرب إلى الغيبوبة الصوفية منه إلى التفكير الجلي والمنطق المعقول, وطريقته في التنزيه أن يمعن في الزيادة على كل صفة يوصف بها الله, فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلما استطاع الزيادة اللفظية, حتى تنقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة أو المظنونة, ويرجح الأكثرون أن أفلوطين نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات, وإنما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور إلى منقطع العجز والإعياء.
فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية؛ ليقول بصفة الأحدية, ويقول: إن الواحد غير الأحد؛ لأن الواحد قد يدخل في عداد الاثنين والثلاثة والعشرة, ولا يكون الأحد إلا مفردا بغير تكرار.
ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود, ليقول: إن الله لا يوصف بأنه موجود, تنزيها له عن الصفة التي يقابلها _ العدم _ وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات.

لهذا يضربون المثل بأرسطو في تنزيه الإله, ولا يضربون المثل بأفلوطين؛ لأن مذهبه ينقطع في صومعة من غيبوبة الذهول, لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية.
ومذهب أرسطو في الإله أنه: كائن أزلي, مطلق الكمال, لا أول له ولا آخر, ولا عمل له ولا عمل له ولا إرادة. منذ كان العمل طلبا لشيء, والله غني عن كل طلب, وقد كانت الإرادة اختيارا بين أمرين, والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال, فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح, ولا بين فاضل ومفضول, وليس مما يناسب الإله في رأي أرسطو أن يبتدئ العمل في زمان؛ لأنه أبدي سرمدي لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل, ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر, ولا جديد ولا قديم, وكل ما

يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها, ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه.

فالإله الكامل المطلق الكمال: لا يعنيه أن يخلق العالم, أو يخلق مادته الأولى وهي الهيولي ولكن لهذه الهيولي قابلية للوجود, يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله, فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود, ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها, فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ولا يقال عنها: إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار. كمال مطلق لا يعمل ولا يريد. أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء..

ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شيء.

ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذي يهابه من يحس قدرته, فلا يتجرأ عليه بالنقد والتسفيه, قبل أن يفرغ جهده في التماس المعذرة له من جهل عصره وقصور الأفكار حوله, لا من جهله هو أو قصور تفكيره؛ فإنه لم يعودنا في تفكيره احتمالا قط لا يتقصاه إلى (قصاره) مداه, ولا يستوفي مقتضياته وموانعه جهد ما في الطاقة الإنسانية من استيفاء.

لنذكر أنه أرسطو؛ لكي نذكر أن هذا العقل النادر, لم يؤت من نقص في تصور الصفات العلوية؛ إلا أنه عاش في زمان, لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الأرضية السفلى التي نحسها ونعيش بينها, ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها, لكان له رأي في الكمال العلوي غير ذلك الرأي الذي ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقيس.

لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية _ السماوية _ أنها خالدة باقية لا تفنى: لأنها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب.

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الأرضية _ السفلى _ كلها من نور, وأن عناصر المادة كلها تؤول إلى الذرات والكهارب, وأن هذه الذرات والكهارب تنشق, فتؤول إلى شعاع؛

لما ساقه الظن والقياس إلى ذلك الخطأ في التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب.

ولعل إدراكه لذاك الخطأ في فهم لوازم البساطة والكمال, ولوازم البقاء والفناء, كان خليقا أن يهديه إلى فهم خطئه في تصور لوازم الكمال الإلهي, فلا يمتنع في عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات الحسنى التي وصف بها الإله في الإسلام, ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والإرادة, ولا يمتنع في عقله أن يكون لهذه الصفات لوازمها ومقتضياتها, إذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه, ولا يكون كرم بغير إعطاء, ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين أمرين, وإذا اختار الله أمرا فهو لا يختاره لذاته سبحانه وتعالى, بل يختاره لمخلوقاته التي تجوز عليها حالات شتى لا تجوز في حق الإله, وإذا خلق الله شيئا في الزمان فلا ننظر إلى الأبدية الإلهية بل ينبغي أن ننظر إلى الشيء الموجود المخلوق في زمانه, ثم لا مانع عقلا من أن تتعلق به إرادة الله الأبدية على أن يكون حيث كان في زمن من الأزمان.
لقد كان مفهوم البساطة الأبدية الباقية عند أرسطو, غير مفهومها الذي لمسناه اليوم لمسا في هذه الكائنات الأرضية _ السفلية _ فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا, غير مفهومه الذي جعله أرسطو أشبه شيء بالعدم المطلق وغير عامل ولا مريد ولا عالم بسوى النعمة والسعادة .. قانع بأنه منعم سعيد.

وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل: هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفي أن يسمو بالكمال الأعلى فوق مرتبته التي يستلهمها المسلم من عقيدة دينه؟
تقول عن يقين: كلا؛ فإن الله في الإسلام إله صمد لا أول له ولا آخر, وله المثل الأعلى, فليس كمثله شيء, وهو محيط بكل شيء.

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل: هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية في مذهب التنزيه؟
والجواب: كلا, بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة إذا قيست بالقياس الفلسفي الصحيح؛ لأن صفات الإله التي تعددت في عقيدة الإسلام لا تعدو نفيا للنقائص التي لا تجوز في حق الإله, وليس تعدد النقائص مما يقضي بتعدد الكمال المطلق الذي ينفرد ولا يتعدد. فإن الكمال المطلق واحد, والنقائص كثيرة ينفيها جميعا ذلك الكمال الواحد وما إيمان بأن الله عليم قدير فعال لما

يريد كريم رحيم, إلا إيمانا بأنه جل وعلا قد تنزه عن نقائص الجهل والعجز والجحد والغشم, فهو كامل منزه عن جميع النقائص, ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق, ويريد لخلقه ما يشاء, ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك العزلة السعيدة التي توهمها أرسطو مخطئا في التجريد والتنزيه, فهو سعيد بنعمة كماله, سعيد بنعمة عطائه, كفايته لذاته العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود في الزمان, أي من ذلك الوجود المحدود الذي لا يغض من وجود الله في الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل.

ومن صفات الله في الإسلام, ما يعتبر ردا على فكرة الله في الفلسفة الأرسطية, كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية.

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها, ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه, والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته, ويجل عن علم الكليات والجزئيات, لأنه يحسبها من علم العقول البشرية, ولا يعني بالخلق رحمة ولا قسوة. لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه. ولكن الله في الإسلام عالم الغيب والشهادة.
قال تعالى: "وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ" يونس : 61.
"وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" يس : 79.
"وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ" المؤمنون : 17.
"وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" الأعراف : 89.
"أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ" الأعراف : 54.
"عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" الملك : 13.
وهو كذلك مريد وفعال لما يريد.
قال تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ" المائدة : 63.
وفي هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات, كما جاء في أقوال بعض المفسرين, ولكنها ترد على كل من يغلون إرادة الله على وجه من الوجوه, ولا يبعد أن يكون في يهود الجزيرة من يشير إلى رواية من روايات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة فجاء فيه من: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" الحج : 16.

وأشار إلى الدهر بين فجاء في سورة الأنعام: "وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" الأنعام : 29.

وجاء في سورة الجاثية: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" الجاثية : 24.

فكانت فكرة الله في الإسلام, هي الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة في هذه العقائد الدينية وفي المذاهب الفلسفية التي تدور عليها؛ ولهذا بلغت المثل الأعلى في صفات الذات الإلهية, وتضمنت تصحيحا للضمائر وتصحيحا للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس.

ومن ثم كان فكر الإنسان من وسائل الوصول إلى معرفة الله في الإسلام, وإن كانت الهداية كلها من الله.

ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام: أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات. وقد جاء الإسلام بالقول الفصل في مسألة البقاء والفناء. فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفاني صورة أقرب إلى الفهم من صورتيهما في العقيدة الإسلامية, لأن العقل لا يتصور وجودين سرمديين, كلاهما غير مخلوق, أحدهما مجرد والآخر مادة, وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لها انتهاء.
ولكنه يتصور وجودا أبديا يخلق وجودا زمانياً.
وقديما قال أفلاطون وأصاب فيما قال: إن الزمان ليس محاكاة للأبد. لأنه مخلوق والأبد غير مخلوق.

فبقاء المخلوقات بقاء في الزمن, وبقاء الخالق بقاء أبدي سرمدي لا يحده الماضي والحاضر والمستقبل, لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال في تصور أبناء الفناء, ولا تجوز في حق الخالق السرمدي حركة ولا انتقال.
فالله هو: "الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ" الفرقان : 57.
"وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ" المؤمنون : 80.
و"كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ" القصص : 88.

وأيا كان المرتقى الذي ارتفع إليه تنزيه الفكرة الإلهية في مذهب أرسطو كما شرحناه بعض الشرح, أو مذهب أساتذة أفلاطون كما أومأنا إليه بعض الإيماء, فهذا التنزيه الفلسفي كاد أن يكون خيالا جامحا بالنسبة إلى العقائد الإلهية التي كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان.

فلا شك أن صورة جوبيتر رب الأرباب عندهم, كانت أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين, ولو لم يبلغ وصف التنزيه عندهم نصيبا ملحوظا من الكمال.
كان جوبيتر حقودا لدودا, مشغولا بشهوات الطعام والغرام, لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعنيه على حفظ سلطانه والتمادي في طغيانه, وكان يغضب على أسقولاب إله الطب, لأنه يداوي المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية, وكان يغضب على برومثيوس إله المعرفة والصناعة, لأنه يعلم الإنسان أن يستخدم النار في الصناعة, وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب, وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلم يقنع بموته ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة, بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له, فقيده إلى جبل سحيق, وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار, حتى إذا جن الليل عادت سليمة في بدنه, لتعود الجوارح على نهشها بعد مطلع الشمس ... ولا يزال هكذا دواليك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء. ومما رواه الشاعر الفيلسوف هزيود عن علة غضب الإله على برومثيوس أنه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة الأرباب, فأكثر فيه من العظام, وأقل فيه من اللحوم الشحوم, فاعتقد جوبيتر أنه يتعالم عليه بمعرفته وفطنته, لأنه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة, لم يشتهر بها الإله الكبير, ولا يغيب عنا ونحن نروي أخبار الإله الكبير منقولة عن هزيود أن هذا الشاعر الفيلسوف, قد

اجتهد قصارى اجتهاده في تنزيه جوبيتر وتصويره للناس في صورة من القداسة والعظمة, تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئا ما في ديانة اليونان الأقدمين.

ومما رواه الرواة المختلفون عن جوبيتر أنه كان يخادع زوجته هيرة ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس في مطلعها, حذرا من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار, ومفاجأته بين عشيقاته على عرش الأولمب.. وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه جانمييد راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء, فاختطفه وصعد به إلى السماء. فلم يتنصل جوبيتر من تهمة الشغف بساقيه, ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه.

ومثل الأمم القديمة كمثل اليونان في بعد الفارق بين صورة الإله في حكمة الفلاسفة, وبين صورته في شعائر الكهان والمتعبدين.

فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعابدها على طوائف من الأرباب: منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة, ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب, وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا إليه بالبغاء المقدس وسفك الدماء.

وقد انتهت هذه الأرباب المتعددة إلى الثالوث الأبدي الذي اشتمل على ثلاث من الصور الإلهية, هي الإله براهما في صورة الخالق, والإله فشنو في صورة الحافظ, والإله سيفا في صورة الهادم. فجعلوا الهدم والفساد من عمل الإله الأعلى الذي يتولاه حين يتشكل لعباده من تلك الصورة. وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل إله قرينا يسمونه الشاكتي أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون إليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو صاحبها.

فهذه الأرباب صور لا تتباعد المسافة بينها وبين صور الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة المعهودة في أقدم الديانات, فإذا ارتفعنا في معارج التنزيه والتجريد بلغنا منها ذروتها العليا في صورتين مختلفتين: إحداهما صورة الكارما والصورة الأخرى النرفانا وكلتاهما تحسب من قبيل المعاني الذهنية, وقل أن توصف بوصف الذات الإلهية. فالكارما هي القدر الغالب على جميع

الموجودات ومنها الآلهة وأفلاك السماء, وهذا القدر هو في الواقع حالة من الحالات العامة, يمكن أن نعبر عنها بأنها هي ما ينبغي أو هي الوضع الحاصل على النحو الأمثل, فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتا إلهية معروفة الصفات, ولكنه مرادف لكلمة الإنبغاء أو كلمة الواجب كما وجب في الحوادث والموجودات.

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما, إلا أنها إلى العدم أقرب منها إلى الوجود, لأنها الحالة التي تنتهي إليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود, وتتجرد من شواغل الأجساد وشواغل الأرواح على السواء, وتتساوى أرواح الآلة وأرواح البشر في حالة النرفانا هذه, كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود.

ولسنا نريد في هذه الصفحات القليلة, أن نتتبع صورة الإلهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الأولى, وإنما نجتزئ منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتقت إليه من التنزيه, وفيما هبطت إليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه, ولهذا يغنينا عن الاسترسال في شرح عادات الأقدمين أن نضيف إلى ما تقدم مثلا آخر يتمم أمثلة اليونان والهند, وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة إلى عهد الديانات الكتابية, وهي أي الديانة المصرية القديمة أرفع الديانات فيما نعلم ترقيا إلى ذروة التوحيد والتنزيه, وإن كانت في عبادتها الشائعة تهبط أحيانا إلى مهبط الديانات الغابرة من عبادة الطواطم والأنصاب, وعبادة الأرواح الخبيثة والشياطين. بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتنزيه في ديانة آتون التي بشر بها الفرعون المنسوب إليه إخناتون.

ويؤخذ من صلوات إخناتون المحفوظة بين أيدينا, أنه كان يصلى إلى خالق واحد, يكاد يقترب في صفاته من الإله الخالق الذي يلي له العارفون من أتباع الديانات الكتابية, لولا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس, فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزا ومرادفا لاسمه في معظم الصلوات.

هذه الشواهد من التاريخ القديم, شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتفصيل, وهي مغنية في الدلالة على المدى الذي وصل إليه تنزيه الفكرة الإلهية في أمم التاريخ القديم جميعها, لأنها تدل على

ما وصلت إليه الفكرة الإلهية المنزهة في أرفع الحضارات الأولى, وهي الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية.

وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الإلهية عند الأقدمين, أنه كان تنزيها خاصا مقصورا على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الأسرار الدينية.

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك؛ أنه تنزيه لم يسلم في كل آن من ضعف يعيبه عقلا, ويجعله غير صالح للأخذ به في ديانات الجماعة على الخصوص.

ففي الديانة المصرية, لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية, ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الأثر في عبادة آتون.

وديانة الهند لم تعلم الناس الإيمان بذات الإلهية معروفة الصفات, وليس في معبوداتها أشرف من الكارما والنرفانا, وهما بالمعاني الذهنية أشبه منها بالكائنات الحية, وإحداهما وهي النرفانا إلى الفناء أقرب منها إلى البقاء.

والتنزيه الفلسفي الذي ارتقت إليه حكمة اليونان في مذهب أرسطو, يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق, ويخرج لنا صورة للإله لا تصلح للإيمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح.

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الإلهي مبلغه الذي جاءت به الديانة الإسلامية, صالحا للإيمان به في العقيدة الدينية وصالحا للأخذ به في مذاهب التفكير.

والديانة الإسلامية كما هو معلوم ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية مكانها في علم المقارنة بين الأديان مرتبط بمكان الديانتين الأخريين وهما الموسوية والمسيحية, وتجري المقارنة بين الإسلام وبينهما فعلا في كتابات الغربيين, فلا يتورع أكثرهم من حسبان الإسلام نسخة مشوهة أو محرفة من المسيحية أو الموسوية.

والمسألة بعد مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة, لا تحتمل الجدل الطويل في ميزان النقد والمقارنة؛ وإن احتملته في مجال الدعوة والخصومة العصبية , ولا حاجة في المقارنة بين هذه الديانات إلى أكثر من ذكر العقيدة الإلهية في كل منها المعلم الصحيح بمكانها من التنزيه في حكم الدين وحكم المعرفة النظرية.

إن المراجع التي تلقينا منها عقائد العبريين كما يدين بها أتباع الموسوية إلى يومنا هذا, مبسوطة بين أيدي جميع القادرين على مطالعتها في لغاتها الأصلية أو لغاتها المترجمة, وأشهرها التوراة والتلمود. فصورة الإله في هذه المراجع من أوائلها إلى أواخرها هي صورة يهوا إله شعب إسرائيل.

وقد وصفوه في كتبهم المقدسة, فقالوا عنه مرة: إنه يحب ريح الشواء, وقالوا عنه مرة أخرى: إنه يتمشى في ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها, وقالوا عنه غير هذا وذاك. إنه يصارع عباده ويصارعونه, وإنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده, وغيروا ردحا من الدهر وهم يسوون بينه وبين عزازيل شيطان البرية, فيتقربون إليه بذبيحة, ويتقربون إلى الشيطان بذبيحة مثلها.

وجمد العبريون على عقيدتهم الإلهية, فظل يهوا إلها عبريا, يستأثر به أبناء يعقوب ابن إسحاق, ولا يرجو الخلاص بمعونة منه إلا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده, فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عصر الميلاد المسيحي, ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء إسرائيل المحافظين على عقيدتهم الأولى؛ بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين في الدين اليهودي, وقام به من بينهم رسول مغضوب عليه في شرعتهم منهم بالمروق من زمرتهم, وهو عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه.

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الأول مختصا بها بني إسرائيل دون سواهم من العالمين, وذكرت لنا الأناجيل تفصيل الحوار الذي دار بين المسيح وبين المرأة الكنعانية التي توسلت إليه أن يخرج الشيطان من ابنتها, فروى إنجيل مرقص في الإصحاح السابع:

(أن امرأة بابنتها روح نجس, سمعت به, فأتت وخرت عند قدميه, وكانت المرأة أممية أي من أبناء الأمم غير الإسرائيلية وفي جنسها فينيقية سورية, فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها, وأما يسوع, فقال لها: دعي البنين أولا يشبعون؛ لأنه ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب, فأجابت وقالت له: نعم يا سيد, والكلاب أيضا تحت المائدة تأكل من فتات البنين, فقال لها: لأجل هذه الكلمة, اذهبي قد خرج الشيطان من ابنتك ....)
ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء في الإصحاح الخامس عشر من الإنجيل المنسوب إليه:

إن السيد المسيح (خرج من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيداء, وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدا. فلم يجيبها بكلمة. فتقدم تلاميذ وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا, فأجاب وقال: لم أرسل إلى إلا خراف بني إسرائيل الضالة, فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعني. فأجاب وقال: ليس حسن أن يؤخذ خبز البنين ويطرح الكلاب, فقالت: نعم يا سيد. والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها, حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة. عظيم إيمانك, ليكن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة)

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التلاميذ في الإنجيل, أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاص بني إسرائيل بدعوته, ولم يتحول عنهم إلى غيرهم إلا بعد إصرارهم على رفضه ولجاجتهم في إنكار رسالته, فوجد بعد اليأس منهم أنه في حل من صرف الدعوة عنهم إلى الأمم المقيمة بينهم, وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذي أقام وليمة العرس في داره, وأرسل الدعوة إلى ذويه وجيرانه, فتعللوا بالمعاذير والشواغل ولم يستجيبوا لدعوته, غير معرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم, حتى امتلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن اختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها.
ويلاحظ في قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود, وأن عقيدة العبريين لم تزل آمالهم بالخلاص على يد رسول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم.

ومضى عصر المسيح, وجاء بعده عصر بولس الرسول, وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة إبراهيم الخليل باقية مسلمة بين العبريين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد, وإنما أضيف إليها تفسير جديد لهذه البنوة, وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجسد, ولا فارق فيها بين من يحيون سنة إبراهيم الخليل من العبريين أو من الأميين الذين يسميهم العبريين بالجوييم. أي القوم الغرباء.

فالعقيدة الإلهية كما دان بها العبريون وجمدوا عليها إلى عصر الميلاد؛ إنما هي عقيدة شعب مختار بين الشعوب في إله مختار بين الآلهة, وليس في هذه العقيدة إيمان بالتوحيد, ولا هي مما يتسع لديانة إنسانية, أو مما يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للإيمان بالإله الذي يدعوا إليه الإسلام.

ثم تطورت هذه العقيدة الإلهية بعد ظهور المسيحية, فانتقلت من الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في الجسد, إلى الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في الروح, وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول, واتصلت المسيحية بالأمم الأجنبية وفي مقدمتها الأمة المصرية, فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة إلهية جديدة في مذهب العبريين؛ وهي عقيدة الثالوث المجتمع من الأب والابن والروح القدس, وفحواها: أن المسيح المخلص هو ابن الله, وأن الله أرسله فداء لأبناء آدم وحواء, وكفارة عن الخطيئة التي وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة في الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها.

وظهر الإسلام وفحوى العقيدة الإلهية كما تطورت بها الديانة المسيحية: أن الله الإله واحد من أقانيم ثلاثة هي: الأب والروح القدس والابن, وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم, وهو ذو طبيعة إلهية واحدة في مذهب فريق من المسيحيين, وذو طبيعتين إلهية وإنسانية في مذهب فريق آخر.

ومن البديهي أن الباحث الذي يريد تطبيق علم المقارنة بين الأديان على المسيحية والإسلام, مطالب بالرجوع إلى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الإسلام في الجزيرة العربية, فلا يجوز لأحد من هؤلاء الباحثين, أن يزعم أن الإسلام نسخة محرفة من المسيحية؛ إلا إذا اعتقد

أن نبي الإسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها في بيئته العربية, وفيما اتصل به من البيئات الأخرى حول جزيرة العرب. ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية في سائر البيئات ومختلف العصور, فالعقيدة المسيحية التي يجوز لصاحب المقارنة بين الأديان أن يجعلها قدوة للإسلام, إنما هي عقيدة المسيحيين في الجزيرة العربية وما حولها, وقد وصف جورج سيل مترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية حالة المسيحيين في الحجاز وفي سائر الأنحاء القريبة منه, فقال ما ننقله من ترجمة مقدمته للقرآن:

(إنه من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد, قد اضطر كثيرين من أنصارها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلبا للحرية, وكان معظمهم يعاقبه, فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة. وأهم القبائل التي تنصرت: حمير وغسان وربيعة وتغلب, وبهراء, وتنوخ, وبعض طيء, وقضاعة, وأهل نجران, والحيرة.. ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد أنه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة, لتنتظم بهم سياسة الكنائس, وقد تقدم ذكر أسقف ظفار, وقال بعضهم: كانت نجران مقام أسقف, وكان لليعاقبة أسقفان؛ يدعى أحدهما: أسقف العرب بإطلاق اللفظ, وكان مقامه باكولة وهي الكوفة عند ابن العبري, أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبي الفداء وثانيهما يدعى: أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة. أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم)

إلى أن يقول:

(أما الكنيسة الشرقية, فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوي مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضي, وانتقض حبلها بمحاكاة الأريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع. على أن الذي ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتي النساطرة واليعقوبية, كانت بأن تدعه اختلافا في التعبير عن المعتقد, أولى من أن تدعى اختلافا في المعتقد نفسه, وبأن تدعى حجة يتغلب بها كل من المتناظرين على الآخر, أولى من أن تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة, يتردد إليها جماعة القساوسة والأساقفة, ويتماحكون, ليعلي كل واحد منهم كلمته, ويحيل القضايا إلى هواه. ثم إن نافذي الكلمة منهم وأصحاب المكانة في قصر الملك, كان كل واحد منهم يختص نفراً من قواد الجيش. أو من أصحاب الخطب, يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم, وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى, و النصفة تباع وتشترى جهارا. أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من

تهالك دماسوس وأرسكينوس, في المشاحنة على منصة الأسقفية _ أي أسقفية روما _ ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة, وسفك الدماء بين حزبيهما. وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من القياصرة أنفسهم, ولا سيما القيصر قسطنطينوس, فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز, ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية. هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب. أما في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا, فلم تكن خيرا من ذلك. فكان كفي نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنشر معه في اليوم الآخر, وقيل إن أوربيجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب, وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها!! فمن ذلك بدعة كان أصحابها بألوهية العذراء مريم, ويعبدونها كأنما هي الله, ويقربون لها أقراصها مضفورة من الرقاق يقال لها: كليرس, وبها سمي أصحاب هذه البدع كليرين. وفضلا عن ذلك, فقد اجتمع أيضا في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء, لجأوا إليها هربا من اضطهاد القياصرة ....)

كانت عقائد الفرق المسيحية في جزيرة العرب, وفي العالم المترامي حول جزيرة العرب, على هذا النحو الذي وصفه رجل متعصب على الإسلام, لا يتهم بمحاباته, ولا يظن به أنه يتجانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها, ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو, لم تكن مما يغري بالإعجاب, أو مما يدعو إلى الإقتداء. ومن الواضح البين أن موقف الإسلام, كان موقف المصحح المتمم, ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية.
فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك, منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب, منزه عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية.

فالله الذي يؤمن به المسلمون, إله واحد لم يكن له شركاء, و"سبحانه عما يشركون"
وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة, ولكنه هو رب العالمين خلق الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى, فلا فضل بينهم لعربي على أعجمي, ولا لقرشي على حبشي, إلا بالتقوى.

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" الحجرات : 13

وهو واحد أحد: "لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" الإخلاص : 3-4

لا يأخذ إنسانا بذنب إنسان, ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت, و لا يدين العالم كله بغير نذير.
"وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" الزمر : 7

"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" البقرة : 134

"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً" الإسراء : 15

ودينه دين الرحمة والعدل, تفتتح كل سورة من كتابه باسم الله الرحمن الرحيم
"وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ" فصلت : 46

"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ" الحديد : 3

"وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" الأنعام : 80

"وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" يس : 79

وللباحث في مقارنات الأديان؛ أن يقول ما يشاء عن هذا الإله الواحد الأحد, رب العالمين, ورب المشرقين والمغربين, إلا أن يقول: إنه نسخ مستمدة من عقائد عرب الجاهلية, أو عقائد الفرق الكتابية التي خالطت عقائد الجاهليين على النحو الذي وصفه جورج سيل في مقدمته لترجمة القرآن الكريم, فإن العقيدة الإلهية التي تستمد من تراث الجاهليين؛ لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية, ولا مفخرة أظهر من مفاخر الأحساب, ولن تخلو من لوثة الشرك, ولا من عقابيل العبادات التي امتلأت بالخبائث, وحلت فيها الرقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات.

ومعجزة المعجزات؛ أن الإسلام لم يكن كذلك, بل كان نقيض ذلك في صراحة حاسمة جازمة, لا تأذن بالهوادة ولا بالمساومة, فما من خلة كانت أبغض إليه من خلة العصبية الجاهلية, والمفاخرة الجاهلية, والتناحر الجاهلي على فوارق الأنساب والأحزاب.

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذي ينكر العصبية.
ومن جوف بلاد القبائل والعشائر, خرج الدين الذي يدعو إلى إله واحد رب العالمين. ورب المشرق والمغرب, ورب الأمم الإنسانية جمعاء, بغير فارق بينها؛ غير فارق الصلاح والإيمان.

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الأديان في الغرب يطلقون نعوتهم على الإسلام سماعا _ فيما يظهر _ من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التي لا يبدو منها أنهم كلفوا عقولهم جدا وقحا, أن تلم إلمامة واحدة بهذا الدين في جملة أو تفصيل.

ففي كتاب من أحدث الكتب عن أديان بني الإنسان, ألفه أستاذ للفلسفة في جامعة كبيرة, يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات _ بعد الإشارة إلى السيف والعنف والاقتباس من النصرانية والصائبية والمجوسية _:
(إن محمداً أسبغ على الله _ ربه _ ثوبا من الخلق العربي, والشخصية العربية ...)

ويقول المؤلف:
(إن الحقيقة التي أقررها هنا, تتجلى للباحث كلما تقدم في دراسة هذا الدين العربي وهذه الشخصية الإلهية العربية)

بهذا النعت التقليدي ينعت المؤلف إله الإسلام, بعد أن تقدم في دراسته على حد قوله. فماذا كان عساه قائلا لو أنه لم يسمع باسم الإسلام إلا على الإشاعة من بعيد؟!

لعله لم يكن بحاجة إلى التقدم وراء البسملة في سورة الفاتحة: ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين, وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه.

ولعله كان يحسن المقارنة جدا, وحقا, لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات إله الإسلام, وقارن بينهما وبين دين الصفات التي يختارها غير المسلمين, فلا يذكرون الله في مفتتح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت.

فالله رب العالمين, مالك يوم الدين, لم يكن نسخة محرفة من صورة الله في عقيدة من العقائد الكتابية _ كما زعموا _ بل كان هو الأصل الذي يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة في الإله, كأكمل ما كانت عليه, وكأكمل ما ينبغي أن يكون.
ومن ثم كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام, مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات, أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية.

فهي عقيدة كاملة, صححت وتممت عقيدة الهند في الكارما والنرفانا؛ لأنها عقيدة في خواء, أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

وهي عقيدة كاملة, صححت وتممت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين؛ لأنه كان على خطأ: في فهم التجريد والتنزيه, ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق كالعدم المطلق في التجرد من العمل, والتجرد من الإرادة.

ودين يصحح العقائد الإلهية, ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها؛ تراه من أين أتى, ومن أي رسول كان مبعثه ومدعاه؟
من صحراء العرب.

ومن الرسول الأمي بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات.
إن لم يكن هذا وحيا من الله, فكيف يكون الوحي من الله؟!

ليكن كيف كان في أخلاد المؤمنين بالوحي الإلهي حيث كان, فما يهدي رجل أمي في أكناف الصحراء إلى الإيمان بالله, أكمل من كل إيمان تقدم, إلا أن يكون ذلك وحيا من الله. وإنه لحجر

على البصائر والعقول, أن تنكر الوحي على هذه المعجزة العليا؛ لأنه لا يصدق عليها في صورة من صور الحدس أو الخيال. انتهى كلام العقاد.

وبعد: فمن العجيب الغريب المضحك المبكي, أن نضطر لمقارنة عقيدة الإسلام في باب الربوبية, مع سخافات البشر في هذا الباب!!

أليس عجيبا أن نقارن ديانة فيها مثل هذا النص:
قال تعالى: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ" لقمان : 27
بداية تقول عن الله: بأنه يجامع, أو يصارع خلقه, ويكادون يغلبونه, أو أن له ولدا, أي وزوجة. مثل هذا الكلام التافه يمكن أن يقارن به ذلك الكلام العظيم؟!

إن أي نص عن الذات الإلهية في القرآن تدرسه, يدلك على أن هذا النص لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ذاته, كلاما ووحيا.

ولكن ما العمل إذا ألف الناس العمى لدرجة أنهم لا يحبون معه الإبصار؟!
لقد درسنا ظواهر الكون, فدلتنا على صفات الله, فلما عدنا إلى كتاب الله ازداد الفهم عمقا, وأدركنا من أبعاد الموضوع أكثر, ولا شك أنه لولا أننا مسلمون, قد استقرت في أذهاننا معرفة الله كأثر عن الوحي, ما سرنا في هذا البحث على مثل هذا السير. فدين يأخذ بيد العقل على هدى العلم؛ ليدله على أن يربط الفروع بأصولها, ويرجع بالأصول إلى مصدرها دين لا يمكن أن يكون إلا حقا.

إن هناك ناسا لا يسمعون ولا يعقلون ولا يفكرون, عقائدهم سخيفة, فإذا ما دعوا إلى مثل هذا الصفاء, وإلى مثل هذا المنطق الحكيم, رفضوه لأنهم درجوا على عقيدة خاطئة, وألفوها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث, فهؤلاء كما قال الله عنهم " إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم" الزخرف : 22. كل أصحاب عقيدة باطلة يقولون هذا: أفما ينبغي لهؤلاء أن يعيدوا

النظر؟! فالقضية ليس قضية خيار؛ وإنما هي قضية مصير الإنسان: إما إلى جنة, أو إلى نار ستحرقهم أبدا, إن لم يهتدوا.

إن الوثنين والمشبهين, والذين يعطون صفات الله لخلقه. إن الذين لم يعرفوا صفات الله العليا, وأسماءه الحسنى, ووجوده الكامل, وهيمنته الدائمة, وإمداده العظيم, وتدبيره لشؤون خلقه ابتداء وانتهاء. إن الذين لا يرون آيات الله في كل ما خلق. هؤلاء كلهم لا يعرفون الله.
إننا نحن المسلمين فقط نعرف الله حق المعرفة, وننزهه حق التنزيه, ونعبده حق العبادة, ومن قرأ الكتابين اللاحقين من هذه السلسلة الرسول, الإسلام سيرى حقا عجبا, لا يمكن أن يكون, لولا أن الله عز وجل, هو الذي أوحى, ويسر, وأراد ما أراد لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم وبهذا الدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
تم بحمد الله